الفنون الأدبية وأعلامها
في النهضة العربية الحديثة

تأليف

أنيس المقدسي

أستاذ شرف للأدب العربي في جامعة بيروت الأميركية
وعضو مجمع اللغة العربية بمصر والمجمع العلمي العربي بدمشق

دار العلم للملايين

دار العلم للملايين

مؤسّسة ثقافيّة للتأليف والترجمة والنشر

شارع مار الياس، بناية مَتكو، الطابق الثاني
هاتف: ٣٠٦٦٦٦ - ٧٠١٦٥٥ - ٧٠١٦٥٦ (٠١)
فاكس: ٧٠١٦٥٧ (٠١)
ص.ب ١٠٨٥ بيروت - لبنان
www.malayin.com

الطبعة السادسة

حزيران / يونيو ٢٠٠٠

الفهرست

عصر الروّاد

القصة في الاب الحديث

فن السيرة في الادب الحديث

فن النقد في الادب الحديث

دراسة ومراجع

فهرس الاعلام

كلمة تمهيدية

يتناول هذا الكتاب عرضاً عاماً للفنون النثرية في ادبنا الحديث . ولما كان البحث في هذا الموضوع واسع المجال لا يمكن حصره في مجلّد واحد ، فقد رأينا ان نقصر درسنا في كلّ فنٍّ على نخبة من اعلامه المشهورين، فنتعرّف اخبارهم وننظر في نتاج اقلامهم .

ولنا في ذلك هدفان — أولهما ان نلمّ بما بلغه تطور الصناعة الكتابية في هذا القرن ، والثاني ان نسجّل مـا لقادة الحركة الادبية فينا من ايادٍ بيضاء ، ولا سيما الذين منهم قد رحلوا الى دار البقاء .

والواقع ان كتابنا هـذا يدور بالاكثر على هؤلاء الاعلام الراحلين . أمـا الاحياء ، ومنهم اعلام متفوّقون ، فلم نتعرّض لترجمة سِيَرهم ، والحكم النهائي على ما لهم وما عليهم . فهم — اطال الله أعمارهم — لا يزالون في طور الانتاج . بيد اننا لم نتأخر عند الاقتضاء عن التنويه بآثيهم التي كان لها اثر بيّن في تجديد حياتنا الادبية ، وترقية فنوننا الكتابية .

وبرغم ما ذكرناه آنفاً من ان هذا الكتاب قد خصص لدرس الفنون النثرية في ادبنا الحديث فاننـا لم نتقيد بذلك في دراستنا لاعلام الروّاد . بل تجاوزناه الى الفن الشعري عنـد من اشتهر منهم بذلك وكان له ديوان مطبوع . وعذرنا ان الفنون النثرية لم تنضج في عهدهم ، ولم تبلغ مداها إلا على ايدي نخبة من الكتبة الذين نبغوا بعدهم .

وإذا كنا قد خصصنا للرواد قسماً كبيراً من بحثنا ، فلأنهم هم واضعو الأسس التي قام عليها صرح نهضتنا ، وهم الذين شقوا السبيل للأدب فجرى بعدهم على إرساله ، حتى بلغ ما بلغه من التقدم في شتى صوره وأشكاله .

وتشمل مباحث الكتاب ما يلي من الفنون : المقالة – والخطابة – والقصّة – والسيرة – والنقد، وما لكل فن من اعلام عُرفوا به وشُهد لهم بالتقدم فيه .

والمؤلف يعترف ان مثل هـذه المباحث لن تبلغ درجة يجوز الوقوف عندها . ولذا فهو يرحب بكل اقتراح او نقد بنّاء ، ويسعده جداً ان يكون في هذا الاقتراح او النقد مـا يساعده على اخراجه مرة اخرى بشكل اوفى بالمرام ، وأكثر فائدة للقراء الكرام .

بيروت في ٢٠ ايار ١٩٦٣ — أنيس المقدسي

عصر الرواة

والجو الذي نشأوا فيه

توطئة وبيان

من المعلوم ان العهد الذي عرفه رواد نهضتنا الحديثة هو عهد يقظة من سبات عميق طويل الى حياة جديدة بدأت انوارها تشع على الشرق منذ اوائل القرن التاسع عشر . والمتأمل في حياة العرب منذ ظهور الدعوة الاسلامية حتى الآن يستطيع ان يرى كيف تطورت تلك الحياة وكيف تقلبت بتقلب الحوادث . ففي عهد الخلفاء الراشدين خرج العرب من جزيرتهم فاتحين فمدوا سلطانهم شرقاً وغرباً. وما زالوا حتى انقضى ذلك العهد، واذا هم بقيادة الامويين اصحاب ملك ضخم قاعدته الشام . وفيها بلغوا اوج عظمتهم وقوتهم السياسية. فكانوا اصحاب السيادة في مملكة واسعة الارجاء تمتد من حدود الهند شرقاً الى الاندلس غرباً . ومنذ ذلك الحين اخذت لغتهم العربية تتغلب على سائر اللغات الاعجمية في البلدان التي افتتحوها، ولم تلبث ان اصبحت لغة الدواوين الحكومية في العالم الاسلامي. وهكذا تهيأت لتخطو خطوة اخرى في سبيل التقدم والعمران . فلما تحول الملك الى العباسيين كانت العربية قد اخذت تتوطد في مختلف الاقاليم . ولم يمض الا قليل حتى نقلت اليها علوم الاقدمين، فاصبحت بفضل اهل الفكر والبحث من عرب ومستعربين لغة العلم الرئيسية في العصور الوسطى .

ولكن الزمان لم يثبت على ولائه للعرب، فلم تكد الخلافة الاسلامية تستقر في بغداد بعد زوال العهد الاموي ، حتى بدأت السيادة العربية تتقلص رويداً رويداً. ومع الزمن حل محل العرب في العالم الاسلامي عناصر اخرى من فارسية وتركية وسواها ولم يبق من اثر لسيادة العرب الا لغتهم التي ظلت زمناً طويلاً – رغم تغلب العناصر الاعجمية من الناحية السياسية والحربية – محافظة على مكانتها ونفوذها. الا انها هي الاخرى لم تعتم ان خضعت لمؤثرات الزمن فاخذت تفقد تدريجياً مجدها . وما زالت حتى استبدت بها اخيراً عوامل الضعف فهوت الى الحضيض فاقدة ما كان لها من نشاط لغوي وادبي وعلمي . وعلى هذه الحال أدركها رواد نهضتنا في مطلع القرن التاسع عشر .

ويتفق المؤرخون والرحالون الذين عرفوا العالم العربي في القرن الماضي على وصفه بالانحطاط الشامل سواء في ذلك الاقاليم الآسيوية وغير الآسيوية .

ومعلوم ان القطر الشامي (سوريا ولبنان) هو منشأ اكثر الرواد في ذلك العهد، وان يكن بعضهم قد نشأ في القطر المصري. ولذا رأينا أن نلتفت بالأكثر الى البيئة الشامية للاطلاع على الجو الذي نشأوا فيه ، وخصوصاً ان الحياة العمومية في القطرين كانت تقريباً على مستوى واحد . فالجهل فيهما كان عاماً . والحضارة لم تكن قد مدت رواقها . والفرق بينهما ان مصر منذ ان توطد حكم محمد علي فيها اخذت تكوّن لنفسها شخصية سياسية مستقلة عن الدولة العثمانية . وقد اقتضت سياسة ذلك الحاكم ان يسعى في اعداد رجال ذوي كفاءة عملية للقيام بمهام حكومته . فأسس المعاهد اللازمة لذلك، وارسل البعثات الى اوروبا لدراسة العلوم المختلفة. وهكذا احدث نهضة علمية تذكر له . على أننا اذا قابلنا هذه النهضة بنهضة القطر الشامي ابّان القرن الماضي جاز لنا ان نقول ان الاولى كانت حكومية وللحكومة ، واما الثانية فكانت شعبية وقد قامت بتأثير الارساليات الاجنبية .

فلما توفي محمد علي حدث ركود في الحركة العلمية بمصر. واستمر هذا الركود حتى

عهد الخديوي اسماعيل ، في حين ان الحركة العلمية في القطر الشامي (ومركزها الرئيسي بيروت) ظلت سائرة دون توقف . فاستطاعت ان تزوّد مصر بعدد من ارباب الاقلام والفنون الادبية منذ عهد اسماعيل حتى الحرب العالمية الاولى .

اما بعد هذه الحرب فقد تقدمت مصر حتى اصبحت صاحبة الزعامة الادبية في البلاد العربية. ولا تزال في الطليعة وان يكن لبنان او سواه قد اخذ يجاريها في هذا الميدان .

ولا بد لنا هنا من ان نوضح ما الذي دفعنا الى ان نؤثر استعمال عبارة «البيئة الشامية» على ما يعرف اليوم بسوريا ولبنان والاردن وفلسطين . ذلك لان عصر الرواد (القرن التاسع عشر) لم يعرف ما نعرفه نحن اليوم من هذه الدول التي نشأت عقب الحرب العالمية الاولى . فلم يكن هناك عند التحقيق من ادب سوري وآخر لبناني او اردني او فلسطيني ، اذ كانت هذه الاقاليم متشابكة بنوع من الوحدة الجنسية والسياسية . فكان الاديب مثلاً يولد في احدى قرى الجبل اللبناني ثم يقضي معظم حياته في بعض المدن كبيروت وطرابلس وصيدا ويصبح منتمياً اليها. وقد يكون حلبي المولد فيصبح بيروتياً. أو بيروتي المولد فيصبح نابلسياً او قدسياً او دمشقياً او غير ذلك . وبكلمة اخرى لم يكن في القرن الماضي حدود للادب في هذه البقعة التي تشمل الآن سوريا ولبنان والاردن وفلسطين . ولما كانت كلمة الشام او الشآم تطلق من قديم الزمان على هذه البقعة رأينا منعاً للالتباس ان نستعملها نحن ايضاً في كلامنا على عصر الرواد .

الجو السياسي

كان القطر الشامي في القرن التـــاسع عشر جزءاً من السلطنة العثمانية (او التركية) ، كما كانت مصر والعراق والحجاز وسواها من الاقطـــار العربية . والذي يلاحظه المتأمل في وضع تركيا يومئذ ان هـذه الدولة التي كانت تضم القسم الاكبر من شرقي أوروبا ، فضلاً عن ممتلكاتها الواسعة في آسيا وافريقيا — هذه الدولة على قوتها يومئذ لم تستطع ان تجاري تطور الزمن وعوامل الارتقاء. فبينا نرى دول الغرب قد اخذت منذ ذلك الحين تسير في طريق التقدم المـادي والفكري وتحاول الانتفاع من التجارب العلمية والفنية المستحدثة، نرى تركيا قد توقفت مكتفية بما احرزته من توسع يوم كان التوسع قائماً على أساليب الحرب القديمة ، وظلت تعيش بنجوة من تيار الحضارة المندفع الى الامـام . وهكذا تسربت اليها عوامل الضعف ففقدت مع الزمن سطوتها الحربية ومكانتها السياسية. ولم يبزغ فجر القرن التاسع عشر حتى كانت قد اصبحت واهنة القوى يسودهـا الاضطراب ويهددها الانحلال . فلا غرابة ان يطمع فيهـا الطامعون او ان تتقد في اطرافها نيران الفتن والثورات الاستقلالية . وهذا ما حدث فعلاً في ممتلكاتها الاوربية مما افقدها اليونان وبلغاريا ورومانيا والصرب والجبل الاسود وسواها .

واذا هي خلال النصف الاول من القرن الماضي اشبه بطائر قد قص احد جناحيه (إلا اقله) نعني الجناح الاوربي ، ولم يبق له الا جناح واحد يستطيع الاعتماد عليه وهو الاقاليم الآسيوية وبعض الافريقية. على ان هذه الاقاليم ايضاً لم تكن على ما يرام. فالاقطار العربية عموماً لم تكن تحكم من قبل الدولة العثمانية حكماً حازماً منظماً اذ طغت عليها اقطاعية مستبدة وساد عليها فساد اداري مرهق . ولم يكن من هم للاقطاعيين الا حلب الرعية اشباعاً لانفسهم وارضاء لأولي الامر في الاستانة . فكأن الشعب ليس الا غنماً يرعى ليجزّ صوفه ويؤكل لحمه او يدرّ لبنه. ويصدق ذلك بنوع خاص على سوريا ولبنان. فقد بلغ العبث الاداري بها ان كان السلطان العثماني يطلق فيها ايدي الاقطاعيين[1] . فيحكمون رعاياهم حكماً مطلقاً لقاء ما يدفعونه له من اموال او ما يقدمونه له من مساعدات . وقد وصفهم ميخائيل مشاقة وهو من اهل ذلك العهد العارفين به حق المعرفة فقال : « كانوا يحكمون الرعية بالجور والعسف ويسومونهم الذل انواعاً والظلم اشكالاً ، وشريعة الرجل منهم (اي الاقطاعيين) ارادته السخيفة . والحاكم يقتل ويشنق ويشوه اخلاق الشعب » الى قوله : « وكانوا لاهين بالمنازعات العائلية والحروب الاهلية ، يكرهون العدل ويعشقون الظلم لا يرحمون ضعيفاً ولا قريباً »[2]. وقد يكون في قول هذا الشاهد الخبير شيء من المبالغة او التعميم الذي يجوز تعديله ولكن اقوال اكثر المؤرخين العارفين تزكّيه وتصف الحالة العامة كما وصفها هو في كتابه « مشهد العيان بحوادث سوريا ولبنان » .

وفي مطلع القرن التاسع عشر مات اكبر اقطاعي عرفه القطر الشامي وهو احمد الجزار، وقد عانت منه البلاد الشامية افظع المظالم واشد الآلام. وكان في فظائعه وعذاباته الجهنمية لا يحابي كبيراً، ولا يفرق بين فئة واخرى. قال مشاقة : « انه على قبح اعماله حفظ المساواة بين الرعية مع تفرق مذاهبها فكان يحبس

(١) وفي لغة ذلك العهد « المقاطعجية » .
(٢) مشهد العيان (مصر ١٩٠٨) ٢٢ و٢٣ .

علماء المسلمين وقسوس النصارى وحاخامي اليهود وعقال الدروز سوية لا يفرق بينهم » [1]. ويظهر ان الدولة كانت راضية عنه تستخدمه لمآربها، ولا شك انه قد خدمها باخضاع الامراء والمشايخ الذين كانوا يتنافسون على الحكم في سوريا ولبنان ويسببون للدولة كثيراً من المتاعب . فاطلقت يده الحديدية في حكم الديار الشامية . فلما توفي سنة ١٨٠٤ كان نعيه كما يقول جميل بيهم « قاسياً على الباب العالي ولكنه كان ساراً للرعية ولا سيما امراء المقاطعات الذين كانوا بين اصابعه كتماثيل يتصرف بها كما يشاء » [2] .

وبذهاب تلك القوة التي كانت تكبح جماحهم تنفسوا جميعاً من امراء ومشايخ الصعداء وعادوا الى ما كانوا عليه من فتن ومظالم . فكان لبنان كما كان سائر القطر الشامي « نهب ايدي الطامعين من الولاة والمتسلمين يسيئون في الرعية الاستعمال ويعبثون بما خولتهم دار الملك من السلطة ، فيمثلون اعظم مظهر من مظاهر الحكم الاستبدادي الفردي الجاهل » [3] .

تلك كانت حالة البلاد يوم دخلها الجيش المصري سنة ١٨٣٠ بقيادة ابراهيم باشا . فكان دخوله بدء عهد جديد دام نحو عشر سنوات . ويشهد الذين عرفوا ذلك العهد واتصلوا بمن عرفوه انه كان عهد اصلاح واستقرار . قال محمد كرد علي: « وكان من أول اعمال ابراهيم باشا الجليلة في بلاد الشام ترتيب المجالس الملكية والعسكرية واقامة مجلس الشورى وغيرها من النظم الحديثة ، وترتيب المالية فجعل نظاماً لجباية الخراج ، ومعاملة الرعايا بالمساواة والعدل لا تفاوت في طبقاتهم ومذاهبهم. ولذلك لم يلبث الامراء والمشايخ وارباب النفوذ ان استثقلوا ظل الدولة المصرية وتمنوا رجوع العثمانيين ليعيشوا معهم كالحلمة الطفيلية التي تمتص دماء الضعفاء ، مع ان البلاد رأت في ايام ابراهيم باشا ابطال المصادرات وتقرير

---

١) مشهد العيان ٤٧

٢) راجع كتابه الحلقة المفقودة (١٩٥٠) ص ٥٢ .

٣) كرد علي – خطط الشام ٣ – ٤٠ .

حق التملك وتوطيد الامن في ربوعها [1]. ولم يدرك كرد علي عهد ابراهيم لكن قوله يطابق اقوال الذين ادركوا ذلك العهد كمخايل مشاقه في كتابه مشهد العيان المار ذكره [2] وهنري جسب المرسل الاميركي في كتابه «ثلاث وخمسون سنة في سوريا» [3].

ويقول الكولونيل تشارلس تشرشل في كتابه (الدروز والموارنة) Druzes and Maronites الذي نشره سنة ١٨٦٢ وكان يومئذ مقيماً في لبنان:

«في سنة ١٨٣٢ دخلت سوريا تحت حكم محمد علي فعهد الى ابنه ابراهيم باجراء الاصلاحات تنفيذاً لسياسته العامة. وقد لقي مقاومة شديدة من ارباب السيادة لما وضعه ونفذه من قوانين للمساواة بين المذاهب. ولكنه سار بحزم وعزم فقضى على كل مقاومة واخضع الجميع للنظام والعدل. ومنع التفريق بين المسلمين والمسيحيين وسواهم بزي او امتياز، وهكذا عم البلاد جو من الطمأنينة فاخذت تسير في طريق العمران والازدهار» [4]. واذا عرفنا ان هذا الكاتب انكليزي، وان دولته كانت معادية لسياسة ابراهيم باشا ادركنا قيمة شهادته في القائد المصري الكبير، كما ادركنا أيضاً شهادة انكليزي آخر هو المستر برانت قنصل بريطانيا في دمشق سنة ١٨٥٨ إذ قال: «لما كانت الايالة السورية تحت حكم محمد علي باشا عاد كثيرون الى سكن المدن والقرى المهجورة والى حراثة الاراضي المهملة كما ان نشاط ابراهيم وحزمه وطد الأمن ومد رواق الثقة» [5].

ومما لا ينكر ان ابراهيم باشا اضطر الى استعمال الشدة والقسوة والارهاب لتوطيد سياسته الاصلاحية وتنظيم الادارة في البلاد. على أن البلاد كانت على

(١) كرد علي – خطط الشام ٣ – ٥٧.
(٢) ص ١٢٥ و١٤٢
(٣) Fifty Three Years P. 60
(٤) تشرشل ٢٨.
(٥) خطط الشام لكرد علي ٣ – ٦٨.

العموم اسعد حالا من ذي قبل ، ولعلها لم تر منذ قرون ما رأت في ايامه من تقدم او من استقرار . وقد ترى من المؤرخين من يميل الى نقد سياسته. فهنري غيز (Henry Guys) مثلًا وهو ممن شهدوا ذلك العهد تراه مع اعترافه بمزايا ابراهيم الشخصية ينتقد ادارته ويعدد سيئاتها . ومن سيئاتها عنده ان الحكام الذين نصبهم لم يكونوا على شاكلته بل كانوا ظلاماً لا يهمهم غير تحصيل المال . ثم ان ادارته لم تكن تتمشى على نظام مقرر، بل كانت معرضة لعبث العمال دون مراقبة او محاسبة . ولم تكن مجالس القضاء تعطي الحق صاحبه . هذا فضلًا عن ارهاق الرعية بالضرائب. نعم تساهل مع اللبنانيين في اول الامر لأنهم ساعدوه ولكنه عاد فشدد عليهم الخناق . وكل ذلك خيب الآمال بحكم ابراهيم وقاد اخيراً الى الثورة على الاحتلال المصري .

هذه خلاصة المآخذ التي يأخذها عليه هذا المؤرخ [1] . وفيها ما هو حري بالنظر ، وخصوصاً في القسم الاخير من حكم ابراهيم وانما رأي المؤرخين العام من وطنيين واجانب يرجّح حسناته ويجعل منه مصلحاً اداريــاً ممن يضن بمثلهم التاريخ [2] .

فلما اضطر الجيش المصري الى الانسحاب من سوريا ولبنان عادت الحال الى ما كانت عليه قبلًا من فساد في الاحكام وتنازع بين الاقطاعيين واستبداد طائفي، والدولة تمشياً مع سياستها — فرق تسد — كانت لا تألو جهداً في اذكاء نار الفتن والدسائس تضرب هذا بذاك، وتساعد الواحد على الآخر حتى أصبحت الحالة اشبه بالفوضى لا امن ولا استقرار ولا نظام يحفظ حقوق الافراد والجماعات. وما زالت الاحوال تتدرج من سيء الى اسوأ وخصوصاً في لبنان ودمشق حتى

---

(١) راجع كتابه النسخة العربية ترجمة مارون عبود (ط ١٩٥٠) ص ١٦١ — ١٩٢ .

(٢) راجع «ابراهيم الفاتح» لعبد المنصف محمود (الطبعة الاولى) ١٧٩ ، وكتاب « ابراهيم باشا في سوريا ولبنان » ابو عز الدين ، وكتاب الأب لامنس Syrie (1921) II-157 ، وكتاب بيروت للاب شيخو ص ٩٦ .

انتهت بحوادث السنة الستين التي ذهب ضحاياها الوف من المسيحيين وسواهم في لبنان وسوريا . ويجمع الذين ارّخوا هذه الحوادث المشؤومة على ان للدولة التركية اليد الكبرى في تحريكها . ومها يكن فانها ولا شك راجعة الى سببين رئيسين هما : التعصب الطائفي الذميم ، وفساد الحكم التركي في ذلك الحين يضاف اليها سبب خارجي هام هو تنازع دول أوربا الكبرى واختلاف سياساتها بالنسبة الى الدولة العثمانية . فلا بدع ان نرى العقلاء يحاولون تلافي عواقبها بين المواطنين وفي مقدمتهم مرّبي الجيل بطرس البستاني الذي سعى بقلمه لنزع البغضاء من القلوب ، فنشر في الناس صحائف اسبوعية يحضهم فيها على تناسي الضغائن وإزالة اسباب الشر ، والعمل معاً كمواطنين يهمهم ترقية الوطن . وسنثبت في غير هذا المقام شيئاً من هذه الصحائف .

ومن الانصاف ان نذكر ان بعض السلاطين كانوا قد حاولوا احداث اصلاحات في نظام الحكم ، واصدروا بذلك قرارات كخط كلخانة ١٨٣٩ ، وفرمان ١٨٥٦ وغيرها . ولكن وضع اللوائح الاصلاحية شيء وتنفيذها شيء آخر . والواقع أن الاحوال السياسية في القطر الشامي عموماً لم تتغير بواسطة تلك الاصلاحات التي ظلت حبراً على ورق . وهكذا ظلت البلاد تتخبط في ظلام من الفساد وتعاني ضروباً من الشقاء حتى كان الانفجار سنة ١٨٦٠ .

وكان من نتائجه ان لبنان اصبح ايالة ذات استقلال اداري تام تحميها الدول الست العظمى . فخرج من محنته بفوز سياسي عظيم ، اذ قضي فيه نهائياً على النظام الاقطاعي ، واصبح يتمتع بالانتظام والامن والحرية . وما زال على هذه الحال حتى احتله الجيش التركي ابان الحرب العالمية الاولى .

والواقع أن الاقطاعية اخذت بعد حوادث السنة الستين تضعف وتموت ، لا في لبنان فحسب بل في سائر الانحاء الشامية . ومما ساعد على ذلك كثيراً تحسن طرق المواصلات ، واسباب المخابرات بين عاصمة تركيا - الاستانة - وسائر الحواضر في الدولة ، فالخطوط التلغرافية مثلاً التي أنشئت منذ ذلك الحين ، سهّلت على

الباب العالي ضبط الولايات ، وتنفيذ الارادات السنية بواسطة الولاة والمتصرفين الذين كانت الدولة تعينهم عادة من الاتراك (كانت اول برقيـــة ارسلت من بيروت الى الاستانة اول شباط (فبراير) سنة ١٨٦٣) [١] ، وكذلك قل في انشاء الطرق وغير ذلك من الاسباب التي قوّت السلطة المركزية ومكنتها من القضاء على كل حركة ثوروية او انفصالية . على أنه برغم كل ذلك لم يحدث في جهاز الدولة الاداري اصلاح اساسي كما كان الناس قد وُعدوا مراراً. ويعبر عن شعور الشعب وتلهفه للحصول على الاصلاح الموعود والمنشود مقال لسليم البستاني في العدد الاول من الجنان سنة ١٨٧٢ كتبه داعياً الى تنفيذ الارادة السلطانية باجراء الاصلاحات التي اعلنتها ويقول :

« كثيراً ما سمعنا حضرة مولانا السلطان وحضرة الصدر الاعظم يقولان ما معناه : إن المـــاضي كان مضطرباً وضعيفاً وخداعاً ، وأنه لا بد من اصلاح الولاة والمجالس والمحاكم وكل دوائر الحكومة . فالدولة كانت تعترف بالفساد السائد في الادارة . وقد خطت خطوة إلى الامام في سبيل التقدم ، ولكنها لم تنفذ جميع مـــا وعدت به ، ولم تزل البلاد في مسيس الحاجة الى الاصلاح الاداري الحقيقي » .

وفي السنة ١٨٧٦ رقي العرش السلطان عبد الحميد الثاني بعد أن وعد طلاب الاصلاح باعلان الدستور والنظام البرلماني. وفعلاً برّ بوعده في اول الامر، فأعلن الدستور وأنشىء أول مجلس نيابي في الدولة العثمانية . لكن عمر ذلك الدستور وذلك المجلس لم يطل اكثر من اربعة أشهر، عقبها عهد استبدادي مرهق دام اكثر من ثلاثين سنة، وهو المعروف بالعهد الحميدي. وفي اثنائه كمّت افواه الدستوريين وفرّ كثيرون منهم خارج تركيا. على ان روح الحرية لم تمت، بل ظلت حية في صدور الاحرار . وما زالوا يسعون حتى تمكنوا سنة ١٩٠٨ من حمل عبد الحميد على اعادة الدستور والحكم النيابي ففعل ذلك مرغماً . ثم بدر منه ومن اعوانه

١) Jessup. 1 - 2 , 65

ما اهاب بالدستوريين – وكان الجيش يناصرهم – الى خلع ذلك السلطان وتوطيد الدستور . وبخلعه حدثت في البلاد العربية وخصوصاً في سوريا والعراق هزة حبور اشترك فيها الشعراء والخطباء والكتاب معبّرين عما كانت البلاد تعانيه ايام عبد الحميد من بؤس وعناء كقول احد كبار السوريين[1] :

لقد هوى اليوم صرح الظلم وانتقضت   اركانه وتولت أهله النقم

وقول شاعر عراقي عاش في العهد الحميدي وذاق مرارته – وفي قوله اشارة الى فعل الجيش[2] :

وأسقط ذلك الجبار قهراً   وأنبأه بصارمه اليقينـا
فقرت أعين الدستور امناً   وشاهت أوجه المتمردينـا

وليس غرضنا في هذا المقام ان نؤرخ الخلافة العثمانية ، وما طرأ عليها بعد سقوط عبد الحميد ، ولكنه لا بد من القول إن هذا السلطان كان آخر سلطان قوي عرفته الخلافة العثمانية . وبرغم ما اشتهر به من الاستبداد المرهق للرعية ، كان العصر الذي ملك فيه عصر يقظة ادبية واجتماعية في العالم العربي . وسنشير الى ذلك بعد في كلامنا على الحالة الاجتماعية والفكرية في القرن الماضي .

والذي يجدر بنا ذكره هنا ، ما كان للوضع السياسي من علاقة بحياة رواد النهضة واتجاههم الفكري والادبي. ففي العهد الاقطاعي، أي قبل ان تصبح الحكومة المركزية في الاستانة ذات سلطة مباشرة فعالة في ادارة المقاطعات العربية ، كان الادب في سوريا ولبنان وسائر البلدان العربية يعيش على ابواب الامراء والمشايخ . ومثل هذا الادب قلّما كان يعنى بالشعب ومشاكله. ولكن اليقظة التي أحدثت منذ اوائل القرن الماضي ، لم تلبث أن اوجدت طبقة من المفكرين والادباء الذين كان اتجاههم بالاكثر نحو الحياة العامة . وسنرى بعد كيف ظهر هذا الاتجاه في الادب، وما كان له من أثر في نهضتنا الحديثة .

1) من قصيدة لفارس الخوري مطلعها : الله اكبر فالظلام قد علوا .
2) من قصيدة لمعروف الرصافي مطلعها : لقد سموا من الوطن الأنينا .

الجو الاجتماعي

ليس بالهيّن فصل الحالة السياسية عن الحالة الاجتماعية في هذا العصر الذي نتحدث عنه ، بل في كل عصر . فهما شديدتا الاتصال متشابكتا الاوضاع والاسباب . على اننا في بحث الحالة الاجتماعية نوجه النظر خاصة الى مجموع الامة لا الى طبقة حكامها وساستها — الى وضع البلاد العمراني لا الى نظام الحكم فيها او الى علاقتها بالبلدان الاخرى . ونظرة واحدة الى الاقطار الشامية في اوائل القرن الماضي كافية لأن ترينا ما كانت عليه من تأخر في ميدان الحضارة والعمران . ولنضرب لذلك مثلاً مدينة بيروت التي في حماها نبغ رواد نهضتنا ، ومنها انتشرت اشعة الثقافة والمدنية الحديثة الى اكثر الارجاء السورية اللبنانية. ففي درس حالتها كما شهدها الرواد ما يغنينا عن درس سواها . وإننا نعتمد في ذلك اقوال الذين عرفوها في ذلك العهد ممن سكنوها او زاروها (١).

١) راجع المصادر التالية :

جورج يزبك — بيروت في التاريخ (ط ١٩٢٣) ولويس شيخو — بيروت (ط ١٩٢٥) ص ٩٣ و ٩٤ .

Henry Gessup - Fifty three years pp. 25,265,360
William Jowett - Christian researches, London (1822) p. 421
Warburton - The cressent and the Cross 8th Ed. p.200
Bonne - The Economical development of the near East pp. 4-10

كانت بيروت خلال الربع الاول من القرن الماضي بلدة صغيرة مسوّرة، طولها من الشمال إلى الجنوب نحو الف يرد، ومن الشرق الى الغرب نحو خمسمائة. وكانت شوارعها ضيقة جداً، قذرة كثيرة الاعوجاج. ومنازلها عبارة عن مزدحَم من البيوت ذات الطبقة الواحدة، تنتابها الرطوبة ايام الشتاء، وليس بينها الا بيت واحد ذو نوافذ زجاجية هو بيت قنصل بريطانيا المستر أبوت (Abbot). وهذا المزدحم يحيط به سور له على جانبه البحري حصون تقيه غارات القرصان. والى الجانب الشرقي الجنوبي من البلدة برج عالٍ يقيها من الغارات البرية. لم تعرف بيروت يومئذ العربات ولا رأت المراكب البخارية. وكانت تستضيء بمصابيح من فخّار تُملأ بزيت الزيتون وتُغمس فيها فتائل على نسق المصابيح الجاهلية التي ذكرها امرؤ القيس في معلقته اذ قال:

يضيء سناه أو مصابيح راهب ... أمال السليط بالذبال المفتّل

اما الماء فكان يستخرجه السكان من آبار بعضها عذب، وبعضها أجاج. هكذا كانت بيروت في مطلع القرن الماضي حقيرة بالنسبة الى سواها من الحواضر السورية، الا ان التأخر الاجتماعي كان يعم الجميع على السواء. وقد خدم الزمان والوضع الجغرافي هذه المدنية. فاذا هي تسير سيراً مطرداً في سبيل الرقي الاجتماعي والعمران المادي. وخصوصاً بعد القلاقل الطائفية المتكررة التي الجأت اليها عدداً كبيراً من سكان الجبل والمدن الداخلية. فبعد ان كان عدد سكانها في اواخر الربع الاول من القرن الماضي نحو سبعة او ثمانية آلاف تضاعف تقريباً بعد ١٥ سنة وبلغ سنة ١٨٥٦ نحو اثنين وعشرين الفاً. ثم وثب وثبة كبيرة عقب الحوادث المعروفة سنة ١٨٦٠، جعلتها من كبريات المدن السورية. ومنذ ذلك الحين اصبحت بيروت مركز الحياة الفكرية على الشواطىء الشرقية من البحر المتوسط وباب المدنية الحديثة الى المناطق الداخلية.

وطبيعي ان يرافق التضخم في عدد السكان اتساع في رقعة المكان، وخصوصاً

بعد ان هدم اسوارها الاسطول الانكليزي سنة ١٨٤٠ يوم خروجها لاخراج الجيش المصري منها . فامتدت المدنية الى ما وراء حدودها القديمة الضيقة .

على ان اسباب المدنية لم تدخل بيروت بغتة بل تدرجت مع الزمن. فلم تعرف المسامير وآلات الحياطة قبل سنة ١٨٥٤ ، ولا التصوير الفوتوغرافي قبل سنة ١٨٥٦، ولا البترول الا بعد ١٨٦٦ . ولم تستخدم فيها مركبات الخيل الا بعد ١٨٦٣ . ولا جرّ الى منازلها الماء الا بعد ان انشئت شركة الماء سنة ١٨٧٣ وظلت حتى سنة ١٨٨٤ بلا مرفأ حديث . واول سكة حديدية في القطر الشامي هي التي مُدت بين بيروت ودمشق سنة ١٨٩٥، ثم مُدت فروعها المختلفة الى حمص وحماه وحلب وسواها . وبجرّ الماء اليها وانشاء مرفأها وتسهيل المواصلات بينها وبين المدن الداخلية، ازداد عمرانها كثيراً وارتقى في الدولة مركزها الاداري. فبعد ان كانت تابعة لصيدا ثم لدمشق اصبحت منذ ١٨٨٦ ولاية عظيمة الشأن يتبعها اكثر المناطق السورية الغربية من حيفا جنوباً الى اللاذقية شمالاً. ولا حاجة الى التحدث عما بلغته من التقدم منذ اواخر القرن الماضي حتى الآن فذلك خارج عن نطاق بحثنا. وانما نقول ان عصر روادنا بدأ في ظلام اشبه بظلام القرون الوسطى او اشد حلكاً . ولكنه لم يكد ينتهي حتى كانت انوار الحضارة الحديثة قد اخذت تنتشر في البلدان العربية متقدمة من السواحل البحرية نحو الاقاليم الداخلية . وسنرى تأثير ذلك في حياة الرواد وما تركوه من آثار ادبية وفكرية .

هذا من حيث العمران المادي الذي جاءنا عن طريق الغرب . فلننظر الآن في الوجهة المعنوية من البيئة الاجتماعية التي عرفها روادنا . وتتجلى لنا في اربعة مظاهر رئيسية هي : المعتقدات العامة ـ الحياة العائلية ـ العلاقات الطائفية ـ المهاجرة الى البلدان الاجنبية وهي ظاهرة اجتماعية اقتصادية .

المعتقدات العامه :

كان صدر القرن التاسع عشر من حيث نظر الناس الى الحياة والطبيعة وما وراءها امتداداً للقرون الوسطى المظلمة . فقد شاعت فيه الخرافات والاباطيل والتقاليد الغريبة ولا عجب ان يكون ذلك في شعب امي الا القليل منه. فالامية جو ملائم كل الملاءمة لانتشار المعتقدات التي لا يقرها العقل المستنير بنورالمعرفة ومن ذلك اعتقاد الناس بالسحر وما يتعلق به من ضروب الاوهام والخرافات . والغريب ان الاعتقاد بالسحر في عهد الرواد لم ينحصر في الطبقات الجاهلة من الشعب بل تسرب الى خارجها حتى وقع تحت تأثيره عدد من المتعلمين. ذكر الدكتور شاكر الخوري ـ وكان في اواسط القرن الماضي يدرس الطب في مصر ـ ان الاعتقاد بالعفاريت كان شائعاً في مصر قال « والاغرب ان بعض تلامذة الطب يعتقدون بها مع انهم متعلمون ومتفقهون »[1]. وقد شغلت مسألة السحر والمعتقدات الخرافية اقلام الكتاب وشاعت المناظرات بسببها على صفحات الجرائد ففي رسالة بعث بها المهندس قاسم هلالي الى الهلال سنة ١٨٩٨ يشكو من شيوع الخرافات ، ويقول بعد ان قص حادثة جرت له مع بعض الاعيان ـ « ولو كانت هذه الخرافات قاصرة على الرعاع الذين لا يعوّل عليهم ولا يركن اليهم لهان الامر ولكنها منتشرة بين الامراء والاعيان واهل الشرف والترف الذي من شأنه ان يجعل الاصاغر يعتقدون فيه والاجانب يضحكون منا ويسخرون بنا »[2] .

هذا وقد جرت مناظرات بين المقتطف وجريدة البشير في بيروت في السحر وحقيقته فكانت الاولى تفنده والثانية تفنّد قول الاولى . وكثر الكلام في ذلك حتى اضطرّ المقتطف ان يعتذر لبعض الكتبة من انصاره عن عدم ادراجه ردودهم على البشير بضيق المقـــام ولان « الحق الذين يريدون اثباته واضح

١) راجع كتاب مجمع المسرات (١٩٠٨) ص ٢٤٨
٢) الهلال ٦-٢-٥٣٢

كالصبح » . [1]

واكثر من هذا واوسع نطاقاً ما دار من مناظرات بشأن الارواح ومناجاتها وفي المقتطف مقالات كثيرة تبحث في هـذا الامر من الوجهة العلمية المحضة فتنكره ، كما ان في سواهـا ما يميل الى اثباته .

وخلاصة القول ان القرن الماضي كان على العموم ذا عقلية تميـل الى الاعتقاد بالخوارق والخرافات وما شا كل توهماً ان ذلك مما يؤيده الدين . ولما اخذ نور العلم يشرق قام افراد من المستنيرين يحاربون الاوهـام ويبينون ان الدين شيء والخرافات شيء آخر . واستمرت هذه الحرب الى ما بعد الحرب العالمية الاولى وقد اشتركت فيها جميع الاقطار العربية المستنيرة بنور العلوم الحديثة .

الحياة العائلية :

لم تكن الحياة العائلية في القرن الماضي كما هي الآن – سواءٌ من حيث علاقة الرجل بالمرأة او علاقة الوالدين بالاولاد . فالمرأة كانت بحكم التقاليد مكبّلة بقيود ثقيلة من الجهل والغباوة والعبودية . ذكر هنري جسب انه لما قدم المرسلون الاميركيون الى سوريا « لم يكن فيها فتاة تقرأ او تكتب وكانت المـرأة في حالة يرثى لها من المهانة لا تذكر الا بالتحقير . ولم يكن يسمح لها في البيئات المتحضرة ان تظهر امام الرجال او في الاماكن العمومية وربمـا كانت المرأة المسيحية تتمتع من الحرية بنصيب اوفر من نصيب اختها المسلمة الا انها هي ايضاً كانت تخضع لنظام الاحتجاب وكلتاهما تتساويان بالجهـل العـام [2] وتقاسيان كثيراً من هضم الحقوق .

ولما استيقظ الناس قليلاً وتفتحت عيونهم على انوار المدنية والعلم قـام بينهم يومئذ دعاة الى الاصلاح ولكن دعوتهم لم تبلغ درجة الايمـان بحق المرأة في

١) راجع المقتطف ٣ - ٣٠٦
٢) Geusup 1 - 27

مساواة الرجل وفتح باب الحضارة على مصراعيه امامهـــا . فظلت تلك الدعوة حذرة تخشى على المرأة عاقبة التمادي في الحيـاة العصرية . حتى ان احـد الادباء المعروفين ينشر مقالاً سنة ١٨٧٢ موضوعه « المرأة بين الخشونة والتمدن » (١) فيذكر ما كانت عليه المرأة قديماً من جهل وعبودية ويدعو الى تنويرها وترقيـة حالها ولكنه مع ذلك لا يخفي خوفه من عواقب التمدن الحديث زاعماً « انـه قد افسد المصريات وعبث بآدابهن حتى زاغت فتاة العصر . وعنده ان التضييق القديم مضر وكذلك « التوغل في عباب التمدن ». وهو لذلك يدعو الى تربيـة المرأة خلقياً ورفع مستواها الفكري على ان لا يتجاوز ابسط العـــلوم (اي القراءة والخط وشيء من الحساب والجغرافيا وقواعد لغتها) لان ذلك كما يقول - « يكفي لتنوير عقلها وتوسيـع دائرة أفكارها . وان توغل المرأة في عبـــاب العلوم انما ينتهي الى عكس المطلوب لأن الشيء اذا تجاوز حده جانس ضده ».

وما يقوله صاحب المقال المذكور يقوله اكثر الكتاب في ذلك العهد بل ظل يردده جماعة اهل القلم والرأي الى عهد قريب من عصرنا الحاضر. وسنرى ان بطرس البستاني كان اول من دعا في الاقطـار الشامية الى وجوب تعليم المـرأة ورفع مستواها ، وذلك في خطاب القاه سنة ١٨٦٩ وقـد نشر في مجموعة اعمال الجمعية السورية سنة ١٨٥٢ ثم في مجلة الجنان السنة الثانية عشرة ص ٢٠٧ . وفي هذا الخطاب وصف عام لحالة المرأة وهوانها ودعوة حرة الى انارتها بنور العـلم. قال في مقدمته « من العجب اننا نرى كثيرين من ابناء هـذا الزمان حتى في الاماكن المتمدنة قد اهملوا هذا الجنس (اي الجنس اللطيف) غـير مرتضين بترقيته من حالته المتوحشة الى حالة تليق بمن يشاركهم في القوى العقلية ويساعدهم على اصلاح احوال الجمهور والبلاد » . الى ان يقول في الذين يدعون العلم ومـع ذلك يرون فيه خطراً على المرأة : هل يرجى والحـالة هذه ان يروق لناظرهم ما قصدت الى اثباته في هذا الباب ؟ لان من يعتقد ان تعليم المرأة القراءة مثلاً ،

١) هو الاديب الحلبي فرنسيس مراش. راجع مقاله في الجنان (١٨٧٢) ص ٥٨٦ و٧٦٨

فضلاً عما وراءها ، انما هو كالقاء نار على نار .. الى غير ذلك مما يطرق مسامعنا مراراً كثيرة في المفاوضات المتعلقة بهذا الجنس المسكين كيف يمكننا اقناعه بان تعليمها ذلك وما فوقه ، كوضع ترياق في فم عليل مدنف او صب زيت وخمر على جرح بليغ » .

ثم يصف حالة المرأة في بلاده فيقول « كم امرأة بين الكرّات الكثيرة (اي الالوف المؤلفة) في بلادنا تعرف القراءة . وكم نرى مدرسة في بر الشام اقيمت لاجل تعليمهن؟ او ليس من ينكر احتقارهن وجهلهن في الدين والدنيا كمن يحاول انكار الشمس في رابعة النهار ؟ »

وبعد التبسط في هذا الوصف ثم في تبيان الاسباب الداعية الى وجوب تعليمهن يتقدم الى ذكر ما يجب على المرأة ان تتعلمه وهو باجمال « كل ما لا بد منه لاجل تتميم واجباتها الخصوصية بسهولة وتدقيق وتقانة(اتقان) وفصاحة وجعلها عضواً يليق بجماعة متمدنة » . اما برنامج علومها عنده فيتألف من المواد التالية : الديانة ـ القراءة ـ الكتابة ـ تربية الاولاد ـ الجغرافية ـ التاريخ ـ الحساب . ويعقّب على ذلك بقوله : « هذا ولا سبيل الى تعيين المقـدار الذي يجب أن تتعلمه المرأة من كل ما ذكرته . ولا ينتج منـه ان المرأة يجب ان تقتصر على تعلم هذه الاشياء فقط ولا يجوز لها ان تتخطاها » ثم يأخذ بشرح الفوائد الناتجة عن تعليم النساء والاضرار الناتجة عن جهلهن . وهنـا يلتفت الى المتعلمة محذرا فيقول : «ان كونها في العالم عضواً مفيداً بهذا المقدار للجماعة لا يجب ان يوقعها في ورطة العجب والكبرياء او يحملها على رفع رأسها على رجلها ولو كانت اعلم منه . لان العرضيات لا ينبغي ان تبطل الجوهريات . ومنزلة المرأة من الرجل معلومة لا يجوز تخطيها ومجاوزتها في احد الاحوال » . ويختم البستاني الكبير خطابه بما يدل على انه قد اختط في هذا الموضوع خطة جديدة لم يسبق اليهـا فيقول : « ولعل مـا قلته كاف للدخول في موضوع كهذا لم تجر فيها اقلام اسلافي من أهالي البلاد . وخلاصته وجوب تعليم النساء بنـاء على ان التي تهز

السرير بيمينها هي التي تحرك المسكونة بذراعها » .

وكدعوة البستاني الاصلاحية في بر الشام دعوة رفاعة الطهطاوي في مصر اذ قام في عهد اسماعيل بناصر اول مدرسة انشئت للبنات في مصر ويدافع عنها ضد الرأي العام يومئذ محبّذاً تعليم البنات ووجوب ترقية المرأة (١).

ويظهر من اقوال الكتبة الاجتماعيين في القرن الماضي اجماعهم على وجوب تعليم المرأة وتحسين حالها ولكنهم في الوقت نفسه لم يقولوا بوجوب مساواتها للرجل . ويعبّر عن ارائهم اديب اسحق بقوله من مقال موضوعه حقوق المرأة حيث يذهب الى ان المرأة يجب رفع شأنها ولكن لا بمماثلتها بالرجل فالمساواة بين الرجل والمرأة يجب ان تقترن بالفارق الطبيعي بينهما (٢).

واذا التفتنا الى الحياة العائلية من حيث علاقة الآباء بالاولاد رأيناها في القرن الماضي متأثرة نوعاً ما بروح الاقطاعية السائدة . فصاحب البيت كان سيداً فيه اطاعته واجبة على الجميع، او هو بمثابة شيخ عشيرة يتصرف بشؤونها كما يراه هو مناسباً لتقاليد العشيرة او مصلحتها . فليس لأحد ان يحل شيئاً بدون رخصة منه . يزوج الابنة لمن يشاء من الخطاب وعليها القبول، ويخط لأبنه سبيل العمل وعليه السير في ذلك السبيل. فكأن الاقطاعية قديماً لم تكن فقط نظاماً سياسياً عمومياً يستخدمه الامراء لحكم رعاياهم بل كانت ايضاً تقليداً عائلياً يحترمه الكبير والصغير .

وقد يكون في هذا الوصف شيء من المبالغة او التعميم الذي لا يقره الواقع الحقيقي ، ولكن الناظر في ادبنا الاجتماعي المستوحى من احوال الشعب - مذ بدأ الشعب يستيقظ في القرن الماضي ويشعر بالحاجة الى إصلاح الحال - لا يرى فيما حاولنا تصويره بعداً عن الحقيقة . فالمساواة التي تتمتع بها المرأة اليوم لم تكن لها من قبل ، والانطلاق الذاتي الذي يشعر به الاولاد ويمارسونه في هذا

١) راجع الهلال ٤٣ - ١١٣ ومجلة الثقافة ٢٣٥٥ ص٩
٢) الدرر ٢٩٥ - ٢٩٩

العصر لم يتهيأ لهم في العصر السابق . ولعل الاقطاعية العائلية لا تزال على قوتها في بعض الانحاء ولكنها على العموم قد انهارت بتقدم الحضـــارة وانتشار العلم فليست الاسرة اليوم عشيرة يحكمها فرد بـــل هيـأة قائمة على تبـادل الولاء والاحترام والتعاون يديرها الوالدون بروح العطف والمحبة والتوجيه القويم حتى اذا بلغ الاولاد سن الرشد عرفوا ما لهم وما عليهم وادركوا معنى المسؤوليات العائلية والاجتماعية الملقـــاة على عواتقهم . هـذا التغيير في الوضع الاجتماعي ينعكس لنـــا في ادبنا الاصلاحي . بدأ به روادنا ولكنه بلغ اشده في الربع أو الثلث الاول من هذا القرن وذلك بعد ان سطعت انوار الحضـــارة ولم يعد بالامكان حجب الحقيقة عن العيان .

العلاقات الطائفية :

في عصر روادنا وفي بيئتهم كان للدين تأثير فعال في حيـــاة الناس الفردية والاجتماعية. ولعلنا لا نخطىء اذا قلنا ان الاختلافات والمنافسات المذهبية كانت تجعل من شتى الطوائف في الوطن الواحد جماعـــات متضاربة المقاصد، متنافرة القلوب تسيء الظنون بعضها ببعض ، وتحل الريبة والبغضاء محل الثقة والاخاء . وعلى ذلك يصف مخايـل مشاقة (١٧٩٦ — ١٨٧٣) التعصب الديني في زمانه فيقول : « وكان التعصب الديني بالغاً اشده . وكان كل رجل يحسب كل رجل غير متدين بدينه جاز (كذا) له قتله والاعتداء عليه ، لا اثم عليه في ذلـك ولا تثريب في ابتزاز مـاله وعرضه [١]. وقد انتشرت هذه الروح التعصبية حتى عمت السواد الاكبر من القوم » .

وكان فريق من العلماء المسلمين واهـل التقوى يرون معاملة الذمي (اي المسيحي وغيره من اهل الكتاب) بالحسنى تبعاً لقواعد الدين الشريف ولكنهم على حد قول مشاقة لم يتوفقوا . « فكان المسيحي في الشام اوائل القرن الماضي

١) راجع كتابه مشهد العيان بحوادث سوريا ولبنان ص ٢٦ (ط ١٩٠٨)

عرضة للاهانة والذل اينما وجد . وكان المسلم يسيء معاملته لدرجة مفرطة . ودامت الحال على هذا المنوال حتى فتحها ابراهيم باشا فانتهج سياسة التساهل والمساواة . قال فيليب حتي في كتابه تاريخ العرب[1] « ولقد تودد ابراهيم الى رعاياه السوريين اكتساباً لعطفهم ولا سيما النصارى منهم وذلك بحفظه للأمن ونشره للعدالة وادخاله الكثير من الاصلاحات الاجتماعية . ولم يكن المسيحي قبل ذلك في مدينة كدمشق مثلاً يجرؤ على ان يظهر امام الناس راكباً حصاناً او لابساً عمامة بيضاء او حمراء او خضراء . ولم يكن لمسيحي ان يشغل وظيفة من الوظائف الهامة في الدولة . وقد ازيلت كل هذه العقبات يومئذ ».

وذلك ما يذهب اليه ابكاريوس في كتابه عجائب الزمان[2] .

هذا في دمشق وسواها من المدن السورية الساحلية والداخلية . اما في جبل لبنان فالتوتر الطائفي كان بارزاً بين الدروز والنصارى ولا سيما الموارنة منهم وما زال يشتد حتى انقلب الى فظائع دموية في حوادث السنة الستين . على ان التعصب الديني لم ينحصر بين المسلمين من جهة والمسيحيين من جهة اخرى، او بين هؤلاء والدروز بل اتسع نطاقه حتى شمل المذاهب الفرعية المنتمية الى دين واحد . ولعل الصواب ما يذهب اليه البعض من ان الطائفية في لبنان لم تكن يوم ولد روادنا الاساس الرئيسي للمنازعات الاهلية بل كان اساسها التحزبات السياسية الداخلية . ثم برزت المسألة الشرقية واخذت بعض دول اوروبا تسعى لتقرير نفوذها في الدولة العثمانية عن سبيل حمايتها لبعض الطوائف . ومقابل ذلك اعتمدت تركيا اثارة النعرة الاسلامية فحل التعصب الطائفي محل التحزب السياسي[3]. ولكن مهما يكن ومهما قيل في اسباب التعصب فانه كان امراً واقعاً في ذلك العهد .

١) الطبعة العربية الاولى ج ٣ — ٨٦٣

٢) راجع مقدمة النسخة الانكليزية ٣٢ — ٣٧ تحرير J. F. Scheltema

٣) راجع بيهم : الحلقة المفقودة في تاريخ العرب (١٩٥٠) ص ٦١ ويوسف يزبك —ثورة وفتنة في لبنان ص ٢٣ .

وظل هذا التعصب مستحكماً بين الطوائف والفرق حتى اوائل القرن الحالي وقد لمسنا ايام الحداثة شيئاً كثيراً منه وعرفنا بالاختبار الشخصي عياناً وسماعاً ما كان يجري باسم الدين في مختلف المدن السورية من تصرفات وحوادث مصدرها الجهل والمطامع الفردية والطائفية .

على ان الحال قد اخذت منذ اواخر القرن الماضي ومطلع هذا القرن تتغير تدريجياً ، اذ نشأت طبقة من المستنيرين تبث في الناس روح التساهل والتعاون الوطني، وأن الدين الحقيقي انما هو علاقة شخصية بين الانسان وخالقه. فليس في اختلاف المذاهب وطرق العبادة ما يحول دون ارتباط ابناء الوطن الواحد بالولاء للوطنية . تلك حركة فكرية نيرة ولكنها لم تكن واسعة النطاق في القرن الماضي — ذلك القرن الذي ورث عقلية القرون الوسطى المظلمة . فلم يفهم ابناؤه من اخاء غير اخاء بين الدين او المذهب. وما عدا ذلك فغيرة عمياء وجفاء سيء الظن يستخدمها ذوو الاغراض من حكام وزعماء لتفريق الصفوف واشعال نار الفتن، كما حدث بعد ان ترك الجيش المصري الشام سنة ١٨٤٠ . فقد كانت سياسة قائده ابراهيم مدة احتلاله للبلاد ازالة الحواجز بين الطوائف بتوطيد التساهل والمساواة والعدالة . ولكنه لما اضطر الى الانسحاب عاد التعصب الى شدته وبرزت البغضاء من مكامنها . قال محمد كرد علي في معرض كلامه على فظائع السنة الستين — « سبع عشرة سنة مضت على الدولة (التركية) وهي تحرك النعرة الدينية لتضرب الدرزي بالمسيحي والمسيحي بالسلم حتى وصلت الى هذه النتيجة المرمضة من اهلاك من اهلكت واضعاف من اضعفت»[1]. فهذا الكاتب الكبير يعزو التعصب الى السياسة المفرقة ولكن لا ننس ان هذه السياسة لم تبلغ غايتها لولا استعداد في نفوس الشعب مسبب عن اجيال من الجهل وحب الاثرة .

---

١) خطط الشام ٣ — ٩٤ .

المهاجرة :

في منتصف القرن التاسع عشر بدأت موجة المهاجرة من الاقطار اللبنانية والسورية الى الغرب . وللمهاجرة اسباب ونتائج . امـا اسبابها فترجع الى اثنين رئيسين : الاول ارتياد الرزق والثاني التخلص من مضض الظلم والفساد . قال مؤلف كتاب «المهاجر السوري» و «كان الباعث الاكبر على المهاجرة اختلال الاحوال الاقتصادية في السلطنة العثمانية بفساد الحكومة الاستبدادية التي جرت على مذهب فرّق تسد حتى تضعضع الامن وسادت الفوضى ودرس العلم وثقلت المعيشة »[1]. وكذلك قول المؤرخ جرجي يني اذ يعزو المهاجرة الى سوء ادارة البلاد وعسف كبرائها واولي الامر فيها بما جعل العمل عسيراً والرزق صعباً [2].

ويقول فيليب حتي في كتابه تاريخ العرب معلقاً على النظام الاستقلالي الذي ناله لبنان عقب حوادث السنة الستين « ففيه بلغ استتباب الامن العام ومستوى الحياة السياسية والاجتماعية درجة لم تبلغها اي مقاطعة اخرى في الامبراطورية كلها . واخذ سكان الجبل يزدادون . وكان المنفذ لازدياد السكان الهجرة الى مصر واستراليا والاميركيتين حيث لا تزال جاليات كبيرة من ابناء اولئك المهاجرين تعيش مزدهرة الى اليوم » [3] .

وهذا السبب ، اي ضيق البلاد (ولا سيا لبنان) بأهلها هو مـا كان قد أشار اليه اوغست اديب في كتابه «لبنان بعد الحرب» اذ قال «فالسبب الاول في مهاجرة الالوف من اللبنانيين هو ذلك القانون الاساسي الذي وضع سنة ١٨٦١ و١٨٦٤. فان اشد ضرر جلبه على لبنان هو حصره ذلك الجبل في حدوده الحالية ولولاه لما كنا رأينا ذلك المشهد المؤلم مشهد اناس في ضنك شديد من العيش

١) عن مجلة الزهور ١ – ٤٤٥
٢) مجلة الأبحاث ١ – ٨٣٩
٣) تاريخ العرب ، النسخة العربية ٣ – ٨٦٦

يرمون من اعالي صخورهم نظرات اليأس الى ما عند سفح جبلهم من السهول الواسعة الخصبة التي يقصيها عنهم اختلال الامن واستبداد الحكام » [١] .

ولو اردنا ان نعرض جميع اقول الباحثين في هذا الموضوع من وطنيين وأجانب لرأيناها تتفق على ما ذكرناه سابقاً من اسباب الهجرة التي حملت الوف السوريين واللبنانيين الى الضرب في آفاق الارض . وقد عبر عن ذلك الشاعر اللبناني اذ قال في قصيدة مخاطباً وطنه [٢] .

امسى بنوك وما في الحي مرتزق   لهم ولا لأبيٍّ منهم شغل
فأزمعوا البعد عن اوطانهم حذراً   من فاقةٍ اهلها بين الورى همل
مضوا وقد حملتهم كل جارية   تفري العباب وفيها النار تشتعل
لم يبرحوك اختياراً بيد انهم   ضاقت بهم جنبات العيش فانتقلوا

والى هذه الهجرة التي عرف بها الشاميون عموماً واللبنانيون منهم خاصة يشير الشاعر المصري حافظ ابراهيم إذ يقول من قصيدة [٣] :

لم تبد بارقة في افق منتجع   الا وكان لها بالشام مرتقب
ما عابهم انهم في الارض قد نثروا   فالشهب منثورة مذ كانت الشهب
سعوا الى الكسب محموداً وما فتئت   ام اللغات بذاك السعي تكتسب

ولما كانت اسباب الهجرة في الدرجة الاولى اقتصادية وخصوصاً في لبنان فان المهاجرين الاولين انما كان همهم الاعظم جمع المال والعودة به الى اوطانهم . وذلك ما فعلوه في اول امرهم . ولكن المهاجرين مع الزمان صاروا يستطيبون المقام في ديار الغربة حتى استوطنها اكثرهم واستقروا فيها . وهم الآن يعدون بمئات الالوف هناك . وقد فتح ذلك باباً للمناظرة في منافع الهجرة واضرارها

١) لبنان بعد الحرب
٢) ديوان الالهام لامين ناصر الدين ١٠٦ .
٣) ديوانه ١ – ٢٦٨

اشترك فيها كثير من ارباب الاقلام والباحثين، منهم من يؤيد نظرية النفع ذاهباً الى انه لولا المهاجرة لازدادت حالة البلاد الاقتصادية سوءاً ولهبط مستوى المعيشة هبوطاً عظيماً ، فهي الباب الذي دخل منه الى سوريا ولبنان كل سنة ملايين من النقود الاجنبية ساعدت على رفع مستوى المعيشة ونشر الرفاهية والعمران . ومنهم من يؤيد نظرية الضرر زاعماً ان المهاجرة قد أخرت البلاد زراعياً لفقدان الأيدي العاملة وان الجهود التي بذلت خارج البلاد لو بذلت داخلها لكانت الفائدة اعم وادوم. هذا فضلاً عن الخسائر الوطنية بترك المهاجرين جنسيتهم الاصلية واتخاذ جنسيات أخرى حتى ليرى بعضهم في ذلك خطراً عظيماً يهدد الوطن [1] .

ولسنا الآن في مقام الحكم على أي الفئتين أصوب رأياً ، وانما نحن نقرر حقيقة واقعية لها اثرها في حياة البلاد الاقتصادية . واذا كان لا بد من كلمة في هذا المقام فاننا نقول ان المهاجرة وان نجم عنها اضرار لا تنكر ، لم تكن الا نتيجة طبيعية للاحوال الاقتصادية والسياسية التي كانت سائدة في القرن الماضي وما اتصل به من هذا القرن، فسوء الادارة وفساد الاحكام وعدم الامن وكثرة القلاقل في وطن ما ، ليست مما يشجع على العمل او يسهل اسباب الارتزاق او يحبّب الى سكانه الاقامة فيه ، وعبثاً نطلب منهم باسم الوطنية البقاء فيه اذا كان بامكانهم الانتقال الى وطن آخر يجدون فيه حسن النظام والعدل في الاحكام والحرية الشخصية ضمن القانون، وقد توفرت فيه اسباب الرزق للمستعد والمجتهد .

فالهجرة السورية اللبنانية لم تكن دون سبب اجتماعي هام . والى ذلك يشير الاب لامنس في كتابه La Syrie عندما يقول – « تحت ضغط الفسادالحكومي اضطر الوف من السوريين للهجرة » [2].

---

١) «بيروت في التاريخ» ليوسف يزبك (ط. ١٩٢٣) ص ٧٢
٢) ص ٢٠٢

وكما استفادت البلاد مالياً من جهود المهاجرين ولا تزال ، استفادت أيضاً بما فتحته المهاجرة من نوافذ للمدنية الغربية وعما حملته الى العالم القديم من شتى الاختبارات الاجتماعية والفكرية الجديدة[1].

٣) راجع فصل المهاجرة في كتاب الاتجاهات الادبية في العالم العربي الحديث للمؤلف، ومقدمة كتاب الشعر في المهاجر لوديع ديب ، ومقدمة كتاب الشعر العربي في المهجر لمحمد عبد الغني حسن. وكتاب لبنان في التاريخ لفيليب حتي ص ٥٧٥ وما بعدها .

الجو العلمي

للحياة العلمية في كل امة او بلد ظواهر تعرف بها . وفي مقدمتها معاهد العلم والدراسة ودور الطباعة والنشر والصحافة . فلنلقِ نظرة على هذه الظواهر كما تتجلى في القرن التاسع عشر .

معاهد العلم والدراسة :

وهي في عصرنا الحاضر تشمل ثلاث مراحل رئيسية : التعليم الابتدائي فالتعليم الثانوي ثم التعليم العالي والجامعي . ولكل من هذه المراحل اسباب ومهيئات خاصة ، بها تقاس درجة الثقافة العامة في الامة . على انه اذا التفتنا الى القرن الماضي يوم اطل على الاقطار الشامية فاننا لا نرى فيه الا ما يدل على تأخر في هذا السبيل، اذ كانت مراكز التعليم على نوعين(١) مدارس بسيطة جداً تابعة في الغالب لبعض الاديرة والمساجد، وقلما يتجاوز التعليم فيها القراءة والكتابة واوليات الحساب وشيئاً من اصول الدين . (٢) بضعة معاهد دينية شبه عالية غايتها تخريج خَدَمة للدين كعين ورقة في لبنان وبعض الحلقات المسجدية في دمشق او حلب . ولا ينكر ان هذه المعاهد قد خرج منها رجال اصبحوا

بعدئذ من رواد النهضة ، غير أن الشعب كان يسوده ظلام من الجهل العام. وقد اصاب احد مؤرخي النهضة اذ قال واصفاً ذلك العهد : « الشعب كان امياً والعالم كان في ذلك الزمن امّا كاهناً او شيخ دين»[1]. وله وصف شائق لمدرسة ذلك الزمن يجدر بالباحث مراجعته [2]. واليك شهادة مؤرخ آخر يصف البلاد العربية بعد ان اصبحت في عهد العثمانيين معزولة عن النهضة العالمية مدة . «واما الشعب فقد امسى امياً على وجه عام وقد روى لنا اسلافنا ان الامية استحكمت في بعض المدن العربية ـ ومنها بلدنا بيروت ـ الى حد ان تجارها كانوا يعتمدون في كتابة رسائلهم وتسجيل حساباتهم على نفر قليل قدّر لهم أن يقرأوا ويكتبوا، ولكن بعثاً جديداً شمل العالم العربي منذ القرن التاسع عشر واخرجه من هذه الظلمات الى النور . [3]

فلا غرابة ان يلقّب المؤرخون ذلك العهد بعهد الجهل والظلام . ذلك لان انوار المعرفة الحديثة لم تأخذ بالانتشار الا بعد ان كاد ينطوي النصف الاول من ذلك القرن . وكان بدء انتشارها في القطر الشامي على يد البعثات الاجنبية التي اهتمت بتأسيس المدارس وتنوير الاذهان. ومما اعان على نمو المدارس الاجنبية في ذلك القطر أمران : اولهما ان الاستقرار الذي حدث في البلاد على يد ابراهيم باشا المصري شجع الاجانب على الوفود اليها والعمل فيها ، وثانيهما ان تركيا لم تكن تعنى في الولايات بامور المعارف كما يجب، بل كان همها في الدرجة الاولى استغلال الرعية مالياً، فلم تخصص للتعليم في بر الشام الا جزءاً يسيراً جداً مما تجنيه من اهل البلاد . [4] ولذا كان المجال واسعاً والظروف مؤاتية لعمل البعثات الاجنبية من أوروبية واميركية ، فأسست المدارس الكثيرة، وهكذا اصبحت ذات اليد الطولى في نشر الثقافة ورفع المستوى الفكري العام . ولم يكد

١) راجع صقر لبنان لمارون عبود (١٩٥٠) ص ٥٢
٢) راجع له ايضاً رواد النهضة الحديثة (١٩٥٢) ١٢ - ١٨
٣) محمد جميل بيهم في كتابة الحلقة المفقودة (١٩٥٠) ص ١٩٢
٤) Lammens; La Syrie (1921) pp. 200-201

ينطوي النصف الاول من القرن التاسع عشر حتى كانت حركة التعليم قد اخذت بالتقدم. وكان الافرنسيون والاميركان اكثر العناصر الاجنبية نشاطاً في تأسيس المدارس . وقد اسهب لامنس اليسوعي في الجزء الثاني من كتابه La Syrie في شرح ما قامت به البعثات الافرنسية من هذا القبيل ، بل لم يهتم بذكر سواها، فصحّ فيه قول مؤرخ مطلع : «انه اقتصر على ذكر المدارس الافرنسية حتى انه يمكن ان يتوهم القارئ ان لا فضل في احياء العلم والمعارف في هذه البلاد لغيرها من المدارس . » [1] والحق يقال ان نشاط البعثات الافرنسية كان عظيماً. ومن اراد زيادة ايضاح او تفصيل فليراجع كتاب الاب لامنس المذكور فهو حري بالمطالعة وكاتبه من المعروفين بالدقة في البحث .

اما المدارس الاميركية فكانت منذ منتصف القرن المذكور تسير بخطى واسعة. ففي السنة ١٨٥٨ بلغ عددها ٣٢ تضم ١٠٦٥ تلميذاً ربعهم من البنات[2] وفي السنة ١٨٨٢ كان للاميركان نحو ١٣٠ مدرسة يؤمها الوف من التلاميذ والتلميذات .

فاذا اضفنا الى ذلك ما كانت تقوم به البعثات الافرنسية والانكليزية والروسية والالمانية والايطالية والدانمركية وسواها لم نعجب من سعة التعليم الاجنبي واثره في البلاد . ولقد قدر عدد المدارس في سوريا ولبنان سنة ١٨٨٣ بنحو ١٤٧٣ مدرسة تضم ٦٢٥٦٦ تلميذاً من مجموع مليونين من السكان [3] . والذي يجدر بنا ذكره هنا ان بيروت لم تكن المهد الاول لحركة التعليم الاجنبي، وفي ذلك يقول جرجي زيدان[4] : « ان الاجانب لم ينشئوا المدارس اولاً في

١) رستم في مجلة الكلية ٨ — ٢٨٣
٢) Jessup; Fifty three Years in Syria 1-153
٣) راجع احصاء المدارس في المقتطف ٧ — ٥٣٧
٤) الهلال ٩ — ٢٣٤

بيروت لانها كانت حقيرة لم تعمر الا بعد السنة ١٨٦٠ » . ولا ندري هل كانت حقارتها السبب الاولي في تفضيلهم سواها عليها فقد انشأوا المدارس في مراكز لم تكن اكثر عمراناً من بيروت . وعلى كل حال فقد اصاب زيدان بقوله ان ازدهار بيروت لم يبدأ قبل ١٨٦٠ .

اما معاهد التعليم الاهلية فقد بدأ عهدها الجديد منذ اسس المعلّم بطرس البستاني سنة ١٨٦٣ المدرسة الوطنية في بيروت . وقد امتازت هذه المدرسة بصبغتها اللاطائفية وروحها الوطنية وتدريسها العلوم على الطريقة العصرية . وسنتناولها بتفصيل في غير هذا المقام . وظهر في بيروت بعد انشاء مدرسة البستاني معاهد اهلية اخرى كان لها اثر يذكر في تنشيط الحركة العلمية ، كالمدرسة البطريركية (١٨٦٥) ومدرسة الثلاثة اقمار (١٨٦٦) ومدرسة الحكمة (١٨٧٤) والمدرسة الاسرائيلية (١٨٧٤) والكلية العثمانية (١٨٩٥) وسواها .

على أن حركة التعليم لم تشتد وتتسع في بيروت وخارج بيروت الا بعد الحرب العالمية الاولى اذ اصبح للوطنيين عدد كبير من المعاهد الابتدائية والثانوية الحديثة . ومنها ما يضاهي المدارس الاجنبية او يفوقها . وعلى سبيل الاستطراد نقول ان التعليم في سوريا قائم الآن بالاكثر على المدارس الرسمية . اما في لبنان فلا يزال السبق للمعاهد الخصوصية من أجنبية ووطنية .

التاليف والنشر :

وهما من ثمار التعليم وانتشار الثقافة الا أن معتمدها الرئيسي هو الطباعة والصحافة . وقد ظهرت الطباعة في القطر الشامي قبل القرن التاسع عشر [١] على انها لم تكن في ذلك القرن ذات شأن يذكر . والواقع انها لم تخدم حركة العلم ونشر المعارف خدمة فعالة الا بعد ان كاد ذلك القرن يبلغ منتصفه . فأول

١) راجع تاريخ الطباعة في مجلة المشرق (بيروت) مج ٣ سلسلة مقالات .

مطبعة عصرية دخلت سوريا ولبنان هي المطبعة الاميركانية التي نقلت من مالطة الى بيروت سنة ١٨٣٤ [١] . وهي اول مطبعة في الشرق العربي أديرت بالبخار وذلك سنة ١٨٦٧ [٢]. وقد استحدثت للطبع الحرف الذي عرف باسمها وشاع دهرا طويلاً بين مطابع الشرق . وظهرت بعدها المطبعة الكاثوليكية في بيروت سنة ١٨٤٤ وكانت اولاً حجرية ثم صارت تستعمل الحرف المطبعي العادي وهي الآن من ارقى المطابع في الشرق العربي . وتلاهـــا في بيروت مطبعة القديس جاورجيوس سنة ١٨٤٨ . ثم المطبعة الوطنية السورية لخليل الخوري سنة ١٨٥٧ فالمطبعة الشرقية للدكتور ابراهيم النجار فالمطبعة العمومية (ليوسف الشلفون أولاً ثم للمطران يوسف الدبس)، والمطبعة الوطنية لجرجس شاهين ، ومطبعة المعارف لبطرس البستاني(١٨٦٧))، ومطبعة الفنون لعبدالقادرقباني، والمطبعة الادبية لخليل سركيس(١٨٧٤) . فلم يكد ينقضي عهد الرواد حتى كان في بيروت وحدها أكثر من عشر مطابع . يضاف اليها بضع مطابع في دمشق وحلب . هذا عدا ما كان قد اسس في مصر كمطبعة بولاق الاميرية الشهيرة ، التي انشئت سنة ١٨٢٢ وظلت نحو اربعين سنة المطبعة الوحيدة في القطر المصري. وظهر فيه سنة ١٨٦٠ المطبعة الاهلية القبطية، فمطبعة المعارف المصرية سنة ١٨٦٨ ثم مطبعة وادي النيل ١٨٩٦ ولم تنحصر الطباعة العربية الحديثة في حواضر لبنان وسوريا ومصر بل اسهم فيها ايضاً عدد من الحواضر في تركيا والهند واوروبا . وقد اخرجت شتى المطابع العربية في القرن الماضي عدداً كبيراً من الكتب والصحف والرسائل فساعدت على نشر العلم والثقافة في العالم العربي .

وما يقال عن الطباعة العربية في القرن الماضي يقال عن الصحافة . ويجمع المؤرخون على ان البلدان العربية عموماً لم تعرف الصحافة الا بعد حملة نابليون الاول على مصر. ففي اثناء اقامته هناك عين لجنة علمية ، وكان من اعمال هذه

١) المقتطف ٧ — ٤٦٥
٢) Jessup 1-360

اللجنة انها انشأت سنة ١٧٩٨ جريدة افرنسية تصدر مرة كل خمسة ايام، واعقبها بمجلة افرنسية ايضاً تصدر ثلاث مرات في الشهر. وغايتها تعريف فرنسا واوروبا بمصر واهلها . وفي سنة ١٨٠٠ امرت السلطة الافرنسية بانشاء صحيفة باسم « التنبيه » لنشر الاخبار والمعلومات في الاقاليم الشرقية . الا ان الظروف السياسية يومئذ لم تسمح باصدارها ، فظل مرسوم انشائها معطلاً ولم يعمل به[1].

ولما خرج الافرنسيون من مصر توقفت الحركة الصحافية التي قاموا بها هناك وبقيت مصر بلا صحافة حتى سنة ١٨٢٨ حين أنشأت حكومة محمد علي الكبير جريدتها الرسمية « الوقائع المصرية » وكانت تصدر ثلاث مرات في الاسبوع . اما لغتها فكانت اولاً التركية ثم صارت تركية وعربية واخيراً تحولت برمتها الى العربية ولا تزال الى الآن . وبهذه الجريدة الرسمية يبدأ تاريخ الصحافة في مصر بل في الشرق العربي اجمع . وظلت في مصر الجريدة الوحيدة حتى عهد اسماعيل الذي امر بانشاء جريدتين حكوميتين اخريين احداهما طبية وهي (يعسوب الطب) ، والثانية لضباط الجيش وهي (الجريدة العسكرية) . وفي سنة ١٨٧٠ اصدر ديوان المدارس المصري (اي ادارة المعارف) مجلة باسم « روضة الاطفال» والغرض من انشائها « النهوض بالعربية واحياء ادابها ونشر المعارف الحديثة » وكانت هذه المجلة توزع مجاناً على طلبة المدارس فاتحة للنابغين منهم ميدان الكتابة والبحث .

وهكذا نرى ان نشوء الصحافة في وادي النيل قام على يد الحكومة . اما الشعب فأول ما ظهر له من ذلك مجلة اسمها «السلطنة» لمحررها اسكندر شلهوب وذلك سنة ١٨٥٧ . ولم تكن شعبية تماماً اذ انها انشئت بايعاز من السلطنة التركية، وهدفها ان توجه نظر المصريين الى واجباتهم نحو الباب العالي (اي الحكومة المركزية في الاستانة) . على ان عمرها لم يطل اذ احتجبت بعد ان صدر منها بضعة اعداد فقط . ولم تشهد مصر صحيفة شعبية اخرى حتى السنة

١) راجع تطور الصحافة المصرية لابراهيم عبده (١٩٤٥) ص ٢٤٠

١٨٦٦ حين ظهرت «وادي النيل» لعبدالله ابي السعود ، وهي عند التحقيق شبه رسمية . وتلاها سنة ١٨٦٩ مجلة «نزهة الافكار» لابراهيم المويلحي وعثمان جلال ويظهر ان خطتها لم ترض الحكومة فأمرت باغلاقها بعد صدور عددها الثاني . قال ابراهيم عبده مؤلف كتاب تطور الصحافة المصرية: «ظهرت الصحافة الشعبية في مصر اول ما ظهرت مماثلة من حيث الشكل والانتاج للصحافة الرسمية المعاصرة لها معنية بتافه الاخبار ناشرة لقديم الادب المحفوظ في بطون الكتب . وكان ما يتاح نشره يستوجب رقابة الحكومة ويخضع لوحيها . ولم تكن حالة مصر السياسية والاجتماعية حتى السنة ١٨٧٦ تسمح بأكثر من هذه الصحف ففقدت الصحافة الشعبية حتى تلك السنة اهم عناصر الشعبية وهي ابداء الملاحظة واسداء النصح والنقد والمعارضة »[1]

وعلى ذكر السنة ١٨٧٦ واشارة الكاتب اليها كحدث هام في تاريخ الصحافة المصرية نقول ان تلك السنة هي سنة الحرب الروسية التركية التي اشتعلت في مستهل العهد الحميدي (اي عهد السلطان عبد الحميد الثاني). وقد احدثت هزة قوية في العالم العثماني وفتحت لاقلام الكتاب ميداناً واسعاً على صفحات الجرائد بعضها لمقارعة خصوم الوطن العثماني من اجانب وغير اجانب وبعضها لانتقاد الادارة العثمانية وتوجيه النظر الى مفاسدها . جاء في كتاب أبو نظارة (١٩٥٣) ص ١٢ بقلم ابراهيم عبده « كان من اهم الاحداث التي فتحت ثغرة في طبيعة الحاكم الشرقي وفرضت عليه محاكاة الغرب محاكاة سليمة في تكريم الصحافة واطلاق قيودها الحرب التي قامت بين الاتراك والروس ..» الى قوله :«وكانت تلك الحرب مفترق الطرق في رسالة الصحافة والصحفيين فقد نشأت عدة صحف القليل النادر منها وقف الى جانب السلطان ، والكثير القادر فيها كان حرباً عواناً على مفاسد الاتراك . وهلل اسماعيل لهذه الحرية التي نالتها الصحف ، والتي كشفت عن مواطن الضعف في الدولة العثمانية ولم يفطن الى ان حرية الصحافة

١) عبده : تطور الصحافة ص ٧٤ .

مكنت للصحف ـ وهي تتناول قصة الحرب واسبابها ـ من ان تعلن مباذل الملك في دولته وهي تقارن بين الدول الغربية الحرة وبين دولة الخليفة المريضة وما يدور في فلكها من دويلات » . ومنذ ذلك الحين اشتدت الصحافة الشعبية المصرية وسارت شوطاً في سبيل التقدم والحرية ومنها الاهرام وجريدة مصر ، وجريدة التجارة ، والوطن ، ومرآة الشرق ، والتنكيت والتبكيت وسواهـا . وبرغم الضغط الذي حصل للصحافة في مصر ايام الخديوي توفيق وفي عهد الثورة العرابية ظلت الحركة الصحافية تسير باطراد في سبيل التقدم، فظهرت اواخر القرن الماضي جرائد ومجلات جديدة كالمقطم ، والمحروسة ، والمقتطف والهلال وسواها .

وفي هذه الاثنـــاء كان الشاميون (اي السوريون واللبنانيون) قد جروا شوطاً بعيداً في مضمار الصحافة . واذا كانت الحركة الصحافية في مصر قد بدأت على ايدي ذوي السلطة فيها فانها في القطر الشامي قد بدأت على ايدي البعثات الاجنبية. والسابقون في انشائها المرسلون الاميركان باصدارهم سنة ١٨٥١ جريدة دينية بقيت اربـــع سنوات . ثم أصدروا مجلتهم « النشرة » ١٨٧٠ ولا تزال الى الآن . وحذا حذوهم اليسوعيون فاصدروا اولاً «المجمع الفاتيكاني» ولم يعش طويلاً ، ثم اصدروا جريدة « البشير » فمجلة « المشرق » . اما الوطنيون فرائد الصحافة بينهم هو خليل الخوري اللبناني الذي انشأ «حديقة الاخبار» سنة١٨٥٧. ثم ظهرت لهم عدة جرائد منها ما صدر في الوطن ومنها ما صدر في خـارجه . فالتي صدرت في الوطن وكلها في بيروت : مجلة الجنان والجنة لبطرس البستاني ١٨٧٠ ، والجنينة ١٨٧١ وكان يتولى تحريرها ابنه سليم ، ثم مجلة المقتطف ١٨٧٦ لصاحبها يعقوب صروف وفارس نمر. وبعد نحو عشر سنوات نقلاها الى القاهرة ثم جريدة لسان الحال ١٨٧٧ لخليل سركيس ، وجريدة ثمرات الفنون ١٨٨٥ لعبد القادر القباني وهي اول جريدة اسلامية في سورية ولبنان .

أما في الخارج فأقدم مـا ظهر من الصحف مرآة الاحوال لرزق الله حسون ظهرت في الاستانة ١٨٥٥ ثم في لندن ١٨٧٦- وبرجيس باريس لرشيد الدحداح (في باريس ١٨٥٨) ثم مجلة الجوائب لاحمد فارس الشدياق في الاستانة ١٨٦٠ وكان كما يقول زيدان لها شأن عظيم عند ادباء العرب ونفوذ لدى اولى الامر في الاستانة [1]. على ان مصر كانت اهم ميدان للصحافة الشامية ففيها اسس الشاميون ما يلي : الاهرام لسليم تقلا سنة ١٨٧٥ ـ مصر (اسبوعية) والتجارة (يومية) لأديب اسحق ١٨٧٧ ـ مرآة الشرق ١٨٧٩ ـ المقطم لصروف ونمر ومكاريوس ١٨٨٨ ـ المحروسة لسليم نقاش ، المقتطف (انتقلت من بيروت ١٨٨٦) ـ الهلال لجرجي زيدان ١٨٩٢ . اما المهاجر الاميركية فلم تظهر فيها صحافة قبل ١٨٩١. ولما كانت غايتنا في هذا المقام درس القرن التاسع عشر فاننا لم نذكر غير مـا صدر فيه من الصحف . وليس يخاف انها في قرننا الحـالي قد تطورت كثيراً ولكن القرن الحالي خارج عن نطاق بحثنا الآن .

فرواد نهضتنا الاولون نشأوا في بيئة لم تكد تعرف شيئاً من وسائل التعليم الراقي او الطباعة الحديثة، ولم يكن للصحافة وجود يذكر فيها على انهم لم يكادوا يبلغون نهاية عمرهم حتى كانت المدارس الحديثة والطباعة والصحافة قد اصبحت موطدة الاركان في كثير من الحواضر تنبعث منها اشعة المعرفـة الى كثير من النواحي ومن جراء ذلك حدث تطور يذكر في مدى حياتهم وفي احوال بيئتهم . فبعد ان كان الناس في مطلع القرن الماضي يعيشون ضمن نطاق ضيق من المعرفة يحيط بهم ظلام عام من الجهل والتقاليد والتأخر العمراني اخذوا يتدرجون في سبيـل التقدم المادي والفكري. فاتسعت لديهم افاق الاختبار والنظر الى الحياة والطبيعة وكان لهذا الاتساع اثر ظاهر في تفكيرهم واساليب تعبيرهم . ولما كانت تجـدد اللغة الادبية من اهم ظواهر التطور في عصر الرواد فلنقف قليلاً عليه لنتبين حقيقته

---

١) تاريخ اداب اللغة ٤ ـ ٦٥

والمدى الذي بلغه .

والذي يراجع الاثار الادبية في القرن الثامن عشر ومطلع القرن التاسع عشر لا بد له من ان يرى فرقاً بينها وبين أدب العصور العربية الزاهية . اعتبر ذلك مثلاً في الاسلوب النثري سواء أكان في لغة الدواوين او لغة الاوساط الادبية . فالكتابة الديوانية التي عرفناها في عهد الكتاب القدماء منذ ايام عبد الحميد بن يحيى الى ايام القاضي الفاضل ومن جرى مجراهما كانت برغم ما طرأ عليها من تصنع وزخرفة لغة شديدة الامر. وشتان ما بينها وبين ما وصلت اليه في عصر الانحطاط اذ اصبحت ركيكة بل سوقية لا فرق بينها وبين ما يدور على السنة العوام . ولايضاح ذلك بالمقابلة نثبت هنا قطعتين أولاهما لابن العميد شيخ الكتاب الديوانيين في القرن الرابع الهجري ، والثانية من رسالة رفعت الى ابراهيم باشا المصري من اعيان نابلس .

كتب ابن العميد الى احد العصاة على اميره ركن الدولة البويهي [1] :
« كتابي اليك وانا مترجح بين طمع فيك ويأس منك ، واقبال عليك واعراض عنك. فأنك تُدِلّ بسابق حرمة، وتمُتّ بسالف خدمة ، أيسرهما يوجب رعاية ، ويقتضي محافظة وعناية ، ثم تشفعهما بحادث غلول وخيانة. وادنى ذلك يحبط أعمالك ، ويمحق كل ما يرعى لك » .

الى قوله :

« تأمل حالك وقد بلغت هذا الفصل من كتابي فستنكرها . والمس جسدك وانظر هل يحس واجسس عرقك هل ينبض ؟ وفتش ما حنا عليك هل تجد في عرضه قلبك ، وهل حلي بصدرك ان تظفر بفوت مريح او موت مريح . ثم قس غائب امرك بشاهده وآخر شأنك بأوله الخ » ، والرسالة طويلة وكلها على هذا النسق الانيق الذي كان شائعاً في المكاتبات الرسمية قديماً . قابلها بما جاء في «مضبطة» مقدمة سنة ١٨٤٠ الى ابراهيم باشا من اعيان نابلس وفيهم المفتي

١) عن اليتيمة للثعالبي ٣–١٠

والنقيب وخادم العلم وهم يشكون فيها تصرف أحد الحكام: «المعروض للاعتاب السنية السر عسكرية صانها رب البرية - يعرض عبيدكم بخصوص احمد آغـا ، حضر لعنده رجل يسمى علي المرعشلي من سباهية الاسلامبول . وعند حضوره اظهر الافراح بضرب الفتّاش في بيته وضرب البارود فيه ليلاً ونهاراً . وبعده حضر لعنده ابراهيم افندي جاويش سباهية الشام من الذين كانوا في الاستانة» . الى قولهم « وابراهيم افندي المذكور احضر معه فرّيطـــات من الاستانة في الترتيب الذي حصل في الاستانة في مادة التكليف التي زايدة عن الترتيب سواء كان طلب اموال اميرية او نظام . وفي كل وقت يأمر احمد آغـــا المذكور ابراهيم افندي بقراءتهم على الحاضرين عنده في بيته ويتفوه بكلام خارج ومخالف للارادة العلنية. ومن كون ذلك واظهار السلاح مخالف للارادة الشريفة...وجب علينا تقديم الاعراض لاعتاب دولتكم لاجل يحيط العلم الشريف ان هذه الامور ما احد من اهالي نابلس داخلاً وخارجاً موافق المذكور الخ الخ [1] .

ولو راجعت المراسلات التي كانت تدور بين الامراء والحكام في ذلك الحين لوجدت شواهد لا تحصى على ما بلغته من ركاكة واسفاف لا في قطر واحد بل في معظم الاقطار العربية . ونكتفي للايضاح بنقل قطعة من رسالة بعثها شريف مكة سنة ١٢١٣ هـ الى مدير الحدود العامة في مصر - قـال [2] : « وبعد ، فانه وصل الينا كتابك وفهمنا كامل مـا حواه خطابك بما ذكرت من وصول قنبجتنا وانك ارسلت هجانا برفع العشور عن البنّ وبذلت الهمة في شأن التصرف في نفاذ بيعه . فهذا ما نؤمله من حميد الحركات ووفا المصادقات . فأوجب ذلك عندنا وافر السرور ومزيد الود والحبور . وتأملنـــا في كتابك فوجدنا من صدق مقـاله تكوين اسباب المصادقة والمبـادرة فيما ينظّم مهمات تسليك الطرق بيننا وبينكم عن الوعث وزوال المناكرة ، وشهلنـا الآن الى طرفكم خمسة

١) راجع الرسالة في الاصول العربية لتاريخ سوريا ، لاسد رستم ج ص ٦٠ .
٢) من تطور الاساليب النثرية للمقدسي ص ٢٤٨ .

مراكب مشحونة من نفس بندرنا جدة المعمورة في هذا الاوان . ولا امكن لنا خروج هذا المقدار الا بأشد علاج مع سلب اطمئنان التجار » الى اخر الرسالة . وهي طويلة وكلها على هذا النسق من الركاكة على انها على ركاكتها تفضل على غيرها من رسائل ذلك العهد التي كثيراً ما تتدنى الى دركة العامية[1]، وظلت المكاتبات الديوانية عموماً على هذه الحال الى منتصف القرن الماضي بل والى ما بعد ذلك . وكانت الجرائد الرسمية تنشر البلاغات الاميرية دون اهتمام بتنقيح عبارتها . ففي السنة ١٨٧٦ نشرت الوقائع المصرية كتاباً ارسله الخديوي الى مجلس الشورى وها نحن ننقل للقارىء قطعة منه : قال « بعد ان أبدي لكم ممنونيتي من اجتماعكم لبعض مسائل مهمة نقول اولاً انه ، كما هو معلوم لديكم ان الدكريتو الصادر ابتداء من ٧ مايو ١٨٧٦ كان مؤسساً على اتفاق ما بين الحكومة وجمعية بانكيرات . الا انه نظراً لاحوال معلومة استوجب الامر بعض تعديلات فيه ... ولكونه في هذه المدة تعين من طرف الدّيانة (أي اصحاب الديون) الانكليزيين وكيل مفوض عنهم هو جناب المحترم مسيو جوشن . ومن طرف الديانة الفرنسويين موسيو جوبير . فقد حصل الاتفاق معهم على ما يتعلق بتسوية الديون بالكيفية التي يتقدم لكم جميع تفصيلاتها وما يليها من طرف نظارة المالية » الخ[2] .

وما يقال عن الكتابة الديوانية يقال ايضاً عن الكتابة الادبية . فالبون عظيم بين ما كانت عليه في عهود الازدهار وما بلغته في طور الانحطاط . ولنقابل اذا جازت المقابلة بين اسلوب ابن المقفع والجاحظ ومن جرى مجراهما في التاريخ حتى ايام ابن خلدون وبين الاسلوب المتكلف الفارغ الذي شاع في القرن الثامن عشر للميلاد واوائل القرن التاسع عشر ، من مثل قول اديب

---

١) تجد امثلة كثيرة من هذه الرسائل في الاصول التاريخية لتاريخ سوريا ولبنان (تأليف اسد رستم) ، وفي محررات سياسية لفليب الخازن .

٢) راجعه في مجلة الجنان (١٨٧٦) ص ٨٣٤ او في الوقائع المصرية عدد ٦٧

سوري في كتاب ارسله الى الشاعر بطرس كرامه . قال [1]: « وصل كتاب سيدي ابقاه الله . فمرحبـــا بالطائر الميمون فاستلمته ولا استلام البدوي الحجر والحجون . وذلك بعد ان عاتبت الدهر على تأخره ولمته ، وذممت حظي فيه وشتمته ... وقد كنت نازعاً اليه نزوع الجسم إلى حيزه الطبيعي ، والنفس الى عالمها الاصلي ، والمعلولات الى علاتها ، فرتعت في رياضه المونقة ، وجنيت الف ثمرة من ورقة ، ودخلت منه في جنة قطوفها دانية ، وتأملت الفاظه ومعانيه . فرأيت نظماً لو سمعه الصفا لحنّ، ولو اشتراه السامع بنفسه لضنّ الخ. او مثل تقريظ ورد لمجلة الجنان ١٨٧٠ من احد وجهاء حلب يقول فيه : « نور شمس الهداية ، ومصباح سراج الوقاية ، ملتقى كل بحر زاخر ، صحـاح جوهر الفرد الفريد ، ودر عقد جيد كل جيد ، ارواح ريحـــان الادباء ، ونرجس احداق حدائق الظرفاء » وهكذا الى اخر هذا الكلام المتصنع المستثقل.

ولم ينحصر هذا الترسل التقليدي المتصنع في البيئة الشامية بـل كان عاماً في جميع الاقطار : في مصر والعراق وسواهما ، ولضيق المقـــام نكتفي بمثل واحد نأخذه من فصل لاديب عراقي كبير من ادباء القرن الماضي هو ابو الثناء الالوسي قال واصفاً نساء الاستانة [2] : « وفيهن من النسوان ، مـا يخيل انهن من حور الجنـــان ... وفيهن من عـادات نسـاء الاعراب ، انهن يبرزن الى الازقة بمجرد نقـــاب ، الا انـه الطف من شمـائلهن ، وادعى للصبوة بهن من تمايلهن ، فكأنه نسيم همّ ان يتجـد فعارضه توقد وجنة الخد. وربما يقول ظمآن النظر اذا اتى منهل مياه خدودهن وورد ، الله اكبر كيف نسج الريح على الماء زرد. وقد حققت أن منهن من لا تخرج من بيتها الا الى الحمّام ، ولا يحوم عليها طائر نظر اهل الازقة الى ان تصير وكراً لحَمام الحِمام . نعم لا يخلو غيل من واوي ، وأي بلد عريض طويل ليس فيه كلب عاوي » .

١) راجعه في ديوان بطرس كرامه (١٨٩٨) ٨٥ .
٢) راجعه في نهضة العراق الادبية لمهدي البصير (١٩٤٦) ص ٢٤٠ .

ولم يكن حال الشعر في طور الانحطاط مختلفاً عن حال النثر . فالديباجة الشعرية التي عرفناها لامراء الشعر العربي ايام الامويين والعباسيين مثلًا هي غير الديباجة التي كان ينسجها الشعراء في مصر والشام والعراق قبل منتصف القرن الماضي . فهؤلاء قاموا في عصر متأخر فقد الادب فيه رونقه وجلاله فلم يكن لهم الا تقليد السابقين ، ولكن تقليدهم لم يتجاوز الصناعة البديعية فجاء شعرهم باهتاً لا ماء فيه ، او متكلفاً تنقصه الحياة . وقد ادركه شيء من التجدد على ايدي الرواد فنهض قليلًا كما نهض النثر واخذ يسير في سبيل التطور وما زال حتى دخل القرن العشرون، ناظرا الى امام محاولاً ان يخلع عنه ما كان قد بقي عليه من اطمار ورثها عن عصر الانحطاط .

ولايضاح ما كان عليه الشعر في لبنان وسوريا في مطلع القرن الماضي وما تقدمه ، نرجع الباحث الى قصائد نقولا الترك والبحري واحمد البربير وسواهم من اهل ذلك العهد . وما اعظم الفرق بينها وبين ما نظمه مخضرمو القرنين التاسع عشر والعشرين امثال البارودي وشوقي وحافظ والمطران والزهاوي والرصافي وامثالهم . ولا شك انه قد كان لكبار روادنا في مصر ولبنان ممن ملكوا زمام اللغة فضل في رفع المستوى الادبي نظماً ونثرا .

ولنختم هذا الفصل بكلمة في الحالة العلمية في القرن الماضي كما يصفها رائد النهضة بطرس البستاني صاحب « محيط المحيط » :

ان العرب في ايامنا هذه قنوعون جداً في امر الآداب فانهم يكتفون بأقلها ويحسبون انفسهم انهم قد وصلوا الى اعلى طبقات العلم مع انهم لم يقرعوا بابه. فمن تعلم منهم كتاب الزبور (اي المزامير) والقرآن يقال انه قد ختم علمه. واذا تعلم شيئاً من اصول الصرف والنحو يقال فيه انه قد صار علاّمة زمانه . واذا نطق بالشعر فلا يبقى عندهم لقب يصفونه به . وما ذلك الا لأن ظهور نور قليل في العاقل كاف لأن يغشي على عين الجاهل . ولأنهم الى الآن لم يقفوا على شاطىء اوقيانوس العلوم ويروا عظمته واتساعه . ومع اننا نعتقد بان عرب هذه الايام

وهم من نسل العرب القدماء لا نرى فيهم مـــا رأيناه في اولئك المجاهدين من الثبات والجهاد في ميدان العلوم . ولا نقدر ان نسلم بان النسل قد فسد، وذلك لان جودة عقول العرب وحسن استعدادها في هذه الايام لتحصيل العلوم يبرهنان النقيض. ولكن ذلك ناتج من احوال كثيرة واسباب متنوعة نود لو سمحت لنا الاوقات لبيانها لكي نخفف عمن هم من لحمنا ودمنا اللوم الواقع عليهم من الاجانب الذين لا نشك بانهم كانوا وصلوا الى حـــالة اردأ من حالتنا لو القـاهم الدهر في ظروف كظروفنا . ولكن مها كانت الاسباب فلا سبيل الى انكار كساد بضاعة العلم عند العرب وعدم رواج سوقها بين جماهيرهم ولا سيما اكابرهم .»

وهنا يعدد انواع المعارف اللغوية والعلمية والطبية مبينـاً ما كانت عليـه من التأخر في زمانه ويعقب على ذلك بقوله :

« وما دام العرب يكتفون بالتقليـد والنقل ولا يريدون ان يتعبوا انفسهم بالفحص والتحقيق لا يؤمل تقدمهم في العلوم والفنون .

مراجع عصر الرواد

(على الترتيب الابجدي)

المراجع العربية : **المؤلفون**

الآداب العربية في القرن التاسع عشر (بيروت١٩٠٨-١٠) لويس شيخو

ابراهيم باشا في سوريا	(بيروت ١٩٢٦)	سليمان ابو عزالدين
اسباب النهضة الحديثة	(بيروت ١٩٢٦)	انيس النصولي
بيروت	(بيروت ١٩٢٥)	لويس شيخو
بيروت في التاريخ	(بيروت ١٩٢٣)	جورج يزبك
تاريخ آداب اللغة ج ٤	(القاهرة ١٩١٤)	جرجي زيدان
تاريخ الصحافة العربية	(بيروت ١٩١٣)	فيليب طرازي
تطور الاساليب النثرية	(بيروت ١٩٦٠)	أنيس المقدسي
ثورة وفتنة في لبنان	(١٩٣٦)	لأنطون طاهر العفيفي تحقيق يوسف يزبك
خطط الشام ج ٣	(دمشق ١٩٢٥-٢٨)	محمد كرد علي
مذكرات تاريخية	(حريصا ١٩٢٦)	الخوري قسطنطين الباشا
مشهد العيان لحوادث سوريا ولبنان	(مصر ١٩٠٨)	مخايل مشاقه
مصر والشام في الغابر والحاضر	(مصر ١٩٤٥)	اسعد طلس

المراجع الأجنبية :

Bliss : Reminiscenes of Daniel Bliss, n. y. 1920

Bonné : The Economical Development of the Near East London 1953

Churchill : The Druzes and the Maronites, London 1862

Guys, H. : (ترجمة مارون عبود) : بيروت ١٩٥٠

Hitti, ph. : History of the Arabs, London 1937

Jessup, H. : Fifty - Three Years in Syria, n. y. 1910

Jowett, Wm. : Christian Researches, London 1822

Khairallah, K. T. : La Syrie, 1912

Lammens, H. : La Syrie, Beirut 1921

G. F. Scheltenna (ترجمة عجائب الزمان لابكاريوس) Yale Univ. Press 1920

Warburton : The Crescent and the Cross, 8th Edition

اعلام الرواد

ناصيف اليازجي - رفاعة الطهطاوي

احمد فارس الشدياق - بطرس البستاني

ناصيف اليازجي

١٨٠٠ – ١٨٧١

لا تُذكر النهضة العربية في القرن التاسع عشر الا تبادر الى الذهن ذكر رجل كان له بين اقطابها منزلة عليا . ويكاد يكون المتفق عليه عند المؤرخين ان اركان النهضة في سوريا ولبنان ثلاثة هم: الشيخ ناصيف اليازجي وبطرس البستاني واحمد فارس الشدياق . ولكل من هولاء الثلاثة ميزة خاصة فيما اداه من خدمة للغة العربية وادبها . فالشدياق كان زعيم الكتابة الادبية والبحث اللغوي ، ومن قلمه ظهرت الجوائب، وسر الليال، والجاسوس على القاموس ، وخصائص اللغة، والساق على الساق وغيرها . والبستاني حامل لواء الاصلاح العلمي والاجتماعي ، اسس المدرسة الوطنية ، ووضع المحيط ، ودائرة المعارف ، والجنان ، وكتب التدريس ، وخدم الحضارة الجديدة . واما اليازجي فقد امتاز بالصناعتين (النثر والشعر) فترك لنا دواوينه ومقاماته واراجيزه وسائر مؤلفاته . وسنحاول فيما يلي ان نستعرض حياته وادبه وان نبين ما له من اثر في بناء نهضتنا الحديثة.

حياته : ان لفظة اليازجي لفظة تركية معناها الكاتب[1]، وقد لقب بها أحد جدود الشيخ ناصيف الأبعدين اذ كان كاتباً في حمص لأحد حكامها. ومنه توارثتها الاسرة اليازجية جيلاً بعد جيل . وهذه الاسرة عريقة الاصل ، هاجرت من حوران الى حمص واتخذتها موطناً. وفي اواخر القرن السابع عشر انتقل جد ناصيف الى ساحل لبنان واقام في الشويفات قرب بيروت ، يكتب للأمير احمد المعني حاكم لبنان يومئذ فحظي عنده. ومن الامير نال لقب الشيخ وقد تحدر اللقب في اعقابه حتى الآن . وفي لبنان استبدل اليازجيون المذهب الارثوذكسي بالمذهب الكاثوليكي ، وعلى ذلك نشأ شيخنا ناصيف واسرته . وكانت ولادته سنة ١٨٠٠ في قرية كفرشيما المجاورة للشويفات وفيها نشأ وترعرع .

وكان والده يتعاطى الطب على مذهب ابن سينا ، وعنه أخذ ابنه ناصيف هذا العلم . على اننا لا نعلم انه تعاطاه الا في حادثة واحدة كما سيجيء .

ولما كانت وسائل التعليم في زمانه ضئيلة جداً ومحصورة في الاديرة والمساجد، فقد تلقن مبادىء القراءة والكتابة على يد راهب اسمه القس متى الشبابي. ولكن ذلك لم يشبع نفسه الجائعة الى العلم فأقبل على المطالعة بنفسه متصفحاً كل ما وصلت اليه يده من كتب اللغة والشعر وغيرها . والكتب يومئذ صعبة المنال لقلتها وندورة المطابع بل عدم وجودها ، فلم يمنعه ذلك من السعي المتواصل في سبيلها . فكان يقصدها في مظانها بين الاديرة ، وكثيراً ما ينسخها ، ولا يزال بعضها عند بعض انسبائه الى الآن[2]. وقد ساعده على الاستيعاب والتحصيل

١) كان معولنا الرئيسي في تدوين سيرته على ما يلي :
مجلة الجنان (سنة ١٨٧١) ص ١٥٠ و ١٩٠ بقلم تلميذه الدكتور سليم دياب .
مجمع المسرات (ط ١٩٠٨) ص ١١٦ وما يليها بقلم تلميذه الدكتور شاكر الخوري.
الغرر التاريخية في الاسرة اليازجية لعيسى اسكندر المعلوف
مشاهير الشرق لزيدان ج ٢ ومجلة المشرق (بيروت) ١٩٢٨ ع ١١ و١٢ .

٢) ذكر المعلوف في الغرر ص ١٧ انها رأى منها نسخة عن ديوان المتنبي ، عليها تعليقات وشروح وتاريخ الامير حيدر الشهابي ، ورسالة في لبنان وحكومته .

ذاكرة قوية جداً وشغف عظيم بالادب . فلم يكد يبلغ السادسة عشرة من عمره حتى اصبح معروفاً في قريته وما جاورها بالادب ولا سيا نظم الشعر العامي المعروف بالزجل . وسمع بأدبه البطريرك الكاثوليكي اغناطيوس القطان ، وكان يقيم في دير فوق القرية يعرف بدير القرقفي ، فاستدعاه اليه وعينه كاتباً له ، وظل في هذا العمل سنتين (١٨١٦ - ١٨١٨) انتقل بعدهما البطريرك الى مقر آخر ، وبقي اليازجي في قريته يواصل المطالعة والدرس .

ولما بلغ من العمر الثامنة والعشرين لمع نجمه لاتصاله بالامير بشير الشهابي حاكم لبنان المشهور . وذلك انه مدح الامير بقصيدة يهنئه فيها ببعض انتصاراته فحاز رضاه واستدعاه الى مقره في بتدين (بيت الدين) وألحقه بديوان كتّابه حيث بقي في خدمته ١٢ سنة - اي الى السنة ١٨٤٠، وهي السنة التي نفي فيها الامير وتفرق اعوانه .

وكان رئيس الديوان عند الامير الشاعر بطرس كرامه ، الا أن اليازجي لم يكن فيه دون مقام مرموق . وفي اثناء اقامته هناك زار الشاعر الافرنسي لامرتين الامير بشير ، فتعرف بالشيخ وذكره بالحسنى بعدئذ فيا كتبه عن رحلته الى لبنان .

وبعد نفي الامير بشير انتقل اليازجي مع عائلته الى بيروت حيث اقام الى آخر حياته .

وفي هذه المدينة تألق نجمه ومنها طار صيته في العالم العربي ، فأقبل على مراسلته وأطراء ادبه رجال العلم والادب من جميع الانحاء. ومنهم شاعرا بغداد عبد الباقي العمري وعبد الحميد الموصلي ، ومفتي المنوفية والغربية في مصر الشيخ عبدالهادي نجا الابياري، وأديب طرابلس الشيخ ابراهيم الأحدب، ومفتي الحنفية بالاسكندرية الشيخ حسن اللقاني وسواهم .

وقد نُشر اكثر ما دار بينه وبين أدباء عصره من مراسلات شعرية في كتاب

خاص بعنوان «فاكهة الندماء»[1] . ويبلغ فيه عدد القصائد المرسلة الى اليازجي أكثر من ثلاثين . وكان يجيب عن كل قصيدة بمثلها ، وغالباً من نفس الوزن والروي . وللتمثيل نثبت هنا قليلاً من هذه المراسلات . فمنها ما كتبه الشيخ الابياري مقرظاً ديوان اليازجي . قال بعد ديباجة نثرية ممـا كان ينمقه أدباء ذلك العصر :

هكذا تُنسق اللآلي وتنضد هكذا تحشد المعاني وتحشد
هكذا هكذا الكلام كلام صيغ درّاً بفكرة تتوقد

ويستمر على هذا الطراز من التقريظ ، ولكنه لم يستطع ان يخفي دهشته من ظهور فصيح مثله بين نصارى ذلك العصر ، ويتمنى لو كان اليازجي ممن ارتووا من كوثر الاسلام فيروي سواه :

مـا سمعنا بمثله عيسوياً يتحدى بمثل معجز احمد

أي يأتي بمثل شعر المتنبي .

نظم الدرّ والدراري في أحسن سمط من البيان ، ومهّد
ألمعيّ لكنه عيسويٌ كان اولى بفضل دين محمد
لو تروّى ارتوى بكوثره العذب وأروى أظماء من كان يجحد

ويقول سليم دياب في الجنان عن فاكهة الندماء : « وقد عنيت باستقصائها فوجدت شيئاً كثيراً من رسائل نثرية وشعرية اغفلت في الطبع ، فجمعتها عندي وسأترقب الفرصة لنشرها ان شاء الله » .

ولما ظهرت مقامات اليازجي المعروفة بـ « مجمع البحرين » ، قرّظها كثير من الادباء ومنهم عبدالباقي العمري الذي ارسل اليه من بغداد قصيدة قال فيها:

١) طبع اولاً في المطبعة المخلصية (بلبنان) سنة ١٨٦٦ . وثانيـاً في مصر ١٨٨٩ ونشرته مكتبة عزيز زند .

غرورٌ أم ذرر مكنونة | في عباب البحر بين الصدفين
أم غواني سفح لبنان لمن | حلّ بغداد اشارت باليدين
هـام قلبي بمعانيهـا كما | هام من قبلي جميل ببثين
أم مقامات لناصيف علت | وأنارت فازدرت بالفرقدين

ولعله من المفيد ان نثبت ايضاً شيئاً مما كانوا يقدمون به مراسلاتهم الشعرية ليكون للقارىء فكرة عن الاسلوب التوسلي في ذلك العصر. ففي مقدّمة قصيدة لمحمدعاقل ارسلها من الاسكندرية، يقول لليازجي: «وقد ورد لنا انموذج ديوانكم المنيف ، وعنونة قولكم اللطيف ، فاشترى حبة القلوب في عكاظ بيانه ، وسلب درّة العقول بسحر ألفاظ تبيانه ، واستخف طير الشوق للحوم والانقضاض على اقتناص فرصة التعارف ، واستضعف ُورق دوح التوق للسمو والانخفاض على مناص التآلف »[1] الخ .

وبما دبجه الابياري توطئة لبعض قصائده : « أيها العلم الذي جاوز بند فضله عنان المجرة ، وطار صيته في الآفـــاق حتى اوقف النسر وأوقعه في صرة ، والشهم الذي صيّر السماك الأعزل من رتبته أعزل ، وجعل في فنون البـلاغة قلم كل بليغ مغزل . انـ شوقي الى اجتلاء بدر طلعتك الباهر ، واجتناء ثمر سمَر ناديك الزاهر ، شوق الغريب الى الوطن ، والبعير الى العطن»[2] ، الخ.
وقس على هذين المثلين اكثر ما كان يجري من التوسل الأدبي في ذلك الحين .

وفي بيروت لم ينحصر عمل اليازجي في التأليف ونظم الشعر ومراسلة الادباء، بل تناول التدريس ايضاً . فدرّس اولاً في المدرسة الوطنية التي أنشأها بطرس البستاني ، ثم في المدرسة البطريركية ، والكلية الاميركية. ويحدثنا عنه تلميذه في المدرسة الوطنية الدكتور شاكر الخوري في كتابه «مجمع المسرات» فيقول : « كانـ اليازجي يعطي تلامذته دروساً من ارجوزته في النحو ، وانه قد برّز

١) فاكهة الندماء (مصر) ١٤
٢) المصدر نفسه ٣٨

بالشعر والفصاحة فنال أعلى درجات الفضل بما وضعه من المؤلفات والقوانين (القواعد) المفيدة لدرس العربية » . ويقول ايضاً : « ان البستاني كان يعرض على الشيخ تآليفه لقاموسه « محيط المحيط » وسواه فيصلحها [1] . وعند غيابه عن الصف كان يوكل ولده الشيخ ابراهيم بالدرس . ومن وصفه له : « ان صوته جرش (أي خشن) ولسانه غير فصيح ، لا يفهم كلامه إلا بصعوبة ، ومع أن صوته لا يصلح للغناء كان شغوفاً بالموسيقى . وكان معنا احد التلامذة له صوت جميل فكان الشيخ يغني امامه بعض التواشيح ليتعلمها » .

أما شكله الخارجي وعاداته الخاصة، فقد ذكر الذين عرفوه انه كان حنطي اللون ، معتدل القامة ، قليل الضحك ، وكان يتأنى في حديثه. ولكن حديثه (برغم ما ذكره تلميذه شاكر الخوري من عدم فصاحة لسانه) جذّاب طليّ فكه . وكان يلبس القفطان والجبة ، ويعتمّ بعمامة سوداء ، وينتعل كما يقول تلميذه المذكور «صرماية حمراء» (وهي لفظة عامية في بر الشام بمعنى النعل) . ولم يطلق لحيته قط ، بل ظل يحلقها حتى في أيام شيخوخته .

ومن عاداته انه اذا كتب جلس متربعاً على الارض ، فيمسك القرطاس ويتناول قلم القصب من مسحب دواته النحاسية التي لم تكن تفارق وسطه . ولم يولع بشيء من التسليات والملاهي غير الاكثار من شرب القهوة والتدخين بالغليون . وكانت له جنينة صغيرة حول داره يروّح نفسه بالعمل فيها . أما داره فقد اصبحت لشهرته مقصد الطلاب والأدباء وأهل الوجاهة ، حتى كان لا يمر كبير ببيروت إلا زاره تقديراً لفضله وعلمه . وقد اجمع عارفوه على وصفه بكرم الاخلاق وعفة اللسان ، حتى انه ترفع عن الهجاء في شعره إلا في بيتين قالهما في بخيل على سبيل المداعبة وهما :

---

[1]) وعن شاهين مكاريوس وهو أحد معاصريه انه قلما كان يطبع كتاب في ايامه الا بعد ان يعرض عليه وينقح بقلمه — المقتطف ٧ — ٤٦٨

قد قال قوم ان خبزك حامضٌ والبعض أثبت بالحلاوة حكمه
كذب الجميع بزعمهم في وصفه من ذاقه يومـــاً ليعرف طعمه

وكان فوق كل ذلك ، صادق الحديث ، واسع الاطلاع . ولننقل هنـــا مـــا ذكره عيسى اسكندر المعلوف في وصفه له قـال : « كان اليازجي يحب التروّي والتثبت والصدق ، وكان لا يبت حكماً لم يتحققه ، ولا يؤكد خبراً ما لم يتمحصه ، ولا يثبت رواية لم يعد النظر عليها . وكثيراً مـا كان يقول : « انني لا احب ان اذكر قصة او حـادثة اذا كانت بعيدة عن التصديق ، ولو كنت متأكداً صدقها ، خوفاً من ان السامع يظنني غير صادق »[1].

فحياة اليازجي مرت في ثلاثة اطوار رئيسية : طور الحداثة في القرية حتى بلـغ السادسة عشرة من عمره ، اي نحو اثنتي عشرة سنـة في التحصيـل العلمي والمطالعة . وطور الكتابة في القصر الاميري بيت الدين . ثم طور النضوج الادبي في بيروت . وقد لمع في كل من هذه الاطوار بما عرف له من مواهب غير عـادية وخصوصـــاً في طوره الاخير ، أي الثلاثين سنة التي قضـاهـا في بيروت ، حيث تصدّر مجالس الادب والتدريس . فعظم شأنه وسارت بذكره الركبان ، حتى اصبح اسمه في كل قطر وعلى كل لسان .

فما السرّ في هذه الشهرة ، وليس ادبه كما يرى البعض الا ادباً تقليديـاً لا جديد فيه يجوز ان يعد اساساً حقيقياً للنهضة الادبية الحديثة ؟ سؤال لا بد لنا من الإجابة عنه فنقول :

ظهر اليـازجي في عصر كانت اللغة العربية وأدبهـــا قد بلغـا فيه حضيض التأخر . فالنور الذي كان قد تألق في عهد العربية الذهبي أخذ يضعف مـع الايام ، حتى كاد الظلام الدامس يعم البلاد العربية في خلال القرن السابق للنهضة الاخيرة . وفي وسط هذا الظلام العـــام ولد صاحبنا — ولد والأميّة غالبة في

---

١) الدرر التاريخية ٢٨

البلاد ، فلا مدارس تذكر ، ولا مطابع او صحف ، ولا ادارات شعبية او حكومية تهتم الاهتمام اللازم بنشر الثقافة بين شتى الطبقات . ولم يكد يبلغ أشدّه حتى اخذت بعض أشعة الحضارة الاوروبية تنفذ الى شرقنا العربي ، ثم تتزايد وتضيء هنا وهناك. و كأن الدهر كان يتمخض بحياة جديدة. ولا بد لهذه الحياة في كل بلد من اشخاص يهيئون السبل لظهورها وتقدمها ، وهم الرواد الذين يشقون لها الطريق لتبلغ مداها مع الزمان . ولا يكون عملهم عادة غير « شق الطريق» للأجيال التي تليهم – وذلك ما فعله اليازجي وطبقته في سوريا ولبنان، وما فعله الطهطاوي وزملاؤه في مصر وسواهم في اقطـــار اخرى . ومن أهم العوامل المهيئة للتقدم الفكري في امة ترقية اللغة لتكون أداة صالحة للتعبير ، وبهذا امتاز صاحبنا اذ كان من السابقين في هذا الميدان . فكانت له يد طولى في انهاض اللغة من عثارها واعادة القوة والنشاط اليها . وليس من الانصاف ان نقيس ادبه بمقاييسنا العصرية ، وان نطالبه ونطـــالب اهل عصره بمواضيع وأساليب تكشفت عنها حضارتنا الجديدة . ونحن لا ننكر ان اليازجي من الوجهة الادبية ، كان يعيش في الماضي . ولكن أي ماضٍ ؟ نظرة واحدة الى شعره ونثره ترينا انه لم يقف عند حد الماضي القريب منه، ولم يستلهم اهل الأدب الذين نشأوا في عصر الانحطاط ، بل تجاوزه الى عصور القوة : فتتلمذ على المتنبي في الشعر ، وعلى الحريري في المقامات ، وعلى ابن مالك في الاراجيز ، وجارى أمثالهم في ميدان اللغة والبيـــان ، فخدم اللغة خدمة عظيمة اذ جلاها ورفع مستواها ، وربى ناشئة من اهل القلم كان لهم بعده أثر يذكر في استخدام اللغة استخداماً بيّناً للتعبير عن مقتضيات الحضارة الجديدة . ومن تلاميذه: سليم تقلا منشيء «الاهرام» ، وسليم بستاني محرر «الجنان» ، وعبدالله البستاني صاحب «البستان» ، وخليل الخوري صاحب «حديقة الاخبار» ، وخليل غانم ، واسعد طراد ، ويعقوب صروف منشيء «المقتطف» ، وسواهم من فحول الكتاب واعلام الادب . وما زال اليازجي يؤلّف ، ويدرّس ، وينظم ، حتى بلغ

التاسعة والستين من عمره، فأصيب بفالج ألزمه الفراش وأقعده عن العمل الجدي. وبعد سنتين من اصابته فاجأه القدر المحتوم فذهب تاركاً وراءه في تاريخ العربية ذكراً خالداً ما دام للعربية تاريخ يُكتب. يقول جسب: «وكان له مأتم لم تشهد مثله بيروت ، فقد مشى وراء نعشه الى القبر جمع غفير جداً ، ونحو ٨٠٠ تلميذ من مختلف المدارس » [١] . ويذهب بعض الذين عرفوه ان الذي عجل بوفاته ، ما فوجىء به وهو طريح الفراش من وفاة ولده البكر حبيب ، فندبه شعراً ولم يمكث بعده غير اربعين يوماً قضاها في الحزن والتألم . والظاهر ان الفالج لم يفقده قواه العقلية ، فقد رويت له اقوال واشعار انشأها في اثناء مرضه ، من ذلك قوله متواضعاً [٢] .

الناس تنسب لي ما فوق مرتبتي	من كل علم وفن لست ادريه
يا ايها الناس قولوا اذ اغيب كما	شئتم فما لثناكم من يماريه
فان حضرت دعوا عني مبالغة	« فصاحب البيت ادرى بالذي فيه »

واما رثاؤه لولده ، فقد نظمه في قصيدة لم يتم منها غير احد عشر بيتاً ، ثم جمدت قريحته واصابته نوبة لم يلبث بعدها طويلاً . وهذه هي الابيات [٣] :

ذهب الحبيب فيا حشاشة ذوبي	اسفاً عليه ويا دموع أجيبي
ربيته للبين حتى جاءه	في جنح ليل خاطفاً كالذيب
يا ايها الأم الحزينة اجملي	صبراً فان الصبر خير طبيب
لا تخلعي ثوب الحداد ، ولازمي	ندباً عليه يليق بالمندوب
هذا هو الغصن الرطيب اصابه	سهم القضاء فمات غير رطيب
من للكتابة والحسابة بعده	ولصحة التدبير والترتيب

١) كتاب هنري جسب .Fifty Three Years ج ٢ ص ٤٠٩
٢) الغرر التاريخية ٢٠
٣) الغرر التاريخية ٤٧

لا استحي ان قلت قلّ نظيره ... بين الرجال فلست غير مصيب
والمرء يطلق في الكلام لسانه ... ان كان لا يخشى من التكذيب
أني وقفت على جوانب قبره ... اسقي ثراه بدمعي المصبوب
ولقد كتبت له على صفحاته ... يا لوعتي من ذلك المكتوب
لك يا ضريح كرامة ومحبة ... عندي لأنك قد حويت حبيبي

عائشة : تزوج اليازجي سنة ١٨٣٢ فتاة دمشقية من بيت الطويل اسمها صابات ، وكانت بالنسبة الى بنات عصرها مثقفة تعرف القراءة والكتابة وتميل الى المطالعة . وكان والدها موسى رئيس بنائين ، وقد انتقل مع عائلته من دمشق الى (بتدين) ليشرف على بناء قصر الامير بشير . ولزواجها بشيخنا قصة طريفة : وذلك انها مرضت يوماً فتقدم والدها الى الشيخ لمعرفته بالطب ان يتعهد امر معالجتها ، ففعل وبرئت الفتاة على يديه . وهكذا تمكنت الصداقة بين الاسرتين . ومال اليازجي الى هذه الفتاة لذكائها وسمو اخلاقها ، فطلبها من والدها وكانت في التاسعة عشرة من عمرها وهو في الثانية والثلاثين . ولكن الوالد استمهله يومين قبل اعطائه الجواب ، وسار الى الامير بشير يطلب رأيه . وكان الأمير يحب اليازجي فأشار على والد الفتاة ان يقبل طلبه. وهكذا تمت الخطبة ولم يلبث ان تزوجها بعد ان جهزها الأمير بنفسه . وقد برهنت الايام على انه احسن الاختيار وان التوفيق كان ملازماً له في هذا المضمار . فالفتاة التي اختارها كانت مثال الزوجة الصالحة والأم الفاضلة وربة البيت الحكيمة ، فلا غرابة ان يقول فيها : « لو اوصيت الإله ان يخلق لي زوجة كما اريد ان تكون لما خلق لي احسن من زوجتي صابات »(١) . عاشا معاً ما يقرب من اربعين سنة ، ولم تعش بعده غير عشر سنوات . وقد انجبت له ستة ابناء وست بنات اشتهر منهم في عالم الادب اربعة هم : حبيب وكان له ميل الى الادب لكنه انصرف الى التجارة واصاب منها الثروة والجاه ، ولم يدرس في

---
١) الفرر ٩٩

مدرسة قانونية بل تلقى العلم من اساتذة خصوصيين ، وكان ملماً بعدد من اللغات الحديثة كالافرنسية والايطالية والانكليزية والتركية والرومية . ولم تمنعه التجارة عن الكتابة والاشتراك في الجمعيات الادبية ونظم الشعر وانما حالت دون اكثاره من ذلك . وقد مات سنة ١٨٧٠ عزباً وهو في الثانية والثلاثين من عمره .

ابراهيم : وهو نابغة عصره في اللغة . وله في ايام شبابه شعر وطني قومي عرف منه بضع قصائد - كالتي مطالعها : « تنبهوا واستفيقوا ايها العرب » و « سلام ايها العرب الكرام » و « دع مجلس الغيد الاوانس » وغيرها . سار في خطوات والده تدريساً وتأليفاً الا انه كان اكثر اتصالاً بالحياة الجديدة ، وقد انصرف عن الشعر الى الكتابة والصحافة العلمية والمباحث اللغوية فبرّز فيها حتى أصبح حجة اللغة في زمانه ، وتوفي في مصر سنة ١٩٠٦ غير متزوج وهو في الستين من عمره .

ومن اثاره : « نجعة الرائد في المترادف والمتوارد » و « شرح وتعليق على ديوان المتنبي » . وغير ذلك مما كان ينشره في مجلته «الضياء» وسواها .

خليل : وهو ايضاً مطبوع على الأدب والشعر ، تلقى العلم في مدارس بيروت ثم قصد مصر فاشتغل مدة بالكتابة الصحافية. ثم عاد الى بيروت حيث انتدب للتدريس في المدرسة البطريركية ، ثم الكلية الاميركية . وفي اثناء ذلك كان يؤلف وينظم الشعر .

وما زال حتى توفي بعلة صدرية سنة ١٨٨٩ وهو في الثالثة والثلاثين ، وقد رزقه الله ولد سماه حبيباً كان وحيد الاسرة اليازجية من الذكور. ورزق حبيب هذا ولدين هما آخر فروع من هذه الدوحة المنتمية الى الشيخ ناصيف .

وردة : لم يشتهر غيرها من بنات الشيخ ناصيف . كانت اديبة شاعرة ، وقد طبع لها ديوان حديقة الورد .

والذي يطالع سيرة الاسرة اليازجية يجد ان الشعر كان طبعاً في معظم افرادها وان لم يشتهر منها الا الذين مرّ ذكرهم .

اليازجي الناثر

نثره الفني ، مقاماته

من المعلوم ان للنثر اسلوبين رئيسيين . أحدهما ادبيّ ، وغايته ان يجلو خواطر النفس بشكل فنّي مؤثر . ويدخل فيه كتابة الرسائل ، والمقامات ، والمقالات ، والخطب ، ومــا الى ذلك مما يعنى بالناحية الجمالية من الكتابة . والآخر علميّ . ويستعمل لعرض المعلومات والاخبــار ، وشرح الحوادث والحقائق ، ويدخل فيه المصنّفات العلمية والفلسفية والتاريخية وما اليها . وبين هذين الاسلوبين نوع ثالث يتراوح بينهما . ومن امثلته : القصّة ، والسيرة ، والنقد الادبي. وهذا النوع الاخير قد يجيء بشكل فني فيعدّ من باب الادب ، وإلا كان من باب العلم أو التاريخ .

والذي يراجع تاريخ الكتابة العربية، من اقدم عهودها الى الآن، يستطيع ان يرى ان الأسلوبين الفني والعلمي قد نشآ معــاً وجريا جنباً الى جنب عبر الاجيال . وقد كان النثر الادبي في صدر الاسلام حراً ، يرسل ارسالاً دون

التقيد بزيٍّ فني خاص . وعلى هذا جرى الكتاب والخطباء في ذلك العهد ، الى ان ظهر فنّ التوازن الذي بدأ به عبد الحميد الكاتب ووصل الى اوجه في النثر الجاحظي. ثم خطا خطوة اخرى في طريق الصناعة، فغلب عليه السجع والبديع وظلا يسودانه منذ القرن الرابع الهجري حتى منتصف القرن الماضي ، بل حتى اواخره . وقد اشتهر منه فن المقامات، وهو فن كان البادىء به بديع الزمان الهمذاني (المتوفى سنة ٣٩٨ هـ) . فوضع نحو خمسين مقامةً يعارض فيها احاديث ابن دريد . وبعد الهمذاني بنحو قرن نبغ الحريري فجرى في هذا المضار وأنشأ ايضاً خمسين مقامة نالت شهرة واسعة حتى كادت تنسي الناس مقامات البديع . وسار المتأدبون في كل جيل على طريقته حتى عهد شيخنا اليازجي . وفي هذا العهد ظهر جماعة من كتّاب المقامات كأحمد البربير ، ونقولا الترك ، والشهاب الألومي ، وابرهيم الاحدب ، وعبدالله فكري ، وفارس الشدياق وسواهم . ولكن مقامات اليازجي الستين المعروفة بـ « مجمع البحرين» نالت قصب السبق وأحرزت من الشهرة ما لم يحرزه سواها . وهكذا قرن اسمه باسم البديع والحريري ، وأصبح هؤلاء الثلاثة أئمة هذا الفن غير منازعين .

ولما ظهر « مجمع البحرين » قرّظه ادباء العصر في مختلف الاقطار العربية وشهدوا له بالتقدم . ولم يلبث حتى جعل معوّل الطلبة في المدارس ، يدرسونه ويستظهرون بعضه ويقلدون اسلوبه . وظلّت له مكانته حتى أواخر القرن الماضي أو مطلع القرن الحالي حين اخذ النثر الحرّ المرسل يتربع على عرش السيادة ، ويحل محلّ النثر الصناعي المسجّع . فلنقف قليلاً على هذا الكتاب لنتعرف به وبانشاء صاحبه .

وأول ما نودّ تقريره ان للمقامات القصصية عموماً[1] ، خطة واحدة لم تتغير

[1]) هناك مقامات بمثابة عظات ونصائح كمقامات الزمخشري، ومقامات علمية وكل هذه لا تدخل في بحثنا الآن .

منذ وضعها البديع الهمذاني . فهناك شيخ للمقامات تدور عليه وقائعها، وراوية يروي لنا تلك الوقائع . وقد يصحب الشيخ فتاة وغلام (أو احدهما) يشاركانه في حياته وأعماله . وهذا الشيخ رجل فطِن ، ذو اطلاع ادبي واسع ، ولكنه قصر همه على تحصيل الرزق بالتحيّل والتكدية . وغاية المقامات لغوية ادبية ، فهي كما قال ابن الطِقطقى: «لا يستفاد منها سوى التمرّن على الانشاء والوقوف على مذاهب النظم والنثر»[1] .

وكما جعل البديع شيخ مقاماته أبا الفتح الاسكندري وراويته عيسى بن هشام ، جعل الحريري شيخه أبا زيد السروجي وراويته الحارث بن همّام . وحذا حذوهما اليازجي فجعل شيخه ميمون بن خزام، وراويته سهيل بن عبّاد .

ويظهر لنا أن اسلوب البديع في مقاماته اسهل مأخذاً وأقلّ تقيداً بالسجع والبديع ، وأميل الى روح الدعابة والظرف من اسلوب الحريري واليازجي . فهذان اكثر اهتماماً بالصناعة وبالغرائب اللفظية والانشائية . ومما لا شك فيه ان اليازجي متأثر بالحريري ناسج على منواله ، وكذلك اكثر الذين حاولوا الجري في هذا السبيل من الادب الفني .

والذي يطالع «مجمع البحرين» يجده مجموعة من الغرائب البديعية والصناعات الشعرية ، والمعلومات اللغوية والنحوية ، والاوضاع الطبية والفلكية ، والامثال العربية ، والالغاز اللفظية . كل ذلك في جوّ من البداوة يشعر القارىء فيه انه يعيش بين مضارب الأعراب ، أو في عصور العربية الاولى ، بعيداً عن عصر الكاتب وبيئته . ويسود مقامات اليازجي ما يسود مقامات الحريري من روح التشاؤم وسوء الظن بالناس ، والاعتقاد بذهاب المكارم وانتشار المآثم ، وانه لا بدّ للعاقل من استعمال المكر والحيلة والتذرع بأية وسيلة لبلوغ المنى . واليك تفصيل ما أجملناه من وصف هذه المقامات :

---

١) الفخري ١٣

الجو البدوي : يحملنـا الراوي سهيل بن عباد معه على نياق تسير بنـا بين البوادي ، فاذا نحن امام بعض المضارب البدوية . قال في مطلع المقامة الاولى: « مللتُ الحضر ، وملت الى السفر . فامتطيتُ ناقة تسابق الرياح ، وجعلتُ اخترق الهضاب والبطـاح ، حتى خيّم الغسق ، وتصرّم الشفق ، فدفعتُ الى خيمة مضروبة ، ونار مشبوبة » . وفي هذه الخيمة يعرّفنا بالشيخ ميمون بن خزام . ثم يحدّثنا عن غارة لصوص على مرعى لبعض القبائل ، وكيف مكر الشيـخ الخزامي بهم حتى أوقعهم في ايدي رجال القبيلة ، وخرج هو من بينهم بالغنيمة الباردة . وهكذا نجد انفسنا مع الاعراب في البادية نعيش عيشتهم ، ونختبر اختبارهم . ونطّلع على أحوالهم . وفي بعض مقاماته يصف لنـا عوائد البدو ، وألبستهم ، ومآكلهم ، ومساكنهم ، كما ترى في المقامة التغلبية التي يستهلها بقوله :

«شخصت في نفر من أهل العالية[1] ، الى اطراف تلك البادية، فسرنا لا نألو جهداً ، ولا نعلو مهداً ، حتى تبطّنا مفازة قد ضربت اساهيجها [2] الريح، حتى كأنها أهاجيج شِقٍّ او سطيح[3]». وفيا هم على هذه الحال اطبق عليهم فرسان من بني تغلب فأسروهم وساقوهم الى اميرهم . وفي حضرة الامير يقوم من بـين الاسرى شيخ – هو الخزامي وكان متنكراً لم يتبينه سهيل وهو بين المسافرين – فيطرف الامير ورجاله بأبيات شعرية يصف فيهـا العرب واحوالهم ، ورحالهم واطعمتهم وخيولهم . ويطرحون عليه السؤال تلو السؤال فيجيبهم بتفنن عجيب. وما زال كذلك حتى عفا الامير عنه واعتذر له عن اسره واسر رفاقه . ثم امر له بالطعام. ولما اراد الشيخ الانصراف اعطاه الامير جواداً ومالاً. قال الراوي « فخرجنا بالخيل والمال والزاد ، ونحن نذم المبدأ ونحمد المعاد » .

---

١) ما فوق نجد الى ارض تهامة

٢) الاساهيج خطوط الرمل

٣) الاهاجيج ما يخطه الساحر على الرمل . وشق وسطيح كاهنان من اليمن .

وحياة الخزامي البدوية متعددة النواحي ، ووقائعه فيها كثيرة . وحيثما حل رأيت من حيله عجباً، وفي احاديثه ونكاته ما ينسيك مكره ويحبب اليك لقاءه.

سعة الاطلاع والمعلومات: ومن صفات الشيخ ما ذكرناه من سعة معلوماته مثال ذلك المقامة الطبية ، حيث نرى الشيخ يناقش استاذاً في مدرسة الطب . وكان يملي على الطلبة بعض النصائح الطبية ، كقوله مثلاً : « يا بني لا تجلس على الطعام الا وانت جائع ، وقم وانت بما دون الشبع قانع . وباكر في الغداء ، ولا تتماس في العشاء . والزم الرياضة على الخلاء ، واجتنبها عند الامتلاء . ولا تدخل طعاماً على طعام، ولا تشرب بعد المنام. ولا تعجل في المضغ والازدراد واجتنب كل ما لم ينضج وما بات من الطعام فهو مجلبة للفساد». فانبرى له الشيخ بأسئلة لم يستطع الاستاذ الاجابة عنها . فقال له الشيخ : « هيهات ان العلم بتحقيق القضايا ، لا بتنميق الوصايا » .

وفي المقامة الفلكية نرى الشيخ عالماً من علماء الفلك ، يتحدث عن السيارات والبروج ، ومنازل القمر ، وطوالع الاضواء وما الى ذلك . فيدهش من سعة علمه السامعون ، ويقولون له : « شهد الله انك لقطب الارض والسماء » . ثم يطلبون منه ان ينظر في الفلك ما لهم من سعود ونحوس فيفعل، «حتى خيل للقوم ان عنده علم الغيب». فيجمعون له مبلغاً من المال حتى اذا قبضه انصرف راكباً ناقته وهو ينشد :

اني خلقت لأحيا	حتى يشاء القضاء
ولي فؤاد لبيب	يجول حيث يشاء
ان ضاقت الارض عني	فما تضيق السماء

اضف الى ما ذكر آنفاً معلوماته التاريخية والحيوانية والنباتية والاجتماعية وهي كثيرة جداً، نجدها كيفما قلبنا مقامات اليازجي . على انه، ونحن نتحدث عن المقامات ، لا يسعنا الا ان نقف هنيهة على ظاهرتين بارزتين فيها وهما :

نوادر اللغة وغرائب التركيب

نوادر اللغة : من امثلة هذه النوادر ما ورد في المقامة البغدادية. فقد روى سهيل ابن عباد انه دخل مدرسة في بغداد فوجد الشيخ الخزامي فيها والطلبة محدقون به واليه . « واذا امرأة تنادي : يا شاري اللبن الرخيص الثمن ! وكانت في اثناء الكلام تتلاعب في الاعراب على الثلاثة الاحكام (اي تقلب لفظة الرخيص بين الرفع والنصب والخفض) فعجبوا لافتنانها ، وتاقت انفسهم الى استنباط بيانها» . فدعوها وسألوها عن اسباب لحنها ، وحبوها ببعض الدراهم ففسرت لهم الاشكال وصدق شيخنا على تفسيرها . فطلبوا منه ان يأتي بشيء من مثل ذلك . فقال قد جاء في كلام العرب قولهم : لا صمتَ يوم . وقولهم: هذا بُسر اطيب منه رُطب . ومثله : لا ناقة لي في هذا ولا جمل [1] . ثم اندفع في شرحه كاليعبوب ، حتى ملأ العيون والقلوب . فانهالت عليه الجوائز حتى لم يبق حاجة في نفس يعقوب .

ومن هذه اللغويات ما جاء في المقامة الكوفية من اسئلة نحوية يلقيها الخزامي على لفيف من اهل اللغة كقوله : « ما الفرق بين التمييز والحال وبين عطف البيان والابدال . واين يستوفى حق الاسناد ، ولا يخرج بركنيه عن حكم الافراد . واي الضمير يتردد بين التعريف والتنكير » . وغير ذلك من المسائل التي اشكلت عليهم فطلبوا منه شرحها بعد ان نفحوه بمبلغ من المال .

ومثلها المقامة البحرية حيث نرى حلقة من الادباء يتذاكرون في حقائق العربية ودقائق الاعراب . واذا شيخ منهم يقوم خطيباً فيهم فيحمد الله الذي جعل العربية افصح اللغات . ثم يأخذ في الحديث عن مزاياها وكيف ان الناس « نقضوا ذمامها وقوضوا خيامها ، حتى ضاع مفتاحها وانطفأ مصباحها » . فلما فرغ من خطبته « تلقاه الخزامي بثغر باسم ، وحياه كعادة المواسم . وقال :

١) يريد انه روي عنهم تحريك « يوم » و « اطيب » و « جمل » بالحركات الثلاث .

يا مولاي ما أنا لديك بمن يساجل ، فأين الفارس من الراجل. ولكنني رأيتك ابن بجدتها فرايت ان استفيدك عما يفيدك الثواب ، ان مننت بالجواب » . ثم اندفع يسأله اسئلة نحوية اشكلت على الخطيب . ولما ظهر عيّه شرع الخزامي يشرحها واحداً واحداً فأعجبوا بغزارة علمه ودفعوا له ما تيسر من المال «فانثنى بعدما ودع ، وهو قد اثنى فأبدع » .

✱

وفي المقامة الفراتية نرى الشيخ الخزامي يناقش شيخاً آخر حتى يعييه باسئلته ، وبما يبديه من غرائب معرفته . وفي المقامة اللبنانية يدور الجدال اللغوي بين الشيخ الخزامي وغلامه امام جماعة من العظماء وهم لا يعرفون ان الغلام يخص الشيخ . وبعد جولات وصولات يكثر فيها الجدل واللجاج والاتيان بغرائب الالفاظ ، يتظاهر الشيخ بالانخذال فيعجب القوم بالفتى ويغدقون عليه بالهبات ، وهكذا يخرج الشيخ من حضرتهم ذليلًا . ولكنه وفتاه لا يلبثان ان يلتقيا فيراهما سهيل بن عباد والشيخ قد استولى على تلك الهبات والفتى قائم لديه كالرقيق فيقول له الشيخ : « عد الى اصحابك بالسلام واكتم حديثي مع الغلام. فانثنيت عنه بين العذر واللوم، وكتمت الحديث حتى وصلت الى القوم ».

وفي المقامة السوادية يسير بنا سهيل بن عباد في سواد العراق على ناقته الى معرّس قوم ، والخزامي بينهم . والتقى به على انفراد شيخ من علماء البلدين (البصرة والكوفة) وكان الخزامي ينشد شعراً فتلقاه العالم متعرضاً وقال له معترضاً: « ان اخلال مثلك بالاعراب ، مما يعد من الاغراب » . فوثب الخزامي كالنمر وانهال عليه باسئلة في البناء والاعراب عجز عن حلها فاسترضى الخزامي بطيلسان وتوسل اليه ان يستر امره فخرج يميس بالطيلسان وهو ينشد :

قل لمن شئت في العراقين اني ... قد حباني الامام بالطيلسان
مأرب لا حفاوة من حريص ... رام بالطيلسان طيّ لسان

غوائب التركيب : واكثره من باب النظم والتلاعب بالألفاظ . ومن ذلك مقامة بكاملها هي المقامة الرملية . وفيها نجـــد انفسنا مع سهيل والخزامي في مكتبة مكتظة بالطلبة . وكان بينهم استاذ شيخ فأشار الى بعض الطلبة وقـال هل تذكر الابيات العواطل، فأنشد قصيدة من ٢٦ بيتاً ليس فيها حرف منقط ومطلعها :

الحمـد لله الصمـــد حال السرور والكمد
الله لا إله إلا الله مـولاك الاحـــد

وهكذا الى آخرها . فيقول له الاستاذ احسنت ، ثم ينادي طالبـــاً آخر ويطلب منه ان ينشد ابياتـاً معجمة (اي كل حرف منها منقط) فينشد ١١ بيتاً من مثل قوله :

بشجيّ يبيت في شجن فِـتن يتنشبن في فـتن

ثم يطلب من آخر ان ينشد ابياتاً ملمّعة (اي التي شطر منهـا مهمل وشطر معجم) فيتلو سبعة ابيات على هذا النمط :

اسمر كالرمـح له عامـــل يُغضي فيقضي نخبٌ شيّـق
مسك لماه عـــاطر ساطع في جنة تشفي شجٍ ينشق

ويقوم آخر فينشد ابياتاً خيفاء (كلمة منهـا منقطة وكلمة بـلا نقط) من مثـل :

ظبيةٌ أدمـاء تغني الأمـلا خيّبت كل شجيّ سألا

وغيره ينشد ابياتاً رقطاء (والرقطاء التي حرف منها مهمل وحرف معجم) كقوله :

ونديم بات عندي ليلة منه غليل

فلما استتم الانشاد تهلل الاستاذ مفتخراً بمهارة تلاميذه . واذا الشيخ الخزامي وقد وثب من مكانه وقال : « ما بالك ذكرت اللجين وتركت اللجين ، اين

عاطل العطل الذي لا نقطة في اسمه ولا مسماه (اي الذي لا نقط فيه لفظاً او رسماً كالحاء او الدال مثلاً ، فهما في الرسم ح — د بلا نقط ، وكذلك هما كاسمين : اي حاء ودال) .

فقال الاستاذ ان ذلك ما لا يتصور ، فان استطعته فأنت الغالب المقدم . فبادر الشيخ الى انشاد اربعة ابيات من هذا الباب ، اولها :

حول درّ حلّ ورَد هل له للحر ورد

فأعجب الجمع به وقالوا : «ربّ واحد يعدل بألف وانا لنراك شاسع الوطن واسع الفطن فخذ هذه النفقة مدّاً ، وان شئت ان تبقى معنا اجرينا عليك ماء عدّاً » . فأخذ المال وضرب لهم موعداً ثم انصرف ولم يعد .

وفي المقامة الرجبية ، بيتان يمدح بهما الحزامي قوماً ، وهما :

حلموا فما ساءت لهم شيم سمحوا فما شحت لهم منن
سلموا فلا زلّت لهم قدم رشدوا فلا ضلت لهم سنن

فاذا قرأت كلماتها عكساً صارا للهجاء :

مِنن لهم شحّت فما سمحوا شيمٌ لهم ساءت فما حلموا
ُسنن لهم ضلت فلا رشدوا قدمٌ لهم زلت فلا سلموا

وفي المقامة البصريّة ١٤ بيتاً ُتقرأ طرداً وعكساً دون تغيير في اللفظ أو المعنى وهي من الجناس الذي لا يستحيل بالانعكاس ، وأولها :

قمرٌ ُيفرط عمداً مشرقُ رشّ ماءً دمعُ طرفٍ يرمق

ومنها :

قرّحتْ ذا عبراتٍ اربعٍ عبراتٌ اربعٌ اذ تحرقُ

وفيها بيتان طردها مدح وعكسها هجاء ، وهما :

باهي المراحم لابسٌ   كرماً قديمٌ مسند
باب لكل مؤمّلٍ   غنمٌ لعمرك مرفَدُ

وهناك غرائب لفظية اخرى تجدها في تضاعيف المقامات ، ويدخل فيها انواع البديع والالغاز . ومن طريف ألغازه قوله في عليّ :

مالي أنادي يا عليُّ ولا تلبي يا علي
للناس نفعك مبصراً   واذا عميت فأنت لي

وفي عثمان :

ماذا ترى أصنع في حُسّدٍ   قد حجّبوا عني بديع الزمان
لهم عيون راصدات لنا   اذا بدت عين تلاها ثمان

وهناك مقامة معقودة بكاملها على الالغاز ، وهي المقامة اللغزيّة حيث يباري غلامه بهذا الفن ، فيلغز بالفلك ، والقمر ، والهالة ، وقوس السحاب ، والماء ، والنار ، والغيم . فيعجب السامعون بنظمه وشرحه ، ويقبلون عليه بالعطاء اعترافاً بفضله .

بقي ان نقول : ان مقامات اليازجي مفعمة بالحِكَم والوصايا والعظات ، وكذلك مقامات الحريري إمام هذه الصناعة . ومن وصايا المقامات اليازجية ما هو من قبيل الحكَم الاخلاقية والتجارب المفيدة ، كقوله من المقامة الحِكمية: « يا بنيّ ، لا تسلم نفسك الى هواك ، ولا تستودع سرّك سواك ، ولا تفوّض امرك إلا لمن يعرف قدرك ، ونزّه نفسك عن الخسائس ، وقلبك عن الدسائس. ولا تهرف فيما لا تعرف ، ولا تصدّق كل ما تسمع ، ولا تنقل القدم الى ما يعقب الندم ، ولا يكن حبّك كلفاً ولا بغضك تلفاً . ولا تلبّس الحقيقة بالمجاز ، ولا تعد إلا وانت قادر على الانجاز ، واعلم ان لكل مقام مقال ، ولكل دهر رجال . وظن العاقل أصحّ من يقين الجاهل » .

وقريب من هذه الوصايا ما تجده في المقامة العاصية ، والمقامة الادبية .

وأدنى منه الى الوعظ الديني ما تشتمل عليه المقامات المعرّية والتهامية والمكيّة

على ان من وصاياه ما يراد به التلاعب اللفظي ، فظاهره شيء وباطنه شيء آخر ، كقوله من المقامة السروجيّة : « يا بنيّ ، اذا ركبت متن الصحراء فاطلب خد العذراء [1] . واذا نمت فاعتنق الصبي [2] ، ولا تصلّ على النبي [3] . واشرب من كأس الفاجر [4] ، لا من كأس التاجر [5] . واذا كلّفت حمل الجنازة [6] ، فاطلب المفــازة [7] . واذا دخلت الحلقة فاحذف السلام [8] ، واقتصر على ما كَذب من الكلام [9] . وحرمّ الصبر [10] على الاسير ، والجبر [11] على الكسير . واقطع السواعد [12] ، ولا تتبع القواعد [13] . وهكذا الى آخر هذه الوصايا .

ومما يذكر من هذا القبيل كثرة ما تحويه المقامات من امثال نثرية وشعرية ، وقد أشرنا الى شيء من ذلك في حديثنا عن اليازجي الشاعر ، فنقف منه عند هذا الحدّ .

ويظهر ان شيخنا ميمون بن خزام لم يكد يصل الى نهاية مغامراته حتى ملّ حياة التكدية والمكر . فها نحن نقابله في المقامة الاخيرة (القدسيّة) وقد وقف في المسجد الاقصى يخطب الناس نادماً مستغفراً ، فيقول: « فاني طالما ارتكبت الأوزار ، وتبطّنت الاقذار ، واجترحت المغــارم ، واستبحت المحارم ، وانتهكت الاعراض فسوّدت منها كلّ بياض . وما زال هذا دأبي مذ شبيت الى ان دببت ، فليس لي ان اعظ احداً ، ولا افوه بخطبة ابداً . وعليّ ان أقصر درمي ، على وعظ نفسي . وها أنــا قد اعتمدت الأوبة ، واعتصمت بالتوبة . فادعوا الله لي ان يأخذني بحلمه لا بحكمه ، وان يعاملني بفضله لا

---

١) اي الكوفة . ٢) السيف . ٣) الطريق . ٤) النبع . ٥) بائع الخمر .
٦) زق الخمر . ٧) النجــاة . ٨) خففه ولا تطل . ٩) كَذب اي وجب .
١٠) حبس الأسير. ١١) الجبر القهر. ١٢) السواعد مجاري المياه . ١٣) القواعد النساء اللواتي لم يتزوجن .

بعدله » . ثم اخذ بالنحيب والنشيج ، فتأثر السامعون حتى شاركوه في البكاء وأرادوا ان يحبوه بالمال فامتنع عن اخذه ، وقال : قد تجرّدت عن عرض الدنيا . ثم نهض مكبّراً . يقول سهيل راويته : « فبات يساهر الفرقد وهو لا يفتُر عن ذكر الله ، ولا يملّ من الصلاة ، حتى اذا اخذت الدراري في الافول قام على مرقبةٍ وأنشأ يقول :

قم في الدجى يا أيها المتعبّد حتى متى فوق الأسرّة ترقد

الى آخر هذه القصيدة المعروفة .

قال سهيل : فلما فرغ من ابياته غاص في التهليل والتحميد ، والترتيل والتجويد، حتى تهافت من وجْدِهِ ، وكاد يغيب عن رشده. فعجبت من استحالة حاله ، وأيقنت بحؤوله عن محاله . ولبثت عنده شهراً اجتني من روضه زهراً ، واجتلي من أفقه زُهراً الى ان حُمّ الفراق ، فاعتنقني مودعاً ، ثم سايرني مشيعاً ، وقال : موعدنا دار البقاء ، فكان ذلك آخر عهدنا باللقاء .

والآن نظرة ختامية في مقامات اليازجي :

من المعلوم ان اليازجي في هذا الباب قد حاول ان يجاري الحريري ، بل هو يتابعه وينسج على منواله . والذي يقابل ما كتبه هذا بما كتبه ذاك ، يرى تشابهاً عظيماً في المادة وفي الاسلوب . فبطل المقامات اليازجية لا يكاد يختلف بشيء عن بطل المقامات الحريرية . كلاهما يتصفان بنفس الصفات . ولكل منهما غلام يلازمه ويشاركه في وقائعه . والوقائع نفسها تتقارب الى درجة التماثل ، وكذلك الوصايا والعظات . والألاعيب اللفظية او التركيبية التي تراها في مقامات الحريري : الطيبة، والشتوية، والحلبية، والمغربية، والقهقرية، والرقطاء، نرى مثلها في مقامات اليازجي : الرجبية ، والبصرية ، والرملية ، واللغزية ، والحلّية ، والسروجية ، وكما تنتهي مقامات الحريري بتوبة البطل وتزهده ، تنتهي ايضاً مقامات اليازجي . وقد اصاب الدكتور شوقي ضيف اذ قال : « لا نبالغ اذا قلنا ان مقامة اليازجي تقليد دقيق لمقامة الحريري . فهي تطابقها

من جميع الوجوه »[1] . وكذلك قوله في الوجهة اللغوية من مقامات اليازجي: « ولا ريب في ان هذا الجانب من المقامة اليازجية يدل على براعة صاحبها ، غير انها براعة لغوية او علمية، فنصبح وقد انحرفنا عن رياض الادب والفن الى وهاد اللغة والعلم الجافة التي قلما نجد فيها روحاً او ريحانـاً » [2] . وهو يرى « ان فكاهة اليازجي جامدة وان تيارها لا يتدفق ، فمن غير شك هذا التيـار اقوى عند بديـع الزمان والحريري منه [3] عند اليازجي » .

والواقع انه ليس للحريري ، ولا لليازجي تلك الفكاهة التي يطالعك بهـــا بديـع الزمان في عدد من مقاماته كالمضيرية ، والبغدادية ، والصيمرية وسواها . فهو محدث لطيف النكتة ، كثيراً ما يخرج بك من جفاف المقامة اللغوية الى طلاوة القصة الادبية . على ان مقامات اليازجي تمتاز بمـا فيها من سعة الاطلاع وكثرة المعلومات ، والافتنان بغرائب الصناعة . ونظمه فيها اسلس من نظم صاحبيه .

نثره المرسل : لم يترك الشيخ اليازجي من هذا الباب شيئاً يذكر ، سوى بعض كتابات منها . « رسالة تاريخية » تصف نظام الاقطاعية في عهده واصولها المتبعة . وقد نشر هذه الرسالة تباعاً في مجلة «الرسالة» وعلـق حواشيها الخوري قسطنطين الباشا . وكان المستشرق الدانمركي مهرن (Mehren) قد نشرها اولاً عن مخطوطة غفلٍ من اسم واضعهـــا . واما الخوري قسطنطين فقد اعتمد على نسخة خطية اخرى موقعة باسم اليازجي سنة ١٨٣٣ . وهو يؤكد ان اليازجي هو الذي ألفها . ويذهب هذا المذهب الاب لويس شيخو ، ويقول ان العلامة فليشر (Fleicher) نقلها الى الالمانية ونشرها في المجلة الاسيوية الالمانية ، وقد

---

١) راجع رسالته في المقامة (ط١٩٥٤) ص ٨٨ .
٢) المصدر نفسه ص ١٠١ .
٣) المصدر نفسه ص ١٠٨ .

نسبها بعضهم الى غير اليازجي ولكن المحققين اكدوا انها له [1] .

والرسالة تصف جبل لبنان ولا سيا القسم الجنوبي منه ، فتذكر اصناف الحكام ومراتبهم ، وعادات الناس واحوالهم ، ومصطلحاتهم وطرق معاملاتهم ومكاتباتهم وما الى ذلك مما لا يستغني عنه المؤرخ .

والذي يطالع هذه الرسالة يلاحظ فرقاً بيناً بين اسلوبها واسلوب اليازجي في المقامات . ففي المقامات كما رأينا تسود الصناعة البديعية التي كان يعتمدها مترسلو ذلك العصر والعصور السابقة ، ويتنافسون في تنميقها والافتنان بغرائبها .

واما هذه الرسالة فأسلوبها سهل ، لا كلفة فيه كالذي نراه عادة في المصنفات العلمية او التاريخية الحديثة . وهاك مثلاً منها، قال في سياق حديثه عن امتيازات الامراء والمشايخ : « وقد جرت عادة هذه الطوائف ان لا يقتل احد منهم بأمر الحاكم ولا يحبس ولا يضرب . فاذا اذنب احدهم كان قصاصه بسلب المال ، او اتلاف العقار او النفي من البلاد ونحو ذلك – الا في النادر واستظهار الحاكم عليهم – حتى اذا دخل المذنب عليه وهو تحت غضبه ، يعامله في المقابلة والسلام على عادته المألوفة ، غير متعرض لاهانته بكلام او غيره . واذا كتب اليه كتاب الغضب لم يغير فيه شيئاً من ألقابه وكراماته ، فلا يذكر فيه الا ما يدل على المحبة ، ويثبت ختمه في وجه الصحيفة ، بخلاف كتاب الرضى فانه يختمه من الخارج . وهذا الختم عادة له مع جمهور الرعايا ايضاً . واما في سائر الاوقات فاذا دخل عليه احد المناصب ، فان كان من بني الشهاب نهض اليه عند دخوله ، ونزل عن بساطة واقفاً حتى يصل اليه فيسلم عليه مقبّلاً كتفه . وان كان من غيرهم لم ينهض حتى يُبدأ بالتحية » [2] .

ومما يذكر له في هذا الباب رسالة بعث بها الى المستشرق الشهير سلفستر دي ساسي ناقداً شرحه لمقامات الحريري . وقد طبعت هذه الرسالة في ليبزغ سنة

١) الآداب العربية في القرن التاسع عشر ج ١ ص ٣١ ومجلة المشرق ١١ – ٩٥٣ .
٢) الرسالة (طبع حريصا) ص ٧ .

١٨٤٨ . ومما جاء فيها: «اما بعد، حمداً لله على نعمه وآلائه ، والصلاة والسلام على انبيائه واوليائه . فانني قد وقفت على كتابكم في شرح المقامات الحريرية ايها السيد الكريم ، فرأيتها طرفة بديعة تشهد لكم بالفضل والبلاغة الى ما لا مزيد عليه ولا منتهى اليه . فلو ادركه الحريري لرأى منه ما لم يخطر ببال ، ولو تلي على تربته لاهتزت ذات اليمين وذات الشمال . غير اني قد عثرت فيه على شوارد لا تنطبق على اصول اللغة فانكرتها ، وحملت بعضاً منها على جهل الكاتب وان كنت في ريب من وقوفكم على طبع الكتاب ومراجعتكم له . وعلى كلا الوجهين قد اجريت هذا البعض على علاته ولم اتعرض له. وحملت البعض الآخر على غفلة وقعت اما منكم لغرابة بقيت عليكم في وجه اللغة ، واما مني لضعف الروية . وعلى كلا التقديرين قد علقت هذه العبارات لعلها تنبهكم ان اصابت ، او تفيدني ان اخطأت .. وقد تطفلت به عليك وبي ما بي من المهابة ، اذ لم تكن ممن يقابل بمثل هذا، ولم اكن ممن يختاره لولا سؤال من تحق له الاجابة من رجالكم الكرام » .

وبعد هذه الديباجة يأخذ بسرد الاخطاء وتصحيحها ومعظمها من قبيل الهفوات الصرفية او النحوية . حتى اذا بلغ ختامها ادركه تواضع العلماء فقال : « هذا ما علقناه مما انكرناه في كتابكم . واني استوهبكم هذه الجسارة التي لست كفؤاً لها ، والتمس منكم الافادة في ما لم ادركه ، والتسليم في ما لم تنتبهوا اليه . واعيذكم من ان تقولوا هكذا وجدنا في ما نقلنا عنه فيكون لكم مقام ناسخ لا علم له بعمله ، وليس هذا من شأنكم اعزكم الله . واني لأشهد بفضلكم ولا فضل لي اذا شهدت للصبح بالشروق والمسك بالعبوق . وحبذا لو ان لنا امثالاً نشد ازرنا بها ونفتخر بآدابها » .

ويظهر ان دي ساسي قابل هذه الرسالة باهتمام فطبعها ونشرها مع تعليقات وشروح. ولا غرابة فمثل هذا المستشرق العظيم يرحب بكل ما يخدم العلم ويزيد نور المعرفة ، وان يكن ذلك شيئاً ضئيلاً كما يبدو لنا في رسالة اليازجي .

وعدا هاتين الرسالتين لا نعثر لليازجي على نثر مرسل الا في بعض مؤلفاته المدرسية كعقد الجمان ، وهو موجز في المعاني والبيان وضعه للطلاب وضعاً سهلاً قريب المتناول . ورسالته نقطة الدائرة في علم العروض والقوافي ، وقطب الصناعة في اصول المنطق ، وكتاب « فصل الخطاب في اصول اللغة والاعراب» كل هذه المؤلفات بسيطة العبارة ، ولكل منها مقدمة وجيزة لا تتجاوز احياناً بضعة اسطر ، بعضها يجري فيها مجرى الصناعة كقوله في مقدمة قطب الصناعة « الحمد لله رب العالمين ، مالك يوم الدين ، الذي انطق الحكماء الأول ، بما يعصم الذهن عن الخطأ والزلل ، حتى رشح الينا منهم قطر الندى ، فنقعنا به بعض الصدى . واضاءت لنا نارهم فوجدنا على تلك النار هدى » . وبعضها لا يتقيد فيه بسجع بل يرسلها على السجية بكل اختصار وبساطة . ولقد تأملت في نثره خارج « مجمع البحرين » فلم المس فيه روعة كتابية تميزه من كتاب عصره. والظاهر انه استنفد كل فنه الادبي واللغوي في المقامات فأجاد في هذا الباب حتى عدّ فيه من الاقطاب.

فاليازجي فنان لغوي اكثر منه كاتباً اديباً. يدلك على ذلك انه لم يستخدم قلمه الا في ميدان اللغة ، فألف المقامات، وكتب القواعد . وعارض الاقدمين في نظم الاراجيز النحوية والصرفية ، والبيانية والعروضية ، والطبية، والمنطقية: كجوف الفرا، ولمحة الطرف ، والطراز المعلم ، والجامعة ، والتذكرة، والحجر الكريم . فاذا اضفت الى ذلك نظمه الشعر على طريقة القدماء، وتقدمه في ذلك على اكثر معاصريه ، لم تستغرب ان تكون له هذه الشهرة الواسعة وان يعد من اركان النهضة وكبار روادها .

وعلى ذكر مقدرته اللغوية ، يجدر بنا ان نقف قليلاً على امثلة من اراجيزه في اللغة واهمها « جوف الفرا » وهي تقع في ما يقارب الالف من الابيات . وضعها سنة ١٨٦١ وقد شرحها وسمّى شرحه «نار القرى» وفي سنة ١٨٨٢اختصر هذا الشرح ابنه ابرهيم ليكون اسهل على الطلاب . ومطلعها :

اقول بعد حمد من يُستفتحُ بحمده ولاسمه يُسبّحُ
قد جمعتُ في النحو ما سوف ترى ارجوزةً سميتها جوف الفرا
وها انا في سردها اقول والله في توفيقي المسؤول

وهكذا يعرض لنا جميع ابواب النحو شعراً رجزاً . كما فعل قبله ابن مالك في الفيته المشهورة . وكان الغرض من هذه الاراجيز أن تقدم القواعد للطلاب بطريقة يسهل حفظها فيحفظونها ، ثم يدرسون شرحها .

ومن اراجيز اليازجي «الخزانة» نظمها سنة ١٨٦٤ وهي تقع في نحو اربعمائة واربعين بيتاً . يقول ناظمها : « اما بعد ، فهذه ارجوزة في علم الصرف سميتها «الخزانة» وعلقت عليها شرحاً سميته «الجمانة» فجاءت بحمدالله كافية شافية ، تغني عن كثير من الكتب الوافية . وانا التمس من ارباب الصناعة ان يتجاوزوا عما يرون فيها من العثار ، فان العصمة لله الذي لا تدركه الابصار ولكن يدرك الابصار » ويستهلها بقوله :

اقول بعد حمد رب محسن لا عِلمَ لي إلا الذي علمني
قد اصطنعتُ هذه الخزانة حاوية من شرحها الجُمانه
جعلتها في الصرف مثل القطب فقلت والله الكريم حسبي

وقد مرّ معنا انه اخذ عن والده طب ابن سينا . ولم يتصل بنا انه تعاطاه كمهنة . على انه ترك لنا ارجوزة طبية في نحو اربعة وثمانين بيتاً وشرحها شرحاً وافياً (١) . فقال في مقدمتها : « امــا بعد ، فيقول العبد الفقير ناصيف بن عبدالله اليازجي اللبناني : انني قد وضعت هذه الارجوزة على منهج الطب القديم الذي خبت في هذا العصر ناره ، ونبتْ داره ، فصار اذلّ من وتد ، بعدما كان اعز من جبهة الاسد . وذلك لاشتغال الناس بالطب الجديد، لأنهم يعتقدون انه هو الطب المفيد . وقد علقت على هذا المتن شرحاً تنكشف به مقاصده ،

١) راجعها في مجلة المشرق (بيروت) مج ٣١ ص ٦٧٦ و ٧٧١ و ٨٢٤ . وكذلك في مجلة الطبيب السنة ٤ ج ٤ و ٥ .

واضفت اليه زيادات تتم بهـا فوائده . وسميته « الحجر الكريم في اصول الطب القديم » وانا التمس من ذوي الانصاف ان يتلقوه بالقبول ، ولا يحتسبوه من الفضول ، وبناء على ذلك اتقدم فأقول :

الطب علم يستردُّ الزائـــلة　　　من صحة الجسم ويبقي الحاصلة
وهو على العـلم انطوى والعمل　　　فالعلم منـه نظر في العلـل
والعمـل القانونـ في العـلاج　　　ليستقيم اود المـــزاج

وعلى هذا النسق يسير في ارجوزته مقرراً كليات الطب ، ثم يشرحها نـثراً طبقاً لما اخذه عن والده وما قرأه من كتب الطب عند العرب . ويختمها ببيت يجعله تاريخاً لها ، وهو :

فقل لقوم طلبوا طب العرب　　　قديم تاريخ (ظفرتم بالادب)

ومجموع الاحرف التاريخية ترجعها الى سنة ١٨٥٦ .

وكما درس الطب القديم درس المنطق . وقد مر معنا ذكـر رسالته المسماة « قطب الصناعة » وذكر بعضهم ان له ارجوزة في هذا العلم ولكننا لم نقع لها على اثر .

✶

وصفوة القول ، ان الشيخ ناصيف اليـــازجي نبغ في فجر النهضة الحديثة فكان علماً من اعلامها وركناً من اركانها . وهـو وان لم يترك من آثاره النثرية التي تذكر له غير مقاماته الستين ، فقد كان استاذ المتأدبين في عهده ، ورافـع لواء اللغة والمعيد اليها ما كانت قد فقدته من قوتها وبيانها .

وكان فضلًا عن تصدره في مجالس اللغة من المجلّين في الشعر على طريقة القدماء التي عرف بها اهل عصره . وسنتناول شعره في ما يلي تتمة لحديثنا عن ادبه .

اليازجي الشاعر

يقول الذين عرفوه انه كان مطبوعاً على الشعر، نظمه وهو حدث. وبواكير نظمه معظمها من الزجل او الشعر العامي الذي كان ولا يزال واسع الانتشار في لبنان . وليس لدينا من آثاره في هـذا الباب الا الشيء القليل . وانمـا عرف اليازجي بنظم الشعر الصحيح وله في ذلك ثلاثة دواوين صغيرة هي :

النبذة الاولى : طبعت للمرة الاولى في بيروت سنة ١٨٥٣ وطبعت ثانية في المطبعة الشرقية بحدث بيروت سنة ١٩٠٤ مصححة بقـلم ابنه الشيخ ابرهيم مـع ترجمة للناظم بقلم سبطه أمين الحداد .

نفحة الريحان : طبعت اولاً في بـيروت سنة ١٨٦٤ وثانيـاً سنة ١٨٩٨ مصححة ايضاً بقلم ابنه المذكور .

ثالث القمرين : الطبعة الاولى في بيروت سنة ١٨٨٣ والثانية سنة ١٩٠٣ .

هذا عدا ما له من نظم في تضاعيف مقاماته الستين ، وما نظمه ايام الصبا مما لم يثبته في متن دواوينـه — يقول سبطه « وهو شيء كثير لو جمـع باسره لزاد

على المشهور منه »[1] وفيه الغزل والمدح . ويظهر ان ميله الى الصناعة البديعية في الشعر قديم ففي اوائل شبابه يبعث الى بعض اصحابه قصيدة تجري القافية فيها على مجانسة اللفظة السابقة – كقوله :

يا نسيماً ليّن الاعطاف بالمصطاف طاف   حيّ عني مسعفاً مَن طبعه الاسعاف عاف

★

وتعهد من بذياك الحمى والدار دار   كل ميّاس قوامٍ منه غصن الغار غار
واشك اشواقي الى القوم وقل صب بكم   قلبه المجروح كالجارح في الاقطار طار
يذرف الدمع وفي جنبيه حر كلما   جن من اشواقه واذّكر الآثار ثار

وهي تقع في اكثر من ثلاثين بيتاً في ثلاث قطع مختلفة الروي .

وقبل النظر في شعره ، لا بد لنا من الاشارة الى ما كان عليه الشعر في عهد اليازجي وما اتصل به من العهد السابق . فاذا طالعنا ما كان يُنظم يومئذ في شتى الاقطار العربية ، ولا سيا مصر والعراق وسوريا ولبنان ، وجدناه في الغالب ديوانياً ، ينظم لأمير او كبير . وكان على العموم ضيق النطاق، ضعيف الخيال والاخراج ، مقلداً لاصحاب البديع – وبكلمة اخرى كان شعراً متصنعاً مقاييس الجمال فيه النكتة البارعة او التصوير البياني ، او الحلية البديعية. على ان الصنعة بحد ذاتها ليست مما يعاب في الشعر . فهي اذا اقترنت بقوة العاطفة وبعد مرامي الخيال كما نجدها في مثل قول ابي تمام :

السيف اصدق انباء من الكتب   في حده الحد بين الجد واللعب
بيض الصفائح لا سود الصحائف في   متونهن جلاء الشك والريب

او في مثل قول ابن الفارض :

ايْ صبا ايّ صباً هجت لنا   سحراً من اين ذياك الشذي

---

١) راجع مقدمة النبذة الأولى .

ذاك ان صافحت ريّان الكلا　　وتحرّشت بجُوذان كـُـلي
فلذا تروي وتروي ذا صدا　　وحديثاً عن فتاة الحي حي

او قول المتنبي :

هل الحدث الحمراء تعرف لونها　　وتعلم اي الساقيين الغمائم
بناها فأعلى والقنا يقرع القنـا　　وموج المنايا حولها متلاطم

اذا اقترنت بمثل هذه الصور العالية زادت الكلام جمالاً وقوة . وبعكس ذلك اذا جاءت الصنعة مع ضعف في الخيال والفكرة ذهب جمال الشعر ورثت ديباجته ولم يكن له من رونق يبهج القلب او ماء يروي ظمأ النفس .

كان للعربية في عهودها الزاهية شعر جميل متين ، لكن حوادث الزمان التي اضعفت الحياة العربية وذهبت بمجد العرب ، لم تلبث ان اثرت في اللغة وادبها ، وهكذا اخذت تضعف رويداً رويداً حتى عم البلاد في اوائل القرن الماضي جمود فكري جمد معه النثر كما جمد الشعر . ولم يتخلصا من جمودهما ، الا بعد ان اشرقت عليهما اشعة النهضة التي كان من روادها اليازجي .

واذا قلنا النهضة، فنحن لا نعني انها حدث تاريخي ظهر فجأة في وقت معين، بل نعني انها انبعاث تدريجي . وقد بدأ هذا الانبعاث في اوائل القرن التاسع عشر ، وكان له في كل قطر بواعث خاصة . ففي مصر حركة التقدم الحكومية وفي سوريا ولبنان تأثير البعثات التهذيبية الاجنبية. ولكن لا الحكومة في مصر وحدها ، ولا البعثات الاجنبية في سوريا ولبنان، كانت تستطيع ان تغير مجرى الامور لولا ان وجد هناك أفراد هيأتهم الطبيعة ليكونوا واضعي الاحجار الاساسية في ذلك الانبعاث . وهكذا ظهر منذ بدء القرن المذكور طبقة من الرواد كان دأبهم ترقية اللغة القومية باحياء ماضيها المجيد والعمل على تجديد شبابها الضائع . من هذه الطبقة بل في طليعتها كان اليازجي في ما نظم ونثر . فلنقف قليلًا لدراسة شعره والنظر فيما له من أثر في عصره .

ولنبادر الى القول ، ان اليـازجي الشاعر لا يعد شعره تجديداً كما يفهم

التجديد اليوم ، فهو لم يفتح طريقاً خاصاً ، او يبتكر مواضيع جديدة ، بل التفت الى الماضي يستلهمه الاسلوب والموضوع . واذا قيل انه عاش سبعين سنة في القرن التاسع عشر وعاصر اليقظة العلمية والاجتماعية التي كانت قد بدأت تخمّر النفوس ومع ذلك بقي بنجوة من تياراتها ، فيجب ان لا ننسى ان التطور العلمي اسرع من التطور الادبي . فالعلم لا يتوقف على لغته أو اسلوبه ، بل على ما يتوصل اليه من معلومات وحقائق . وهذه المعلومات او الحقائق قد تتغيّر باتساع نطاق المعرفة والاختبار ، ولا يرى احد حرجاً من استبدالها بما هو اجدّ واصدق . على اننا ازاء اللغة والاسلوب ، قلّما نميل أو نسرع الى التجديد . اذ ليس من السهولة ان يترك الكتبة ما اعتادوه من طرق التعبير الى ما لم يعتادوه . ذلك لأن العلم في كل أمة أو جماعة أمر موضوعي يتلقونه من الخارج . وأما اللغة او الاسلوب فأمر متصل بكيانهم التاريخي وبشخصيتهم الجماعية ، فلا غرابة اذا رأينا الادباء اشدّ محافظة على الماضي من ارباب البحث العلمي وأبطأ تبديلاً لأوضاعهم وأساليبهم .

والواقع ان عصر اليازجي لم يكن من الوجهة الادبية ، إلا امتداداً للقرن الثامن عشر وما سبقه . على اننا مع كل ذلك ، نستطيع أن نعده بدء يقظة كان لها في الشعر أثر بيّن من حيث تحسين العبارة النحوية ، ورفع مستوى الصياغة الشعرية ، وتهيئة الاسباب لتجديد الحياة الادبية في الاجيال التالية . ولنلتفت الآن الى ما تركه لنا اليازجي من آثاره الشعرية :

ان أهم الاغراض التي يدور حولها شعره هي المديح ، والرثاء ، والحكمة، ويتلوها الغزل :

المديح : ومن مراجعة دواوينه وما نظمه في صباه، يتبين لنا ان ممدوحيه – كممدوحي الشعراء الاقدمين – كانوا من الامراء أو الولاة واصحاب الوجاهة. ومنهم عدد من الادباء الذين دارت بينه وبينهم مراسلات وعُقدت بينه وبينهم صداقات . ويبلغ عددهم جميعاً نحو الثمانين ، أبرزهم :

من الأمراء وكبار الحكام	عدد القصائد
الامير بشير الشهابي وابنه الامير امين	٧ قصائد
الامير حيدر ارسلان وابنه ملحم	٧ »
الامير امين ارسلان وابنه محمد	١٨ قصيدة
فؤاد باشا الوزير العثماني	٥ قصائد
السلطان عبد العزيز	٥ »
الخديوي سعيد	٣ »
الوالي راشد باشا	٤ »
الوالي رشدي باشا	٣ »
الوالي خورشيد باشا	٣ »
صاحب الضنيه خضر الرعد	قصيدتان

وقصيدة واحدة لكل من : ابرهيم باشا المصري، أسعد باشا أمير الجيش ، ملكة الانكليز ، ونابوليون الثالث ، والامير حيدر أبي اللمع ، ومصطفى بربر حاكم طرابلس .

ومن الادباء :

عبد الباقي العمري (بغداد) ٥
بطرس كرامه (لبنان) ٣
عبد الحميد الموصلي (بغداد) ٣
محمد عاقل (الاسكندرية) ٧
عبد الهادي الابياري (مصر) ٣
وكثيرون سواهم .

ومن رؤساء الدين :

البطريرك مكسيموس مظلوم ، والبطريرك اكليمنضوس بحوث .

أما طريقته في المدح فهي نفس طريقة القدماء . تقرأ القصيدة فيخيّل اليك انك في العصور الغابرة ، يوم كان الشاعر يبدأ شعره بوقفةٍ على الطلول ، وذكر الاشواق والمشاقّ ، ثم التخلص الى المديح كقوله من قصيدة ارسلها الى الشاعر عبد الباقي العمري .

فدي الجلابيب والأطمار من وَبَرٍ ما تصنع الفُرس من وشيٍ ومن حِبَرِ
ألذُّ من نغم الاوتار في غُرفٍ بيت من الشِعر في بيت من الشَعَرِ
وفوق نشرِ دخانِ العُود رائحةً دخانُ نار القرى تُسقى دم الجُزُرِ

الى ان يقول :

ان المليحة مَن كانت محاسنها | من صنعة الله لا من صنعة البشر
ان أنسَ لا أنس يوماً دمت أذكره | ووقفةٌ عن يمين الحيّ من مُضر
بتنا على الرملة الوعساء نحسبها | بحراً تموّج بالأنعام والنفر
تقضي النهار بسُمر الخطّ فتيتهم | على السروج وتقضي الليل بالسمر
يبيت يروي عن الكِنديّ راويةٌ | لنا ونروي له عن شيخنا العُمَري

وهكذا يتخلّص الى مدح العمري بعد ان سار بنا بين مضارب الأعراب في البادية يعرض لنا مشاهدها وأحوال أهلها وهو في بيروت لم يتجاوز عتبة داره ، ولم يختلط بغير معارفه وزواره. وقد يركب ناقته الخيالية ليصل الى ممدوح ساكنٍ قربهُ في نفس المدينة ، كقوله من قصيدة في قاضي بيروت أحمد الغرّ :

يا إمام الكرام في خير محرابٍ | من الخير خيرُه لك قبله
رحلتْ ناقتي اليك وقلبي | قبلها فهي رحلةٌ بعد رحله
ورضاك المنى وحسبيَ طلّ | منه ان كنت لا اصادف وبله

لا يجاري الجاهليين واهل طريقتهم في ذكر البادية واهلها فحسب، بل يعمد الى طريقة المولدين من شعراء العصر العباسي فيقدم لقصيدته مقدمة غزلية يتلخص منها الى المديح كقوله في قصيدة يمدح بها مصطفى بربر حاكم طرابلس :

خطرتْ كما خطر القضيب الاملد | هيفاء معطفها يقوم ويقعد
ممشوقة تضع البنان بخصرها | فيكاد بعض فوق بعض يعقد
ما ضرها وهي المراض جفونها | لو اننا يا صاحبي العوّد
ما بين وجنتها ودمعي نسبة | فكلاهما من جمرة يتورد
وكأن ليلي شعرها فكلاهما | متطاول الاطراف اسود اجعد
ولقد صبوت فقال انك اشيب | شعري وقال القلب انك امرد
ونسيت نظم الشعر لولا شيمة | في المصطفى تدعوا الحَصور فينشد

وهنا ترك شاعرنا هذا الغزل المتصنع ، ليتعلق بمدح برير ويصفه بالصيانة والزهادة والتقى ، واللطف والكرم والحلم وهو المعروف في حكمه بالقسوة والشدة ، والبطش والارهاب . ولا ادري هل عرف الشاعر الممدوح او اتصل به حتى ذهب في مدحه كل مذهب في المبالغة والغلو . ولعله فعل ذلك اذ كان لا يزال في ايام الصبا قبل ان تنضج روح الشعر فيه ويبلغ مبلغه من قوة النظم.

وكما كان يجعل لمدائحه مقدمات بدوية او غزلية ، كان يجعل لها احياناً مقدمات حكمية على طريقة ابي تمام والمتنبي ومن جرى مجراهما ، كقوله من قصيدة في اسعد باشا قائد الجيش في البلاد العربية :

بناء العلى بين القنا والبوارق على صهوات الخيل تحت البيارق
ولله سر في العباد وانما قليل محل السر بين الخلائق
يقلّب هذا الدهر احوالنا كما تقلب فينا لاحقاً اثر سابق
تريك الاماني العيش دفقة ماطر وتلك اذا حققت لمعة بارق
وما الجهل الا في قبول خديعة وما الحلم الا في اختبار الحقائق
ولولا اختبار الدولة ابن سريها لما اعتمدته في المعاني الدقائق

فترى الشاعر يتحدث عن الدهر والحياة ، ثم عما يقتضيه العقل من اختبارها حق الاختبار حتى لا يخدع المرء بالظاهر الغرار . وذلك لكي يبين لنا ان الدولة لم تسلم الممدوح قيادة جيشها الا بعد ان اختبرته وعرفت فيه مزايا القيادة العالية . وهذه القصيدة تقع في اكثر من خمسين بيتاً . معظمها اوصاف لهذا القائد . ولا يسع قارئها الا ان يشعر ان ناظمها يسير في ركاب المتنبي وصفاً وحكمة وتعبيراً ، الا انه لا يسير وراءه لاهثاً متقطع الانفاس ، بل بقوة ونشاط، ويكاد احياناً يلحقه ويجاريه. حقاً ان اليازجي كان متأثراً جداً بالمتنبي، يعتبره إمامه واستاذه بل كان يعتبره امام الشعراء على الاطلاق حتى قال فيه كلمته المأثورة : « كان المتنبي يمشي في الجو وسائر الشعراء يمشون على الارض» . ولكن ليس من الانصاف ان نقول ان تقليده كان تقليداً اعمى ، لا تظهر فيه

شخصيته ولا تدل على قوة شاعريته ، فاليازجي رغم سيره في ركاب القدماء ولزومه طريقتهم ومواضيعهم وتعابيرهم ، شاعر مطبوع تطيعه الالفاظ وتسعفه قوة القريحة .

والذي يذكر له ، انه بعد ان استقرت رجولته ، زاد تواضعه وكرم اخلاقه ، ولم يعد يقول الا ما يعتقده . وقد عرف بوفائه لذوي الايادي عليه ولو انقلبت بهم الايام . فها نحن نرى الامير بشير وقد نفي من لبنان وزال حكمه وذهبت سطوته وتفرق انصاره ، ومع ذلك ظل شيخنا اليازجي وفياً له ، لم ينقلب بانقلاب الايام . وها هو يكتب اليه بعد خروجه من لبنان قصيدة يقول فيها :

ايها الراحل الذي ضرب الاطناب بين القلوب والاكبادِ
ما سمعنا براحل اوحش الاحباب عند ارتحاله والاعادي

ويشير الى اضطراب الحال بعده فيقول :

ضاق ذرع البلاد بعدك حتى   لا مناخ لناقة في البلاد
فكأن البلاد جسم بدون الروح   او مقلة بدون السواد
أوقدت يا كليب [1] بعدك نار   سال منها في الحي قلب الجماد
وانتضى القوم بعدكم كل سيف   كان في عهد سيفكم كالنجاد
انما انت واحد غير اني   لست اعطيك منزل الآحاد
كنت دهراً فبنتَ لم تغننا منك ولا عنك كثرة الاعداد
انت بين الكرام درة تاج   وازاء الخطوب صخرة واد
يفخر الشعر عزةً بك حتى   يستحي ان كتبتهُ بالمداد

---

١) يجعله ككليب وائل في العزة .

رثاؤه : وهو مثل مديحه في الجري على طريقة القدماء . ترى اليـــازجي يقدم لكل مرثاة مقدمة يصف فيها الدنيا وباطل زخارفها وتعلق الناس بها، رغم غدرها وتقلبها. فما الحياة الا ظل عابر، او حلم زائل ، وما الانسان الا مسافر لا قرار له ، فبئست الحياة التي مصيرها للزوال ، وليس للانسان من زاد للمعاد الا صالحات الاعمال .

بمثل هذه الاقوال يطالعنا اليازجي في مراثيه ، وهي اقوال رددتها الاجيال جيلاً بعد جيل ، وتلاهـــا الراثون في كل صقع وناد . هذه المراثي على العموم لطيفة، سلسلة، صادقة الشعور . الا انها خالية من تلك الوثبات العاطفية العالية، او تلك الصور الخيالية البعيدة التي عرفت لنوابغ القدماء . فشعر اليازجي الرثائي على ما فيه من حكمة وحسن صياغة ، لا يفتح امامنا آفاقاً جديدة ، ولا يعلو بنا كثيراً في سماء الخيال ، فلست تجد له مثلاً كقول ابي تمام في محمد الطوسي ، وكان قد قتل في الحرب :

وقد كان فوت الموت سهلاً فرده اليه الحفـاظ المر والخلـق الوعر
فاثبت في مستنقع المـوت رجـله وقال لها من تحت اخمصك الحشر
فتى كان عذب الروح لا من غضاضة ولكنّ كبراً ان يقال بـه كبر

أو قول المتنبي في مرثاته لأم سيف الدولة :

رماني الدهر بالارزاء حتى فؤادي في غشاء من نبال
فصرت اذا صـابتني سهام تكسرت النصال على النصال

او قول المعري في مرثاة صديقه الفقيه :

سر ان اسطعت في الهواء رويداً لا اختيـالاً على رفات العبـــاد
رب لحد قد صـــار لحداً مراراً ضاحـك من تزاحم الاضـداد

الى غير ذلك من هذه الاقوال العظيمة التي سارت في التاريخ تهز القـلوب بجمال مبانيها ، وترفع النفوس بسمو معانيها .

ان اليازجي قد اجاد الرثاء ، ولكنه لم يصل الى مثل هذه القمم العالية . ومن مراثيه التي تمثل حسن نظمه، مرثاته في الامير حيدر أبي اللمع التي مطلعها:

المرء في الدنيا خيال قد سرى   والعيش مثل الحلم في سنة الكرى

وبعد المقدمة المعتادة في وصف الدنيا ، يقول :

بتنا نادي حيدراً ويجي وما	يجدي اذا بتنا نادي حيدرا
هذا الذي كنا نعيش بظله	قد صار تحت ظلال رمس اقفرا
هذا الذي ضبط البلاد بكفه	قد بات مغلول اليدين معفّرا
ويلاه من هذي الحياة فانها	كالظل تحت الشمس يمشي القهقرى
نرجو من الدنيا الدوام ونفسها	كحطامها مما يباع ويشترى
دول واجيال تمر وتنقضي	فيها وتبقى الكائنات كما ترى

ولا ينكر ان شاعرنا كان يصف كل مرثي بما يوافقه ، ولكن جميع مراثيه متشابهة بل متماثلة في هذه النظرات الى الدنيا ، وفي هذه الاوصاف التي يصف بها الانسان والحياة ، والتي يرددها ترديد ابي العتاهية في زهدياته . وهو ، والحق يقال ، تقريري يرى الحقائق فيقررها كالخطيب او الواعظ ، وقلما يطير بالقارىء على اجنحة الخيال البعيد ليريه من صور الجمال الشعري ما لا يراه في النظم او النثر غير العادي .

حِكَمه : لليازجي اقوال حكمية كثيرة ، منها ما جاء في شكل قصائد قائمة بنفسها ، ومنها ما جاء ابياتاً في تضاعيف مدائحه ومراثيه . اما القصائد الحكمية فأهمها ما يلي :

١) أمن لغة الايام ما لا يترجم   ام المرء فيها جاهل ليس يعلم
(وهي نحو ٧٥ بيتاً)

٢) لعمرك ليس فوق الارض باق   ولا مما قضاه الله واق
(٣٠ بيتاً)

٣) ان كنت بالله من دنياك تعتصم فلا تكن خائفاً ان زلت القدم

(٢٤ بيتاً)

٤) اني لقد جربت اخلاق الورى حتى عرفت ما بدا وما اختفى

(٣٠ بيتاً - المقامة الحكمية في مجمع البحرين)

٥) دع الايام تفعل ما تروم ولا تعبث بهمتك الهموم

(المثبت منها ١٧)

والذي يقرأ هذه القصائد يجدها تضرب على وتر واحد من الوعظ والارشاد. وهي على العموم تذم الدنيا والزمان ، وتنعي على الانسان اهتمامه بغرور الحياة وكده في سبيل حكامها . فالحياة في نظره الشعري اشبه بمفازة يضل بها الجميع حتى الدليل الحاذق (الخريت) :

لعمرك ما الايام الا مفازة يضل بها الخريت والصبح يبسم
نريد بها نجداً فتأتي تهامة وآخر يأتي نجد من حيث يُتهم

وليس للانسان من حاجة في حياته غير الضروري من مأكل او ملبس او مأوى ، وكل ما عدا ذلك من الفضول والوان الترف فباطل زائل ، بل هو سبب للضلال والشقاء :

لعمرك ليس فوق الارض باق ولا مما قضاه الله واق
وما للمرء حظ غير قوت وان كانت له ارض العراق
اضل الناس في الدنيا سبيلاً محب بات منها في وثاق

فلماذا اذن ننفق عمرنا ونضيعه لكي نحشد الاموال الطائلة ، لماذا نتكبد المشاق ، ونخوض غمرات الجهاد ، لأجل زائل لا يفيد :

اذا احرزت مال الارض طراً فمالك فوق عيشك من تراق
اتأكل كل يوم الف كبش وتلبس الف طاق فوق طاق
فضول المال ذاهبة جزافاً كماء صُبّ في كأس دهاق
يفيض سدى وقد يسطو عليها فينقص ملأها عند اندفاق

ولسنا لنناقش الشاعر في هذه الآراء الزهدية ، فالمجـــال مجاله ، ونحن انمـا ندرسه لنطلع على آرائه . فنلتفت معه الى الناس . وما الناس عنده الا مجتمع يسوده الجهل والظلم والفساد ، حتى اصبحت الدنيا بهم جحيماً ثانياً :

بنفسي من الدنيا هوى غـير انني كرهت البقا فيها وفيهـا جهنم
عفت أثر الحلم الليـالي فـلم تدع سوى الجهـل في ابنـائه يتقسم

فالشهوة ، وحب المال ، والانانية ، قد اعمت بصائرهم عن الحق ، والمحبة ، والوفاء ، فأصبحوا لا يعشقون غير الاباطيل ، ولا يرون من تقدم الا عن هذا السبيل . واذا كان بالامكان تجنبهم فذلك هو الفوز الاكبر والغنم الاوفر :

الناس للناس كالاعداء ما برحت في اكثر الامر تـأتي منهم النقم
غنيمـة العيش في الدنيـا تجنبهم لكن ذلك ممـــا ليس يغتنم
هم كالطعام الذي لا بد منه لنا به نعيش ومنـــه يحدث السقم

تلك نظرات سوداء تسود جميع قصائده الحكمية . ولم يكن في حيـاته الخاصة ما يدفعه الى ذلك ، ولعله صدى لأحوال البيئة التي كان يعيش فيهـا ، فقد كان عصره عصر اضطرابات سياسية واجتماعية ودينية . والغريب ان اثرها ضئيل في شعره كأنه كان يعيش بنجوة من مجرى الحوادث ، ولكن ذلـك لا يمنع ان يتأثر بها تأثراً باطنياً يلوح لنا في نظراته الحكمية .

وبرغم ذلك كان اليازجي يؤمن بقوة الخير وانه السبيل الوحيـــد للسعادة الحقيقية :

والخير يعرف طرقاً قد تعودها فلا يضل ولو قامت بها الظـلم
اجلُّ للمرء من مجد الغنى شرفـاً مجد الوفاء وتقوى الله والكرم

واذا كان التشاؤم ناشئاً عن شدة احساس الشاعر بما يحيط به من شر وفساد فان ايمانه بالخير نتيجة طبيعية لثقته بالله وتمسكه بتعاليمه ووصاياه — نزعة دينية تبرز في حياته واقواله . فقد كان كما يخبرنا سبطه : « ودوداً مخلصـاً ، رقيـق

القلب ، حسن التدين ، مبالغاً في اجتناب السحت (الحرام) ، لا يعطي مالاً ولا يأخذ مالاً بالربى» [1] وتلك شهادة جميع عارفيه. يزكّيها ما له من نفثات دينية ، كقصيدته في المقامة القدسية من مجمع البحرين والتي مطلعها :

قم في الدجى يا ايها المتعبد حتى متى فوق الاسرة ترقد

وهي قصيدة معروفة ، ومنها :

قم وادع مولاك الذي خلق الدجى والصبح وامض فقد دعاك المسجد
واستغفر الله العظيم بذلة واطلب رضاه فانه لا يحقد

ومثلها قصيدته في المقامة الرملية ومطلعها :

الحمد لله الصمد حال السرور والكمد

وله قصيدة دينية جدلية في اكثر من سبعين بيتاً، يحاول فيها اثبات العقيدة المسيحية ، ومطلعها :

نحن النصارى آل عيسى المنتمي حسب التأنس للبتولة مريم

هذا عدا اكثر من ثمانين نشيداً دينياً مثبتة جميعها في كتاب الترانيم الروحية للكنائس الانجيلية ، ومعظمها مأخوذ عن سفر المزامير .

ولنقف قليلاً لنقابل حكمه بحكم الشعراء الأقدمين ، ونخص منهم ابا تمام والمتنبي :

فالحكمة عند هذين الشاعرين عالمية ، منبثقة عن اختبارات الحياة وادراك حقائقها ، وعن نظر دقيق في طبائع الافراد والجماعات . ولذا تناقلتها الاجيال على مر الازمنة ، وستبقى على ألسنة الناس يرددونها كلما عرض لهم في الحياة ما عرض لقائليها. فقول ابي تمام مثلاً :

ولكنني لم أحو وفراً مجمّعاً ففزت به الا بشمل مبدد

---

[1]) راجع مقدمة النبذة الاولى

ولم تعطني الايام نوماً مسكناً ألذ بـه الا بنـوم مشرد

هو اختبار كل ساع مجاهد ممن يجابهون الاهوال ويحتملون المشاق ليصلوا الى ما يرومون من التقدم والنجاح :

وقول المتنبي :

ما كل ما يتمنى المرء يدركه تجري الرياح بما لا تشتهي السفن

وقوله :

على قدر اهل العزم تأتي العزائم وتأتي على قدر الكرام المكارم
وتعظم في عين الصغير صغارهـا وتصغر في عين العظيم العظـائم

وكثير غير ذلك من أبياته الحكمية، كلها اختبارات انسانية ، عرفها الشاعر فهزت نفسه ثم تجسمت بموسيقى الفاظه .

اما حكم اليازجي فهي اوصاف للزمان والناس ، رددها المتشائمون او الزهاد او رجال الدين منذ بدأ الانسان يفكر بالموت وما وراء الموت ، ومنذ بدأ يوازن بين الآجلة والعاجـلة . وهي عادة تجري على وتيرة واحـدة . وحكم اليازجي سهلة الالفاظ ، حسنة السبك، وقد جرى بعضها امثالاً على السنة الناس ولكن ليس لها تلك الطرافة او تلك القوة المحركة التي نراهـا في شعر ابي تمـام او المتنبي الحكمي ، بل ولا ذلك النشاط التأملي الذي تمتاز به نفثات ابي العلاء الزهدية .

غزله : الغزل عند اليازجي ، كما هو عند اكثر الشعراء السابقين ، نوعـان غزل شعوري ، ولم يبلغنا منه الا شيء قليل جداً قاله في صباه . وغزل صناعي وهو ما يصدر به بعض مدائحه على عـادة الشعراء في عصره ومـا قبل عصره . فمن النوع الاول قوله من قصيدة لا تتجاوز الاثني عشر بيتاً — (١ — د) :

من غنج عينيك ام من لطف معناك ابدي الهوى اوقعت قلبي بأشراك
روحي فداك لقد اضنى هواك فتى ما كان يدري الهوى والله لولاك

يا نسمة في الحمى مرت بنا سحراً   طوباك يا ليتني اياك طوباك
هل تحملين اليها من صبابتنا   كما حملت الينا عند مسراك
حكيتِ رقة عطفيها ونفحتها   ولا نسلم ان الفضل للحاكي

ومن قصيدة اخرى تبلغ ٣١ بيتاً ، ومطلعها :

« أيظن هذا الخال فوق المبسم »

وهي اقرب الى الوصف الغزلي منه الى التعبير عن الاختبارات الحبية .

يا ليلة سمح الزمان ببعضها   بعض السماح وليته لم يندم
قد كنت ارجو مثلها فبلغته   والحادثات تقول طرفك فاسلم
حتى دخلت الدار ساعة غفلة   وعرفت ربع الدار بعد توهم
فكأن كل الدهر مدة لحظة   وكأن كل الارض دارة درهم

الى قوله :

عاتبتها فاستضحكت وعتابها   جهل وكيف عتاب من لم تأثم
ما كنت اختار العتاب وانما   قد كان ذلك حيلة المتكلم

ومنها :

هيهات اسلوها وقد ختمت على   قلبي بخاتم ثغرها المتبسم
لو لم يكن للشوق من سبب كفى   ذاك الوداع ومد ذاك المعصم
ان كان قتل النفس غير محلل   قولوا لها فالوصل غير محرم

اما المقدمات الغزلية لمدائحه فكثيرة في دواوينه ولا تقل عن خمسين . بعضها ذكرٌ للحبيب ووصف له ، وبعضها وقوف على الطلول والديار . وفي جميعها يتبع اليازجي طريقة القدماء ، محاولاً التفنن في الخروج من الغزل الى المديح ، كقوله مثلًا مادحاً الأمير حيدر رسلان وابنه ملحم من قصيدة مطلعها: «قامت لهيبتها غصون البان »

بدوية في طرفها سهم بلا وتر على رمح بغير سنان
ابدت خدوداً كالدماء فما افترى من قال تلك شقائق النعمان
يا ربة الحسن العزيز نراك قد غربت عاشقة بكل مكان
ان الغريب ذليل نفس خامل كالشعر عند سوى بني رسلان

ومن قصيدة في خليل باشا وزير حلب مطلعها : « أتدري ما بقلبك من جراح » يصف الحبيبة ودارها الخالية وتفرق اهلها ثم يقول متخلصاً :

لقد عبثت بنا ايدي الليالي فراح القوم ادراج الرياح
تبطّن كل واد كل ناد تطير به المطي للأجناح
قصدنا منزل الشهباء ليلاً وقد سالت بنا خلل البطاح
فاغنتنا النسائم عن دليل ونيران الخليل عن الصباح

وهكذا سائر مقدماته الغزلية . وقد يجيء بعضها اطول من المدح نفسه كما ترى في مدحته للسلطان عبد العزيز وهي قصيدة طويلة تقع في ٧٥ بيتاً منها ٤٣ للغزل و٣٢ للمديح . وقريب منها قصيدته في ابرهيم باشا وهي تسعون بيتاً يشغل الغزل منها نحو نصفها . ومن الانصاف ان نقول أن تقليده الاقدمين في هذه المقدمات لا يخلو من نسج لطيف ومقدرة على التعبير يجلانه في اعلى مقام بين شعراء عصره .

صناعته الشعرية : وجد اليازجي في عصر كانت الصناعة فيه هي المقياس الفني في الشعر والنثر . ومن الطبيعي ان يثبت مكانته فيها وان يسابق المتقدمين في مضمارها . وتظهر صناعته في توفره على انواع البديع ، والتلاعب بغرائب التراكيب ، وعلى تفننه في صياغة التواريخ .

ولما كنا قد ذكرنا غرائبه التركيبية في كلامنا على مقاماته ، فسنحصر كلامنا الآن في البديع والتاريخ كما نراهما في دواوينه . واول ما يسترعي

انتباهنا من ذلك قصيدتان : الاولى من نظم صباه ارسلها الى احد اصحابه من العلماء ، وقد اشرنا اليها آنفاً فلا حاجة لاعادة النظر فيهـــا ، ومطلعها : « يا نسيماً لين الاعطاف طاف » .

والثانية بديعيته التي مطلعها : « عاج الميتم بالاطلال في العلم» وهي ٩٧ بيتـاً التزم فيها ما يلتزمه البديعيون من ضروب البديع ، وقـد التزم ايضاً ذكـر النوع ، كقوله :

حيٌّ على حيّ ميٍّ ميت لحقت بذيلهـا نفسه لو تم ريّ ظمي
(الجناس التام)

ما لي الفتّق صحف الغدر في طرف في غدر من فيه مالي لايفي بدمي
(الجناس الملفق)

هيهات هيهات ما ارجوه من رشأ وقد تكرر منـه اليأس في القدم
(الجناس التكرير)

لما رأى مدمعي شبه الشقيق جرى راعى النظـير فغطى الورد بالعنم
(مراعاة النظر)

امسى يعنفني الـلاحي فقلـت ترى اما اكتفيت بمـا راجعت قال لمِ
(الاكتفاء)

يا جيرة القـــلم المردود صاحبهـا صدراً لعجزِ ينـادي جيرة القـلم
(رد العجز على الصدر)

لي بينها قمر في طرفه حورٌ في ثغره درر والسمط من سقمي
(التسميط)

لا عيب فيه سوى عين اذا مدحت في معرض الذم عدت من سيوفهم
(المدح في معرض الذم)

وهكذا في سائر الابيات . والشواهد الصناعية البديعية كثيرة في دواوينه وقد توازي ما لابن الفارض، أو لابن الساعاتي ، او لصفي الدين الحلي ّ وامثالهم من اهل هذه الصناعة . ولكننا اذا التفتنا الى الصناعة التاريخية وجدناه صاحب القدح المعلّى . لا من حيث العدد فقط ، ولكن من حيث النظم ايضاً . فان له نحو مئتي مقطوعة تاريخية تتراوح بين البيتين والستة ، عدا قصيدتين احداهما وتبلغ ٩٠ بيتاً اقترحها عليه ابراهيم باشا المصري. والثانية وتبلغ ٨١ بيتاً نظمها مدحاً للسلطان عبد العزيز. وقد ضمّن كل سطر من الاولى تاريخ السنة ١٢٤٨هـ. وفي كل شطر من الثانية سنة ١٢٨٣ . وافتتح ابيات كل من القصيدتين بحروف يجتمع منها بيتان ، في كل منهما أربعة تواريخ . والغريب ان القصيدتين برغم هذا التقيد الغريب بالتاريخ حسنتا السبك . واليك مثالاً منهما . بدأ الاولى بمقدمة غزلية في اكثر من اربعين بيتاً، ينتقل منها الى وصف نفسه ازاء الزمان وما يلاقيه من الحدثان ، ثم يتخلص الى مدح ابرهيم باشا ، فيقول :

كل البلايا من الدنيا متى نزلت بنـــا فنيران ابراهيم تفنيها
بنى من العزّ بيتـاً دون أعمدةٍ سوى قناةٍ له عزت معانيهـا
اللوذعيّ العزيز الباسل الملك الغازي المـــلا بيدٍ حسبي اياديهـــا
أقواله خطبٌ افعـــاله شهبٌ آراؤه قُطب بالله حاميهـــا

وفعل في الثانية فعله في الاولى فتغزل بأبيات كثيرة ، وذكر حاله والزمن، ثم تخلص الى مدح السلطان ، فقال :

في خلقه عجبٌ في عزّه طربٌ راحاته سُحب يهمِّن بالكرم
امين ربّ الورى في الكون مؤتمن على العبـــاد لحقّ العهد والذمم
هنّت به نفسها الدنيا وقد هديت بعدله واهتدت للحق عن حِكم
مَن مثل عبدالعزيز الشهم حلّ بها مراتبـاً من ملوك العُرب والعجم

أما منظوماته التاريخية الاخرى فهي كما ذكرنا ، مقطعات صغيرة ويمكن

للباحث مراجعتها في ذيل ديوانه «ثالث القمرين» وهي تتناول سني الوفيات ، والولادات ، والتهنئات ، والافراح ، والحوادث الهامة وما الى ذلك ، على ان معظمها من باب الوفيات .

ولقد نعى نقّاد عصرنا الحاضر على اليازجي واهل عصره، تهافتهم على الصناعة وتنافسهم في نظم غرائبها ، كما نعوا عليهم تقليدهم للشعراء السابقين . وهم على حق في نقدهم اذا قاسوا الفن الشعري ايام اليازجي ، بما كان عليه في عصور العربية الذهبية ، أو بما بلغه في عصرنا الحاضر من تقدم في المعاني والمباني . على اننا اذا قسنا اليازجي بمقياس عصره ، لا يسعنا إلا ان نعترف له بتوقّد القريحة وجودة الطبع والمقدرة على استعمال اللغة. ولو ان اليازجي وجد اليوم واختبر ما اختبره العصريون من ألوان الحضارة الجديدة ، وامتد نظره الى ما يرونه من آفاقٍ بعيدة ، لما قصّر في ميدان الشعر الحديث بل لفاق الكثيرين ووقف في الطليعة مع المتقدمين .

*

بقي ان نقول انه ليس لليازجي شيء كثير في الوصف كما كان للبحتري وأمثاله من الوصّافين المجيدين. فأوصافه تكاد تنحصر في التفنن بالمناقب الشخصية، وقلما تجد له في الطبيعة أو المشاهد العمرانية ما يذكر غير زهرية جعلها مقدمة لقصيدة في بعض الامراء ، قال فيها :

هذي عروس الزهر نقّطها الندى بالدرّ فابتسمت ونادى معبدا
لمّا تفتق سترها عن رأسها عبِث الحياء بخدها فتوردا
فتح البنفسج مقلةً مكحولة غمز المزار بها فقام وغرّدا
وتبرّجت وُرق الحمام بطوقها لمّا رأينا التاج يعلو الهدهدا
بلغ الأزاهرَ انّ وردَ جنانها ملكُ الزهور فقابلته سُجدا
فرنا الشقيق بأعين محمرّةٍ غضباً وأبدى منه قلباً اسودا
بسط الغديرُ الماء حتى مسّه بَرد النسائم قارصاً فتجمدا

ورأى النباتَ على جوانب ارضه مَهداً رطيباً ليّناً فتوسّدا
يا صاحبيّ تعجبّا للابسٍ قد حاكها من لم يمدّ لها يدا
كل الثياب يحول لون صباغها وصباغ هذي حين طال تجددا

ويتخلص من وصف الطبيعة الى المدح بقوله :

ما بال هذا النهر يضرب صدره ركضاً ويهدر كالبعير معربدا
هل غار من كفّ الأمير محمّدٍ كم حاسدٍ حسد الامير محمدا

هذه اوصاف دقيقة تذكر له . ولكنك اذا قابلتها بوصف صفي الدين الحلي في زهريته التي مطلعها :

ورد الربيع فمرحباً بوروده وبنور بهجته ونور وروده

وجدت الحليّ ارشق صياغة وأدقّ نظراً في ما يحيط به من جمال الطبيعة .

اليازجي

بعض مراجع دراسته على الترتيب الابجدي

الاداب العربية في القرن التاسع عشر	(ج ١)	للاب لويس شيخو
تاريخ الصحافة العربية	(ج ١)	فيليب طرازي
تراجم مشاهير الشرق	(ج ٢) (القاهرة ١٩٠٢)	جرجي زيدان
الروائع (الحلقة ٢٢)		فؤاد افرام البستاني
رواد النهضة الحديثة	(بيروت ١٩٥٢)	مارون عبود
الغرر التاريخية في الاسرة اليازجية (ج ١)		عيسى اسكندر المعلوف
مجلة الجنان	(١٨٧١) ص ١٥٠ و١٩٠	بقلم سليم دياب
مجلة المشرق	(١٩٢٨) ع ١١ و١٢	
مجمع المسرات	(١٩٠٨)	الدكتور شاكر الخوري

ومن المؤلفات الحديثة فيه :

الشيخ ناصيف اليازجي	(حريصا ١٩٢٩)	لنقولا ابو هنا
الشيخ ناصيف اليازجي	(بيروت ١٩٥٤)	لعيسى سابا
فصل في رواد النهضة الادبية	(بيروت ١٩٦٢)	لكمال اليازجي

آثار اليازجي اللغوية والادبية

في الادب

دواوينه الثلاثة وسائر منظوماته

شرح ديوان المتنبي

مجمع البحرين

رسالة في احوال لبنان في العهد الاقطاعي (نشرها قسطنطين الباشا)

رسالة في نقد ما نشره دي ساسي من مقامات الحريري

فاكهة الندماء (رسائله الشعرية)

في اللغة

ارجوزة «جوف الفرا» وشرحها «نار القرى» في النحو

ارجوزة الباب في اصول الاعراب

طوق الحمامة (مختصر في النحو)

لمحة الطرف (ارجوزة في الصرف)

الخزانة » » »

الجوهر الفرد فصل الخطاب	كتابان مختصران في الصرف والنحو
الطراز المعلم	(ارجوزة في البيان والمعاني والبديع)
عقد الجان	(كتاب في المعاني والبيان)
الجامعة	(ارجوزة في فن العروض)
نقطة الدائرة	(كتاب في فن العروض)

علوم اخرى

قطب الصناعة	(في المنطق)
الحجر الكريم في الطب القديم	(ارجوزة في الطب)

وله مخطوطات غير مطبوعة ذكرها عيسى اسكندر المعلوف في الغرر التاريخية ، ١ ص ١٥ .

رفاعة الطهطاوي

(١٨٠١ — ١٨٧٣ (م ١)

قطب من اقطاب النهضة العلمية في مصر . عاش في نفس الحقبة التي عاش فيها الشيخ ناصيف اليازجي . فلم يكن بين ميلاديها غير سنة واحدة ، كما انه لم يكن بين وفاتيها غير سنتين . فكأنها كانا على ميعاد في دخولها العالم وخروجها منه .

نشاته :

تقع حياة الطهطاوي في ثلاثة ادوار رئيسية هي : (١) دور التحصيل العلمي في الازهر . (٢) دور التحصيل في باريس. (٣) دور العمل والانتاج في مصر.

ففي الدور الاول كان طالباً في الازهر يدرس العلوم النقلية والعقلية على ابدي نخبة من شيوخ العلوم الاسلامية في مصر، اخصهم بالذكر واكثرهم تأثيراً في حياته الشيخ حسن العطار . وكان هذا الاستاذ على ما اثر عنه ذا عقل متفتح لنور الحضارة الجديدة . واليك شهادة اديب مصري كبير فيه قال : « كان العطار قد اداه ظرفه ومعرفته بالدنيا ان اتصل بالفرنسيين حين دخولهم مصر ،

ودرّس لبعضهم اللغة العربية . وكان رجلا ممتازاً واسع النظر خبيراً بالدنيا على قلة الخبيرين من علماء الازهر في ذلك العصر » . [1] وزاده تفتحاً تطوافه في شتى الامصار ، واقامته سنوات في الاستانة (عاصمة الدولة العثمانية) ثم تقربه من علماء الحملة الفرنسية التي غشيت مصر بقيادة نابليون، واخذه عنهم بعض المعارف الحديثة ، مما وسع آفاق تفكيره وولد فيه ميلا الى التجديد .

على ان حياة الازهر العلمية يومئذ ، لم تكن تستسيغ مثل هذا الميل ، فاضطر وهو ضمن جدرانه الى مجاراة زملائه . ولكن ذلك لم يمنعه من اشباع رغبته الخاصة في طلب الجديد. فقرب اليه بعض تلامذته الممتازين واخذ يدرّسهم على حدة ما كان يطلع عليه من العلوم العصرية . وكان صاحب الترجمة اقرب المقربين اليه فشمله العطار برعايته طالباً ثم مدرساً . فلا عجب ان يكون له من المنزلة في قلب الطهطاوي ما لم يكن لسواه .

واقتضت سياسة محمد علي الكبير مؤسس الدولة الخديوية في مصر ، تنظيم الادارة الحكومية وتقوية الجيش. وشعر بالحاجة الى شباب مدربين على الاصول الحديثة ، فأمر بارسال بعثة من الطلاب لتلقي العلوم الفنية في فرنسا . وفي ذلك يقول الطهطاوي : «وفي المثل المشهور ان اعقل الملوك ابصرهم بعواقب الامور. ولهذا تنبه ولي النعم (اي محمد علي) حيث ولاه سبحانه وتعالى على بلاد مصر القاهرة ، ان يرجع اليها شبابها القديم ، ويحيي رونقها الرميم . فمنذ بدأ توليه (حفظه الله سبحانه وتعالى) وهو يعالج داءها الذي لولاه كان عضالاً ، ويصلح فسادها الذي قد كاد ان يكون زواله محالاً ، ويلتجي او يلجي اليه ارباب الفنون البارعة ، والصنايع النافعة من الافرنج ، ويغدق عليهم فائض نعمته . حتى ان العامة بمصر بل وبغيرها ، من جهلهم يلومونه غاية اللوم ، بسبب قبول الافرنج وترحيبه بهم وانعامه عليهم ، جهلا منهم بانه (حفظه الله) انما يفعل ذلك

---

١) احمد امين في مجلة الثقافة ع ٢٣٠

٢) الطهطاوي للشيال ص ٧

لانسانيتهم وعلومهم لا لكونهم نصارى . فالحاجة دعت الى ذلك » . ويتابع حديثه عن سياسة محمد علي الاصلاحية فيقول : «وقد سارع ولي النعمة في تحسين بلاده فأحضر فيها ما امكنه احضاره من علماء الافرنج وبعث ما امكنه بعثه من مصر الى تلك البلاد »[1] .

وكان لمحمد علي ثقة بالشيخ حسن العطار فطلب منه ان يختار له شيخاً من الازهر يكون إماماً لهذه البعثة . فاختار احب تلامذته اليه رفاعة الطهطاوي.

وهكذا سنحت الفرصة لصاحبنا فذهب سنة ١٨٢٦ مع البعثة اماماً ومرشداً دينياً لا طالباً من طلاب العلم . ولكنه رأى باب العلم مفتوحاً امامه على مصراعيه ، وهو ذو نفس طلابة للتقدم . فلم يتلكأ عن ولوجه ومشاركة طلاب البعثة في الدرس والتحصيل[2] . وما زال يجد ويثابر حتى تعلم اللغة الفرنسية ، واطلع على جانب كبير من العلوم والفنون الحديثة ، فأصبح قادراً على الترجمة من الفرنسية الى العربية ، ومن هذه الى تلك . وهكذا اعد نفسه للعمل العظيم الذي قدر له بعدئذ ان يقوم به في وطنه .

قضى في فرنسا خمس سنوات . وفي اثنائها كان يدوّن ملاحظاته ومشاهداته ثم جمعها في كتاب سماه « تخليص الابريز في تلخيص باريز » . ولما عاد من رحلته قدمه الى استاذه الشيخ العطار ، فأعجب به وقرّظه لدى محمد علي . فطلب ان يُقرأ له ، فحاز رضاه وامر ان يترجم الى اللغة التركية وان تطبع النسختان — العربية والتركية — في مطبعة بولاق ، وان توزع نسخ من الطبعتين على موظفي حكومته[3] .

---

١) راجع كتابه تخليص الابريز ص ٨ — ٩

٢) وكان مدير البعثة الموسيو جومار يحبه ويعطف عليه لما كان يراه من جده فأعانه وشجعه وسهل له مصاعبه (احمد امين ، الثقافة ع ٢٣٢)

٣) الطهطاوي للشيال ص ٩

ومن هذا الكتاب يظهر لك ما تركته هذه الرحلة العلمية من اثر في نفس الطهطاوي ورغبة في خدمة وطنه . ففي الباب الثاني من مقدمة الكتاب يذكر العلوم والفنون التي حصلت عليها البعثة ويعدد ١٥ نوعاً منها . ابرزهـا العلوم الطبيعية ، والرياضية ، والحربية ، والطبية ، والشرعية ، والجغرافية ، واللغوية ويقصد باللغوية معرفة الالسن لاتقان الترجمة ، ومعرفة الاصطلاحات العلمية واصولها . ثم يعقب على ذلك بقوله : « ان هذه العلوم يتقنها الافرنج ولكنها مجهولة في مصر » . ويدعو مواطنيه الى الاقبال عليها ، لا على العلوم الكلامية والنقلية لان الزمان قد تغير، ومن الخطأ صرف اوقاتهم واعمارهم في ما لاطائل تحته من العلوم الكلامية وما يتعلق بها من حواشيَ وشروح .

وهكذا عاد الطهطاوي الى مصر تملأ نفسه رغبة شديدة في الاصلاح وايمان قوي بمستقبل الوطن عن طريق العلوم الحديثة . فعكف بعزم على ترجمة هـذه العلوم . ورأى محمد علي ان ينتفع بمواهبه فأمر ان يلتحق بمدرسة الطب ليترجم ما تحتاج اليه ، ووكل اليه ادارة المدرسة التجهيزية للطب . وبعد حين نقل الى المدرسة الحربية حيث تولى ترجمة الفنون الهندسية والحربية وسواها .

ولما كانت حاجة البلاد القصوى الى نقل علوم الافرنج اشار الطهطاوي على محمد علي بتأسيس مدرسة لتعليم اللغات الحديثة ، فأمر بذلك . وسميت اولاً مدرسة المترجمين ، ثم اطلق عليها اسم مدرسة الالسن . وكان يدرس فيها من اللغات : الفرنسية ، والعربية ، والتركية ، والفارسية ، والايطالية ، واحياناً الانكليزية . الا ان الغاية كانت منصرفة فيها الى اتقان العربية والفرنسية ، وعين الطهطاوي مديراً لها . فبذل كل مجهود في تربية ابناء جيله وتثقيفهم ونشر الافكار الراقية بينهم ، واعدادهم لخدمة حكومتهم ووطنهم .

ولكن الحال لم تدم على ما كان يرومه . فقد توفي الامير الذي كان يهتم بنشر العلوم تعزيزاً لحكومته وجيشه ، وقام بعده امير لم يكن له اهتمام بذلك هو ابنه عباس، فحدثت في عهده ردة في حركة التعليم والترجمة اذ الغيت مدرسة

الالسن، وارسل الطهطاوي الى السودان لينشيء مدرسة ابتدائية هناك ويكون ناظراً لها .

قبل صاحبنا ذلك على مضض وذهب على كره منه الى السودان ، تاركاً وراءه مدرسة الالسن التي كانت بمثابة كلية تخرج الاكفاء لنقل العلوم ، ليحصر كفاءاته في مدرسة ابتدائية نائية . واني لذلك ان يروي ظمأ نفسه الكبيرة فكان في السودان كأنه في منفى. وقد اشار الى ذلك في كتابه مناهج الالباب فقال ما نصه : « في سنة ١٢٦٧ هـ. سافرت الى السودان بسعي بعض الامراء بضمير مستتر بوسيلة نظارة مدرسة بالخرطوم [1]، فلبثت الاربع سنين بلا طائل وتوفي نصف من معي من الخوجات [2] المصريين . فنظمت قصيدة برسم المرحوم حسن باشا كتخدا مصر [3] رجاء نشلي من اوحال تلك الاحوال[4]. واولها :

الا فادع الذي ترجو ونادي ... يجبك وان تكن في اي نادي

ومنها :

وما السودان قط مقام مثلي ... ولا سلماي فيه ولا سعادي
وقد فارقت اطفالاً صغاراً ... بطهطا دون عودي واعتيادي
افكر فيهم سراً وجهراً ... ولا سمري يطيب ولا رقادي
وغاية مطلبي عودي لأهلي ... ولو من دون راحلة وزاد

والقصيدة طويلة تقع في اكثر من ستين بيتاً، يصف فيها السودانيين وعاداتهم ويشكو من مقامه بينهم . ويلتمس مساعدته على الرجوع الى مصر .

وبرغم ما كان يشعر به من ضيق في السودان لم يفقد عزمه وقوة احتماله ،

١) اي يسترون مآربهم وراء تعييني ناظراً لمدرسة بالخرطوم
٢) اي المعلمين
٣) كتخدا كلمة فارسية أو تركية ومعناها السيد ويراد بها هنا نائب الامير .
٤) مناهج الآداب ٢٦٥

بل بذل جهده طوال الاعوام التي قضاها هناك ، عاملاً ما يجب عليه لخير بيئته الجديدة . وفي تلك الاثناء اكب على « وقائع تلياك » فنقلها من الفرنسية الى العربية .

ولما توفي الامير عباس وتولى الحكم « سعيد » عاد الطهطاوي الى مصر وفي نفسه ما فيها من تجديد الحركة العلمية بعد خمودهـا . وكان له صديق اسمه ادهم باشا فباحثه في هذا الامر ووضعا معاً مشروع «مكاتب الملة» ليتعلم ابناء الشعب. لكن الحكومة لم تأخذ بهذا المشروع ، فطوي مع غيره من المشاريع التي لم تعرهـا السلطة جانب الاهتمام . وعيّن الطهطـاوي في بعض مناصب تعليمية وادارية ، ثم ألغيت تلك المنـاصب فتوقف عمله الحكومي . لكن نشاطه لم يتوقف . ففي أثناء حكم «سعيد» أخذ يعنى باحياء ونشر الكتب القديمة ، حتى اذا تولى الحكم اسماعيل عادت حركة العلم الى الازدهـار . فأنشئت المكاتب الاهلية ، وأعيد قلم الترجمة وُعين صاحبنـا ناظراً له . فلم يكلّ عن السعي والاجتهاد مع انه كاد يبلغ سن التقاعد . وقد جنَت مصر من سعيه واجتهـاده ومواهبه ثماراً طيبة ُتذكر له مدى الدهر .

على ان خدماته الوطنية والادبية لم تنحصر في التعليم والترجمة ، بل كانت له ايضاً يد نشيطة في الحركة الصحافية[1] . ولم يكن الطهطـاوي يعرف الصحـافة قبل سفره الى فرنسا . فان أولى الجرائد العربية (وهي «الوقائع» المصرية) انما ظهرت وهو غائب في باريس . فلمـا كانت سنة ١٨٤٢ (و «الوقائع» المصرية يومئذ في سنتها الثانية عشرة) رأى محمد علي انهـا تحتاج بالاكثر الى الاعتماد على النقل من الجرائد الاجنبية ، فصدر فيهـا بيان هذا بعضه : « وحيث ان نشر مثل هذي الاخبار (أي الاخبار العالمية) يتوقف على قراءة الجرائد التي تنشر في الخارج ، وتستوجب ان يكون الموظف المشرف على ترتيب الجريدة وتنظيمها ملمـاً باللغتين ، وعلى ذلك فقد تقرر احالة ترجمة المواد المنـاسبة من الجرائد

١) بدوي ٦٢

الاجنبية ، وعلاوة بعض قطع ادبية من الكتب الادبية ، وانتخـــاب اخبار الملكية ، وترتيب الجريدة المصرية بصفة عامة ، على حضرة الشيخ رفاعة افندي ناظر مدرسة الالسن»[1].

وكانت «الوقائع» تنشر باللغتين التركية والعربية ، فكان الطهطاوي يحرر القسم العربي ، ويستعين ببعض الكتّاب امثال فارس الشدياق والسيد شهاب الدين تلميذ العطار .

وبعناية الطهطاوي ومساعديه تحسنت الجريدة انشاءً ومادة . وقد ظل نحو ٨ سنوات مشرفاً عليها . وانقطع في نهايتها عن العمل الصحفي ولم يرجع اليهـا إلا في عهد الخديوي اسماعيل[2] . في هذا العهد أنشئت مجلة « روضة المدارس » وأسندت نظارتها الى صاحبنـا (وذلك سنة ١٨٧٠) وكان مدير المدارس يومئذ علي مبارك باشا وهو الذي رأى ان تسند نظارة المجلة الى الطهطاوي، وفي ذلك يقول[3]: ولما كان حضرة رفاعة بك ناظر قلم الترجمة بديوان المدارس هو المشار اليه بين ارباب المعارف بالبنان ، والمعترف بدرجة فضله الرفيعة كل انسان ، ناسب ان تجعل هذه الصحيفة تحت نظـارته لتتحلى من معلوماته بالدُر الثمين ، وينشر علَمها فيتلقاها محب المعارف باليمين ».

وورد في الافتتاحية التي صدّر بهـا رفاعة المجلة قوله[4] : « ان جل مرغوب ديوان المدارس المصرية ، اعتماداً على مساعدة العنـــاية الخديوية ، تعميم العلوم وتتميم المعارف، وانتشار الفنون، واكثار اللطائف ، ومداولتها بين جميع ابناء الوطن ، وتسويتهم في الورود على مستعذب هذا المشروع الحسن» . الى قوله : « بحيث تكون فيهـــا الفوائد المتنوعة ، والمسائل المتأصلة والمتفرعة ، اقرب

١) تاريخ الوقائع المصرية ص ٤٢
٢) بدوي ٦٧
٣) المصدر نفسه نقلًا من العدد الثاني من مجلة روضة «المدارس» .
٤) المصدر نفسه .

تناولاً للمطلع المستفيد ، وأسهل مأخذاً لمن يعاينها من قريب الفهم والبعيد ، بقلم سهل العبارة ، واضح الاشارة ، وألفاظ فصيحة غير حوشية ولا متجشمة لصعب التراكيب ، ومعان رجيحة تنخرط في سلك مستحسن الاساليب » .

وبعد ثلاث سنوات ونيّف من تولي نظارتها ، وافاه القدر المحتوم فمضى تاركاً وراءه آثار جهاده الطويل وهمته الشمّاء . والحق يقال انه لم يرحل عن مصر الى دار البقاء إلا بعد ان تركها بجهاده واجتهاده ، افضل مما كانت عليه يوم ميلاده . وكان لنعيه هزة عنيفة حرّكت القلوب والاقلام . فرثاه العلماء الاعلام ، وخلّد التاريخ ذكره بين النوابغ والعظام .

ولم يكن رفاعة عالماً واديباً فحسب ، بل كان انسانياً كبيراً ، محباً للاصلاح ، حريصاً على خدمة جيله ووطنه . ولعلّ ابرز صفاته عزمه الذي لم يكن ليتراجع امام المصاعب ، وميله الى اقتباس المفيد من اسباب التمدن الحديث . اما عزمه ، فيشهد له به ما عاناه في رحلته الى اوروبا من مشاق السفر والحرص على الدرس والمطالعة ، وما قام به من اعمال ادارية وعلمية بعد رجوعه الى الوطن . واما اقتباسه المفيد من اسباب التمدن فيظهر في اهتمامه بالعلوم العملية التي كان اترابه في الازهر يحرّمونها او يزدرونها . كما يظهر ايضاً في مناصرته لتعليم البنات ، وكان ذلك أمراً إدّاً في زمانه . فهو في مصر كما كان بطرس البستاني في سوريا ولبنان رائد هذه الحركة المباركة التي رفع لواءها بعدئذ قاسم امين فهز العالم العربي من اقصاه الى اقصاه . وتتجلى لك آراؤه في كتابه «المرشد الامين» الذي يدعو فيه الى فتح ابواب العلم للمرأة لتعدّ نفسها للمسؤوليات التي ستواجهها في تربية اولادها وحسن مرافقتها لزوجها ورفع مستوى بيتها ، فضلاً عما يولّد فيها العلم من مكارم الاخلاق والمقدرة على خدمة المجتمع .

ومن شواهد ميله الى التمسك بكل جديد مفيد ، انه لم يكن يجاري المتزمتين المتشددين في المحافظة على التقليد ، القائلين ان العدول عن القديم الى

الجديد بدعة ليس فيها إلا الفساد . واليك بعض ما قاله في هذا المعنى : « ولا ينبغي لأهل هذا الزمـــان ان يعتقدوا انـ زمن الخَلَف تجرّد عن فضائل السّلَف. وانه لا ينصلح الزمان اذا صار عرضة للتلف. فهذا من قبيل البهتان. فليس كل مبتدع مذموم ، بل أكثره مستحسن على الخصوص والعموم ». الى ان يقول : « فمخترعات هذه الاعصر المتلقاة عند الرعايا والملوك بالقبول ، كلها من اشرف ثمرات العقول ، يرثها على التعاقب الآخر عن الاول ، ويبرزهـا في قالب أكمل من السابق وافضل. فهي نفعٌ صرفٌ لرفاهية العباد وعمارة البلاد[1].

ولا يتوهمنّ احد ان الطهطاوي في ميله الى التجديد كان يتراخى في الفضائل، او يستحسن مـا في المدنية الحديثة من اباطيل ورذائل ، فقد قرن حبه للجديد بمحافظته على تراثه الديني حتى الى درجة الازدراء بكل ما هو خارج عن هذا التراث .

١) مناهج الألباب (مصر ١٣٣٠ هـ) ص ٤٤١-٤٢

انتـاجه العلمي

جرى الطهطاوي – كما رأينا – شوطاً بعيداً في مضمار الترجمة والتـأليف ، فضرب بسهم وافر في شتى العلوم والآداب، وترك لنا من كل ذلك آثاراً قيّمة.

وقبل ان نعرض أهمّ هذه الآثار ، يجدر بنا ان نشير مرة اخرى الى ان هذا الرائد الكبير يجمع في نفسه بين ثقافتين مختلفتين – الاولى دينية ، وهي التي نشأ عليها في الازهر، وظلّ حريصاً عليها ، شديد التمسك بها طول حياته. والثانية علمية ، وهي التي ادركه فيها التطور ، فاندفع في سبيل لم يعهده في الازهر ، وأطلّ على آفاق لم يرها من قبل . وعن ذلك نشأت رغبته الشديدة في نقل العلوم العصرية ، من طبية ، وهندسية، وتاريخية، وجغرافية وسواها الى اللغة العربية ، ثقةً منه انه بنقل هذه العلوم، يخدم امته وجيله افضل خدمة[1]. وهذا عدا ما اشرف على ترجمته مما نقله سواه ، وهو شيء كثير جداً .

والحق يقال ان ما قام به في هذا السبيل يعدّ من اعمال الجبابرة، وقد كان له تأثير عظيم في النهضة الفكرية ابّان القرن الماضي . على ان عمله التثقيفي لم ينحصر في الترجمة العلمية ، فله يدٌ تذكر في التأليف الادبي. ولعلّ أهمّ مؤلفاته

١) من أراد الاطلاع بتفصيل على ما قام بترجمته فليراجع كتاب «رفاعة الطهطاوي» لأحمد بدوي من ص ١٥١ الى ١٩٤

ما يلي :

أ – تخليص الابريز في تلخيص باريز – وهو وصف رحلته الى فرنسا ، واختباراته ومشاهداته هناك .

ب – مناهج الالباب المصرية في مباهج الآداب العصرية – وهو كتاب في المدنية واسبابها ومنافعها . كتبه وأودعه « ما يكون لأهل الوطن ذخراً ، ويعقبه النجاح دنيا وأخرى » .

ج – انوار توفيق الجليل في اخبار مصر وتوثيق بني اسماعيل – وهو تاريخ لمصر في جزئين ، كتبه برعاية الخديوي اسماعيل .

د – نهاية الايجاز في سيرة ساكن الحجاز – وهو كتاب في السيرة النبوية.

ه – المرشد الامين للبنات والبنين – وهو كتاب في التربية المدرسية والاجتماعية .

ولما كانت غايتنا في هذا المقام درس طريقته الكتابية وما له من اثر في نهضتنا الحديثة فقد رأينا ان نكتفي من هذه المؤلفات باثنين فقط . وهما تخليص الابريز ، ومناهج الالباب . فنعرضها ، ثم نشرح اسلوبه وما له من محاولات في باب اللغة والادب .

تخليص الابريز :

وهو كما ذكرنا آنفاً ، يتناول رحلته الى باريس وما شاهده واختبره فيها .

يبدأه بوصف رحلته سنة ١٨٢٦ على زوارق النيل من القاهرة الى الاسكندرية ثم بحراً الى مرسيليا . واذا ذكرنا ان مصر لم تكن يومئذ قد عرفت السكك الحديدية او المراكب البخارية، لا نستغرب اذا عرفنا انه هو وصحبه قد امضوا شهراً في السفر قبل ان يصلوا الى مرسيليا ، وكان عليهم ان يسافروا منها الى باريس بعربات الخيل فقضوا على الطريق نحو سبعة ايام .

والطهطاوي دقيق الملاحظة ، لا يمر بشيء الا وصفه . وكثيراً ما يقرن وصفه باستطرادات مفيدة او فكهة . ففي باريس مثلاً ، يقف قليلاً ليعرفنا بأصل اسمها . ثم يتبسط في وصف موقعها ، ومناخها ، وشوارعها ، ومبانيها . ويلقي نظرة على سكانها فيصف لنا عاداتهم ، ويطري ذكاءهم . ويقول : « انهم يختصون بين كثير من النصارى بذكاء العقل ودقة الفهم وغوص ذهنهم في العويصات. وليسوا مثل النصارى القبطية (من اهل جيله) في انهم يميلون بالطبيعة الى الجهل والغفلة . وليسوا امراء التقليد اصلاً بل يحبون دائماً معرفة اصل الشيء والاستدلال عليه »[1] .

ولعل مقابلته لهم بنصارى مصر الذين عرفهم تصدق على كل الشرقيين في ذلك العهد . على ان صاحبنا يرى في تفوق الفرنسيين العلمي شائبة لا تغتفر ، وهي انهم يستغنون بالعلم عن الدين، وينكرون القضاء والقدر[2] . وكما يطري ذكاءهم وما يملكونه من اسباب المدنية، والرقي في المسكن، والمطعم، والمشرب ونظافة الشوارع ، وجمال المتنزهات ، والمسارح ، والموسيقى ، والمصالح العامة ينحي باللائمة على بعض طباعهم كالخفة والتلون ، ويقول : « ان عاصمتهم وان كانت احكم سائر بلاد الدنيا ، يكثر فيها الفواحش والبدع والضلالات »[3] .

ويذكر بنوع خاص تقدم الطب عندهم– وهنا يستطرد فيملأ نحو ١٤صفحة بوصايا طبية . لفائدة مواطنيه[4] . وبعد ان يذكر ما عندهم من «مارستانات» (اي مستشفيات) وجمعيات للخير والاحسان ، يقف ليقابل بين العرب وبينهم في هذا الشأن . فيقرر «ان اهل باريس بخلاء اشحاء في العطاء للعفاة او طالبي المال من الافراد ، لأنهم يرون ان في اعطاء القادر على الشغل شيئاً اعانة له على عدم التكسب (فهم) بخلاف العرب ، لم يخرج منهم امثال حاتم ، وممن ،

١) تخليص الابريز ٤٩
٢) المصدر نفسه ٥٣
٣) المصدر نفسه
٤) المصدر نفسه ٩٧ – ١١١

والبرامكة، والاجواد من الخلفاء والامراء. ولكنهم اسخياء في اقامة المستشفيات وتنظيم الجمعيات ومعاهد الاحسان [١] .

ومما يذكره للفرنسيين انتظام البريد عندهم وسائر المصالح العامة كالبنوك (المصارف) والمعامل والشركات . ويزعم ان اهل باريس اغنياء جداً حتى ان المتوسط منهم اغنى من تاجر عظيم من تجار القاهرة . فلا يرضون بقول الشاعر :

ولا فخر الا بالنوال وبالعطا   وليس بجمع المال عز ولا فخر [٢]

وفي وصفه لتقدم العلوم والفنون والصنائع عند الفرنسيين يخصص نحو ١٥ صفحة يبدأها بقوله : « والذي يظهر لمن تأمل في احوال العلوم والفنون الادبية والصناعة في هذا العصر بمدينة باريس ، ان المعارف البشرية قد انتشرت وبلغت اوجها بهذه المدينة، وانه لا يوجد من حكماء الافرنج من يضاهي حكماء باريس بل ولا في الحكماء المتقدمين» . ولكنه لا يلبث ان يعود الى ذم بدعهم فيقول « غير ان لهم في العلوم الحكمية حشوات ضلالية مخالفة لسائر الكتب السماوية، ويقيمون على ذلك ادلة يعسر على الانسان ردها . وسيأتي لنا كثير من بدعهم وتنبه عليها في محالها ان شاء الله » [٣] .

ورغم هذه البدع يرى في تقدمهم ما يوجب المدح ، فهو اذ يتأمل معاهدهم ومجامعهم ودور الكتب عندهم ومراصدهم الفلكية ، ويقابلها بما في الاوطان الاسلامية يومئذ ، كالازهر بمصر وجامع الزيتونة بتونس ، والقرويين بفاس ، ومدارس بخارى وسواها ، تثور به رغبة الاصلاح والتجديد فيقول: «وسيظهر لك فضل هؤلاء النصارى في العلوم . وبذلك تعرف خلو بلادنا من كثير منها، وان هذه (المعاهد الاسلامية) كلها زاهرة بالعلوم النقلية وبعض العقلية ، كعلوم العربية والمنطق ونحوها (كأنه يقول ولكنها لا تعنى بالعلوم العصرية) . والعلوم

١) تخليص الابريز ١١٢
٢) المصدر نفسه ١١٨
٣) المصدر نفسه ١٢٢

في مدينـة باريس تتقدم كل يوم . فهي دائمـاً في الزيادة ، فـــلا تمضي سنة الا ويكتشفون شيئاً جديداً »[1] .

وطبيعي عند ذكر العلوم والفنون ، ان يحدثنا عن حـال البعثة المصرية في باريس ، فيصف طرق معيشتها ومناهج دروسها . ويخصص فصلاً لمـا درسه هو وما ترجمه ، وكيف كانوا يمتحنون في المواد المطلوبة منهم .

ويظهر ان اجتهاده في اللغة الفرنسية قد جـاء بنتيجة طيبة ، حتى ان رئيس البعثة المسيو جومار قدم له هدية للتقدم الذي احرزه مع كتاب منه يقول فيه ما نصه: «قد استحقيت هدية اللغة الفرنسية بالتقدم الذي حصلته فيها ، وبالثمرة التي نلتها في الامتحان العام » . ويختم الكتاب بقوله : « وها انا باعث جدول امتحاناتك لسعادة ولي النعم ، باجتهـادك وفلاحك . ولا شك انه يسر بأنك تشتغل مع ثمرة (كذا) ، وانك اهل لرعايته لك ، واعتنائه بتربيتك وتعليمك. وعليك مني السلام »[2] .

وصاحبنا ككثير من الكتاب السـابقين، مولع بالاستطراد. فبينا هو يحدثك عن باريس واعمال البعثة فيهـا ، يستطرد الى ذكر «الثورة الفرنسية التي انتهت بعزل ملك فرنسا» . ويعتذر عن ذلك بأن فترة الثورة «تعد عند الفرنسيين من اطيب ازمانهم واشهرها» . ويخصص لها نحو عشرين صفحة من الكتاب[3] .

وبعد ان يحدثنا عن الثورة ومـا عقبها من حوادث ، يعود الى الكلام على العلوم والفنون عند الافرنج واقسامهـا ، ثم على اللغات وانواعها . ويقابل بـين قواعد اللغة الفرنسية وقواعد العربية مستطرقاً الى علم البلاغة وكيف تختلف مقاييسه او بعضها في العربية عما هي عليه عند الفرنسيين . ويختم الكتاب بمقابلة بين «الفرنسيس والعرب» كتبها بعد رجوعه من فرنسا وفيها يقول: «ظهر لي بعد

١) تخليص الابريز ١٢٤
٢) المصدر نفسه ١٥٣
٣) المصدر نفسه ١٥٦ – ١٧٦

التأمل في آداب الفرنساوية واحوالهم السياسية انهم أقرب شبهاً بالعرب منهم بالترك وغيرهم من الاجناس». ويجعل اساس المقابلة ثلاثة هي «العِرض (الشرف والمروءة) والحرية ، والافتخار» . ومن كلامه يستدل ان كلا الشعبين حريص على هذه الفضائل . ويأتي بالشواهد على ما للعرب القدماء من التمسك بالعرض والشغف بالحرية والافتخار بالمكارم . واذا كنا اليوم ، كما يقول ، لا نرى لهم ما كان لأسلافهم من ذلك فسببه « ان ما قاسوه من الظلم ونكبات الدهر قد اضعف ذلك فيهم ، واحوجهم الى التذلل والسؤال» [1] .

ومن الطبيعي ان يكون مسك الختام ، ذكر ما للذات الخديوية من الفضل العظيم في العمل على تسهيل سبل التقدم والرقي لمصر وسكانها. «حماها الله وذريتها وجعلها سامية القدر بين الممالك الشرقية والغربية . ومتع الله مصر وايالاتها بما افاضه عليها ولي النعم من حسن التمدن والعدل» .

هذه خلاصة وجيزة لهذا الكتاب. وهو حقاً حري بالمطالعة لما فيه من معلومات اجتماعية ، وما يتخلله من نوادر ادبية . وبرغم ما يشوبه من تشويش في ترتيب الفصول وتقسيمها ، وما يلمسه القارىء فيه احياناً من ركاكة في التركيب، فانه سيظل مرجعاً لمن يودون دراسة هذا العهد من تاريخ نهضتنا الحديثة .

وسنثبت بعد امثلة منه في عرض كلامنا على اسلوب كاتبه وملكته الادبية.

مناهج الالباب المصرية :

كان لكاتبنا شغف عظيم بوطنه مصر ، وغيرة شديدة عليه ، ورغبة حارة في العمل على كل ما يؤول الى تقدمه وسعادته . وبدافع هذه الرغبة كتب هذا الكتاب . فجعل له مقدمة طويلة في حب الوطن وواجبات ابنائه ، عقب عليها بقوله : « فحاجة الوطن الى المنفعة الحقيقية اشد من حاجته الى تقليد العُرف الذي هو منفعة ظاهرية. ولما كانت الديار المصرية فائقة في المآثر جاهلية واسلاماً

١) تخليص الابريز ٢٠٢

ولها اسبقية في التمدن قديماً وحديثاً ، والان تنافس المالك الاخرى في الفنون والصنايع ، وسائر انواع المنافع ... فلهذا وجب علينا ان نسرد في صحائف هذا الكتاب ما يبدو لنا من انواع المنافع الملائمة لمزاج الوقت والحال ، مما عساه ان يستفيد منه الاهالي الفوائد الجمة ، من اسباب الرفاهية والنعمة » .

ويقصد بالمنافع ما يتذرع به للحصول على اليسر والسعادة . وهي عنده على نوعين مادية كالزراعة والصناعة والتجارة ، ومعنوية كالشرائع والاديان والعلوم. وكلها تقوم على حسن التعاون لكسب المال وتحسين الحال . ولكن المال وحده (في رأيه) لا يوصل الى الغرض المنشود ما لم يقترن بالبذل في سبيل الخير والبر، وعدم الاسراف في الانفاق على الرغائب والشهوات الذاتية . فالاقتصاد الجاري بمقتضى العقل السليم يتمشى مع السخاء المفيد وكمال المروءة. أما البخل فمذموم ، وصاحبه محروم. وهنا يستطرد فيتحدث عن البخل وما ينقلونه عن نوادر البخلاء (ص ٣٤) . ثم يعود الى الكلام على منفعة المـــال، اذا رصد لنفع العموم لا لانفاقه على العفاة الكسالى والقادرين على العمل » . قال : « ولهذا لمـــا تغلب الفرنساوية على الديار المصرية لمحوا ان بها كثيراً من القادرين على الاشغال الذين يؤثرون السؤال على الاعمـــال ، ويلحون في الطلب ، فحنق حاكمهم من ذلك ونشر قانوناً بالقبض على كل من يطلبون الحسنة ، ويسألون الناس في الطريق . ويحث شتى الملل على فتح اماكن خيرية للذين لا يستطيعون العمل (ص ٤٨) .

ويتحدث عن العلم — شريعة الله اولاً ، ثم سائر انواعه من عقليـة واجتماعية وطبيعية . فبالشريعة يرشد الناس ويهتدون ، وبسائر العـلوم تنتظم المالـك ، وتحسن الحالة المعاشية ، ويتقدم الناس في سبيل العمران : « ومـــا يجب على الانسان عمله لتقوية الجمعية التأنسية (اي المجتمع الانساني) تربية اولاده وتنشئتهم، وتقويم نفوسهم بافهامهم آداب الطعام ، والمنام ، والكلام ، ومحاسن الاخـلاق (ص ٧١ — ٧٦) .

اما المنافع المادية من زراعة ، وصناعة ، وتجارة ، التي هي اصول المكاسب

فيجب فيها عنده حسن المعاملة ، وتجنب الغش ، والتعاون على الخير ، وتحسين حال الوطن . وهنا يدخل في بحث اقتصادي جدير بأن يطلع عليه طلاب علم الاقتصاد اليوم(١١٦). ويثبت ما قيل في شرف العمل أياً كان نوعه، لأن العمل يزيد الانسان قوة (مالاً). فلا خير فيمن لا يجمع المال لان المال قوة، والامل بالربح او الجزاء هو مغناطيس العمل. ولولاه ما كان اجتهاد او استنباط(١١٦) واذا كان الأمر كذلك فالكسل مذموم «لانه مثلبة خبيثة بل هو ام الخبائث (١٢٢) . ويقدم الامثلة على ذوي الاجتهاد والمساعي العظيمة من الافرنج : « كمكتشفي مجاهل افريقيا ، وفاتحي قناة السويس وبناما ، ومستنبطي السكك الحديدية التي قربت المسافات البعيدة » . وبهذه المناسبة يثبت لنا قصيدة له في «الوابور» (اي الباخرة) (ص ١٢٦) . وبها ينتهي القسم الاول من الكتاب .

اما القسم الثاني ففيه يشرح (المنافع) ثم يقول : «ان المنافع العمومية كانت قديماً بسيطة سهلة لا تحتاج الى كبير عناء . وكذلك الحكومات لا تحتاج الى كثرة النفقات فكانت الدولة لا تحتاج الا الى قليل من الخراج : «فاذا احتاجت الى امور ضرورية كتجهيز جيوش لحرب الاعداء استعانوا (الحكام) بأهل الوطن فكان يعينهم كل من يحترم اوطانه ويصدق في معزته لبلاده » (١٣٧).

وهنا ينتقل مستطرداً الى ذكر ما كان بين الرومان والدولة القرطاجنية في تونس من منافسات وحروب» «وكيف كانوا يستعينون بالاموال يقترضونها من رعاياهم ، ويردونها بأمانة عند يسار الخزينة» (١٤٣) . ويمثل على ذلك ايضاً بالحروب الاسلامية الاولى (١٤٣ — ١٤٦) .

ثم يتحدث عن منفعة الاسفار . فيذكر اسفار العرب ورحلاتهم التجارية ومكارم اخلاقهم . ويذهب الى ان السفر درّب النبي موسى فاكتسب به قوة على الرجوع الى مصر (١٥٨) .

ويقوده الحديث الى ذكر اهل صور وتقدمهم في التجارة والملاحة ، ولم يكن لهم دليل الا نجمة القطب : «واما البُصلة (البوصلة) او بيت الابرة فقد

اكتشفها العرب واستعانوا بهـــا على توسيع متاجرهم ورحلاتهم ، وليست من اختراعات الافرنج» (١٦٠) .

ويقول ان العرب قديماً عرفوا «الاحكام التجارية كالشركة ، والمضاربة ، والقروض وغيرها ... ولا شك ان قوانين المعاملات الاوروبية استنبطت منها كالسفتجة مثلاً (١٦٢) .

ويعود الى اهل صور والى تقدمهم في الاسفـــار البحرية وغيرتهم الوطنيــة (١٦٤) ، وانهم اول من اخترع حروف الهجاء وعنهم نقلها اليونان .

واذ يذكر الحروف والكتابة يستطرد الى مدح كتّاب العرب القدماء وبلاغتهم (١٦٨). ويأتي بأمثلة من كلامهم المأثور. ثم يعود ثانية الى الكلام على صور وابنائها، وكيف «صاروا بعد العزّ والطنطنة رعايا للعجم، واليونان ، والرومان الى ان فتح العرب بلادهم (١٦٩). وفي فصل تال يتناول بالوصف مصر وتقدمها قديماً وحديثاً ، والدول التي عاصرتها كبابل ، وما تركه الفراعنة من الآثار العظيمة. ويتحدث عن يوسف الصديق واخوته، وتدبيره الاقتصادي . ويستنتج من ذلك ان مصر كانت تتمتع بحكم عادل متمدن . ولما فتحت ثغورهـا لليونان الذين كانوا ارباب تجارة وصنـاعة ، ازدهت بالتجارة والصناعة . ويذكر من حكمائهم صولون ومآثره ، ومن ملوكهم الاسكندر الفاتح العظيم فيصف حسن سياسته واعماله ، وكيف انتشرت المعارف في عهده . ويتطرق الى ذكر الدولة اليونانية التي خلفته في حكم مصر ، وانها نظمتها ورقت فيهـــا العلوم والتجارة (٢٠١ – ٢٠٦) . ولكن مصر ، على ما يظهر من كلامه ، تضعضعت احوالها بعد اليونان . حتى قامت فيها دولة محمد علي وخلفـائه ، ولا سيما اسماعيل الذي «اجتهد ان يكسوهـــا ثوب الفخار ، وان يصونها داخلاً وخارجاً من الشدّة والبأس حتى تكون هي المصر ، وناسها هم الناس » (٢٠٦) ويشير الى علاقتها بسلاطين بني عثمان ، فينوّه بعظمة دولتهم ايام السلطان سليمان فيقول : « وقد كان عصر السلطان سليمان اعظم الاعصار ، اذ هو الذي قدّم الدولة العثمانية الى

اوج الفخار ، فافتتح الفتوحات العظيمة وأعلى كلمة الله ، ورفع المنار » . وهو الذي استغاث به فرنسيس ملك فرنسا لينقذه من شارلكان عاهل اسبانيا ، فأجابه الى ذلك وارسل اليه عمارة بحرّية بأمرة خير الدين باشا (٢١٤ – ٢١٥) وفي جواب السلطان يشير الى كتاب الاستغاثة الذي بعثه الملك فرنسيس مع رسول خاص ويقول : « فجميع ذلك عُرض على اقدام سرير سلطنتي التي هي ملجأ العالم » الخ .

ويقرن الطهطاوي هذا الحديث بكلمة عن معاصري السلطان من ملوك اوروبا . ثم يذكر نبذة عن لويس الرابع عشر ورجاله الذين على ايديهم قامت عظمة فرنسا ويعقب على ذلك بقوله : « ولو حظي محمد علي برجال كرجال ملك فرنسا لكان اعظم ابطال الدنيا (٢٢٢).

وبعد ذلك يتحدث عن حال مصر الطبيعية ومآثر محمد علي فيها – تحسين الريّ ، وبناء السدود والقناطر ، وانشاء المعامل ، وفتح الترع ، وتنظيم الادارة . كيف قصد بلاد السودان ، باحثاً عن الذهب . ولكن بحثه لم يسفر عن طائل . على ان كاتبنا يعتذر عن ذلك فيقول : « لا شك ان سياسة المرحوم جنتمكان[1] (محمد علي) في بلاد السودان ، وان لم تنفتح بها كنوز الذهب ، فقد ادّى في حقها من البحث ما وجب . فاذا كانت الغايات لا تدرك ، فالميسور منها لا يترك » . (٢٨٠) .

اما مصر فيصفها بالتقدّم في عهد اميرها اسماعيل ويقول معقباً : « فالملك العاقل من يستطيب المتاعب في استحصال المعونة ، ويستجلب المكاسب ليقوّم أود وطنه ويتعهد شؤونه ، ويجتهد في تنمية الايراد والمصرف الى حدّ التعديل ، بسلوك ارشد طريق واعدل سبيل (٢٨٤) . ويصل هذا الكلام بملاحظات عامة عن مصر واقاليمها الزراعية ، وما تحتاج اليه من تمهد لكي تزداد محاصيلها . ثم يرجع الى مدح اميرها « الذي جلب لها السعد ، وجعل حالها اليوم ارقى من حالها قديماً » .

(١) كلمة تركية معناها ساكن الفردوس .

ويختم الكتاب بأربعة فصول يصف فيها طبقات الشعب الاربع وهم : ولاة الأمر، أهل العلم والدين، الغزاة المجاهدون ، وأهل الزراعة والتجارة والصناعة . ويتخلل الكلام في هذي الفصول كثير من الاخبار والنوادر والحكم .

وخلاصة القول أن مناهج الالباب كثير الفوائد . وهو يدل على ما لمؤلفه من سعة الاطلاع ووفرة المعلومات العلمية والادبية العامة. ولكنه للأسف كثير التشويش ، تتداخل فيه المعلومات بعضها ببعض، وتتكرر الموضوعات، وتكثر الاستطرادات . فكأن المؤلف لحرصه على ان يدوّن ما ينفع مواطنيه ، لا يهتم بالتأليف المنتظم كما يهتم باعطائهم من المعلومات ما يلزم .

اسلوبه الأدبي

ان الطهطاوي مع عظيم خدمته العلمية لجيله ، وعلى كونه احد الاقطاب من رواد نهضتنا الحديثة ، لا يعد اسلوبه الكتابي من الطراز العالي او الانيق. ولقد كان يتصنع في الانشاء كما كانت عادة عصره، فيميل في كتابته الى جانب السجع كقوله واصفاً طريقته في كتابه «تخليص الابريز» : «وقد حاولت في تأليف هذا الكتاب سلوك طريق الايجاز وارتكاب السهولة في التعبير ، حتى يمكن لكل الناس الورود على حياضه، والوفود على رياضه، ولو صغر حجمه ، وقل جرمه. فهو مشحون بما لا يحصى من فوائد الفرائد ، وبما لا يستقصى من جزائل الخرائد» [1] . اما انه سهل فذلك مما لا شك فيه ، بل هو بسيط العبارة الى درجة الركاكة احياناً . على ان تكلف السجع في هذا الكتاب قليل بالنسبة الى تكلفه في «مناهج الالباب» حيث يطلق لنفسه عنان الترسل التقليدي ، كقوله مشبهاً حب الوطن « بحرارة متمكنة من الابدان الاهلية ، متى حلت ببدن الانسان غلبت على الحرارة الغريزية . فلذلك اذا ظهرت الحمية الوطنية ، في ابناء الديار المصرية ، وولعت بمنافع التمدنية ، فلا جرم ان تذكو نارها وتغلب على القوة الاولية . فيحصل لهذا الوطن من التمدن الحقيقي (المعنوي والمادي) كمال الامنية » (ص ١٩) .

١) تخليص الابريز .

وقوله في محمد علي : « لا شك ادرك بقريحته الصحيحة ، وفطنته الرجيحة ، ان المملكة المثرية السعيدة ، وسائل الثروة (وفيها السعادة) هي عين وسائل الصيانة والجادة. وانه ينبغي ان يعض عليهـا بالنواجذ ، وان لا يفتح لشواردها سبل ولا منافذ (٢٢٣) » .

ومثل آخر على اسلوبه في الكتابة ننقله من كتاب «انوار توفيق الجليل» وهو كتاب تاريخي . قال (ص ٢٢) في فضل النيل على مصر: «ولولا فضل الله عليها بالنيل الميمون الطلعة ، لكانت قحلة كالأراضي المجاورة لهذه البقعة ، ولولا انـه سخر لها عادل سلطان النيل المبارك(كذا) ونزول جيش مياهه بواديها، واصلاحه بالاحسان والتدبير جميـع اراضيها ، وامدادها بالميرة حاضرها وباديها ، لافتقرت الى امدادها بغيث السماء العميم ، وفاتها كون الطين الابليز لهـــا اعظم صديق حمـيم » .

فمن هذه الامثلة وهي قل من كثير ، تظهر لك طريقته في الانشاء الادبي ، التي يجمع فيها بين زخرفة السجع، وبساطة التعبير ، بل وسذاجته احياناً. ومن الانصاف أن نقول ان هذه الطريقة تظهر اكثر حين يطلق لنفسه عنان الترسل في الوصف وفي التعبير عن خوالج نفسه . اما في كتابته العلمية فانه يلزم عـادة الطريقة البسيطة الخالية من الزخرفة الصناعية .

ومهما يكن فان الطهطاوي قد خدم الحركة الادبية في عصره خدمـة جلى . فألـّف الكتب ، وترجم العلوم ، ونشر لمعـاصريه الكثير من الفوائد العلميـة والادبية . وهو وان لم يتحرر تماماً من القيود الانشائية التي كان اهل عصره يرسفون بها ، فقد فتح ابصـــارهم حتى رأوا في الحياة الفكرية شيئاً غير العلوم الكلامية . ورأوا منـاهل العلوم الكونية وما توحي اليهم من معـاني مستحدثة واختبارات جديدة فكان للأدب واللغة من ذلـك فوائد جـلى ظهرت بعدئذ في كتابات الأجيال التالية .

وقد اصاب احمد امين اذ قال : « قيمة الشيـخ رفاعة ليست في اسلوبه ، انما

هي في انه نشر العلم في اوساط فسيحة، وفتح للمتعلمين آفاقاً واسعة لم يكن لهم بهـا عهد . وذوّقهم معنى العلم الصحيح ، وشوّقهم للاستزادة منه ، وبصّرهم بعيوبهم» [1] . فهو من الذين خدموا النهضة الادبية الاخيرة بطريقة غير مباشرة اي بتحسين الموضوعات الادبية واخراجها من حيّزها الضيق . واستخدام اللغـة في ما يمتّ الى حياة الانسان الطبيعية والاجتماعية . فكان حقـاً رائداً من رواد الفكر الحديث وعاملاً نشيطاً في حقل العلم والأصلاح .

وإذ قيل ان لغته واسلوبه الانشائي لم يرتفعا عن لغة ذلـك العصر واسلوب الكتابة فيه، فالواقع انه لم يكن في اللغة والادب من طبقة الرواد الذين صرفوا عنايتهم الى ذلك كاليازجي او الشدياق واضرابهما. ولكنه انصرف الى الاصلاح عن طريق العلم فأجاد وافاد ، واصبح اهلاً لأن يعد من اركان الرواد . وله في الكتابة مزايا يجدر التنويه بها ، ومنها ما يلي :

تدقيقه في الوصف :

فمن مطالعة مؤلفاته نستطيـع ان نرى ما يمتاز به من حسن الملاحظة . يرى الاشياء فلا تفوته دقائقها ، وهكذا يرسمها فتشعر انك تراها امامك . خذ مثلاً وصفه لافراد البعثة وهم في باريس وقد اجتمعوا حول مائدة الطعام ، قال: «ثم مدوا السفرة للفطور ، ثم جاءوا بطبليات عالية (اي موائد) ، ثم رصوهـا من الصحون البيضاء وجعلوا قدام كل صحن قدحاً من القزاز وسكـّينة وشوكة وملعقة ، وفي كل طبلية نحو قزازتين من الماء واناء فيه ملح، وآخر فيه فلفل. ثم رصّوا حوالي الطبلية كرامي لكل واحد كرمي. ثم جاءوا بالطبيخ فوضعوا في كل طبلية صحناً كبيراً او صحنين ليغرف منه احد الطلبة ويقسم على الجميـع، فيعطي لكل انسان في صحنه شيئاً يقطعه بالسكـّينة التي قدّامـه ثم يوصله الى

١) من مقال في مجلة الثقافة ع ٢٣٦

فمه بالشوكة لا بيده، فلا يأكل الانسان بيده اصلاً، ولا بشوكة غيره أو سكينته أو يشرب من قدحه ابداً . ويزعمون ان هذا انظف واسلم عاقبة [1] .

هذه الطريقة في تناول الطعام لم يعرفها وهو في مصر، فوصفها كشيء غريب يستحق الوصف . وقد جاء وصفه ، على ركاكة اسلوبه ، صادق التعبير عما لفت نظره يومئذ من هذه العادة الاجنبية. ومثل ذلك في الدقة وصفه لطباع الفرنسيين اذ قال عنهم : «ومن طباع الفرنساوية التطلع والتولع بسائر الاشياء الجديدة ، وحب التغيير والتبديل في سائر الأمور ، خصوصاً «في امر الملبس » . فانه لا قرار له ابداً عندهم . ولم تقف لهم الى الآن عادة في التزيين » .

«وليس معنى هذا انهم يغيرون ملبسهم بالكلية ، بل معناه انهم ينوعون فيه. مثلاً لا يغيرون لبس البرنيطة ولا ينتقلون منها الى العمامة ، وانما هم تارة يلبسون البرنيطة على شكل ، ثم بعد زمن ينتقلون منه الى شكل آخر ، سواء في صورتها او لونها وهكذا . ومن طباعهم المهارة والخفة . فان صاحب المقام قد تجده يجري في السكة كالصغير . ومن طباعهم الطيشان والتلون فينتقل الانسان منهم من الفرح الى الحزن وبالعكس، ومن الجد الى الهزل وبالعكس، حتى ان الانسان قد يرتكب في يوم واحد جملة امور متضادة . وهذا كله في الامور غير المهمة . واما في الامور المهمة فآراؤهم في السياسات لا تتغير ، كل واحد يدوم على مذهبه ورأيه ، ويؤيده مدة عمره»[2] .

ومثل هذه الدقة تظهر في كل اوصافه ، سواء أكانت تتناول المحسوسات أو المجردات، والاشخاص او الجماعات. والذي يجدر بنا ذكره انه امين في ما يرسم، لا يحاول أن يغطي شيئاً او يتغاضى عن شيء يعتقده . ففي ذكره الاسكندرية مثلاً لا يرى بأساً من ان يقول عن مكتبتها الشهيرة «حرقها عمرو بن العاص رضي الله عنه» . واذا شعر من اقوال المؤرخين بمبالغة لم يتردد في ان يقول :

١) تخليص الابريز ٣١
٢) نفس المصدر ٥٠

«ولعل ذلك من مبالغات المؤرخين» . ومع تعصبه لملته ووطنه يحكّم عقله في الأمر ، وان كان في احكامه احياناً بعد عن محجة الصواب .

الاستطراد :

ويقصد به الخروج عن سيــــاق الموضوع للتحدث عن شيء آخر ينبه اليه الموضوع ، وهو كثير عنده . وما على الانسان إلا ان يراجع مؤلفاته ليرى ذلك واضحاً للعيان . ولو اردنا ان نمثل على استطراداته لملأنا صفحات عديدة ، بل لو جمعت استطراداته على حدة لكانت كتاباً قائماً بذاته ، فنكتفي بالاشارة اليها فقط . ونرجع القــارىء الى مــا ذكره بهذا الشأن كاتب سيرته احمد احمد البدوي ص ١١٤ ، فقد وفى الموضوع حقه .

خدمته اللغوية :

خدم الطهطاوي اللغة العربية خدمة لا تنكر . فقد قام بمـــا يذكر له في حقلي التعريب والترجمة . وما قولك برجل يعالج بنفسه مئات المصطلحات العلمية والفنية من طبية ، وهندسية ، وطبيعية ، واجتماعية ، وحقوقية ، وجغرافية وسواها ، فينقّب بلا ملل مستهدياً الى مـــا يقابلها بالعربية . فاذا وجد ذلك استعمله والا ترجمه . وإذا تعذرت الترجمة عرّبه ناقلاً اياه بلفظه الى العربية مع تغيير قليل .

ومعلوم ان كثيراً مما وضعه قد طواه الزمان بعد ان ترقّت لغة الانشاء ، وخصوصاً في قرننا الحالي، وحل محله ألفاظ وأوضاع اصح وافضل . مثال ذلك ترجمته للالفاظ الافرنجية التالية :

اللفظة الافرنجية	ترجمة الطهطاوي	ترجمتها اليوم
La musée	خزانة المستغربات	المتحف
Théâtre	خيالي	المسرح
Constitution	الشرطة	الدستور
Cape of Good Hope	رأس عشم الخير	رأس الرجاء الصالح

وقد توكأ كثيراً على التعريب فحشا كلامه العلمي بكثير من الالفاظ الاجنبية التي نبذها المحدثون. على انه قد ترك كثيراً من المصطلحات التي وضعها اواختارها وفضلها، ولا تزال حية شائعة الاستعمال، كميدان (Place) بالفرنسية، اطلس (Atlas)، اعتدال (تساوي الليل والنهار)، ميزان الحرارة (Termomêtre)، طوبوغرافية (Tobographie) وعشرات غيرها [1].

ومما يذكر له كما يقول احمد احمد بدوي: «وانه قد وضع معاجم صغيرة في مفتتح او ختام بعض كتبه التي ترجمها: «ككتاب التعريبات الشافية، وقلائد المفاخر، ومبادىء الهندسة، والمعادن النافعة». ولم يتح لنا الاطلاع على هذه الكتب لنبدي رأينا فيها. ولذا فنحن ننقل هنا ما اثبته الاستاذ المذكور اذ قال [2]: «ففي كل واحد منها معجم يجمع ما ورد في الكتاب من الفاظ غريبة لم تعرفها العربية من قبل ... ومنهاج رفاعة في عرض الكلمة في معاجمه ان يضبطها ضبطاً دقيقاً. ثم يعرّف بها تعريفاً واضحاً موجزاً. وهو يؤثر في معاجمه الترتيب الهجائي الذي ينظر الى اول حروف الكلمة وما يليه».

فما مرّ يتبين لنا المجهود العظيم الذي قام به الطهطاوي في سبيل اللغة وانماء ثروتها، وان يكن قد خلط في ذلك الغث بالسمين. وجدير بنا ان ننوّه الى طريقته الحديثة في استخدام الترتيب الهجائي للكلمة دون الرجوع الى صيغتها المجردة كما هي الحال في المعاجم العربية، فيستطيع الطالب الوصول اليها عن اسهل سبيل. وسنرى ان ذلك ما فعله بطرس البستاني في دائرة المعارف ايضاً.

١) راجعها في كتاب بدوي ٢٦٦ – ٢٨٣
٢) المصدر نفسه ص ٢٨٨ – ٢٩٠

والغريب ان الطهطاوي رغم ما بذله في سبيل اللغة ، كان كثيراً ما يضيق به مجال العربية الفصحى في كتاباته فيسفُ الى العامية او الى المبتذل من الاوضاع واليك بعض الامثلة مما وقعنا عليه في مؤلفاته :

من كتاب انوار توفيق الجليل ص ٢٢ – الطين الابليز
» » » » » » ٢٢ – عتامير افريقيا المنفّرة
» » » » » » ٥٤٩ – الارهاصات الخارجية
» » تخليص الابريز » ٩٠ – ومن طباعهم الشلبنة (اي التظرّف)
» » » » » ٢٠١ – اللخبطة (بمعنى التشويش)
» » » » » ١١٤ – التنبلة (أي الكسل)
» » » » » ١٥٨ –
» » » » » ٨٥ – عَرَق الواغش
» » مناهج الالباب » ٢١٧ – وفي ايام هذين القرالين[1]
» » » » » ٢٢٣ – وسائل الصيانة والجادة
» » » » » ٢٣٢ – تلف القيوف
» » مناهج الالباب » ٢٢٩ – جنتمكان محمد (وهذه اللفظة يستعملها مراراً في اماكن اخرى)
» » » » » ٢٦٠ – رخت مذهّب
» » » » » ٢٦٥ – كتخدا مصر
» » » » » ٢١٩ – قومبانيات (اي شركات)
» » الكواكب النيرة » ٥ – الفاملية (اي العائلة)

وفي اماكن كثيرة يستعمل لفظة «القزاز» بدل الزجاج ، و «الصرماتية» بدل صانع الاحذية .

وقد جمع الاستاذ بدوي كثيراً من الفاظه العامية في كتابه «رفاعة الطهطاوي»[2].

---

١) ص ٢٨٥ وما بعدها

٢) القرالين اي الملكين وهي كلمة تركية .

كلمة ختامية

بقي ان نقول ان حركة الاصلاح التي قام بها الطهطاوي لم تنحصر في نقل العلوم الحديثة ووضع المصطلحات الجديدة . فقد عمل ايضاً في حقل الاجتماع من ناحيتين : الاولى– وصفه للمدنية كما رآها في فرنسا ، وحثّ مواطنيه على الأخذ بأسبابها . فهو يمدح جدّ الفرنسيين في السعي وراء الكسب ، فيقول : « اعلم ان من المركوز في اذهان هؤلاء الطوائف ، محبة الكسب وصرف الهمة اليه ، والحركة ، وذم الكسل والتواني ، حتى ان كلمة التوبيخ المستعملة عندهم على ألسنتهم في الذم هي لفظة الكسل والتنبلة . وسواء في محبة الاشغال العظيم والحقير، ولو حصل من ذلك مشقة أو مخاطرة بالنفس»[1].

ويمدح حرصهم على الحرية الفكرية والدينية ، والمساواة بين افراد الرعية ، وتطبيق العدالة على الجميع حتى على الملك [2] ، وحبهم للنظافة ، نظافة الجسم ونظافة البيوت والمدن . وغير ذلك من ظواهر الرقي الاجتماعي .

والناحية الثانية : دعوته الى فتح ابواب التعلم للمرأة. وقد كان ذلك محظوراً في عهده . صرح بآرائه هذه عقب رجوعه من باريس ، لكن الرأي العام لم يستسغ دعوته يومئذ فاضطر إلى الصمت حيناً ، حتى اذا كانت ايام اسماعيل تجددت هذه الدعوة وانشئت اول مدرسة لتعليم البنات . وكان الطهطاوي قد مهد لذلك في كتابه «المرشد الامين» للبنات والبنين الذي اخرجه قبل تأسيس

١) تخليص الابريز ١١٤
٢) ٧٢ المصدر نفسه

مدرسة البنات بسنة اي (١٨٧٢) وفيه يقول : « ينبغي صرف الهمة في تعليم البنات والصبيان معاً لحسن معاشرة الازواج (اي لكي تحسن معاشرة الازواج بعضهم لبعض) فتتعلم البنات القراءة والكتابة والحساب ونحو ذلك، فان هذا يزيدهن ادباً وعقلاً ، ويجعلهن بالمعارف اهلاً ... وليمكن المرأة عند اقتضاء الحال أن تتعاطى من الاشغال والاعمال ما يتعاطاه الرجال على قدر قوتها وطاقتها [١].

وفي ذلك العهد كان بطرس البستاني في بيروت يدعو الى تعليم المرأة،واول خطبة له في ذلك القاها سنة ١٨٤٩ . فكأن هذين الرائدين الكبيرين كانا على اتفاق في العمل ضمن منهاج واحد، منهاج يتناول اصلاح الامة فكرياً واجتماعياً ويهيء لها شباباً يدرك معنى الوطنية ويبذل قواه للسير بأمته في سبيل المدنية .

كلمة في شعره :

قال: وما نظم القريض برأس مالي ولا سندي اراه ولا سنادي

وانه ليعبر في هذا البيت عن حقيقة حاله . فقد كان الطهطاوي كاتباً بحّاثة لا شاعراً مجيداً . نظم الشعر كسائر ادباء عصره ، فجاء بالنكات البديعية من مثل قوله :

مذ جاء يضرب بالناقوس قلت له من علّم الظبيَ ضرباً بالنواقيس
وقلت للنفس اي الضرب يؤلمك ضرب النواقيس امضرب النوى قيسي

وانك لتلمس في هذا القول تكلفاً لا طلاوة فيه ، وضعفاً عروضياً في قوله «يؤلمك». واكثر شعره في مدح اولي الأمر من الحكام الذين اتصل بهم وذكر اعمالهم . وله شعر وطني يفاخر فيه بمصر وامجادها التاريخية وبسالة جيشها ومآثر البيت العلوي فيها :

وليس في شعره ما هو جدير بالدرس في هذا المقام فنكتفي بالتنويه اليه ، تاركين دراسته لمن يتخصص بدرس التطور الذي حدث في شعر نهضتنا الحديثة.

---

١) الشبال ٨٦

الطهطاوي

مراجع دراسته على الترتيب الابجدي

البعثات العلمية في عهد محمد علي (الاسكندرية ١٩٣٤) عمر باشا طوسون

تاريخ الترجمة في عهد محمد علي (القاهرة ١٩٥٠) جمال الدين الشيال

تاريخ الحركة القومية (ج ٣ القاهرة ١٩٣٠) عبد الرحمن الرافعي

تاريخ مشاهير الشرق (القاهرة ١٩٠٢) جرجي زيدان

تاريخ الوقائع المصرية (مصر ١٩٤٦) ابرهيم عبده

التعليم في مصر (القاهرة ١٩١٧) امين باشا سامي

رفاعة الطهطاوي (نشر دار احياء الكتب العربية) القاهرة ١٩٥٠

رفاعة الطهطاوي (مصر ١٩٥٠) أحمد أحمد بدوي

حلية الزمن بمناقب خادم الوطن (مصر ١٩٥٨) لصالح مجدي. نشر الشيّال

محمد علي الكبير (القاهرة ١٩٤٤) محمد شفيق غربال

مقالات عن الطهطاوي – مجلة الثقافة (مصر) ع ٢٣٠ – ٢٣٥

من آثار الطهطاوي

انوار توفيق الجليل (ج ١)	(مصر ١٢٨٥ ﻫ)
بداية القدماء وهداية الحكماء	(بولاق ١٢٥٤ ﻫ)
التوقيات الشافية لمريد الجغرافية	(بولاق ١٢٥٠)
تخليص الابريز في تلخيص باريز	(بولاق ١٢٥٠)
المرشد الامين للبنات والبنين	(مصر ؟)
مناهج الالباب المصرية	(مصر ١٣٣٠ ﻫ ١٩١٢ م)

فارس الشدياق

توطئة :

ُعني بدرس الشدياق عدد من الكتاب ، فأرخوا سيرته ، ونظروا في آثاره، وحللوا مزاياه النثرية والشعرية . فاذا حاولت الآن ان القي دلوي بين الدلاء ، فما انا بمبتدع بل متبع . وعلى كلٍّ فأية دراسة لرواد نهضتنا تعدّ وافية اذا خلت من ذكر هذا الرائد الكبير ؟ هذا ولكل باحث طريقة خاصة قد يكون لها من الفائدة ما ليس لسواها .

واذا استثنينا اقدم المصادر، وهو ما حدثنا به الشدياق عن نفسه في مؤلفاته التي سنعرضها بعد ، فان من السابقين في الترجمة له العلامة جرجي زيدان في كتابيه «تاريخ مشاهير الشرق» و «تاريخ آداب اللغة» ، ثم الأب لويس شيخو في كتابه «الآداب العربية في القرن التاسع عشر» . على ان اول محاولة لتدوين سيرته ببعض التفصيل كانت على يد بولس مسعد . فقد اصدر سنة ١٩٣٤ رسالة في نحو ٤٢ صفحة ذكر فيها تاريخ اسرة الشدياق ، وتحدث عن حياته ، ورحلاته ، واعماله ، ومؤلفاته ، واقوال الادباء فيه .

وفي سنة ١٩٥٠ صدر كتابان احدهما لمارون عبود بعنوان «صقر لبنان» ويمتاز بدرس شامل لبيئة الشدياق السياسية والاجتماعية والدينية ، معززاً درسه بعدد من الوثائق الخطية ، وفيه يحلل لنا مزايا الشدياق الادبية . وبرغم انه لا ينظر الا الى الوجه الوضاء من ادبه ، نستطيع ان نقول ان نظراته على العموم نظرات ناقد مدقق يعتمد على ما اختبره بنفسه من ادب ذلك الجبار (كما يسميه).

والكتاب الثاني للاب انطونيوس شبلي ، جمع فيه مـا دار بين الشدياق وابرهيم اليازجي من مناظرات ومناقشات ، ومـا تهجم به الشدياق على المعلم الشهير بطرس البستاني . وصدّره بتدوين سيرته نقلاً عن رسالة بولس مسعد الآنفة الذكر اذ رآها كما يقول «افضل ترجمة لحياته» .

وهناك فصول ومقالات تناولت الشدياق وادبه ومنها :

فصل من كتاب «اعيان البيان» لحسن السندوبي ، وفيه ترجمة كاتبنا وبعض فصول مختارة له ، وفصل في دائرة المعـارف الاسلامية للمستشرق الكبير بروكلمان .

وبعض مقالات في مجلة «المكشوف» (بيروت) ١٩٣٨ ، ومجـلة الجمهور (بيروت) عدد ٩٩ و١٠٤ ، ورسالة مخطوطة لمحمد يوسف نجم في مكتبة الجامعة الاميركية قدمها سنة ١٩٤٨ اطروحة لنيل شهادة الماجستير .

اما احدث ما كتب عن رائدنا فهو محاضرات القاها محمد احمد خلف الله في معهد الدراسات العربية العالية بمصر سنة ١٩٥٥ ، ونشرت تحت عنوان : «احمد فارس الشدياق وآراؤه اللغوية والادبية» . وتمتاز هذه المحاضرات بطرافتها في درس العوامل الاقتصادية والدينية والثقافية التي اثرت في حياة الشدياق . وعرض آرائه اللغوية مع تحليل لمزاياه الفنية والنقدية .

ولقد طالعت جميع ما كتبه هؤلاء الباحثون وسواهم فاستقيت منه فوائد كثيرة . على اني رأيت انه لا يزال هناك متسع لمن يروم خوض هذا الموضوع مرة اخرى ، ورسم صورة جديدة لهذا النابغة الذي تألق نجمه في سماء الادب

واللغة طوال القرن الماضي ، على ان تكون خالية من كل ترقين مُحابٍ يزيل ما يغشاها من هُجن او كلف ، ومن كل تهجين خصمٍ يظهرها في حال سيئة من التشويه او التلف .

ولما استعرضت آثاره وجدت منها ما يدخل في باب اللغة ، ومنها ما يدخل في باب الادب، فضلًا عن كتبه المدرسية في الصرف والنحو. وهذه غضضت عنها النظر في هذا البحث ، وها أنا اتقدم بنبذة تاريخية عنه قبل محاولتي ان اثبت ما استخلصته شخصياً من مطالعتي كتبه اللغوية والادبية :

نشأته وبيئته :

كان والداه من سكان الحدث قرب بيروت . لكن كاتبنا ولد في عشقوت وكان والداه قد انتقلا اليها سنة ولادته . ولما بلغ الرابعة من عمره عاد اهله الى الحدث حيث نشأ فارس وترعرع . وفي مدرسة تلك القرية تلقى مبادىء القراءة ثم ارسل الى مدرسة عين ورقة في كسروان حيث اتم دروسه الابتدائية.وكان له ميل شديد الى المطالعة ، فأعانه اخوه اسعد على زيادة التحصيل ، فتقدم في معرفة العربية والسريانية، وأتقن الخط العربي. وما ان بلغ الخامسة عشرة حتى توفي والده. فلم يقعده ذلك عن متابعة التحصيل. على انه اضطر الى العمل للقيام بأوده واود والدته . فانصرف الى النساخة وبقي على ذلك مدة من الزمن . ثم عنّ له ان يشترك مع احد اصدقائه في البيع . فاستبضعا بضاعة واكتريا حماراً لحمل البضاعة والمتاجرة بها طلباً للكسب فلم يفلحا . وهكذا ترك صاحبنا هذه التجارة الخاسرة «واقتفى طريقاً آخر من طرق المعاش» ، وهو طريق التعليم. فأتيح له ان يعلّم بنتاً لأحد الأمراء . ولكن التعليم لم يبلغه ما اراد ، فرجع الى النساخة وان كان ذلك – كما يقول – على غير المراد . ولا ريب ان عمله في نسخ الكتب قد افـــاده اذ وسع آفاق المعرفة امـامه ، ومكنه من اللغة واساليب الكتابة .

وكان اخوه اسعد قد اتصل بالمرسلين الاميركيين وعمل معهم ، ثم رأى في تعليمهم الديني ما حمله على اعتناق مذهبهم . فاضطهده رؤساء الدين الماروني في ذلك العهد اضطهاداً عنيفاً (١) . وكان اضطهاد أخيه من جملة الاسباب التي دعت صاحبنا الى كره المقام في لبنان والتجائه الى الارسالية الاميركية. فأرسلوه الى مصر سنة ١٨٢٦(٢) ليعلم المرسلين هناك اللغة العربية. ولما بلغه موت اخيه سجيناً معذباً في دير قنوبين ، وذلك سنة ١٨٣٠ ، ثارت نقمته فهاجم رؤساء الدين منددا بأعمالهم وتعصبهم كقوله مخاطباً اياهم :

« قد تفلّت الفارياق من ناديكم ... بقي الآن ان أذكّركم بما اشتططتم به من الظلم والطغيان ، والجور والعدوان ، على اخي المرحوم اسعد اذ اودعتموه السجن بقنوبين نحو ست سنوات . وبعد ان اذقتموه جميع ضروب الذل والهوان والبؤس والضنك في صومعة لزمها فلم يخرج منها الى موضع يبصر فيه النور قضى نحبه» الخ (٣) .

وفي مصر انكبّ فارس على الدرس والمطالعة برعاية استاذين كبيرين هما محمد شهاب الدين محرر الوقائع المصرية، ونصرالله الطرابلسي. فأتقن علوم العربية ولمع اسمه في عالم الكتابة . ولم يلبث ان عيّن خلفاً لرفاعة الطهطاوي في تحرير الوقائع (٤) .

اقام في مصر تسع سنوات تزوج في اثنائها ورزق ولدين هما سليم وفايز . ثم طلبه المرسلون الاميركيون في مالطه ليعلم العربية في مدرستهم ويصحح بعض مطبوعاتهم ومنشوراتهم العربية (وذلك قبل انتقال مطبعتهم الى بيروت) . فأقام في مالطه ١٤ سنة مكبّاً على التدريس والتصنيف وتصحيح المطبوعات .

١) راجع قصة اسعد الشدياق بقلم المعلم بطرس البستاني (ط ٢ سنة ١٨٧٨)
٢) من قصة اسعد الشدياق نستدل انه كان لا يزال في لبنان سنة ١٨٢٦
٣) الساق ١ – ١٣٢
٤) بولس مسعد ١٨

وهناك اعتنق المذهب الانجيلي [١] .

ثم رأت جمعية الكتاب المقدس ان ينتقل الى انكلترا كمساعد للدكتور لي (Lee) في ترجمة التوراة الى العربية. فقضى مدة في هذه المهمة عاد بعدها الى عمله السابق في مالطه . وسنحت له فرصة وهو في مالطه فزار تونس زيارة قصيرة . اتيح له في اثنائها الاتصال بالباي حاكمها فمدحه بقصيدة ونال رضاه وعطفه .

وطُلب ثانية الى انكلترا لاكمال ترجمة التوراة فأقام فيها عدة سنوات، حتى اذا انتهى من عمله هناك انتقل الى باريس .

واتفق ان باي تونس زار فرنسا (والشدياق في باريس) وفرّق مالاً كثيراً على فقرائها ، ثم عاد الى بلاده. فأرسل اليه الشدياق قصيدة يمدحه ويطري جوده واحسانه ، فاهتز لها الباي . وما عتم ان ارسل له مركباً حربياً يستقدمه الى تونس . فسافر اليها والآمال تملأ صدره . وهناك قوبل بحفاوة واكرام ، وعهد اليه بتولي التحرير في جريدة الحكومة الرسمية «الرائد التونسي» . وفي تونس اعتنق الاسلام وسمى نفسه احمد فارس الشدياق .

وكان قد سبق في اثناء اقامته في انكلترا، ان نار الحرب اشتعلت بين روسيا وتركيا . فنظم اذ ذاك قصيدة يمدح فيها السلطان عبد المجيد ويذم روسيا . ولما رفعت الى السلطان اعجب بها ونالت رضاه . فلما اقام الشدياق بعدئذ في تونس وعظم شأنه هناك ؛ بعث السلطان يستدعيه الى الاستانة . فاستأذن من الباي وقصد عاصمة الخلافة العثمانية حيث رحب به اقطاب الدولة ونال انعام السلطان. واقام فيها عدة سنين يتولى تصحيح المطبوعات الرسمية .

وفي سنة ١٨٦١ اصدر من الاستانة مجلة «الجوائب»، فانتشرت في كثير من الاقطار ، واحتلت مكانة الصدارة بين الصحف العربية ، وعظم شأنها في عالم الادب والكتابة ، وكان ابنه سليم يساعده في تحريرها .

---

١) من قصة اسعد الشدياق البستاني نستدل ان فارساً كان متأثراً بـ[illegible] اخيه ومبادئه راجع ص٦٨

وظل احمد فارس عاكفاً على التأليف والتحرير حتى سنة ١٨٨٤، حين اعتراه ضعف في بصره فاضطر الى اعتزال العمل والجهاد الادبي.

وبعد سنتين من اعتزاله العمل زار مصر فلقي فيها ترحاباً وحفاوة من عظماء البلاد ورجال العلم فيها. لكن مقامه فيها لم يطل فعاد الى الاستانة حيث وافاه الأجل المحتوم في ٢٠ ايلول سنة ١٨٨٧. وكان لوفاته رنّة في جميع الاقطار. وعملاً بوصيته نقل جثمانه الى لبنان، فاستقبله كبار القوم ودفن في الحازمية قرب بيروت. وقد رثته الصحف واطنبت بذكر مآثره الادبية واللغوية وابّنه كثير من رجال العلم والادب.

والذي يتتبع مجرى حياته منذ نشأته في لبنان حتى وفاته في تركيا، يشعر بما كان لبيئته من التأثير في نفسه وادبه. فقد ولد واللغة العربية في طور الضعف والانحطاط، خصوصاً في الأوساط الدينية التي نشأ فيها. فلما بلغ سن الرشد واتيح له اتقان هذه اللغة، اخذ كسائر الرواد يجاهد في سبيل انهاضها وارجاعها الى ما فقدته من متانة وبلاغة. وفي تآليفه ومقالاته ما يشهد له بذلك.

ومما اختبره في لبنان، ما كان يسوده من استبداد اقطاعي وتعصب ديني فنشأ ناقماً يهاجم الاقطاعيين ورؤساء الدين، وخصوصاً بعد ما اصاب أخاه اسعد ما اصابه من الاضطهاد والعذاب. ولما اقام في مالطه وانكلترا وجال في انحاء اوروبا عرف عن كثب حياة الاوروبيين واحوالهم وطبائعهم فوصفهم في كتابيه «الواسطة» و «كشف المخبا» وصفاً دقيقاً كما سنرى بعد.

ولا ننس ان الرجل متحدر من اسرة عريقة كان لها يد في الاحوال السياسية ولكن الدهر عبس لها فافتقرت فنشأ كاتبنا، رغم الفقر، ذا طموح ومطامع دنيوية. فلما تقدم في سبيل العلم وفتحت له سبل الشهرة والمال، بادر الى سلوكها ولو على رفات ما كان قد نشأ عليه او اعتنقه من مذاهب دينية. وهكذا نراه لأجل المصلحة يترك المارونية ويعتنق المذهب الانجيلي. ثم لأجل المصلحة يترك المذهب الانجيلي ويعتنق الاسلام. وقد يكون في انتقاله من حالة الى حالة شيء

من الاقتناع . ولكن الذي يبدو لنا ان حب المجد العالمي كان طاغياً عليه. فلا غرابة ان نراه يستعمل ادبه في التزلف الى العظماء والدعاية لهم ، كما كان يفعل ذوو المطامع من ادباء القرون الماضية .

رجل كالشدياق كان همه الشهرة والمجد العالمي عن طريق الادب ، تكبر نفسه في عينيه فلا يطيق ان يرى منافساً ينازله في هذا الميدان ، فهو يهاجمه بقلمه ولسانه مرغياً مزبداً في هجاء قد يخرج عن جادة الاتزان الادبي . وقد اصاب مارون عبود (وهو من اكبر المعجبين به) اذ قال فيه :

« انه خلق للهجاء والنقد . وهو سبّاب شتّام حين يهجو . يهاجم الخصم ليكسره شر كسرة»[1] . ولسنا نرى بأساً من رد هجوم الخصم اذا كان المراد بذلك ان يدافع الانسان مثلاً عن قضية فكرية ، او عبارة لغوية ، او مسألة فنية . ولكن ذلك لا ينبغي ان يدفعه الى شتم الخصم وتحقيره ، كما كان يجري في المناقضات بين شعراء الدولة الاموية . فعهد المناقضات قد انقضى ، واصبح النقد اليوم متحلياً بالحشمة الاخلاقية ، اذ هو يرمي الى تبيان الحقائق لا الى طعن الاقران بما هو اشد من وخز السنان . والذي يطالع «سلوان الشجي في الرد على ابرهيم اليازجي » يتضح لنا شيء من طريقة الشدياق في الهجاء . كقوله في الحسد مشيراً الى المعلم الشهير بطرس البستاني والى الشيخ ابرهيم اليازجي :

يقول في البستاني «صاحب الجنان» : «فهو ابو الحسد ، الذي قاده الغرور بحبل من مسد ، وتناءى به الافتراء الى ابعد امد . ولما ان سرى هذا الداء والعياذ بالله ، في دمه ولحمه ، وخالط جميع آرابه وعظمه ، لم يقف على حد في القذف والطعن ولم يخف شيئاً مما اكنّ قلبه من الضغن» . الى قوله : «وصاحب الجوائب (اي الشدياق) اذ ذاك نابذه في زوايا النسيان ، ورامية في مرامي الامتهان ، لأنه ليس بذي رشد حتى يعتب عليه ، او بذي عقل حتى ينظر اليه» .

---

١) صقر لبنان ١٢٠

واما ابرهيم اليـــازجي « فهو صاحب السفاهة الكبرى ... وقد بلغني من يوثق بكلامه انه من اهل الاسواق ، واولاد الزقاق ، وانه حاول ان يدخل احد المكاتب ليتعلم فيها بعض العلوم الابتدائية ، وحيث كان خامل القدر ، منسي الذكر ، اراد ان يحصل على شهرة بتخطئة صاحب الجوائب ، فحصّل ما اراد ، وان كان عن طريق الفساد : لأنـّا قبل وقاحته هذه لم يكن لنـا علم بوجوده ...»

وعلى هذا الغرار يسير شاتماً طاعناً محقراً ، مستعملاً من الكلام ما يجب ان تتنزه عنه المناظرات العلمية. قال الاب انطونيوس شبلي (الذي جمع لنا مناقشات الشدياق واليازجي) ، معقباً على ذكر النعوت السفيهة التي كان يطلقهـا الشدياق على مناوئيه : وانه يرمي بمثل هذه الالقاب والنعوت الاليمة كل رجل يعنيه من مناوئيه بدون ادنى تهيب او تورع جريـــاً على عادته» [1] . ومن اراد زيادة الاطلاع فليراجع كتاب «سلوان الشجي» وغيره مما وضعه الشدياق . ويلوح لنا ان هذا النوع من الهجاء الذميم انما كان يصدر عن الشدياق اذا اشتد غضبه ، او مسّت كرامته ، او تعرض له منافس تخشى مقارعته . اما في حالاته العادية فان هجاءه لا يتجاوز التهكم الساخر . كقوله في الاتراك والعرب بمصر : « واذا اتفق في نوادر الدهر ان تركياً وعربياً قاشيا ، اخـذ العربي بالسنّة المفروضة وهي ان يمشي على يسار التركي محتشماً ، خاشعاً ، ناكساً ، متحاقراً ، متصاغراً. فاذا عطس التركي قال العربي : رحمك الله . واذا تنحنح قـال : حرسك الله . واذا مخط قال : وقاك الله . واذا عثر ، عثر الآخر معه اجلالاً له وقـــال : نعشك الله ... وقد سمعت ان الترك هنا (اي بمصر) عقدوا مجلس شورى استقر رأيهم فيه لدى المذاكرة على ان يتخذوا لهم مركباً وطيئـاً من ظهور العرب .

١) كتاب الشدياق واليازجي ص ٢١٠ (الحاشية)

فانهم جرّبوا سروج الخيل، وبرادع الحمير، واقتاب الابل، وسائر انواع الحامل فوجدوها كلها لا تصلح لهم» [1] .

فتراه هنا ينتقد الحياة الاجتماعية في مصر مقابلًا بين حالة المصري وحالةالتركي ومندداً بما بينهما من تفاوت في المقام . ونقده للحياة الاجتماعية والعادات العامة كثير شائع في كتاباته الادبية . ومن سخرياته ما وصف به الانكليز اذ قال : «ولا يكاد احدهم يضحك ضحكاً طبيعياً . وانما هو عبارة عن قهقهة ثم يعقبها الكتم والعبوس. فكأن الضحك منهم قوة من القوى، فهم يكتمونه ما امكن مخافة ان تخرج منهم تلك القوة» [2] .

ومن ذلك قوله في صاحبة نُزل نزل فيه : «بينما كنت جالساً معهم على المائدة اذ دخل طفل لها وهو وسخ الثياب . فقال لها زوجها : لِمَ تغادرين الولد وسخاً هكذا . فقالت : قد غسلته هذا الصباح، ولكن طبعه ان لا يدع ثيابه نظيفة. ثم لجّا في الكلام، فما اشعر الا والست قامت وجاءت بالمكنسة لتضرب زوجها . فهرب من قدامها، فأقبلت تجري وراءه . فلما لم تلحقه غشي عليها من شدة الغضب . فتداركها الرجل بالعرقي وبغيره حتى افاقت، مع انها كانت من اهل الصلاح وكان زوجها بمنزلة نصف قسيس» [3]. وسنعود الى تهكمه بعد.

واذا تأملنا في معتقدات الشدياق الخاصة، وجدناه من الذين لا يؤمنون الا بما يدركونه بعقولهم او يقع في نطاق حسهم، فلا يعيرون اهمية للغيبيات، أو لما هو وراء النواميس الطبيعية. وهو يسخر من الخرافات وارباها . والكرامات او العجائب ومدعيها . وقد اصاب من قال : «فالشدياق يؤمن بالمادة ليس غير وان لم يصرح بذلك. ولا يظهر لك ايمانه بها الا اذا تأملت مجموع ما كتب» [3].

ولعل ذلك هو الذي سهل عليه ان ينقلب من دين الى دين طلباً للمنفعة

---

١) الساق – ١٦٢
٢) كشف المخبا (ط ٢) ١١٧
٣) المصدر السابق ١٨٨

الدنيوية . وكيفما كان الأمر فانه قد كان من الدعاة الى التآخي والتساهل ينظر الى الدين في وجهته الانسانية الاخلاقية ، ولا يهتم بما وراء ذلك .

هذا هو الشدياق كما يظهر لنـــا من خلال كتاباته وحوادث حياته . ومن الانصاف ان نقرر ان شوائبه الخلقية لا تمنعنا من وضعه في المنزلة اللائقة بـــه كرائد من اكبر الرواد وكجبار من جبابرة اللغة والادب . فقد كانت له يـد طولى في النهضة العربية التي ظهرت في القرن التاسع عشر فمهدت السبيل للتقدم الادبي العظيم الذي عرف به القرن العشرون .

الشدياق الاديب

ان معظم ما ترك الشدياق من آثاره الادبية موجود في مؤلفاته التالية : «الساق على الساق»، «الواسطة»، «كشف المخبا»، ثم في مجموعة مقالاته المعروفة بـ «كنز الرغائب» . فلنلق نظرة على كل من هذه المؤلفات :

الساق على الساق : وهو اشبه ما يكون بما يسمونه « السيرة الذاتية » اي ترجمة الشخص لنفسه . على انه يختلف عن السير الذاتية الحديثة بكثرة ما يحشوه من الاستطرادات اللغوية والاوصاف النسائية حتى تكاد تكون هذه الاستطرادات هي المقصودة بالذات . وقد اعترف هو بذلك اذ قال في مقدمته : «وبعد فان جميع ما اودعه في هذا الكتاب فانما هو مبني على امرين : احدهما ابراز غرائب اللغة ونوادرها ، والأمر الثاني ذكر محامد النساء ومذامهن .

وبرغم استطراداته وحشوه بالغث والسمين من المترادفات والاوصاف، فاننا نستطيع ان نطلع فيه على كثير من احواله وحوادث حياته ونزعات نفسه. وفي الكتاب يبرز امام القارىء شخصان رئيسيان هما : «الفارياق» [1] ، ويرمز به الى نفسه . و «الفارياقية» اي زوجته ، ولا تظهر شخصيتها الا في الجزء الثاني

١) «الفارياق» لفظة نحتها من اسمه ولقبه (فارس الشدياق)

من الكتاب ، فالاول يدور كله على الفارياق وما اختبره مدة اقامته في لبنان وفي مصر . اما الثاني فنطلع فيه على اختبار الزوجين بعد ان غادرا مصر واقاما في مالطة ثم انكلترا وفرنسا .

يبدأ الكاتب بوصف نشأته وحداثته في بيت والده . فيقول على طريقته التهكمية : «كان مولد «الفارياق» في طالع نحس النحوس والعقرب شائلة بذنبها الى الجدي او التيس ، والسرطان ماش على قرن الثور [1] . وكان والداه من ذوي الوجاهة والنباهة ، الا أن دينهما كان اوسع من دنياهما ، وصيتهما اكبر من كيسهما . وكان لطبل ذكرهما دوي يسمع من بعيد ، ولزوابع شأنهما ثناء يثور في الجبال والبيد ، ولتكرير العفاة عليهما ، واحتشاد الوفود لديهما تعطلت سبل دخلهما ، ونزحت بئر فضلهما فلم يبق فيها ، الا نزازات يلقى فيها المخفق المحروم سداداً من عوز . فلذلك لم يعد في طاقتهما ان يبعثاه الى الكوفة أو البصرة ليتعلم العربية ، وانما جملاه عند معلم كتاب القرية التي سكنا فيها. وكان المعلم المذكور مثل سائر معلمي الصبيان في تلك البلاد في كونه لم يطالع مدى حياته سوى كتاب الزبور [2] الخ » ... (الساق ١ - ١٦) .

وهكذا يأخذ في وصف ما كان عليه التعليم في الانحطاط ، ويرسم لنا صوراً من معاصريه واحوال عصره الاجتماعية والدينية ، وما مر عليه من حوادث وعبر ، وما اختبره في حياة الافراد والجماعات وخصوصاً في منازل الاقطاعيين واديرة رجال الدين . وكثيراً ما يعلق على ما رآه واختبره بآراء حكيمة مفيدة على انه قد يتطرف في النقد والتهكم . كقوله مناقشاً راهباً في الدين : « ان الرهبانية هي ملجأ البطالة ، فكل من كان عطلاً من علم او صنعة ، يقصدها... وانت تعلم ان الرهبانية مشتقة من الرهبة، وهي خوف الله تعالى . فان تعاطيت حرفة وعشت بها بين الناس ورزقت ولداً وخشيت الله فأنت حينئذ راهب .

١) هذه الحيوانات اسماء بروج فلكية

٢) اي سفر المزامير في التوراة

ليست الرهبانية بأكل العدس والخبز اليابس . اليس ان رهبان ديرك بينهم من الخصام والطعن والحقد ما لا يوجد عند غيرهم الخ الخ»[1] . ولقد يجنح به القلم فلا يتورع عن استعمال فاحش الكلام وذكر ما يعاب ذكره فيخرج عن دائرة الاحتشام . وخصوصاً عند ذكره النساء وخصالهن وما يعزو اليهن من تبرج وعبث وشهوة واغراء . ولقد ذكر في مقدمة الكتاب ، ان الغرض الثاني من تصنيفه هو ذكر محامد النساء ومذامهن . على ان الذي يطـــالعه لا يخرج منه بصورة ترفع شأن المرأة ، اذ لا يرى في وصفه الا مـــا يدل على انحطاط في اخلاقهن فكأنهن لا همّ لهن الا التفكير بما يغري الرجال بهن. وكأن الرجل لا يرى في المرأة الا اشباع غريزة لا يقف فيها عند حد . يقول : « فالجائع الى النساء ليس له شكل ينتهي اليه... فالقانع العزوف يغدو شرهاً رغيباً ، والرشيد غوياً ، والحليم سفيهاً ، والمهتدي ضالاً ، والحكيم عمهاً ، والعالم جاهلاً الخ الخ »[2] .

ولا ينكر انه قد ذكر للمرأة بعض محامد ، كما انه كان في بعض مقالاتـه من الدعاة الى تعليم المرأة ورفع مستواها الفكري والاجتماعي. لكنه في كتابه «الساق على الساق» قلما يتحدث عن المرأة غير حديث العلاقة الجنسية بينها وبين الرجل ، وذكر ما لا يليق من الالفاظ والاوصاف والمشاهد. ولو اردت التدليل على ذلك لأرجعت القارىء الى كثير من فصول الكتاب .

ومما يذكر في الكتاب ، ما اثبته من اختلاف بين حياة الأمراء عند الافرنج وحياة أمراء بلاده . وهنا يصف ما كان عليه امراء بلاده من جهل وتأخر بالنسبة الى الافرنج . ويدعوهم الى تغيـير عاداتهم والتشبه بأمراء الفرنجة في حيـاتهم ، وخصوصاً في معاملتهم لأولادهم ونسائهم[3] . وكذلك يقابل بين نساء الافرنج ورجالهم ونساء بلاده ورجالها ، واصفاً طبائع الفريقين واحوالهم . ويصف مـا

---

١) الساق ١ – ٧٦ . راجع ايضاً قصة القسيس في الفصلين ١٥ و١٦ من الكتاب .
٢) ١ – ٢٣٠ وكنز الرغائب ١ – ١٣٣ – ١٣٤
٣) الساق ٢ – ١٠٢ وما بعده

زار من المدن وما شاهده فيها . وسنلمّ بطريقته في الوصف في غير هذا المقام.
ومها يكن في «الساق على الساق» من اوصاف او اخبار فان النزعة اللغوية فيه تطغى على النزعة الفنيـة ، الا اذا كان المراد بالفن الادبي ترويض الالفـاظ وتطويعها لموافقة المعاني، ففي ذلك قد برّز الشدياق كما برّز اهل الفصاحة والبيان في كل عصر . ولكن الفن الادبي يتناول اكثر من البيان اللغوي . فهو تصوير رائع لما يجول في نفس الانسان او لما يشاهده – يقرأه القارىء فيشعر بغبطة تهز النفس مها كان موضوعه . واذا قسنا « الساق على الساق » بهـذا المقياس ، فهل نرى في ما رسمه لنا ما يثير في نفوسنا هذه الغبطة ويرفعنا عن مستوانا العـادي الى ما اعلى واروع . نحن لا ننكر ان الشدياق حاول شيئاً جديداً في كتابه – فدوّن لنا حياته وحياة عصره . ولكن هذا الجديد لا نصيب فيه من الروعة الادبية الفنية الا القليل . قد ترى في بعض تهكّمه وانتقاداته ما يستهويك من فنٍّ ودقّة ملاحظةٍ وطلاقةٍ في الحديث ولكنك لا تتمالك عن الاشمئزاز من اسفافه في الكثير من فصوله ، حتى لقد تقف مذهولاً أمام هذه الظاهرة الادبية التي ينحط فيها الكلام الى درجة المجون الرخيص .

اما اذا اعتبرنا كتابه معرضاً لغوياً ، فما لا ينكر انه قد جمع فيه نوادر لم يجمعها سواه . ففيه كثير من الالفاظ الغريبة مجلوة لنا في حلل معنوية شائقة . ويكفيك ما لا يحصى من المترادفات ، والاوضاع ، والصفـات ، التي تشهد له بطول الباع بل بالتفوق في اللغة . فهو يذكر المرأة مثلاً ويأتيك بنحو ٢٢٠ وصفاً لها [1] . وفي الفصل المعنون « بدحرجة جلمود » نجد عشرات الاسمـاء والصفات للنجوم والادوات والاصنام (١ – ١٤٥) وللمرأة الفـاتنة في فصل «سلام وكلام» اكثر من ١٥٠ لفظة تصف حركاتها ووسائل فنونها (١–١٦١).

ولا اعدد لك هنا مئات الاسماء للمنازل ، والطيور ، والحشرات ، ولعب الصبيان، وآلات الموسيقى، وانواع الاطعمة، والاسماك، والفواكه، والأشربة

١) المصدر نفسه ص ٢٣١ – ٢٤١

والحجارة الثمينة ، والطيوب ، وامتعة البيت ، والشجر ، والثياب ، بل احيلك اذا رغبت في ذلك الى الجزء الاول من الكتاب ص ٢٤٣ — ٢٧٠ و ص ٢٧٦ ٣٠٤ فانك تجدها هناك معدة لك في قوائم متتابعة ، فخذ منها ما شئت .

اجل ان الشدياق بحر في اللغة . واذا كان في «الساق على الساق» يأتي بنوادر الاسماء والصفات وبغرائب الالفاظ والمترادفات تدليلاً على سعة اطلاعه ، فـانه في كتبه اللغوية التي سنتحدث عنها بعد ، ما يشهد له لا بالاطلاع فقط ، بل بجودة النظر والاستنباط .

لقد حاول الشدياق في هذا الكتاب ان يخرج عن سبيل التقليد الذي كان يتبعه الكتاب في عصره فمشى الى الامام ، ولكنه توقف دون الغاية ، اذ جمع فيه بين التجديد والتقليد فعرج بين الفريقين . وكأنه لم يكتبه الا ليبيّن لأهل عصره انه فارس الميدان في القديم والجديد . ولعله بلغ بذلك ما اراد .

بقي ان نقول ان قارئي هذا الكتاب مختلفون في تقديره . فمنهم من يغالي في تقريظه . ويتابع مارون عبود في قوله: «انه لم يكتب مثله شرقي» كما قصّر عنه الكثيرون من نوابغ الغرب» [1] . وقول حسن السندوبي : «كتاب من اجلّ الكتب وامتعها، اغرب فيه (الشدياق) واطرب، وذهب في ابداعه كل مذهب.

ومنهم من يتطرّف عكس ذلك فلا يرى فيه غير أحاديث تافهة، واحماضات محمضة ، ومترادفات او اوصاف لغوية لا فائدة منها [2] .

وهناك المعتدلون في احكامهم الذين يذهبون مذهب الاب انطونيوس شبلي اذ يقول : «وقد انفتحت له مغالق الحرية على صفحاته . فهو صورة حيـاته في مراحلها الاولى ، ومرآة نفسه الثائرة الناقمة على رجال الدين من اجل مـا فعلوه بأخيه اسعد . وفي هذا الكتاب عبارات والفـاظ مجونية يؤاخذ عليها قصد بهـا

١) صقر لبنان (١٩٤٩) ص ١٠٢
٢) راجع مقالة البطيكي في المكشوف ع ١٤٠

المجون ، ولكنها جاوزت الحدود»[1] .

اما رأينا فقد بيناه في ما سبق ، وما على من يود الحكم على هذا الكتاب الا ان يراجعه بروية وانصاف. شأن الاديب الباحث عن الحقيقة الذي لا يؤخذ بهوى ولا يتدنى الى اجحاف .

الواسطة في معرفة احوال مالطة :

هو كتاب صغير بل رسالة الفها في اخبار هذه الجزيرة التي قضى فيها اكثر من ١٤ سنة فعرفها معرفة دقيقة وألمّ بأحوال سكانهـا وطبائعهم المام المطّلع الخبير . قال في المقدمة : «فعنّ لي ان اظهر ما بطن فيها ، واكشف مخبأها لمن رغب فيها او عنها» .

ولكنه سرعان ما وجد ان مالطة «هي من الصغر بحيث لا تمكن الواصف من ان يطيل فيها من القول مأثوره ، او يضيف اليه فوائد تاريخية خطيرة» . فرأى ان يشفع ذلك بما هو اعظم وقعاً وأعم نفعاً . فلما اتيح له الاقامة في انكلترا وفرنسا والطواف في بعض البلدان الاوروبية الأخرى ، ألف كتابه المعروف بكشف المخبأ عن فنون اوروبا» ، فأطلق فيه عنان قلمه واصفاً مـا شاهد من الغرائب وما اطلع عليه من احوال الناس والبلدان – رغبة منه ، على ما يظهر من قوله ، في تعريف قومه «بما عند اولئك النـاس من الاختراع والابداع لعلهم يقتدون بهم في مصالحهم المدنية ومعارفهم العمومية» . وبين يدينا الطبعة الثانية من هذين الكتابين (١٢٩٩) وهي تضمها معاً في مجلد واحد وقد جعلت «الواسطة» الجزء الاول منه وتقع في ٦٦ صفحة ، وجعل « كشف المخبا » جزءه الثاني ويشمل نحو ٣٠٠ صفحة . وفي كلا الكتابين يدوّن لنا اختباراته الخاصة وما طالعه من معلومات وحقائق . ويهمنا في الدرجة الاولى ما شاهده بعينه وعرفه باختباره .

١) الشدياق واليازجي (جوبيه ١٩٥٠) ٤٩

اما الجزء الاول، اي وصف مالطة، فيستهله بما عرفه من احوالها الجغرافية، مقابلاً بينها وبين سواها من حيث المناخ والزراعة . ثم يتقدم الى وصف قاعدتها «فالته» ، فيصف دورها وشوارعها واسواقها ، وما هي عليه من تأخر وقذارة على انه ينعت كنائسها بالعظيمة ويقول : «ليس عندهم شيء آخر يتباهى به» . (٢٥) وفي الفصول الاخرى يتناول : عادات المالطيين، واحوالهم ، واخلاقهم ، واطوارهم ، وحكومة الانكليز فيها، ومعاملاتهم ، وموسيقى المالطيين، ويقابل بين الحان الغربيين والشرقيين . وآخر الفصول وصف مسهب للغتهم ؛ يقول : «ان اللغة المالطية فرع من دوحة العربية . غير انهم يتعلمون ايضاً الطليانية والانكليزية لاحتياجهم اليها . والمالطية عربية فاسدة بما يشوبها من الالفاظ والمصطلحات الاعجمية . ويقف المؤلف في هذا الفصل ليبين لنا مقدار انحرافها عن العربية ويقابلها بما ينطق به سكان الاقطار العربية . ويأتي بأمثلة من الفاظهم ومنظوماتهم . وهو جدير بمراجعة اهل اللغة . والشدياق كما قلنا في غير هذا المقام ، دقيق الملاحظة بارع الوصف لا يكاد يفوته شيء ، وقد وهب مقدرة فائقة في التعبير اللغوي والتحليل الفكري ، واسلوبه في هذا الكتاب سهل لا تعمّل فيه ولا تقليد. وسنعود الى وصف اسلوبه الكتابي بعد ان نعرّف القارىء بالكتاب الثاني ، اعني «كشف المخبا» .

ونثبت هنا مثلاً واحداً من كتاب «الواسطة» ختاماً لحديثنا عنه ، وهو وصف لأوغاد الجزيرة قال : «والأوغاد يترددون حيث تتردد الخاصة وذوو الفضل . فقلما رأيت مكاناً خالياً منهم . واذا لقوا احداً من الوجوه سلقوه بألسنتهم ولمزوه. واسوأ من ذلك ان القضاة يعتبرون هؤلاء الانجاس عندالتحاقّ والتخاصم اعتبار الخيرين من الناس . وهذا الذي جرأهم على التمادي في القبائح . وهؤلاء الارذال اذا شربوا قدحاً واحداً من الخمر طافوا في الاسواق وهم زائطون ضاجّون يظهرون بذلك طاقتهم على الاتفاق . الخ (ص ٣١) . ومن هذه القطعة يتبين لك اسلوبه العام في هذه الرسالة التي خصصها لوصف مالطة وسكانها .

كشف المخبا عن فنون اوروبا :

بعد ان امضى الشدياق في مالطة نحو ١٤ سنة ، ساقه عمله الى بلاد الانكليز وكان ذلك في سنة ١٨٤٨ ، فوصف لنا سفره من مالطة اليها وما شاهده في طريقه من مدن واقوام ، حتى اذا وصل الى انكلترا واستقر فيها حدثنا عن احوالها وعادات اهلها قارناً ذلك بكثير من المعلومات التاريخية والجغرافية والصناعية والزراعية وغيرها. ومن هذه مثلاً قوله في مزروعاتهم : «ويحق لي ان اقول بعد الاختبار والتحري ان جميع ما ينبت في بلاد الانكليز هو دون ما ينبت في فرنسا في الطبيعة والزكاء . وجميع ما ينبت في هذه (فرنسا) هو دون ما في بر الشام. وما ارى العلة في ذلك سوى كثرة السرقين (الزبل) في الارض وقلة الحرارة في السماء . نعم ان جميع ما ينبت عندهم هو اكبر جرماً مما ينبت عندنا ، ولكن شتان ما بين الكبر والطعم . الا ان الانكليز يتفاخرون بكل شيء ضخم » . [1]

وقوله في منازلهم: «ولهم اسراف زائد في الاثاث، فان اسرّتهم، وموائدهم، واصونتهم ، وكراسيهم ، وخزائن كتبهم كلها من الخشب الماهيكون... ومع ذلك فلن ترى لسيدة الدار حلياً من الماس او شالاً من الكشميري . وهي عكس عادتنا . ومن اسرافهم ان يغطوا الدرج بالجوخ المنقوش او الزرابي الفاخرة ، وفوقها الكتان النفيس يدوسون عليه . ومراحيضهم في غاية النظافة والترتيب ، حتى ان الفرنسيين اذا ذكروا مرحاضاً على هذه الصفة قالوا انه مرحاض انكليزي» [2] .

وله كلام طويل في وصف عادات الانكليز وما يعتقدون به من اسباب الطيرة والتفاؤل ، وما يجرون عليه من احكام وتقاليد غريبة ، على انه يذكر ايضاً محامدهم ومنها الجد في المساعي ، وعدم التدخل بشؤون الغير ،

١) «كشف المخبا» ٨٠
٢) المصدر السابق ص ٨٤

واحترامهم للحقوق العامة ، وضبطهم للمرافق والمصـــالح الحكومية ، وتأدبهم واستقامتهم في المعاملة ، وغير ذلك : ومما يذكره في الحديث عنهم تعلقهم بحب وطنهم ، يقول : «فأنهم أيّان يتغربوا يظلوا لهجين بذكر بلادهم وما فيها من المحاسن واللذات . وقد رأيت كثيراً ممن سافروا منهم الى بـــلادنا والى مصر وباريس وغيرها فأثنوا على تلك البلاد بشيء وافق طباعهم منها ، الا انهم عند ختم الكلام يقولون: «لا شيء مثل انكلترا» . ثم يقول : «ومن طبع الانكليز انه متى وثق احدهم بانسان وعرف منه الجد والاستقامة والامانة ، يأتمنه على زوجته وبناته فيذهبن معه ليلاً ونهاراً بلا مانع . ومن يحضر الى بلادهم بوصاة من عند معارفهم احتفلوا به وعدوه منهم وصمّوا آذانهم بعد ذلك عن سماع ما يقال فيه من الذم»[1] . وفي كلامه عن الخاصة والعامة يقول : « ومن طبع الخاصة منهم ان يتجنبوا معاشرة العامة ما امكن ؛ ولذلك سببان : احدهما ، وهو المشهور عند الناس ، عظم الفرق بين الفريقين في الاطوار والاخلاق. فان العامة في هذي البلاد ليس لهم حظ من الكياسة ولا تكاد خلائقهم وعاداتهم ترضي احداً من البشر ممن كان ذا ذوق سليم وطبع مستقيم . فالأوباشية ظاهرة عليهم في كلامهم وحركاتهم وتخيرهم للألوان، وفي تصرفهم»[2] ... الخ. وهكذا يستمر في وصفهم مقابلاً اياهم مع غيرهم من الاقوام وخصوصاً الفرنسيين واهل بر الشام. وفي هذه المقابلات من طرائف الوصف ما يشهد للشدياق بدقةالملاحظة وبلاغة التعبير . وهي تتناول وجوهـاً كثيرة من الحياة العـــائلية والاجتماعية والدينية .

وقد زار الكاتب في انكلترا عدداً من المدن وتعرف بحياة القرى ، كما زار بعض حواضر اسكوتلاندا واماكنها المشهورة . فجاءت اوصافه لبريطانيا وسكانها شاملة وافية ، تتخللها استطرادات ونكات يضيفها الكاتب للفائدة ، او

---

١) المصدر السابق ص ١٥٢

٢) المصدر السابق ص ١٥٣ — ١٥٧

للتسلية ، كقوله حين عزم على السفر الى فرنسا : « ثم تأهبت للسفر الى باريس واعددت خيشومي للغنّة ، وخلدي للفتنة ، ودربهاتي للمحنة. وهنا اودع القارىء وعبراتي منحدرة وزفراتي متصاعدة ، وأعده وعد من يراعي قديم الصحبة ، ويحفظ اكيد القربة ، بأني اصف له باريس عند استقراري فيها اتم وصف ، دون اسهاب ولا حذف . فأني جعلت هذه الرحلة مرتبة الاوقات ، واخليتها في الجملة عن الاستطرادات»[1] . وكأنه لا يحب ان يتخلى عن استطراداته المعهودة فيأتينا بحديث عن التوراة وتاريخ ترجمتها ، وعدد اسفارها ، وآياتها ، وكلماتها ، والطبعات التي ظهرت فيها منذ القرن الخامس عشر الخ .

وينتقل بعد ذلك الى وصف رحلته من انكلترا الى فرنسا ، والى ما اختبره من مفتشي الجوازات وخدام المطاعم . وهنا رغم وعده ، يعود الى الاستطراد فيتحدث عن مدنية العرب قديماً وتفوقها ، ويقابل بين ما كان عليه الافرنج في الماضي وبين ما بلغوه اليوم من حضارة وتقدم في الفنون . ولما استقر في باريس رآها «مدينة بهجة وانوار ، تنفتح فيها اكمام المعاني في رياض الافكار» .

ويستهل حديثه عنها بنبذة تاريخية يتخلص منها الى وصف عمرانها وحياتها العلمية والاقتصادية . ويدقق في ما شاهده من منازلها ، ومخازنها ، وشوارعها ، ومعاملها ، واحوال سكانها ، وفتن ملاهيها . ويلخص المقابلة بينها وبين لندن بقوله : «وغاية الكلام ان باريس تفضل لندرة في المباني، والمطاعم، والمنتزهات ومحال العلم ، فهي معدن العلوم واللذات. ولذلك ترى الوفاً من عيال الانكليز الاغنياء يأتونها مستوطنين . وما احد من اغنيــاء الفرنسيين يذهب الى لندرة ليتخذها له وطناً . واذا يذهب اليها اهل الحرف والصنائع تحصيلاً لمعيشتهم»[2] . ولا يفوته أن يذكر ما كان لفرنسا من مآثر واسبقية في مجال العلم والحرب وما اخرجته من مشاهير العلماء والقــادة ، ويقرن ذلك بكثير من الاستطرادات

١) المصدر السابق ص ٢١٠ و ٢١٥
٢) المصدر السابق ص ٢٤٩

التاريخية والاجتماعية . ويسهب في وصفه جاندارك ووقائعها وما آل اليه امرها ويختم حديثه عنها بقوله : «على ان موتها لم يفد الانكليز فائدة كبيرة ، لأن اهل فرنسا اذ ذاك ، كانوا قد تنشطوا الى مغالبتهم بعدمـــا ذاقوا طعم الفوز والظفر ، وسرى فيه روح الحمية للذب عن اوطانهم . ومما ذكر تعلم ان الناس في ذلك العصر كانوا متسكعين في ظلام الجهل والوسواس . فكانت الاساقفـة واهل المدارس اقل كياسة من عامة هذا العصر» [1] .

وله مقابلات دقيقة بين الفرنسيس والانكليز من حيث نظمهم ، وعاداتهم ، واحوالهم العامة تقع في عدة صفحـات . ولا يقف عند هذا الحـد من الوصف العام، بل انه يعود بنا بعد وصف باريس، الى لندن فيخصص نحو سبعين صفحة لوصف هذه الحاضرة العظيمة . ولا يترك شاردة او واردة الا ذكرها . فمن تاريخها ، الى مشاهدها ، ومعالمها ، ومتاجرها ، ووسائل النقل فيها، وجمعياتها ، وشركاتها ، وبواخرها ، ومسارحها ، وحدائقها ، وكنائسها ، واعلام علمائها ، ونظامها البرلماني وغير ذلك ؛ كل ذلك بقلم يجمع بين حسن الملاحظة ، والنقد ، وجمال الوصف . مثال ذلك وصفه لرئيس اساقفة كنتربري وهو اعظم الاساقفة عند الانكليز . قال : «وايراد رئيس اساقفة كنتربري في السنة ٢٥ الف لـيرة (جنيه)» . وبعد ان يذكر ما يتقاضاه سائر الاساقفة يقول : «فهم بمثابة وزراء الدولة . ثم انه كما ان هؤلاء الرعاة المتبتلين الى الله تعالى ماثلوا الوزراء والامراء في اخذ الارزاق والوظائف كذلك ماثلوهم في الرفعة والشأن والانفراد عـن الرعية . فان مواجهة رئيس اساقفة الانكليز اصعب من مواجهة البرنس البرت زوج الملكة» [2] . ويقابل عظمتهم بما ورد في الانجيل من وصف خدام الله اذ قال: «واما انت يا رجل الله فاهرب من هذه الأشياء واقتف الـــبرّ والتقوى والايمان والمحبة» . وعلى ذكر شركاتهم يذكر كيف استولوا على الهند . وهنـا

---

١) المصدر السابق ص ٢٧١
٢) المصدر السابق ص ٣٢٢

يستطرد فيتحدث عن الهند وسكانها وعاداتهم . ويدفعه الاستطراد الى وصف عظمة الانكليز الحربية والتجارية والعلمية وما لهم في حقل المستنبطات الحديثة . ويأتي بنبذة عن قصورهم الملكية وتاريخ ملوكهم واثرهم في سياسة الدولة . على انه يقف قليلاً ليرسم لنا صورة تظهر الفرق بين طبقة الاغنياء المترفين وطبقة الفقراء المحرومين . فيقول : «ومع ما هم فيه (اي الاغنياء) من البهجة والنعيم فلا بد وان يكون لكل منهم دار في الخلاء (اي الارياف) يسكنها في الصيف ففي هذا الصقع الجليل تسطع انوار السعادة من ابراجهم العلوية . وهناك ترى الخدم والحشم ، والخيل المطهمة والعواجل (المركبات) النفيسة . وهناك تمد الموائد بما عليها من الاطعمة الفاخرة المجلوبة من جميع البلدان وهناك تتيه الكلاب على كثير من بني آدم ممن يتضورون جوعاً ويهلكون من الوسخ والبرد والعرى ، ومن أكل اللحوم النتنة في ازقة لندرة القذرة (اي احياء الفقراء) . فليس بين الجنة والجحيم في هذه المدينة بعد ما بين الجنة والنعيم في الآخرة»[1] . وبعد ان يصف حالة الطبقة السفلى ومشاقها يلخص وصفه بقوله: «والحاصل انه لا فقير اشقى من فقير لندرة، كما انه لا غني اشرف من غنيها[2]». وفي اكثر كلامه عن لندرة يقابلها بباريس فيذكر ما لكليهما من حسنات وسيئات بالنسبة الى الاخرى . والكلام في ذلك طويل جداً يتناول كل شيء تقريباً من الاحوال المدنية والاجتماعية والعلمية والصحافية .

ويختم كتابه بكلمة عن شدة الزحام في القسم التجاري من لندن ويقول متظرفاً : « وفي الحقيقة فان ذوي المراكب (المركبات) في مسالك هذه البقعة لما يذهب بالصبر . وما اظن احداً من سكانها يمكنه ان يعمل فكرة في شيء الا فيما هو بين يديه من الشغل . وفي هذا المورد الوخيم قدر الله لي ان اؤلف هذا الكتاب – لا في مروج ايطاليا النضيرة، ولا في رياض الشام الانيقة،

---

١) المصدر السابق ص ٣٤٧ .
٢) المصدر السابق ص ٣٤٨ .

فأخال ان بين كل كلمتين منه دخاناً متصاعداً وظلاماً متكاثفاً . وكنت كلما خرجت من حجرتي الى هذا الموضع اوجس أن يصيبني سوء امّـــا من تزاحم الناس او البهائم ، او من رداءة الطعام الذي يؤكل في مطاعمها . فـاذا عدت الى منزلي اجد نفسي كأني نجوت من خطر غرق او نار » .

★

هذه صورة مجملة عن هذين الكتابين . والحق يقـــال انـ براعة الشدياق الكتابية وحسن تصاويره الادبية يظهران فيهما اكثر من ظهورهمـا في كتابه « الساق على الساق » برغم ما يحويه هذا من صنوف النقد والتهكم والوصف .

أسلوبه الكتابي :

ممـا لا شك فيه انـ الشدياق كاتب قدير . فاذا قابلته بزملائه من روّاد النهضة ، رأيته اكثرهم انتاجاً ادبيـاً ، ومن اقدرهم انـ لم يكن اقدرهم على استعمال الالفاظ والجمل تعبيراً عن الخواطر والمعاني .

ويمتاز اسلوبه الادبي بخصائص أهمها ما يلي :

١) اجادته في إلباس المعاني ما يناسبها من الالفاظ . ٢) دقته في الوصف . ٣) جرأته في النقد وبراعته في التهكُّم . فلنلقِ نظرة على كلٍّ من هذه الخصائص :

إجادة التعبير :

ويراد باجادة التعبير أولاً ان يكون للكاتب ذخيرة عظيمة من الالفـــاظ وحسن تصرّف بهذه الالفاظ ، بحيث تأتي حسنة الانسجام ، قوية المبنى ، حيةً بما يتلألأ فيها من خواطر . قد يقال : ولكن تلك مزية كل كاتب قدير ، فبأي شيء يمتاز الشدياق عن سواه في هذا الباب ؟ وجوابنـا ، ان جودة التعبير وان

تكن المزية المشتركة بين الكتّاب ، فانها ذات درجاتٍ متفاوتة ، اسفلها درجة التعبير البسيط ، ثم تتدرج صعداً حتى تبلغ درجة الفن العالي. والذي لا يُنكر ان صاحبنا قد قارب هذه الدرجة فجاءت ألفاظه مشرقة بالمعاني ، وعباراته حسنة الاتزان والانسجام ، خالية من التعقيد والابهام ، آخذة بعضها برقاب بعض ، فيشعر القارىء بلذة عند قراءتها ورغبة في متابعتها . ونحن لا ندعي ان كتابة الشدياق ، مسجّعةً او مرسلة ، قد رفعت لغة الكتابة في عصره الى مستوى امراء الكتابة الاقدمين كابن المقفع ، او عبد الحميد الكاتب ، او الجاحظ ، او القاضي الفاضل وسواهم من اهل هذي الطبقة ، ولكنه قد علا بها الى ما يقرب من ذلك . فحررها من التقليد ، ودفعها في طريق التجديد ، وجعلها لغة ادبية سائغة حية . اقرأ أيّاً شئت من كتبه او مقالاته فترى قوة بيانه وحسن تصرفه . ويكفي ان اذكر لك مثالاً من ذلك ، قوله من حديث عن النَّوَر (او الغجر) في بلاد الانكليز : « وهذه الطائفة المعروفة عندهم باسم «جبسي» – وهم صنف من نوَر بلادنا وغجر مصر – لولا دناءتهم لكانت علية الانكليز تصاهرهم ، وذلك لسمرة لونهم وكحل عيونهم . ويقال لشيخهم ملك ، إلا انهم يخالفون نوَرنا بكونهم غير مولعين بالطرب والرقص . وما ذلك إلا لكونهم مولودين تحت رقيع الانكليز الكالح »[1] .

وقوله يصف مالطة في الصيف : « واكثر اهل مالطة ينامون ليلاً على السطوح لكون سطوح ديارهم (دورهم) غير مسنّمة . واذا مشى الانسان خطوات في الصيف يعوم في عرقه ثم لا يلبث ان تلفحه لفحة من الريح ، فينبغي ان يكون احذر من غراب »[2] .

وقوله في جاندارك : « فاعتقد الفرنسيس بأنها رسول من السماء ، واعتقد الانكليز بأنها رسول من الشيطان . ثم قالوا ان تكن من البشر فنحن لا نخاف

١) الجنا ١٠٩
٢) الواسطة ١٣

بشراً ، وان تكن من الشيطان فلا قِبَل لنا بها . فاجتهد رؤساء عسكرهم في ازالة هذا الوهم بقولهم : انها دنيئة الاصل وجاهلة. ولكن كان ذلك عبثاً ، فانهم اعتقدوا انها من اعظم السواحر ، ورسخ تأثير ذلك فيهم . فكانت حيثما تظهر تفرّ منها عساكرهم »[1] .

هذه اللغة السهلة الممتعة هي لغة الشدياق في كتابته الادبية عامة ، يستثنى من ذلك محاولته التسجيع أحياناً تمشياً مع طريقة عصره . ويكثر ذلك في مقاماته وبعض مقالاته التي يجري فيها على سنّة التقليد الشائع في عهده .

دقة الوصف :

والواقع ان معظم كتابته الادبية هي من باب الوصف . فوصف حاله وبيئته في «الساق على الساق» . واوصافه للبلدان الاوروبية التي زارها وخصوصاً انكلترا وفرنسا في «الواسطة» و«كشف المخبا» . كلها شواهد على براعته في هذا الباب. وتقوم براعته على دقة ملاحظته وحسن تصويره كقوله مثلاً في الانكليز «فالغالب على الرجال الشقرة، وتوسط القامة مع الضلاعة والقوة، وشدةالعصب، وزرقة العيون، وصغر الانوف . والظاهر ان الشقرة لا تتوقف على البرد وحده وانما اخص اسبابها الدم — فان اهل جبل لبنان ليس لهم صفاء هذا اللون — والغالب في عليتهم امتداد القامة والرشاقة» الخ[2] .

وقوله يصف بعض المؤلفين : «ومن الاسرار التي بقيت مكتومة عني انك تجد بعض المؤلفين فاتر الحركة غير ذى نشاط ولا مرح ، قليل الارتياح الى ما يبعث على التهاوش والتناوش ، متقاعس الهمة عن السبح والحركة ، ناظراً الى الحوادث كلها نظر المتوقع لها ، وهو مع ذلك اذا اخذ القلم انبض كل عرق في القارىء ، وحرك كل ساكن . ومنهم من تراه نزقاً حركاً ذا تترع وتسرع ،

١) المخبا ٢٦٦
٢) كشف المخبا ١٠٤

وحقد وصيان ، واقبال وادبار ، وسعي وتهافت ... ثم ان هو قال شيئاً سقط من رأسه على ذهن القارىء سقوط الثلج حتى يكاد ان يخمد منه ذكاؤه»[1] . (ووصفه للتمثيل والممثلين «كشف المخبا» ٣١١) . وقس على هذين المثلين مئات الامثال في مؤلفاته الادبية . وكثيراً ما تكون مبطنة بشيء من المرح الذي يحببها الى القارىء . وهو يميل في الوصف الى مقابلة الموصوفات بعضها ببعض زيادة في الايضاح . فاذا ذكر شيئاً للندن مثلاً قابله بما يشبهه في باريس . واذا وصف عادة في بلد عارضها بمثلها في بلد آخر ، وهكذا في سائر الاشياء .

نقده :

ويدخل تحت هذا الموضوع نظراته الجدية واقواله التهكمية وما اكثرها في كتاباته . وهو اذا جدّ فانه يبحث بحث الخبير المدقق ، واذا تهكم فانه ساخر من الطبقة الاولى . وقد يخرج عن التهكم الادبي احياناً الى الاحماض المبتذل او الهجاء المقذع .

فمن نقده الجدي مثلاً ، انتقاده للجزء الاول من «اخبار الاعيان في جبل لبنان» تأليف اخيه الاكبر طنوس الشدياق[2] . ويدخل في هذا الباب قوة النقاش ، وحسن التعليل والتمييز بين الخطأ والصواب . ويكثر ذلك في مباحثه ومناقشاته اللغوية كسرّ الليال ، والجاسوس ، وسلوان الشجي وسواها كما سنرى بعد .

ومن امثلة نقده الجدي ، وان كان يتخلله شيء من حدة اللسان ، الفصل الذي ذيّل به الجزء الثاني من «الساق على الساق» . وفيه ينتقد بعض المستشرقين من اساتذة اوروبا مبيناً خبطهم في تآليفهم واوهامهم فيما عرّبوه او نشروه وفسروه . وهو فصل طويل فليراجع . ومثل هذا النقد حواره مع الدكتور

١) الساق ١ – ١٠٨

٢) راجعه في «صقر لبنان» لمارون عبود ص ١٣٥

«لي» بشأن التعريب لبعض عبارات التوراة [١] .

اما تهكمه فهو شائع في كل مؤلفاته الادبية . وخصوصاً في «الساق على الساق» و«الواسطة» و«كشف المخبا» . ويتناول تهكمه ما يراه مخالفاً المعقول او السداد من اخلاق الناس ، وعاداتهم ، وتقاليدهم ، ومعتقداتهم ، ومزاعمهم ، وما الى ذلك من وجوه حياتهم الاجتماعية والفكرية .

ومن تهكمه البارع استشهاد الفارياق بالنبي سليمان في تفضيل الرجل على المرأة اذ قال سليمان : « قد وجدت بين الف من الرجال صالحاً ، فأما بين النساء فلم اجد صالحة » . فردت عليه الفارياقية بقولها : «ان سيدنا سليمان وان يكن قد اوتي من الحكمة ما لم يؤته غيره ، غير ان افراطه في النساء شوش عليه الصالحة منهن من غير الصالحة . الا ترى ان بائع المسك لطول ائتلافه بالرائحة القوية تضعف منه حاسة الشم بحيث لا يعود يشم الرائحة اللطيفة» [٢] .

وقوله في احد المتظاهرين بالنسك والصلاح ، قال : «واعرف آخر جاء الى قريتنا متهاوتاً وقد طوّل كمه واسبل قلنسوته حتى لم يكن يظهر من تحتها الا فمه ولحيته تظاهراً بالصلاح والتقوى . ثم انزل نفسه منزلة خطيب في القوم . فجعل يخطب ويعظ وينذر بصوت جهير ، وكان يبكي عند ذلك اشد البكاء ويذرف المدامع ، اذ كان جعل في منديله الذي يمسح به وجهه شيئاً ذا حرقة لا ادري ما هو . ثم آل امره الى انه كان يقضي اياماً وليالي مع ارملة حسناء استذراعاً بأنها تعترف له اعترافاً عاماً الخ [٣] .

وقوله واصفاً اهل مصر : «ومن خواصها ان ما يذهب من اجسام رجالها يدخل في اجسام نسائها . فترى فيها النساء سماناً كالأقط بالسمن على الجوع ، والرجال كالحشف بالنيرج على الشبع» [٤] . ويقول في نساء القبط : «ان

١) راجعه في «كشف المخبا» ص١٢٣ – ١٢٤
٢) الساق ٢ – ١٦٢
٣) المصدر السابق ١ – ٧٧
٤) « « ١–١٩٢

المرأة من القبط لتغسل رجلي القسيس بيديها بماء الزهر ، ثم توعي ماءهما في زجاجة»، وانه متى جاع(القسيس) حمل امعاءه الى دار احد من معارفه فاستقبلته زوجته بالبشاشة والاكرام فزعبها اي زعب» [1] (اي ملأ امماوه) .

وفي بلاد الانكليز يتقدم لزوجته بنصيحة فيقول لها : « ثم ينبغي لك إذا دعينا الى وليمة عند احد أكابرهم ان تأكلي هنا من قبل ان تذهبي. فأن المدعوين لا يأكلون عند آدبهم حتى يشبعوا ، ولكن يشبعون حتى يأكلوا» . والحذر الحذر من ان تمدي يدك الى زجاجة الخمر او الى جفنة الطعام فتأخذي منها ما شئت فان ذلك يكون انتهاكاً لحرمة المائدة، والمجلس ، والقرية ، بل المملكة بأمرها . وانما ينبغي ان تنتظري من كرم الآدب ان يوعز اليك بذلك » [2] .

وقس على هذه الامثلة القليلة ما لا يحصى من الامثلة .

ولا ارى فائدة في التمثيل على نقده اللاذع او تهكمه المقذع فان اكثره مما لا يخرج عن كونه سباباً او شتماً لا يليق ذكره .

ومهما يكن فان الشدياق في الطليعة من ادباء عصره وارباب الاقلام فيه ، يجمع في كتابته بين التقليد والتجديد فبينا تراه في شعره ومقاماته وسائر اقواله المسجّعة يمثل عصره المتوكأ على اساليب العصور المتقدمة ، نراه في مؤلفاته الادبية يمثل حركة التجديد القائمة على تحرير الكتابة من ربقة التقليد . فعباراته سهلة لا تعمّل فيها ، مع تنزهها عن الركاكة والضعف ، الا في بعض الفاظ او عبارات قليلة مما يتجنب المحدثون استعمالها كقوله :

«جلسوا على المائدة» بدلاً من «الى المائدة» (كشف المخبا ١٨٤ و ١٨٨) .

واستعماله لفظة الديار جمعاً للدار بدل الدور (كشف المخبا ٢٣٢ وفي اماكن كثيرة) .

واستعماله : المتشبعين بدلاً من المومرين (كشف المخبا ٧٢ واماكن اخرى)

١) الساق ١ - ٣١١

٢) المصدر السابق ٢ - ٢١٨ - ٢١٩

واستعماله : تابوت الدمّان بدلاً من صندوق الاقذار (كشف المخبا ٧٧)
واستعماله : الشوّاب بدلاً من الشابات (المصدر نفسه ٩٠)
واستعماله : الجلاء (كاقب) كقوله جلاء المطران (» » ١٥٧)
والساق ٢–١٣٠
واستعماله : المذيق بدل الحليب واللبن (» » ٧٨)
واستعماله : نوال بمعنى نيل
واستعماله . الرتل للقطار
واستعماله : العواجل بدل العجـلات او المركبات (» » ٧٧)
واماكن اخرى.
واستعماله : كثرة السرقين في الارض (اي الزبل او السماد) كشف المخبا ٨٠
واستعماله : السيدات تنافسن في الغسّاني (المليح جداً) ويشيع عنده استعمال هذه اللفظة كشف المخبا ١٠٤
واستعماله : كثرة الفلفل والافحاء (البزور اليابسة) كشف المخبا ٣٥١.
واستعماله : السواح بدل السياح كنز الرغائب ١–٣٤ و٧٠ واماكن اخرى.
وما اشبه ذلك مما بطل استعماله الآن .

ولما كان الشدياق بحراً في اللغة واسع الاطلاع على مفرداتها ، فانه كثيراً ما يستعمل الغريب من الكلام ، اما توسعا في التعبير او اظهاراً لمقدرتـه اللغوية .

ولا اعني بذلك ما يعدده من غرائب المترادفات والاسمـاء والافعـال وهي فعلاً تعد بالمئات او الالوف . بل اعني ما يرد في خلال كتابته العادية من الفاظ بعيدة عن المألوف كقوله مثلاً :

رقيـع المدينة (اي ساحتها)	كشف المخبا ٢٣٥
نبخات من الكبريت (اي عيدان)	» » ٢٣٦
يسلقون اللحم ليتخذوا منه نوعاً من الرعديد	» » ٢٣٧
طولها الى حد الازج	» » ٢٤٠

هيكل سنيع يتلألأ بالانوار	كشف المخبا ٣١١
يخوض البحار في طلب الازاء (اي اسباب العيش)	الساق ١ — ٣٢
وليس عندهم اوشن (اي متطفل على موائد الطعام)	« ٢ — ٤٥
جناق المعدة (أي التجشؤ)	كشف المخبا ١٠٦
ومن هؤلاء المفجسين (اي المتبجحين)	« « ١٦٧
زعب امعاءه اي ملأها	الساق ١ — ٣١١

ويضيق المقام عن التمثيل بما في كتابته الادبية من غرائب الالفاظ . ومن الانصاف ان نقول ان بعض هذه الغرائب قد يكون ادق تعبيراً عن المعنى المراد ، ولكن التهافت على الاكثار منه يذهب برونق الكلام وخصوصاً اذا كان الغرض ايصاله بأحسن الطرق إلى الافهام .

أدبه الصحافي :

نشر الشدياق مجلة «الجوائب» فكانت مسرحاً لقلمه واقلام معاصريه، وهي مجموعة كبيرة من الفصول الطويلة والمقالات القصيرة ، والحكايات والمقامات . واذا استثنينا المقامات ومـا اليها ، فان اسلوبه في جميعها اسلوب مرسل لا تعمّل فيه .

والذي يتابع تطور الصحافة ، يرى انها نشأت هزيلة ضعيفة اللغة مع ميل الى تسجيع العبارة . وقد كان لصاحب «الجوائب» فضل في تحسين لغتها وجعلها لغة ادبية مستقيمة. واننا نحيل القارىء الى منتخبات «الجوائب» (كنزالرغائب) التي جمعها ولده سليم في بضعة اجزاء ، ففيها يطّلع على شتى المواضيع التي كان يعالجها الشدياق ، وعلى اسلوبه الانشائي في عرضها . ولا سيما الجزء الاول منها المخصص للمقالات ، والمقامات ، والحكايات .

وهاك مثالاً من اسلوبه المرسل وهو الشائع من فصوله ومقالاته وحكاياته .

قال من فصل [1] : « فالمرأة في بلاد الافرنج معادلة الرجل في معاطاة الاعمال على قدر معادلتها له في القوة والجلد . فكل ما يستطعنه من العمل يباشرنه » . الى قوله : « فان البطالة شر الرذائل ولا سيما بطالة النساء . فان فراغ ايديهن عن العمل يشغل ألسنتهن بالاباطيل ، وقلوبهن ّ بالاهواء الزائغة » .

ويستمر ّ على هذا المنوال فيقول : « ولا تصغ ِ الى من يقول ان العمل تعب ، والبطالة راحة ، وان الراحة ادعى الى الصحة من التعب . فان الراحة لا يستطيبها الانسان إلا بعد التعب . وأقسم بالله العظيم ان لا شيء اوجع لقلبي من ان ارى رجلًا يقضي نهاره في التنقل من محل قهوة ٍ الى محل آخر ، او في اللعب بالنرد والشطرنج والورق ، وان كان أميراً غنياً عن العمل » .

اما سجعه ، فهو في مقاماته واحاديثه الصحافية ، مستساغ لا تكلّف لغوي ّ فيه كالذي نراه احياناً في مقامات « الساق على الساق » ، كقوله من المقامة البخشيشية يصف حاله في بعض اسفاره[2] :

« وأحسست بالتعب ، فطلبتُ مطعماً يكسر عني سَورة السّغَب ، فأكلت وشربت وحمدتُ الله تعالى ، وطبت نفساً وحالاً . ثم صحت بالخادم وهو كهل ولكنه يتكلف افعال الغلام ، فقلت كم ثمن الادام ؟ قال كذا وكذا ، فناولته اياه وتحركت للقيام . فأخذه وقال : البخشيش فاتحة الآمال ، وخاتمة الاعمال . فقلت : أليس لك اجرة معلومة في هذا المكان . قال بلى ، ولكنها عادة اهل الاحسان بل كل ّ انسان . وان العادة كما يقال خامس طبيعة ، ومتى عمّت شرفت وان كانت وضيعة . فرأيته مستعداً للزيادة في المقال ، والعمد الى الاستدلال . فأعطيته ما ارضاه ، وسددتُ به فاه » .

١) كنز الرغائب ١–١٢٦
٢) » » ١–٧٣

انتاجه اللغوي

كان والد الشدياق قد جمع كتباً في فنون شتى . ولعل ذلك كان من جملة ما قوى في كاتبنا الميل الى المطالعة ، وخصوصاً الى اللغة وغرائبها . وفي هذا الميل يقول : « كان للفارياق ارتياح غريزي من صغره لقراءة الكلام الفصيح وامعان النظر فيه ، ولالتقاط الالفاظ الغريبة التي كان يجدها في الكتب الخ.

ومما ترك لنا من انتاجه اللغوي نستدل على جهوده العظيمة في هذا الباب . ويكفي ان نذكر له المؤلفات التالية : «الجاسوس على القاموس» ، «سر الليال في القلب والابدال» ، «منتهى العجب في خصائص لغة العرب». هذا فضلاً عما انشأه من شتى الفصول ، ومـا ترجمه عن مختلف اللغات ، او ألفه من كتب القواعد .

ولما كان كتابه الضخم «منتهى العجب» قد احترق وهو لا يزال مخطوطاً ولم يتح لنا الاطلاع عليه ، رأينا ان نحصر كلامنا الآن في كتابيه الآخرين اي «الجاسوس» و«سر الليال» . فهما كافيان للدلالة على ما بلغه في هذا المضمار.

الجاسوس على القاموس : وبالقاموس يقصد قاموس الفيروزابادي . وقد سمى كتابه «الجاسوس» لما اخذه على نفسه من رصد القاموس ونقده . ويقع

هذا الكتاب (اي الجاسوس) في ثلاثة اقسام : مقدمة ، وخاتمة ، يتوسطها مجموعة من النقود اللغوية .

فالمقدمة عبارة عن نظرة عامة في المعاجم العربية وما يؤخذ عليها وهي تشمل ما يلي :

١) التنبيه الى ما في كتب اللغة (المعاجم) عموماً من تشويش في ترتيب الافعال ومشتقاتها .

٢) ما ينقصها من تفسير للألفاظ حسب اصول وضعها – كأن يقال مثلاً : ان «القرية» اصلها من قرا الماء اي تجمع . فالقرية في الاصل مكان تجمع الماء . وقس على ذلك كثيراً من الالفاظ .

٣) اهمالها حروف التعدية في تعريف لفظة بلفظة اخرى . كأن يفسر مثلاً «الوجل» بالخوف . ولا يذكر ان الاول يتعدى بمن والثاني بنفسه .

ومثله تفسير «الجنف» بالميل ، و «عاذ» بالتجأ ، وغير ذلك من الالفاظ التي تختلف فيها حروف التعدية .

٤) ايرادها احياناً الفعل الرباعي من دون الثلاثي كأنما الثلاثي غير وارد . فالجوهري مثلاً وكذلك الفيروزابادي يقتصران على ذكر صيغة «أفلت» دون فلت مع انها ذكرا فلتة . وقد نص على الثلاثي الزمخشري والفيومي . ومثله اقتصار الجميع على ذكر «قدّس» تقديساً ، وما احد منهم ذكر الثلاثي مع انهم قالوا «القدس» للمصدر و «الاقدس» للتفضيل وهما من الثلاثي . وقس على هذين المثلين سواهما .

٥) كثيراً ما يفسرون اللفظ بلازم معناه ومفهومه ضمناً . كتفسيرهم «الزهيد» بمعنى القليل» مع ان الزهيد هو المزهود فيه وانما هو يتضمن معنى القلة لزهد الناس عنه. ومثل ذلك بضاعة «مزجاة» اي قليلة . ومعنى مزجاة مدفوعة فالقلة لازمها لا اصل معناها . والامثال على ذلك كثيرة .

٦) يوردون في التعريف الفاظاً لا يذكرونها في مكانها . كقول الجوهري والفيروزابادي ربح في تجارته اي «استشف» ، ولا يذكرون «استشف» في مكانها .

٧) عدم ضبطهم ما يتعدى من الافعال بنفسه او بالحرف. خذ مثلاً الفعلين «جاء» و«اتى» فبعضهم يأتي بهما لازمين ، وبعضهم يذكر الاحرف التي يتعديان بها مثل «جاء به» و «اتى عليه واليه» . ومثله فعل «احتفظ» . يقول الجوهري «احتفظ» به والفيروزابادي «احتفظه» . وهناك امثلة اخرى ذكرها في الكتاب بين ص ١٦ و٢١ .

٨) خبطهم في ايراد الاسماء المعربة كنرجس ، وارجوان ، وفيلسوف ، وترجمان وغيرها . فبعضهم يعتبر حروفها زائدة فيجعلونها في باب رجس ـ أرج سوف ـ رجم الخ . وحقها اذا كانت معربة (دخيلة) ان تعتبر جميع حروفها اصلية وترتب حسب حروفها دون تجريد من الزوائد .

ثم انهم يختلفون في ضبط الهمزة ، وعدد حروف الهجاء واصلها ، وفي قلب الالفاظ واشتقاقها والاصول التي ترجع اليهـا (راجع الامثلة ص ٤٠ –٤٧) واسباب هذه الاختلافات عنده رغبتهم في اظهار براعتهم وتفوّقهم على اقرانهم .

اضف الى ذلك اختلاف تأويلهم لما لم يفهموه من اشعار القدماء ، ولما لحقه التعريف والتصحيف لكون الالفاظ العربية القديمة لم تكن معجمة .

ويتناول بالنقد ما حشوا به معاجمهم من الفضول . فصاحب العبـاب كان كلِفاً بالحكايات ، وصاحب المصباح بالمسائل الفقهية ، وابن جنيّ بالمسائل النحوية ، وصاحب اللسان بكل هذه الامور . اما الفيروزابادي فكان يطفر الى ما لا يفيد من الاشتقاق (ص ٤٨) .

تجريح القاموس : وبعد هذه النظرة العامة يتناول قاموس الفيروزابادي ،

فيعدد اوهامه واخطاءه في ٢٤ نقـدأ يشرحها في ٤٢٩ صفحة كبيرة . واليـك اهمهـا :

ابهام تعاريفه والتباسها وغموض عبارته وقصورها .
اضطرابه في المصادر والمشتقات والجمع والمفرد والمعربات .
تعريفه اللفظ بالمعنى المجهول دون المعلوم الشائع .
اهماله الاشارة الى بعض الالفاظ واخطاؤه موضع ايرادها .
تكريره للمادة الواحدة ، وكثرة الفضول والحشو واللغو .
غفوله عن الاضداد ، وعن القلب والابدال .
تعريفه الدوري او التسلسلي كأن يعرّف لفظة بلفظة ثم يعرّف هذه بتلك.
خلطه الفصيح بالضعيف ، والراجح بالمرجوح ، وعدوله عن المشهور .
ذكره لبعض الاصطلاحات واهماله البعض الآخر .
ذكره لألفاظ لم يفسرها (مثاله انه استعمل ٤٣ لفظة في مقدمـة المعجم لم يقررها في موادها) .
تناقضه في التفسير احياناً ، وخبطه في التذكير والتأنيث .
هذا فضلاً عن تحريفه وتصحيفه ومخالفته احياناً لأئمة اللغة .

ولولا ضيق المقام لأثبتنا هنا كثيراً من الامثلة التي اوردها ، ولكننا نحيل القارىء الباحث الى الكتاب مكتفين بالاشارة اليها فقط .

الخاتمة : وبعد هذا التجريح الدقيق للقاموس نصل الى خاتمة الكتاب، وهي استقراء مسهب لاستعمال وزن افتعل متعدياً ولازماً يملأ نحواً من مئة وخمسين صفحة . والغرض من هذا الاستقراء ان يظهر اوهام اللغويين في مـا زعموه من ان صيغة «افتعل» تأتي غالباً للمطاوعة ، حتى ان الفيروزابادي قد جزم بأنها لا تأتي إلا لازمة . فثبت له بعد البحث والاستقراء انهم انمـا يخبطون ويخلطون في هذه الصيغة ، ويأتون بها على غير وجوهها الصحيحة ..

وتوصلًا الى غايته اورد قوائم للصيغ المتعدية واللازمة من هذا الفعل مرتباً اياها على حروف الهجاء مع شرح وافٍ . فكان مجموع المتعدية ٩٤٦ فعلًا ، ومجموع اللازمة ٨٦٨ ، والمبنية للمجهول ٣٦ . وبذلك فنّد قول من يذهب الى ان «افتعل» لا يستعمل الا لازماً او للمطاوعة .

نظرة في أسلوبه النقدي :

ان الناظر في جاسوس الشدياق يرى فيه صورة بينة لاجتهاد مؤلفه وتدقيقه العلمي . فانه قلما يقرر حكماً الا بعـــد ان يتضح له صوابه بالمراجعة الشاملة والاستقراء الراهن. على انه لا يتقيد بالنقل فقط ، بل يستعمل الاستدلال العقلي حيث يرى مجال العقل مفتوحاً لديه. وذلك ما حمله على القول بجواز الاستشهاد بفصحاء المولدين (ص ٥٢٠). وبصحة الاختلافات اللفظية عند القبائل، ووجوب تكملة ما اهملته المعاجم .

ومن امثلة اجتهاده تصويبه مثلًا للالفاظ التالية :

اقتطف ـ قال : « لم اجد هذا اللفظ في كتب اللغة مع كثرة استعماله . واغرب من ذلك خلو اساس البلاغة للزمخشري من مـادة قطف بالكلية . ثم وجدت ابا جعفر الرعيني صنّف كتاباً سماه « اقتطـــاف الازاهر » (٦١٩) . فالشدياق يقرر صحة هذا الفعل وان اهماله من قصور المؤلفين [١] .

اكتشف: وهذا الحرف ـ على حد قوله ـ ليس في الصحاح، ولا التهذيب،

١) ومما يحسن ذكره ان الاستاذ محمود محمد شاكر اورد في مجلة «الرسالة» ع ٣٧٠ شواهد على صحة هذه اللفظة . ومنها شعر لنابغة بني شيبان يقول فيه :

تسبي القلوب بوجه لا كفـــاء له   كالبدر تم جمالاً حـــين ينتصف
تحت الخمـــار لها جثل تمكفه   مثل المثاكيل سوداً حين تقتطف

والشاهد في البيت الثاني .

ولا المحكم . وعنده ان استعماله متعدياً بمعنى كشف صواب (٦١٩) .

فضل - بمعنى بقي . قال : «لم أر احداً صرح به . وهو غالباً في ما قلّ ، كقول عشرفة المحاربية :

ولا شربوا كأساً من الحب مرة ولا حلوة الا شرابهم فضلي

اي ما فضل من شرابي» .

الخصيصة - قال : «لا تجدها في المعاجم وقد ذكرها ابو تمام . والخصائص اسم كتابين احدهما لابن فارس ، والآخر لابن جنيّ (٢٩٨) » .

تولع به - يقول: « ليس هذا الفعل في كتب اللغة. على ان كبار الادباء كالمحشي ، والخوارزمي، وثعلب، قد استعملوه (١١٨) . ويستشهد بقول احدهم:

ولكن اذا ما حب شيئاً تولعت به احرف التصغير من شدة الوجد .

وتظهر دقته في معارضة كتب اللغة بعضهـا ببعض . وقد ظهر له في هذه المعارضة كثير مما اهمل في بعضها وذكر في البعض الآخر. ونكتفي بمثل واحد من هذا القبيل. فقد وجد ان الافعال التالية: احتج بالشيء، ارتصد ، استطرف استلطف، اكتمل ، امتلك ، ارتبط، امتزج، اقتنع بالشيء ، مفقودة من صحاح الجوهري وقاموس الفيروزابادي ، موجودة في المحكم والعباب .

وقس عليها غيرها من الافعـال التي اهملت في بعض كتب اللغـة واثبتت في البعض الآخر .

ولننتقل الآن الى كتابه الآخر «سرّ الليال» في القلب والأبدال لنطلع على ناحية اخرى من انتاجه اللغوي .

سر الليال - يقول الشدياق في مقدمة هذا الكتاب: «فان يكن المتقدمون قد اشتغلوا بهذه اللغة الشريفة ، فاني قد عشقتها ، وكلفت بها حقاً ، حتى صرت لها رقاً .

وهذا العشق قد قاده الى خوض عبابها ، والبحث عن خصائصها . فكان لنا من ذلك كتابه الذي لم يسمح القدر بنشره اعني « اعجب العجب في خصائص لغة العرب» . وكتاب«سر الليال في القلب والابدال» وكلاهما مما يستحق العناية والدرس . وكما يرى العاشق في محبوبه كل صفات الحسن والكمال ، هكذا يرى صاحبنا في اللغة العربية . فلا عجب ان نراه في «سر الليال» يصفها بأنها «افضل اللغات واشرفهن وأكملهن» . وان لها مزايا لا توجد في سواها .

ولنقرر اولاً ان الشدياق يذهب في هذا الكتاب الى ان الالفاظ نشأت اولاً عن حكاية اصوات طبيعية ، ثم تطورت بفعل الزمن ، وتفرق الناس في شتى المواطن والبيئات .

وعلى هذا الاساس يجعل اصول الالفاظ ثنائية مضاعفة مثل : فرّ ، ابّ ، ندّ ، شفّ الخ . وبحكم التطور لحقتها زيادات فكانت الصيغ والصور المختلفة . وعنده ان المعنويات نشأت عن المحسوسات . اي ان الانسان اختبر اولاً ما يقع تحت حسّه ومنه تدرّج الى توليد الالفاظ المعنوية . فلفظة «العقل» اصلها من عقال البعير ، و «الذكاء» من ذكاء النار ، و «البلاغة» من بلوغ المكان ، و «عَرَف» الشيء من «العرْف» اي الرائحة لان المسافر في الفلاة كان يشمّ التراب ليعلم أعلى قصد يسير ام لا. وهكذا قل في سائرالمعنويات(ص١٢و١٣).

ولما ثبت له ذلك رأى أن اصحاب اللغة لم يُعنوا بردّ الالفاظ الى اصولها . فكان همّه « ان يردّ كل فرع الى أصله ، وان ينسّق معاني المادة نسقاً يبين مآخذها .

وهنا فلنسأل : لماذا اعتبر الثنائي المضاعف اصلاً ؟ وجوابه عن ذلك : « ان معظم اللغة مأخوذ من حكاية صوت أو حكاية صفة (٢٢ و ٢٣) . ومعلوم ان هذه اللغة كغيرها من الصنائع والموضوعات البشرية ، لا يحدث شيءٌ منها كاملاً من اول وهلةٍ ، بل على التدريج(٢٥). ثم ان حكم ترتّب المزيد على المضاعف

لا يكاد يتخلف . فقلما ترى من المضاعف معنى الا وترى في مزيده مثله او ما يقاربه (٢٥) . وهناك اسباب اخرى فلتراجع (٢٦ – ٣١) .

وفي بحثه عن اصل اللفظة وما يربط فروعها اتّبع طريقة الاستقراء، فجمع، ووعى ، وقابل ، ثم ارسل حكمه . وهاك بعض امثلة على ذلك :

فتّ : هذا فعل معناه الدق والكسر بالاصبع . (يقول الشدياق) ولازمه هو التفتح لان كل ما انكسر انفتح . فاذا اخذت الافعال التي تشترك في رجوعها الى هذا الاصل – مثل : فتأ ، فتح ، فتر ، فتق ، فتك ، فتل ، فتن وغيرها ، تجد فيها مناسبة ظاهرة او خفية تدل على ان اصلها هو الفت .

نبّ : وهو فعل لازم لمعنى الارتفاع او الظهور . فاذا تحريت الافعال التي تبدأ بهذين الحرفين مثل : نبج ، نبخ العجين ، نبض ، نبذ ، نبر ، نبط، نبع نبق ، نبغ ، نبه ، نبا ، نبت ، وسواها (٢٤٩-٢٥٨) وجدت ان في كل منها شيئاً من معنى الاصل .

ومثل هذين الاصلين كثير من الاصول التي ترتبط فروعها بلازم معناها ارتباطاً ظاهراً او خفياً . وتملأ شروحها مئات الصفحات . وما يصدق عليها يصدق عنده على مقلوبها .

ويرى الشدياق ان هذا الحكم ينطبق أيضاً على الاسماء الجامدة كالشمس مثلاً فهو يجعلها مرتبطة المعنى بما يدل عليه الحرفان الاولان منها (اي الشين والميم) وهو الارتفاع كالشمم ، الشمخ ، الشمر الخ .

ولا يقف عند هذا الحد في هذه النظرية ، بل يحاول الرد على الذين يذهبون الى ان بعض الالفاظ العربية مأخوذة عن لغات اخرى لمشابهة بينها وبين ما يقابلها في تلك اللغات. فلفظة «كنز» عنده عربية لا عجمية الاصل (كما يقولون) لانها تمتّ الى فعل «كنّ» الذي يدل على الستر والاختفاء. ومن ذلك: كنب كنس (الظبي) ، كند ، كنظ (غم) وقس عليها غير ذلك من الالفاظ التي يزعمون انها معربة .

فنظريته في كتاب «مر الليال» هي انك اذا وقفت على الفعل الثنائي المضاعف وتأملت ما يتفرع منه من افعال ، وجدت بينه وبينها تناسباً وتجانساً بحيث تلمح حقيقة الاصل وتدرك معناه . ولا ينكر ما في هذه النظرية من اجتهاد ودقة نظر . على اننا لا نراها كافية لأن تكون قاعدة علمية مطردة ، وخصوصاً في الالفاظ المعربة (الدخيلة) التي يحاول صاحبنا اخضاعها لهذه النظرية .

ومهما يكن ، فمن الجدير بنا ان ننوّه بما للشدياق في مباحثه اللغوية من قوة ملاحظة وجلد على الاستقراء . وهو امر هام في كل بحث علمي . يضاف الى ذلك ما وهب من سعة التخيل والمقدرة على التحليل والتأويل — كقوله في اسباب القلب والابدال ، وفي علاقة الحروف بالمعاني . ولقد يمكن مناقشته في بعض نظرياته وآرائه ، ولكنْ هناك امرين على الاقل يثبتان فضله وتقدمه في ميدان اللغة وهما :

١ ـ تحرّيه ما في معاجم اللغة من شوائب ونقائص يجب اصلاحها .
٢ ـ تصويبه الاستشهاد بفصحاء المولّدين .

فمعاجم العربية لم تستوعب جميع المفردات ، ولم تضبط كما يجب ـ لا من حيث تاريخ الالفاظ واصول معانيها ، ولا من حيث ترتيبها ودقة تماريفها .

وفضل الشدياق انه استطاع بدقة استقرائه ان يدلنا على مواضع الخلل ، وان يمهد لنا السبيل لاصلاحها وضبطها .

شعره :

يقول احد مؤرخيه : « ان للشدياق ديواناً يحوي ٢٢ الف بيت من نفيس الشعر »[١] . ويؤسفنا اننا لم نهتد الى هذا الديوان لنطالعه ولنتخذه اساساً للحكم على شاعرية صاحبه . ولذا فسيكون اعتمادنا في ذلك ما ورد من منظوماته في كتابه « الساق على الساق » . وتشمل هذه المنظومات المديح ، والهجاء ،

١) فارس الشدياق لبولس مسعد (مصر ١٩٣٤) ص ٤٥ .

والرثاء ، والوصف ، والهزل ، والمجون . وهو مكثر طويل النفَس . وينظم على طريقة القدماء التقليدية . فاذا مدح ابتدأ بالوقوف على الطلول او بالطريقة الغزلية المعروفة . وقد يشغل غزله في بعض المدائح نصف القصيدة كما ترى في قصيدة يمدح فيها بعض الأمراء ومطلعها :

ما دام شخصك غائباً عن ناظري ليس السرور بخاطرٍ في خاطري

وهي تقع في ٥٨ بيتاً منها ٢٨ في الغزل .

واغلب مدائحه بل كلها للتقرّب من ذوي السلطة او الجاه والحصول على نعمهم. فقد مدح السلطان العثماني يوم حاربته روسيا في قصيدة يقول في مطلعها:

الحق يعلو والصلاح يعمّرُ والزّور يمحق والفساد يدمّرُ
طغت الطغاة الروس لما غرّهم في الأرض كثر سوادهم وتجبّروا

وهي تبلغ مئة وعشرة ابيات جمع فيها الغث والسمين .

ومدح باي تونس ، فنال منه جزيل النعم كما ذكرنا في غير هذا المكان .

وكما يقلد الأقدمين في المديح يقلدهم في الرثاء . فهذه قصيدته في رثاء ولد له وهي تقع في ٧٢ بيتاً. تقرأها فتجدها تنضح بروح ابي الحسن التهامي الذي عاش في القرن الخامس للهجرة. ورثى ابنه بقصيدة تعد من روائع المراثي ومطلعها :

حكم المنيّة في البريّة جارِ ما هذه الدنيا بدار قرارِ
بينا يرى الانسان فيها مخبراً حتى يرى خبراً من الاخبارِ

ومرثاة الشدياق تتبع هذه القصيدة في وزنها وقافيتها وفي كثير من تعابيرها ومعانيها ، ومطلعها :

الدمع بعدك اذ ذكرتك جارِ والذكر ما وراك تربٌ وارِ

ومنها :

ابنيّ ما يُجدي التصبرُ قولهم « حكم المنية في البرية جارِ »
كلاّ ولا بي قرّ بعدك من حمى « ما هذه الدنيا بدارِ قرارِ »

وهي من جياد قصائده، ولكن قصيدة التهامي اكثر روعة وألطف ديباجة. واذا خرجت عن شعره الجدي فأنك قلما تقع من نظمه على شيء بعد من باب الجيد . ففي هزله واحماضه كثير من السخف والاسفاف .

والطبع اللغوي يغلبه في النظم احياناً فيستعمل من الالفاظ الغريبة ما تنبو عنه الاذن ، كقوله من قصيدة في وصف باريس :

بها ما تسوء العين من كل اربة   وما تجتوي نفس وما تكره «النوسُ»

والنوس الخليقة أو الطبع .

وقوله من مرثاته في ابيه :

يا فجعة نزلت فحطم كاهلي   «تأويقها» وابان قصم فقاري

والتأويق الشدة او المكروه .

وقوله وقد رأى رجلاً متزوجاً :

انا في حلبة الزواج المجلي   انما انت «فسكل قاشور»

والفسكل او القاشور ، من الخيل ما يأتي في آخر الحلبة .

ومما قرأناه من شعره لا نسيغ لأنفسنا ان نقول كما قال بولس مسعد ان ديوانه من نفيس الشعر . ولسنا ننكر ان فيه بعض الشعر النفيس ولكنه على العموم دون الجيد . اما التجديد الذي عزاه الدكتور محمد خلف‌الله اليه[1] ، فلم نجد له اثراً يستحق الذكر . والذي يبدو لنا ان الشدياق كاتب متفنن وعالم مدقق . اما في ميدان الشعر فانه مقصر عن المجيدين في زمانه من امثال الشيخ ناصيف اليازجي وطبقته . ولعلنا اذا اهتدينا الى ديوانه نرى فيه ما يحملنا على تعديل رأينا في فنه الشعري .

١) راجع كتابه «احمد فارس الشدياق» ص ١٨٠ - ١٨٧ (القاهرة ١٩٥٥)

الشدياق

مراجع دراسته على الترتيب الابجدي

الآداب العربية في القرن التاسع عشر		لويس شيخو
احمد فارس الشدياق وآراؤه اللغوية	(مصر ١٩٥٥)	محمد احمد خلف الله
أعيان البيان	(مصر ١٩١٤)	السندوبي
الانسكلوبيديا الاسلامية	مقال لبروكلمان (تحت شدياق)	
تاريخ آداب اللغة العربية ج ٤ تراجم مشاهير الشرق ج ١		جرجي زيدان
رواد النهضة الحديثة	(بيروت ١٩٥٢)	مارون عبود
الشدياق واليازجي	(جونيه ١٩٥٠)	الاب انطونيوس شبلي
صقر لبنان	(بيروت ١٩٥٠)	مارون عبود
فارس الشدياق	(مصر ١٩٣٤)	بولس مسعد

وبعض فصول وجيزة ومتفرقات[1] .

١) راجع مجلة الجمهور (بيروت) ع ٩٩ و ١٠٤ وفصلاً من كتاب رواد النهضة الأدبية لكمال يازجي

آثار الشدياق

في اللغة

الجاسوس على القاموس
سر الليال في القلب والابدال

في الادب

مجلة الجوائب (او ما جمع منها في كنز الرغائب)
الساق على الساق في ما هو الفارياق
كشف المخبا عن فنون اوروبا
الواسطة في معرفة احوال مالطه

بطرس البستاني

١٨١٩ — ١٨٨٣

معلم القرن التاسع عشر

اذا استعرضنا رجال القرن التاسع عشر فاننا لا نكاد نجد واحداً منهم قام بما قام به هذا الرائد العظيم من خدمات وطنية وعلمية كان لها اعظم اثر في ترقية ابناء جيله . ولا يزال اثرها الى الآن بل سيظل مذكوراً مهما تقادم الزمان . فاذا لم يكن البستاني ممن امتازوا بالصناعة القلمية والاناقة البيانية ، فانه ولا شك في طليعة الممتازين بخدمة العلم والانسانية ، وممن حملوا مشعل الحضارة الفكرية والروحية عالياً في البلدان العربية . وسنحاول فيما يلي ان نلم بنواحي شخصيته الفذة فنعرض بايجاز كلاً منها عرضاً يسهل على المتأدب الوقوف على حقيقة سيرته وجلال مآتيه . وقد رأينا ان نتحدث عنه تحت المواضيع التالية: البستاني المعلم ، البستاني الصحافي ، البستاني اللغوي .

في ميدان التعليم والخدمة الاجتماعية :

يقول الذين عاصروه والذين كتبوا سيرته ، ان اسلافه الاقدمين كانوا يقيمون في قرية من شمالي لبنان قرب بشري . وانه من هذه القرية نزح بعض

اجداده الى جنوبي لبنان ، واستقروا في قرية هناك تعرف بالدبيّة ، وفي هذه القرية سنة ١٨١٩ ولد صاحب الترجمة . وعلى يد كاهنها الخوري ميخايل البستاني تلقن مبادىء القراءة العربية والسريانية واصول العبادة المارونية . ولحظ فيه معلمه ذكاء واجتهاداً فذكره لمطران المقاطعة ـ وهو ايضاً من الاسرة البستانية ـ فاهتم بأمره وأرسله الى مدرسة (عين ورقة) وهي يومئذ المدرسة الدينية العالية للطائفة المارونية . وهناك تعلم القواعد العربية والسريانية والتاريخ والجغرافيا والحساب وبعض النظريات اللاهوتية والفلسفية ومبادىء اللغة اللاتينية . ولما تم تحصيله العلمي في عين ورقة رأى بطريرك الطائفة ان يرسله الى رومه للتخصص في العلوم الدينية . ولكن والدته ابت ان تبعده عنها ، فبقي في عين ورقة يعلّم ويقوم بخدمات خاصة للبطريرك ، وفي الوقت نفسه يحاول ان يتعلم اللغة الانكليزية.

بقي على ذلك حتى سنة ١٨٤٠ ثم انتقل الى بيروت وكان قد بلغ الحادية والعشرين من عمره . ولتلك السنة اثر يذكر في حياة البستاني ، بل في تاريخ البلاد الشامية اجمع . فهي السنة التي قدم فيها الاسطول الانكليزي مع حلفائه الى بيروت لاخراج ابرهيم باشا المصري من بر الشام . فاحتل الانكليز المدينة وضواحيها . وكانوا بحاجة الى ترجمان فوجدوا ضالتهم المنشودة في الشاب بطرس البستاني اذ كان يفهم لغتهم ويستطيع القيام بحاجاتهم . وفي ذلك الحين تعرف ببعض المرسلين الاميركان وتأصلت بينه وبينهم عرى المعرفة والصداقة . فلما انتهت مهمة الاسطول الانكليزي وترك بيروت ، اشتد اتصال البستاني بالمرسلين وزادت بذلك معرفته الانكليزية . وكان يعلمهم العربية ويعرّب لهم ما يودون نشره من كتب ورسائل . وما لبث ان رأى في مذهبهم الانجيلي ما حبب اليه اعتناقه فاعتنقه وأصبح ركناً من اركانه . وكان اكثر من اتصل به ولازمه من الاميركان المرسل الشهير والمستشرق الكبير الدكتور كرنيليوس فانديك احد مؤسسي الكلية الطبية الاميركية في بيروت واهم من خدم النهضة العلمية والروحية في ذلك العصر .

ورأى فانديك بثاقب نظره ان البلاد في حاجة ماسة الى مدرسة عالية على

الطريقة العصرية ، فأسس سنة ١٨٤٦ بمساعدة البستاني مدرسة «عبيه» الشهيرة . وهي كما يقول زيدان «اقدم المدارس العالية التي انشئت على نمط حديث»[١] . بقي فيها صاحبنا سنتين يعلم ويؤلف مـا تحتاج اليه من كتب مدرسيـة . ومن مؤلفاته فيها: «كشف الحجاب في علم الحساب» و«بلوغ الارب في نحو العرب».

وفي السنة ١٨٤٨ عاد الى بيروت حيث تولى قلم الترجمة في قنصلية اميركا ، وبقي في هـذا العمل حتى السنة ١٨٦٢ اذ تنازل عنه لابنه سليم وتفرغ هو للعلم والخدمات العمومية. وكانت في هذه الحقبة قد اتسعت دائرة اعماله وتآليفه بين علمية ودينية وانسانية ، كما اتسعت دائرة معارفه العصرية. ومما يذكر له مباشرته مع المرسل الاميركي عالي سمث ترجمة عدد من اسفار الكتاب المقدس، مكّنه من ذلك اطلاعه على اللغتين اليونانية والعبرانية اللتين كان قد تعلمها في بيروت[٢].

ولما حدثت مجازر السنة الستين وما سبّبها ونتج عنها من تعصب وحزازات طائفية ، فتح امام البستاني مجال واسع لتأدية رسالته الوطنية والانسانية . فأنشأ صحيفة «نفير سورية» يدعو فيها الى نبذ الضغائن والتعصب الطائفي والى التآخي تحت لواء الوطنيـة . وكانت تنشر كرسائل تتضمن نصائح مفيـدة لشدّ عرى الالفة بين السكان على اختلاف مذاهبهم [٣]. ولما استتب الامن وتنظمت احوال البلاد ، اوقف نشرها بعد ان كان قد ظهر منها ثلاثة عشر عدداً . وسنذكرها بتفصيل اكثر في كلامنا على البستاني في ميدان الصحافة. ونكتفي هنا بمثل وجيز منها للدلالة عن نزعة ناشرها الوطنية واسلوبه الخطابي ، قال :

«يا ابناء الوطن ! ان الفظائع والمنكرات التي ارتكبها اشقياؤنا هـذه السنة (١٨٦٠) كسرت القلوب واسالت الدموع ، وعكرت صفاء الالفة، واضاعت حق الجوار. اما تمالح الجاران؟ اما شربتم ماء واحداً ؟ اما تنشقتم هواء واحداً؟

١) تاريخ آداب اللغة ٤ — ٤١
٢) المقتطف ٨—١
٣) راجع عدد ايار من النشرة سنة ١٨٨٣

أما رأيتم العقلاء ساعين في تشييد اركان الالفة ورفع منار العلم رغبة منهم في ارتقاء واسعاد العباد ؟

اعلموا انكم بعملكم المنكر قد ارجعتم الوطن الى الوراء نصف قرن. هدانا الله واياكم سواء السبيل ! »

ونزعته الوطنية مقرونة بنزعة روحية عميقة ، كقوله في ختام النشرة الرابعة يحضهم على نبذ التعصب والبطل ويرجعهم الى الآية الذهبية «كما تريدون ان يفعل الناس بكم افعلوا هكذا أنتم ايضاً بهم» . ويذكّرهم انه ليس للانسان « وطن حقيقي في هذا العالم ، بل وطنه الحقيقي في عالم الارواح ». وهكذا لا ينفك البستاني عن توجيه الناس توجيهاً روحياً اذ لا شبهة عنده في «ان لا تقدم او تمدن حقيقي الا ما كان قائماً على الامر بالمعروف والنهي عن المنكر والسير بحسب مشيئة الله » .

فالبستاني كان طوال حياته داعية للخير والصلاح، يستخدم قلمه ولسانه لخدمة الوطن غير مبال بما ينفقه في هـــذا السبيل . واينما طلبته فهو هو على صفحات الجرائد ، او على منابر الخطابة ، او في معاهد التدريس ونوادي الجمعيات، لا هم له الا نشر الثقافة واصلاح المجتمع . وقد كان عضواً فعالاً في اول جمعية علميــة وهي الجمعية السورية التي انشئت سنة ١٨٤٧ ، ثم في الجمعية العلميــة السورية سنة ١٨٦٨ . وفي هاتين الجمعيتين كان يقدّم الخطب الادبية والوطنية كخطابه في تعليم النساء الذي القـاه سنة ١٨٤٩ ، فكان فيه اول من دعـا الى تعليم المرأة ورفع مستواها ، يوم لم يكن في هذه البلاد من يجرأ على المناداة بذلك. وله كثير من الخطب والمقالات التي تنم على شغفه بنشر النور في امته . ناهيك بخدماته الكثيرة للجمعيات الخيرية وللمبادىء الروحية التي كان يرى فيها اساس النهضة الحقيقية .

ولعل اعظم عمل وطني قـــام به هو تأسيسه وادارته للمدرسة الوطنية سنة ١٨٦٣ . وهي اول معهد علمي في القطر الشامي انشىء خارج الحلقات الدينية . قال «المقتطف» عنهـا : «هي احدث المدارس الوطنية على قاعدة الحرية الدينية

والجامعة الوطنية. تؤلف القلوب بين متنافري الاديان ومتبايني المذاهب، وتذيع المبادىء الوطنية على صدق في جانب الدولة، واخلاص في جانب الوطن. فانسلّ اليها الطلبة من كل ناد وصوب : من مصر، والاستانة ، واليونان، والعراق من عرب واعجام. وولي شؤون التعليم فيها اساتذة فضلاء من العرب والافرنج [١].

فمن هذا الكلام الذي ورد في المقتطف سنة ١٨٨٣ يظهر ان مدرسة البستاني كانت اشبه بكلية يؤمها الطلاب من جميع الانحاء الشامية وغير الشامية . ولا بدع فقد كانت الوحيدة من نوعها في ذلك العصر . وكان البستاني على حد قول زيدان : «السابق الى هذه المنقبة مثل سبقه في اشياء كثيرة من اسباب هذه النهضة . وظلت زاهرة حتى السنة ١٨٧٦» [٢] . ويقول هنري جسب ، وهو معاصر للبستاني ، ان هذه المدرسة بقيت عدة سنوات تضم نحو مئتين من الطلاب[٣] . ولم تكن مجانية بل كان طلابها عموماً يدفعون الرسوم المطلوبة، الا أنها بشهادة العارفين، لم تكن معهداً لكسب المال، بل بعكس ذلك قد استنزفت جانباً غير قليل من ثروة صاحبها الذي لم يكن يلتمس من عمله الجسيم الشاق الا رضى مواطنيه ونفع الوطن [٤] .

وقد قدرت الدولة العثمانية هذه الخدمة له فمنحته لاجلها وساماً رفيعاً. وكان رجال الدولة يزورون المدرسة تنشيطاً لما تقوم به من خدمات علمية ووطنية . وفي احدى تلك الزيارات سنة ١٨٧٠ يقدم مديرها للزائر (وكان متصرف بيروت) بياناً يلخص فيه المبادىء التي قامت عليها والتي ستبقى شعارها ، وخلاصتها [٥] ما نصه :

١ ـ انه ليس المقصود منها ان تكون طائفية ، بل كانت ابوابها ولا تزال

١) المقتطف ٨ ص ٢ و٣
٢) تاريخ آداب اللغة ٤ — ٤٠
٣) Fifty - Three Years 1-270
٤) المقتطف ٨ — ٣ ولسان الحال لخليل سركيس عدد ٥٦٧ .
٥) راجع الجنان مج ١ ص ٧٠

مفتوحة لجميع ابنـــاء الوطن وغيرهم من كل جنس وطائفة وملة دون تعرُّض لمذاهبهم الخصوصية .

٢ ـ انها قد صرفت الهمة في تنشيط لغة الوطن لأنــه من المقرر ان اساس تقدم كل قوم انما هو لغتهم التي يرتضعونها مع اللبن .

٣ ـ انها قد حافظت كل المحافظة على المشرب الوطني والعلاقـــات الوطنية بحيث لا يكون المتعلمون فيها كغرباء في وطنهم فتفوت ابناء وطنهم الفوائد المقصودة (اي ان غايتها ان يربى ابناء الوطن لخدمة الوطن) .

٤ ـ انها عنيت بتعليم اللغات والمعارف التي رأت البلاد في حالتها الحاضرة في غاية الاحتياج اليها .

٥ ـ انها اجتهدت في تربية حب الوطن في قلوب تلامذتها ، وايجاد مبادىء الالفة والاتحـاد بينهم جاعلة الوطن مركزاً عامـاً لحاسياتهم ، حتى اذا خرجوا منها كانوا ذوي غيرة على وطنهم امناء له ولحكومتـه ، وقادرين ان يتحدوا في ما يؤول الى عمار الوطن ونجاحه .

هذي هي المبادىء التي اتخذتها المدرسة الوطنية شعاراً لها ولم تحـد عنها . ويعطينا احد تلامذتها الدكتور شاكر الخوري صورة جلية عنهـــا في كتاب «مجمع المسرات» فيقول[1] : «انها اول مدرسة داخلية في بيروت، وكان تلامذتها من ملل مختلفة فكان يرسل الرئيس كل واحد الى كنيسته مع معـلم مخصوص ايام الآحاد والاعياد . وطول حيـاته لم يتكلم عن المذاهب» . واليك هيـــأة المعلمين كما يثبتها لنا في كتابه المذكور[2] :

الرئيس ـ المعلم بطرس البستاني كان يعلّم صفاً باللغة الانكليزية .
نائب الرئيس ـ ولده سليم وكان يعلم الصف الاول بالانكليزية

١) و٢) راجع مجمع المسرات من ١١٤ ـ ١١٥ و ١٤٩ ـ ١٥٠

الست ساره ـ ابنته	وكانت تعلم صفاً بالانكليزية . وقد توفيت في السنة المدرسية الاولى .
الشيخ ناصيف اليازجي	كان يعلم الصف الاول في العربيـــة ويقوم مقامه ولده ابرهيم اذا غاب .
الشيخ يوسف الاسير	كان يعلم الصرف. وهو من متخرجي الازهر
الشيخ خطار الدحداح	كان يعلم الصف الاول في الافرنسية
الشيخ قبلان الدحداح	» » » الثاني » »
سعدالله البستاني	» » » الثالث » »
اسبر شقير وبعده سعيد شقير [٣]	الافرنسية ايضاً
شاهين سركيس	العربية والحساب
يوسف الباحوط	» »
ابرهيم ناصيف	» »
خليل ربيز وسليم تقلا [٤]	للصفوف الابتدائية

عمل البستاني وعلّم وكانت حياته مليئة بالخير حافلة بجلائل الاعمال. والذي يراجع سيرته ويطّلع على مدى اعماله ، يتضح له ما كان لشخصيته وجهاده من اثر في حياة جيله والاجيال التالية . ان حياته من اولهـــا الى آخرها ، سلسلة متواصلة من السعي وراء العلم والعمل على ما فيه منفعة للغير . فمنـذ حداثته في مدرسة القرية الى ان سقط القلم من يده يوم وفاته ، كان مواظباً على الاستفادة والاستنارة وتوسيـع افق المعرفة امامه وامام الآخرين ، فحصل باجتهاده مـــا كان معروفاً من العلم في زمانه ، واستطاع بثباته ان يتعلم خمس لغات غير لغته العربية . لم يضيـع فرصة في لهو أو في ما لا طائل تحته ، بل كان دائماً يشغل

٣) اسبر شقير الذي اصبح في مقدمة البيروتيين وجاهة ونفوذاً – وسعيد شقير الذي هاجر الى السودان فارتقى حتى اصبح مدير عمـــوم حسابات السودان ونال لقب سر Sir من الحكومة البريطانية .

٤) سليم تقلا الذي اسس بعدئذ جريدة الاهرام في مصر .

اوقات فراغه فيا يفيد وحتى ان ذويه اذا افتقدوه ليلاً او نهاراً وجدوه في مكتبته بين كتبه واوراقه» [١] . وقد وصفه اثنان عرفاه حق المعرفة وهما هنري جسب وكرنيليوس فانديك . فقال الاول : انه كان ذا مقدرة عجيبة على العمل [٢]. وقال الثاني : انه كان جباراً .

اجل كانت حياته حياة العالم العامل والمعلم الصالح . واذا كان فيلسوف اليونان ارسطو قد عرف في التاريخ العربي باسم المعلم الاول لكونه المرجع الاكبر للعلم والفلسفة ، كما عرف الفارابي بالمعلم الثاني لشغفه بالحكمة والفلسفة ، فان البستاني يجب ان يلقب بالمعلم الثالث لما نشره في وطنه من علم وما حمل اليهم من اسباب الثقافة ومبادىء الوطنية الحقيقية .

والواقع اننا لا نعلم احداً بين ابناء العربية منذ بدء النهضة الى الآن حمل لقب المعلم فكان اللقب له عنوان الفضل والكرامة كبطرس البستاني . واذا كانت الاوضاع قد تبدلت اليوم وحل لقب الاستاذ محل المعلم في وصف رجال العلم والفن فان لقب المعلم لبطرس البستاني سيظل سمة شرف له لانه لقب رجل ملأ جيله فضلاً وعلماً ونوراً .

وكان في التعليم مثالاً يقتدى . فهو ذو نظر دقيق ومعرفة واسعة . وسواء أكان في الصف يلقن تلامذته مبادىء العلم ، او يؤلف لهم الكتب المدرسية اللازمة ، فهو يسير معهم في سبيل الوضوح وحسن التقسيم والتبويب والابتعاد التعمية والتقعر ، مدرباً اياهم على الاتقان في العمل والمكارم في المعاملة وكان في ادارته يسلك طريق الحزم المقرون بالمطف الابوي . وقد اشتهر بين الناس بدعة اخلاقه ، وبساطة حياته ، وحسن طويته ، وخالص مودته ووطنيته . فلم يكن غريباً ان يحظى منهم جميعاً على اختلاف نحلهم ومذاهبهم ، بأوفر نصيب من الثقة والاحترام .

---

١) زيدان في ترجمته في كتاب تراجم مشاهير الشرق .

٢) gessup 1 - 270

نبغ البستاني في زمـان ومكان متهيئين لظهور امثاله ، اذ كانت البلدان العربية المتاخمة لشواطىء البحر المتوسط قـــد بدأت ترى بعض انوار جديـدة تنعكس اليها من وراء البحر . ففي مصر مثلاً اخذت العيون تنتبه من الكرى عقب حملات نابليون وقيام محمد علي الكبير . وفي الاقطار الشامية بـدأ الظلام ينجلي رويداً رويداً بمجيء البعثات الاجنبية وتأسيس مراكزها الدينية والتهذيبية وكان للفتن الداخلية التي حدثت في تلك الاقطار وخصوصاً مذابح السنة الستين، اثر كبير في تحريك النفوس وايقاظها وتوجيهها نحو الحياة الجديدة التي كانت البعثات الاجنبية قد زرعت بذورها واخذت تتعهدها بالعناية اللازمة . فكان الجو في بيروت متهيئاً لرجل يلبي رغبة النفوس المتعطشة للمعرفة ، والمحتاجة الى من يضمد جراحاتها الدامية التي سببتها القلاقل السياسية والحزازات الطائفيـة . وهكذا ظهر البستاني فكان في مدرسته الوطنية ومشاريعه الاصلاحية الاخرى القائمة على نشر العلم وتوطيد أسباب التساهل والتعاون خير رائـد للعصر الجديد وخير ناشر للمعرفة الحقيقية والمبادىء الروحية والاخوة الوطنيـة التي لا تعرف تعصباً ولا تدعو لغير وطنية مهذبة واعية . والحق يقال أن ما قام بـــه هذا الرائد الكبير كان الحجر الاساسي في بنـــاء الوطن الجديد . وقد اتفق جميـع الذين عرفوه وتحدثوا عنه على نعته بأفضل مـــا ينعت به رجال الفضل وخدمة الوطن . فكان على قوة ايمانه بالدعوة الانجيلية يتعالى عن التعصب الطائفي وعن استغلال موقف او نفوذ لمآربه الذاتية ، ويتفانى في كل مـا يعتقد انه مفيـد للعموم ، ولا سيما التنوير العلمي والتهذيب الخلقي اللذين كان يرى فيهما اساس كل تقدم مادي حقيقي «وبما عرف به صدقه وتجنبه للفخفخة الفارغة ومقدرته على استرضاء جليسه فتى كان او شيخاً ، فتاة او عجوزاً ، يكلم كلا منهم بلغته»[1]. وقد وصفه رفيقه الدكتور فانديك الشهير فذكر مواظبته على العمل واتقانه لشتى اللغات ، وقال : «كل ذلك حباً بالمعارف ورغبة في اكتساب كل مـــا

١) دائرة المعارف للبستاني مج ٧ ص ٥٩٢

اعانه على افادة اهل بلاده . اخذ يعلم ويؤلف ليس كالمضطر بل انما برغبة المغرم الراغب . فـــان الف القى كل قلبه في التأليف ، وان علم نسي كل شيء حتى الطعام ، من انهماك عقله في التعلم ومن شدة رغبته في اكتساب تلاميذه» [1] .

وليس من قبيل المبالغة ان نقول ان تأسيسه للمدرسة الوطنية في بيروت كان اكبر مشروع تهذيبي قام به شخص واحد في ذلك العصر . وكما كان هو رائـد النهضة العلمية الحديثة ، كانت مدرسته رائدة الكليـــات التي ظهرت بعدئذ في بيروت وسواها. فهي التي مهدت السبيل لظهور الكلية السورية الانجيلية(الجامعة الاميركية اليوم) . ذلك ان الاميركان لما ارادوا تأسيس كليتهم سنة ١٨٦٦ وجدوا في النفوس استعداداً لها ، كما وجدت هي في مدرسة البستاني معهداً يعد الطلبة لدخولها. وظلت المدرسة الوطنية بمثابة معهد اعدادي للكلية[2]، حتى تم للكلية انشاء دائرتها الاستعدادية سنة ١٨٧٦ . ومنذ ذلك الحين اغلقت المدرسة الوطنية ابوابها بعد ان خدمت الاوطان العربية اكثر من ثلاث عشرة سنة . مات البستاني في مستهل ايار ١٨٨٣ ، وترك وراءه اسماً سيبقى مكرماً مـدى الزمان . وكان لنعاه هزة شديدة غمرت البـلاد بأمى عـام ، وقد اشتركت الحكومة والشعب في الاحتفال بجنازته والتنويه بفضله، ورثاه الكتاب والشعراء في كل قطر من الاقطار العربية . وفي ذكرى ميلاده المئوية سنة ١٩١٩ اقيمت له في بيروت حفلة كبرى اشترك فيها نحو ٦٥ خطيباً وشاعراً .

١) دائرة المعارف للبستاني مج ٧ ص ٥٩٣

٢) gessup 1 - 326

في ميدان الصحافة

بطرس البستاني وابنه سليم

مرّ معنا آنفاً ان البستاني خدم وطنه والعالم العربي عموماً عن طريق الصحافة . وأولى محاولاته في هذا الباب تلك النشرات التي اخذ يصدرها في بيروت عقب حوادث السنة الستين . واذا كان البعض يعدّونها من قبيل الفن الصحافي فهي عند التحقيق ليست كذلك . وانما هي خواطر وطنية اثارتها فظائع تلك السنة . وكان يذيعها باسم «نفير سوريا» (احياناً اسبوعية واحياناً شهرية) داعياً فيها الى نسيان الضغائن والعمل معاً بإلفة ووئام. وقد اطّلعنا في مكتبة الجامعة الاميركية في بيروت على مجموعة منها تضم الاحدى عشرة نشرة الاولى وكلها بتوقيع « محب للوطن » ، وللاطلاع على اسلوبها نثبت هنا بعض الامثلة منها :

يفتتح النشرة الاولى (تاريخ ٢٩ ايلول سنة ١٨٦٠) بقوله : « يا ابناء الوطن ! الفظائع والمنكرات التي ارتكبها اشقياؤنا هذه السنة في ظرف مدة قصيرة ، وصلت اخبارها الى اطراف المسكونة ، فكان تأثيرها الغم والشفقة من الجهة الواحدة (اي على المنكوبين) والغيظ والغضب من الجهة الاخرى (اي على المعتدين) ، وذلك في كامل العالم المتمدن . فترون الاحسانات قادمة من

كل جهة لاغاثة المحتاجين ، والجيوش تتوارد من كل قطر لوقاية الضعفاء وتأديب المذنبين والمعتدين» . ثم يقول : «فيا ابناء الوطن . ان الخراب والدمار الذي حلّ ببلادنا هذه لا يوجد له نظير في التواريخ. واسبابه غير مجهولة لدى الاكثرين منكم . وهو مما يوجع قلب كل ناظر ومحب للوطن . وهذا الخراب ، وان يكن ظاهر امره خصوصياً ، فهو في الحقيقة عمومي يلحق جميع ابناء الوطن . لان كل خسارة حصلت او تحصل فهي خارجة من كيس الوطن . وكل نفس فقدت او تُفقد فخسارتها لاحقة بالجميع».

«يا ابناء الوطن : انكم تشربون ماء واحداً ، وتتنسمون هواء واحداً ، ولغتكم التي تتكلمون بها ، وارضكم التي تطأونها ، وصوالحكم وعاداتكم فهي واحدة . واذا كنتم (يخاطب المعتدين) لا تزالون الى الآن سكارى من شرب دم اخوتكم في الوطن ، (وهنا يخاطب المنكوبين) او طايشين من عظم المصائب الواقعة عليكم ، فلا بد من انكم عن قليل تستفيقون من هذه الغفلة وتدركون معنى هذه النصائح وصالحكم الوطني . فهذا ما قصدت ان اخاطبكم به الآن. ولي امل ان اداوم الكتابة اليكم . واسأل الله ان يرشدكم الى معرفة صالحكم وخير بلادكم . ويحرك قلوبكم الى اعتبار نصوص ومبادىء الديانة التي انتم تدينون بها. وادام الله بقاكم» .

بهذه الروح الوطنية الخيّرة يذكر في النشرات التالية ما كان لهذه الحوادث من تأثير في العالم ، مهيباً بالمنكوبين ان يتذرعوا بالصبر وطول الأناة ، معللاً اياهم باهتمام السلطان والدول بأمرهم . ويتحدث عن حب الوطن وواجبات المواطن ، وعن أضرار الحرب الاهلية «القائمة» على حد قوله «على مبدأ حيواني» يظهر بأشكال مختلفة كالتعصب الحزبي ، او الطائفي ، او العنصري . ويحمل على هذا المبدأ فيقول في النشرة الخامسة : « وهذا المبدأ الحيواني الخبيث الموروث من البرابرة ، كثيراً ما رفع رأسه وهاج مزبداً في احسن ازمان هذه البلاد ، واكثرها راحة ونجاحاً ، فأوقع فيها الخراب والوبال ، وبدد المال والعيال » .

وفي النشرة السادسة وما يتبعها من نشرات ، يبسط للقراء الخسائر المادية الباهظة التي اصابت البلاد . ويشير الى المساعدات المالية الكثيرة الواردة من الداخل والخارج . ويقف طويلاً على الخسائر المعنوية التي نتجت عن الحوادث الفاجعة . واهمها سقوط الاخلاق وتدهور الفضائل، حتى ذهب الصدق والشرف والمروءة وسواها مما «تدعو اليه الاديان الحية» . على انه يرى مقابل هذه الخسائر العظيمة فوائد تذكر اهمها «ادراك الامة أن لا حياة لها الا بالمحبة والتآلف ، وان اضرار الحرب الاهلية اكثر بكثير من منافعها ، وان الحكم العادل هو ملح الارض » . وعلى هذا الوتر يضرب حتى يصل الى نشرته الاخيرة حيث يشرح معنى التمدن واسبابه والطرق المؤدية اليه .

والذي يطالع هذه النشرات يشعر بحرارة خطابية فيها ، وبميل الى التصوير المجازي في عباراتها . كقوله مثلاً في النشرة العاشرة :

«يا ابناء الوطن الذين قد اتصفتم واشتهرتم بالكرم والنخوة (الخ) ، وانتم الآن ممتطون سنام الجيل التاسع عشر ، جيل المعرفة والنور (الخ) . لا تدعوا تلك الفتن الشديدة تحملكم على هجر هذه الخلال الحميدة، بل هبّوا ، استيقظوا ، تنبّهوا ، شمّروا عن ساعد العزم والهمّة . ها الآداب والتمدن ووسائل الاتحاد والالفة واقفة من كل جهة ، مزدحمة على ابوابكم ، تقرع بقوة وسرعة طالبة الدخول الى مدنكم الزاهية الشهية ، وجبالكم الشامخة البهية ... فانبذوا عنكم تعصباتكم الدينية ، وتحزباتكم المذهبية ، واغراضكم النفسانية ، وافتحوا الابواب لتلك الضيوف الفاضلة (يقصد آداب التمدن) وترحّبوا بها ، وقدموا لها يداً واحدة لمصافحتها ، واقتبلوها بالفرح والحبور، فتملأ بلادكم راحة ورفاهية وامناً ، وتكسو دياركم بهجة ورونقاً وفخراً» .

هكذا كانت النشرة المعروفة بـ «نفير سوريا» وهكذا كان بطرس البستاني فيها . اما الصحيفة الحقيقية التي انشأها فهي «مجلة الجنان» . وكان صدورها سنة ١٨٧٠ . ولما نشر العدد الاول منها صدّره بمقدمة نثبت منها ما يلي :

« انه قد تيسّر بهمة اولياء الامور العظام ، وجود عدّة كازتات (هكذا كانوا يسمون الصحف في تلك الأيام) في اللغة العربية لأجل نشر الأخبار والماجريات الداخلية والخارجية ، ولم تزل لغتنا معدومة واسطة من الوسائط الكبرى لنشر المعارف العمومية من علمية ، وادبية ، وتاريخية ، وصناعية ، وتجارية ، ومدنية وغير ذلك من النبذ والملح الأدبية ، مما هو جار في البلدان الاجنبية . وقد ظهرت فوائده للخاص والعام ، لأنه فضلاً عن ان يكون وسيلة لتنشيط المعارف العمومية وتقوية اركانها بين الجمهور . وتبادل ذلك بين قوم وقوم ، واحياء اللغة وتحسينها ، والمحافظة على الاتفاق فيما بين اهلها ، ومعاضدة ما وجد من العناصر الوطنية في هذه الأبواب ، يفتح باباً لأصحاب المعارف وميداناً يجول فيه قلم المهرة من اصحاب العلم . وبناءً على ما نراه من الاستعداد والميل في المتكلمين بلغتنا الشريفة من ابناء وطن واجانب ، الى الحصول على واسطة كهذه طالما جال في خاطرنا شدّة اضطرار لغتنا وابناء وطننا اليها ، قد عزمنا بالاتكال على عنايته تعالى على ابراز المقصد المذكور من القوة الى الفعل بانشاء جريدة في اللغة العربية تسمّى « الجِنان » (جمع جنة) تحتوي على الفوائد المذكورة من قلمنا وقلم من يرغب ان يتحفنا بقطع نفيسة من اصلية ومترجمة في الأبواب المارّ ذكرها . »

وفي هذه المقدمة اعلن البستاني عزمه على اصدارها مرّة كل نصف شهر . فكان صدورها اربعاً وعشرين مرة في السنة . وظلّت تصدر على هذا المنوال ست عشرة سنة . وكما اسس مدرسته على اساس الوطنية الجامعة التي تؤلف بين شتى العناصر والمذاهب ، كذلك فعل في ادارة مجلته وتحريرها . والذي يطالعها اليوم يجدها معرضاً حافلاً بحوادث العالم السياسية والعلمية ، وانباء الوطن الاجتماعية والأدبية ، ومرجعاً هاماً لدراسة القرن الماضي وشتى مناحيه المادية والمعنوية .

ومن المعلوم ان «الجنان» لم تكن اولى المجلات العربية . فقد سبقها الى عالم

الظهور صحف اخرى : مثل «الجوائب» لاحمد فارس الشدياق وكانت تصدر في الاستانة ، و « يعسوب الطب » ، و « روضة المدارس » وكانتا تصدران عن بعض الادارات الحكومية في مصر . ولكنّ « الجنان » هي اولى المجلات الشعبية (غير الحكومية) في البلدان العربية . فهي من هذا القبيل تعدّ رائدة المجلات الوطنية ، ومرآةٌ صادقة لما كانت تفكر به ، او تشعر به الطبقة المتعلمة من الشعب. فجدير بنا ان نقف قليلاً هنا لنسجل بعض ما تعكسه لنا هذه المرآة الأدبية . من مناحي الحياة في ذلك العصر .

المنحى القومي : ويظهر ان بطرس البستاني لم يتولَ بنفسه مهام امورها الانشائية والادارية ، بل عهد ذلك لابنه الشاب سليم [1] . على ان الوالد كان ينفث فيه روحه وافكاره ، وكان يوجه ابنه في السبيل الذي اختطه لخدمة وطنه وامته .

وقد اتفق الوالد المنشيء ، والابن المحرر ، على الاخلاص للدولة ، والاهتمام بتنوير اذهان الجمهور ، والسعي لترقية الحياة الشعبية . ولا يسع الناظر في ما كان يصدر عن قلم التحرير الا ان يعجب بما يتجلى فيه من حسن تعليل للحوادث وتفسير لبواطن الأمور . خذ مثلاً على ذلك افتتاحية عدد كانون الثاني سنة ١٨٧٦ حيث يتناول الكاتب مواقف الدول الكبرى ومقاصدها السياسية ، وما دفعها الى زيادة التأهب الحربي، وكيف أثر ذلك في الحالة الاقتصادية العامة.

وقد كان في السنة المذكورة مجال واسع للاحاديث السياسية والتعليق عليها، ففي خلالها نشبت الحرب بين روسيا والدولة العثمانية ، وفيها اعلن اول دستور نيابي للدولة، وكان الجنان في مقدمة الذين عنوا بحوادثها فجاءت مقالاته متتابعة عن تلك الحرب وما كان لها من تأثير بين سائر الدول . وهذه المقالات مشبعة بالروح الوطنية والغيرة الشرقية ، وهي تحمل الى قرائها الحقائق مبتعدة عن

١) راجع قول المقتطف مج ٨ ص ٣

التمويه . معتمدة الصراحة في معالجة الداء ووصف الدواء . وتبرز هذه الروح الوطنية في جميع اقواله عن الشرق والغرب كقوله من فصل [1] : « انفع الكتابات ما كشف القناع عن وجه غادة الحقائق للميل عن السبل المعوجة ان ظهر اعوجاج ، وللاستمرار في طرق الصواب اذا ظهرت استقامة الاحوال . فالغريب يعذرنا في ذلك وابناء الوطن يثنون علينا » ويتقدم من هنا الى ذكر ما حدث في الشرق « من انقلاب في الافكار ، والعادات ، والأحكام ، والمشارب والمعارف، والتجارة والمالية وذلك بتأثيرالغربيينالذين وجهوا افكارهم وقواهم الى البلاد الشرقية ، ورغبوا في احراز ثروتها ومشاركة أهليها في ما تنتجه، فافتتحوها عن طريق الحرب او عن طريق التجارة ». ولا يقصد البستاني أن يهجو الغربيين او يندد بهم ، ولكنه كما يقول يود اظهار الواقع ، مقرّاً : « بأن حذق الاوروبيين ، واقتدارهم ، ومعارفهم ، وعلوّ هممهم ، قد مهّدت لهم وعورنا وسهلت جبالنا فعبروها وحلوا في ربوعنا ، ولا يلامون على ذلك ، كما انهم لا يحق لهم ان يلوموا سلفاءنا الشرقيين الذين كانوا مصباح العالم في القرون المتوسطة ففتحوا بالسيف والتجارة ، ونفذت سطوتهم في البلدان المحيطة بالبحر المتوسط وامتدت في الغرب الى الداخلية ، وفي افريقية استولت على السواحل الشرقية والجنوبية ... فمجاري الأمم الطبيعية تسوقها الى التوسع والتمدد » .

يشعر البستاني بفوز الغربيين ، ويتساءل ما اثر ذلك الفوز في حياتنا المادية والادبية ؟ وهنا يحاول أن ينذرنا بأن ظواهر الرقيّ المادي الذي احرزه الشرق بتأثير الغرب ليس بدليل راهن على التقدم الصحيح ، فهذه الظواهر قد تكون « كالدم الذي يلحسه الهر على المبرد » . اما التقدم الصحيح عنده فهو الوصول الى اسباب القوة القائمة على العلم ، التي تضمن للشرقي استمرار النجاح والربح والاتقان ، وتحرّره من الآفات الاجتماعية كالتعصب الديني والتحزبات المضرة ،

١) الجنان ١٨٧٦ ص٧٤٢ .

والاستبداد والخلل في النظام وما شاكل . يقول :

«ولا يخفى ان الاروبيين جاءونا ، في بادىء الامر ، بقوتين وهمـــا : قوة تجارية ، وقوة دينية ، وانتشر الفريقان (اي تجارهم ودعاة مذاهبهم) بيننـــا واجهدوا انفسهم في تغيير عاداتنا ، وقواتهم السياسية تعضدهم وتسعفهم لتصونهم من عواقب كرهنا لهم ، وليروّجوا اشغالهم بنفع ممالكهم» . وهو يرى ان وجودهم لم ينفع غير فئة قليلة . اما الكثرة من السكان فلم يجنوا اقل نفع بل انفقوا اموالهم في سبيـــل الحصول على مقتنيات كانوا في غنى عنها ، او كان بالامكان الحصول عليها بواسطة صناعتهم التي اصبحت الآن في خبر كان . فنشأ عن ذلك فقر عظيم ، ودخلت ربوعنا الشرقية عوائد مفسدة مضيّعة للاموال ومضرة بالابدان . ويعلل ذلك «بأن مقاصد مدارسهم دينية ، وقلما علمت ما يقوم باسباب المعاش الا باستخدام لغة اجنبية ، او بتعليم ما تعلمه الانسان مما لا يأتي باتقان صناعة او يعمل بضاعة . ولم يأت ذلك بتضعيف التعصب، ولا ازال الشقاق ولكنه كثّره . وقد انتفعت الاقلية التجارية انتفاعاً موقتاً لا يوازي جزءاً واحداً من مائة جزء من اضرار اخراج المال . فكنا (مثلاً) ننسج حريرنا ونلبسه وكذلك صوفنا وقطننا ، اما الآن فأرباح نسجه تخرج من بلادنا» . وبعد ان يذكر ان حاجاتنا كانت قبلاً بسيطة تسدها صناعتنا يستدرك بما يلي :
«ولا نقول اننا نفضل البقاء على تلك الحال على اقتباس تمدن الاوروبيين ولا يتمنى ذلك غير كل من يجهل اسباب التقدم الحقيقي ويفضل الظلمة على النور . غير اننا قد جعلنا مقابلة بين الحالين لنبين انها غير موافقين فنبحث عن الحـــالة الموافقة لعلنا نفوز بالوصول اليها ونتخلص من آفة سلب اموالنا» .

والحالة الموافقة عنده ان نهتم باسباب الدخل قبل الاهتمام باسباب النفقة، وان لا نغتر بالحصول على ظواهر التمدن قبل الحصول على اسبابه الحقيقية وقبل ان نوطد قوتنا وغنانا . هذا من حيث علاقة الشرقيين بما تقدمه لهم حضارة الغرب من أسباب التقدم المادي . امـا من حيث علاقتهم بالغربيين انفسهم ، فهو مع

انكاره الشديد لتبجحهم وادعائهم انهم قد احسنوا الينا وانهم انما جاءوا ليحسّنوا حالنا، وعدم اعترافهم بأن «صوالحهم هي التي ساقتهم الينا» لا يرى اننا نستطيع تجنب مدنيتهم الطاغية على العالم . ولذا كان القرب منهم انفع من الابتعاد عنهم اذ بذلك نتمكن من درس ادقّ لأسباب تقدمهم فنتعلم منهم كما تعلموا هم من اسلافنا في اسبانيا وسواها . يقول : « ولما كان روح العصر يدعو الى اختلاط الامم ، ومبادلة الاشغال، والقيام بالصلات التجارية وكان التقدم بدون ذلك ضرباً من المحال بعد ان صارت الدنيا كأنها عائلة واحدة كثيرة الاعضاء ، كان لا بد لنا من ان نجد الوسائط اللازمة لنصون انفسنا من اضرار الاختلاط لننتفع به كما ينتفع سائر الامم،فنبيعهم ما هو اوفر عندنا مما هو عندهم، ونشتري ما هو اوفر عندهم فنربح منهم ويربحون منـــا ، ولا نكون نحن النبع وهم الحوض الذي تجري مياهنا اليه فتجتمع فيه . ولا يتم ذلك الا باجتهاد الاهالي ومساعدة الحكومة» .

وفي هذا المقال وكثير سواه يتجلى للمطالع تلك النزعة الشرقية التي تسود «الجنان» والتي ترمي الى توطيد الكرامة القومية والاعتزاز بالوطنية بعد ان شاع في الشرق الاعتقاد بأفضلية الغربيين وتفوقهم المادي والمعنوي ، حتى اصبح هذا الاعتقاد عقدة نقص عند الشرقيين يحملهم عموماً على التذلل للاجانب والانقياد لهم والتشبه الاعمى بهم والاعتراف لهم بالامتيازات الخاصة . وظل الأمر على هذه الحال حتى عهد الدستورالعثماني سنة ١٩٠٨ حين تحركت في نفوس الوطنيين روح الاباء القومي كما كانت قد تحركت قبلاً في اليابان وخصوصاً بعد قهرها لروسيا سنة ١٩٠٤ — ١٩٠٥ . فصار الشرقي يتغنى بالعزة ويتحدث عن الكرامة الذاتية . ولقد حملته الحماسة يومئذ الى درجة التطرف حتى صار يتجهم للاجانب وينتقصهم ويدل بقوميته ازاءهم[1] . وقد كان محرر «الجنان» من اولئك القلائل الذين دأبوا ان يغرسوا في صدور الشرقيين عزة النفس ، تلك الغرسة التي اينعت في العهد الدستوري المذكور اي بعد احتجاب «الجنان» بنحو ربع قرن . كان

١) راجع تفصيل ذلك في كتابنا : الاتجاهات الادبية في العالم العربي الحديث ص ٥٨ ـ ٧٤

يفعل ذلك لا بروح الثورة الدموية او النقمة العنصرية، بل بروح البحث والنظر الصادق والغيرة الوطنية المتزنة ، التي تعي الامور وعياً صحيحاً وتربط بين الاسباب والنتائج ربطاً محكماً ، وتحاول الاصلاح بتنوير الاذهان ، وكشف الحجب ، وتقرير الحقائق ، والاعتماد على المنطق والبرهان .

المنحى الاجتماعي :

نشأت مجلة «الجنان» والعالم العربي يتلمّس طريقه نحو الرقي والازدهار . نعم كان قد خطا بعض الخطوات الى الامام ، ولكنه لم يزل متخلفاً عن الامم الراقية . فالاميّة ، والتقاليد البالية ، والمعتقدات الغريبة كانت تسود معظم البلدان العربية . ولم تكن حالة المرأة مرضية لا من جهة تربيتها العلمية، ولا من جهة حقوقها العمومية . اضف الى ذلك سوء العلاقات الطائفية وما نشأ عنها من تعصب وضغائن واضطرابات . فلا بدع ان نرى الصحافة الحرة ، وهي لسان الطبقة المستنيرة، تتوجه الى المناداة بالاصلاح وتشدد على وجوب الاقتداء بالأمم الغربية المتقدمة . وهي وان كانت غير عمياء عن مضار هذه المدنية الغربية الحديثة ، لا يسعها إلا ان تقف الى جانبها مُهيبة بالناس ان يسيروا في طريقها ويستنيروا بنورها .

وقد كانت « الجنان » في طليعة الصحف التي حملت مشعل الدعوة الى العلم ومحاربة الاوهام والخرافات ، مطالبةً بوجوب ترقية المرأة لتكون شريكة صالحة للرجل في انشاء العائلة الصالحة والوطن الكريم .

ينظر محرر « الجنان » في كثير من اقواله الى ماضي الامة العربية المجيد ، ويقابل ذلك بما صارت اليه ، وكيف استولى عليها الظلام فأصبحت متأخرة في مضمار الحضارة . ولكنه لا يقف عند هذا الحدّ ، بل يبحث بطريقته التحليلية التي تسود معظم مباحثه ، اسباب التأخر فيعرضها للقارىء بصراحة ووضوح[1].

١) راجع مثلاً الجنان ١–١٦٠ و ١٦٢

ثم يقول: « اما الدواء الذي يشفي ، فهو العلم الذي يطرد من ذهن الانسان المبادىء الفاسدة ويرسّخ فيها المبادىء الحقيقية . ومن نتائجه الاتحاد ، والمحبة ، وتضحية الصوالح الخصوصية للصوالح العمومية » . وفي مكان آخر يدعو الى مجاراة روح العصر بالتحرر من ربقة الماضي (اي التقاليد البالية الموروثة) ، وخصوصاً في نظرنا الى المرأة التي انما وصلت الى ما وصلت اليه من الانحطاط لعدم انصاف الرجل لها منذ القدم ، فظلت بعيدة عن موارد الحياة الراقية [1].

وينظر الى طبقات الامة وعناصرها ، فيندد بعدم المساواة بينها وطغيان بعضها على بعض ، ويرفع صوته عالياً لازالة الامتيازات العنصرية والمذهبية . ولما اعلنت الدولة العثمانية مبدأ المساواة بين رعاياها في المجالس الشرعية ، كانت «الجنان» من المهللين لذلك ، المتفائلين بما سيكون فيه من خير للجميع [2] .

اما الدين في نظر البستاني فهو علاقة شخصية بين الانسان وخالقه ولا يمنعنا مهما اختلفت مذاهبنا وطرق عبادتنا ، من الاتحاد تحت راية الوطن « كما فعلت ممالك اوروبا بعد ان كان الجهل يثير فيها الاحقاد الدينية والحروب المذهبية [3]» ، بل يمنع مختلف الامم من توطيد اسباب الاتصال حتى ترتبط بربط الصداقة والتعاون ، وفي ذلك يقول على طريقته الخطابية : « أما نحن جميعاً اخوة من عائلة واحدة وابونا واحد ؟ ألم يخلقنا الله سبحانه وتعالى ؟ أما هو ربنا ؟ الا نسكن سياراً واحداً ، محاطين بهواء واحد ، مستنيرين بشمس واحدة ؟ أما هو صالح كل فرد من افراد العائلة البشرية ان يتم هذا الاتفاق ويزول ذلك العدوان ؟ » [4] .

وعنده ان لا سبيل الى الاتحاد الوطني ، والاتحاد العالمي المنشود ، والى

---

١) المصدر السابق مج ١ - ٣٦٩
٢) « « مج ١ - ٤١٧ (مقالة المساواة).
٣) « « مج ١ - ٤٣٥
٤) « « مج ٨ - ٦١

القضاء على الحروب التي يروج لها رجال السياسة والذين ديدنهم ما يؤول الى ضرر الآخرين لانتفاع ابهم» ، الا بالعلم القائم على اسس الاخلاق العالية والعقل الحر من شوائب التعصب والخرافات .

وعلى ذكر الخرافات ، نكتفي هنا باثبات الفقرة التالية من «الجنان» [١] ، سنة ١٨٧٧) :

«وقد تبين ان كل الاعمال السحرية التي فحصت في القرون المتأخرة بنور العلم ، انما هي حيل بشر وخزعبلات اقامها اصحابها ليعيشوا بخداع الناس . ولم يكن اهل اوروبا اقل اعتقاداً بذلك من اهل الشرق. على ان كتّابهم قد اعتنوا بتبيين الحقـائق وكشف الستار عن اكاذيب العرّافين والسحرة حتى انحصر تصديقهم في هذه الايام في قليلين من الجهلة السخيفي العقول . على ان الشرقيين لا تزال اكثريتهم تصدق اعمال الرمل، والكهانة، والعرافة ، والجان، والسحر، وقد تشكّت الجرائد العربية من أولئك الدجالين الذين يموهون عليهم ويخدعونهم لسلب اموالهم مرات عديدة ـ ولا سيا «الجنان» .

ومما يبرز في رسالة «الجنان» الاجتماعية ، الحض على العمل الجـدي ، وترك التفاخر الفارغ بما كان عليه الاسلاف والنهوض من وهدة الكسل القومي .

★

وقد كان يشارك «الجنان» في مواقفها القومية والاجتماعية ، صحيفتان اخريان للبستاني هما «الجنة» و «الجنينة» ، انشأهما محرر الجنـان سليم البستاني . فكانت الاولى صحيفة اسبوعية سياسية تجارية ادبية ، انشئت في نفس السنة التي ظهرت فيها «الجنان» ورافقتها في السراء والضراء حتى انقضى عمرهما معاً . يقول فيليب طرازي صاحب تاريخ الصحافة العربية [٢] : «وقد اشتهرت بصدق المبدأ

١) المصدر السابق مج ٧ — ٧٣١
٢) تاريخ الصحافة ٢ — ١٠

وانتقاء الاخبار الصحيحة ، وجلب الانباء البرقية لحسابها الخاص عند اللزوم . وكان التجار يعولون عليها في اسعار التجارة وسوق القراطيس المالية والحوادث السياسية. وفي الشهر الثاني من ظهورها صارت تصدر مرتين في الاسبوع وظلت كذلك حتى سنة ١٨٨٤ . وبعد وفاة منشئها (في تلك السنة) تحولت الى أخيه نجيب، فأصدرها مدة حولين ثم اوقفها واوقف «الجنان» باختياره مودعاً الصحافة التي خدمتها الاسرة البستانية بما لا يوصف من الغيرة والصدق واعتدال المشرب، وسبب ذلك عنده اشتداد المراقبة واباء صاحبها ان يجعلها آلة في ايدي مأموري المطبوعات او هدفاً للاهواء .

اما «الجنينة» فأنشئت ١٨٧١ ، وهي اول جريدة يومية صدرت باللسان العربي ولم تطل حياتها اكثر من اربعة اعوام [١] .

المنحى الادبي :

من مراجعة الصحف العربية الاولى التي ظهرت في القرن الماضي ومقابلتها بصحف اليوم ، يستطيع الباحث ان يرى مقدار التقدم الذي بلغته الكتابة الصحفية في عصرنا الحاضر . فالصحف الاولى كانت على العموم ركيكة العبارة سقيمة الاخراج ، واقدم مثال على ذلك ما ورد في فاتحة «الوقائع المصرية» التي صدرت في سنة ١٨٢٧ (١٢٤٤ هـ) ومنها :

«اما بعد، فان تحرير الامور الواقعة مع اجتماع بني آدم المتدبجين في صحيفة هذا العالم ، ومن ائتلافهم ، وحركاتهم ، وسكونهم ، ومعاملاتهم، ومعاشراتهم التي حصلت من احتياج بعضهم بعضاً ، هي نتيجة الانتباه والتبصر بالتدبر والاتقان ، واظهار الغيرة العمومية ، وسبب فعّال منه يطلعون على كيفية الحال والزمان .

---

١) المصدر نفسه ٤ — ٥

ومن حيث ان الامور الدقيقة الحاصلة من مصالح الزراعة والحراثة وباقي انواع الصنايع التي باستعمالها يتأتى الرخـــاء والتيسير ، هي اسباب للحصول على الرفاهية وعلى الاجتناب والاحتراز مما ينتج عنه الضرر والاذى خصوصاً في مصر بل هي اساس نظام البلدان وتدبير راحة اهلها، ففكّر حضرة افندينا وليّ النعم في ترتيب احوال البلاد وتمهيدها ، واعتدال امورها وتوطيدهـا ، ووضع ديوان الجرنال قاصداً من وضعه ان ترد الامور الحادثة الناتج منهـا النفع والضرر الى الديوان المذكور ، وان ينتخب وينتقح فيه منها ما منه ينتج النفع والافادة... وهذه الارادة الصالحة الصادرة من حضرة سعادة ولي النعم، وان كانت قدجرت في ديوان الجرنال الى الآن ، الا انها لم تكن عمومية . انما الآن فأراد ولي النعم ان الأخبـار التي ترد الى الديوان المذكور تنقح وينتخب منها مـــا هو مفيد وتنتشر عموماً ، الخ الخ .

فمن هذه الفاتحة يتبين لك ركاكة التعبير في انشاء ذلك العهد. على ان الانشاء اخذ مع الزمن يتقدم تدريجياً ، فلما ظهرت «الجنان» كان قد خطا خطوات تذكر الى الامام بفضل بعض المنشئين المجيدين كأحمد فارس الشدياق صاحب «الجوائب» وكان لغوياً قديراً. ولكن اكثر الكتبة لم يكونوا كالشدياق فظلت الكتابة الصحفية عموماً ضعيفة، وهذا الضعف تلحظه في الصحف البستانية يومئذ كما تلحظه في سواها .

كانت غاية البستاني على ما يظهر ، استخدام المعرفة لرفع مستوى الامـــة اجتماعياً وفكرياً ، فلم ينصرف الى الناحية الفنية في الكتابة التي كان في عصره يتوخاها اقطـــاب اللغة والادب ، بل انصرف الى النـاحية الاصلاحية العملية متوخياً الوصول الى اذهان الجمهور كاشفاً لهم حاجاتهم ومبيناً لهم السبل المؤدية الى تحسين حالهم . كل ذلك بلغة بسيطة كثيراً مـــا يشوبها شيء من الوهن في التعبير . كقوله مثلاً في فصل موضوعه «الشرق»[1]: « ان الشرق الذي كان في

---

١) الجنان ١-١٥

القديم مركزاً للذوق والرونق ، وقد انعم على العالم بالديانة والشرائع والتمدن، أمسى بواسطة سطوة التعصبات والثورات المسببة عن الاغراض والانقسامات في حالة الجهل والغباوة ، وفقدت شعوبه كثيراً ممـــا كان لها من الحماسة والهمة ، ووصل الى درجة منحطة في امر المعارف والصنايع ، وغدت الزراعة التي هي من اعظم اسباب الثروة تندب مـا كان لهـا من النشاط والاتقان المؤسسين على المبادىء الصحيحة والمحفوفين بحرّاس حسن السياسة التي كان يقيها هجمات اصحاب المطامع والارواح غير الهادية » .

ولا تخلو مجلة «الجنان» من محاولات يسودها التكلف البياني المستثقل كقول محرره سليم البستاني من فصل موضوعه الغد[1] : « لولا الموت لكان للحظ في جنان الغد قصور ، وكان شهد العيش يحلو كلما طوت ايامها الدهور . لأن في الغد نوال الآمـال ، وفي الغد للمعـالي والرتب نوال » الخ . وأغرب من ذلك قول احدهم مقرّظاً « الجنان » حين ظهوره ، نثبت استطراداً بعضه هنا لتبيان ما كان يسود الفن الادبي في ذلك العهد من تصنّع ، وما كان يرهقه من اغلال. يصف الكاتب نفسه في حديقة زهور وفواكه ، ثم يقول : « فرأيت رمّـان العلوم ينشقّ عن مثل الجمان ، وتفاح الادب ، ونرجس المُلح عن وصف ذاتها بترجمان ، وورد الاخبار قد تأرج النسيم بأرجائه، ورفل بحلل الجمال ، فانذهلت أيّما انذهال . واذا بهزار ناداني بلسان الحال : مالك يا هذا وقفت مندهشاً حيران ؟ ألم تعلم ان البستاني وابنه بأيديهما قد غرسا هذه الجنان » الخ .

مثل هذا التصنع المستثقل قد تقع عليه هنا وهناك في الجنان ولكنه قليل . فالبستاني رجل علم وعمل ولذا ترى مجلته على العموم ذات انشاء صـــالح للعلم والعمل وان بدا ضعيفاً بالقياس الى انشاء الجيل الذي تلاه كأديب اسحق وطبقته من الصحفيين وارباب الاقلام .

هذا من حيث العبارة اللغوية . اما من حيث الفن الادبي فان «الجنان» قد

---

١) الجنان ١ - ٦٧٣

عنيت بأمرين رئيسيين : المقالة والقصة . وقد اشرنا الى المقالة وما تعكسه من حياة القرن الماضي. بقي ان نقول ان القصة تشغل حيّزاً كبيراً من مجلة الجنان. والفضل في ذلك راجع الى البستاني الابن الذي ضرب بسهم وافر فيها وهو يعدّ من روّادها . فقد نشر نحو عشرين قصة منها الموضوع ومنها المترجم ، وبعضها طويل جداً كان ينشر تباعاً في اعداد المجلة طوال السنة بل قد يتجاوزها الى سنة تالية . وله طريقة خاصة في رواياته ، فهو يمهّد لكل منها بمقدمة حِكَمية او اخلاقية كقوله مثلاً في مطلع روايته «فاتنة» المنشورة في المجلد الثامن :

« لو انصف الدهر لجعل اللطائف للّطيف ، والحسناء للجميل ، والذهب للمحسن ، والمجد للمتضع ، والسيف للعادل ، فتنقرض دولة البغاة والمتكبّرين ، والبخلاء والثقلاء » الخ الخ.

ثم يتحدث عن الدهر وتقلّباته التي لا ترحم ابداً ويصف الرواية بقوله :

« انها عرض تجارب تثقف العقول ، وتلطّف الاخلاق ، وتبعد عن الهفوات ، وتقلل السقطات ، وترغم انف العاتي الصلف ، وتقوي قوة التمييز وتشدد الادراك . ولذا عمدنا الى كتابة اخبار الذين تدرج اسماؤهم في هذه الرواية لتكون اعمالهم قدوة » الخ .

ورواياته عبارة عن حكايات ذات حوادث مدهشة ومفاجآت غريبة ، واحاديث اجتماعية واخلاقية يراد بها ، العبرة والفائدة . واكثرها ينتهي نهاية سعيدة يتغلب فيها الحق على الباطل ، وينتصر الحب على مقاوميه . وذلك بعد ان يتعرض ابطالها لشتى المحن والاخطار . وقلّما تعنى بالوصف الدقيق للمجتمع والنفاذ الى اعماق الحياة واغوار النفس بطريقة فنية موحية ، دون ان تسكب في قالب تعليمي أو توجه في سبيل دعوة خاصة . فروايات « الجنان » مسلّية ومفيدة ولكنها ليست ذات روعة فنية . وقد اصاب محمد يوسف نجم اذ وصف اسلوبها بقوله : « اما اسلوب الكاتب فهو فاتر حتى في اشد المواقف حرارة ... فهو ينظر الى العواطف والانفعالات بمنظار المصلح الاجتماعي الذي يهمه منها

نتيجتها التهذيبية اكثر مما تعنيه حرارتها وصدقها »[1] .

اما البستاني الأب (اي بطرس) فلا نعرف من اوضاعه القصصية الا ما دوّنه من اخبار اسعد الشدياق وهو من باب السيرة التاريخية لا باب القصة[2] . قال في مقدمة هذه السيرة :

لا يخفى ان كثيرين من ابناء هذه البلاد والاجانب قد سمعوا باسم اسعد الشدياق وعرفوا بعض الامور من قصته . وذلك في الغالب من افواه قوم متعصبين له او عليه فلم يتيسر لهم الوقوف على الحقيقة . وقد داخل قصته اوهام كثيرة واقاويل شتى عديمة الصحة » .

الى قوله : « واذ قد رأينا كثيرين من ابناء هذا الزمان يرغبون في الوقوف على الحقيقة من هذا القبيل ، صرفنا مدة في التفتيش باجتهاد عن اخبار حياته ، فجمعنا كتابات كثيرة — منها بخطّه ومنها بخط من يوثق به من ابناء الطائفة التي خرج منها (اي المارونية) وغيرهم . وبيّنا ما ثبت عندنا صدقه من ذلك متجنبين الغرض والاميال النفسانية ما امكن » .

وبعد هذه المقدمة يأخذ بسرد اخبار الشدياق وكيف اتصل بالمرسلين الاميركيين ، وما كان لذلك الاتصال من اثر في اعتناقه المذهب الانجيلي . ثم ما اصابه من اضطهاد على أيدي الرؤساء حتى مات سجيناً معذباً في احد الاديرة ، وهو في الحادية والثلاثين من عمره .

والقصة مكتوبة بلغة سهلة بسيطة وهي مبنية على مصادر وثيقة كما ذكر في مقدمتها ، وفي ختامها يقول مخاطباً القارىء : « فها قد انتهيت الآن ايها القارىء العزيز من تلاوة قصة اسعد الشدياق ، واطلعت فيها على امور كثيرة مما احتمله لأجل الديانة التي هي اثمن حقوق الانسان واعزّها ، وعلى شيء من القساوات والتعديات الكثيرة المتنوعة التي حصلت عليه لأجل نزع الحرية وترك الاجيال

١) القصة في الأدب العربي الحديث ص ١٠٤

٢) طبعت هذه السيرة اولاً سنة ١٨٦٠ وثانياً ١٨٧٨ .

المستقبلة مقيدة بسلاسل العبودية . واني لمتحقق بأنك قد مدحت صبره ووداعته وتسليمه لله ، ورجاءه وثبات ايمانه ، ونشاطه وشجاعته حتى الموت . »

*

ولنرجع الآن الى « الجنان » فنقول : ان هذه المجلة كانت ميداناً لأقلام الكتاب والمفكرين في ذلك العهد . ومنهم الدكتور كورنيليوس فانديك الذي كان يوافيها بالمقالات العلمية . ومن الكتاب الوطنيين ابرهيم اليازجي ، وخطار الدحداح ، وسليم دياب ، ونوفل نوفل ، واديب اسحق ، وجرجي يني ، واسعد طراد ، وابرهيم الحوراني .

ومن القصصيين عدا محرّرها سليم البستاني : نعمان قساطلي ، وجميل مدوّر وسواهما . ومعظم هؤلاء الكتبة والقصصيين من اعلام الادب في القرن الماضي .

في ميدان اللغة :

ولئن لم يكن البستاني منصرفاً كلياً الى علوم العربية كما كان اليازجي والشدياق واهل طبقتهما ، فان له في خدمة اللغة وآدابها ما ينفرد به دونهم. فقد كان من اوسعهم اطلاعاً على اللغات الاخرى ، لا يدانيه في ذلك غير الشدياق . تعلم السريانية والعبرانية واليونانية واللاتينية ، فضلًا عن الانكليزية والايطالية والفرنسية ، فاتسع لديه افق المعرفة ، وكان ذلك اكبر معين له على ما قام به من ترجمات علمية واسعة، ومن تدقيق في ضبط الكثير من الاوضاع والمصطلحات الاعجمية .

واول ما يذكر له من عمله في حقل الترجمة، مساعدته للمرسل الاميركي عالي سمث (Ely Smith) في نقل التوراة من العبرية ، ثم للدكتور كورنيليوس فانديك الذي تولى اتمام ترجمة التوراة بعد وفاة «سمث» . فكان البستاني رفيقه الملازم في هذا العمل العظيم .

ومن هـذا الباب نقله الشيء الكثير من اللغـــات الاجنبية الى موسوعته المعروفة بدائرة المعارف . وقد صرح بذلك في مقدمتها اذ قال منوّهـاً بفضل الافرنج : «فقد نقلنا عنهم اطايب ما عندهم مما تلذ معرفته ، وتفيدنا مطالعته ، واضفنا الى ذلك اموراً شتى قد خلت كتبهم منها . فلهم علينا فضل الاسبقية ، كما ان لياقوت الحموي، وابن خلـّكان ، وابي البقاء، والدميري ، وابن البيطـار وكثيرين غيرهم من علماء العرب الاعلام، فضلاً عليهم وعلينا في هذا الباب». الى ان يقول: «وقد عولنا على الانسكلوبيديات الافرنجية الحديثة ، واشهر المؤلفات العربية والافرنجية من تاريخية ، وجغرافية ، وصناعية ، وعلمية ، وادبيـــة ، وسياسية ، وهلم جراً ، نقلاً وترجمة وتلخيصـــاً مع زيادات وايضـــاحات وملاحظات اقتضاها المقام ... ولكي نربط معارف اللغة العربية بمعارف لغـات اوروبا قد كتبنا الاعلام العربية بحرف افرنجي ، وترجمنـــا المواد الى اللغتين الفرنساوية والانكليزية» .

فالترجمة عند البستاني كانت باباً واسعاً لنقل المعارف الحديثة الى اللغة العربية بل عليها كان معوله في اكثر ما حمله الى مواطنيه من اسباب الحضـارة الجديدة التي كان حريصاً جداً ان يخدم وطنه العربي بواسطتها .

وفي نقله ما نقل من كتب ورسائل وفصول كان دائماً يتوخى سهولة اللغـة وبساطة التعبير. وهذا ما حدا احد النقاد الحديثين ان يقول في اسلوبه: «يذكرني اسلوب المعلم بطرس البستاني بتراجمة العصر العباسي الذين اغنوا النهضـة الاولى علماً ومعرفـة . ليس للمعلم بطرس بلاغة الكتاب الكبار ، ولا ابداعهم ولا صحة تعابيرهم، فهو مترجم وناقل وقد اصاب فعلاً لان البلاغة وان كانت تنقصنا في ذلك العصر، فقد كنا احوج الى الفنون الحديثة وعلوم العصر الجديدة»ــ الى قوله : «فمن يقرأ آثاره (آثار البستاني) ـ جرائده ، ومجلاته ، وتآليفه يجد ان هذا الرجل العظيم القدر ، الفذ الهمة ، كان يهمه ان ينقل الى لسان العرب مـا ينفع ويفيد ، وأن يجدد طريقة التصنيف، وحبه التسهيل في كل ميدان حمله على

الكتابة بالاسلوب الذي اعتمده التراجمة النصارى في عهد هارون (الرشيد) والمأمون وغيرهما»[1] .

ويقصد الناقد بذلك ان البستاني استخدم الاسلوب البسيط الموافق لاذواق وفائدة جمهرة القراء ، دون الاهتمام بما كان يتكلفه المترسلون من تأنق بياني وتقارب انشائي وصناعة بديعية .

واذا نظرنا الى اعماله اللغوية برز لنا منها اثنان رئيسيان هما «محيط المحيط» و «دائرة المعارف» . ولهذين الكتابين اثر يذكر في تاريخ الادب العربي الحديث . وها نحن نعرض كلاً منهما باختصار ، لنتبين ذلك الاثر ، ولنرى الجهد الجبار الذي بذله البستاني في هذا المضمار .

محيط المحيط :

مرت المعاجم العربية حتى عهد البستاني في اطوار شتى . فالطور الاول كان رائده الخليل بن احمد واضع كتاب «العين» . وكانت طريقته في هذا المعجم ترتيب الحروف ابتداء بالحلقية منها واولها العين ، ثم التقدم تدرجاً نحو الشفهية حتى تنتهي بحرف الواو فالياء .

وعلى هذا الترتيب يتناول الالفاظ فيقلّبها بتغيير مواضع الحروف فيها ، مبتدئاً بالثنائي المضاعف ، فالثلاثي الصحيح ، فالثلاثي المعتل ، فالرباعي المجرد، فالخماسي المجرد. فاذا طلبت مثلاً لفظة (شرع) فانك تجدها في باب (عشر) حيث تجد ايضاً مقلوباتها : عرش ـ شعر ـ رشع ـ شرع . وقس على ذلك سائر الالفاظ . وتبع الخليل في هذا الترتيب جملة من اصحاب المعاجم . كالقالي في «البارع» ، والازهري في «التهذيب» ، وابن سيده في المحكم ، وابن دريد في الجمهرة .

---

١) رواد النهضة الحديثة لمارون عبود (١٩٥٢) ص ١٦٠ .

والطور الثاني ظهرت فيه المعاجم على الترتيب الابجدي ومنها الصحاح للجوهري ، والعباب للصّغاني ، والقاموس المحيط للفيروزابادي ، ولسان العرب لابن منظور ، وتاج العروس للزبيدي وسواها .

وهي تتناول الالفاظ بعد طرح الزوائد باعتبار الحرف الاخير مع التقيد بالحرف الاول. فلفظة تبجح مثلاً ومجردها بجح تجدها في حرف الحاء فصل الباء. وهكذا سائر الالفاظ .

والطور الثالث طور الترتيب الابجدي باعتبار الحرف الاول دون التقيد بالحرف الاخير. وهو ما جرت عليه المعاجم الحديثة. على ان المحدثين لم يبتدعوه أو يسبقوا اليه، فقد بدأه الزمخشري (٥٣٨هـ) في اساس البلاغة، وتلاه الفيومي (٧٧٠هـ) في المصباح المنير . ولكن الزمخشري اختصر المتون وعني من الالفاظ بالاستعمال المجازي .

ثم جاء بطرس البستاني في القرن الماضي فوجد الحاجة ماسة الى معجم يفي بحاجات الكتاب ويجمع بين سهولة التناول وجودة الترتيب ، مع ما يتطلبه تقدم العصر من اضافات في بعض الابواب . فوضع قاموسه «محيط المحيط» على الطريقة الابجدية المستقيمة ونشره سنة ١٨٦٩ ، وهاك ما قاله في فاتحته :

«لما كان هذا الكتاب يحتوي على محيط الفيروزابادي وعلى زيادات كثيرة عثرنا عليها في كتب القوم ، وعلى ما لا بد منه لكل مطالع من اصطلاحات العلوم والفنون سميناه «محيط المحيط». فترى ان البستاني اتخذ قاموس الفيروزابادي اساساً ثم اضاف اليه ما رآه نافعاً للكتاب من الاوضاع الجديدة .

ولما اتم وضعه قدمه للسلطان العثماني عبد العزيز فنال رضاه ومنحه جائزة تأليفه وساماً عالياً ، ومئتين وخمسين ليرة ذهبية معونة له على نشره . ومنذ نشره اصبح معوّل ارباب الاقلام ولا يزال حتى وقتنا الحاضر . ويعدد جرجي زيدان مزاياه فيذكر منها ما يلي :

١ — انه ذكر فيه كثيراً من الالفاظ العامية وفسرها بالالفاظ الفصحى .

٢ ـ انه اوضح كثيراً من اصول الالفاظ الاعجمية كان اصلها مجهولاً او مهملًا .

٣ ـ انه ادخل فيه كثيراً من المصطلحات التي حدثت في اللغة بنشوء العلوم الحديثة .

وقد اصاب زيدان في ما عدد له من مزايا. الا ان البستاني ظل يتابع القدماء من اصحاب المعاجم في امرين رئيسيين: احدهما اعتماده التجريد في ترتيب الالفاظ فلا بد لطالب لفظة من ان يعرف اصلها المجرد لكي يهتدي الى موضعها في القاموس . على انه بعد الوصول الى المجرد يصبح «محيط المحيط» اسهل تنظيماً مما تقدمه ، اذ يتدرج بانتظام مطرد من المجرد الى المزيدات ثم الى الاسماء .

والأمر الثاني عدم جرأته على تفصيح ما تولد من الألفاظ بعد عصر الجاهلية وصدر الاسلام، ولذا تراه بعد ان اتم طبع الجزء الأول حتى نهاية حرف الراء، يقف قليلًا ليقول معتذراً : «وقد اضفت الى اصول الأركان فروعاً كثيرة وتفاصيل شتى، وألحقت بذلك اصطلاحات العلوم والفنون . وذلك لكي يكون هذا الكتاب شاملًا يجد فيه كل طالب مطلوبه . وبهذا الاعتبار تنازلت الى ذكر كثير من كلام المولدين والفاظ العامة منبهاً في أماكنها على انها خارجة عن اصل اللغة، وعسى بذلك ان يتمهد لي العذر في هذا التساهل الذي ارتكبته»

فترى من اعتذاره انه يجاري المتقدمين في نظرهم الى الالفاظ المولدة مع انه يعتبرها ضرورية للكتاب واهل العلم . ولقد تقوده هذه المجاراة الى الاغضاء عما استجدّ من معان لبعض الالفاظ، او عما استحدث من الفاظ لبعض المعاني. ومن ذلك هذه الالفاظ التي تغير مدلولها مع الزمن ، ومع ذلك فهو يثبتها كما اثبتتها المعاجم القديمة ومن امثلتها :

الخصائص (اي الصفات المميزة). اما في «محيط المحيط» فهي جمع خاصية التي هي نسبة الى الخاصة دون العامة .

المحاضرة (الخطبة العلمية) وهي في المحيط الاجابة بالجواب الحاضر او المجالسة الخ .

التطور (التحول من طور الى طور) ولا ذكر لهذه اللفظة في المحيط .

الفنان (اي ذو الفن) ولا تزال في المحيط حمار الوحش له فنون من العدو .

الصحافة (الحرفة الادبية المعروفة) لا ذكر لها بهذا المعنى .

الجريدة (الصحيفة اليومية) ليس في القاموس بهذا المعنى المعروف اليوم.

المخابرة (المفاوضة في الامر) يذكرها البستاني ويعقب عليها بقوله: مولدة

وقس على هذه الالفاظ كثيراً مما اصبح من صميم اللغة في الوقت الحاضر وهو لا يزال خارج القاموس .

على اننا قد نجد في «محيط المحيط» الفاظاً لا نجدها في قاموس الفيروزابادي او سواه ، امثال : اكتشف بمعنى كشف ، واقتطف بمعنى قطف .

ومن الانصاف ان ننوّه بتحقيقه لاصول بعض الالفاظ الاعجمية وذكره للكثير من الاوضاع الجديدة والمصطلحات العامية مما لا ذكر له في المعاجم السابقة . وقد اعانه على ذلك اطلاعه الواسع على عدد من اللغات كما ذكرنا آنفاً . واليك بعض الامثلة :

فمن الالفاظ المعرّبة التي يستعملها الكتّاب ويرجعها البستاني الى اصلها مايلي:

الطنفسة (وجمعها الطنافس) معرب تنبسة بالفارسية ومعناها البساط والحصير الخ.

الاسطورة — وهي يونانية واصلها استوريا .

السطل — اناء من نحاس معرب شطل بالفارسية .

التوراة — عبرية ومعناها شريعة او وصية .

التلغراف— يونانية — آلة تبلغ الاخبار عن بعد ومعناها الكتابة عن بعد .

الاسطول— اعجمية معناها طائفة من السفن .

المسيح – لقب الرب يسوع وهو بالعبرانية مشيح ، وبالسريانية مشيحا ، وباليونانية خريستوس ، ومعناهن : الممسوح من الله .

الصك – الكتاب او كتاب الاقرار بالمال او غيره، قيل عربي، وقيل فارسي. معرب : چك .

القولنج – مرض مؤلم في المعدة معرب كوليكوس باليونانية وهي مشتقة من كولون اسم للمعى الكبير .

الطاولة – ايطاليانية ومعناها المائدة .

ألاسكلة – ايطاليانية ، اي الميناء .

الصقالة – ايطاليانية ومعناها السلّم .

دشّن – فارسية من (دُشن) اي الثوب الجديد لم يلبس او الدار الجديدة لم تسكن ، ومنه قولهم دشّن الثوب او غيره . اذا استعمله ابتداء قبل ان يستعمله احد وبعضهم يقول (خشنة) .

الاسقوريون–يونانية معناها مزيل الصفيرة ، نبات يعالج به اليرقان .

ومن الالفاظ التي يستعملها العامة دون الكتاب :

التنجرة – تركية ، وهي القدر من النحاس .

كرّوسة – افرنجية . اداة ذات دواليب تركب وتجر الأثقال (العربة) .

التياترو – ايطاليانية وهي مرسح (مسرح) اللعب .

الحجّة – ومعناها صك البيع الذي يكتب للشاري .

هجّ – تستعملها العامة في مثل قولهم : هج من الجور ، اي نفر .

الكرَستة – عامية ما هيىء للشغل من المواد كالخشب للنجار والنعال للاسكاف . وكثير غيرها .

ولا يخفى ان الألفاظ العامية التي يذكرها في المحيط معظمها من الشائع في سوريا ولبنان .

وعلى كلٍّ يصح القول ان البستاني قد خطا في سبيل التجديد اللغوي خطوة الى الامام . ومهما تكن هذه الخطوة فقد مهد بها السبيل لمن بعده من العاملين في حقل اللغة ، الساعين لاحيائها وانمائها .

ولا يسعنا الا ان نعترف أن «محيط المحيط» يحتاج الى بعض التنقيح والاصلاح . وقد نبه الى ذلك الشيخ ابرهيم اليازجي في ما علقه على هامش هذا المعجم من مآخذ واصلاحات . وهذه المآخذ والاصلاحات نشر قسم منها تحت عنوان « تنبيهات اليازجي على محيط البستاني» [1]. وقد تحريناها فوجدناها إمّا ضبطاً لبعض الالفاظ ، أو تصحيحاً لخطأ في النقل والتفسير ، او استدراكاً على نقص في بعض المعاني .

فمن قبيل الضبط مثلًا ، قول البستاني : اخــذ الخمر فيه ، أي أثّـرت ، وصوابهـا : اخذت الخمر ، لأن التأنيث (كما يقول اليازجي) في الخمر اعرف والتذكير لغة ضعيفة أنكرها الاصمعي .

وقول البستاني : بلبلة الابريق. والصواب عند اليازجي : بلبل . لان البلبلة هي الكوز نفسه .

ومن أمثلة التصحيح ، قول البستاني : مـا له آمٌ وعامٌ . والصواب عند اليازجي : ما له آمَ وعامَ . وهما فعلان للدعاء على الانسان بالبلاء . وامـا الاستفهام (مالـهُ) فهو تعجُّبي لاستعظام الامر .

ومن امثلة الاستدراك ، ان البستاني يأتي بأحد الافعال لازماً فقط مع انه يأتي ايضاً متعدياً . وليس الغرض هنا دراسة تنبيهات اليازجي ، فمن اراد ذلك فليراجعها في مظانها .

وممن حاول تخطئة «محيط المحيط» في بعض ألفاظه فارس الشدياق . لكن البستاني ردّ تخطئته وأثبت صحة ما اورده [2] .

---

١) نشره سليم شمعون وجبران نحاس سنة ١٩٣٣

٢) راجع انتقادات الشدياق في مختارات الجوائب(كنز الرغائب) ٤ ٥٦٧-٥٦٤ ، ورد البستاني في الجنان ١٨٧٢ ص ٨٨ .

ومهما يكن الامر فان هذا المعجم قد خدم الحركة اللغوية في هذا العصر خدمة جلّى ولا يزال يحتل المقام الاول بين المعاجم الحديثة . وفي وصفه يقول المقتطف :

« انه قد ضمّنه الاصطلاحات العلمية ، واستجمع فيه شتات اللغة واستدنى شواردها على اسلوب ليّن ومأخذ سهل . ثم انه اوضح فيه اصل عدة كلمات جهل اصلها أو هجر . وأشار الى كلام كثير عاميّ نفعاً للأعاجم الذين يقبلون على درس اللغة العربية ، فجاء كتاباً واسعاً غزير المادة ، حوى زيادات كثيرة في المواد والتعليل والتفسير . وجعل له مختصراً سمّاه «قطر المحيط» وهذا المختصر يزيد على قاموس الفيروزابادي مادة »[1].

دائرة المعارف :

وهي ، كما قال واضعها ، « قاموس عام لكل فن ومطلب » . ومما لا خلاف فيه ان مثل هذا المشروع العلمي يقتضي من الجهود والمال ما تنوء به همم الجامع ، فكيف برجل واحد يباشره غير هيّاب ويخوض عبابه دون مبالاة بعناء ، فيكمل منه ستة اجزاء ضخمة . وكان ، لولا الموت المفاجىء ، ينوي الاستمرار فيه حتى النهاية . فليس عن تبجّح قوله في المقدمة : « ولا حاجة الى ذكر ما قاسيناه من الصعوبة والتعب في ضبطه ، ولا سيما من جهة الاشخاص والاماكن وعدد الاهالي والقياسات والاصطلاحات ، الى غير ذلك ، وعلى الخصوص في الممالك الشرقية والبلدان التي لا تزال احوالها الصحيحة مجهولة او مشكوكاً فيها . على اننا لم نأل جهداً في التحقيق والضبط والتدقيق ، على قدر ما تقتضيه طبيعة الموضوعات ويحتمله المقام » – الى ان يقول : « ولم يؤخرنا التعب والمصاعب وبذل الوقت والمال عن استخدام ما يلزم استخدامه لكي يكون هذا التأليف

(١) المقتطف مج ٨ ع ١

حائزاً من الاتقان والضبط والدقة مـــا يكسبه رضى العموم وثقتهم وارتياحهم اليه . على اننا لا ندعي السلامة من العثار ، لأن الجواد يكبو والصارم ينبو ، والانسان محل النسيان » .

والذي دفع البستاني الى وضع « دائرة المعارف » شعوره بحاجة اهل العربية الى الاطلاع على المعارف العـامة التي توصّل اليها اهل العلم في كل امة راقية . بيد ان ما يقتضيه مثل هذا العمل الجبار من نفقات جعله يتردد في اول الأمر . ولذا ، رأى انـ يطرق باب الحكومة ، فعرض مشروعـه على اولي الأمر في الدولة العثمانية ، فوعدوه بمساعدات آجلة . ولكن ذلك لم يمكّنه من القيام بما يريد . ودفعته الرغبة والحاجة الى ان يقصد الخديوي اسماعيـل . فلما وقف على مشروعه ، حـاز رضـاه ، فضمن له الاشتراك بألف نسخة من الكتاب . ثم امدّه بمكتبة نفيسة من مطبوعات مصر ليجمـع منهـــا المعلومات اللازمة . وهكذا ، تمكن البستاني من انجـــاز العمـل . فأصدر الجزء الأول منـه سنة ١٨٧٦ ، وتبعته الاجزاء الاخرى سنة بعد سنة ، الى ان اتم الجزء السادس ، وشرع في السابع . حتى اذا وصل الى لفظة « دايرة » ، وافاه الاجل المحتوم في اول ايار (مايو) سنة ١٨٨٣ ، فأدركه وهو بين المكاتب والمحابر ، جادّاً في العلم وخدمة الوطن ، حريصاً على رفع مشعل النور لأبنـــاء زمانه ، ولأبناء كل زمن .

وبعد وفـاته ، شرع بإتمـام عمله ، ابنه سليم . لكن القدر لم يمهله الا ريثما انجز الجزئين ، السابع والثامن (١٨٨٤) . وتعاون بعده ابناؤه الباقون مـع نسيبهم العلامة سليمان البستاني ، فتمكنوا من اصدار الجزء التاسع سنة ١٨٨٧ ، والعاشر سنة ١٨٩٨ ، والحادي عشر سنة ١٩٠٠ ، ووقفوا نهائياً عند هذا الحد فلم يتجاوزوا حرف العين .

والناظر في « دائرة المعارف » يجد فيها برغم تقـادم العهد وتطور العلم ، فوائد شتى . ومن حسناتها ان واضعها لم يجر فيها على طريقة القاموس بالرجوع الى

المجرد ، بل رتب الالفاظ ابجدياً ، سواء جاءت مجردة او مزيدة . فلفظة « مصطفى » مثلاً ، اذا أنت طلبتها في « محيط المحيط » ، اضطررت ان تجردها من الزوائد وترجعها الى اصلها « صفا » ، فتجدها تحت حرف « الصاد » . واما في « الدائرة » فانك تجدها رأساً ، تحت حرفها الاول ، اي « الميم » ، مع مراعاة ما يليه من الاحرف . وتلك طريقته في سائر الالفاظ . وللبستاني في ترتيب الاعلام طريقة نلخصها بما يلي :

١) الاعلام القديمة ، تذكر تحت ما اشتهرت به ، مع الاشارة الى بقية اسمائها في اماكنها . فالمتنبي مثلاً يطلب تحت حرف الميم ، لأن لقبه هذا اشهر من اسمه وكنيته . فاذا طُلبت كنيته (ابو الطيب) في مكانها ، يحوّل الطالب الى لفظة المتنبي ، للاطلاع على ما يريد .

٢) الاعلام المتضايفة ، تطلب عادة في حرف المضاف اليه ، وإلا ، ففي حرف المضاف . وكذلك الاعلام الموصوفة تطلب في حرف الصفة ، «فالبحر الأسود» مثلاً ، توجد تحت الاسود .

٣) الاعلام المبدوءة بابن او أب ، تطلب في حرف ابن او أب .

٤) سائر الاعلام تطلب في حرف العائلة .

ومن قبيل التسهيل على القراء ، اثبت المؤلف في المقدمة جدولاً فيما يقابل الحروف العربية من الافرنجية ، وما يقابل الافرنجية من العربية. واما الاعلام العربية فقد ضبطها بالتشكيل التام ، مع كتابتها بالاحرف الافرنجية .

ولما كان كثير من الاسماء الافرنجية يخالف تعريبها لفظها الحقيقي ، كصقلّية لجزيرة Sicil ، واسوج لـ Sweden ، وكذلك في الاسماء العربية المنقولة الى الافرنجية ، مثل : Averroes لابن رشد ، فقد تبع تارة ما جرى استعماله ، واخرى اصل اللفظ . وقد ينبه على الامرين معاً .

اما المصادر التي اعتمدها في تعاريفه وشروحه فهي كما يلي :

١) الانسكلوبيديات الافرنجية الحديثة .

٢) اشهر المؤلفات العربية والافرنجية ، من قديمة وحديثة .

وعلاوة على ذالك ، يقول: « وقد كتبنا الى الجهات ، فوردت الينا الفوائد المحققة من مصادر يوثق بها ، كما اعتمدنا على من يعتمد عليه من اصحاب المعارف ممن لهم شهرة في علوم وفنون مخصوصة ، للوقوف على المواد قبل طبعها » .

البستاني

مراجع دراسته على الترتيب الابجدي

اعلام المقتطف ص ١١٨ - ١٢٣
تاريخ الآداب العربية في القرن التاسع عشر ، الاب لويس شيخو
تاريخ الصحافة العربية (١٩١٣) ج ١ ، فيليب طرازي
تراجم مشاهير الشرق ج - جرجي زيدان
جريدة لسان الحال (بيروت) عدد ٧٩٥٤
دائرة المعارف لبطرس البستاني مج ٧ تحت لفظة دايرة
الروائع (الحلقة ٢٢) ، فؤاد افرام البستاني
رواد النهضة الحديثة (بيروت ١٩٥٢) ، مارون عبود
مجلة الجنان (مج ١٤)
مجمع المسرات (بيروت ١٩٠٨) للدكتور شاكر الخوري
مجلة المقتطف (مج ٨) .

آثاره العلمية والأدبية

بلوغ الأرب في نحو العرب
دائرة المعارف
سيرة اسعد الشدياق
كشف الحجاب في علم الحساب
مجلة الجنان
محيط المحيط (قاموس) ، ومختصره قطر المحيط
مسك الدفاتر
مصباح الطالب

هذا عدا ما ترجمه: كتاريخ الاصلاح ، وتاريخ الفداء ، وسياحة المسيحي، وروبنصن كروزود ، وغير ذلك .

الفنون الادبية

بعد عصر الرواد

المقالة في الأدب الحديث

المقالة قديماً وحديثاً

تمهيد :

مرّ الانشاء العربي منذ اول عهده حتى الآن ، في ادوار شتى تلخص بمـــا يــلي : [1]

١ – دور التعبير الفطري – وتشمل صدر الاسلام ، وكان الطـابع الغالب فيه الايجاز ، والبساطة ، والجزالة. وتمثله رسائل وخطب الصحابة وقادة الفتوح ومؤسسي الملك العربي .

٢ – دور التعبير الفني – وهو يمتد منذ اواخر العصر الاموي في الشام ، حتى القرن الرابع الهجري . ومن مزاياه التفنن في المعاني ، وتوازن العبارات ، والميل الى الاسهاب والتفصيل . واشهر رجاله عبد الحميد بن يحيى ، وابن المقفع ، والجاحظ .

٣ – دور التأنق البديعي – ويبرز فيه حرص الكتاب على السجع واهتمامهم بالصناعة البديعية . ومن مشاهيره ابن العميد ، والصابي ، والصاحب ابن عباد ، والقاضي الفاضل ، وطبقتهم في الشرق والغرب . ويمتد من القرن الرابع ، حتى

١) تلخصها عن كتابنا تطور الاساليب النثرية .

نهضتنا الحديثة في القرن الماضي .

٤ — دور التقليد والجمود ، وهو المعروف بدور الانحطاط ، ويشمل بوجه عام القرون الثلاثة السابقة للنهضة الحديثة . وفيـــه يغلب على الانشاء الضعف والركاكة والابتذال وخصوصاً في عهده المتأخر .

٥ — دور النهضة والانطلاق — ويتدرج في طريق التقدم من اواسط القرن الماضي الى الوقت الحاضر . وفي هذا الدور ظهر الرواد الذين على ايديهم اخـذ الانشاء العربي ينفض عنه غبار الجمود والانحطاط . فكانوا ممهدي السبيل للتقدم الانشائي الذي نشاهده في عصرنا الحاضر . وفي ابانه نضجت الفنون الادبية التي نحاول عرضها في هذا الكتاب ، مبينين ما تركه لنا اعلام كل فن من آثارهم الفنية . وها نحن نبدأ منها بفن المقالة فندرس خصائصه . ثم نتنـاول نخبة من اعلامه المشهورين .

خصائص المقالة :

يذهب بعض الادباء الى ان المقالة ليست فناً حديثاً . وانما هي قديمة العهود ترجع الى ما انشأه العرب من خطب ومقامات ، وفصول ورسائل ، «وانها قد توطدت في ذلك العهد اركانها ، وسما بنيانهـــا . وليس ظهورها الا عودة الى الاصول العربية التليدة» [١] .

على ان الذي يراجع آثار المترسلين والخطباء قديماً ، لا يسعه الا ان يرى فرقاً بيّناً بينها وبين المقالة الحديثة، سواء أكان ذلك في الاسلوب او في الموضوع وغني عن البيان ان المقامة والخطبة لا يصح ادخالها في باب المقـالة . واذا كان شيء من آثار القدماء يجوز ادخاله في هذا الباب ، فانما هو الرسالة . فهل الرسالة القديمة والمقالة الحديثة سيان ؟ او هل الثانية وليدة الأولى ؟ ذلك مـــا نحاول الاجابة عنه الآن .

١) راجع محاضرات في المقالة الادبية للدكتور محمد عوض محمد (١٩٥١) ص ٥٧ .

من المعلوم ان الترسل في ادبنا القديم نوعان : ترسل ديواني ، وترسل ادبي. فالديواني يشمل الرسائل التي كانت تصدر عن دواوين الحكام ويراد بها ابلاغ او شرح ارادة الحاكم ، او تبيان ما يجب على العمال والرعية مما تقتضيه ادارة البلاد وسياسة العباد . ومهما تكن منزلتها من الفصاحة والبلاغة، فانها لا تتعدى كونها مكاتبات «رسمية» لا تمت الى فن المقالة بصلة . فلهذه ، كما سنبين بعد ، احكام وخصائص تختلف كل الاختلاف عن احكام الرسالة الديوانية وخصائصها .

اما الترسل الأدبي القديم فيلتقي هو والمقالة الحديثة في نقطة واحدة ، هي حرية الكاتب ان يكتب ما شاء . وفي ما عدا ذلك فانهما قلما يلتقيان. ولنشرح ذلك بالقاء نظرة على بعض رسائل مشهورة لنخبة من بلغاء العصور القديمة ، مقابلين اياها بما قد اصطلحنا اليوم ان نسميه المقالة . ولنبدأ برسالة عبدالله بن المقفع المعروفة بـ «الدرة اليتيمة» .

الدرة اليتيمة :

وهي رسالة طويلة تقع في عدة صفحات . وكلها اقوال بليغة في الآداب والاخلاق العالية مما يحتاج اليه الناس في كل مكان وزمان . كقوله : وأبذل لصديقك دمك ومالك ، ولمعرفتك رفدك ومحضرك ، وللعامة بشرك وتحننك، ولعدوك عدلك . واضنُن بدينك وعرضك عن كل واحد ... استحي الحياء كله من ان تخبر صاحبك انك عالم وانه جاهل ، مصرّحاً او معرّضاً . وان استطلت على الاكفاء فلا تثقن منهم بالصفاء . ان آنست من نفسك فضلاً فتحرّج ان تذكره او تبديه . واعلم ان ظهوره منك بذلك الوجه يقرر لك في قلوب الناس من العيب اكثر مما يقرر لك من الفضل ... البس للناس لباسين ليس للعاقل بدّ منهما ، ولا عيش ولا مروءة الا بهما ـ لباس انقباض واحتجاز تلبسه للعامة فلا تُلفينّ الا متحفظاً متشدداً متحرزاً مستعداً . ولباس انبساط واستئناس تلبسه للخاصة من الثقاة فتتلقاهم ببنات صدرك ، وتفضي اليهم بموضوع

حديثك ، وتضع عنك مؤونة الحذر والتحفظ في ما بينك وبينهم » .

وعلى هذا النسق يجري الى آخر الرسالة في نمط عال من بلاغة القول. ومن الحق ان نسميها رسالة في الحكمة الاجتماعية والنظر العقلي في حسن السلوك ، ولكننا لا نستطيع ان نسميها مقالة. وقس عليها سائر اقواله واقوال امثاله من المفكرين والحكماء . ولقد نحاول الاهتداء بهم في سبيل الانشاء لما تتصف به اقوالهم من بلاغة في التعبير وحسن صياغة في الالفاظ والجمل، ومع ذلك لا نرى في اقوالهم ما ينطبق على الأصول الفنية لما نسميه بالمقالة . ولننتقل الى شيخ الكتاب ابي عمرو الجاحظ ولنلق نظرة على رسائله .

رسائل الجاحظ :

وهو من هو في بلاغة الترسل . ويعزو اليه بعضهم انه اول من خرج عن الطريقة العرفية ـ اي طريقة المراسلات الاخوانية والأقوال الحكمية ، الى وصف المشاهدات العامة . ففي رسائله ترى اوصافاً لأفراد او جماعات ، او نظرات في مذاهب ومعتقدات ، او شروحاً لبعض المجردات .

ولقد يجوز ان نطبق على بعض اقواله شروط المقالة لما يسودها من طرافة وتفكهة ونظر شخصي. على ان اكثرها يغلب عليه الشرح، والجدل، والاستطراد والافتنان في تقليب العبارات مما يبعدها عن حدود المقالة العصرية . ولم تصل الينا كل رسائله لنخرج حكماً مبنياً على الاستقراء التام ، ولكن ما نشر منها كاف لتبيان ما نقصد اليه في هذا المقام . ففي مجموعة رسائله التي نشرت في مصر [1] ، وفي غير هذه المجموعة [2] ، يتجلى للقارىء حسن تصرفه في الكتابة. ويحق لنا ان نرى في كتابته مرحلة جديدة في الانشاء الأدبي، اذ اصبح الانشاء

١) مطبعة السعادة (مصر) ١٣٢٤ هـ.

٢) راجع اسماء مؤلفاته في صدر كتابه الحيوان وفي معجم الادباء لياقوت وفي ادب الجاحظ للسندوبي .

على يديه اوسع نظراً في الحياة والناس . بيد ان معظمها كما اسلفنا ليس مقالات بالمعنى الذي يفهم من المقالة اليوم، فبعضها طويل جداً كرساله «التربيع والتدوير» التي تقع في نحو ست وستين صفحة متوسطة وقد انشأهـا تهكماً بشخص من الأشخاص. وبعضها ليس الا اوصافاً او شروحاً عامة لا تمتّ الى اخبار الكاتب بشيء . ومعلوم ان من اهم مزايا المقالة الايجاز ، وانها انعكاس لاختيار شخصي تولده البيئة في نفس الكاتب فيخرجه احاديث او نظرات خاصة يشعر القـارىء لدن قراءتها انه يشارك كاتبهـا في شعوره وخواطره ، ويتمتع بالسير معـه نحو غايته . واذا كان الجاحظ قد اقترب من هذا الفن في عدد من رسائله فان ترسُّله العام قلما يدخل في هذا الباب .

رسائل ابي حيان التوحيدي :

وما يصدق على الجاحظ يصدق على ابي حيّان التوحيدي. فهو مترسّل كثير التفنن ويعالج شتى المواضيع . ومن رسائله المعروفة «رسالة السقيفة» التي وضعها في الرد على الشيعة وانكارهم حق ابي بكر في الخلافة . وهي من باب الجـدل المذهبي او الحزبي ، ويكثر فيها الطعن الخارج عن حدود الأدب والكياسة . وله رسالة في «علم الكتابة» وهي بحث في الوراقة والخطوط وانواعها وما يلزمها و «رسالة في الحياة» جرى فيهـا على طريقة فلسفية تصوفية . وله عـدة رسائل اخرى [1] .

ومما يعد له من قبيل الرسائل فصوله المعروفة بالمقابسات . وهي مجموعـة من النظرات الفلسفية والشروح العقلية ، والمناظرات الجدلية ، يتفاوت طول الفصل منها بين صفحة واحدة وعدة صفحات . وقد يجوز ان نطلق على بعضها اسم المقالة على ان معظمها ليس من هذا الباب لا في قليل ولا كثير .

١) راجعها في كتاب «ابو حيان التوحيدي» لعبد الرزاق محيي الدين (مصر ١٩٤٩) .

رسائل المعرّي :

نشرت «مطبعة اوكسفورد» بتحقيق المستشرق مرغوليوث اثنتين واربعين رسالة للمعري . وهي افضل مجموعة ترسلية له . والذي يراجعها يجد ضمنها شيئاً كثيراً من الادب واللغة والفكر . ولكنها ليست على العموم سوى مراسلات اخوانية يسودها التكلف البديعي ، والاغراب اللفظي ، والاشارات التاريخية واللغوية . واشهر رسائله رسالة «الغفران» . وهي طويلة جداً . وقد نشرت ككتاب خاص . ولا يمكن ان نعدهـــا مقالة بل هي اولى ان تعد من باب القصص الخيالي .

هذه امثلة من الأسلوب الترسلي القديم. وهو يقوم في اكثر عهوده على التأنق في تركيب العبارة والاهتمام بزينتها اللفظية. وينحصر عموماً في مواضيع لا كبير صلة لها بمواضيع المقالة التي يمارسها كتاب اليوم. واذا سلمنا أن احداً كالجاحظ مثلاً ، قد انشأ ما يجوز لنا ان نعده من باب المقالة ، فذلك قليل جداً بالنسبة الى ما نراه في الترسل القديم من باب الاخوانيات ، والمباسطات ، والمقامات ، والمناظرات ، والأوصاف العامة ، والفصول الأخلاقية او الوصايا الحكمية التي لا تنكر بلاغتها اللغوية ولكنها هي غير المفهوم من فن المقالة الحديثة .

فما المقالة في ادبنا الحديث وبماذا تمتاز ؟

مما لا شك فيه ان المقالة كما نعرفها اليوم ، هي فن سبقنا اليه الغربيون . وقد بدأت عندهم منذ ثلاثة او اربعة من القرون . وكانت المقالة الغربية في اول عهدها عبارة عن فصل وجيز يعالج بعض الشؤون الاخلاقية او الاصلاحية. ولم تبلغ ما بلغته من التقدم الا حديثاً ، وذلك بعد ان تقدمت الصحافة واتسع نطاق الحرية الفكرية وتفتحت امام الانسان آفاق جديدة من المعرفة .

وقوام المقالة شخصية الكاتب . واهم مزاياها أنها انعكاس وجداني . فهي لا تتسع للتقصي والاستقراء كالمباحث العلمية او الفلسفية . ويشترط فيها ان تتجنب طريق الوعظ او التعليم، فلا يتكلف صاحبها الجد والوقار شأن الحكماء والمربين

بل يعالج الموضوع مهما كان نوعه في جو من التفكهة والطلاوة، وفي اسلوب حر من اغلال الصنعة التي كان المترسلون قديماً يتقيدون بها . والذي نود ان نذكره استطراداً ان المقالة العربية ولدت مع الصحافة العربية وكان الغرض منها ايصال الافكار والخواطر الى الجمهور ، على انها لم تستطع اول نشأتها ان تتخلص من ربقة الماضي فجرت مدة تتعثر بجلابيب السجع والبديع ، ولكنها لم تلبث ان خلعت تلك الجلابيب وسارت طليقة في سبيلها الحر. والواقع ان المقالة لا تختلف كثيراً عن الشعر الوجداني المعبر عن اختبارات الشاعر الخاصة . فالقصيدة لا تعد من الشعر الجيد اذا خلت من طلاوة التعبير وجمال التصوير ، او اذا جفّت فجاءت بلا ماء او رواء . كذلك المقالة ، على ان جمال التعبير والتصوير فيها لا يعني تكلف البدائع البيانية والتوهجات العاطفية ، بل يراد بهـــا الاستعراض السوي الشائق الذي يجمع بين الايجاز ودقة الملاحظة وخفة الروح .

واذا قلنا انها انعكاس وجداني ، فنحن لا نعني ان موضوع المقالة ينحصر في الكاتب نفسه . ولكننا نعني ان كل ما يعرضه الكاتب فيها انما يعرضه مصطبغاً بشخصيته . فهو قد يحدثك عن نفسه او عن سواه ، او قد يحدثك عن الحياة وبعض غرائبها، او عن المجتمع البشري وبعض مشاكله ، او عن الطبيعة وبعض مشاهدها . وقد يحملك معه الى الماضي فيريك عبَر التاريخ ، او الى المختبرات العلمية فيطلعك على بدائع المستنبطات ، او يطير بك في عالم الأفلاك فيدهشك بعظمة الأكوان. كل هذه ابواب مفتوحة يدخلها الكاتب فيستخرج منها صوراً تنعكس لنا في اختباره وتجلو لنا صورة نفسه . المهم في كتابته هو طريقته في عرض ما يتأمله او يشعر به . فلا بد لنا امام كل مقالة من ان نسأل انفسنا : هل نشعر بشخصية كاتبه ؟ هل نحس بغبطة الاشتراك معه في مـــا يقول ؟ هل نرى بوضوح فكرته الرئيسية ؟ هل نلمس في نظره الى الحيـــاة وفي تعليقه على الحوادث خفة روح تجذبنا اليه ؟ ولا يستثنى من ذلك المقال العلمي، فنحن اذا قرأناه لا يسعنا الا ان نتساءل : هل نجد فيه ما يجعل الحقائق العلمية مستساغة

كأنها حديث ممتع لمحدث مدرك يستهويك عرضه لتلك الحقائق ؟

ان كتابة المقال هي نوع من التعليق الشخصي على كل ما يعرض للكاتب من مشاهد الحياة والطبيعة . وهذا التعليق يجب ان يطبع بطابع شخصي يميزه عن سواه .

واذا صحّ ذلك كان امام الكاتب الحديث مصادر وحي لا حد لها . فالتاريخ ، والمجتمع البشري ، والعلم والطبيعة ، والافلاك ، والعالم الروحي ، والاختبار الشخصي ، والحركات الشعبية وغيرها كلها مفتوحة امامه ومعروضة لديه ليستخلص ما يريد من المعلومات والعبر ، ويتقلب كما يشاء بين المشاهد والحوادث ، وليعكس ما يستخلصه وما يراه مصطبغاً بصبغة شخصيته ، مشرقاً بنور يضيء في قلبه .

ولا يراد بذلك ان يقرع اسماعنا بألفاظ وعبارات فارغة ، او ان يزوّق لنا الكلام بألوان رخيصة ، بل ان يمتّعنا بطرافة التصوير ، ولطف الاداء ، وجمال الفكر في ما اختبره من ماجريات الحياة . وسواء أكان الموضوع تأملاً فكرياً ، او وصفاً لحادثة او مشهد ، او نقداً لبعض شوائب الحياة والمجتمع ، او عرضاً تهكمياً لبعض العادات والتقاليد ، فان المهم ان يكون للكلام فكرة عامة يحاول توجيهنا اليها ، وان يخرج من القلم خروج الماء من الينبوع ، زلالاً يروي الظمأ وينعش الروح .

والذي لا ينكر انه قد نبغ من كتابنا ، منذ اواخر القرن الماضي الى الوقت الحاضر ، عدد كبير ممن عنوا بالمقالة وعالجوها وجروا في مضمارها شوطاً بعيداً حتى اصبحوا في هذا الباب اعلاماً ، وسنتناولهم بالدرس والتحليل في الفصول التالية ، مقتصرين منهم على نخبة ممن يمثلون هذا الفن أفضل تمثيل . وكلهم او اكثرهم الآن في عالم الارواح ، لكن آثارهم تشهد بما كان لأقلامهم من الفضل في ما بلغته الكتابة العربية في هذا العصر .

ونحن اذا كنا نتحدث الآن عن الاسلوب الكتابي في المقالة ، فاننا في

الواقـع نتحدث عن الاتجاه العـام في النثر العربي الحديث . فأسلوب المقالة هو الاسلوب الشائـع في كل مـــا تخرجه المطبعة العربية من شتى التصانيف العلمية والادبية . نعم قد نلاحظ بعض الفرق بين النزعـــات العلميـة ، والترسليـة ، والخطابية ، وسنرى ذلك في اثنـــاء دراستنا لمن يمثلون هذه النزعات . ولكن الاسلوب الكتابي العـام اليوم واحد ، هو الاسلوب المرسل الذي يُتوخى فيـه سهولة العبارة مع احكام تركيبها وحسن تأديتها للمعنى .

وجدير بالذكر ان التطور الذي حدث في النثر منذ عهد الرواد في القرن الماضي الى الآن ، قد نشأ عنه حيناً من الزمن خصومة بين الكتـاب . اذ كان بعضهم كمصطفى الرافعي مثلاً ، يرى ان متانة الكتابة لا يمكن أن تخرج عن طريقة البلاغة القديمة ، وهو لذلـــك يصف الطريقة الجديدة بالضعف فيقول : « واشهد مـا رأيت قطّ كاتباً واحداً من أهل « المذهب الجديد » يحسن شيئاً من هذا الامر « اي جودة التأليف » ولو هو احسنه لانكشف له من احسانه مـــا لا يبقي عنده شكاً في إبطال هذا المذهب وتوهينه . ولذا تراهم يعتلّون لمذهبهم الجديد بالفن والمنطق والفكر وبكل شيء الا الفصـاحة . واذا فصحو جـــاء الكلام الفج الثقيل ، والمجازات المستوخمة ، والاستعارات البـاردة ، والتشبيهات المجنونة ، والعبارات الطويلة المضطربة التي تقـع في النفس كما تقـع الكرة المنفوخة من الارض لا تزال تنبو عن موضع الى موضع حتى تهمد»[1].

لكن المجددين يرون غير رأي الرافعي ، فهم ينطقون بلسان طـه حسين اذ قال : « ان النثر الجديد ان امتاز بشيء فهو يمتاز بأن الخصومة فيه بين انصار القديم وانصـــار الجديد قد انتهت (اي الخصومـة قد انتهت بفوز الطريقـة الجديدة) . ذلك لأن الكثرة المطلقة من الذين يقرأون الصحف والكتب حريصة كل الحرص على شيئين لا ترضى بدونها، الاول ان يقدم اليها نثر فصيح مستقيم اللفظ ، نقي الاسلوب ، بريء من الابتذال ، حرّ من اغـلال البديـع

١) كتابه – تحت راية القرآن (الطبعة الاولى) ص ١٥ .

والبيان (يقصد الصناعة المتكلفة) . والثاني ان يكون هذا النثر ملائماً لذوقها وميولها الجديدة ، قيّماً في معناه كما هو قيّم في لفظه، حر في معناه كما هو حر في لفظه ايضاً » (١) .

وفي هذا المعنى يقول عباس العقاد : « ان الروح العلمية الحديثة قد ألقت على النثر العربي مسحةً من الاتزان ، وحسن التحليل وعمق التفكير . فلا يعد اليوم كاتباً من حبّر المقالات الفارغة ولو ألبسها ابهى الحلل اللفظية . ولا يعد كاتباً من لم يكن واسع الاطلاع ، غزير المعرفة ، ثاقب النظر ، يحمل الى الناس الافكار السامية والحقائق الراهنة . وسواء كان هذا الكاتب روائياً او بحاثة او مترسلاً فأنه لا يعد من المتجددين ما لم ينطلق في ربوع الحياة بشخصية حرة حاملاً الى الناس رسالته الادبية وقد استوحاها من ايمانه الصادق، واختباره الواسع ، وتأمله العميق » (٢) .

وقد التهبت روح التجدد في المهاجر على ايدي نخبة من الادباء امثال جبران والريحاني ونعيمة . وأكتفي للتمثيل عليها بقطعة من مقال لجبران موضوعه « لكم لغتكم ولي لغتي » يخاطب فيه الرجعيين ، قال :

« لكم منها القواميس والمعجمات والمطوّلات ، ولي منها ما غربلته الاذن وحفظته الذاكرة من كلام مألوف مأنوس تتداوله ألسنة الناس في افراحهم واحزانهم . لكم من لغتكم البديع والبيان والمنطق ، ولي من لغتي نظرة في عين المغلوب ، ودمعة في جفن المشتاق ، وابتسامة على ثغر المؤمن ، واشارة في يد السموح الحكيم » (٣) . والمقال كله من هذا الطراز الشعري المشبع بروح التهكم . ولكنه يمثل حركة ادبية متأثرة بالنزعة الجديدة .

وفي ما ذكرناه آنفاً يستطيع الباحث ان يرى ما اشرنا اليه من خصومة

١) من مقال له : النثر في خمسين سنة .
٢) من مقال له موضوعه: مكان الادب في العصر الحديث، راجعه في المقتطف (مج ٨٠)
٣) راجع المقال في كتاب بلاغة القرن العشرين (ص ٥١)

بين كتـاب العهد الحديث ، ولكن هذه الخصومة قد توقفت الآن ولم يعد بين الكتـاب من يقول هذا قديم وهذا جديد ولا بدع فجميعهم متفقون على ان تكون اللغة الكتابية منزّهة عن الابتذال ، بليغة العبـــارة ، حرة من اغلال الصناعة .

الأعلام من كتاب المقالة الراحلين

يعقوب صروف - شكيب ارسلان - فرح انطون
مصطفى المنفلوطي - مصطفى الرافعي - جبران جبران
حسين هيكل - ابراهيم المازني - عمر فاخوري

يعقوب صروف

١٨٥٢ — ١٩٢٧

لما ولد يعقوب صروف كان رواد النهضة في لبنان امثال ناصيف اليازجي ، وبطرس البستاني ، واحمد فارس الشدياق ، وابرهيم الأحدب ، ويوسف الأسير في ابان شهرتهم ، وخصوصاً الثلاثة الأولون منهم . وكان النمط الفني للكتابة يومئذ ، قائماً على تسجيع العبارة والتأنق في التصوير البياني والتزيين البديعي . وقلما خرج عن ذلك الا بعد ان تم نشوء الصحافة وانتشارها بين طبقات الشعب المتعلم . ففي منتصف القرن الماضي مثلاً، قبل مولد كاتبنا بنحو اربع سنوات، يكتب اديب بغدادي الى الشيخ ناصيف اليازجي رسالة يقول فيها : «سلام لا تحصيه ألسنة العارفين ، وثناء متعدد اتصال الأيام بالسنين ، ودعاء انشق له جوهر الاجابة عن طور سينين. علا فارتفع، وأضاء فلمع، تحمله نياق الاشتياق، وتقتاده ازمّة الوجد والاحتراق، من محب انحله الجوى، واذابه الهجر والنوى.. يهدى الى من توشّح سوابغ المجد والكرم ، وامتطى سوابق الفخر والشيم» ، وهكذا الى آخر الرسالة. ولا نستغرب ذلك من هذا الأديب فانه كان يكتب بقلم عصره . حتى ان الصحافة العربية ، وقد نشأت في النصف الثاني من القرن الماضي ، لم تستطع حالاً التخلص من الأسلوب القديم فظلت تتراوح بينه وبين

الأسلوب الجديد الى اواخر ذلك القرن .

عاش صروف في القرن الماضي ثانيـاً واربعين سنة اي اكثر عمره ، اذ لم يعش في قرننا الحاضر غير سبع وعشرين . وكان من المتوقع ان يسير في ركاب ارباب الفن من مترسلي عصره ، ولكنه سار في سبيل آخر – سبيل دفعته اليه ثقافته وميله الى العلوم الطبيعية وتدريسه لها . فلمـــا انشأ المقتطف مع زميله فارس نمر وتولى تحريره ، كان همه ايصـــال الحقائق العلمية الى الجمهور بلغـة لا تكلف فيها وقد نجح في ذلك . على ان لغة «المقتطف» قـد تطورت مع الأيام حتى اصبح مثالاً يقتدى في جودة التعبير عن القضايا العلمية والصناعية والزراعية، وفي اي باب من الأبواب الأخرى .

كانت ولادته في قرية (الحدث) قرب بيروت . وهي الآن ضاحية كبيرة من ضواحي المدينة . وتلقّى مبادىء العلم في مدارس تلك الأيام . ولما انشئت الكلية السورية الانجيلية (الجامعة الأميركية اليوم) كان له من العمر ١٤ سنة . فالتحق بالكلية لاتمام تحصيله العلمي. وفي سنة ١٨٧٠ خرج منها برتبة بكالوريوس علوم مع اول صف انهى دروسه فيها .

وبعد خروجه قضى ثلاث سنوات يدرّس في صيـدا وطرابلس . ثم دعتـه عمدة الكلية للتعليم فيها، وعهدت اليه بتدريس العلوم الطبيعية والرياضية والبيان. فكان جمعه في التعليم بين العلوم الطبيعية وعلم البيان اساس الشهرة التي نالها بعدئذ في عالم الكتابة ، فالعلوم الطبيعية دربته على دقة التفكير وجودة القياس ، وعلم البيان درّبه على صحة التعبير واستعمال الألفاظ المناسبة للمعاني. وسنلمس اثر ذلك في حياته الكتابية .

وفي تلك الأثناء كان زميله فارس نمر قد نال شهادة الكلية المذكورة والتحق بهيأة التدريس فيها . فتمكنت بينهما صداقة ، ثم شركة دامت مدى العمر .

وفي سنة ١٨٧٦ أسسا معاً مجلة «المقتطف» وهمـــا لا يزالان مدرسيْن في الكلية ، وبقيا يصدرانها من بيروت ما يقرب من عشر سنوات . ثم انتقلا بهـا

الى مصر، وهناك اسّسا مع شاهين مكاريوس جريدة «المقطّم» اليومية. فانصرف نمر لتحرير المقطّم وتفرّغ صروف لتحرير المقتطف . وعن طريق هذه المجلة خدم العلم والأدب والحضارة اكثر من خمسين سنة ، ولم يسقط القلم من يده حتى كان العالم العربي قد ادرك ما للمقتطف من فضل في تنوير الأذهان بالحقائق العلمية الصحيحة ، والكشف عن اسباب الرقي الحقيقي .

فلم يكن مستغرباً ان يحتفل بعيده الخمسيني احتفالاً اشتركت فيه اقلام كبار الكتاب والشعراء في شتى الأقطار ، وخصوصاً في مصر التي كانت الوطن الثاني لمنشئه والمجال الأوسع لخدمته ودعوته . فأقيم له برعاية ملك مصر يومئذ ورئاسة وزير من كبار وزرائها ، مهرجان حضره مئات من عظماء البلاد وعلية رجالها ونخبة ادبائها وعلمائها وارباب الصحافة فيها . وكذلك اشتركت في تبيان فضل المقتطف على النهضة العلمية في الشرق مدينة بيروت وغيرها من الحواضر العربية [١] .

ولم تكن مهمة المقتطف سهلة في اوائل عهده ، لما كان يغشى ذلك العهد من الجهالة والتقاليد والمعتقدات الباطلة . فلقي مقاومة شديدة ومحناً شتى . مثال ذلك ان مقالاً نشر فيه عن الأرض وحركتها ودورانها حول الشمس ، تصدى له في بيروت مقام ديني مصرحاً ان المقال مغاير للكتب المقدسة ، كما تصدى لمقال آخر في بطلان السحر صاحب مجلة كان يعد من رجال العلم والأدب، فهاجم المقتطف بعنف محاولاً تشويه سمعته وتكفير آرائه [٢] . ولا ينكر انه قد كان في ذلك العهد من يميل الى الاستنارة بنور المعرفة ويسعى الى الاطلاع على الحقائق الراهنة ، على ان السواد الأعظم كان لا يزال مقيداً بأغلال التقليد . فكان على المجددين ان يسيروا في طرق شائكة قبل الوصول الى اهدافهم. وفي هذه الطرق

١) من رام الاطلاع على ما قيل في هذه الحفلة فليراجع المجلدين ٦٨ و٦٩ من المقتطف والكتاب الذهبي الذي اصدرته لجنة الاحتفال .

٢) راجع في ذلك مقال نمر في المقتطف ٨٨ – ٥٦٣

الشائكة سار صروف غير هياب، ولكن بوداعة العالم الواثق بما يمليه عليه العقل المستنير . وقد نوّهت بفضل المقتطف سنة ١٨٨٣ احدى الجرائد الانكليزية فقالت : «ان المقتطف واسطة الاتصال بين اسمى معارف عصرنا العلمية التي تنشر في الصحف الأوروبية والأميركية ، وبين اذهان المتكلمين بالعربية . وتتضمن غدا ذلك ابحاثاً مبتكرة دقيقة المعاني في المواضيع الجارية الآن وكثيراً من الفوائد العلمية الموافقة لاحتياجات البلاد» [1] .

وعرفت لصروف ولزميله فارس نمر امّها الكلية في بيروت ما قاما به من خدمات علمية لأبناء الشرق ، فاستحصلت لهما على الدكتوراه الفخرية وكرّمتهما بهذا اللقب العلمي .

وما زال المقتطف يجاهد حتى اصبح قبلة اهل الرأي والفكر ، وصرحاً لطلاب الحقيقة يرون في شخص منشئه عالماً محققاً ، لا يأخذ القضايا والنظريات بظواهرها وان صدرت عن اعظم العلماء ، بل ينظر فيها فاما ان يقتنع بصحتها، واما ان يناقشها ويقيم الحجة على ما يؤخذ عليها . وقد اصاب احد الكتاب المعروفين اذ قال فيه : «كان لحياة الفقيد اثر في حياته العاملة . فان ترعرعه في معاهد العلوم الرياضية ، والطبيعية والأدبية ، جعل حياته العلمية والعملية فيما بعد ، حياة التحقيق والتدقيق والأمانة للحقيقة . ولذا عرفناه بغيضاً الى نفسه جو الأدب الخيالي ، والشكوك المضلّلة ، والمخايل الفاسدة» [2].

وقال كاتب آخر مشهور : «ان صروف نشأ عالماً طبع على ملكات العالم الأمين لفكره والحريص على حقيقته . كان مطبوعاً على التحقيق لأنه عالم يقول ما يعلم ويلتزم ما يفهم» [3] .

واليك الشهادتين التاليتين من اديبين من اهل الفكر والرأي . قال احدهما:

١) راجع المقتطف ٦٩ — ١٢
٢) عبد العزيز بشري في المقتطف ٧٢ — ٥٦٣
٣) العقاد — المقتطف ٧٢ — ٢٣

ولسنا نزعم أن خدمة الفقيد كانت خدمة المستكشف، او المخترع ، او الذاهب في انواع التفكير مذاهب لم يسبق اليها، بل كانت خدمة الناشر والمذيع وخدمة المنقّب . يبحث عن حاجات بلاده وقومه ويرضي هذه الحاجات بما ينقل الى المتعطشين من ابناء الشرق من علم مهضوم ، وفكر واضح ، وثقافة تمثلت في صورة عربية لا يأباها ذوق لغتنا ، ولا تنفر منها طبائعنا . كان عالماً مدققاً محققاً مخلصاً للعلم ، لا ينحرف عن الطرائق العلمية في كتاباته ومباحثه»[1] .

وقال الثاني :

« وكان مع عظم احترامه للعلماء والمحققين لا يسلّم بأقوالهم ونتائجهم ومذاهبهم العلمية عفواً. ولطالما ناقش في المقتطف نظريات لهم لم يرتح إلى صحتها وأقام الحجة والبرهان على ضعفها »[2] .

ويكاد ما استشهدنا به من اقوال هؤلاء الاعلام يكون مطابقاً تمام المطابقة لما ذهب اليه غيرهم ، كمحمد كرد علي في مجلة المجمع العلمي العربي (٨ – ٥٧) وعيسى اسكندر المعلوف في «الآثار» (٤–٤٦٤ و ٥٠٦) ، ومصطفى صادق الرافعي في المقتطف (٧٢ – ٧٣) ، والاب انستاس الكرملي (بتوقيع فهر الجابري) في المقتطف (٧٢–١٥٥) ، ومحرر مجلة العرفان مج ١٤ ص ٥٠–٥٨ وكثيرين غيرهم . فكأن الجميع متفقون على ما عُرف به صروف من امانة علمية وحب للبحث والتحقيق .

ويؤيد هذه الشهادات ما جاء في المقتطف على لسان صروف اذ وقف يقابل بينه وبين الدكتور شبلي شميل ، فقال: « وأساس الفرق بيننا وبينه في الامور العلمية والاجتماعية ، اننا نحن نميل الى الحذر ، ونرى ان يُذكر كل امر بما يستحقه من الاحتمال او الترجيح او التحقيق ، اثباتاً كان او نفياً ، مدفوعين الى ذلك بما أثّرته فينا العلوم الرياضية التي تعلّمناها وعلّمناها. وقلّما يستطيع

١) منصور فهمي في المقتطف ٧٢ – ٥٥٨
٢) حسين هيكل في جريدة السياسة ع ٧١ ص ١٦

هـذا التدقيق من لم يبحث في الموضوع من كل وجوهه ويعرف كل ملابساته وأوجه القوة والضعف فيه . وأما الدكتور شميّل فلم يدرس العلوم الرياضية. وكان حادّ الذهن سريع التصوّر ، فيبادر الى المجاهرة بما يعتقده صواباً ولو خالف المألوف ولم تقم أدلة قاطعة على تأييده »[1] .

وليس ذلك تبجحاً من الدكتور صروف فهو ابعد الناس عن التبجح . ولكنه اعتراف صادق بما كان يدعوه الى الحذر العلمي وعدم التسرّع الى المجاهرة برأي قبل ان يتثبته. وليس هو تنقّصاً للدكتور شميّل ، ولكنه اثبات حقيقةَ يعترف بها شميّل نفسه (راجع نفس المقال) . وكاتبنا اعرف الناس بفضل شميّل في منطقة اختصاصه (أي الطب) . واذا انتقد عدم تدقيقه في المسائل العلمية التي هي خارج اختصاصه ، فانه يصرّح بأن النقد لا يمسّه في الطب حيث كان يجري حسب القواعد المقررة ، لا يأخذ بالمحتملات . ويشهد له انه « كان نابغة في التعليل ، ألمعياً في اكتشاف الحقائق . ومن ثم كان من مشاهير الاطباء في التشخيص الطبي كأنما يوحى اليه ».

ومما ذكرناه يتبين لنا ان صروف اتخذ سبيل الكتابة العلمية . فما مزايا هذه الكتابة وما الخدمة التي اداها صروف بواسطتها للنهضة العربية الحديثة ؟ هذا ما نحاول الاجابة عنه فنقول : ان الكتابة نوعان رئيسيان : كتابة فنية، وكتابة علمية . وتمتاز الأولى بأنها تعرض الخواطر والخوالج بأسلوب جميل مثير للشعور والخيال ، وبالتالي ممتع للنفس . وتمتاز الثانية بانها تتوخى ايصال المعلومات والحقائق عن طريق العقل والمنطق . فغرض الأولى المتعة النفسية الحاصلة من تذوق الجمال ، وغرض الثانية الفائدة المعنوية والعقلية . وللحصول على هذه الفائدة لا بد للكاتب من توّخي الحقيقة مهما اعترض سبيله او وصل اليه من نتائج . ولكن هذا وحده لا يكفي ، فكم من عالم يتوصل في بحثه او مختبره الى كثير من الحقائق ، ولكنه حين يحاول عرضها على الجمهور تصبح هذه

١) راجع المقتطف (فبراير ١٩١٧) او اعلام المقتطف ٢٩٠

الحقائق بسوء تعبيره اللغوي احاجيّ لا يفهمها الا ذوو الاختصاص . فالكاتب العلمي اللبق هو الذي يعرف ما توصل اليه البحاثون والمختصون من العلماء، ويفهمه حق الفهم ، ثم يقدمه لجمهور المتعلمين بأسلوب رشيق واضح يستفيد منه الجميع ويجدون فيه غذاء مستساغاً لعقولهم .

ولقد يتوهم البعض ان لغة الاسلوب العلمي ، ولغة الاسلوب الادبي ، على طرفي نقيض . فليس على العالم ان يتقيد بجودة اللفظ والعبارة حسب مقتضيات البلاغة ، بل يسمح له ان يستعمل اللغة دون اهتمام بالقراء . وقد يجوز ذلك في المصطلحات الخاصة بالعلماء ، ولكنه لا يجوز فيما يُوجَّه الى اهل الثقافة العامة . وقد كنا في الجامعة نحضر مع جمهور كبير من محبّي الاستفادة محاضرات العلاّمة الدكتور وليم فانديك في مذهب النشوء والارتقاء ، فكان يستهوينا منه عمق الاطلاع المقرون بحسن البيان . كذلك كان الدكتور يعقوب صروف في كتابته ، كان يبسط ادق المعلومات في اسهل الألفاظ وارشق العبارات ، مراعياً متانة اللغة واصول البلاغة الصحيحة ، حتى شهد له كبار اهل القلم . فمن ذلك ما قاله محمد كردعلي[1] : « كان يعقوب صروف يتوخى السلاسة في التعبير. وقد رزق بياناً لا تكلف فيه ، ورشاقة في الأداء وابلاغ المعنى يفاخر بها ، وقدرة على النقل والاحتذاء قلّ ان داناه فيها احد بموضوعه . يقرأ المقالة الطويلة لعالم من علماء اميركا او انكلترا ، فلا يلبث ان يلخصها في صفحات قليلة ، ويزينها بما يشرحها ويحبب الى الناس مطالعتها». وقال مصطفى صادق الرافعي[2] «كان صروف حجة اللغة العربية في اقامة الدليل العملي على سعة العربية وتصرفها وحسن انقيادها وكفايتها، وانها تؤاتي كل ذي فن على فنه ، وتُقادّ كل عصر بمادته » .

ومن اقوال الأب انستاس الكرملي في اسلوب صروف [3] : « قبل خمسين

١) في مجلة المجمع العلمي العربي بدمشق ٨ - ٥٧
٢) في المقتطف ٧٢ — ٢٣ .
٣) المقتطف ٧٢ - ١٦١ و١٦٢

سنة كان الكاتب عندنا اذا كتب في موضوع صدر كلامه بمقدمة طويلة عريضة، وختمه بمؤخرة اطول من ذنب الطاووس ... اما صرّوفنا فقد ظهر منذ ان قبض على عنان قلمه بمظهر خالف فيه كل من تقدمه . فكان يهجم على الموضوع ولا يتركه الا بعد ان يوفيه حقه من البحث ... قام عليه في بدء الأمر عدة كَتَبَة واخذوا يسخرون من اسلوبه ومن الفاظه وتعبيراته. لكن ذلك كله لم يزعزعه قيد شعرة بل ثابر على خطته الى آخر نسمة من حياته . فاضطروا ان يعدلوا عن منهجهم ، وان يحتذوا بإمامنا ويجاروه في كل امر توخاه» .

وفي كاتبنا يقول عباس محمود العقاد [1] : «وانما افاد الأدب فائدته النفيسة من جانب القصد والتحقيق ، لأن الأدب في ذلك الزمن كان احوج شيء الى قصد العبارة وتحقيق المعنى ، وكان كلاماً لا مغزى له ولا روح ، ولا غاية له وراء الالفاظ المرصوفة والجمل المحفوظة والتزويق الذي لا يرضاه ذوق الجمال» . وما قصد العبارة الذي يعنيه العقّاد الا الايجاز البليغ الذي يضع الالفاظ في محلها ، ويلبس المعاني اجود اثوابها .

وقس على هذه الشهادات القليلة شهادات الكثيرين من قادة الفكر والادب. وهم مجمعون على ما كان لصروف من مقدرة فائقة على استيعاب الدقائق العلمية وهضمها وتمثيلها، حتى اذا اخرجها قلمه اخرجها سلسة مها عسر الموضوع ، ناصعة الالفاظ بليغة التركيب .

والواقع ان معظم ارباب الاقلام في عهده كانوا يعترفون له بروعة البيان ، ويعدونه مجلياً في هذا الميدان . اذ كان له ذوق لغوي ممتاز . ففي كل مباحثه ترى الالفاظ تحتل مواطنها المناسبة ، والجمل تأخذ بعضها برقاب بعض ، في اتساق يسهّل على القارىء الانتقال من عبارة الى عبارة وهو يشعر بمتعة في ذلك الانتقال .

---

١) المقتطف ٧٢ – ٣١

هذه السهولة المحكمة المتعة في ديباجته الكتابية هي التي جعلته إماماً في المباحث العلمية . على انه قد بلغ غاية الاجادة ايضاً في ترجماته لرجال العلم والمال والاعمال ، وفي نقده لاقوال الادباء ، ووصفه للحوادث والاحوال . لا يشوب رصانته جفاف ولا يفسد اناقته تزويق ، ولا تفارقه تلك الطلاوة التي قلما توجد عند سواه من العلماء . وسيتبين لنا ذلك بعد في الامثلة التي نختم بها هذا الفصل.

ومما عرف به صروف مقدرته على التعريب ، ولا نبالغ اذا قلنا ان اكثر من خمسين مجلداً من المقتطف قد كان له اليد الطولى في ما نقله من مباحث ومستنبطات علمية وفنية كانت تنشرها كبريات المجلات الاجنبية ، ولا سيما الانكليزية والاميركية . والذي يطالع ما نقله يتضح له امران : الاول ان نقله لم يكن مجرد ترجمة للالفاظ والجمل ، بل هو ترجمة للمعاني بعد ان تكون قد اصبحت جزءاً من كيانه الفكري . والامر الثاني ان له حساً دقيقاً في الباس المعنى ما يوافقه من اللفظ . وهذا الحس قد كان يدفعه الى صوغ ألفاظ عربية يبتدعها او يتناولها من مظانّها القديمة ، او الشائعة بين الناس .

كوضعه ما يلي :

الاحافير	للفظة الانكليزية	Fossils
الصحافة	« «	Press
المثال الاعلى	« «	Ideal
الاستهواء	« «	Suggestion
تنازع البقاء	« «	Struggle Fer Existence
علم الاحياء	« «	Biology
المرتزقة	« «	Mercenaries
الرقص البدّاوي	« «	Padovana
علم النفس	« «	Psychology

مناجاة الارواح	اللفظة الانكليزية	Spiritiem
اللاسلكي	» »	Wireless
كهرب	» »	Electron
نواة	» »	Nucleous

ومن أوضاعه الشائعة : غواصة ، دبابة ، رشاشة ، وغير ذلك .

على انه لم يكن يتقيد بوضع ألفاظ عربية لما يقابلها من اللغات الاجنبية، بل كثيراً ما كان يؤثر التعريب اي اقتباس المصطلحات الاجنبية اذا كان اقتباسها ادق في تصوير المعنى ، واكثر اقتصاداً على ذهن القارىء ، وخصوصاً اذا كان في الترجمة تكلف لا لزوم له. وقد شرح لنا اسلوبه الخاص في الترجمة والتعريب فليراجعه من شاء [١] . وله رسالة بهذا الصدد بعث بها الى المجمع العلمي العربي بدمشق يقول فيها : « وما الفائدة من ترك كلمة افرنجية شاعت بيننا ، والتفتيش عن كلمة قديمة حوشيّة يحتمل ان لا يؤدي معناها معنى اللفظة الافرنجية ولو بعد « المطّ » . لقد حاولت الترجمة خمسين سنة الى الآن ، ووجدت اخيراً انه لا بد لي من أن اعرب دفتيريا ، وتيفوئيد ، وتيفوس ، كما اكتب سلّ ، وصداع ، ويرقان. والاحسن ان ندع الترجمة والتعريب في كل علم ، الى الذين يعلّمونه ويعملون به . واللغة لا تقوم بما فيها من الاسماء ، بل بما فيها من الحروف والتصاريف » [٢] .

ومما لا ينكر انه بما نقله وألّفه قد زاد ثروة العربية، اذ ادخل ألفاظاً وتعابير لم تكن معهودة من قبل . فكان مجدداً بل رائداً في التجديد . وفي هذا العصر

١) المقتطف ٧٠ – ٤٨١ ، ٧٢ – ١٥٥ .
٢) المقتطف ٧٤ – ٨

الذي طغت فيه على العربية العلوم الاجنبية والفاظها الجديدة ، كان الانشاء العربي في أشد الحاجة الى كاتب من طراز صرّوف يستطيع الصمود لها بعقله النيّر وذوقه القيّم ، فيختط للبحث العلمي سبلاً عربية قويمة . وقد اثبتنا آنفاً آراء بعض من اكابر الكتّاب في اسلوب صروف العام ، ولنثبت هنا رأي لغوي معروف بحرصه على عمود اللغة واصفاً اسلوب صروف في الترجمة قال[1]:

« وقد تصدر (اي صروف) للكتابة والترجمة منذ شباب هذا العصر ، ومنذ بدأ الناس يقرأون العلوم الحادثة في الشرق فلا جرم لم يكن لغوياً كأبي عمرو ، وابي زيد ، والخليل ، والاصمعيّ ، وابي حاتم ، وابي عبيدة واضرابهم ممن يحملون عن العرب ويؤدون ما حملوه ، ولا كان لغوياً في طريقة سيبويه ، والكسائي ، والزجّاج ، والاخفش ، واليزيدي وأشباههم ممن ينظرون في اللغة وعللها ، واقيستها وشواذّها . ولكنه لغويّ فيما يعمر بين الشرق والغرب يحمل بلسان ويؤدي بلسان غيره ، ويوافق بين المعاني الجديدة والالفاظ القديمة. يشابك بين خيوط التاريخ في هذه وهذه ، ويأخذ اللغة للاستعمال لا للحفظ ، والتعليم لا للتدوين ، والمنفعة لا للمباهاة ، وللفائدة لا للتنبّل ، ويترجم. وانّ في خياله العالمَ الواسع الذي ينقل عنه بعلمائه وادبائه ، وكتبه ومجلاّته ومصطلحاته . ويكتب وان له تلك الملكة الدقيقة التي كوّنتها العلوم الرياضية والطبيعية والفلسفية وغيرها . فلم يكن بدّ من ان يبتدع ، وان يكون له طريقة يوافـق فيها ويخالف » .

ويشبّهه بالجاحظ في حصافة الرأي وقوة الحسّية ، والتدبير في ما يأخذ وما يدع ، وفي استعماله للمصطلحات الاعجمية والعامية . ثم يقول : « ولا يمتري احد ان هذه النهضة اللغوية التي ادركناها وعملنا فيها ، لم تكن سوى نموّ طبيعي لعمل رجال افذاذ نظن الدكتور صرّوف في طليعتهم » . ولا نخال أن لفظة الظن التي استعملها مصطفى الرافعي هنا يقصد بها ان تحمل معنى الشك في نفسه ،

١) الرافعي في وحي القلم راجع مقاله : صروف اللغوي ص ٣٩١

فهو من اشد المعجبين بلغة صرّوف وبيانه وبمقدرته على نقل العلوم الحديثة الى العربية نقلاً جعله (كما وصفه سابقاً) « حجّة العربية » في هذا الميدان .

ولنلق الآن نظرة على مكانة صرّوف الادبية :

لصرّوف آثار تذكر في باب الادب تشمل كثيراً من المقالات والسير ، والروايات وسواها ، فمن السير عشرات من تراجم النوابغ من رجال الاعمال وروّاد العلم والاكتشاف . وهي مجموعة في مجلدات خاصة تحت عنوان « اعلام المقتطف » ، و «الرواد » ، و « رجال المال والاعمال » ، و « سرّ النجاح ». وهذا الأخير هو في الاصل تأليف Samuel Smiles . نقله صرّوف عن الانكليزية سنة ١٨٧٧ بايعاز من أستاذه الدكتور كورنيليوس فانديك، على انه لم يتقيد بالاصل تقيّداً حرفياً ، بل كان يراعي الاصل تارة ويخالفه اخرى على ما يقتضيه اختلاف اللغتين ، ويزيد عليه ما يراه مناسباً من تاريخ العرب ، ويأتي بأمثلة من الشعر العربي تعزيزاً لأقواله ، مثال ذلك ما ورد في الفصل الأول تحت عنوان « الاعتماد على النفس » . كقوله :

« وقام من العرب وغيرهم من امم المشرق عصاميون لا يحصى عددهم ، داسوا الفقر الذي ولدوا فيه وجعلوه مرقاة « الى ذرى المجد » . ويذكر من هؤلاء العصاميين عدداً من الادباء ، والعلماء ، والعظماء الذين رغم ضعة اصلهم بلغوا مراتب الشهرة والغنى ، ومنهم عبيد ومماليك وامثالهم من اهل الطبقة الوضيعة . ويتقدم من هنا الى ذكر الذين اشتهروا بين الافرنج، ولم يكن لهم من « رأس مال » غير جدهم واعتمادهم على انفسهم . والكتاب كسائر كتب التراجم التي وضعها مليء بما يذكي في النفس نار الحميّة والثقة بالنفس والاقدام على العظائم . وكل ذلك مسبوك بلغة رشيقة تحبّب الى القارىء الاستمرار بالمطالعة .

ولعلنا نستطيع ان نلخص روح هذا الكتاب بل روح المؤلف في جميع ما وضع من سير الاعلام والرواد بقوله : « واشهر الرجال لم يستنكفوا من

تعاطي الاعمال لكسب معيشتهم وهم يطلبون اسمى المطالب . وكان العرب في صدر الاسلام يكرمون العمل ويجلّون اربابه ويعظّمون قدر رجال السعي والإقدام » .

« والنشاط يوصل الانسان الى اعلى مراقي النجاح مهما حال دونه من الموانع. ومَن اتصف بـه سبق المتّكلين على مواهبهم غير معرّض نفسه للفشل مثلهم . ومَن كان غذاؤه الاماني عاش خائر القوى . واكثر الناس تعرّضاً لهذا الداء العضال الشبّان ، فيجب ان يدربوا من صغرهم على اخراج كل شيء من حيّز الأمل الى حيّز العمل . ومـا من لذّة في الدنيا اتمّ من لذّة العامل بعمله اذا كان عمله عن طيب نفس » .

★

اما الروايات فله منها : « فتاة مصر » ، « فتاة الفيوم » ، واميرلبنان . وكلها تنمّ على دقة نظر وسعة اطلاع على حياة عصره واحوال بيئته . وقد ترجم رواية « تنكرد » للورد بيكونسفيلد ، ورواية « كليوباطره » للاثري بيرمى . وللتمثيل على طريقته القصصية نلفت النظر الى روايته « فتاة مصر » ، وهي رواية اجتماعية يطالعك فيها بأوصـاف ممتعة لحياة المجتمع في طبقاته العليا ، ويطلعك على الحركات المالية في عواصم الدول الكبرى وعلاقتها بالحرب الروسية اليابانية سنة ١٩٠٤ . ويربط كل ذلك بقصة غرامية تلطّف جوّ الرواية الجدّي وتشوق القارىء الى متابعة وقائعها .

والذي يقرأها يشعر انه ، عدا المتعة القصصية التي فيها ، قد استفاد كثيراً من آراء المؤلف ونظراته في الاحوال السياسية والحربية ، وما للمال من اثر في الحوادث الدولية . كقوله ص ٧٦ :

«ليرتكب ملك من الملوك ما شاء من الفظائع التي تقيم الدنيا وتقعدها ، ثم ليوصِ معمل «ارمسترونغ» او معمل «كروب» بمئة مدفع او مئة الف بندقية، فيغتفر وزره، وتصمت الصحف عن ذمه، او تتغنى بمدحه». وها هو في ص١١٢

يدخلنا مخدعاً سرياً في لندن وقد اجتمع فيه ثلاثة من كبار الماليين . فيتحدث احدهم عن اخبار الحرب وعن قرب انهزام روسيا امام اليابان . فيلتفت اليه مالي ثان ويقول : «هل يظن اصحابنا ان الحرب تنتهي قريباً . فيجيبه : كلا! ولا ينتظر الآن ان تنتهي في سنة من الزمان . وحرب مثل هذه يجب ان تدوم سنة او سنتين . نعم انه يستهلك في السنة الواحدة الآن قدر ما كان يستهلك في عشر سنوات . ولكن المنتفعين من الحروب صاروا كثاراً ، فلا يصل النفع الى كل منهم الا اذا كثر مقداره جداً — لا بد من ان تكبر اللقمة حتى يشبع الجميع» .

وهكذا يشرح لنا اسباب الحرب الخفية سنة ١٩٠٤ وهي طمع اصحاب الاموال بالربح : «ففي اليابان وكوريا ومنشوريا نحو سبعين مليوناً. وكلهم ديونهم العمومية قليلة ، ويستطيعون ان يعطوا من عرق جبينهم اكثر مما يعطون الآن . فعلام لا يستدينون الاموال من اولئك الاغنياء بالربا الفاحش ? » . وهذه الاموال في رأي مؤلف الرواية تستدينها الدول «لتحرق بارودا ً ، او تغرّق بوارج ، ولو ذهبت معها المُهج وذابت بها النفوس» . يقول : « ومَن الذي يستفيد من الحرب؟ الفلاح ? الصانع ? كلا ! بل فئة قليلة . هؤلاء يبنون القصور ، ويقتنون اليخوت ، ويركبون المركبات والاوتوموبيلات ، وينفق الواحد منهم على نفسه ما يكفي لمعيشة الف» . ويمثل هذا النظر الى دخائل الامور ، يصوّر لنا البورص وسماسرتها ، واصحاب الاطيان ودائنيهم، والولائم الكبرى في بيوت الاغنياء وقصور الامراء ، ومؤامرات رجال المال والسياسة، وعمل الصحافة ونفوذها ، الى غير ذلك من الشؤون العامة والخاصة .

ولقد يصح ان يقال ان العنصر الفني في روايات صروف ليس فيه من الاشراق والقوة ما نراه عند بعض كبار الروائيين اليوم ، ولكن طلاوته اللغوية مقرونة بدقة نظره الى الاحوال العامة ، وسمو اهدافه الانسانية ، كافية لان تجعل له اسماً محترماً بين كتاب الرواية .

وبما يذكر له من الناحية الادبية سلامة ذوقه في النقد ، سواء أكان ذلك لغوياً او فكرياً . اما اللغة ، فقد كان له طريقة جريئة في رد الالفاظ العربية الى اصولها والرجوع بها الى اسباب اخذها واشتقاقها وتصاريفها» [١] . مثال ذلك تعليله للمصطلح الذي استعمله للكلمة الافرنجية (Padovana) وهو الرقص البداوي . وقال : يزعمون انه منسوب الى مدينة (بادَوَى) في ايطاليا «فان كان ذلك صحيحاً فتكون الكلمة العربية معربة . ولكننا نظن انها اصلية نسبة الى البدو او البادية» [٢] .

وايثاره للفظة «الكحول» مقابلة للفظة Alcohol الافرنجية . وكان بعضهم قد اقترح بدلها كلمة «مانار» المنحوتة من ماء ونار ، فرد عليه صروف بقوله :

«ليس من السهل الغاء كلمة كثر استعمالها ووضع كلمة اخرى بدلها ولو كانت الثانية اصح من الاولى وأخف لفظاً . ومن الاقوال المأثورة « الخطأ المشهور خير من الصواب المهجور» . ثم ان لكلمة الكحول مزية على غيرها، انها شائعة في كل اللغات الاوروبية التي يقرأ ابناؤنا كتبها العلمية والصناعية. ومصلحتنا تقضي علينا ان نسير في الطريق الاقرب والاسهل لاقتباس العلوم والصنائع من الاوروبيين ، والا بقينا منحطين عنهم» [٣] . وقد كان اساس نقده في استعماله الالفاظ ما هو اقرب الى المعقول واكثر ما يرجى له حياة مع الزمن . وعلى هذا الاساس كان كثيراً ما يمس بقلمه بعض التعابير والالفاظ لكبار الذين يكتبون في «المقتطف» فيقبلون ذلك منه دون مراجعة .

فاذا جئنا الى النقد الفكري وجدنا له في قدماء المؤرخين مثلاً ، نظراً غير نظر الكثيرين. فهو يتناول كتب السير القديمة كوفيات الاعيان لابن خلكان وتاريخ الخلفاء للسيوطي وسواهما. وبعد ان يلقي نظرة على هؤلاء الذين تذكرهم

١) المقتطف ٧٢ — ٢٣
٢) المقتطف ٦٦ — ١ (الحاشية)
٣) المصدر نفسه ص ٢٠٩

كتب السِّير ممن (كما يقول ابن خلكان) «لهم شهرة بين النـــاس ويقع السؤال عنهم» ومعظمهم من العلمـــاء والادباء والامراء ، يسأل متعجباً : « أمن هؤلاء وحدهم كان قوام الامم الشرقية ؟ اين ارباب الزراعة ، اين ارباب التجـــارة والصناعة ؟ كيف كانت الامة تعيش وتنمو وترتقي؟ ». ثم يتحدث عن العرب وتجارتهم قبل الاسلام ، فيقول : « كانت قوافلهم تمرّ بسواحل الشام آتية الى مصر ، وكانت سفائنهم تمخر البحر الاحمر ، وبحر العرب ، وبحر فارس . أما المصريون ، والفينيقيون ، والاشوريون وكل الامم الشرقية التي نشر في بلادها لواء العرب ، فقولنا انها كانت أمماً زراعية ، صناعية، تجارية تحصيل حاصل » . الى ان يقول: « وبقي العرب اهل تجارة يطلبون الكسب بالمتاجرة ، ويضربون في الآفاق تجاراً حتى جاء الاسلام ، فصاروا يضربون به فاتحين . فعلامَ لا نجد في « وفيات الاعيان » ، ولا في غيره من كتب السِيَر إلا ذكرَ الفقهاء ، والشعراء ، والادباء ، والامراء ، والنحـــاة ؟ أبهؤلاء قوام الأمة لا بغيرهم ؟ وهم عنوان مجدها ، وغيرهم بُهْل هَمَل ؟ ان قال ذلك ابنـاء العصر الذي كان فيه ابن خلّكان ، فهل يقول فيه ابناء عصرنا هذا ، ونحن نرى ارباب الزراعة والصناعة والتجارة ملكوا الخافقين ؟ » .

وبمثل هذا النقد كان يمهّد للحديث عن رجال المال والاعمال في فصول قيّمة تجمع بين جلال الاسلوب وطلاوة الحديث . فكأن صروف كان ينفذ ببصره عبر التاريخ الى المقوّمات الحقيقية لعمران الامم ، ولهذا ينتقد الذين يحصرون كلامهم في طبقات خاصة ويهملون سواها ، بل يهملون أحقها بالذكر .

هذا هو صروف في صناعته الكتابية . نقول صنـاعته ، والحقيقة انه ابعد الكتّاب عن الصناعة والتصنّع . انه يجمع في كتابته بين رزانة العلم ودقته ، وطلاوة الادب وبيانه ، فهو دون مراءٍ ، إمام الكتابة العلمية في زمانه .

امثلة على اسلوبه الكتابي :

من كتابته السيَرية قوله من فصل يصف فيه الدكتور شبلي شميل (المقتطف ٥٠ — ٢٢٥) :

« العلماء فريقان فريق يبحث ويحقق حتى يكتشف ناموساً طبيعياً تبنى عليه الاحكام او حقيقة علمية تقام عليها القواعد (كأسحق نيوتون مكتشف ناموس الجاذبية ، وداروين مكتشف ناموس الانتخاب الطبيعي ، وباستور مكتشف اسباب الاختمار والفساد .) وفريق يتناول هذه النواميس والحقائق ويبني عليها علوماً واسعة النطاق ويفسر بها الافعال الطبيعية والاعمال الانسانية) كما فعل هكسلي وسبنسر وغوستاف ليبون وبوانكاره) وغيرهم من الذين افادوا نوع الانسان فوائد لا تقدر . والعلماء الاولون من اهل النظر في الغالب والاخرون من اهل العمل ، وقد يقتصر عملهم على تعميم العلوم وترغيب الناس فيها واتخاذها وسيلة لنفع الانسان . ولقد كان الدكتور شميل من هذا الفريق الاخير لانه تناول مذهب النشوء وترجم كتاباً مفصلاً فيه ، وهو شرح بخنر على مذهب داروين ، ثم توسع في هذا الموضوع وطبقه على كل ما في الكون حاسباً اياه وسيلة لغاية سامية وهي اصلاح حال المجتمع الانساني . ولو اتيح له ان يخدم بلاده في منصب سياسي لأدخل فيها اصلاحات كثيرة صحية وقضائية وتعليمية واجتماعية ، لأن مذهب النشوء لا ينحصر في تفسير تولد انواع الحيوان والنبات بعضها من بعض بل يتناول تولد الاخلاق والشرائع والقوانين وكل اعمال البشر » .

وعلى هذا النسق العلمي الهادىء يسير في شرح المترجم وآرائه العلمية مؤيداً وناقداً ومحللاً حتى يرسم لك صورة جلية لحياته .

ومن البحث السياسي ما نقله عن الانكليزية لكاتب انكليزي من مقال موضوعه « نصيب فرنسا في الحرب » (العالمية الاولى ١٩١٤) قال (وليلاحظ القارىء هذا الكلام الناصع الذي لا أثر فيه للترجمة) :

« مضى على انكلترا سنتان قبلما تمكنت من فرض التجنيد العام على رعاياها. وكانت فرنسا في كل هذه المدة تقاوم المانيا وحدها تقريباً مع ان شعبها نصف شعب المانيا ومناجمها ومسابكها في يد الالمـــان ، حتى امسى في كل بيت من بيوتها مناحة . ومـع ذلـك لم يضعف عزمها ولا فترت همتها ولا ضعف املها بالفوز اخيراً . ولما احتر القتال في جنودهـا وجنود حليفتها في اول الحرب حتى خيف ان تدور الدائرة عليهم شكت بعض الشكوى من ضعف همتنـا . ولكن لم يخامرها اقل ريب في مقدرتنا على مساعدتها لأنها تعلم ان بريطانيا لا تستفز بسرعة ولكنها متى نهضت لم تبخـل بشيء لا بمال ولا برجـال .. » [1].

ومن مباحثه العلمية وصفه لكوكب الزهرة :

والزهرة فلكها داخل فلك الارض كعطارد ، فاذا كانت الى الجهة الشرقية من الشمس فهي نجمة المساء وتغرب بعد الشمس ، واذا كانت في الجهة الغربية من الشمس فهي نجمة الصبـاح وتطلـع قبـل الشمس . واذا كانت في الاقتران الاسفـل فقد ترى شامة سوداء على وجه الشمس او لا ترى مطلقـاً . ثم تصير هلالاً وتتزايد رويداً رويداً الى ان تصير بدراً كاملاً ولا ترى كذلك إلا بالتلسكوب ، ولكنها قد ترى في النهار سائرة وراء الشمس او امامها لكبرها . وللفرق الكبير في بعدهـــا عنا بين كونها في اقترانها الاسفل او الاعلى يختلف حجمها في نظرنا كثيراً ، ومتى كانت في التربيع اي متى اتجه الينا نصف وجهها المنار بنور الشمس ، ظهرت بالتلسكوب كصفيحة صقيلة من الفضة خـالية من كل شائبة . وقد ظن راصدها من عهد طويل انهم رأوا في سطحها من الاختلاف ما يدل على انها تدور على محورهـــا دورة كاملة كل ٢٣ ساعة او ٢٤ ساعة ، ولكن شياپارلي الفلكي الايطالي رصدها من سنة ١٨٨٨ الى سنة ١٩٠٠ فوجد أن احد وجهيها يتجه الى الشمس دائماً كما يتجه القمر الى الارض ، فتكون مدة دورانها على نفسهـا هي مدة دورانها حول الشمس اي ٢٤٤ يوماً وسبعة اعشار

١) المقتطف (٥٠ - ١٢١)

اليوم . إلا ان علماء الفلك لم يقطعوا بذلك حتى الآن ، ولكن يظهر من البحث بالسبكترسكوب ان الزهرة تدور على نفسها كالأرض وان سرعتها مثل سرعة الأرض .

ويظهر من بعض الارصاد ان لها جواً يحيط بها مملوءاً بالغيوم حتى تتعذر رؤية سطحها من ورائه . وقد ادعى البعض انهم رأوا لها قمراً يدور حولها ، ولكن الارصاد الحديثة نفت ذلك او لم تثبته .

شكيب ارسلان

١٨٦٩ — ١٩٤٦

عاش شكيب ارسلان في حقبة من الزمان ذات أهمية كبرى في تاريخ الادب العربي الحديث . فانه ما كاد عصر الكبار من روّاد نهضتنا يشرف على المغيب في لبنـــان حتى أنجبه القدر فنشأ في آخر عهدهم ، ورافق في حيـــاته جميع التطورات الفكرية والاجتماعية التي حدثت في الشرق العـربي . وقد شارك بقلمه ولسانه في هذه التطورات ، فترك وراءه أثراً عميقـــاً من أدبه النثري والشعري . ولو ألقينا نظرة عامة على الاعوام التي قضاها ، منذ ولادته الى يوم وفاته ، لرأيناها تقع في ثلاثة عهود رئيسية . وهي :

العهد اللبناني: ويشمل زمن الحداثة والتحصيل العلمي . والذي نحصّله من رواة اخبـاره ، انه بدأ التحصيل العلمي بالدرس على ايدي معلمين خصوصيين ، وبقي على هذه الحال حتى بلغ العاشرة من عمره . ثم هبط من بلدته الشويفات الى بيروت ، فدخل مدرسة الحكمة حيث بقي طالباً فيها نحو سبع سنوات تلقّن في اثنائهـــا أصول العربية والفرنسية . وانتقل بعـد ذلك الى المدرسة السلطانية فتعلّم التركية وبعض العلوم الدينية وغيرها . ولما أتمّ تحصيله تولى

بعض المناصب الحكومية ، حتى اذا أعلن الدستور العثماني سنة ١٩٠٨ وبوشر بعده انتخاب نواب من البلدان العثمانية العربية لمجلس النواب العثماني ، انتخب نائباً عن مقاطعة حوران ، فقصد الاستانة للقيام بواجبات النيابة .

العهد القومي العثماني : إذا استثنينا بعض مناطق الجزيرة العربية ، وشمالي افريقيا يومئذ ، فان معظم البلدان العربية كانت داخلة في نطاق السلطنة العثمانية، فلا بدع ان يشعر شكيب ارسلان بأنه عثماني ، فقد كان كل عربيّ من غير المناطق المستثناة ، يشعر هذا الشعور . والذين منا ادركوا ذلك العهد يعرفون ان من العرب من كان شديد الولاء لعثمانيته والغيرة عليها ، ومنهم من لم يكن كذلك. وكان كاتبنا من الفريق الاول. فلما غزت ايطاليا سنة ١٩١١ طرابلس الغرب ، دفعته عصبيته العثمانية الى الذهاب مع عدد من قادة الاتراك لمقاومة الغزاة هناك والوقوف في سبيل اطماعهم . ونفس هذه العصبية هي التي دفعته ، في اثناء الحرب العالمية الاولى ، الى مناصرة تركيا والدعوة لها ، اذ كان يعتبر الحلفاء اعداء للعرب وللاسلام ، بل كان يناهض بعض زعماء العرب الساعين ضد تركيا والمطالبين باستقلال البلدان العربية وانفصالها عن الدولة العثمانية ، ولا يرى في مساعيهم نحو هذه الغاية إلا خدعةً دبّرها المستعمرون للسيطرة على هذه البلدان واستثمار خيراتها . كان مرة في مصر وقد ضمه مجلس مع فئة من كبار هؤلاء الزعماء ، فتطرق الحديث الى حال الدولة العثمانية ووجوب التخلص منها. فقال عبد الحميد الزهراوي: «أين هي الدولة ؟ فقد ذهبت!» فأجابه كاتبنا : «انها لم تذهب ، ولكنكم انتم لا تزالون تُرجفون بها وتتفاءلون بسقوطها ، وتقولون هذا امام الاجانب . والحال انكم تعلمون انه ليس لنا مائة دولة ، وانها اذا سقطت لا نجد من يسدُّ مسدَّها»[1] .

ولما كان يرافق القائد التركي جمال باشا ايام بسطت يده على منطقة الجيش

١) كتابه (السيد رشيد رضا) ص ١٥٤

الرابع ، أي الاقطار الشامية والحجازية ، اتهمه البعض في قوميته العربية ، وروّجوا عنه الاشاعات الكثيرة ، وفي مقدمتهم الملك حسين عاهل الحجاز وانصاره ممن كانوا قد ثاروا على تركيا وقدّموا للحلفاء كل مساعدة لقهرها في ساحة الحرب وقهر حلفائها الالمان .

ولسنا الآن في معرض البحث التاريخي لنخوض في هذه المسألة ونحاول كشف اسرارها ، ولكننا نستطيع القول ان سياسته العثمانية لم تكن عن كره لقومه العرب ، بل عن كره للسياسة التي كان يتمشى عليها الراغبون في تجزئة السلطنة ، وبالتالي إضعاف الخلافة الاسلامية . فلما انكسرت تركيا وتقلّص ظلها عن البلدان العربية ، ظلّ شكيب ارسلان على ولائه لها وللخلافة . ولم يفتر ولاؤه إلا يوم تنكّر الاتراك للخلافة وألغوها وحوّلوا دولتهم الى جمهورية قومية لا صلة لها بالعرب .

العهد العربي : منذ ذلك الحين نفض يديه من السياسة التركية القومية ، وحول انظاره وولاءه الى قوميته العربية . فالعرب قد اصبحوا بعد الحرب الاولى مستقلين عن تركيا ، ولكنهم وقعوا في قبضة الانتداب . اذن لم يعد موقف كاتبنا بين العرب والاتراك يدعو لبقاء السلطنة العثمانية التي كانت تضمهم جميعاً ، بل بين العرب ودول اوروبا المستعمرة ، فهو الآن عربيّ يعمل لاستقلال بلاده . وبرغم الشكوك التي كانت قبلًا تحوم حوله ، فقد اعترف قادة القضية العربية بأخلاصه لها . وتكفي شهادة فيصل الاول فقد روى هاشم الاتاسي: « ان فيصل كان يذكره بخير واذا ذكر امامه يطربه ويقول ليس لمجاهد عربي فضل الا وله مثله عليه . لئن جاهدنا بسيوفنا فقد جاهد بقلمه بما لا يقل تأثيراً عن فعل تلك السيوف » (١) .

ولما قررت اللجنة التنفيذية للمؤتمر السوري الفلسطيني سنة ١٩٢٢ تأليف وفد

١) ذكرى شكيب للطاهر ٤٤٧

عربي يدافــع عن سوريا وفلسطـين ويسعى لتحرير هـذين القطرين من براثن الاستعمار، فيبسط قضيتها امام الرأي العـام العالمي ، ويتابـع الدفاع والسعي لاستقلالها في جمعية الأمم بجنيف ، لم يجدوا بداً من الاستنجــاد بشكيب والانتفـاع بثقافته ورجوليته واخلاصه فانتخبوه في الوفد [1] . وكان الوفد مؤلفاً منه ومن احسان الجابري وسليمان كنعان [2] . وهكذا اتيحت له فرصة عظيمة للعمل في سبيل قومه. فانتقل سنة ١٩٢٥ من برلين حيث كان مقيماً إلى جنيف ، واستقر فيها لأجل هذه الغاية حتى نهاية حياته سنة ١٩٤٦ .

رحلاته : كان صاحبنـا نضوَ اسفـار . فمنذ ترك وطنه لبنان وهو في ريعان الشباب ، قذفت به الاقدار في شتى البلدان الشرقية والغربية ، تطول اقـامته في بعضها ، وتقصر في البعض الآخر تبعـاً للظروف والأحوال . ومن البلدان التي زارها او اقـام فيها عدا الشرق العربي : تركيا والمانيـا وايطاليا وفرنسا وسويسرا وانكلترا واسبانيا واميركا وغيرها . وكانت رحلاته ذات ثمار ادبية وسياسية . فألّف كتباً وصف فيها مـــا شاهده وما انطبـع في نفسه ، وكتب ما لا يحصى من الرسائل والمقالات السياسية . وبرغم ما شاهده من آثار ومآثر المدنية الغربية وما يتجلى فيهـــا من ظواهر القوة والعلم والحضارة ، لم يتزعزع ايمانه بالاسلام وما شاده قبلًا من مدنية شهد لهـا التاريخ . ولذا نراه يقول مفاخراً :

« فالمدنية الاسلامية هي من المدنيات الشهيرة التي يزدان بها التاريخ العام ، والتي تغص سجلاّته الخالدة بآثارها الباهرة . وقد بلغت بغداد في دور المنصور والرشيد والمأمون ، من احتفال العمارة وتناهي الترف والثروة مـــا لم تبلغه مدنية قبلها ولا بعدها الى هذا العصر ، حتى كان اهلها يبلغون مليونين ونصفاً

١) الامير شكيب لسامي الدهان ص ١٩ .
٢) السيد رشيد رضا ص١٥٨ .

من السكان »[1] .

وتتقد في نفسه الغيرة الدينية فتظهر في ترسل مسجوع اذ يقول : « أينسى حساد الاسلام المكابرون في عظمة فضله ، ان المدنية الشرقية يوم ظهر الاسلام كان اخنى عليها الذي اخنى على لبُد ، وانه هو الذي جدّدها واحيا آثارها ، وأقال عثارها ، وانها بعد ان كانت قد امحت ولحقت بالغابرين ابرزها من اصدافها ، وجلاها بعد ان كانت مالفوفة بغلافها ، ونشرها في الخافقين ، وبلّجها كفلق الصبح لكل ذي عينين[2] .

على انه لا يسمح لغيرته وحمّيته ومفاخرته بالماضي ان تعميه عن نقائص الزمن الحاضر ، فهو ينعي على المسلمين في شتى الاقطار تأخرهم عن الامم الغربية ويعزو ذلك الى اسباب منها : ١) عدم سخائهم في سبيل الدفاع ، فهم لا يبذلون كما يبذل سواهم من الامم لحماية انفسهم وتقويتها .

٢) فساد كثير من أمرائهم وزعمائهم ، وخدمتهم لمصالح الدول الاخرى .

٣) فشو الجهل فيهم وجمودهم على القديم بما يمنعهم من التقدّم واللحاق بركب الحضارة ، ولكن ذلك لا يبرر قول الحساد ان الدين هو السبب في تأخرنا . فقد برهن الدين فيما مضى على قابلية للتقدم والحضارة . فالنقص ليس فيه ولكن في الذين لا يفهمونه على حقيقته فيتعلقون بأوهام لا طائل تحتها ويعزون الى الدين ما هو براء منه .

فكاتبنا لم تزده الرحلات الا تمسكاً بقوميته فلم تبهر عيناه بما رآه في الغرب ولم يفقد ثقته بنفسه وبقومه .

مؤلفاته :

ذهب شكيب ارسلان ، وبقيت آثاره الأدبية شاهدة بما كان لقلمه من مكانة

١) كتابه « لماذا تأخر المسلمون » ص ١٠٩ .
٢) المصدر نفسه ١١٣ .

بين الاقلام . ولا يتسع المقام لاثبات جميع مـا دبّجه يراعه من مئات الرسائل والمقالات ، فنكتفي بما نشره من كتب . وهي تقع في ثلاثة ابواب :

١) **ما حقق من مخطوطات قديمة** ـ ومنهـا : الدرّة اليتيمة لابن المقفع ، ورسائل الصابي ، ومناقب الامام الاوزاعي، واخبار العصر في انقضاء بني نصر. وهذا الاخير نشره ذيلًا لترجمة كتاب شاتوبريان « آخر ملوك بني سراج » .

والناظر في مـــا حققه من هذه الكتب لا يسعه ان يعدّ تحقيقه من النوع العلمي الدقيق ، فالكاتب متضلع من اللغة والادب ، واسع الاطـلاع العـام ، حسن التفسير لغريب الالفاظ . لكن التحقيق العلمي يحتاج الى وقت وجلَد ومراجعة كثيرة ، ولا نظن انه كان لديه متّسع من الوقت للقيام بكل ذلك .

وقد راجعنا مثلًا « الدرّة اليتيمة » و « رسائل الصابي » فوجدنا اثر العجلة في النشر ظاهراً عليها .

٢) **سير بعض الاخصّاء**[1] ـ ومنها : « ديوان اخيه نسيب » . ويتضمن دراسة شعر اخيه وترجمة لحياته .

« شوقي أو صداقة اربعين سنة » . وفيهـا يدافع عن شعر شوقي ويبدي آراءه في الادب ومذاهبه . وقد جمع فيهـــا كل مـا دار بينه وبين الشاعر من مكاتبات وما تبادلا من احاديث .

« السيد رشيد رضـا أو اخاء اربعين سنة » . وقد اثبت في هـذا الكتاب ما كتبه رشيد رضا عن نفسه ، ومـــا ورد في المنار من اقواله عن شكيب ارسلان . واضاف الى ذلك مراسلات كثيرة جرت بينهما .

٣) **تواريخ وأدب** ـ وهي: «غزوات العرب في فرنسا وايطاليا وجزائر البحر المتوسط » ، « تاريخ العرب في الاندلس » ، « الحلـــل السندسية في الاخبار الاندلسية » ، « الارتسامات اللطاف » ، « تعليقات على ابن خلدون» ، « لماذا تأخر الاسلام » .

---

١) هذه اللفظة مولدة وليست في المعاجم .

٤) **كتب مترجمة** - ومنها : « اناتول فرانس في مباذله » ، « آخر ملوك بني سراج » .

اسلوبه الكتابي: ذكرنا سابقاً ان صاحبنا نشأ في أواخر عهد الروّاد ، يوم كانت اللغة تنفض عنها ما كان قد لحقها من الركاكة والابتذال في طور الانحطاط اي في أوائل القرن التاسع عشر وما اتصل به من عهود سابقة . ففي ذلك الطور بلغت اللغة العربية اسفل دركاتها . فلغة الدواوين التي كان الكتاب ، منذ عهد عبد الحميد بن يحيى الى ايام القاضي الفاضل ومن تلاه من ارباب العلم ، يتنافسون في سبكها بقوالب محكمة من البيان، ويحلونها بحلل قشيبة من الفصاحة لم تكد تصل الى القرن التاسع عشر حتى اصبحت منحطّة تكتب بلغة عافية فاسدة لا تمتّ الى الادب بشيء . اما الرسائل الادبية ففقدت روح البلاغة وتحجرت في قوالب من الزخارف الفارغة والتكلّف الثقيل والتقليد البارد ، فكان عمل روّادنا في القسم الاكبر من القرن الماضي اقالة اللغة من عثارها ورفعها عن حضيض الركاكة والابتذال . لكنهم لم يخرجوا عن طريقة فصحاء المترسلين من أهل العصر العباسي ، بل تابعوهم وجروا بجرام في استعمال السجع والمحسّنات البديعية .

فلما قامت الطبقة التالية كان الاسلوب البديعي لا يزال سائداً في الترسل . وفي الوقت نفسه كان التطور الادبي قد ولّد اسلوباً آخر هو الاسلوب المرسل الخالي من تكلّف السجع والبديع . فهذه الطبقة وجدت نفسها بين عاملين : عامل المحافظة على القديم ، وعامل الجري مع تيار التطور . تترسّل فتتأنق وتسجّع، وتكتب للجمهور على صفحات الصحف فتذهب مذهب البساطة وترسل الكلام على السجيّة، وهم بين من يجنح بالاكثر نحو البساطة ويطلب الجديد، ومن يتمسّك بالاناقة ويحافظ على السَنن القديم . وكان شكيب ارسلان بطبيعته من المحافظين الذين يعتزون بفصاحة الأئمة من المنشئين . على انه لم يستطع مقاومة التيار الجديد فكان يعرّج بين الفريقين ، تارة يستعمل هذا وطوراً يستعمل ذاك

على ان الاسلوب الجديد لم يلبث ان غلب على اكثر مؤلفاته . ولم يتمسّك بالقديم الا في مقدمات كتبه . كقوله في مقدمة « غزوات العرب في فرنسا وايطاليا وجزائر البحر المتوسط » : « ولعمري ان هذا التاريخ الجيد وان سقتْه سيول المحابر ، واخضرّت له اعواد المنابر ، وسبقت فيه تآليف استولى اصحابها على الامد اخراجاً ، ولمعت فيه كتب لو لاحت لكانت بروجاً ، ولو نضدت لكانت ابراجاً، لا تزال فيه نواقص بادية العِوار ، ومعالم طامسة الآثار، ومظان متوارية غامضة ، ومعلومات قاعدة غير ناهضة ، تحتاج الى همم بعيدة من الافواج الآتية ليثيروا دفائنها، والى معارف واسعة عند السلائل المقبلة لينالوا من كفائتها » . وعلى هذا النمط سائر مقدماته .

ولقد ترى مثل هذا التأنق البياني في تضاعيف الكتب نفسها ، وذلك اذا كان المقام عاطفياً يتطلب الكلام الموزون الصادر عن انفعال نفسي ، كقوله في وادي ليّة : « وهو الذي فيه الروض النضير ، والماء الغزير ، والدوح الكبير ، والكروم التي ليس لها نظير، والرمان الذي حبّه كحب اليواقيت والذي ذكره في البلاد يسير»[1] . وقوله في مياه القطر الشامي :« وقد ابى الله الا ان يجعل بازاء كل سهل حزناً ، وان لا يدع الكمال نصيب شيء في الدنيا . فكثرة المياه في القطر الشامي التي هي مصدر رخائه ، ومرجع نضارته وبهائه ، هي ايضاً سبب وبائه وشدة بلائه . فقد تقرر ان الاوبئة تتفشى في البلاد التي تشرب من الانهار ، اكثر ممّا تتفشى بالبلاد التي تشرب من الآبار »[2] .

وطبيعي أن يكثر في كلامه العاطفي الاطناب والازدواج . وقد تعرّض من جراء ذلك للانتقاد[3].

ويجدر بنا ان نذكر ان ما ترجمه عن الفرنسية لا اثر فيه للضعف

١) الارتسامات ص ١١٠ .
٢) المصدر نفسه ص ١٣٩ .
٣) راجع مطالعات السكاكيني ص ١٠٠ – ١٦٨ .

والاضطراب، فهو مسبوك في قالب عربي متين لا يختلف عما في مصنفاته الخاصة من قوة في التعبير وروعة في البيان ، ومـــا اشبهه في ذلك بعبد الله بن المقفع مترجم كتاب « كليلة ودمنة » .

اما نثره المرسل وهو الغالب في كتبه ، فهو يميل الى الفخامة والجزالة ، وقد يدفعه هذا الميل احيانـاً الى استعمال الغريب من الالفـاظ التي قلّما يعمد الى استعمالها سواه، والتي يتجنبها كتّاب هذا العهد من اصحاب الكلام العذب الذي يستسيغه الجمهور . ومن ذلك قوله :

وبقيت في هذه « اللأواء » ـ اي في هذه الشدّة والمحنة .

وسكان البوادي اقرب الى الطبيعة « الفجّة » ـ اي التي لم تمسها بصنعة يد الانسان .

فلم يمض على مقـامي ايام حتى « التـاث » مزاجي ـ اي اختلط والتبس ، ويقصد انحرفت صحتي .

وكنت انتجع منها (سويسرا) « الشناخيب » ـ اي اقصد اعالي الجبال.

فأخذوا « يدوكون » في الطريقة التي تلزم لأجل تمكيني من الرقاد ـ وذاك بمعنى تضايق واضطرب .

بسيط « افيح » تلعب فيه الرياح ـ اي سهل واسع مفتوح الجوانب .

بعد ان كنت على « ثنيّة » الهلاك ـ اي بعد أن اشرفت على الهلاك .

ولا « يتكاءدها » امر معيشتهم ـ ولا يضيق بها امر معيشتهم .

يجب الآن ان « نأرز » الى الجزيرة التي هي مهد العرب ـ اي يجب ان نعود اليها ونلتجيء بها .

ازالوا « حُرشتها » ـ اي ازالوا خشونتها .

ويكره التبجح والبأو ـ البأو الفخر والمباهاة .

فقد اختص منها العرب بالشِقص الاوفر ـ اي النصيب الاوفر .

هذا « الصبوء » عن الاسلام – هذا التراجع عنه او الخروج منه .

أما الحجاز فالغيث فيه أكثر مـا ينزل نفضا – والنفضة هي المطرة تصيب قطعة من الارض وتخطيء اخرى .

وقس على هذه الالفاظ كثيراً غيرها .

وكما يميل الى الجزل والغريب من الالفاظ ، يميل الى ابتكار العبارات المجازية ولكنه يأتي بها متينة جميلة لا تشوبها غرابة كقوله: « المانيا لا تعرف الجرّ الا عابر سبيل » . وقوله : « وطالما ألبست يدي عند الكتابة قفازاً » . وقوله عن الاجانب : « هجمت همتهم على تقليص النفوذ الوطني » .

هذا من جهة اللفظ والتركيب . امـــا من حيث المقاصد المعنوية فلكتابته خصائص يشارك فيها كبار الكتاب ومنها :

الوصف :

وهو يجيده ، فتصويره تصوير فنّان لبق يعرف كيف يمزج الالوان ويخرج منها صر ' رشيقة . ولنضرب بعض الامثلة على ذلك ، قـــال في عرض رثائه للسيد رشيد رضا واصفاً ايضاً صاحبيه محمد عبده وجمال الدين الافغاني :

« وهؤلاء المصلحون الثلاثة هم لات هذا الرأي وعُزّاه ومَناته ، والذين بهم سطعت براهينه وبيّناته ، وقد لقوا في سبيله الاهوال، وتعرّضوا لكيد الرجال، وقيل فيهم مـا قيل في غيرهم من قبلهم ممن ارادوا الاصلاح مـــا استطاعوا ، فتناولهم اهل عصرهم بقوارص الانتقاد وسلقوهم بألسنة حداد ، حتى اذا مـــا تعاقبت الاعصـار اقرّت الامة بفضلهم ، ورجعت الى رأيهم ، وحصل لهم من الاقبال والحظ بعد الممات ، مـــا لم يحصل في هذه الحياة » . الى ان يقول : « فهؤلاء هم الفريق الذي يزداد حياة بعد الممات ، وقيامـاً بعد رفات ، واقبالاً بعد الذهاب ، وعلوّاً بعد الموأراة في التراب » .

التعليل والتفسير :

لكاتبنا ميل ظاهر في كتاباته الى تفسير الامور وتعليل اسبابهـــا . يزور مكـّة مثلاً ويراها جرداء قاحلة ، فيصفها وصفاً يشعرك بحرّها وقحولة ارضها ، ولكنه لايقف عند هذا الحد مكتفياً بوصفها الخارجي بل يتجاوزه الى غاية الله من جعلها كذلك فيقول : « وكأنّ القاصد الى هذا الوادي يزداد بهذه القسوة الجغرافية اجراً وثواباً وارتفاع درجـات . فبقدر ما افاض الله عليه من الشعاع المعنوي قضى بحرمانه من الحلية المادية » [1] .

ويلفت نظره استعمال ابن حوقل للفظة « مواجن » اذ يقول في بعض ارض الحجاز : « وكانت اكثر مياههم من السماء الى مواجن بها كانت عامرة » فيقف صاحبنا على لفظة مواجن ويأخذ بتحرّي اصلهـا فلا يجدهـــا في القاموس بهذا المعنى ، ولكنه يجد مـا هو قريب منهـا . وبعد البحث يتوصل الى ان صوابها باللام . فهي في الاصل مواجل ، اي المياه المتجمعة في اصول الجبال والاودية، ومع الزمن ابدلت اللام نوناً ، وذلك قبل زمـان ابن حوقل ، فاستعملها هذا الجغرافيّ كما كانت شائعة في زمانه [2] .

ويلاحظ ان البلدان الحارة القليلة المياه كالحجاز مثلاً ، يتلذذ الانسان بقليل ما يجده من الماء والخضرة فيها ، اكثر من تلذذه بمياه اوروبا الكثيرة وخضرتها الدائمة. ويعلل ذلك بأن الأمور في الغالب نسبيّة تغلو وترخص وتحسن وتسمج بحسب الزمان والمكان . فحيث تكثر الميـــاه والخضرة والبرودة ، لا يشعر الانسان بلذة هذه الامور كما لو صادفها في بلاد يشتد حرّهـــا وتقل مياهها وخضرتهـا . ونقول استطراداً لعل ذلك هو سبب اختلاف بني الشرق عن بني الغرب في شغفهم بمياه الينابيـع والانهار.

واذ يرى بعضهم خائفين على الدين من العلم الحديث لاعتقـادهم ان في تزايد

١) الارتسامات ص ١٥ .
٢) المصدر نفسه ص ٣١ .

العلم مـا يقلل رغبة النـاس في الحج الى البيت الحرام ، يحاول طمأنة خواطرهم وتبديد مخاوفهم ، فيقرر « ان العلم لا يقدر ان يصنع شيئاً مع الدين ما دام سر الكون لا يبرح مغلقاً ، وما دام الانسان عاجزاً عن مكافحة الموت فلا بدّ للخلق من دين . وما ثورات الالحاد الا غمرات ثم ينجلين ... ومهما ترقى الناس في العلوم والفنون لا يبرحون محتاجين الى الديانة ، نازعين الى الغيب ، وانه لن تبرح اماكن العبادة منابأ لأتباعهم يقصدونها من كل فج سحيق »[1] .

فكاتبنا لا يخـاف من العلم على الدين ، معللاً ذلك بانغلاق سرّ الكون وعجز الانسان عن مكافحة الموت . وهو لذلك يدعو قومه الى العلم مظهراً أسفه من عدم اهتمامهم بالعلوم الطبيعية والميكانيكية والكيماوية « وجميع العلوم التي يكفل لهم اتقانها الحيل الحربية ، وجر الاثقال، واختراع الآلات التي توفر لهم دماءهم » ، وينحي باللائمة على الذين ينفرون او ينفّرون منها « كأنها من عمل الشياطين » فيقضون اعمارهم في درس العلوم اللسانية والدينية مما لا شك في ضرورتها لانها قوام اللغة والعقيدة ، « ولكنه لا يغني اصلاً عن العلوم الطبيعية التي هلك اليوم من أهملها[2] » .

النقد الادبي :

لشكيب ارسلان يد تذكر في النقد، ونظر دقيق في الامور. والذي يراجع كتاباته يرى في نقده غرضين رئيسين أولها : الدفاع عن عمود الادب القديم . والثاني : نقد اقوال الاجانب وآرائهم في حياة العرب وادبهم .

فمن الاول مقدمته التي صدّر بها كتاب الغمراوي في الرد على كتاب طه حسين «الادب الجاهلي» . ففي هذه المقدمة يقف موقف المفنّد لما ورد من نظريات في كتاب الادب الجاهلي محاولاً ان يدلـّل على صحة مـا يذهب اليه بالادلة العقلية

١) الارتسامات ص ٨٥ .
٢) المصدر نفسه ص ١٢٣ .

والتاريخية ، ومتّهماً صاحب الكتاب بتقليد الافرنج والاعتماد على آرائهم. ومع ما في نقده احياناً من حسن النظر فان الروح السائدة فيه هو الدفاع عن القديم وعن رواته ، وعدم التسليم بكل ما يأتينا عن طريق الاجانب الا اذا ثبت لنا بالبرهان الجلي .

ومن هذا الدفاع رده على خليل السكاكيني ، اذ نقد في اسلوب كاتبنا الاطناب والسير في ركاب الاقدمين ، وقد تبادل الرجلان الردود . ويظهر لنا ان دفاع كاتبنا كان قوياً ، وان يكن منتقده من القائلين بالمذهب الجديد الذي يميل الى الاقتصاد والسهولة . والذي يريد ان يطّلع على اقواله واقوال منتقده فليراجع كتاب « مطالعات في اللغة والادب » لخليل السكاكيني مما ورد فيها لشكيب ارسلان قوله : وقصارى الاديب العربي اليوم ان يتمكن من افراغ الموضوع العصري في قالب عربي بحت ، لا يخرج باللغة عن اسلوبها ، ولا يهجن لهجتها ، ولا يجعلها لغة ثانية » . الى ان يقول : « وان القمة العليا من ذلك هي لغة الجاهلية وصدر الاسلام ، ثم ما يليه نوعاً عندما كانت اللغة العربية في عنجهيتها ، والفصاحة في ابان سورتها . فأما المذهب الجديد الذي اشار اليه « منتقده » في الادب والانشاء العربي فلا نعلمه في المذاهب ولا وصل الينا خبره [1] » .

ومع دفاعه عن الاسلوب القديم ونقده اصحاب الانشاء الجديد لم يكن متعنتاً تعنت امام لغويّ عصره ابرهيم اليازجي ، فقد انتقده في منعه بعض الالفاظ فقال عنه : « كان مولعاً بالتعنت ، متهافتاً على التنقص ، لا يتردد عن تحجير الواسع مهما اتسع ، وكان اذا لم يطلع على مسألة من المسائل نفاها عن العربية ، وان لم يجد في المعاجم المعروفة بين ايدينا لفظاً من الالفاظ سجّل بأنه ليس بعربي ». وعلى هذا الاساس بنى كاتبنا دفاعه عن شوقي وردّ عنه انتقادات

١) مطالعات السكاكيني .

اليازجي [1] . وهو من القائلين بالتوليد والوضع لما تقتضيه المعاني الجديدة من الالفاظ الجديدة ، وله مباحث لغوية تدل على طول باعه وسعة اطلاعه .

وقد تصدى لبعض المستشرقين ونقد جهلهم بأصول العربية ، وبيّن ان هذا الجهل قد اوقعهم في اخطاء كثيرة ، وانه من الواجب ان لا نجاريهم في كل ما يقولون بل علينا أن نتحفظ وننظر في احكامهم بروية ودقة. وقد اشرنا الى ذلك آنفاً في ذكرنا مقدمته لكتاب الغمراوي . وهو لا ينكر وجود علماء محققين بينهم يتنزهون عن القاء الكلام على عواهنه ، ولكنه يهاجم منهم على حد قوله : « فئة متحذلقة متفلسفة في كل شيء ، مولعة بالنقض وهدم النظريات المقررة بدون داع الى ذلك سوى الميل الى الإطراف والاتيـــان بشيء جديد [2] » . ويعقب على هـذا بقوله : « وفي الشرق متنطعون لا يعجبهم الا تقليد هـذه الفئة من الافرنج » .

واذا تحولنا عن اللغة والادب الى المجتمع الشرقي نرى لكاتبنا بصيرة نافـذة وقلماً في النقد لاذعــاً . فهو ينتقد في قومه الجمود الفكري والتخاذل وقبض الكف عند اشتداد الازمات ، كما ينتقد التفرنج الذي يضعف شخصية الشرقي وقوميته وثقته بنفسه ويذهب بعزيمته وثروته . وهذا ما حداه الى مناصرة تركيا يوم كانت تمثل العزة الشرقية والكرامـة القومية ، ومقاومة القائمين عليها العاملين على تجزئتها .

كما انه اصبح ينتقد اولي امرها لمـــا اخذوا بعد الحرب يتنكرون للعرب وينفقون ما لديهم في تقليد الافرنج واقتباس سيئاتهم . ومن ذلك ما وجهه الى مصطفى كمال يوم منع الاتراك عن الحج بحجة ان التركي يجب ان لا ينفق ماله في بلاد عربية ، قال متهكما : « فهو قد اراد هذا لأجل التوفير بزعمه . ويا ليته احتاط للتوفير على امته في الطرق التي ذهبت فيها الملايين من اموالهم الى جيوب

1) شوقي او صداقة اربعين سنة ص ٥٥ — ٥٦ .
2) الارتسامات ص ١١٢ .

الافرنج ، كالخمر والميسر والالبسة الافرنجية وما اشبه ذلك مما كان السبب في هويّ تركيا الاقتصادي الى ما هوت اليه [1] .

وخلاصة القول ان شكيب ارسلان كاتب في الطليعة من كتابنا الذين تلوا عصر الرواد ونبغوا في النصف الاول من قرننا الحاضر . فقد حمل من القرن الماضي واساتذة القرن الماضي الشغف بالقدماء والميل الى تحديهم . واختبر احوال القرن العشرين سياسياً واجتماعياً فصورها لنا بقلم متمكن من اللغة حريص على اساليب بيانها. فلا بدع أن يلقبه بعضهم بأمير البيان كما لُقّب شوقي بأمير الشعراء .

فرح انطون

١٨٧٤ — ١٩٢٢

نشاته : ولد هـذا الكاتب في ميناء طرابلس الشام (وهي اليوم طرابلس لبنان) وفيها تلقن ما كان يتلقنه اترابه في المدارس الابتدائية . ولما بلغ الثانية عشرة ارسل الى مدرسة ثانوية كانت قد انشئت حديثاً في دير كفتين قرب طرابلس وبقي فيها الى ان انهى دروسه وهو في السادسة عشرة من عمره. وقد وصفه وهو تلميذ في ذلك المعهد احد اساتذته فقال : «فتى اسمر اللون، نحيف البنية ، واسع الجبين عاليه ، واسع العينين مستديرهما . كان فيما اذكر يحب المطـالعة وينصبّ عليها اكثر مما يحب دروس امثولة المعلم . كان حيياً ولكن لم يكن جباناً لانه كان اذا دعي للخطابة المدرسية يمشي الى المنبر بقدم ثابتة ورأس مرفوع . والذي لا يزال في ذاكرتي انه كان ميـــالا الى الكتابة والخطابة ، وكان منذ ايامه المدرسية ميالاً الى صناعة البيان شديد الرغبة فيهـــا [1] » . ولا يريد الاستاذ بالبيان هنا التكلف الصناعي للاتيان بالصور البيانية والمحسنات الكلامية، بل يريد الكتابة المشرقة الطلّية التي تحمل المعنى الى الاذهان بطريقة مؤثرة. وسنرى ما يزكّي كلام الاستاذ حين نتحدث عن أسلوب فرح الكتابي. ويعطينا رفيقه في

١) بتصرف من كلمة الاستاذ جبر ضومط يوم حفلة تأبينه . راجع « فرح انطون » عدد خاص من مجلة السيدات والرجال ص ٩٢ .

كفتين نسيم صيبعة صورة عن حداثته فيقول في تأبينه - بعد ان وصف دير كفتين وما حوله من مدافن - : «عند هذي المدافن الهادئة التي ترمي عليها اشجار الزيتون ظل السلام ، ابتدأ الفتى فرح انطون ينظر الى عِبَر الماضي وحوادث العصور الخالية ، فتملكت نفسه الطاهرة فكرة عدم الاكتراث بالماديات الزائلة ونزعت به الى معرفة اسرار الحيـــاة والى كل ما هو سام وخالد . وفي هذه المدرسة ابتدأ يجلس تحت القبة الزرقاء وان يطلق لمخيلته العنان فلا يقف بها الا عند آخر نجمة تلوح في الافق »[1]

وهذا وصف خيالي قد لا ينطبق على الواقع ولكنه يلقي بعض الاضواء على شخصية فرح انطون منذ حداثته . ونحن لا نشك ان صفة التأمل كانت طبيعية فيه وقد أرهفتها مطالعاته الكثيرة بعدئذ .

حياته الادبية :

وبعد ان اكمل تحصيله في مدرسة كفتين عـــاد الى منزل والده في ميناء طرابلس . وكان والده يتاجر بالخشب ومن الطبيعي ان يوجهه نحو التجارة . وفعلاً شرع يدرّبه على اصولها ، ثم عهد اليه ببعض المسؤوليات فقام بها مجاراة لوالده ونزولاً عند رغبته. ولكن ميله لم يكن الى التجارة (وسنرى انه حاولها في أميركا فلم يفلح) بل الى الادب فانصرف عنها لتولي ادارة مدرسة ابتدائية لطائفة الروم الارثوذكس أنشئت حديثاً في طرابلس ، وظلّ في هذا العمل بضع سنين كان في أثنائهـــا يطالع كتب الادب والفكر من فرنسية وعربية ويكاتب بعض الصحف . وكأنه شعر انه منتدب لعمل اوسع ولخدمة وطنية اصلح لحياة قومه ، وان ذلك لا يتم له إلا بالتفرغ لصناعة القلم . ولكن اين يتفرّغ لذلك ؟ نظر في احوال بلده فوجـد ان الحرية الكتابية مخنوقة فيه ، وان عين المراقبة في عهد السلطان عبدالحميد لم تكن تفسح مجالاً لأرباب الاقلام، فرأى ان يولـّي وجهه شطر مصر، وكانت سمحة للمتأدبين والمفكرين، ولم يلبث

١) فرح - مجلة السيدات والرجال ص ٨٥

ان قصد الاسكندرية (١٨٩٧) يجرّب حظه فيها . وهناك بدأ نشاطه الكتابي بتحبير المقالات لبعض الصحف كالأهرام وسواهـا . وبعد سنتين قضاهما في الكتابة للصحف ، شرع باصدار مجلة سمّاها «الجامعة العثمانية» ، وشعر العالم الادبي في مصر وسواها ان في الجامعة روحاً جديدة فأقبل عليها ، وأصبح له مريدون وانصار كثيرون . وقد عرف فرح أنطون بصراحته في كل ما يعتقد ان فيه اصلاحاً لوطنه وقومه . ولذا تراه في مجلته الجامعة يقاوم المعتقدات الباطلة والمبادىء التي يرفضها العقل او تتبرأ منها الروح الانسانية . وقد قاده ذلك الى الترجمة لعدد من كبار المفكرين الذين رفعوا راية الحرية الفكرية وانارو للبشر سبيل الحقوق القومية .

وكان يعنى اولاً بالشؤون العثمانية اذ كان يعتقد انه يجب اصلاح الدولة العثمانية لتصبح دولة راقية وتكون رابطة حقيقية لشتى العناصر فيها . وهذا ما دعاه الى تسمية مجلته اولاً بالجامعة العثمانية . على انه بعد الاختبار عدل عن هذا الاسم واكتفى بأن يسميها «الجامعة» فقط .

وفي ذلك يقول من كتاب مفتوح وجهه الى والي بيروت : « تعلمون يا صاحب العطوفة ان هذه المجلة كانت تدعى الجامعة العثمانية ، وقد صرفت همّها منذ نشأتها للدعوة الى ما فيه التوفيق بين العناصر العثمانية المختلفة . وذلك لسببين : ١) ان اخلاق صاحبها تكره النزاع والشقاق. ٢) ان مصلحة الدولة نفسها ومصلحة كل العناصر فيها قائمة بالتوفيق والاتحاد والمسالمة » . ولكن سياسة الوالي على ما يبدو من كلامه — تلك السياسة التي تأبى على الكاتب ان يقول الحقيقة المجردة قد هدمت كل ما كان يرجوه ، ولذلك عدل عن اسمها الاول « فوسّعت فضاءها ومدّت حدودها وصارت « الجامعة الشرقية » . هكذا يقول في كتابه ، والظاهر انه عدل حتى عن الشرقية فصارت تُعرف بالجامعة فقط .

وكانت نزعتها فلسفية اجتماعية ، ولما كان صاحبها شغوفاً بمطالعة كتب

المفكرين الاجتماعيين في فرنسا وسواهـا ، فقد اشتدت فيه النزعة الى الاصلاح الفكري والاجتماعي ودفعه ذلك الى ان ينقل الى العربية كثيراً من الآراء الفلسفية الحرة دون مبالاة بما قد يحدثه من «ردّ فعل» في الشرق . فلم يكن بد من ان يصطدم فيه بقادة التفكير الروحي ، وفي طليعتهم الامام محمد عبده والشيخ رشيد رضا. وذلك على اثر نشره فلسفة ابن رشد وتعليقه عليهـا . وكان الصدام شديداً ، هزّ الافكار في ذلك الوقت . وكان من نتائجه اصداره كتاب ابن رشد وفلسفته ، ومـا دار من جدل بينه وبين الامام محمد عبده بشأنه . وسنشير الى ذلك بعد .

ومن هذا القبيل تلخيصه حياة المسيح لرينان . فان رينان لم يعتد بآراء اللاهوتين او تعاليم الكنيسة ، بل درس حياة المسيح كانسان . ومع تعظيمه له وتمجيده لمبادئه لم ينظر إلا بعين المؤرخ الذي يطلب الحقيقة بعقله لا بما يرويه الناس . ولذا نرى كاتبنا يقول : «ولسنا ننسى حياتنا كلها اللـّذة التي وجدناها في ذلك التلخيص ، ولا الضرر الروحي الذي جرّه على نفس الملخّص». ويعني بذلك المتاعب الفكرية التي لحقته من جراء معاداة رؤساء الدين وانصارهم من المحافظين المتعصبين .

بقي يصدر الجامعة في الاسكندرية ويؤلف الروايات الاجتماعية والفلسفية الى سنة ١٩٠٥ . ولأمر ما نراه ينتقل بها الى نيويورك . والأرجح انـه أغري على ذلك من قِبل بعض مريديه في العالم الجديد حتى توهم ان النجاح البـاهر ينتظره هناك . وعلى كل حال فقد كان يأمل بالحصول على ما لم يستطع الحصول عليه في مصر . واليك ما يقوله بهذا الشأن : «ان الذي اقنعنا بنقل الجامعة من مصر الى نيويورك امران : الاول الرغبة في مشاهدة اميركا والمعيشة حيناً من الدهر وسط مدنيتها العظيمة . والثاني الرغبة في ضم عمل تجاري في اميركا الى عمل صحافي»[1] . ولكن التجارة لم تتيسر له فوطّن النفس على اصدار جريدة

(١) الجامعة ٥ – ٣٥٩

يومية كبرى على نسق جرائد مصر الكبرى باسم الجامعة اليومية ، مع بقاء الجامعة الشهرية . والظاهر ان مشروعه هذا لم يكتب له النجاح التام . وظل في اميركا ثلاث سنوات ونيّف يكدّ بقلمه محاولاً به خدمة ابناء قومه . ولما رأى ان آماله هناك قد ذهبت ادراج الرياح ، بدأ يفكر بالعودة الى مصر . وفي اثناء ذلك وردت الاخبار باعلان الدستور العثماني سنة ١٩٠٨ ، فاغتبطت نفسه ولم يلبث ان حزم امره فودّع العالم الجديد سنة ١٩٠٩ وعاد الى الشرق وفي نفسه آمال جديدة .

وهنا نرى تحولاً في حياته الأدبية. فبعد ان كان في عهده الاول بالاسكندرية ثم في اميركا يعنى في الكتابة بالمسائل الاجتماعية والفلسفية ، صار الآن اميل الى خوض الحياة السياسية وصرف مواهبه الكتابية في سبيلها . فما الذي دفعه الى ذلك ؟ سؤال لا بد من ان نقف عليه قليلاً فنقول : ان فرح انطون كما رأينا كان مثالياً مطبوعاً على مناصرة العدالة في كل اشكالها . فلا يطيق الاستبداد ، سواء كان موجهاً الى فرد او الى امة . وفي كل كتاباته كانت غايته تحرير الشرق من الاجنبي ومن تقاليده القديمة . وكان جريئاً ، لا يداهن ولا يتملق. ومما يدلنا على ذلك انه في اول عهده بالصحافة كانت حرب البوير مستمرة في جنوبي افريقيا، فأرهف قلمه ونشر مقالات يبين فيها ظلم المعتدين . وقد تركت هذه المقالات أثراً طيباً في نفوس قرائه اذ رأوا فيه شاباً مثالياً يغار على ما يعتقده حقاً ويناصره بكل قواه . واذا عرفنا هذا الطبع فيه فلا نستغرب مناصرته للحركة الوطنية في مصر ـ وها نحن نراه وهو عائد من اميركا يعرّج على باريس فيجتمع بمحمد فريد رئيس الحزب الوطني في مصر وخليفة مصطفى كامل فيزيده هذا الاجتماع تحمساً ورغبة في العمل مع الحزب ، حتى اذا وصل مصر اندفع يكتب في الجرائد الوطنية بقلم يتأجج حماسة واندفاعاً . قد يقال ولكنه انما فعل ذلك ليضمن لنفسه مقاماً بين الوطنيين ومرتزقاً مرموقاً من مواهبه الصحافية . ويخيّل الينا ان دراسة نفسيته ومراجعة اقواله ، منذ أنشأ الجامعة

الى ان سقط القلم من يده ، لا تبرر قولاً كهذا القول يقلب طبيعته رأساً على عقب ويجعل منه رجلاً غير ذلك الرجل الذي عرفناه في مواقف حياته الادبية. وكيف يكون كذلك وهو الذي كان يحرر جريدة الاهالي فلما توقفت طُلب لتحرير جريدة اخرى . فسأل ما سياسة هذه الجريدة ؟ فقيل له انها وزارية (أي حكومية مناوئة للحزب الوطني) ، فقال : « ان الاتفاق على تحريرها مستحيل[1] . وهكذا ظلّ متمسكاً بمبدأه لا يغريه مال او عمل . وكان مع اشتغاله بالسياسة يقدّم للمسرح المصري ترجمةً وتأليفاً ، روايات تمثيلية . وقد بلغ عدد ما قدّمه من ذلك ١٤ رواية .

ويأخذ عليه بعض كتاب سيرته ان مثاليته الادبية وهنت اخيراً امام حوادث الزمن فاضطر في اواخر عهده ان يعقد اتفاقاً مع بعض الاجواق التي لا تعيش في مستوى ادبي محترم، على تلخيص بعض الروايات الغنائية الرخيصة . وفي ذلك يقول عباس العقاد[2] : « وقد حضرت إحدى رواياته التلحينيّة اخيراً فما اطقت الصبر على اكثر من فصل منها ، ولم ار في موضوعها ، ولا في فنها ، ولا في غنائها ولا ممثليها ، ولا في الجمهور الذي يسمعها ما يليق بملكة فرح انطون ومكانته الادبية» . والعقاد يعتبر ذلك زلة من فرح انطون بعد ان كان يتحف قراء العربية بأدب فلسفي ممتاز .

وقال الهلال : «ومما يؤخذ عليه انه في اواخر سني حياته هجر الادب الراقي بعض الهجرة لقلة فائدته المادية واشتغل في تأليف روايات تمثيلية للعامة قوامها الاغاني. فأثر هذا العمل في تطور «التياترات» عندنا لانصراف الناس عن مشاهدة الجدّي من الدرامات الى العامي الغنائي» :

وعلى هذا الغرار يسير احمد ابو الخضر منسى اذ يزعم ان نجم فرح اخذ بالافول مذ غادر الصحافة الى المسرح ، يقول : « وأبصرناه وافتقدتنا حزينة

١) فرح انطون (مجلة السيدات والرجال) ص ١٤
٢) المصدر نفسه ص ١٠٧

يهبط دركات سريعة الانحدار من ذلك المكان المنيف الشامخ الذي بلغه فينا من قبل ... وهكذا قضي على صاحب الجامعة ان يعيش في بيئة غريبة عنه لا تتفق مع ما تزدان به نفسه وتحفل من ادب وعلم وتفكير» [1] .

ومن اقوال المجلة المصرية الفرنساوية La Revue Egyptienne : « نذكر بمزيد الاسف وفاة فرح انطون السابقة الاوان . وهو كاتب نال شهرة في النهضة الفكرية العربية ، ولكن بدا منه هبوط غريب في سني حياته الأخيرة» [2] .

ومن الطبيعي ان يردّ اصدقاء فرح انطون ومريدوه على هذه التهم، ويؤكدوا ان ادبه لم ينحط لانصرافه الى الروايات التمثيلية . ولكن الواقع ان الشعور العام في الاوساط الادبية يؤيد اقوال نقّاده . فالكل مجمعون على ان انتقاله من الابحاث الاجتماعية والفلسفية والسياسية الممتازة ، الى العمل لاجل بعض المسارح المصرية الرخيصة هو ، بالنسبة الى مقامه الادبي الذي احرزه بواسطة الجامعة وما نشر من كتب وروايات نفيسة ، رجوع الى الوراء يؤسف له.

شخصيته :

ومهما قيل في تأخره الادبي في اواخر سني حياته ، فان ذلك لا يحجب عنا ما كان له من شخصية كتابية عالية . وقد اشرنا الى مثاليته وجرأته وتمسكه بمبدأ العدالة العليا وما اصدق ما قاله فيه عشير صباه : « انه ما كتب شيئاً الا وهو يرمي الى تأييد مبدأ سام ، او التنبيه الى خطأ اجتماعي يريد اقناع قارئيه بوجوب اصلاحه » (راجع تأبينه المار ذكره) .

ونلاحظ ذلك في اكثر التراجم التي نشرها في مجلته . فانه كان اذا ترجم حياة عظيم يحاول دائماً ان يستخرج منها الفوائد الروحية والاجتماعية ، كقوله بعد ان لخص حياة الفيلسوف الفرنسي « كونت» : «اما الفائدة من مباحثه فهي

١) فرح انطون لمنى ص ٣٥
٢) فرح – مجلة السيدات والرجال ص ١١٨

تقديس الانسانية واحترام شخص الانسان احتراماً مطلقـــاً» (١) . وقوله بعد ترجمته للفيلسوف جول سيمون : «هذا هو الرجل الذي ننصبه مثالاً للشرق بعد ان كان مثـالاً للغرب ـ معيشة طاهرة نقية لم يدنسهـــا شيء حتى ولا نقائص الشباب ، وجدٌ بالغ حده رفع صاحبه من قرية (سان جان بريفيلاي) حيث كان فلاحاً صغيراً ، الى قمة رئاسة الوزارة وذروة العلم والفلسفة والشهرة ، وشهامـة ونزاهة تامة حببتـا اليه الفقر مع العدالة على الغنى والجاه من طريق لا يرضى عنه الضمير والذمة ، وسعي مجيد في خدمـة الطبقات الضعيفة من الامة ومقاومـة طبقاتها القوية حينا كانت تروم الاستئثار بالمنافع والخيرات دونهـا» (٢) . ويختم «حياة رنان» باثبات فائدتين رئيسيتين ـ يذكرهما ويسهب في شرحهما ـ : فالاولى لغوية وخلاصتها ان بلاغة رنان مصوغة من مادتين : الفاظ سهلة مألوفةالاستعمال يفهمها كل الناس ، ورقة خصوصية في نفسه تبث الحياة في تلك الالفاظ وتجبلها بحلاوة تسكر النفوس ولو كان الموضوع من اصعب المواضيـع الفلسفية والتاريخية والعلمية .

والثانية فلسفية وخلاصتها ان رنان كان يطلب الحقيقة المجردة بقواه العقليـة دون اعتماد على شهادات الكتب والناس . فاذا اخطأ فقد اخطأ بحسن نية، واذا اصاب فقد اصاب بحسن نية. وما صناعة القلم الا محكمة عليا للمبادىء والضمير إذ لا غرض لها الا تقرير الحقائق» (٣) .

ويعتقد كاتبنا بوجود عقل عام يدير الكون بمبادىء ونواميس ثابتة ويجعـل النصر فيه للفضيلة دائماً ولو بعد حين . فعلى الكاتب ان يسير بما يوحيه اليه هذا العقل، وان ينشر في الناس تلك المبادىء التي تضمن انتصار الفضيلة . وقد طبق فرح انطون ذلك على نفسه ، فجعل قلمه داعية للخير والاصلاح ، وجعل حياته

١) الجامعة ـ المجلد ٤ ص ٢١

٢) المصدر نفسه ص ٢٦٦

٣) المصدر نفسه ص ٣١٣

الشخصية والعائلية والاجتماعية مقيدة بالواجب الانساني وبالروح التي تتعالى عن عبودية المادة .

اسلوبه الكتابي :

نشأ كاتبنا في عهد كانت صناعة القلم تتأرجح فيه بين القديم والجديد، فكتاب العصر الذين نبغوا قبله في الوطن ، كانوا لا يزالون تحت تأثير الحريري والقاضي الفاضل من القدماء ، وناصيف اليازجي وطبقته من المحدثين . على ان الصحافة اجتذبت اليها بعضهم وحملتهم على ان يتوخوا السهولة في ما يكتبونه للجمهور . فكان لنا المنحى العلمي في «المقتطف» ، والتاريخي في «الهلال» والسياسي في الجرائد اليومية . وقد اتفقت هذه جميعها على الجري معاً في اسلوب واحد هو الاسلوب المرسل الذي تقبله الخاصة وتفهمه العامة .

في هذا العهد ولد كاتبنا وتكونت ميوله الادبية . وكان اقباله عظيماً على الادب الفرنسي فانصبّ عليه ينهل من مناهله، ولا شك انه تأثر بالروح الانشائية التي لمسها في امثال روسو ، ورينان، وفكتور هيغو، واناتول فرانس وسواهم، فرغب فيهـا واخذ يطبقها على كتابته العربية فجاءت سهلة رقيقة كأنما غرضه الوحيد هو ابلاغ الرسالة التي يحملها دون تكلف او تأنق ، متجنباً ما امكنه العثرات اللغوية والانشائية ، فلغته لغة صحافية حرة ، وعباراته بسيطة جيدة ولا تخلو احياناً من مآخذ يأخذها عليه المحافظون على عمود اللغة .

ولا يسع الذي يقرأ ما كتبه ، الا ان يشعر انه يكتب من اعماق قلبه ، يكتب بثقة في النفس ويعطي الجمهور كل قوته حاسباً ان هذا العطاء هو غنى الكاتب لا ما يحصله من ربح مادي .

ومع ميله الى تسهيل اللغة الكتابية، لم يكن من الذين يقولون باستبدالها بالعامية . فلما وضع المستر ويلور قاضي الاستئناف في المحكمة المختلطة بمصر يومئذ ، كتابه الذي يطلب فيه استبدال الفصحى بالعامية ، قامت عليه قيامة

الكتّاب ومنهم فرح انطون اذ لم يكن يرى ان العامية تصلح للتعبير عن اسمى عواطف القلب وادق خطرات الفكر . ولكن كعادته لم يدع هذه المسألة تمرّ دون ان يجد فيها عبرة او فائدة . وهكذا اخذ يتحدث عن اللغة وبلاغة التعبير حتى خلص الى القول : ان اللغة العربية الجديدة التي ستكون لغة المستقبل ، انما هي التي لا يكون فيها لفظ غير مألوف الاستعمال ، ولا تعبير من التعابير القديمة التي لا مسوّغ لاستعمالها في هذا الزمن [1] .

بهذه اللغة نشر مباحثه الفلسفية ، والاجتماعيــة ، والسياسية . وبهذه اللغة وضع وترجم هذا العدد الكثير من روايات قصصية وتمثيلية .

على ان كتاباته لم تكن كلها مباحث وقصصاً . فله مواقف عاطفية يقف فيها موقف الشعراء واصحاب الخيال البعيد . ومن هذه المواقف مـا خاطب به « اثينا » إلهة الحكمة ، وذلك بعد ان نقل لنـا الصلاة التي رفعها رنان الى هذه الإلهة . قـال منها : « اسمحي لي بعد صديقك العظيم ان نوجه اليك رجـاءنا نحن معاشر الشرقيين . وليس لك ان تتكبري علينا كثيراً فان بيننا رحِماً قديمة :

أتذكرين ايتها الإلهة اولئك الفينيقيين الاسرى الذين كان يختطفهم بحـــارة جزائرك في الارخبيــل من شواطىء صور وصيدا ويسوقونهم الى بـلادك . ان هؤلاء الاسرى كانوا مساعديـك على تمدين قومك وتعليمهم الفنون الجميلة لأول مرّة ، وهم من قواعـد نهضتك . ففي عروقك ايتهـا العذراء شيء من دمـــاء شرقية . فنناشدك بحق حرمـة هذا النسب القديم ان تبعثي الى الشرق جَدّك القديم ، شيئاً من سنا نورك العظيم » [2] . وهنا تطغو عليه نزعته الى الاصلاح — اصلاح بــلاده وقومه فيسأل إلهة الحكمة ان تهدي قومـه في الشرق لينسوا اهواءهم ازاء المصلحة العامة ، وليجهروا بالحق غير هيّابين . وليتعالوا عن الجشع

١) راجع رأيه في الكاتب الشرقي — الجامعة مج ٤ — ٢٣٠ .
٢) الجامعة ٤ — ٣١٥ .

المادي ، والتعصب الاعمى ، فيقدّسوا الحرية التي لا حياة الا بها .

ومن مواقفه العاطفية – تعقيبه على ما رواه العاملي من مقابلة الغزالي لعمر الخيامي . فأطال الخيامي من غير طائل ، واذ ذاك سمع الغزالي صوت المؤذن فخرج وهو يقول : « جاء الحق وزهق الباطل » . – ينقل لنا فرح أنطون هذه الحادثة ثم يخاطب الغزالي قائلاً :

أجل ايها الامام لقد صدقت بقولك «جاء الحق» عند سماعك صوت المؤذن يدعو الى الله ويذكّر الناس بأن فوق المادة شيئاً يدعى روحاً ، وان الحياة الحقيقية هي حياة الروح والفكر لا الحياة المادية البدنية التي هي حياة حيوانية . ولكن لماذا ايها الاستاذ بعد قولك « جاء الحق » اردفت بقولك « زهق الباطل » . واي شيء تعني بالباطل . أتعني به العلم ام ما كنت تسمعه عن شراهة الخيامي ؟ اذا كنت تعني به العلم – اي العلم الطبيعي الذي سميته في كتابك « تهافت الفلاسفة » تخيلات ، فلو امدّ الله في اجلك الى هذا العصر لتحققت انه لم يكن كما ظننت . ولكن ان عنيت به حالة الخيامي فالسلام عليك أيها الاستاذ » . ويستمر في مخاطبته مبيناً ما كان عليه الغزالي من رغبة في البحث عن الحقيقة وتجرّد عن الدنيا في سبيلها ، فيقول : « ان من كان بنفس كنفسك هذه لجدير بأن يرى الباطل كل الباطل في افكار واعمال الخيامي . انك كنت تحمل حملاتك الهائلة على الشرّ والاستبداد ... فتطعن اولئك الخياميين الذين لا همّ لهم الاّ ما يدخل بطونهم . اما في هذا العصر فقد مزّق الستار ورفع الحياء » .

ويصف للغزالي اذ يخاطبه ، عصرنا الحاضر وفساده وسيادة الغدر والظلم فيه . وكأنه يدركه اليأس فيقول : « وماذا يجدي صراخك وصراخنا معك ، جاء الحق وزهق الباطل . ان هذا الباطل لا يزال منصوراً » [1] .

وعلى هذا الغرار تحيّته لتمثال الحرية في مرفأ نيويورك . فيقف امامه ويخاطب

١) الجامعة ٤ – ٣٥٩ و ٣٦٠ بتصرف .

ارض الحرية طالباً عطفها على بقية قومه المهاجرين اليها ، قومه الذين كان لهم في التاريخ مقام عظيم ، والذين عصفت بهم حوادث الدهر فخرب ما كان لهم من عمران وتشتتوا يطلبون الرزق في كل مكان [1] .

واعظم وقفاته تلك التي وقفها امام شلال نياغرا في ولاية نيويورك ، والتي يقول فيها العقاد : « وعندي انها حسْب كاتبها من أثر في عالم الكتابة ان لم يكن له قط اثر سواها » [2] .

وقف كاتبنا امام هذا الشلال واخذ يخاطبه مستطلعاً منه سر الوجود وغاية الحياة ، وفي الوقت نفسه مطلعاً اياه على ما يجري في العالم الانساني من تقدّم مادي ان هو الا زخرف خارجي وطلاء سطحي . فاذا حككته لم تجد الا جيفة منتنة ثم يذكـّره بعهوده السالفة ايام كان شاطئاه ملجأ للمتوحشين ، ومعتركاً للاسود والنمورة ، ومسبحاً للتماسيح ، ومرقصاً للدببة والقرود . ويقول له كنت يومئذ اجمل منك اليوم اذ « اصبح شاطئاك مرتعاً لذئاب ونمورة ودببة وقردة من جنس جديد لها طباع تلك ، ولكنها تمشي على قائمتين لا على اربع . ان روحاً مادّية هائلة هبّت على العالمين فضعضعت المبادىء ، وزعزعت الشرائع ، وسحقت الاديان والآداب ، وساقت الناس بعصا الحاجة الحديدية الى مبادىء هائلة جعلتهم ذئاباً هائلة » . وبعد ان يطلعه على احوال البشر في زمانه يطلب منه رسالة يحملها لقومه لان حرفته البلاغ والنشر . ولكنها في الشرق حرفة شقية لا يفوز بلذّاتها الا من يسالم الفساد ويغضي عن الاوهام والخرافات ، ويخلط بين الكرام والغوغاء ، يسكت عن الجهل ، ويبتعد عن الحق ، ويسمي الانحطاط ارتقاء .

وهنا يتأمل الكاتب في عظمة الشلال وثباته على ممرّ الاجيال – ينظر الى جريان مائه الدائم فيخيل اليه ان للشلال روحاً ستحييه وتجيب طلبته . ولكن

١) راجعها في الجامعة ٥ – ١ .
٢) قرح انطون مجلة السيدات والرجال ١٠٧

سرعان ما يشعر انه واهم يطلب مرآً وغاية حيث لا مرّ وغاية . وبعد التحدث اليه عن جموع الناس الذين يزورونه فيرجع بعضهم وهم اهل الفكر الى بلادهم منقبضين « لانك لا تفتح لهم خبايا اسرارك » ، يختم وقفته بهذه الكلمات :

«لقد طفت في ربوعك وحادثتك وسألتك فلم تجب. وها انا عائد عنك فوداعاً ايها الشيخ . تذكـّر في المستقبل رجلاً جاءك من اقصى الشرق ، واجـــال في ضفتيك مزيجـاً غريباً من روح الشرق والغرب ممزوجاً في نفسه ، وافكاراً قد تستأهل الاهمـال وعدم المبـالاة ، ولكنها لا تستأهـل الضحك والهزء . واذا هزأت بها فاهزأ ، فقد هزأت قبلها بالدهر ، وضحكت من الزمـان . ولكن قبل ان تهزأ تذكـّر انها نتيجة تأثير قومك واجداد قومك. فنحن تلامذتكم في الصغائر كما نحن تلامذتكم في الكبائر. صدقني ايها الشيخ غيـّر مجراك واذهب الى بلادي. فهنـــاك تجري خاملاً مجهولاً ، لا يعكـّر ماءك ذئاب قديمة او ذئاب جديدة ، ولا يستأمرك الناس ليجعلوك فرجة وألعوبة ، بـل تعيش على هواك معيشة الخمول والسلامة بعيداً عن الناس . هناك تسمع حفيف اشجار الأرز ، وتهبّ عليك ريح الاهرام ، وينبت زنبق البر على شاطئيـك . واذا مرّ بك اتفاقاً بعض الناس مروا باحتشام . ولا تسلني ايها الشيخ لماذا اتيت منها الى بلادك فللتقادير احكام » [1] .

وقد عقب على هذه الوقفة التي تملأ عشر صفحات من مجلة « الجامعة » أحد الكتّاب فقال من فصل يقابل فرح انطون بالشلال: تمثلتكما شلاّلين ينحدر كل واحد منهما في وجهة مختلفة ولكن يجريان على نظام واحد فيجتمعان عند الغاية الواحدة . يمثل الواحد منهما النـاموس الابدي العـــام الذي تسير على احكامه المادّة ، ويمثل الآخر النـاموس الابدي العام الذي تخضـع له الارواح . شلال المـــاء مصدر القوى الحيوية المحسوسة ، وشلال الفكر مصدر القوى الحيوية المعقولة – شلاّل ينحدر من الاعلى الى الادنى ، وشلاّل يرتفع من الادنى الى

١) راجع الوقفة في مجلة الجامعه مج ٦ الجزء الثامن .

الاعلى . ينقض الواحد بقوة الصواعق ويدوي كقصف الرعود ، ويجري الآخر بلين الغمام ، وينتشر بسكون الليل. تمثلتكما كما انتما ، وقلت ما فيكما من عظمة وجلال فلم ادر ايكما احق بالتقدم واولى بالإعظام»[1].

هذا هو فرح انطون كاتباً ومفكراً . ولد وفيه قَبَس من تلك الشعلة الروحية التي نسميها الادب . فلم يلبث ذلك القبس ان اصبح شعلة وضاءة . بل اصبح رسالة فكرية يحملها الى النـاس . قلم جريء على رقته ، سام مع بساطته . لا همّ له الا ما يصلح حال الامة ويرقي شؤونها ويدفعها في سبيل التقدم. ولذا لزم طريق الفلسفة الاجتماعية حتى في رواياته . ومهما قيل في انحرافه في اواخر سني حياته عن هذا السبيل ، فانه لا يعد شيئاً بالنسبة الى ما وقف نفسه وقلمه عليه معظم ايام حياته .

وسنرى من قائمة مؤلفاته مقدار الجهود التي بذلها في حمل رسالته الادبية ، التي كان يعتقد انه مدعوّ لها ، وان حياته عبث ان لم يحملها .

لكاتبنا غير مقالاته في مجلدات «الجامعة» الست ، مؤلفات بعضها من وضعه وبعضها ترجمه أو لخصه عن الفرنسية . فالذي وضعه يشمل : ١) كتباً من باب المباحث الفكرية والاجتماعية ، وهي : « فلسفة ابن رشد » ، « تذكار افتتاح المبعوثان » (مجلس النواب العثماني) ، «العثمنة والتبزرل والتأمرك» ، « المرأة في القرن العشرين» وهذا الاخير لا يزال على ما نعلم مخطوطاً لم ينشر بعد .

٢) اربع روايات فلسفية اجتماعية ، وهي : «اورشليم الجديدة» ، «سياحة في ارز لبنان» ، المدن الثلاث او «الدين والعلم والمال» ، «مريم قبل التوبة» . ورواية أخرى هي «الحب حتى الموت» .

٣) المسرحيات الاربع : « صلاح الدين » ، « مصر الجديدة » ، « بنات الشوارع» ، «أبو الهول يتحرك» .

---

١) مجلة الجامعة ٦ — ٢٧٤ .

وأما الذي ترجمه او لخصه :

فمن باب المباحث : «تاريخ المسيح» لرينان، «زاراوسترا» لنيتشه، «السماء» لفلامريون .

ومن الروايات : «الكوخ الهندي» لبرناردين ، «بولس وفرجيني» له ايضاً ، « اتالا » لشاتوبريان ، (أربع روايات) عن الثورة الفرنسية لدماس ، و«ملفا» لغوركي .

واكثر من عشر مسرحيات تمثيلية او غنائية .

فيكون مجموع ما وضعه او ترجمه من المؤلفات : ٧ من باب المباحث ، و ١٣ رواية ، و ١٤ مسرحية .

ولا يتسع المقام لالقاء نظرة على كل هذه المؤلفات ، فنكتفي بكلمة وجيزة في كتابه «فلسفة ابن رشد» .

قال في مقدمته لهذا الكتاب الفلسفي ، انه لم يقدم عليه إلا للوصول الى نتائج عملية مفيدة لأمته . ويعني بالنتائج العملية ، التقريب بين عناصر الشرق ولا سيما الاسلام والمسيحية ، لغسل القلوب وجمع الكلمة . وذلك عنده ، لا يتمّ إلا بغض النظر عن الجدل الديني الذي هو من مخلّفات القرون الوسطى ، والتأمل الفلسفي الحر الذي يقضي ان يحترم كل فريق رأي غيره ومعتقده ، لأن الحقائق والفضائل غير مختصة بفريق دون آخر .

وبعد هذه المقدمة يتناول فلسفة ابن رشد ويشرحها ، معتمداً في ذلك دراسته الخاصة لهذه الفلسفة وآراء بعض من الباحثين الغربيين. ويتقدم من ذلك الى ردّ الامام محمد عبده عليه ، والى ما دار من نقاش بينهما بخصوص ابن رشد وآرائه في الاسباب ومسبباتها ، والاختلاف بينه وبين الغزالي في ذلك وفي مسائل اخرى . وتقودها المناقشة الى مقابلة المسيحية بالاسلام ونظرهما الى الحياة والانسان . وبرغم المناقشة التي حميت وأذكاها بعضهم ، تبين للامام محمد

عبده اخيراً حسن نية الكاتب ، فزال ما بينهما من سوء التفاهم . والذي يراجع هذا الكتاب يظهر له بوضوح تفكير فرح انطون وقوة حجته ووفرة اطلاعه على حكمة الشرق والغرب .

وسنعود بعدُ إلى هذا الكاتب في الفصل المخصص للرواية الفلسفية .

المنفلوطي

١٨٧٦ — ١٩٢٤

نشأ مصطفى لطفي المنفلوطي وفيه ميل الى مطالعة الادب من شعر ونثر . ذكر لنا ذلك في فصل موضوعه « كيف اكتب رسائلي » . فوصف حاله في حداثته وهو بين جدران الازهر ، وولعه منذ ذلك الحين بالادب ، وكيف كان شيوخه الازهريون يومئذ ينكرون عليه هذا الولع ويحاولون ردعه عنه . ومما ذكره انه كان يشغفه من انواع الادب شعر الهموم والاحزان ، ومواقف البؤس والشقاء ، وقصص المحزونين والمنكوبين . فنشأت نفسه على حب الرحمة والشعور مع الآخرين . ومـا زال يعيش في جوّ من الاحلام الشعرية حتى انقضت ايام حداثته واذا هو في معترك الحياة حيث اصطدمت مثاليته بالواقع فنتج لنا من ذلك الاصطدام ادبه المدوّن في كتابيه « النظرات والعبرات» وقد قال في ذلك : « واذا أنا بين يدي هذا العالم المظلم المقشعرّ ـ عالم الحقيقة والألم . فنظرت اليه نظر الغريب الحائر الى بلد لا عهد له به ، ولا سكن له فيه . فرأيت مخازيه وشروره ، وظلمة اجوائه واغبرار سمائه ، وقتال الناس بعضهم بعضاً على الذرة والحبّة ... وسلطان القوة على الحق ، وغلبة الجهل على العلم ، واقفار القلوب من الرحمة ... وعجز الفقراء عن فتات موائد الاغنياء .

وتمضّغ الاغنياء بلحوم الفقراء . فداخلني من ذلك خطر عظيم لم استطع ان املك نفسي معه.. فأرسلت الكلمة اثر الكلمة ، كما يتنفس المتنفس او يئن الحزين » .

ويخبرنا انه نشأ بين قوم بداة سذّج ، شديدي التمسك بالدين والوطن. فلما خاض غمرات الحياة ورأى ما رأى من المدنية الحديثة، لم يفقد ما نشأ عليه من التمسك بالدين وحب الوطن ، بل نظر الى المدنية الغربية فهاله تهافت الناس على سيئاتها واستهتارهم بفضائلهم الشرقية وفقدانهم لكرامة نفوسهم ، فكان ذلك من اكبر الدوافع له الى الكتابة .

وهكذا يقف المنفلوطي امام المدنية الحديثة فيحدجها بنظرات سوداء ، ويندفع الى تحذير مواطنيه من غوائلها .

ومن اقواله فيها : « أصبحت اعتقد ان مفاسد الاخلاق والمدنية الغربية شيئان متلازمان وتوأمان متلاصقان لا افتراق لاحدهما عن صاحبه الا اذا افترقت نشوة الخمر عن مرارتها ، فكيف اتمناها لأمة هي اعز علي من نفسي التي بين جنبي [1] » .

وبرغم هذا التشاؤم الذي يسود كلامه حين يصف المدنية الغربية ، وهذا الموقف السامي الذي يقفه من الحياة المدنية الجديدة ، كان لأدبه تأثير بيّن في جيله . وذلك لحسن بيانه ولمزايا عرفها له جمهرة الناس ، اهمها ما يلي :

١ ـ **نزعته الى صلاح مجتمعه** : نظر المنفلوطي الى المجتمع الذي نشأ فيه فهاله ، كما رأينا من تصريحه ، ما فيه من مفاسد . فالمدنيّة عنده قد افسدت الشباب اذ فتحت لهم ابواب الملاهي والسخائف وحوّلتهم عن حياة الجدّ والحشمة والوقار . فهو لذلك يحمل عليها بعنف ، ويدعو الشباب الى الحياة الكريمة ـ الحياة التي يتعالون فيها عن تقليد الاجنبي حتى في سفاسفه، والتي تحفظ لهم كرامة نفوسهم واوطانهم وتاريخهم، وتجعل منهم دعائم متينة لمستقبل مجيد. وكما افسدت

١) راجع مقاله مدرسة الغرام ـ النظرات ج ٣ .

هـذه المدنية بقشورها وظواهرها الزائفة شبابنا الشرقيّ ، أفسدت ايضاً رجـال السياسة بيننا ورجال الدين ، فضاعت الاستقامة وغاض الوفاء ، وتركت الديانة جادتها الأولى فأصبحت تقاليد جامدة لا حياة فيهـــا . هكذا يعتقد فيهاجم اعوجـاج الساسة ومطامعهم ، وشعوذات بعض رجـــال الدين وتدليسهم [1] .

ويقول : « نبّئني عن الاسلام أين مستقرّه ومكانه ، أفي الحانات والمواخير التي يغصّ بها الفضاء ، وتئن منها الارض والسماء ، والتي ينتهك بها المسلمون حرمات دينهم بلا خجل او حياء » ... الى قوله : « ام في مجالس الاحكام حيث للدينار الاحمر السلطان الاكبر على سلطان العدل وسلطان الذمـة وسلطان الشرائع .. ام في المساجد حيث يعتقد المصلون انه لو كان بـين الصلاة والصلاة مئة عـام ، وكانت تلك الاعوام ملأى بالآثام والجرائم والمفاسد والمظـالم ، لكَفَت تلك الحركات التي يسمونها صلوات ويحسبونها حسنات، لغفران تلك السيئات.. ام في معاهد الدين حيث يتلقى المتعلمون الدين جسماً بلا روح » . وكأنه يخشى على الدين وعلى المتعلمين من ان يقعوا فريسة النظريات الفلسفية والنزعات المادية ، فيقول : « اذا اراد المصلحون لأنفسهم نجاحاً ، وللاسلام صلاحاً ، فليبدأوا عملهم بتهذيب العقائد الدينية وتربية النشء الحديث تربية اسلامية لا تربية مادية اي انهم يدخلون الى الاصلاح من باب الدين لا من باب الفلسفة » . وفي مقاله « دمعة على الاسلام »[2] يندد برجال الدين الذين يستغلون جهل العامة لاجل مصالحهم فيقول لهم : « والله ما جهلتم شيئاً من هذا ولكنكم آثرتم الحياة الدنيا على الآخرة » . وليس هجومه على الساسة بأخف من هجومه على رجال الدين . ومن قوله فيهم : « ايستطيع الرجل أن يكون سياسياً الا اذا كان كاذباً في اقواله وافعاله ، يبطن مـــا لا يظهر ويظهر ما لا يبطن ، ويبتسم في موطن البكاء ، ويبكي في مواطن الابتسام [3] » .

١) راجع مقاله المؤتمر الاسلامي ـ النظرات ج ٣ .
٢) النظرات ٢ ـ ٥٧ .
٣) النظرات ٢ ـ ٦٤ .

ولكن المجتمع ليس كله من رجال السياسة أو الدين ، فهناك المظلومون والمضطهدون ، والبائسون والمنكوبون ، فاذا حمل على الفريق الاول فانه يشعر مع الثاني ويتألم لرؤيتهم ، داعياً الى رفع الظلم واعانة المنكوب والرحمة للبائس . على انه في هذه الدعوة كثيراً ما يشغله البكاء والتحسر عن التفكير الجدي في سبيل الاصلاح . فرسالته على ما يظهر منحصرة في اثارة الشعور ، اما امر الاصلاح فيتركه لاربابه من قادة الامة وولاة شؤونها [1] .

وقد اخذ عليه عباس العقاد وان عطفه على البائسين في المجتمع لا يدل على احساس عميق بما يعتري النفوس ويخامر الضمائر . فالمصائب التي يصفها ليست مما يسمى مصائب النفس الانسانية وآلام الضمائر الحية ، بل هي مصائب جسمية يبصرها الاعمى ويسمعها الأصم ، ويجتمع فيها الجوع والداء، والذل والموت بلا افتراق او تنويع» [2] . وجاء في الديوان بقلم العقاد والمازني (ج ٢ — ١١) انه كان متصنعاً في عاطفته يقول ما لا يشعر به أو يؤمن به ، وانما يتعمل ويتكلف ويتظاهر .

والواقع ان ذلك ما لا يشعر به قارىء اقواله ، بل بالعكس يرى انه امام رجل ذي عقيدة قوية صريحة . ولا نستغرب ان يكون المنفلوطي قد اصطنع كثيراً من الحوادث التي يصورها في شكل الحقيقة ، او ان يكون قد شط به الخيال ولم يوفق احياناً في التصوير المناسب . ولكن ذلك لا يذهب باخلاصه وحرارة دعوته . وليس من الانصاف ان نرى كاتباً يحمل رسالة الى الناس ويقضي حياته في نشر هذه الرسالة متحمساً لها ، حريصاً على ادائها ، ثم نتهمه بالتصنع العاطفي لاستجلابه من عالم الخيال امثلة يرى هو فيها تصويراً للواقع وايضاحاً للحقيقة .

١) راجع مثلاً مقالاته يوم العيد ٣ - ٥٧ ، الغني والفقير ١ - ٥٩ ، الرحمة ١ - ٧٧ ، غرفة الاحزان ١ - ١٥٤ .

٢) مراجعات ص ١٨٠ - ١٨٢

٢ ـ **غيرته الشرقية** : تتجلى شرقية المنفلوطي في دعوة مواطنيه الى احترام انفسهم وتاريخهم ، وعدم الاندفاع الاعمى وراء الأجانب وبهارج مدنيتهم . والحق يقال ان هذه الدعوة هي الطابع العام لجميع كتاباته . فهو ليس اعمى عن عيوب الشرقيين ونقائصهم ، ولكنه لا يرى اصلاح ذلك عن طريق المدنيـــة الغربية . ففي مقاله «المدنية الغربية» يصرح بقوله : «ان كان لا بد من الدعوة الى اصلاحها فلندع باسم المدنية الشرقية لا باسم المدنية الغربية.. ان دعوناهم الى الحضارة فلنضرب لهم مثلاً بحضـارة بغداد وقرطبة وثيبة وفينيقيا ، لا بباريس وروميه وسويسرا ونيويورك . وان دعوناهم الى مكرمة فلنتـــل عليهم آيات الكتاب المنزلة واقوال انبيـاء الشرق وحكمائه ، لا آيات روسو وباكون ونيوتون وسبنسر . وان دعوناهم الى حرب ففي تاريخ خالد بن الوليد، وسعد ابن ابي وقاص ، وموسى بن نصير ، وصلاح الدين ما يغنينا عن تاريخ نابوليون وولنجتون ، ووشنطون ، ونلسون، وبلوخر . وفي وقائع القادسية، وعمورية، وافريقية ، والحروب الصليبية ما يغنينا عن واترلو ، وترافلغار ، واسترليتز ، والسبعين» .

وهو لا يمانع ان يترجم لنـا المفيد من مؤلفات الغرب . والجيد الممتع من ادبهم ، وان ينقل الينـا بعض عاداتهم واسباب مدنيتهم ، على ان لا نكون مقلدين مستسلمين منتحلين ، بل ننظر اليها بعين الباحث المنتقد لنختار ما يوافقنا، فانه «ليس من عادات الغربيين واخلاقهم الشخصية الخاصة بهم مـا نحسده عليهم كثيراً» . واقواله في ذلك كثيرة تراها واضحة في كتابيه النظرات والعبرات .

وخلاصة الكلام ان المنفلوطي كان شرقياً غيوراً على شرقيته مخلصاً في الدعوة الى ما في المدنية الشرقية من فضائل يجب التمسك بهـــا، والحذر من ان يطغى عليها تيار المدنية الغربية التي يحاول تصوير مفاسدهـا باصباغ «صارخة» كما يقول الافرنج . وبهذه الدعوة احدث دويـاً في عـالم الأدب العربي وترك وراءه اثراً يذكر بحسن بيانه واشراق ديباجته . فلننظر قليلاً في اسلوبه الكتابي الذي هو اساس شهرته .

أسلوبه في الكتابة :

اذا كان الكاتب المجيد هو الذي يستطيع ان يلبس خواطره حلة قشيبة من البيان ، او يظهرها بصورة مشرقة للعيان ، فلا ريب ان المنفلوطي هو ذلك الكاتب . وليس من الانصاف ان نجري وراء من يقول فيه : « وبعد فماذا في كتابات المنفلوطي مما يستحق ان يعد من اجله كاتباً او اديباً ، الا اذا كان الادب كله عبثاً في عبث لا طائل تحته »[1] . فان في هذا القول تحاملاً ظاهراً وغمطاً لحق كاتب كان لكتابته اثر بيّن في جيله .

ونحن لا ننكر ان المنفلوطي لم يكن من فلاسفة المجتمع البشري ذوي الاطلاع الواسع على شتى مناحيه، وعلى العوامل التي تعمل على تطوره وترقيه. ومن الغلو ان نضعه في مصاف الكتاب العالميين الذين تعمقوا في دراسة الطبائع البشرية والمشاكل العمرانية والاحداث التاريخية، وان نطالبه بما لم يتسنّ لغير العباقرة الذين آثارهم خالدة في تاريخ الحضارة . على ان كل ذلك لا يمنعنا من ان نصفه بالكاتب المجيد . فقد نشأ في بيئة خاصة، ورأى فيها ما اثار في نفسه الحزن والألم وحب الاصلاح ، فاستطاع ان يعبر عن شعوره باسلوب عربي ناصع استهوى الجمهور فأقبلوا عليه ، وتمتعوا بقراءة ما كان يقدم لهم . فما هي مزايا هذا الاسلوب ؟ ذلك ما نحاول ان نبيّنه في هذا الدرس الوجيز .

ولعل اول ما يلفت النظر في اسلوبه هو ميله الى التصوير الفني. ونعني بذلك اعتماده الكلام المجازي في تبيان ما يروم تبيانه . ولا ينفرد كاتبنا بهذه المزية بين حملة الاقلام ، فقد كان المجاز والبديع معتمد الكتاب في العهود السالفة ، عرف بها جهابذة المترسلين منذ القرن الرابع للهجرة او ما قبله . ووصل الى اوجها في ترسل القاضي الفاضل ومن جرى مجراه في العصور المتتابعة . وكانت الكتابة فيما مضى صنعة متكلفة يعنى الكتاب بها . وقد مر بنا تهافت الكتاب

١) المازني في الديوان (طبعة ثانية) ج ١ ص ١١

عليها قبيل نهضتنا الحديثة وبلوغها على ايديهم غاية ما يكون من الثقل وفارغ الزخرفة .

فلما حدث التجدد الذي اقتضته النهضة صارت الكتابة تميل الى البساطة وارسال الكلام على طبيعته . وذلك بتأثير الصحافة التي كان همها ان تصل الى اذهان الجمهور وان تحمل لهم شتى الاخبار والمعلومات . على ان هذا الميل لم يمنع بعض كتابنا من استخدام التصوير الفني بطريقة يتحاشون فيها تصنع عهد الانحطاط او ما سبقه ، ويجعلون به كتابتهم اشد تأثيراً في نفوس القراء. وعلى هذه الطريقة جرى المنفلوطي في اكثر ما كتب . فتصويره على العموم لطيف مشرق لا تقعّر يستثقل فيه ولا زخرفة تستهجن ويمجها الذوق . ومن امثلة تصويره وصفه لاول شعرة بيضاء ظهرت في مفرقه قال : «رأيت الشعرة البيضاء في مفرقي فارتعت لمرآها كأنما خيل الي انها سيف جرده القضاء على رأمي ، او علم ابيض يحمله رسول جاء من عالم الغيب ينذرني باقتراب الاجل ، وجذوة نار علقت بأهداب حياتي علوقها بالحطب الجزل» . وقوله في بعض رجال الدين وتشددهم : «ولم يزل علماء الدين يتشددون فيه ويتنطعون ، ويقتطعون من هضبته الشماء صخوراً يضعونها عقبة في سبيل المدنية والحضارة». وفي مقال له عنوانه «الزوجتان» تجد هذا الوصف لاحدى الفتيات : « فاذا فتاة في ملاءة بالية وخمار ينمّ بجمالها كما ينم السحاب المتقطع بضوء الشمس»[3] .

ويصف الاسلام في مقاله «لا همجية في الاسلام» فيقول : « ما جاء الاسلام الا ليستلّ من القلوب اضغانها واحقادها ثم يملأها بعد ذلك حكمة ورحمة ... وما هذه القطرات من الدماء التي اراقها في هذا السبيل الا بمثابة العمل الجراحي الذي يتذرع به الطبيب الى شفاء المريض » . وفي حديث بين الكاتب نفسه

١) النظرات ١ - ١٣٧
٢) النظرات ٢ - ٥
٣) ١ - ١٨٢

واحد الوجهاء ، يلتفت الكاتب الى الوجيه سائلاً : « ما هذه الطبقة التي تكسو وجهك فتحجب منه ما يحجب صفحة السماء من السحب السوداء ؟ » . فيجيبه : «ان بين جنبيّ هماً يعتلج ، وكمداً يذهب باللب ، ويطير بشظايا القلب ، وناراً من الحزن متأججة مضطربة دخانها هذا الذي تراه» .

هذه بعض امثلة من تصويره الفني ، وما هي الا قطرات من بحر ، فان صوره الفنية شائعة في كل كتاباته . ولعلها الاولى بين مميزاته الرئيسية التي لفتت اليه انظار الجمهرة من المتأدبين ، ويتّصل بها مزية اخرى وهي:

لباقته في استعمال الالفاظ : ولا احسب ان ناقداً يكون جاداً اذا انكر عليه هذه المزية التي تكاد تلمسها في كل فصل وكل عبارة من اقواله . فألفاظه على العموم تنبض بالحياة . نعم انه قد يجنح احياناً الى التغارب في بعض اوضاعه ومصطلحاته كقوله مثلاً :

كبر في ذرعي	ـ اي عظم وقعه عندي	ـ النظرات	١ـ٦٦
وكأنهما يحاولان ان يخرجا من اهابهما مرحاً		»	١ـ٨٠
فيأبى الا الحطيطة	ـ اي ما يحط الثمن	»	١ـ١٠٦
ويستن استنان الجواد	ـ اي يسرع	»	٢ـ٦٨
بعلت بحملك	ـ اي برمت وضجرت	»	١ـ١٣٨
فوغلت عليه	ـ اي دخلت دون ان ادعَى	»	٢ـ٩٨
واحتجنه دونه	ـ اي استأثر به	»	١ـ٥٩
وآنيتهُ وخرثيّه	ـ اي وأثاثه	»	١ـ٩٩
فررت من الاسود السالخ	ـ أي من الثعبان	»	٢ـ١٠

من هائج وعميم وبارض وجميم — والهائج النبات المصفرّ ، والعميم ما يعم الارض ، والبارض اول ما يبدو من النبات فاذا تحرك قليلاً فهو الجميم ٣ـ٢٢٧

ولكن امثال هذه العبارات والالفاظ قليلة جداً اذا قيست بما في كتاباته من العذب الطلي . ويرى بعضهم في فصاحته احيـاء للغة بعد ان تدنـّت لكثرة ما ترجم من الآداب والعلوم الافرنجية على ايدي الصحفيين في ذلك العهد [1] . وفي ذلك شيء كثير من الصحة .

وكما يميل كاتبنا الى العذوبة اللفظية يميل ايضاً الى الجزالة. ولا تناقض بينهما ، الا انـ تحرّي الجزالة قد يقود احيانـاً الى التغارب كما رأينا في بعض اقوال المنفلوطي .

ومهما يكن فان مقدرته على استخدام الالفاظ للمعاني لا يمكن ان تخفى عن أي قارىء لكتاباته . ولو اردنا التفصيل في التمثيل لعرضنا امـام القارىء كل الفصول التي دبّجها في النظرات والعبرات ، فلنكتف بمثل واحد وهو قطعة من مقال له في « اللفظ والمعنى » ، قال [2] :

« اذا سمعت بيتاً من الشعر فاطربك أو احزنك ، أو اقنعك او ارضاك ، او هاجك وانت ساكن ، او هدّأ روعـــك وانت ثائر ، او ترك اي اثر في نفسك كما تترك النغمة الموسيقية اثرهـــا في نفس سامعها ، فاعلم انه من بيوت المعاني ، وان هذا الذي تركه في نفسك انما هو روحه ومعناه . وانـ مررت ببيت آخر فاستغلق عليك فهمه وثقـــل عليك ظله ، وشعرت بجمود نفسك امامه ، وخيّل اليك انك بين يدي جثة جـامدة لا روح فيها ، فـاعلم انه لا معنى له ولا حياة فيه . فان وجدت صاحبه واقفاً بجانبه يحاول انـ يوسوس اليك انـ وراء هذه الظلمة المتكاثفة نوراً متوهجاً يكمن في طيّاتها ، فكذّبه وفرّ بنفسك وادبك وذوقك منه » .

وهناك مزيّة كتابيّة يشارك فيها بعضاً من كبار الكتاب وهي :

---

١) المنفلوطي – محمد زكي الدين مطبعة المحروسة ص ١٠ .
٢) النظرات ٣ – ١٢٢ .

الاتزان اللطيف بين العبارات : وليس هذا الاتزان مجرد تقليد للاسلوب الذي عرف بـه عبد الحميد بن يحيى وبلـغ ذروته في كتابة الجـاحظ . فهذا الاسلوب يقوم على سبك الكلام بفقرات قصيرة متلائمة الفواصـل ، متعـادلة ككفتي الميزان . وهو مستحسن اذا روعي فيـه الاعتدال بحيث لا يؤدي الى التناسق الممل او الى السجـع المقفّى الذي خلف التوازن العاطل وسار خطوات أمامه في سبيل التصنع ، وظل مسيطراً على اقلام المنشئين حتى في عهد رواد نهضتنا الحديثة . اما توازن المنفلوطي فلا يقوم على هذا النوع من التناسق والتعادل ، بل على انسجام في رصف الجمل يمتزج فيه الاسلوبان . المطلق والمزدوج امتزاجاً هو اشبه شيء بانشاء عبد الله بن المقفع ، كقوله من فصل موضوعه « خداع العنـاوين» [1] : يأكل الموسر البـــاخل كما يأكل الفقير ، ويجلس كما يجلس ، ويتشهىّ ما يتشهى حتى لتكاد تثب امعاؤه من جوفه ، وتسيل احشاؤه من بين اشداقه ، شوقاً الى مـــا حرّم على نفسه من اطايب العيش ولذائذه ، ويستن استنان الجواد الضـامر في ميدان السبق وراء الدرهم البعيد منـاله ، حتى تنبهر انفاسه ، وتتخاذل اوصاله » .

ولا يبعد ان تتوالى بعض الجمل المتوازنة في كلامـه ، ولكنه لا يطيل فيملّ ، ولا يسمح للسجع أو لغيره من محسّنـات الكلام ان تفسد ديباجته بالتصنّع المستهجن .

وهو الى ذلـك يميل الى « الاطناب والتفصيل » فكأنه من هذا القبيل اشبه بابن الرومي في الشعر ، يأخذ المعنى كما قـال ابن خلكان « فلا يزال يعـالجه حتى لا يبقى فيـه بقية » . اي انـــه ينزع الى الوصف المستفيض والى تقصّي الدقائق في شرح المعنى المطلوب . فلا عجب ان ترى المنفلوطي يندفع الى تكرير المعطوفات ، والمترادفـــات ، والنعوت ، كقوله من فصل عنوانه « الحيـاة

---

١) النظرات ٢ - ٦٨ .

الذاتية » [1] : «واية قيمة لحياة امرىء لا عمل له فيها الا معالجة نفسه على الرضا بما يرضي به الناس ، فيأكل ما لا يشتهي ، ويصدف نفسه عما تشتهي ، ويسهر حيث لا يستعذب طعم السهر ، وينام حيث لا يطيب له المنام ، ويلبس من اللباس ما يُحرج صدره ويقصم ظهره ، ويشرب من الشراب ما يحرق امعاءه ويأكل احشاءه ، ويضحك لما يبكي ، ويبكي لما يضحك ، ويبتسم لعدوّه ، ويقطب في وجه صديقه ، وينفق في دراسة علم السلوك (اي المداهنة والملق) زمناً لو أنفق عشر معشاره في دراسة علم من العلوم النافعة لكان نابغته المبرّز فيه ، حرصاً على ارضاء الناس وازدلافاً الى قلوبهم » .

ومثل ذلك وصفه للبعوض ولمن يشبهه من الناس [2] : « البعوض سيّء التصرف في شؤون حياته لأنه لا يسقط على الجسم الا بعد ان يدل على نفسه بطنينه وضوضائه ، فيأخذ الجالس منه حذره ، ويدفعه عن مطلبه ، او يفتك به قبل بلوغه اليه . فمثله في ذلك كمثل بعض الجهلة من اصحاب المطالب السياسية. يطلبون المآرب النافعة المفيدة لأنفسهم ولامتّهم غير انهم لا يكتمونها، ولا يحسنون الاحتفاظ بها في صدورهم ، ولا يبتغون الوسيلة الا بين الصراخ والضجيج ، ولا يمسكون بالحلقة الاولى من سلسلتها حتى يملأوا الخافقين بذكرها ، ويشهدوا الملأ الاعلى والادنى عليها . وهناك يدرك عدوّهم مقصدهم فيعدّ له عدّته ، ويتلمس وجه الحيلة في افساده عليهم هادئاً ساكناً من حيث لا يشعرون » .

وقس على هذين المثلين امثلة كثيرة من انشائه . وقد عيب عليه ذلك ، وهو لا شك معيب اذا خلا من جديد في المعاني . فالايجاز عموماً ابلغ من التفصيل الا اذا كان في التفصيل اقامة لوزن ، او جلاء لحقيقة ، او دعم لحجة، وكان معتدلاً لا تطويل فيه ولا اغراق .

١) النظرات ٢ – ٤٨ .
٢) النظرات ١ – ٢١٧ .

والخلاصة ان المنفلوطي قد اجاد الصناعة الكتابية وطبعها بطابع الأناقة المستملحة ، فهز جيله وترك لسائر الاجيال اثراً ادبياً لا يزال الى الآن محط انظار المتأدبين والطلاب .

واليك انموذجاً من طريقته الكتابية وهو قطعة من رسالة مُسهبة جعلها المنفلوطي مقدّمة لكتابه « النظرات » ، ذكر فيها اولاً حاله في حداثته وهو بين جدران الازهر ، وولعه منذ ذلك الحين بالادب ، وكيف كان الذين يتولون امره من اشياخه ينكرون ذلك ويحاولون ردعه عنه « فاذا عثروا في خزانتي او تحت وسادتي او بين لفائف ثوبي على ديوان شعر او كتاب ، خيّل اليهم انهم قد ظفروا بالدينار في جيب السارق . فأخذني من البلاء بهم والغصص بمكانهم ما لا يحتمل مثلَه مثلي » .

وكان مشغوفاً كما ذكر لنا آنفاً بمطالعة شعر الهموم والاحزان ، ومواقف البؤس والشقاء ، وقصص المحزونين والمنكوبين حتى نشأت نفسه على حب الرحمة والصدق واصبح لا يرويها الا الدموع ، ولا يشفيها الا ان تصعد زفرة مع كل مفجوع .

ومـا زال يعيش في جوّ من الاحلام الشعرية حتى انقضت ايام الحداثة والتحصيل فاذا هو في معترك الحياة الواقعية . ولنتركه الآن يصف لنا بقلمه شعوره امام الواقع ، وما اثاره للكتابة من حوافز ودوافع :

« تلك ايامي التي سعدت بها برهة من الدهر ومرّ لي فيها احسن ما مرّ لأحد ، والتي لا ازال اذكرها بعد مرور تلك الاعوام الطوال فأكاد اشرق بدمعي لذكراها . ثم انثنيت فوجدت يدي صفراً منها واذا انا بين يدي هذا العالم المظلم المقشعر عالم الحقيقة والالم ، فنظرت اليه نظر الغريب الحائر الى بلد لا عهد له به ولا سكن له فيه ، فرأيت مخازيَه وشروره ، وظلمة اجوائه واغبرار سمائه ، وقتال النـاس بعضهم بعضاً على الذرة والحبة . والنسمة والهبوة [1] ، واتساع مسافة الخلف بين دخائل القلوب وملامح الوجوه ،

١) الهبوة : الغبرة .

وسلطان القوة على الحق ، وغلبة الجهل على العلم ، وإقفار القلوب من الرحمة ، وجمود العيون عن البكاء ، وعجز الفقراء عن فُتات موائد الاغنياء وتمضّغ الاغنياء بلحوم الفقراء .

فداخلني من ذلك خطر عظيم لم استطع ان أملك نفسي معه كأنما خيّل اليّ لقرب عهدي بما ارى انني ارى شيئاً عجيباً أو منظراً غريباً ، او كأنما كنت احسب ان عالم الخيال الذي كنت فيه إنما هو صورة صحيحة لعالم الحقيقة الذي انتقلت اليه . فأزعجني ما رأيت من هذا الاختلاف العظيم بينهما ، فارسلت الكلمة إثر الكلمة كما يتنفس المتنفس او يئن الحزين ، فقرأ ذلك بعض الناس فسمّوا ما رأوه كلاماً ، ثم ما زالوا يستحسنون ما اقول ويغرونني بأمثاله، وما زلت اطمع فيهم وارجو ان اصيب ما في نفوسهم حتى سمّوني كاتباً .

وكان منشئي في قوم بُداة سذّج لا يبتغون بدينهم ديناً ، ولا بوطنهم وطناً . ثم ترامى بي الامر بعد ذلك وتصرفت بي في الحياة شؤون جمّة ، فخضعت لكثير من احكام الدهر واقضيته، الاّ ان اكون ملحداً في ديني ، او زارياً على وطني . فاستطعت ، وقد غمر الناس ما غمرهم من هذه المدنية الغربية ، ان اجلس ناحية منها ، وان انظر اليها من مرقب عال . وكنت اعلم ان من اعجز العجز ان ينظر الرجل الى الامر نظرة طائرة حمقاء ، فاما اخذه كله او تركه كله . فرأيت حسناتها وسيئاتها ، وفضائلها ورذائلها ، وعرفت ما يجب ان يأخذ منها الآخذ وما يترك التارك . فكان من همّي ان احمل الناس من امرها على ما احمل عليه نفسي ، وان انقم من هؤلاء العجزة الضعفاء تهالكهم لها واستهتارهم بها ، وسقوطهم بين يدي رذائلها ومخازيها ، وإلحادها وزندقتها ، وشحّها وقسوتها ، وشرهها وحرصها ، وتبذلها وتهتكها . حتى اصبح السيد في منزله يستحي الحياء كله من خادمة غرفته الاوروبية ان تطلع منه على جهل ببعض عاداتها وعادات قومها (حتى في لبس الرداء وخلع الحذاء) اكثر مما يستحي من الله ومن الناس ان يهجموا منه على ارذل الرذائل واكبر

الكبائر ، وحتى اصبح تاريخ المشرق ، وتاريخ علمائه وادبائه وفلاسفته وشعرائه ، صورة من اقبح الصور واسمجها في نظر كثير من الشرقيين ، يفخرون بجهله ان جهلوه ، ويراؤون بجهله ان علموه ، وحتى قدر الغلام الرومي خادم الخان منفرداً على ما لم تقدر عليه الامّة جميعها مجتمعة ، فحملها على النزول اليه لتحدثه بلغته قبل ان تحمله على الصعود اليها ليحدّثها بلغتها . وهو الى ان يترضاها ويستدنيها احوج منها الى ان تترضاه وتزدلف اليه .

فذلك ما تراه في رسائل النظرات ، منتثراً ههنا وههناك ، قد شعر به قلبي ففاض به قلمي من حيث لا أكذب الناس عن نفسي ، ولا اكذب نفسي عنها » .

مصطفى لرافعي

١٨٨٠ – ١٩٣٧

نشأته :

يرجع نسبه الى اسرة معروفة في (طرابلس الشام) نزح احدها قبل ١٣٥ الى مصر واستقرّ فيها . ثم تبعه غيره من هذه الاسرة واستوطنوا وادي النيل، ومنهم والده عبد الرازق الذي جرى على سنة اسلافه فتقلب في مناصب القضاء والفتوى ، وتولى رئاسة المحكمة الشرعيـة في طنطـا . فـأصبحت هذه المدينـة موطنه وموطن اولاده من بعده . وهنـا نشأ كاتبنا في جوّ مشبع بعلوم الدين والشرع . على انه لم يدخل المدرسة الا في نحو الثـانية عشرة من عمره ، فأتمّ الدروس الابتدائية ولكنه لم يتجاوزهـا اذ اصيب بمرض شديد لم يتركـه الا بعد ان اثّـر في اعصاب سمعه ، فأخذ سمعه يضعف ويثقل حتى اصبح اصمّ وهو لم يتجاوز الثلاثين من عمره ، ولم يعد يصله شيء من احاديث الناس .

واذا كان القدر قد حرمه متابعة التحصيل في المدارس ، فـانه قد استعاض عن تعليم المعلمين بتعليم نفسه . وكان لوالده مكتبة حافلة بكتب الفقه والعربية، فدفعه طموحه الى الاستفادة منها فأكب على الدرس والمطالعة ، وزاده حرصاً

على ذلك انقطاعه عن الناس بسبب الصمم . وما زال يروض نفسه على المطالعة والاستفادة حتى اصبح من اكثر الناس اطلاعاً على علوم الادب والدين ومن اقدرهم في إستخدام اللغة للتعبير عن ذات نفسه .

ومن الطبيعي ، وهو ابن قاض ومن اسرة ذات مكانة دينية وعلمية ، ان يحصل على عمل ما من هذا القبيل ، فعُهد اليه الكتابة في بعض المحاكم الشرعية ، واستقر اخيراً في محكمة طنطا يتولى الكتابة فيها الى يومه الاخير .

وقد تزوج وهو في الرابعة والعشرين فتاة مصرية من آل البرقوقي ورزق منها ١٠ صبيان وبنتاً ، فكان عليه منذ اول امره ان يعمل جاهداً للقيام بأعباء العائلة وليس له إلا مرتبه الضئيل وبعض ما يجنيه من مؤلفاته ورسائله . على ان حياته العائلية كانت هنيّة ولزوجته فضل في ذلك . ويقول الذين عاشروه وعرفوه عن كثب انه كان أباً محباً وزوجاً فاضلاً تغلب عليه رقة القلب وشدة التأثر العاطفي . وكان يقضي اكثر وقته في البيت بين كتبه واوراقه ويمارس فيه ايضاً بعض الرياضيات البدنية تقوية لجسمه . وبرغم ذلك لم يعمّر طويلاً فقد توفّي وهو في السابعة والخمسين من عمره اثر نوبة قلبية قضت عليه حالاً ، فذهب مخلّفاً وراءه انتاجاً ادبياً ضخماً وشهرة واسعة في عالم الكتابة .

مزاياه الخلقية العامة :

لم يساعده الصمم على الاختلاط الكثير بين الناس ، ولعل الصمم كان من اسباب الدقة التي عرف بها في وظيفته ، وحسن العشرة التي كانت تبدو منه لخاصة اصدقائه ورفقائه في العمل . على انه ككثير من اهل الفن كان مبتلى بمركب خلقي هو الاعتداد بالنفس . وهو عادة يبرز فيمن تسوء حالهم من الأدباء وتخيب آمالهم فيعتاضون عن ذلك بتعظيم نفوسهم والغيرة على كرامتهم ، وخصوصاً اذا دخلوا في مناظرة مع سواهم ، او رد طلبهم ، او غض النظر عنهم . ومن امثلة ذلك ما يطالعك به في مقال له موضوعه « صعاليك الصحافة » ، فاسمع ما يقول :

« لما ظهر كتابي « وحي القلم » حملت منه الى فضلاء كتّابنـا في دور الصحف والمجلات اهديه اليهم ليقرأوه ويكتبوا عنه . وانا رجل ليس فيّ اكثر مما فيّ – كالنجم يستحيل ان يكون فيه مستنقع . فما اعلم في طبيعتي موضعاً للنفاق تتحول فيه البصلة الى تفاحة ، ولا مكانـاً من الخوف تنقلب فيه التفاحة الى بصلة . ولست اهدي من كتبي الا احدى هديتين – فاما التحية لمن اثق بأدبهم وكفاءتهم وسلامة قلوبهم ، واما انذار حرب لغير هؤلاء ... وكنت في طوافي على دور الصحف والمجلات احس في كل منها سؤالاً يسألني به المكان : لماذا لم تجيء ؟ فاني في ابتداء امري كنت نزعت الى العمل في الصحافة وانا يومئذ متعلم ريّض ، ومتأدب ناشيء . ولكن ابي رحمه الله ردّني عن ذلـك ووجهني في سبيل هذه والحمد لله . فلو اني نشأت صحافياً لكنت الآن كبعض الحروف المكسورة في الطبع »[1] .

وهذا مقاله « فيلسوف وفلاسفة » فأقرأه وانظر كيف يهاجم مناظريه في مسألة القديم والجديد اذ يقول : « فالذي بيننا وبينهم ليس القديم والجديد ، ولا التأخر والتقدم ، ولا الجمود والتحول ، ولكن اخلاقنا وتجردهم منها ، وديننا وإلحادهم فيه ، وكمالنا ونقصهم ، وتوثقنا وانحلالهم ، واعتصامنا بما يمكننا وتراخيهم تراخي من لا يجد ما يشدّه »[2]

وقد يظهر هذا الخلق فيه بمظهر الازدهاء والتمدح الذاتي ، حتى انه كثيراً ما كان يعيد ما يكتبه على جليسه ثم يقول مزهواً : « أرأيت شاعراً في العربية يملك من قوة البيان ما يجمع به كل هذه المعاني »[3] . وما اشبهه في ذلك بأبي عبادة البُحتري الذي كان اذا انشد الشعر التفت الى من حوله وقال : « ما لكم لا تقولون احسنت، هذا والله ما لا يحسن احد ان يقول مثله»[4].

ومن غرائب الرافعي في هذا الباب انه كان يدبّج تقريظـاً في نفسه وينحله

١) وحي القلم (١٩٤١) ج ٣ ص ٢١٤ .
٢) وحي القلم (١٩٤١) ج ٣ ص ٢٩٦ .
٣) العريان ٥٦ . ٤) الأغاني ١٨ (بولاق) ١٧٣

الى احد اعلام الادب كما فعل لما نشر كتابه تاريخ آداب اللغة . واليك مـــا كتبه عنه بهذا الصدد مؤرخ سيرته سعيد العريان قـــال : « في ذات يوم قصد (الرافعي) الى دار جريدة « المؤيد » ، فلقي هناك صديقه احمد زكي باشا ، فأهدى اليه كتابه ورجاه ان يكتب فصلاً عنه . فقال زكي باشا : وماذا تريدني ان اكتب ؟ قال الرافعي تقول وتقول و .. فقال زكي باشا اكتب ما تشاء وهذا امضائي . فجلس الرافعي الى مكتب في دار الجريدة وكتب مـا شاء ان ينسب الى صديقه في تقريظ كتابه ، ثم دفعه اليه فذيّله باسمه ، ودفعـه الى عامل المطبعة . وقرأ الناس في اليوم التالي مقالاً ضافياً بامضاء احمد زكي باشا في تقريظ « كتاب آداب العرب » ولكن احداً لم يعرف ان كاتب المقال هو الرافعي نفسه »[1] . ومثل ذلك ما فعله بتفسيره ديوانه وتقريظه ونحله الى محمد كامل الرافعي . وهناك امثلة اخرى على هذا الاطراء الذاتي[2] .

ومما عرف بـه شدة تديّنه وغيرته على التقـــاليد الموروثـة عن السلف . والتدين بحد ذاته من الفضائل المثلى التي يطلب من كل امرىء ان يتحلى بها ، وقد كان صاحبنا متحلياً بهـــا . وكان فوق ذلك لا يرى من تطور حقيقي في الحضـارة الانسانية والحياة الوطنية الا نتيجة الايمـان القوي بما تتضمنه الشريعة المنزلة . يقول من فصل موضوعه اللغة والدين والعـادات : « ولا يذهبنّ عنك ان الرجل المؤمن القوي الايمان ، الممتلىء ثقةً ويقيناً ، ووفاءً وصدقاً ، وعزماً واصراراً على فضيلته ، وثباتاً على ما يلقى في سبيلها — لا يكون رجلاً كالناس ، بل هو رجل الاستقلال الذي واجبـه جزء من طبيعته ، وغـــايته السامية لا تنفصل عنه . وهو رجل صِدق المبدأ ، وصدق الكلمة ، وصدق الامـــل ، وصدق النزعة ، وهو الرجل الذي ينفجر في التاريخ كلما احتاجت الحياة الوطنية

---

١) العريان ٢٦١ .
٢) حياة الرافعي (ط ١) .

الى اطلاق قنابلها النصر »[1] .

فالدين عنده هو الذي يدفع الفرد والامة الى طلب الاستقلال ، ولولاه لما انتظمت الحياة واندفعت نحو « الاكمل ودائماً الاكمل » ، « وبه يتهيأ النجاح السيامي للشعب المحافظ عليه المنتصر له » . وبهذا المعنى يقول في فصل في تجديد الاسلام او رسالة الازهر في القرن العشرين : « فعلماؤه اليوم اسهم نافذة من اسهم الله يرمي بها من اراد دينه بالسوء فيمسكها للهيبة ويرمي بها للنصر . ويجب ان يكون هذا المعنى اول معانيهم في هذا القرن العشرين الذي ابتلي بملء عشرين قرناً من الجرأة على الاديان واهمالها والالحاد فيها »[2] .

وما اكثر اقواله في النضال عن الدين فهو بحق مجاهد صادق العزيمة وفيّ لما يؤمن به ، ولا يؤخذ عليه الا تزمّته وتضييقه حتى كانت الاوهام تتسلط عليه احياناً في نظره الى بعض الامور الغيبيّة . قال العريان : « وكان عجيباً في ايمانه بالغيب ، وتناجي الارواح ، وتنادي الموتى والاحياء . وكان يؤمن بالسحر والعرافة ... واخبرني مرة انه لما مات اخوه محمد كامل الرافعي استحضر روحه فلبّت نداءه وكان بينهما حديث لا اذكره . وحاول مرة ان يعلّمني وسيلة لتحضير الارواح ولكنني لم اتعلم »[3] .

وكما كان اجلاله للدين وما يتعلق به من عالم الغيب كان اجلاله للماضي — عصبية للسلف الصالح وما تركوه لنا من أعمالهم الجيدة واخلاقهم المتينة .

ويساوق ذلك موقفه من اللغة العربية بالنسبة الى سائر اللغات ، فهو عدا انه يعتبرها رابطة الامة العربية وعنوان عزها ، يعدها افصح اللغات وابلغها . ففي مقاله : « اللغة والدين والعادات »[4] ، يقول : « وما ذلّت لغة شعب

١) وحي القلم ص ٣ - ٤٠ .
٢) لقد خيل اليه انه رسول لغوي فيقول « بعثت للدفاع عن القرآن ولغته وبيانه » وحي القلم ص ٣ - ٣٠٠ .
٣) العريان ص ٢٧٢ و ٢٧٣ .
٤) راجعه في وحي القلم ص ٣٥ (ج ٣) .

الا ذل ، ولا انحطت الا كان امره في ذهاب وادبار. وليس في العالم امة عزيزة الجانب تقدم لغة غيرها على لغة نفسها . الى قوله : امـــا اذا قويت العصبية ، وعزت اللغة ، وثارت لها الحميّة ، فلن تكون اللغات الاجنبية إلا خادمة يُرتفق بها .. وتكون تلك العصبية للغة القومية مادةً وعوناً لكل مـــا هو قومي ، فيصبح كل شيء اجنبي قد خضع لقوة قـاهرة غالبة – هي قوة الايمـان بالمجد الوطني » . ويعيد هـذا المعنى بشكل اشدّ اذ يتحدث عن « نهضـة الاقطـار العربية » فيقرر انهـا لا تقوم على اساس وطيد « إلا اذا نهض بهـا الركنان الخالدان – الدين الاسلامي واللغة العربية ، وما عداهما فعسى أن لا تكون له قيمة في حكم الزمن » [1] .

فاللغة العربية عنده كالدين ، اساس كل نهضة عربية . وتبلغ عصبيته لهـــا درجة الغلوّ الشعري اذ يحسبها فريدة بين اللغات ، كاملةً لا نقص فيها فهي لا تحتاج الى تطور ، وكيف تحتـاج الى تطور وقد بنيت كما يقول « على اصل سحري يجعل شبابهـا خالداً عليها فلا تهرم لانهـا اعدّت من الازل فلكاً دائراً للنيرين الارضيين العظيمين – كتاب الله وسنة رسول الله (ص) » [2] .

وفي كلام سابق له عن العرب يقول : « لا جرم كانوا اهـل هـــذه اللغة المعجزة التي ناسبتهم بأوضاعها في معاني التركيب ، كأنما كتب لهـا ان تكون دين الالسنة الفطري لتصلح بعد ذلك ان تكون لسان دين الفطرة » [3] . وفي موضع آخر يقرر أن العربية . « اوسع اللغات مدى واغزرهن مادة واوفاهن بالحاجة الحقيقية من معنى اللغة ، لكثرة ابنيتهـــا وتعدد صيغها ومرونتها على الاشتقاق وانفساحها في ذلك الى ما يستغرق اللغات بجملتها». ويجري ما شاء على هذا النمط من الوصف التعميمي . ثم يتناول طرق الوضع في اللغة ويعقّب على

١) وحي القلم ص ٢٠٠ .
٢) تحت راية القرآن (ط١) ص ١٩ .
٣) تاريخ آداب العرب (ج١) ٣٥ .

ذلك بقوله : « ويندر ان تجد ذلك كله (اي كمال التركيب وقوة الاشتقاق وجمال المجاز) في لغة من اللغات على مقدار مـــا تجده في العربية . فلا جرم كانت حرية بأن تكون مناط الإعجاز ، لانها الخلقة اللغوية الكاملة »[1] .

بمثل هذه الحماسة البالغة يتكلم الرافعي واصفاً اللغة العربية . وهو كلام خطابي يدل على شغفه بها وتقديسه لها . وإنّا لنجاريه في بعض ما يثبته لها من مزايا ، ونعترف بجلالها وسعتها وحسن بيانها وهي اللغة التي تخصصنا بهـا ونصبنا انفسنا لخدمتها . ولكن ذلك لا يمنعنا من القول أن حماسته الخطابية قد طغت على روح البحث العلمي عنده . وإلا فكيف يجوز له ان يحكم للعربية بالأفضلية المطلقة على سائر اللغات وهو لا يعرف غيرها ، ولم يدرس ادباً غير ادبهـــا ؟ وهو نفسه بعد سنين يلوم مناظره على انكاره الشعر الجـــاهلي او الشك فيه ، جاعلاً اساس نقده أن المنـاظر لم يتبـع الطريقة العلمية في التاريخ ، وهي كما يقول « ان يستوعب المؤرخ كل ما قيل وكتب في موضوعه ممـا يتعلق بحادث او شخص أو موضع لا يفوته من ذلك شيء »[2] .

ولعمري ان هذه الطريقة تصح في الحكم على اللغة كما تصح على التـاريخ . وليت الرافعي عمل بها في هذا المقام .

ان علماء اللغات لا يعتمدون في ابحاثهم على الاسس الدينية[3]، ولا يكتفون في الحكم على لغة ما بالنظر اليها فقط ، بل يدرسون سواها ويتبينون بالمقـارنة ما لها وما عليها ، ثم يرسلون حكمهم على اساس هذه المقـارنة . ولو فعل ذلك الرافعي لقلنا نِعم الصنع خطأً كان ام صواباً . ولكنه للأسف لم يفعل سوى انه اجرى القلم في ما اوحته اليه عصبيته اللغوية وغيرته القومية . على اننا نقدر

١) المصدر نفسه ص ١٦٧
٢) تحت راية القرآن ص ١٤٨
٣) يقول العريان في حياة الرافعي ص ١٢١ كان فيه حرص على اللغة من جهة حرصه على الدين الخ. الخ.

له هذه الغيرة ، ولا ننكر ما له من توفّر على دوس العربية وادبها والاستقاء من منابع بلاغتها ، ومجاراة القدماء من نوابغهـــا ، حتى اصبح لا يرى في لغة شعب من الشعوب ما يراه فيها من مزايا الكمال .

هـذا النظر الضيّق في الامور ، يشعر به كل من يطـــالع آراء الرافعي الاجتماعية واللغوية . فلا عجب ان نقرأ لراويته وأكثر الناس صحبةً له ، ان ثقافته كانت محصورة في مكتبته ، يقول : « هي دنياه التي يعيش فيها ، ناسها ناسه ، وجوّها جوّه ، واهلها صحابته وخلانه ، وعلماؤها رواته وادباؤها سمّاره. فأخذ عنها العلم كما يأخذ المتقدمون من علماء الامة عن العلماء والرواة فماً لفم . فنشأ بذلك نشأة السلف ، يرى رأيهم ويفكّر معهم ويتحـــدث بلغتهم ، وتستخفه افراحهم ، وتتراءى له احلامهم ومناهم »[1] .

كانت مكتبته عربية جامعة للأدب القديم وعلوم الدين ، وعليهـا تثقف ، ومنها استمدّ مادته اللغوية وبيانه المتين وعصبيته الشديدة . وهكذا نشأ فيه وهم ان ادب عصره قد ضلّ السبيل الحقيقي . وتغلـّب عليه هذا الوهم فأصبح يشعر انه قد أرسل لتقويم الأود وحياطة ما ورثناه عن السلف من ثقافة ادبية او روحية . ولذا كان شديد الخصومة لمن يسلك غير مسلكه او يرى غير رأيه. وسنرى ذلك بعد في كلامنا على اسلوبه النقدي .

التاجه الادبي :

عكف الرافعي اول نشأته الادبية على نظم الشعر ، ومضى في هذا السبيل وفي نفسه طموح أن يكون أحـــد الشعراء المعدودين . فأصدر الجزء الاول من ديوانه وهو في الثالثة والعشرين من عمره ، وأتبعه بعد سنة بالجزء الثاني، ثم بعد سنتين اخريين بالجزء الثالث. وفي الثامنة والعشرين اصدر ديوان«النظرات»،

١) العريان ص ١٦

وله أناشيد وطنية وسواها. فأشرق نجمه في سماء الشعر العصري، لكن اشراقه لم يدم طويلاً ، فانه لم يكد يتجاوز الثلاثين من عمره حتى عدل عن الجري في هذا المضمار وتحول الى الادب المنثور . وجرى فيه الى غايته حتى احتل مكانة رفيعة بين كتّاب العربية المحدثين . واليك أهمّ ما خلفه من آثاره الكتابية :

مؤلفاته :

تاريخ آداب العرب : أصدر الجزء الاول منه سنة ١٩١١ ، وقد حفزه الى تأليفه نشوء الجامعة المصرية وطمعه ان يكون هو استاذ الادب في الجامعة[1]. ومع ان امله لم يتحقق ، فقد نال بواسطة هذا الكتاب شهرةً واسعة . ولم يصدر الجزء الثاني الذي جعل عنوانه «اعجاز القرآن» إلا بعد ذلك بعدة سنوات.

حديث القمر : صدر سنة ١٩١٢ عقب رحلته الى لبنان ، وهو فصول في الحب تغلب عليها الصناعة .

المساكين : صدر سنة ١٩١٧ ، وقد استمده من بعض ما شاهده في مصر خلال الحرب العالمية الاولى .

رسائل الاحزان : سنة ١٩٢٤ وهي رسائل موضوعة على لسان صديق ، وتدور على ما يزعمه من احاديث حبية بينه وبين بعض السيدات . وقد اتبعه بعد أشهر بكتاب «السحاب الاحمر» وهو تتمة لرسائل الاحزان .

تحت راية القرآن : وهو فصول في النقد والمناظرة يدورُ معظمها على كتاب « في الشعر الجاهلي » لطه حسين صدر سنة ١٩٢٦ ، وآراء في القديم والجديد .

على السفُّود : في هذا الكتاب يتهجم على عباس العقاد ، ولم يُنشر تحت اسمه .

---

١) العريان ص ٥١

اوراق الورد : ١٩٣١ ، رسائل في الجمال والحب ، وهي تتمة لكتبه الثلاثة السابقة : حديث القمر ، رسائل الاحزان ، السحاب الاحمر .

وحي القلم : وهو ثلاثة اجزاء ويضمّ مقالاته بين ١٩٣٤ و ١٩٣٧ .

وله غير ذلك فصول ومؤلفات لا تزال مخطوطة .

الرافعي المترسل : للرافعي اسلوب خاص في الانشاء تسوده مسحة من الغموض او التعقيد ، وليس ذلك لسوء تركيب في كتابته ، فقلمه ينسج العبارات نسجاً قوياً لا وهن فيه ولا هلهلة. وهو يعتزّ بأنه بُعث ليعيد الفصاحة العربية سيرتها الاولى ، وقد يحق له الاعتزاز بذلك . على ان الذي يطالع مؤلفاته لا يسعه إلا ان يشعر بصعوبة في متابعة افكاره ، اذ كثيراً ما يحتاج ان يقف امام عباراته يتأملها ملياً لينفذ الى فحواها أو ليدرك اهدافها . والذي يبدو لنا ان هذه الصعوبة راجعة بالاكثر الى تعمّله لاستجلاب المعنى الغريب ، وحرصه على غير المعتاد من اللفظ او التركيب .

ولنوضح ما نقصد اليه ببعض الامثلة :

قال مشيراً الى ما اصطلح عليه مؤرخو الادب العربي من تقسيم التاريخ الى عصور (الجاهلية ـ صدر الاسلام ـ الاموية ـ العباسية الخ الخ) : « بيد ان تلك العصور اذا صلحت ان تكون اجزاءً للحضارة العربية التي هي مجموعة الصور الزمنية لضروب الاجتماع واشكاله ، فلا تصلح ان تكون ابواباً لتاريخ آداب اللغة »[1]. فالقارىء لا يسعه إلا أن يقف عند قوله «مجموعة الصور الزمنية لضروب الاجتماع » ليستوعب ما يعنيه الكاتب بها .

ويقول في تدوين الادب : « وهذا موضع بعيد المنزع ، منتشر الجهات ، امعنّا له في البحث وابعدنا في الطلب عن فسحةٍ في الرأي وبسطةٍ في الذرع

١) تاريخ آداب اللغة (ج ١) ص ١ - ٩

ورويّة واناة ، حتى أمدّنا الله بعونه وسنّى لنا ويسّر . فظهرنا من ذلك على مقدار يغني شيئاً في تبيّن نسق التاريخ ، ويعين على تأمّله بما تتهيأ معه السلامة في الحكم ويستقلّ به عمود الرأي » [1] . ولعلّ غيره كان يضع هذه المعاني في هذه العبارات — وهذا موضع بعيد الغور امعنّا في بحثه حتى امدّنا الله بما يغني في تبيّن نسق التاريخ وما تهيء لنا سلامة الرأي فيه — ولكنه فضّل ان يتكلف الاطناب وتكرير المعاني والتأنق في التصوير ، فصار القارىء يتلمس طريقه تلمساً الى المعنى المقصود .

واذا كان هذا أسلوبه التاريخي فكيف يكون اسلوبه الأدبي ، وهو طبعاً أميل الى التكلّف والتأنق . فاسمعه يتحدث عن الحب والفراق : « في الحبّ يتعلّم القلب كيف يتألم بالمعاني التي يجردها من اشخاصها المحبوبة وكانت كامنة فيهم . وبالفراق يتعلّم القلب كيف يتوجع بالمعاني التي يجردها هو من نفسه وكانت كامنة فيه . فترى العمر يتسلل يوماً فيوماً ولا تشعر به . ولكن متى فارقنا من نحبهم ، نبّه القلب فينا بغتةً معنى الزمن الراحل ، فكان من الفراق على نفوسنا انفجار كتطاير عدة سنين من الحياة » [2].

واليك وصفه لأهل الغفلة: « وقد كان يقال انه لا احمق من الغفلة في اثنين: الضارب في الصحراء تلفحه شمسها ويتنفّس النار من هجيرها ، فيغتسل بما يحمل من الماء ، فيبترد ويستروح ويدفع عنه القيظ وقد أنسته اللذة العاجلة ما امامه ، وعمي عن الصحراء ومعاطشها ، وظن انه قد غلبها في راحة نفسه والترفيه من امره . فلن يكون منها بعد ان شربت ماءه في موضع إلا ان تشرب روحه في موضع آخر . وغفلة الماكر الغاشّ يطمئن الى دَخَسه وغشه ، وهو يعامل فيها أمة كاملة فيوشك ان يلقى ما لقي الرجل ذو الأقفال حين زمّ باقفاله على فضيحتين . فكانت اقفاله الفضيحة الثالثة» [3] .

١) المصدر نفسه ص ٢٨٧
٢) السحاب الاحمر (١٩٤٢) ص ٥٨
٣) تحت راية القرآن (ط ١) ص ٣٤١

وقوله في المنافق : « ولو مددت عينيك في عينيه لرأيته يتخاوص لك باحداها ، كأنك أبيض من شعاع الشمس ، وان كنت قد خرجت من مصنع التجليد الإلهي في جلد اسود »[1] .

وقوله في نظر بعضهم الى الطبيعة : « ولقد يحسب الاجلاف من غلاظ الاكباد ، ان الطبيعة مبتذلة ، ويجدون لها غلظة في أنفسهم ، كأنهم ينظرون اليها من اكبادهم ، وكأن ظلالهم ليست كل شيء فيها . فحيثما انكفأوا لا يرون إلا طيفاً من الموت تنفر في وجهه ظنون الفزع »[2] .

في مثل هذه الاقوال – وما اكثرها في كتابات الرافعي – تستوقفك العبارات فترددها محاولاً كشف ما وراءها من المعاني وقد لا تظفر بما يروي ظمأ نفسك. ويعزو احدهم صعوبة اسلوبه الى انه ذو طاقة في التعبير عن الكثير بالقليل المحدّد المضغوط[3]. والواقع ان في عبارة الرافعي طاقة نشعر بضغطها ولكنها ليست في كلامه ايجازاً اذ يكثر فيه الاطناب والاستطراد وتكرير المعاني . وانما صعوبته راجعة الى ما ذكرنا من معاناته جودة الرسم وتوخيه التغارب فيه ، كقوله يخاطب القمر : « هل تبكي الطبيعة ايها القمر فتكون انت في ديباج السماء دمعة في منديل الطبيعة لم تجفّ بعد وقد بدأ فيها الجفاف »[4] . وكأنه شعر بغموض مقصده فاضطر الى تفسيره في الحاشية .

وخذ ايضاً قوله : « واذا كانت النفس خرساء ، لا تُفهِم الا بالحركة والاشارة ، فما ارى هذه الحركة منها في الانسان بين المرض والصحة الا كحركة نقض الدليل الفاسد بالدليل الصحيح في العقل »[5] . فهذا كلام من قبيل الطلاسم ولا اظن قارئاً يدركه على حقيقته . وقوله : « واني لألمح فيه

١) السحاب الاحمر ص ٨٨
٢) حديث القمر (١٩٥٦) ص ٨٢
٣) المختار من أدب الرافعي لصدر الدين شرف الدين ص ٥
٤ – حديث القمر ص ٨٨
٥ – المصدر نفسه ص ١٠٣

(اي وجه الحبيب) سرّاً عجيباً يكون فقدان العبارة عنده هو ابلغ من العبارة في وصفه ، اذ لا تتكلم روعة الحسّ بالجمال ، ولا هي تنزل في صور الالفاظ، وانما تغمز على القلب غمزة خافتة تشعر الناظر ان روح المنظر خامرت الروح وان حياة الشكل انسكبت في الحياة ، وان المعنى الغامض في السرّ قد اتصل بالمعنى الغامض في النفس »[1] . والمعنى الذي يقصد اليه في هذا الكلام جميل ، ولكن دون الوصول اليه حجاب كثيف . وما اكثر معانيه الطريفة المحتجبة بحجب لا بدّ من ازاحتها بالتأمل المضني . ولو أردت المزيد من الأمثلة على ذلك لأتيت بالشيء الكثير ، فأكتفي الآن بأن اقف عند هذا المثل الاخير . قال في فاتحة فصل موضوعه «الغضبى»[2] : لقد غضبت وكر هجرها على وصلها ، وانشقّ الزمن زمنَين احدهما مثلها غضبان مبتعد وكأنما كان لها خاصة ، فلما ذهبتْ لحق بها . انه الحب يخلق بها خلقاً فيّ ، وبزمنها خلقاً في زمني ليشعرنا بهذا التغيير الخالق المتصرف ، اننا لا نتحابّ في ذات نفسينا ، بل في الجلال الاعظم الذي منه نفسها ونفسي . فاذا تغاضبنا وقسمتنا اهواؤنا ، رجعنا قطعتين من المادة ليس في كلتيهما الا قانون الثقل .. وزادت عواطفنا وزناً جديداً من الغيظ » .

واترك القارىء معالجة هذه القطعة بالصبر والروّية .

على ان الرافعي على تعمّله في الصناعة الكتابية ، قـدير في رسم الصور البيانية . ويكثر في اقواله التجريد، والتمثيل والمجاز، حتى انك قلما تعثر بصفحة من كتبه او رسائله لا تستوقفك لكثرة ما يشيع فيها من ذلك ، وخصوصاً في كتاباته الوجدانية كرسائل الاحزان ، وحديث القمر ، والسحاب الاحمر ، واوراق الورد ، وما اليها .

وايضاحاً لذلك ننقل لك بعض هذه الصور :

---

١ ـ اوراق الورد ص ٣٨

٢ ـ راجعه في اوراق الورد ص ٤٦٩

ينتقد كتّاب المقالات في هذا العصر فيقول : «حتى لتبدو المقالة في ألفاظها ومعانيها كأنها القُنفذ اراد ان يحمل مأكلةَ صغاره فقرض عنقوداً من العنب فألقاه على الارض وأتربه وتمرّغ فيه . ثمّ حشى كل حبة مرضوضة في عشرين ابرة «من شوكه» .

★

ويصف بقية العمر بعد ذهاب الشباب بهذه العبارة : « اذا كان في امرىءٍ من الناس باقٍ بعد شبابه ، فما اشبه هذا الباقي في جانب ما قبله بنواة الثمرة الحلوة من لبابها – تنتهي فيما تأكل الى النواة ولكن بعد ان يكون اطيب ما في الثمرة قد انتهى ، وتفضي ممّا ينعصر في الريق حلاوةً ويسيل في الحلق لذّةً الى بقية من الخشب رطبة او يابسة» [1].

★

وتدور محاورة بينه وبين صاحبته فتقول له : «كأني في رأيك لست مخلوقة كالمرأة بل كحيوان للأذى والمقت والخوف» . فيجيبها : – «بل مخلوقة مثل كل امرأة ، ولكن فيكِ من الزيادة عليها زيادة ماء السيل على مـــاء النهر ، وزيادة الحدّة على الطبع الرزين ، وزيادة الطيش على العقل : فاذا طغى النهر فأفسد وخرّب ، وطاش العقل فزلّ وأخطـــأ ، نهض ذلك عندكِ عذراً في وجوب التخريب والاعتداء والخطأ ... فلا يقيموا على النهر العاتي جبالاً من السدود ، ولا يجعلوا للنفس الطائشة سجناً من الحدود ، ولا يقولوا لمن يجنيها عليهم ان كان عندك الفرار فعندنا القيود» [2] .

★

ويقول في تأثير الحب : «والحياة يا حبيبتي هي هي كما تكون في كل موضع ، وكأنها البحر ماؤه ماؤه في اميركا هو ماؤه في مصر – الاّ حيث يكون الحبيب . فهناك مع الحياة شيء غيرها. هناك المادّة الخفيّة القادرة التي تنساغ في

١) السحاب الاحمر ص ١٣٣

٢) المصدر نفسه ص ٧٥

هذه الحياة لتلوّنها تلوين الزهرة منفردةً بالجمال والعطر من بين اوراق شجرتها[1].

★

وانظر الى ما يترك الشعاع الالهي في قلب المؤمن اذ يصفه بقوله : — وانه يجري في احزانه كالماء يتدافع في مسيله ، وتراه يطّرد وينعطف ويتمعج لانه ينساب بالحياة فكأنه يبحث في جهات نفسه وانحائها عن كل عاطفة ميتة ، فلايترك على جانبي الحياة الا ّ ماترك الماء على عطفيه من خُضرة ونَضرة وبرد وسلام[2].

★

ويخاطب الحبيبة واصفاً ابتساماتها : «ولك ابتسامة يزيد سكون الطرف من غموضها ، والاخرى يزيد استطلاق وجهك من صراحتها ، والثالثة على استحياء كأنّ وعداً معلقاً فيها . ولك ابتسامة ملحّة كأنها نشيد وجدٍ يترقرق فيها صوتك الرخيم الذي هو ايضاً تصوير الابتسامة بحروف ورنين» [3].

★

هذه الحلل المجازية هي معارض افكاره وعواطفه ، وادوات الفن في كتابته ، فهو يستعمل التخيّل الشعري في كل ما يود ان يعبر به نثراً عن خوالج نفسه . ومثَله في ذلك مثل الشاعر الذي ينحت من صخر ، ولذا تجد في عباراته قوة الصخر وآثار النحت الدقيق ، والجهد في اقتناص البعيد من صور الحياة . وهذا الجهد قد يدفعه احياناً الى التعسّف والغموض ، ويطوّحه في مجاهل من المعاني فيتعذر على قارئه السير معه مسافة بعيدة ويضطر الى التوقف ريثما يأخذ قليلاً من الراحة ويستطلع معالم الطريق التي امامه .

ولا يعتمد الرافعي السجع في انشائه ، الا ان حرارته الفكرية قد تتقد احياناً ، وخصوصاً في باب النقد الاجتماعي ، فيترك الكلام المرسل وينفث ما

١) اوراق الورد ص٤٦

٢) حديث القمر ص ١٠٥

٣) اوراق الورد ص ٩٧

في نفسه عبارات مسجّعة موزونة . كقوله مخاطباً شباب مصر المتعلم في اوروبا والمتعلق بقشور مدنيتها : « الا ليتكم جئتم للبلاد من اوروبا بمحاريث بدلاً من هذه المواريث ، وجئتم بالسماد بدلاً من هذا الوساد (ويكني بالمواريث والوساد عن الزوجات الافرنجيات) ، وبالبهائم للسواني ، لا بالحلائل والغواني. ويا ليتكم اذ كنتم رجالنا لم تغلبكم نساؤهم ، واذ كنتم سيوفنا ، لم تأسركم دماؤهم . ويا ليتكم لم تتنعموا وتتأنثوا ، فكانت البلاد بخدمتكم اهل البأس ، ولم تتعلموا وتتخنثوا ، فكانت الارض على الاقل تعرف منكم اهل الفأس» [1] .

هذه امثلة قليلة من بيانه المجازي . والحق يقال انك كيفما نظرت في كتبه رأيت الرافعي يطل عليك بصور من نثره الفني حتى في رسائله الحبيّة التي ينتظر ان تكون غاية في الرقة والسلاسة . وعلى ذكر رسائله الحبيّة نقول انها لا تدل على اختبارات في القلب كالتي تشعر بها فيما ينبثق من نفوس العشاق واصحاب الهيام . بل هي اوصاف عامّة للجمال والحب. وقد يكون المحرّك لها اعجابه ببعض الحسان ، ولكن هذا الاعجاب لم يكن عنده الا وسيلة للكتابة الفنية في هذا الباب . وقد صدق اذ قال عن نفسه :

« ولقد كانت حوادث صاحبنا في حبّه كالسحب الرقيقة في سماواتها عمر ساعة من الشفق ، وتأتي وعليها ألوانها الالهية اصباغاً واقعة كما تتفق ، ثم لا يكون الجمال والتناسب مع ذلك الا كما تتفق . فكذلك نشأت رسائله من وحي القلب وروحانيته تموج بمعانيها وتتبرج في معارضها ... وعلى ما طال بينها (اي بينه وبين حسنائه) من زمن الحب فهي كأنها لم تزد له على ان سنحت مسنح الغزال وولّت .

ومـا احسب حب هذا الشاعر وتلك الشاعرة قد كان في كل حوادثه الا تأليفاً من الاقدار لهذه الرسائل بمعانيها حتى اذا كسبت المعاني ألفاظها انبثقت

---

١) السحاب الاحمر ص ٦٧ .

كالنور وصدحت كالنغم»[1].

ولقد حاولت ان اقابله ببعض الكتاب الاقدمين وعبثاً حاولت ذلك. فليست طريقته طريقة صدر الاسلام. طريقة البساطة المحكمة الإيجاز، ولا هو كابن المقفع في اسلوبه السهل الممتنع، او الجاحظ في بيانه المتوازن، ولا هو يجري مجرى اهل الصنعة من المترسلين امثال القاضي الفاضل، بل يجمع اطرافاً من كل ذلك ويسلك بهـا طريقة خاصة كل مـا يمكن ان يقال فيها انها «رافعية».

ولو سئلت ان أصف الطريقة الرافعية، لقلت انهـا اشبه برجل مصعّد في جبل صعب المرتقى لا يكاد يبلغ غايته حتى يكون قد نضح عرقاً وشغلته وعورة المسالك عن التمتع بجمال المناظر.

ومن الانصاف ان نذكر له ان رسائله الصحفية التي جمعت في كتابه «وحي القلم» هي اكثر سهولة واقرب الى الكتابة الحديثة من سائر كتاباته، وهي تمثل اسلوبه في عهده المتأخر.

الرافعي القصصي :

لم يعنَ الرافعي بالفن القصصي عنايته بالمقالة. على أن له في هذا الباب ما هو جدير بالذكر. وقصصه نوعان: نوع مستخرج من مطاوي التاريخ العربي، ونوع من نسج الخيال. وفي كلا النوعين لم يقصد بما يقصه ان يطرفنا برواية فنية ذات عقدة تتشوّق النفس الى حلّها. فما القصة عنده الا مقال او حديث يدور حول شخص او حادثة، والغرض منه العظة والحكمة والاعتبار. وقد اصاب سعيد العريان اذ وصف طريقته في كتابة القصة فقال: «القصة عنده لا تعدو ان تكون مقالة من مقالاته في اسلوب جديد. فهو لا يفكر في الحادثة اول ما يفكر، ولكن في الحكمة والمغزى والمذهب الادبي ثم تأتي الحادثة

١) اوراق الورد ص ٢٦ و٢٧.

من بعد . فكان اذا همّ ان ينشيء قصة من القصص ، جعل همّه الموضوع وانتهى في تحديد الفكرة الى ما يريد ... فليس له الا ان يفكر في اسلوب الاداء . وسواء بعد ذلك عليه ان يؤدي موضوعه عن طريق المقالة او عن طريق القصة . فاذا اختار أن تكون قصة ، تناول كتاباً من كتب التراجم (العربية) الكثيرة بين يديه ، فيقرأ منها ما يتفق حتى يعثر باسم من اعلام التاريخ فيدرس تاريخه وبيئته وخلاّنه ومجالسه ، ثم يصطنع من ذلك قصة صغيرة »[1] .

وهكذا نرى احاديثه التاريخية في « قصة زواج » ، « رؤيا في السماء » ، « زوجة امام » ، « بنته الصغيرة » ، « اليمامتان » ، « قبيح جميل » ، « الاسد » ، وسواها . وفي بعضها متعة حقيقية للنفس . ولأمثّل على ذلك بواحدة من هذه القصص : ففي « قصة زواج » مثلًا يحدثنا عن الامام سعيد بن المسيّب ويصف لنا زهده واخلاقه ، ويذكر ما كان منه يوم جاءه رسول من قبل الخليفة الأموي في الشام يخطب ابنته لابن الخليفة . وكيف رفض طلبه وفضل عليه شاباً فقيراً من طلاب العلم . ولما سأله الناس مستغربين كيف فضل طالب العلم على ابن الخليفة اجاب : « ما زوّجت ابنتي رجلًا اعرفه فقيراً او غنياً ، بل رجلًا اعرفه بطلًا من ابطال الحياة يملك اقوى اسلحته من الدين والفضيلة ... افٍّ افٍّ اتريدون ان ازوج ابنتي من ابن امير المؤمنين فيخزيها الله على يدي ، وادفعها الى القصر وهو ذلك المكان الذي جمع كل اقذار النفس ودنس الايام والليالي » .

وهذه الحادثة يرويها لنا الرافعي في نحو ٢٥ صفحة ، وما هي في التاريخ الا شيء يسير . ولكنه يتناول مادّتها الاصلية ويحوك منها قصة زاخرة بالعبر والمكارم . ولا بدع فهو يعترف بأن غايته ممّا يكتب «هي النفس الشرقية في دينها وفضائلها» ، قال : «فلا اكتب إلا ما يبعثها حيّة ويزيد في حياتها وسمّو

١) حياة الرافعي للعريان (ط١) ص ٢٠٧ .

غايتها ، ويمكن لفضائلها وخصائصها في الحياة ، لذا لا امس من الآداب كلّها الا نواحيها العليا»[1].

من هذه النواحي يكتب جميع قصصه ، سواء في ذلك مـا استخلصه من التاريخ او ما أوحي اليه من واقع مجتمعه . ومعظمه يـدور حول الزواج ، وقضايا الحب ، والحياة العائلية . واذا قلنا واقع مجتمعه فلا يعني انه حوادث يسردها لنا عن طريق الادب ، ولكنها حوادث يتخيّلها في الغالب تخيلاً مبنية على ما كان يتراءى له من احوال الحياة . وفي ذلك ما كتبه تحت المواضيع التالية : «المشكلة» ، «القلب المسكين» ، «احلام في قصر» ، «بنت الباشا» ، «عاصفة القدر» ، «الطائشة» ، «الطفولتان» وسواها. ومن هذه القصص ما يكون سلسلةً ذات حلقات عدّة ، على انه في جميعها يقصد الى اصلاح ما يحسبه فاسداً في المجتمع والعـائلة . وقد تحرّكك غيرته الاصلاحية وترى في سرد احاديثه قدرته على التعبيرالفني ، ولكنك لا تشعر انك تقرأ قصّة ، شعورك انك تستمع الى محّدث حكيم وواعظ قدير .

والذي يبدو لي ان أحاديثه التاريخية اكثر متعة من احاديثه الاجتماعية ، ولولا انه يكثر فيها من التأنق اللفظي ويلبسها حللاً ضافية من الحِكم والتوجيه الروحي لعدّت من الطراز النفيس في الفن القصصي .

الرافعي الناقد

يقف الرافعي في نقده مواقف ثلاثة: احدها موقف «المحلل البصير» ويظهر هذا الموقف في كلامه على مزايا من عرفهم من رجال الادب والعلم كاسماعيـل صبري واحمد شوقي وحافظ ابرهيم ويعقوب صروف وسواهم . فله في ذلك بحوث قيمة وتحاليل تدل على دقة نظره وحسن بيانه ومقدرته على غربلة الامور وجلاء حقائقها . والموقف الثاني موقف «المدافع عما يعتقده» ، وفي هذا الموقف

١) راجع مقاله فلسفة القصة في وحي القلم ٣- ٣٠٠

تتغلّب عليه الحماسة العاطفية على الحجة العلمية فيندفع اندفاع الشاعر اذ يحلق في عالم الخيال ويعمد الى ما تمليه عليه عصبيته، لا الى ما يتطلبه النظر العلمي الرزين. ويدخل في ذلك اكثر ادبه الديني . قال العريان في هذا الموقف : «كان الرافعي كما ترى البدوي الثائر لعرضه ان ينتهك» [١] . والموقف الثالث موقف المخاصم المتهكم . ولاهمّ له في هذا الموقف الا اذ يتهجم على خصمه او مناظره ويرميه بسهام الطعن والتحقير. يقول مثلاً في اديب من اكبر ادباء هذا العصر: «على انه لو كان استاذ الجامعة بليغاً معروفاً وشاعراً معدوداً وحكيما متفلسفاً ، ثم كان فيه شيء من تلك الخلال السوء لنزلتْ به وغضّت منه . فكيف وهو هو ذلك الذي عرف الناس جميعاً انه ميء الفهم في اساليب البيان، اذ كان بطبعه لايحسن شيئاً منها ، قاصر الذهن في معاني الشعر ومناحي البلغاء لانه بعيد منهم. وليس فيه إلا أنه غليظ الحسّ بليد التصّور ، منطفيء الخيال . ثم هو مع هذا كله يجمع في كل هذا الدعوى الفارغة والاستطالة والشرّ وبذاءة اللسان حتى ليس في مصر سبّاب ولعّان يُعرف له من مقالات السبّ واللعن ما يعرف لاثنين أحدهما استاذ الجامعة [٢].

هذا مثل صغير فيما تجد كثيراً امثاله واشدّ منه في كتابه «تحت راية القرآن» وكتابه «على السفّود» وفي كثير من رسائله التي يتهجم بها على نخبة من اعلام الادب امثال طه حسين ، والعقاد ، وسلامة موسى وسواهم .

وهذا اقرب الأدباء اليه واكبر مريديه يصف تهجمه بقوله: «ونسي (الرافعي) في هذه المقالات كل اعتبار مما تقوم به الصلات بين الناس. فما كان يكتب نقداً في الادب ، بل يصب لهيباً وحمماً وقذائف لا تبقي على شيء» [٣]

ويصف اسلوبه النقدي في كتابه تحت راية القرآن فيقول : «وليس الكتاب

---

١) حياة الرافعي ص ١٢٧
٢) تحت راية القرآن (ط١٠) ص ١٢٥
٣) العريان في حياة الرافعي ص ١٢٧

على استواء واحد في اسلوبه. ففي المقالات الاولى منه تقرأ رأي الرافعي هادئاً متزناً ، فيه وقار العلماء وحكمة اهل الرأي ورحابة صدر الناقد البريء . فاذا وصلت من الكتاب الى قدر ما ، رأيت اسلوباً وبياناً غير الذي كنت ترى ، وطالعتك في صفحات الكتاب صورة جهمة للرافعي الثائر المغيظ المحنق ، جاحظ العينين كأنما يطالب بدم مطلول ، مزبد الشدقين كالجمل الهائج ، منتفخ الانف كأنه يشتمّ ريح الدم ، سريع الوثاب كأن خصماً تراءى له بمدمـــا دار عليه طويلاً . فهو يخشى ان يفرّ»[1].

كان الرافعي يحمل راية الزعامة في الدفاع عن الادب القديم ومهاجمة اصحاب الاسلوب الجديد ، وقد شغلت هذه الخصومة قسماً كبيراً من ادبه وكان يرى ان هذا الجديد ليس الا تقليداً للغرب فهو لا هذا ولا ذاك . ولكن الرافعي مع كل مقدرته الانشائية والادبية ، ومع واسع اطلاعه ودقة نظره ، لم يكن في النقد رحب الصدر يعالج الامور بروّية العالم المتزن وتواضع الفيلسوف الذي ينصف الخصم حتى من نفسه .

١) المصدر نفسه ص ١٣٣

جبران جبران

١٨٨٣ – ١٩٣١

حياته وادبه :

لسنا نحاول الآن ان نؤرخ سيرة هذا الاديب العبقري ، فقد كفانا مؤونة ذلك كتّاب سيرته ، ولا سيما رفيقه مخايل نعيمه الذي عرض لنا حياته عرضاً دقيقاً في كتابه « جبران » (١) . وانما نحن نحاول ان ندرس فنّه الانشائي مقتصرين من سيرته على ما له اثر بيّن في كتابته . واذا ألقينا نظرة عامة على حياته الادبية رأيناها سلسلة واحدة مؤلفة من بضع حلقات متواصلة ، وسنقف قليلاً على كل من هذه الحلقات .

الحلقة الاولى : وتشمل حياته منذ ترك وطنه لبنان الى اميركا وهو في ما يقارب الثانية عشرة من عمره ، حتى استقر في نيويورك سنة ١٩١٢ وهو في التاسعة والعشرين كرسّام محترف . وهي تنطوي على ١٧ سنة تقلّبت عليه فيها احداث مختلفة . وقد كان اول مقرّ له في اميركا مدينة بوسطن حيث اقام

(١) وعليه نعول في كثير من المعلومات .

سنتين مع والدته واخوته اخذ فيهما يتعلم اللغة الانكليزية . ثم بعثه ذووه الى بيروت فبقي فيها خمس سنوات طالباً في أحد معاهدها عاد بعدها الى بوسطن . ولم يلبث ان فجعه الدهر فيها بموت شقيقته ثم أخيه وامه . ولا تسل عما قاساه بسبب ذلك من ألم نفسي وضيق مادي .

بقي على هذه الحال بضع سنوات ، وكان قد اخذ يعالج فن الرسم . ومن حسن حظّه ان سيّدة اميركية محسنة اعجبت بموهبته فأرسلته على نفقتها الى باريس ليتقن هذا الفن . وبعد ان اقام في باريس ثلاث سنوات عاد الى بوسطن ومنها انتقل الى نيويورك حيث انشأ لنفسه محترَفاً للتصوير اليدوي .

كانت هذه السنوات السبع عشرة التي جعلناها الحلقة الاولى من حياته ملأى بالاشواك القلبية والهموم المادية . واولها فشله في حب اول فتاة ملأت قلبه ، ثم مرارة نفسه لفقد ذويه ، وملازمة الفقر والعناء له. فكان كل ذلك كافياً ان يخرج من قلمه أمثال « عرائس المروج » ، و« الارواح المتمردة » ، و« الاجنحة المتكسرة » ، و « دمعة وابتسامة » . وكلها تنمّ على شقاء نفسي ، وتبرّم من قسوة العالم ، ونقمة على ذوي السلطة ، مع شعور داخلي بضعفه عن المقاومة .

الحلقة الثانية : وتمتدّ الى السنة ١٩٢٠ – ثماني سنوات خرج فيها من هوّة الحاجة وبدأ يشعر بقوة نفسه ازاء الحياة . ولعلّ ما طالعه في كتاب نيتشه «هكذا تكلم زرادشت» قد اثر في نفسه تأثيراً ملأه بروح الاعتداد ، فغلب عليه الميل الى التهكّم بالناس والعبث بتقاليدهم وشرائعهم . وصار همّه ان يكون حفّاراً لقبورهم ، هدّاماً لما ألفوه في حياتهم – كما نرى في هذا الحوار الخيالي بينه وبين شبح ظهر له– يسأله الشبحَ ما صناعتك ؟ فيجيب: انظم الشعر وانثره ولي في الحياة آراء اطرحها على الناس. فيقول الشبح : هذه مهنة عتيقة مهجورة لاتنفع الناس ولا تضرّهم . فيسأله الشاعر : وماذا عسى ان افعل بايّامي ولياليّ

لأنفع الناس؟ فيجيبه الشبح: اتخذ حفر القبور صناعة فتريح الاحياء من جثث الاموات المكردسة حول منازلهم ومحاكمهم ومعابدهم .

وذلك ما فعله جبران في هذا الطور من حياته ، فأخرج للناس «العواصف» و«المواكب» . والمواكب قصيدة تعكس آراءه في الحياة والناس . واما العواصف فكتاب يضمّ عدّة فصول ومقالات وهو آخر ما نشره بالعربية . وقد ظهر بعده ١٩٢٣ كتاب آخر هو «البدائع والطرائف». ولكن جبران لم ينشره اذ هو مجموعة مقالات اختارها صاحب مكتبة العرب بمصر من مؤلفات سابقة كالعواصف ، ودمعة وابتسامة ، ومقالات اخرى لم يسبق نشرها في كتاب .

الحلقة الثالثة : وهي حقبة ادبه الانكليزي ، وتنتهي بانتهاء حياته سنة ١٩٣١ . في هذه الحقبة اصبح جبران ميسور الحال ذائع الصيت ، يتذوّق لذّة اليسر والشهرة . ولعلّ ذلك كان السبب في تخفيف ما كان يشعر به من عداوة للناس ، ومن اعتداد بالنفس يدفعه الى التهكّم بهم ، فأصبح متواضعاً لا يرى الناس دونه، ومن يقرأ مقاله «وعظتني نفسي» يتضح له هذا التغيّر الداخلي فيه . وهكذا نراه في السنوات العشر الاخيرة من حياته منصرفاً الى التغني بالحكمة الازلية وتمجيدالحياة الانسانية الصافية. في هذا الجوّ الروحي ظهر له من الكتب النبي (The Prophet) ١٩٢٣ ، ويسوع ابن الانسان ١٩٢٨ ، ورمل وزبد ١٩٢٦ ، وآلهة الارض ١٩٣١ ، وسواها .

اساوبه الانشائي :

لا بد للذي يطالع كتابات جبران العربية والانكليزية من ان يرى في اسلوبه طابعاً يميزه من سواه. وغايتنا الآن ان نتبيّن هذا الطابع الجبراني ونحلل مزاياه الرئيسية ، وهي على ما يبدو لنا ثلاث : بعد الخيال ، روعة الايقاع ، عنف العاطفة . فلننظر قليلاً في كلّ منها .

١) **بعد الخيال** : ليس الفرق غالباً بين الادب الرائع والادب العادي الا فرقاً في قوّة الابتداع التخيلي . واهم عناصر هذا الابتداع ثلاثة : التصميم الموضوعي ، والتصوير البياني ، والتوسع النظري[١] . ويراد بالتصميم الموضوعي ابتداع فكرة تدور عليها القطعة الادبية . وانك لتجد ذلك بارزاً في معظم ما وضعه جبران – لافرق بين مقالاته او كتبه . خذ مثلاً من مقالاته (رماد الاجيال والنار الخالدة) حيث يحاول ان يبين لنا ان الأجيال التي تمرّ وتستحق اعمال الانسان لا تفني احلامه ولا تضعف عواطفه، اذ انّ هذه الاحلام والعواطف تبقى ببقاء الروح الكليّ الخالد . نعم قد تتوارى احياناً ولكنّها لا تلبث ان تظهر ثانية كما تظهر الشمس في الصباح .

وخذ قصّته (وردة الهاني) التي يقصّها علينا ليثبت (ان كلّ ما في الأرض يحيا بناموس طبيعته ، ومن طبيعة ناموسه يستمدّ مجد الحرّية وافراحها . اما البشر فمحرومون من هذه النعمة لانهم وضعوا لأرواحهم الالهية شريعة عالمية محدودة ، وسنّوا لأجسادهم ونفوسهم قانوناً واحداً قاسياً ، وأقاموا لميولهم وعواطفهم سجناً ضيّقاً مخيفاً) .

وفي مقاله «مناجاة ارواح» يقابل بين جمال الطبيعة في لبنان ، وفساد الحياة في المدن الاميركية . فتراه يصف الحياة الجبلية اللبنانية مساءً وصباحاً بقوله : « قد رقد سكان القرى في اكواخهم القائمة بين اشجار الجوز والصفصاف .. وقد فاحت روائح النرجس والزنبق وعانقت عطر الياسمين ثم تمازجت بأنفاس الارض الطيّبة ومرت مع تموجات النسيم .. فملأت النفس انعطافاً ومنحتها حنيناً الى الطيران ... هـا قد جاء الصباح فاستفاقت القرى المتّكئة بهدوء وسكينة على كتفي الوادي ، وترنّمت اجراس الكنائس فملأت الأثير نداءً مستحباً معلنة بدء صلاة الصباح ، فأرجعت الكهوف صدى رنينها كأن الطبيعة بأسرها قامت مصليّة » الخ . الخ .

١) راجع المختارات السائرة للمؤلف ص ٢٣

اما مدينة نيويورك فينظر اليها نظرة سوداء ، اذ يقول واصفاً طلوع الصباح فيها : « قد جاء الصباح وانبسطت فوق المنازل المكردسة اكفّ النهار الثقيلة. فأزيحت الستائر عن النوافذ ، وانفتحت مصاريع الابواب فبانت الوجوه الكالحة والعيون المعروكة . وذهب التعساء الى المعامل وداخل اجسادهم يقطن الموت بجوار الحياة ، وعلى ملامحهم المنقبضة قد بان ظل القنوط والخوف ، كأنهم منقادون قهراً الى عراكٍ هائل مهلك - ها قد غصّت الشوارع بالمسرعين الطامعين ، وامتلأ الفضاء من قلقلة الحديد ، ودوي الدواليب وعويل البخار ، واصبحت المدينة ساحة قتال يصرع فيها القويّ الضعيف ، ويستأثر الغني الظلوم بأتعاب الفقير المسكين » . والمقابلة بين الحياة القروية الطبيعية وحياة المدن المزدحمة ، موضوع يلهج به الادب الرومانتيكي في كل مكان وزمان . ولكن ليس كل لاهج به مبتدع لطريقة جديدة في عرضه .

وإذا نظرت الى كتبه ألفيت هذا الابتداع التخيلي للموضوع ولطريقة الاخراج ظاهراً للعيان . ففي كتابه النبي مثلاً « قد خلق جبران شخصاً دعاه المصطفى ، وجعل روحه نيّرة الى حد ان سامعيه كانوا يخاطبونه «يا نبيّ الله » . وهو يصوّره لنا غريباً في مدينة اسمها اورفليس قضى فيها اثني عشرة سنة في انتظار سفينته التي كان ينتظر قدومها لتعود به الى مسقط رأسه . واذ تقبل السفينة يتقاطر اليه اهل المدينة ملحّين عليه بالبقاء بينهم فلا يجيبهم الا بالصمت والدموع . واخيراً يسير معهم الى ساحة امام الهيكل . فتطلب منه رائية الهيكل ان يحدّثهم قبل الوداع عن انفسهم وعمّا عرفه بالوحي من كل ما هو بين الولادة والموت . وهكذا يُفتح المجال للمصطفى ليكشف لسامعيه علائقهم بعضهم مع بعض ومع الحياة لا كما يرونها بأعينهم المقنّعة بالاوهام بل كما يراها هو بعين روحه الصافية . فيلقي عليهم خمساً وعشرين موعظة في خمس وعشرين جهة من جهات الحياة الانسانية ، ثم يودعهم وداعاً مؤثراً وينصرف عنهم الى بلاده » . هكذا يصف مخايل نعيمه قالب هذا الكتاب (1) .

---

١) جبران ص ٢٤٤ .

ومثل آخر على ابتداعه للموضوع -يسوع ابن الانسان - فقد جعل في هذا الكتاب معاصري المسيح يتحدثون عنه ، كل حسب منازعه ومداركه . ومن احاديثهم المختلفة تبرز صورة يسوع كما يتخيلها جبران - ستة وسبعون شخصاً يصفون لنا يسوع . وكأنما اوصافهم قصائد جميلة يقف القارىء لديها مدهوشاً امام عمق الخيال الذي يتجلى فيها وفي الاسلوب الذي اخترعه الكاتب . ويمكن ان يقال مثل ذلك في معظم ما صنّفه جبران .

٢) التصوير البياني : وكما أن بعد الخيال يظهر في اختيار الموضوع وطريقة اخراجه ، كذلك هو ظاهر في كتابة جبران بما يسودها من روعة التصوير البياني . وليس جبران نسيج وحده في ذلك اذ هو شائع في ادب القدماء والمحدثين . على ان لتصوير جبران صبغة خاصة لا يسع الباحث الا ان يراها . فهو تصوير فني شعري يتناول المعاني وظلالها . والواقع ان نثر جبران من طراز الشعر يكثر فيه ما يستحب في الشعر من مجاز رائع . فاذا اراد مثلاً وصف الغنيّ واهتماماته الدنيوية قال : « مشى الموسر في حديقة صرحه ومشى الهمّ متتبعاً خطواته » . واذا اراد ان يؤرخ لنا ميلاده قال في ٦ ك ١ ١٩٠٨ : « في مثل هذا اليوم منذ خمس وعشرين سنة وضعتني السكينة بين ايدي هذا الوجود » . واذا تكلم عن حرية الفكر قال : « كبّلْ يديّ ورجليّ بالقيود ، وانزل بي الى ظلمة السجون ، فانك لا تقوى على اسر فكرتي ، لانها كالسائر في فضاء لا حدّ له ولا مدى » . وينظر الى الاسد سجيناً في قفصه الحديدي فيخاطبه واصفاً حياة البشر واطماعهم قائلاً : « انظر ايها الاسير الجليل ، انظر الى تلك الشوارع المنفرجة والازقة الضيّقة فهي اودية خطرة المعابر يتربص اللصوص بين منعرجاتها . هي ساحة قتال مستتبّ بين الرغائب والرغائب ، تتنازل فيها الارواح متضاربة ولكن بغير السيوف ، وتتصارع متناهشة ولكن بغير الانياب . بل هي غابة الاهوال تسكنها حيوانات داجنة المظاهر ، معطّرة الاذناب ، مصقولة القرون ، لا تقضي شرائعها ببقاء الانسب ، بل بدوام الاروغ

والاحيل ، ولا تؤول تقـاليدهـــا الى الافضـل والاقوى ، بل الى الاخبث والاكذب . اما ملوكها فليست اسُداً نظيرك بل هي مخاليق عجيبة لهم مناقد النسور وبراثن الضّبع وألسنة العقارب ونقيق الضفادع » .

وتتراءى لمخيّلتـه صورة المسيح مساء العيد فيقول : « افكر بالشعلة النارية التي اوقدها الروح العلي في قرية حقيرة فطـافت مرفرفـة فوق رؤوس العصور مخترقة مدنيّة بعد مدنيّة » .

ويضع على لسان الشاعر واصفاً نفسه – « انا غريب في هذا العـالم اسير في شوارع المدينة فيتبعني الفتيان صارخين هوذا الاعمى فلنعطه عكازة يتوكّأ عليها، فأهرب منهم مسرعاً . ثم التقي بسرب من الصبايا فيتشبّثن بأذيالي قـائلات هو اطرش كالصخر فلنملأ اذنيه بأنغـام الصبابة والغزل ، فأتركهن راكضـاً . ثم التقي بجماعة من الكهول فيقفون حولي قائلين هو اخرس كالقبر فتعـالوا نقوّم اعوجاج لسانه ، فأغادرهم خائفـاً . ثم التقي برهط من الشيوخ فيومئون نحوي بأصابع مرتعشة قائلين هو مجنون اضاع صوابه في مسارح الجن والغيلان » .

ويحدّد معنى الحياة فيقول : « الحياة امرأة تستحمّ بدموع عشاقها ، وتتعطر بدماء قتلاهـا » . ويصف انقضاء الليل بقوله : « فخلع الفضـاء اثوابه المرصّعة بالنجوم ولبس قميصه المنسوج من اشعة الصباح » .

هذه امثلة قليلة من تصويره البياني . ومـــا اكثرهـا في اقواله – تخيّلات شعرية يستعملها للتعبير عمّـــا يجول في نفسه من حكم وخواطر . واذا تأملتها وجدت فيها العنصر الثالث من عناصر البعد في الخيال، اعني«التوسع الفكري». ذلك لانه بجمال التصوير يحمل الفكر الى ابعاد من المعاني وراء حجب الالفاظ. فكتابته من هذا القبيل كرسومه نستعين بظاهرها لننفذ الى الباطن البعيد . على انهـــا ليست من نوع الرمزية التي تقوم على استعمال الالفـاظ الغـامضة لغرابة استعمالها او لبعد دلالاتها ، فهو لا يستعمل من الالفـاظ غير اسهلها واوضحها ، ولكن رمزيته تصويرية اساسها تقريب الافكار العالية بواسطة التصوير البياني

ولنتقدم الآن الى المزيّة الثانية من مزاياه الانشائية :

٢) ووعة الايقاع (او الروعة الموسيقية) وهي عامة في كلامه على انها تشتدّ او تضعف بالنسبة الى موضوع الكلام او حالة المتكلم . فاذا كان موضوعه ممّا يتسع لتدفق العواطف ككثير من مقالاته وفصوله ، او كان هو في حالة تأثر وانفعال كأكثر حالاته ، فانك تجد افكاره تتواثب منه في مقاطع موسيقية ترتاح اليها النفس . ولا يعني ذلك انها تتقيّد بتوازن او سجع ، ولكنه يعني ان تراكيبه تأتي موافقة لموسيقى افكاره . ولعل التمثيل يوضح ذلك اكثر من الشرح . ففي مقاله : « مساء العيد » مثلاً يصف رب العيد (يسوع) بقوله : « قلت ومن انت ؟ قال وفي صوته هدير مياه غزيرة . انا الثورة التي تقيم ما اقعدته الامم . انا العاصفة التي تقتلع الانصاب التي ابنتتها الاجيال . انا الذي جاء ليلقي في الارض سيفاً لا سلاماً » .

فالكلام غير مقيّد بأصول التوازن والسجع ولكنه يهزّك اكثر من التوازن والسجع لانه يعبّر عن افكار تسودها الموسيقى الجميلة .

وفي مقاله عن لبنان يقول : « لكم لبنانكم ولي لبناني ... لبنانكم صراع بين رجل جاء من المغرب ورجل جاء من الجنوب . اما لبناني فصلاة مجنّحة ترفرف صباحاً عندما يقود الرعاة قطعانهم الى المروج ، وتتصاعد مساءً عندما يعود الفلاحون من الحقول والكروم » .

ومثل هذه الروعة تلمسها في مقاله « ايتها الارض » . اذ يخاطبها قائلًا : « وما اكرمك ايتها الارض وما اطول اناتك ، ما اشد حنانك على ابنائك المنصرفين عن حقيقتهم الى اوهامهم ، الضائعين بين ما بلغوا اليه وقصّروا عنه . نحن نضجّ وانت تضحكين . نحن نجدّف وانت تباركين ، نحن ننجّس وانت تقدسين... نحن نصبغ وجهك بالدم ، وانت تغسلين وجوهنا بالكوثر . نحن نتناول عناصرك لنصنع منها المدافع والقذائف ، وانت تتناولين عناصرنا وتكوّنين منها الورود والزنابق » .

وقس على هذه القطع ما لا يحصى من اقواله . والواقع ان روعته الموسيقية هي من أبرز مزاياه الانشائية . وتقوم بالأكثر على انسجام بين العبارات ومعانيها كانسجام شتى الألحان في القطعة الموسيقية الواحدة .

٣) **عنف العاطفة** : ولها في كتابة جبران ظواهر شتى ابرزها ثلاث : التقريع والتهكّم والتمرّد . وهذه الثلاث تنبت من أصل واحد هو عدم الرضا بما يراه من أعمال الناس ، على ان لكل منها صفة خاصةً بها . فالتقريع هو التعنيف او التأنيب يوجه الى من لا يحسن العمل ، والتهكّم هو الاستهزاء بما يعمله . اما التمرّد فهو الاستكبار عمّا يعمله . فمن التقريع قوله من فصل في العبودية : « لقد جبت مشارق الارض ومغاربها ، وطفت في ظلّ الحياة ونورها، وشاهدت مواكب الامم والشعوب سائرةً من الكهوف الى الصروح، ولكنني لم أرَ الآن غير رقاب منحنية تحت الاثقال، وسواعد موثقة بالسلاسل، ورُكَب جاثية امام الاصنام ». فهو يعنّف الناس على قبولهم العبودية في أي شكل جاءت . ويشتد عنفه اذ يقرّع قومه في مقاله « يا بني أمي » قائلًا لهم : «نفوسكم تتلوّى جوعاً وخبزالمعرفة اوفر من حجارة الاودية ولكنكم لا تأكلون، وقلوبكم تختلج عطشاً ومناهل الحياة تجري كالسواقي حول منازلكم ، فلماذا لا تشربون . . لقد كنت أحبّكم يا بني أمّي وقد أضرّ بي الحبّ ولم ينفعكم ، واليوم صرت اكرهكم والكره سيل لا يجرف غير القضبان اليابسة ، ولا يهدم سوى المنازل المتداعية ... ماذا تطلبون مني يا بني أمّي ، بل ماذا تطلبون من الحياة ، والحياة لم تعد تحسبكم من ابنائها . ارواحكم تنتفض في مقابض الكهّان والمشعوذين ، واجسادكم ترتجف بين انياب الطغاة والسفّاحين ، وبلادكم ترتعش تحت اقدام الاعداء والفاتحين ، فماذا ترجون من وقوفكم امام وجه الشمس ؟ أنا اكرهكم يا بني أمّي لأنكم تكرهون المجد والعظمة ـ انا احتقركم لأنكم تحتقرون نفوسكم ـ انا عدوّكم لأنكم اعداء الآلهة ولكنكم لا تعلمون ».

وعلى هذا الغرار تقريعه الشديد في مقاله « لكم لبنانكم ولي لبناني » اذ

يقول : « ومن هم يا ترى ابناء لبنانكم ؟ ألا فانظروا الى حقيقتهم : هم الذين ولدت ارواحهم في مستشفيات الغربيين – هم تلك القضبان الليّنة التي تميل الى اليمين والى اليسار ولكن بدون ارادة ، وترتعش في الصباح والمساء ولكنها لا تدري انها ترتعش – هم أولئك العبيد الذين تبدّل الايام قيودهم المصدّأة بقيود لامعة فيظنّون انهم اصبحوا احراراً مطلقين » .

وقوله في « نحن وأنتم » مقابلاً بين امثاله من ابناء الكآبة ، والمترفين من ابناء المسرّات : « نحن نبكي لأننا نرى تعاسة الارملة وشقاء اليتيم ، وانتم تضحكون لأنكم لا ترون غير لمعان الذهب. نحن نبكي لأننا نسمع أنّة الفقير وصراخ المظلوم ، وانتم تضحكون لأنكم لا تسمعون سوى رنّة الاقداح . نحن نبكي لأن ارواحنا منفصلة بالاجساد عن الله ، وانتم تضحكون لأنّ اجسادكم تلتصق مرتاحة «بالتراب» .

وقس على هذه الأمثلة كثيراً غيرها ولا سيا فيا يدعوه الى الموازنات بين موقف وموقف ، أو حال وحال ، كما ورد معنا في الامثلة المارّة وكما يجده القارىء ايضاً في امثال الفصول التالية : « لكم لغتكم ولي لغتي » ، « الامس واليوم وغداً» ، «بين ليل وصباح» ، « ابناء الآلهة واحفاد القرود » . ويبرز تقريعه ايضاً في مثل : «الاضراس المسوسة» ، «المخدّرات والمباضع» ، «يا بني أمّي » ، وغيرها من الفصول التي تلتهب فيها عاطفته .

وفي باب التهكّم يحمل جبران على ضعاف النفوس من اصحاب المكر والخبث والجبن والجمود ، فينظر الى «الاسد السجين» والى من يحيط بقفصه من المتفرجين ويقول له : « تفرّس في وجوههم تجد في ملامحهم ما كنت تراه في سحنات ادنى رعاياك واعوانك في مجاهل الصحراء . فمنهم من يشبه الارنب بضعف قلبه ، ومنهم من يماثل الثعلب باحتياله ، ومنهم من يضارع الافعى بخبثه ، ولكن ليس بينهم من له سلامة الارنب ، وذكاء الثعلب ، وحكمة الافعى » .

ويقول للذين يلومونه على تطرّفه في ندب الشرقيين ، ونظره إلى حياتهم من الوجهة المظلمة : « انا اندب الشرق لأن الرقص امام نعش الميت جنون مطبق... انا ارى الجيفة المنتنة فتشمئز نفسي وتضطرب احشائي ، ولا استطيع ان اجلس قبالتها وفي يميني كأس من الشراب وفي شمالي قطعة من الحلوى » ، (راجع مقاله المخدرات والمباضع) .

ومن ابرز فصوله التهكّمية : «فلسفة المنطق» ، «الشيطان» ، «الكلام» ، «السرجين المفضّض» ، «مساء العيد» . وفي هذا الفصل الاخير يصف الناس وقد خرجوا الى الشوارع يعيّدون عيد الميلاد . فيرينا المسيح بينهم ولكنهم لا يعرفونه ولا يهتمون به ، لأنهم بالحقيقة انما يهتمون بأفراحهم وملذّاتهم . وبعد حديث له مع صاحب العيد يسمعنا عن لسانه عبارات تهزّ اوتار القلب يختمها بقوله : « العالم يعيّد لإسمي وللتقاليد التي حاكتها الايام حول اسمي . اما انا فغريب اطوف تائهاً في مغارب الارض ومشارقها وليس بين الشعوب من يعرف حقيقتي » .

وهذا الموقف التهكّمي يقفه من المفكّرين والشعراء والفلاسفة اذ يخرجون يوم الجمعة «الحزينة» ليصغوا الى فتى يقول لقاتليه : « يا أبتِ اغفر لهم لأنهم لا يدرون ما يفعلون» . « ولكن لا تكتنف السكينة اصوات النور حتى يعود الفلاسفة والمفكرون والشعراء ويكفّنون ارواحهم بصفحات الكتب البالية » .

اما التمرّد عند جبران فهو بالأكثر على الماضي وعلى ما بلي من تقاليده . ولا نبالغ اذا قلنا انه طابع جبران الخاص وخصوصاً في الطور الاول من حياته الادبية . ففي « حفار القبور » مثلاً تراه يحاول ان يهدم ما بناه الناس من اوضاع وشرائع فيقول على لسان «الإله المجنون» : « في الصباح أجدّف على الشمس ، وعند الظهيرة ألعن البشر ، وفي المساء اسخر بالطبيعة ، وفي الليل اركع امام نفسي وأعبدها » . وبعد ان يلتقي بهذا الإله ويسمع حديثه ، يقول حفار القبور : « وفي اليوم التالي طلّقت امرأتي وتزوجت صبيّة من

بنات الجن ، ثم اعطيت كل واحد من اطفالي رفشاً ومحفراً وقلت لهم اذهبوا ، وكلما رأيتم ميتاً واروه التراب . ومن تلك الساعة الى الآن وانا احفر القبور وألحد الاموات ، غير ان الاموات كثيرون وانا وحدي وليس من يسعفني».
فكأنما همّه الشاغل ان ينظّف العالم من رواسب الماضي وما بلي من انظمته وعاداته .

وفي مقاله «العبودية» يتحدث عن شتى العبوديات ثم يصف احداها وهي العبودية العمياء فيقول : « وهي التي توثق حاضر الناس بماضي آبائهم ، وتنيخ نفوسهم امام تقاليد جدودهم وتجعلهم اجساداً جديدة لأرواح عتيقة ، وقبوراً مكلّسة لعظام بالية » .

ويذهب الى أبعد من ذلك في «المخدّرات والمباضع» . فبعد ان يعدّد آراء الناس فيه وفي كتابته يعقّب على هذه الآراء بقوله : « وهم مصيبون . فأنا متطرّف حتى الجنون ، اميل الى الهدم لا الى البناء ، وفي قلبي كره لما يقدّسه الناس ، وحبٌ لما يأبونه . ولو كان بامكاني استئصال عوائد البشر وعقائدهم وتقاليدهم لما ترددت دقيقة . اما قول بعضهم ان كتاباتي سمّ في دسم ، فكلام يبيّن الحقيقة من وراء نقاب كثيف . فالحقيقة العارية هي انني لا أمزج السمّ بالدسم ، بل اسكبه صِرفاً . غير انني اسكبه في كؤوس نظيفة شفّافة » .

هذا التمرّد على الماضي جعله ينعت المسيح بأنه ثائر متمرد جبّار (راجع يسوع المصلوب) . واذ تقف به الحياة « على سفح جبل الشباب » وتومىء الى الوراء – الى مدينة الماضي ، ثم تمشي امامه وتقول اتبعني . يسألها : « الى اين ايتها الحياة» ، فقالت : « الى مدينة المستقبل » . فيجيب : « رفقاً فقد نهكني السير» . قالت : « سر فالوقوف جبانة ، والنظر الى الماضي جهالة » ، (راجع مدينة الماضي) .

وفي مقاله «العهد الجديد» يوقفنا امام موكبين «موكب من عجائز محدودبي الظهور ، يسيرون متوكئين على العصيّ العوجاء ، ويلهثون منهوكين مع

انهم ينحدرون من الاعالي الى المنخفضات . وموكب من الفتيان يتراكضون كأنّ في ارجلهم اجنحة، ويهلّلون كأن في حناجرهم اوتاراً ، وينتهبون العقبات كأنّ في جبَهات الجبال قوة تجذبهم ، وسحراً يختلب ألبابهم . فمن أية فئةٍ انت ايها الشرقي ؟ وفي ايّ موكب تسير ؟ اقول لك أن ابناء الامس يمشون في جنازة العهد الذي اوجدهم وأوجدوه.— اقول انهم يسكنون منازل متداعية الاركان . فاذا ما هبّت العاصفة ، وهي على وشك الهبوب ، انهدمت تلك المنازل على رؤوسهم وكانت لهم قبوراً ».

واننا نلاحظ في كل ذلك جرأته وصراحته ، فهو لا يداور في كتابته ولا يغطّي شعوره او معتقده بطلاءٍ من الرفق والايناس المزيّف ، بل كما قال يقدّم السمّ صِرفاً ، ويأبى ان يرقص امام نعش الميت ، ويظهر الاشمئزاز امام الجيفة المنتنة ، ويفتخر بأنه متمرّد هدّام يكره ما يقدّسه الناس .

إننا نوافق كاتب سيرته ميخايل نعيمة في ان جبران في السنوات العشر الاخيرة من حيـــاته ، وكان قد اصبح ذا يسر وشهرة ، لم يعد ذلك الهدّام المعتدّ بنفسه ، فارتدى رداء التواضع ومحاسبة النفس . ولكن لا ننسَ انه في تمرّده كما في تواضعه ، هو ذلك الرجل الذي يكره الجمود ويدعو الى السير قدماً في سبيل الحياة النامية . «فالحياة (عنده) بغير تمرّد كالفصول بغير ربيع ، والتمرّد بغير حق كالربيع في الصحراء القاحلة الجرداء — الحياة والتمرد والحق ثلاثة «أقانيم» في ذات واحدة لا تقبل الانفصال ولا التغيير » .

محمد حسين هيكل

١٨٨٨ — ١٩٥٦

يؤخذ مما كتبه هيكل عن نفسه وما كتبه عارفوه عنه ، ان حياته العامة مرّت في ثلاث مراحل هي : مرحلة المحاماة — وذلك منذ عاد من باريس سنة ١٩١٢ الى سنة ١٩٢٢ .

مرحلة الصحافة والسياسة — وتمتد من سنة ١٩٢٢ الى سنة ١٩٣٧ .

مرحلة الخدمة الحكومية — كوزير فرئيس لمجلس الشيوخ ، وذلك من ١٩٣٨ الى ١٩٥٠ .

وتلا هذه المراحل بضع سنوات لجأ فيها الى الراحة من العمل العمومي والانصراف الى الانتاج الادبي . ولقد تنسى الاجيال مع تقادم الزمن ما قام به في حقول المحاماة والصحافة والسياسة والادارة ، ولكنها لن تنسى تلك العبقرية الادبية التي تركت للعالم من آثار الفكر ما يحلّها محلًا عالياً بين كتّاب هذا العصر .

ولد محمد حسين هيكل في قرية مصرية اسمها كفرغنّام . وفي مدرسة هذه القرية او « كتّابها » حفظ القرآن . ثم ارسل الى القاهرة ليتثقف في معاهدها :

وهناك بعد ان اكمل دروسه الابتدائية والثانوية التحق بمدرسة الحقوق حيث ظل اربع سنوات يجدّ حتى نال شهادتها . لكنه لم يقف عند هذا الحد . فقصد فرنسا للتخصّص والتحق بكلية السوربون . وفي سنة ١٩١٢ ، اي بعد دخوله السوربون بثلاث سنوات ، فاز بدكتوراه الحقوق ثم قفل راجعاً الى مصر. فاستقر اولاً في مدينة المنصورة حيث أنشأ مكتباً للمحاماة واخذ يزاول هذه المهنة بما عهد فيه من كفاءة ومهارة . بيد ان المحاماة وحدها لم تكن كافية لارواء ما كان يشعر به من ظمأ روحي — كان بطبعه اديباً فارهف قلمه للكتابة ، وخاض به في امهات الجرائد شتى المواضيع الادبية والاجتماعية والسياسية ، يبثّ ما كان يختلج في نفسه من الدعوة الى التجديد والاخذ بأسباب الحضارة والتقدّم .

ومن براكير ادبه المجدّد قصته « زينب » التي تعد رائدة القصص المصرية الحديثة (وسيأتي ذكرها بعد) . ومما زاده نشاطاً ان الجامعة المصرية دعته ليحاضر في كلية الحقوق فلبى دعوتها وقبل مسروراً ان يقوم بهذا العبء بالاضافة الى مشاغل المحاماة .

في هذه الاثناء كانت الروح المصرية في صدور الشبيبة المثقفة تتمخض بحركة وطنية غايتها نيل الاستقلال والسير في موكب التطور العام . فتألفت في البلاد احزاب سياسية وكان كل حزب يحاول اكتساب الرأي العام وتوجيهه نحو هدفه الخاص . ومن هذه الاحزاب الحزب الوطني الذي اسّسه مصطفى كامل ، ثم حزب الامة وعلى رأسه احمد لطفي السيد ، وحزب الوفد (١٩١٩) بزعامة سعد زغلول ، فحزب الاحرار الدستوريين (١٩٢٤) برئاسة عدلي يكن ، وحزب الشعب (١٩٣٠) برئاسة اسماعيل صدقي . ووقف هيكل من هذه الاحزاب في اول الامر موقف المحايد ولكنه لم يلبث ان رأى في سياسة الاحرار الدستوريين ما يتمشى مع ارائه وميوله فانضم اليهم [١] .

فلما اصدر هذا الحزب جريدته « السياسة » سنة ١٩٢٢ عهد الى هيكل

١) راجع كتاب « محمد حسين هيكل » بأشراف لطفي السيد ١٩٥٨ ص ٢٣١ .

تحريرهـــا وهكذا اصبح لسان الحزب المعبّر عن سياسته واهدافه . واذ ذاك ودّع المحاماة وانغمس في غمار الحياة الصحافية والسياسية .

ولسنا نحاول في هذا المقـام ان نسجّل تاريخ هذه الاحزاب او نحلـّل اهدافها فذلك عمل المؤرخ السياسي ، وانما الذي يهمنا من ذكرها ان نتتبع آثار كاتبنا في حياته السياسية والصحفية لان له في هذا الباب ادباً لا يجوز الاغضاء عنه لمن يؤرخ النهضة الكتابية في هذا العصر .

نزل هيكل الى ميدان النضال السياسي فكان يرسل المقالة تلو المقالة معبّراً عما يعتقده ، ومدافعـاً عن المبادىء التي يدين بها ، لا خدمة لشخص معيّن ، او مجرد سعي وراء منفعة . والى ذلك يقصد في قوله حين استقال رئيس الحزب عدلي يكن : « فلنسر في طريقنا ندافع عن الحرّية وعن العدل وعن القانون. لهذا قـام هذا الحزب ، ولهذا يجب ان يبقى دون نظر الى الاشخاص الذين ينضمون اليه أو الذين يتركونه . لقد كنا نملأ الايمان قلوبنـا بجلال مبادئنـا وعظمة رسالتنا ، وكنا يومئذ في عنفوان القوة والشباب . فليبق معنا من شاء ، وليتركنا من شاء . فلن يغيّر ذلك من الامر شيئاً »[1] .

فالنضال لاجل المبدأ كان شعاره الرئيسي في حياته السياسية. وقد شهد له بذلك جميـع الذين ارّخوا حياته او كتبوا عنه. ويكفي ان ننقل هنا شهادة طه حسين اذ قال :

« الا ان الاحكام العرفيّة المتصلة في تلك الايام ، وبطش الملوك ، وبطش الوزراء — كل شيء من ذلك لم يستطع ان يكفّه ولا ان يكف زملاءه عن الكتابة والانتـــاج في حرّية حرّة وفي صراحة صريحة — لو لم يكن الا هذا لكان من الحق على التـاريـخ ان يكتب هيكلاً بين الذين مهدوا طريق الحرية للأجيال المقبلة »[2] .

١) المصدر السابق ص ٢٦ .
٢) المصدر نفسه ص ٩٣ و ٩٤ .

أراد مرّة اسماعيل صدقي ان يضمه الى حزبه « حزب الشعب » ليضعف بذلك من قوة الاحرار الدستوريين ويكسب لحزبه ولجريدته سنداً قوياً . وبعث اليه من يغريه بالمال الوفير . ولكن هيكل رفض ما عرض عليه وابى ان يتنازل عن مبدئه لاجل غرض مادي [٣].

وكان يشترك معه في الكتابة للسياسة (وهي اذ ذاك جريدة يومية) عدد من خيرة الكتاب . ولما ضاقت عن نفثات اقلامهم صدرت السياسة الاسبوعية فكانت مدرسة ثقافة وفكر وتوجيه للحركة الادبية في ذلك العهد . وفي هذه المجلة اتسع المجال للمجددين من الادباء فكان كاتبنا في طليعتهم . فنشر فصوله ومقالاته التي جمع منها بعدئذ عدداً من كتبه .

وظل يجاهد بقلمه ويعمل على تجديد الحياة الفكرية والاجتماعية في مصر حتى انتهت سنة ١٩٣٧ فانتقل الى مرحلة اخرى من حياته العمومية وهي مرحلة الخدمة الحكومية . فاختير وزيراً للدولة ، فوزيراً للمعارف ، ثم رئيساً لمجلس الشيوخ . وبين الوزارة والرئاسة قضى اكثر من اثنتي عشرة سنة .

ولا يظهر ان هذه المناصب الرفيعة غيّرت شيئاً من شيمه وطباعه . فقد بقيت له شجاعته الادبية وتمسكه بما يعتقده حقاً وبُعده عن التملق والمداهنة . ذلك ما يثبته الذين عرفوه عن كثب واختبروه حق الاختبار . فقد ذكر موسى صبري انه في عام ١٩٥٠ تلقى هيكل ، وهو يومئذ رئيس لمجلس الشيوخ ، احتجاجاً من القصر : كيف يوافق ان يُدرج في جدول اعمال المجلس استجواب عن الحفلات الصاخبة الماجنة التي كانت تقيمها الاميرات ، وكيف لا يحيط رئيس الشيوخ القصر الملكي بهذا الاستجواب علماً قبل ان يسجله في اعمال المجلس ؟ وطلب القصر في احتجاجه ان تعدّل مضابط الجلسة التي نوقش فيها الاستجواب . فكان جواب الدكتور هيكل انه يقف الى جوار الدستور ويحتمي بنصوصه التي منحت اعضاء مجلس الشيوخ الحصانة البرلمانية

٣) المصدر نفسه ص ٢٧ .

والحرية في القول. وقال ليس من بين واجباته كرئيس للمجلس ان يطلع القصر على شيء من اعماله . وكان ان سجّلت المضبطة جميع ما دار في جلسات المجلس عن هذا الاستجواب . ويذكر الاستاذ صبري صفحات اخرى مثل هذه من حياة كاتبنا فليراجعها من شاء [1] .

على انه اذا كانت المناصب الحكومية لم تغير اخلاقه ولم تزعزع تمسّكه بمبادئه ، فانها لا شك قد شغلته حيناً عن الانتاج الادبي . ففي هذه المرحلة من حياته لم يكن لقلمه وقت كاف للكتابة ، ولم يعد اليها الا بعد ان ترك الوزارة واصبح قادراً ان يكرّس وقته للادب. فعكف اذ ذاك على دراساته الاسلامية واصدر « حياة الصدّيق ابي بكر » و « حياة الفاروق عمر » ، وكذلك اصدر مذكراته ، وآخر رواياته « هكذا خُلقت » .

انتاجه الأدبي :

تناول قلم هيكل معظم الفنون النثرية ، فأنشأ المقالات والفصول من سياسية وأدبية ، وألّف كتب التاريخ ، والسِّيَر ، والنقد ، والرحلات ، والقصص . ومن القائمة التالية يتبيّن للمطّلع مدى جهده الفكري والفني . وهذي هي حسب تاريخ صدورها لأول مرة :

زينب – رواية ريفية مصرية ، سنة ١٩١٤

جان جاك روسو – دراسة في حياته وكتبه ، صدر الجزء الاول سنة ١٩٢١ والثاني ١٩٢٢

في اوقات الفراغ – مجموعة رسائل ادبية تاريخية فلسفية اخلاقية – ١٩٢٥

عشرة ايام في السودان – وصفٌ لما اختبره ورآه في السودان – ١٩٢٧

تراجم مصرية وغربية – دراسات تحليلية لشخصيات تاريخية – ١٩٢٩

١) المصدر السابق ص ٣٠٩ – ٣١٠ وراجع ايضاً فيه قول حافظ محمود ص ٢٧٠ .

ولدي	– عواطف وتأملات اوحاها اليه فقد ولده	سنة ١٩٣١
ثورة في الادب	– فصول في النقد الادبي	– ١٩٣٣
حياة محمد	– سيرة النبي العربي	– ١٩٣٥
في منزل الوحي	– وصف رحلته الى الحجاز	– ١٩٣٧
الصدّيق ابو بكر	– سيرة الصدّيق (الخليفة الاول)	– ١٩٤٣
الفاروق عمر	– سيرة الخليفة الثاني	– ١٩٤٦
مذكراته في السياسة المصرية		– ١٩٥١
هكذا خُلقَت	– قصة من صميم حياة مصر المدنية	– ١٩٥٤

وإننا لنبخس ادب هيكل حقه اذا حاولنا ان نقدمه للقارىء بعرضٍ وجيزٍ لكل من هذه المؤلفات . فالأدب لا يمكن تذوقه إلا بقراءته رأساً . ولذا فسنترك تلخيص كتبه ونتقدم الى تحليل مزاياه الكتابية مع شواهد من اقواله تلقي ضوءاً على فنه الادبي .

والمتأمل في حياة الادباء يرى لكل منهم شخصيتين : شخصية روحية تتجلى فيها معتقداته ونظراته في الحياة ، وأخرى فنية يعرف بها اسلوبه في التعبير عن هذه المعتقدات والنظرات . فلنلقِ نظرة على كلٍّ من هاتين الشخصيتين عند كاتبنا :

شخصيته الروحية : وهي تنعكس لنا من خلال نظره الى الامور التالية: التجديد – الحرية – الواجب – الحياة .

نشأ هيكل في عصر كان الصراع قد بدأ فيه بين التقاليد الشرقية والمدنية الغربية . الاولى تدعو الى التمسك بالقديم من ازياء ، ومعتقدات ، ونظم اجتماعية ، وأساليب لغوية وغير ذلك . والاخرى تدعو الى تغيير التقاليد الموروثة واستبدالها بما استحدثته الحضارة الجديدة .

فكيف وقف كاتبنا من هذا الصراع ؟ انه لا شك كان من دعاة التجديد ولكن دعوته لم تكن الى تقليد الغرب تقليداً أعمى ونبذ جميع ما وصلنا من تراثنا الشرقي. فلقد تأثّر بحضارة الغرب وأدرك ما في الحياة الجديدة من خير، إلا ان هذا الخير عنده لا يمكن الحصول عليه إلا اذا هيأنا لبذور الحضارة الغربية منبتاً شرقياً تنمو فيه فتأتي بثمار تصلح لنا ولأوطاننا. وفي ذلك يقول : « وقد حاولت أن انقل لأبناء لغتي ثقافة الغرب المعنوية وحياته الروحية لنتخذها جميعاً هدىً ونبراساً . ولكني ادركت بعد لأيٍ انني أضع البذر في غير منبته . فاذا الارض تهضمه ثم لا تتمخض عنه ولا تبعث الحياة فيه . وانقلبت التمس في تاريخنا البعيد في عهد الفراعنة موئلاً لوحي هذا العصر يُنشيء فيه نشأة جديدة ، فاذا الزمن ، واذا الركود العقلي قد قطعا ما بيننا وبين ذلك العهد من سبب قد يصلح بذراً لنهضة جديدة. فرأيت ان تاريخنا الاسلامي هو وحده البذر الذي ينبت ويثمر . ففيه حياة تحرّك النفوس وتجعلها تهتزّ وتربو »[1] .

فهيكل يؤمن بالحضارة الغربية على شرط أن لا تكون شيئاً نستورده من الخارج استيراداً ، بل على ان تغرس بزوره في ارضنا الشرقية فتنمو ، لا لكي تكون غربية بل لتكون تطوراً حقيقياً يحدث في صميم الحياة القومية .

وهو ايضاً يؤمن بالحرية . وهذا الايمان جعله يماشي قاسم امين في دعوته الاصلاحية فيكتب المقالات في الدفاع عن المرأة واطلاقها من قيود التقاليد لتسير مع الرجل في سبيل التقدم . وما اشد دفاعه حين وصف القائمين على قاسم فاتّهمهم بالرياء وان قيامهم عليه لم يكن لأنهم لا يرون الحق بجانبه – «لكنهم يخشون الخروج من وكرهم لتصيد الحيوات الغامضة في ظلام المستقبل – ليكن هذا الوكر فاسد الهواء ، ليكن مملوءاً بالمكروبات القتّالة ، ليكن بحيث تنهمر عليهم من جوانبه الافاعي والمقارب – لكنهم يخشون الخروج لأنهم يخافون

١) كتاب «هيكل» ص ٤٢

ان يجدوا في الخارج سباعاً وفيلة ، وهم اجبن واضعف من ان يتصوروا مقابلة الخطر »[1].

ومع ذلك - مع ايمانه بأن قاسم امين « كان من رجال الفكر والعلم الذين نصروا كلمة الحق» لم ينحرف عن مبدأه ان الاصلاح تطوّر مستمرّ لا تغيّر عنيف مفاجيء . وقد عبّر عن هذا المبدأ في روايته «هكذا خُلقت» ، فقال بلسان بطلة الرواية واصفاً النهضة النسائية :

« فقد بدأن جهادهن في سبيل حريتهنّ بالنهوض بأعمال الخير عنايةً بالمرضى وبرّاً بالفقراء ، وعطفاً على الطفولة المشرّدة ، وما الى ذلك من اعمال انسانية تتفق مع فطرتهنّ... وكان طبيعياً بعد ذلك ان تخلع المرأة حجابها». الى قوله: « وطالب النساء بعد ذلك بألوان من الاصلاح الاجتماعي اقرهنّ الرجال عليها ورأوا فيها للمجتمع صلاحاً وخيراً . وبهذه الحكمة وهذا الاعتدال استطاعت الثورة الاجتماعية ان تحطّم الحجاب وان تفتح امام المرأة ابواباً كريمة كانت من قبل موصدة في وجهها »[2].

ومن طبيعة كاتبنا تقديس الواجب . كان ذلك دأبه في حياته المهنية والصحافية والسياسية ، كما كان في المناصب الحكومية وما ألقته عليه من تبعات عمومية . فمهما كانت المغريات لم يهن عزمه امامها ، ولم ينحرف لأجلها عن القيام بما يطلب منه على احسن وجه . وقد ساعده على ذلك ما جُبل عليه من أنفة وتمسك بالمبدأ . فلا عجب ان يقول فيه الدكتور حسين فوزي النجّار : «كان هيكل رحمه الله رجل مُثُلٍ ومبادىء وعقيدة لا تحيد ولا تتغيّر . . . فالديموقراطية هي مثله الاعلى ، والحرية ايمانه العظيم - الحرية التي لا تقبل قيداً ، ولا تقف امامها حدود»[3] . والشواهد على ذلك كثيرة ذكرنا بعضها

---

١) في اوقات الفراغ ص ١٣٧
٢) هكذا خلقت ص ٦٤
٣) كتاب هيكل ص ١٤١

آنفاً ، ومن اراد المزيد فليراجع اقوال عارفيه في كتاب سيرته الذي اشرف على اصداره احمد لطفي السيد (وقد مرّ ذكره معنا مراراً) .

أما نظرته الى الحياة فيغلب فيها التفاؤل على التشاؤم . وهو من المؤمنين بالمثل العليا التي تضعها الشرائع الإلهية لتنير للانسان سبيل الحياة الفضلى . كان طوال حياته يعتقد بقوة روحية تدير الكون وتسيّره نحو الخير الاعظم. ومثل هذا الاعتقاد يملأ الانسان بروح الرجاء والثقة ، ويدفعه الى العمل والجهاد ، ومكافحة كل ما يقف عثرة في سبيل التقدم .

وفي كل شيء كان يعتمد العقل . فالتجديد عنده سواء أكان في اللغة او في العادات او المعتقدات ، يجب ان يكون مبنياً على اساس عقلي راهن لكي يأتي بالثمار المطلوبة . وكذلك الحرية لا يجوز ان نطلقها دون ان يختطّ لها العقل سبيلاً يوصلها بسلام الى هدفها المنشود. ان كاتبنا متّزن التفكير لا يسمح للعاطفة مع شدتها عنده احياناً ان تسيطر على عقله ، او تجرّه الى حيث يبتعد عن الطريق السويّ .

شخصيته الفنية : وتظهر لنا في ثلاث مزايا رئيسية : حيويّةُ تعبيره ، دقته في الوصف ، اتزانه في التحليل .

ولو ان طالباً طلب شواهد من كتابته على المزية الاولى ، لأحلناه الى كل مقالة وكل كتاب له . فليفتح ما شاء ، وليقرأ اي قطعةٍ او فصلٍ تقع عينه عليهما ، وليتأمل ما يراه في صياغة كلامه من سهولة قوية وبلاغة لا تكلّف فيها . ويكفي ان استشهد هنا ، بالعبارة التالية لطه حسين يصف فيها اسلوب هيكل ، قال بعد ان اشار الى الركود الذي كان يسود الادب في اوائل عهد كاتبنا : « وكان هيكل كما كان بعض زملائه ، يحاولون ان يخرجوا من هذا الركود الادبي (وألاّ يقلّدوا قديماً ولا يقلدوا جديداً) وان ينشئوا في مصر أدباً مصرياً لا يخرج عن اللغة العربية الفصيحة السمحة ، ولا يتورط في

الابتذال العـــاني ، ولا في هذا التكلف القديم ، تكلّف الجناس والاستعارة وفنون البديع ... وانما كان المصريون في ذلك الطور يحاولون ان يستكشفوا انفسهم وان يعرفوا شخصياتهم » . الى قوله : « بهذه الميزة امتاز الجيل الذي نشأ فيه هيكل . وأشهد لقد كان هيكل من ابرع الجيل الذي نشأ فيه ، فما اسرع ما استكشف شخصيته ، وما اسرع مـا فرضها على الذين يقرأونه ، وما اسرع ما فرضها على العصر الذي عاش فيه »[1] .

وكل ذلك يعني ان كاتبنا كان مجدداً في نظره الى الحيـــاة واستيعابها وفي تعبيره عن ذلك بلغة تجمع بين القوة والسهولة الممتعة ، جمعـــاً يحببه إلى القراء ويلقي على لغة الانشاء مسحة من البيان الحيّ .

دقته في الوصف : سواء أكان ذلك في المحسوسات او في المعنويات، ولقد طالعت معظم ما كتبه ، فلفت نظري حسن تصويره لمـا كان يقع تحت حسّه ونفاذه الى مواطن الجمال في ما لا يراه إلا ببصيرته .

ومـا اكثر الشواهد على ذلك في كتب رحلاته وقصصه وتراجمه . وهـا انا افتح الآن كتابه «منزل الوحي» واقرأ وصفه لمدينة جدّة اول ظهورهـا له وهو في الباخرة : «اقتربنا من جدّة وبدت لناظرنا دورها وعماراتها ، وازدادت وضوحاً على رغم نزول الظلام . وكان مظهرهـــا يغري بالظن انهـا خطّطت تخطيطاً جميلاً وبنيت على الطراز الحديث . وذلك الشأن في كل ما يبدو للمقبل في البحر من مظاهر اليـــابسة ، فاذا اقتحمناه كنا كالجرّاح اذ يقتحم بمشرطه جسداً جميلاً ... واحسب الذين لم يعرفوا من ذلك ما عرفت قد خدعوا بمظهر جدّة . وكان من حقهم ان يخدعوا بهذه المبـــاني التي تمتد امامهم على الشاطىء اميالاً في نظام زاده البعد اتساقاً وجمالاً »[2]. وهكذا لم ير جدة من الداخل كما تراءت له من الخارج .

---

١) كتاب سيرة هيكل ص ٩١

٢) منزل الوحي ص ٦٥ .

وفي رحلته الحجازية يقصد الطائف ويصف الطريق اليهـــا ويصل مساء الى حيث كانت تقـــام قديماً سوق عكاظ ويقف ليقول : « وهنـا المكان الذي يقولون انه عكاظ . اما انا فلم ار شيئاً استطيع ان اتبينه . فقد هبطت كسف الظلام وانطوى الوجود في دجنّة الليل. وكنا في الثلث الاخير من ذي الحجة ، فلم ار للقمر في السماء من اثر . ولم تكن النجوم لتكشف من غطاء الليل شيئاً. وهذه الاودية الصامتة في رابعة النهار هي الساعة اشد صمتاً ومهابة » .

وتكثر اوصافه للطبيعة في روايته «زينب». وهي باكورة مؤلفاته الادبية كتبها في باريس يوم كان يتخصص في الحقوق . ولا غرابة ان تشع فيهـــا اوصاف الطبيعة فهي قصة ريفية يجد فيها القارىء تصويراً لمناظر الريف وحياة اهله . واليك هذا المشهد منها : «هوذا بطل القصة حامد يجلس امام النافذة في ليلة ممطرة وهو ساهد مثقل الصدر والمطر متتابع لا ينقطع تتسلى به آذان ذلك الساهر في احلامه . وحوله في الغرف المجاورة كل مرتاح البال ذاهب في نومه . ثم بعد ان افرغت السماء جعبتها تبين حامد من الزجاج شعاعاً ينساب في الظلمة الدامسة ... ثم تقشع السحـاب بطيئاً بطيئاً واسفر القمر مريضـــاً ناحلاً ... وعاود السكون كل شيء فلم يعد يسمع صوتاً ولا يميز حركة ، وكأن ذلك احدث وحشة في نفس حامد فانقلب الى مرقده وقضى بقية ليله بين احلام لا تنتهي » [1] . ويصف في هذه الرواية المزارع والغيطـــان ، وطلوع الصباح ، وغياب الشمس ، والترع ، وحيـاة الفلاحين وعواطفهم ، وما الى ذلك .

والذي يلاحظه الناظر في كتابته الوصفية ان اروعهـا مـــا يتناول الصور المعنوية او المشاعر النفسية . فها هو مثلاً يزور غـار حراء في الحجاز فتهتز نفسه لديهـا لذكرى النبي العربي ونزول القرآن عليه ، ويتخطى بذهنه القرون الى الماضي البعيد واذا هو مسحور بصورة ذلك اليوم الفذ في التاريخ ، اذ يتراءى له النبي بعين الخيال متمدداً في الغار . وكأنه يسمع صوت الملاك اذ يهيب بالنبي

١) زينب ص ١٣٨ .

ان يقرأ فيتردد وجلا . ويعود اليه الصوت ان اقرأ . فيجيبه مـــاذا اقرأ ؟ فيتلو عليه الصوت « اقرأ باسم ربك الذي خلق . خلق الانسان من علق . اقرأ وربك الاكرم . الذي علّم بالقلم ، علّم الانسان ما لم يعلم » . وهنا يقف هيكل متأثراً فيقول : « خيّل اليّ وانا في موقفي من الغـــار اني ارى هذا المشهد الفذ ، واني اسمع هذه الاصوات ... فصفّدني الفزع مكاني واقمت انتظر ما يكون من بعد . فاذا النور البـاهر يرتفع ، ومحمد في الغار يتصبب عرقـاً ويدور بنظراته فيما حوله ، ويهتز مضطربـــاً من رأسه الى اخمصه . ثم يفرك ويمسح بيده جبينه العريض المضيء ، سمة من يخشى مكروهاً اصابه . ويزداد به الرعب فينطلق من الغار هائماً في شعاب الجبل لعل في هوائه ما يدفع عنه روعه . ها هوذا يقف منصتاً كأنما يناديه مناد من السماء ـ انه الصوت الذي كان يحدثه في الغار – وهو يحدّق في مصدر الصوت ويرى صاحبه فيزداد فزعـاً ، ويقفه الرعب مكانه . ويلقي بنظره الى الجبل ، ويصرف وجهه يمنةً ويسرةً ، ثم لا ينفكُ يسمع ويرى . ليست حواسه اذن مصدر سمعه ورؤيته ، انما مصدرهـا روحه . وهذا الصوت الذي اتصل به هو صوت الروح الامين ... مـــا اشد هذه الساعة هولاً ! وهي مع ذلك للانسانية ساعة النور والرحمة والهدى »[1] .

وهكذا نرى كاتبنا في كل مـــا يثير عواطفه محمولاً على اجنحة الخيال الى عوالم يرى فيها ما لا يرى ، ويسمع فيها ما لا يسمع . وما اكثر هذه المواقف في كتابه « منزل الوحي » حيث تغمره الذكريات وهو يشاهد تلك الآثار المقدسة فتتأثر نفسه وينطلق بوصف هذا التأثر قلمه .

ولا ينحصر هذا النوع من الوصف في مـــا شاهده من الآثار المقدسة ، بل هو يندفع اليه في كل مـــا يثير خيـاله . هذا الموقف التـأملي يصفه لدى آثار « طيبة » والكارنك ، وغيرها من بقايا امجاد القدم . فما هيكل الكارنك مثلاً مجرد اعمدة ضخمة وتماثيل عظيمة ولكنه « مـاض عريق في القدم – عريق في

١) في منزل الوحي ص ٢٤١ .

الجلال والهيبة – عريق في الابداع والدقة – عريق في كل مـا تريد الانسانية اليوم أن تصل اليه من قوّة وعزّة وجـاه وسعادة ، وفي مـا تنفق في سبيله الجهود الكبار ، ثم هي تراه امامها سراباً قد لايتحقق على القرون » [1] .

وفي روايته « هكذا خلقت » تراه ينطق بلسان فتاة فقدت امهـا ويتزوج والدها ثانية . فيصف شعور هذه الفتاة نحو زوجة والدها ومـا كانت تسمى به الزوجة خفية لابعادها عن منزل والدهـا ويرسم للفتاة حواس نفسها اذ يقول : «لقد كنت وحيدة بين امي وابي . وكانا يفيضان عليّ من حنانها وبرّهما ما يجعل الهواء الذي اتنفسه كله الحنـان والرحمة ، وكله المحبـة والود ، وكله نسمات السحر ، ونسمات الزهر ، واغـاريد الطير والشذا المتضوّع بـأرقّ العواطف واحلاهـا . لكنني مـا لبثت حين سمعت هذا القرار من والدي (بواجب ترك المدرسة) ان شعرت بأن زوجته هي صـاحبة الوحي به ، وشعرت لذلك بهذه العاطفة الكريهة ، عاطفة الكراهية تندس الى قلبي وتجد منه مكاناً لم يكن لها من قبل . وعجبت كيف ينطوي هذا الجمال الفـاتن الذي صوّره الله في هيأة هذه المرأة، على روح خبيثة كل هذا الخبث، وكيف تستر هذه النظرات البريئة قلباً آثماً كل هذا الاثم » [2] .

والامثلة على دقة تصويره للعواطف والاحـاسيس كثيرة شائعـة في معظم كتاباته الوصفية . ومن افضل هذه الامثلة فصل موضوعـه الادب القومي . اسمعه يصف شعوره يوم عاد من اوروبا الى مصر وركب القطار الى القرية التي نشأ فيها : « فلما ركبت القطار الى قريتنا ونزلت منه في محطتهـا وامتطيت الجواد نحو نصف الساعة بينها وبين منزلنا ، وسرت على هذه الطريق وبين هذه المزارع التي شهدت طفولتي واستمتع بها صباي ، نسيت اوروبا وريفها واهلها وكل مـا فيها . وشعرت بقلبي يتفتح ، ونفسي تنتشر في ارجائهـا السعادة ،

١) في اوقات الفراغ ص ٢٧٠ .
٢) هكذا خلقت ص ٣٨ .

ووجودي يكاد يطفر من فرط الطرب . واحسست كأني عدت اختلط بكل فرع بل بكل ورقة من هذه الاشجار ، وبكل قطرة من هذا الماء المنقلب في الترعة ، وبكل ذرة من هذا الهواء — هواء قريتنا الصغيرة الجميلة »[1].

وينظر الى النيل وهو في اوج فيضانه فيقول : « وما كادت عيني تقع على النهر حتى تحرّكت في نفسي كل عواطف الاكبار والتقديس ، وحتى ذكرت من مناظر النهر التي شهدتها بالاقصر ، واسوان ، والسودان ، ما زادني بجماله وجلاله وروعته شعوراً ، وما وصل بهذا الشعور بين نفسي ونفوس اجدادنا الفراعنة الاقدمين الذين كانوا يرون في « البحر الاعظم » معبودهم الذي اتاح لهم الحياة وامتعهم بكل ما فيها من خير وبركة »[2] .

اتزانه في التحليل : والذي يقرأ اوصافه ، وبخاصة ما ينبعث عمّا يثير الخواطر والتأملات ، قد يأخذ عليه استسلامه للعاطفة استسلاماً يتيه به في عالم الاوهام . والحقيقة ان هيكلا مرهف الشعور ، بعيد الخيال ، في ما يتطلب فيضاً من الشعور والخيال . اما في ما يتعلق بنظراته الادبية او الاجتماعية ، فانما هو محلل دقيق يعتمد العقل والمنطق ولا يسمح لنفسه ان تتحكّم به العاطفة او يضلّ به الهوى .

ويتناول تحليله مواضيع ادبية عامة كاللغة ، والادب ، والحضارة ، والنثر ، والشعر ، والتأليف المسرحي ، والفن القصصي ، وما الى ذلك ، ومواضيع ادبية خاصة كدراساته لبعض الشخصيات ، او لبعض المؤلفات . فمن الشخصيات : جان جاك روسو ، والصدّيق ، والفاروق ، وأناتول فرانس ، وبيير لوتي ،

---

١) ثورة الادب ص ١١٤
٢) المصدر نفسه ص ١١٨

وقاسم امين وسواهم . ومن المؤلفات : تاريخ الادب الرافعي ، ولزيدان ، ودائرة المعارف لوجدي ، وترجمة ارسطوطاليس لأحمد لطفي السيد ، وصحف مختارة لطه حسين وكثير غير ذلك .

في كل هذه المواضيع تجده يبحث بروية واتزان – يبحث بصراحة لا تعرف المواربة ، وثقة مبنية على الفهم . والسؤال الذي يجابهنا الآن : ما هي مقاييسه كناقد ادبي ؟ ولعلنا نستطيع ان نلخصها بما يلي :

١ – انه يرى ان الادب هو رسالة الحق والجمال يتبلغها الاديب ليحملها الى الناس ، على ان يتغذّى بالعلم والفلسفة ليكون أقدر على اداء هـذه الرسالة . فهو لذلك يدعو الى الاطلاع على الآداب الاخرى لا لتقليدها ، بل لينفتح امام الاديب آفاق واسعة يطل معهـا على حياة جديدة . قال : «واني لأذكر ان مطالعاتي العربية التي تناولت من كتب الادب العربي القديم الشيء الكثير ، قد اقنعتني منذ عشرين سنة ماضية وكنت ما ازال طالباً بالحقوق ، بأن ادب اللفظ وحده لا يمكن أن يبلغ بالانسان الى اكثر من طفولة الادب في هذا العصر الذي نعيش فيه . فأكببت يومئذٍ على دراسات في الكتب الانكليزية فتحت امامي آفاقاً جديدة غير ما مهّدت له دراساتي . فلما سافرت الى فرنسا ودرست الفرنسية أكببت على آدابهـا في نواحيها المختلفة ، فاذا آفاق جديدة تتفتح ، واذا بي أطلّ على صور من الحق والجمال لم اكن اتوهمها من قبل» (١) .

٢ – إن الادب الصحيح هو الذي يجيء عن اختيار صحيح . فلا مندوحة للأديب عن معرفة الحياة بنفسه واجتلاء مـا فيها من جمال . «وكيف لانسان بالغة ما بلغت قدرته ، ان يعبّر عن جمال لم يصل اليه عن طريق حسّه هو وإنما

١) ثورة الادب ص ٣٥

وصل اليه عن طريق حسّ غيره » . خذ نهر النيل مثلاً : « ما اشك لحظة في ان الشاعر او الكاتب أو المصوّر ، يجد في هذا النهر اذا هو امتزجت به نفسه واختلط بدمه إجلاله وحبه ، وحياً لا ينضب وإلهاماً يكفيه مدى حياته ... إن في تبدّل مياهه ، وتغيّر مجراه في كل فصل من فصول السنة ، وفي ارتفاعه بالفيضان جباراً رحيماً ، يغرق ويسقي ، ويطغي ويخصب ... وفي شرايين الحياة الممتدة بمصر ترعاً وقنوات ، والمتصلة كلها به على انه القلب الكبير الذي يمدّ بالحياة كل ما حوله ، وفي ألف مظهر غير هذه من سلطانه وقوته الدائمَي التجدد والجمال – في كل هذا من الشعر ما تقصر عنه ألوف القصائد والكتب والصور »[1] .

٣ – ان القلم الصحيح هو القلم الحرّ – القلم الذي لا يمالىء ظلماً ، ولا يستخذي لبُطل ، ولا يتمرّغ في حمأة الدنيّة « هذه القوة التي تنبعث من العلم هي قوة الايمان القائم بالنفس القوية التي متى امتلأت ايماناً فقالت للجبل انتقل من مكانك فينتقل ، هي التي تصل بين الانسان وقوة الكون العليا وتسمو به فوق مستوى الحيوانية »[2].

٤ – ان الادب الصحيح هو الذي لا ينحصر في التسلية ، بل الذي تكون له فكرة يرمي اليها مستمدة من الاختبار .

ولا ينكر أن نقاد الادب غير متفقين على تحديد الغاية من الادب . ولهم في ذلك اقوال كثيرة لا يسع المقام اثباتها وبحثها . ولكن كاتبنا من الذين يرون في الادب شيئاً غير جمال الاسلوب وبراعة التصوير . فالحضارة الحقيقية عنده قائمة على تعاون العلم والادب . ولكن اي ادب ؟ « الادب الذي يقتحم

١) ثورة الادب ص ١٢٥ – ١٢٦
٢) المصدر نفسه ص ١٨

الحياة حرّاً طليقاً غير هيّاب ولا متردد – الادب الحريص على الحق الذي هو صلة الانسان بالوجود كلّه – بهذه الافلاك التي نرى ، وبهذه السماوات التي تغمرها ، وبالروح الفياض بالضياء ، والذي يحيط بذلك كله ويبعث اليه الحياة والنور . وصلة الانسان بالوجود وبهذا الروح الذي ينظم الوجود جميعاً ، هي الحقيقة العليـــا التي يجب ان تكون محجّ كل باحث وكل كاتب وان تكون رسالة كل أدب يطمح في أن تقوم على اساسه حضارة سليمة تكفل للانسانية المجد والسعادة »[1].

بهذا المقياس يقيس كاتبنا الادب . فينتقده إذا قصّر عنه ، ولكنه ينتقده بروح الانصاف وبلغةٍ تبتعد عن التعصب وتكره التصنع والتحذلق .

(1) ثورة الادب ص ٢٤١

ابرهيم عبد القادر المازني

١٨٨٩ – ١٩٤٩

نشاته :

وُلد المازني وترعرع في القاهرة . وكانت مصر عهدئذ في طور انتقـال من حياة القرن التاسع عشر الى حيـاة القرن العشرين . فمن الناحية السياسية كانت قد اخذت تتململ من وجودها في قبضة الاحتلال الاجنبي ، اذ نشأ بين شبابهـا طبقة من المستنيرين بنور العلوم الجديدة ، فتحركت نفوسهم بشعور وطني قوي وجّههم نحو الاستقلال. وقوّى هذا الشعور فيهم قيـام احزاب سياسية رفعت لواء النضال ومشت بقيادة زعماء مجاهدين امثـال مصطفى كامل مؤسس الحزب الوطني ، وسواه من قادة الحركات الوطنية .

ومن الناحية الاجتماعية كانت مصر – كسائر الاقطـار العربية – قد غزتها مدنية الغرب وشرعت تجتاح تقاليدهـا الموروثة ، بمـا أدى الى تغيّر ظاهر في كثير من عاداتها وأزيائها ، حتى اصبح سكانها في البيئة الواحدة ، مزيجـاً غريباً من القديم والجديد ، فئة محافظة تتمسك بما ورثته عن الآباء والاجداد ، وفئة ثائرة عليه مندفعة على وجهها مع تيار المدنية الطاغي على البلاد .

وكذلك الأمر في الحياة الفكرية . فالنور الجديد الذي اشرق على العالم العربي من وراء البحر ، فتح امام ابنائه آفاقاً واسعة من المعرفة ، وحرّك فيهم الرغبة في ورود مناهل العلوم العصرية ، فاندفعوا نحوها . وكان لهذا الاندفاع تأثير بيّن على اساليب تفكيرهم وتعبيرهم . فلم يكد ينطوي العقد الاول من القرن العشرين حتى كان في مصر جيل ادبي جديد يرى الحياة ويصورها بطريقة تمتاز عن طريقة من سبقه من ابناء القرن الماضي .

في إبّان هذا التطور السياسي والاجتماعي والفكري نشأ المازني فخاض غمار الحياة الادبية واصبح من اعلامها المجددين .

وُلد كاتبنا في بيت اختلطت فيه الحياة القديمة بالحياة المستجدة اختلاطاً يمثل لك هذا الوضع الذي كانت عليه مصر في ذلك العهد . وقد اصابت نعمات فؤاد اذ قالت فيه : « انه يمثل حالة الانتقال الاجتماعي التي كان يعانيها الشرق الاوسط بعامةٍ ومصر بخاصة ، ويصور الحياة المصرية في ذلك الحين ، وكيف كانت تجمع بين الاطراف المتناقضة من متقدمين متطلعين تأثروا بالمؤثرات المدنية الكبرى التي كانت تدفع حياة مصر والشرق دفعاً قوياً ، ومتخلفين يعيشون في القرون الوسطى عقلاً وذوقاً وطراز معيشة » [١] .

وتشاء الظروف ان يموت والده وهو حدث . فاستولى اخوه الاكبر (ولم يكن شقيقه) على مال الوالد وبدّده تاركاً اخاه الصغير ابرهيم ووالدته في حالة ضنك وعسر مالي . ومن شهادة كاتبنا واقوال الذين كتبوا سيرته ، يظهر ان والدته كانت حكيمة ذات حنان . فاعتنت به رغم فقرها احسن اعتناء وسهرت عليه سهر الأم الرؤوم . يقول المازني فيها واصفاً حاله بعد موت والده : « صارت امي هي الاب والأم ، ثم صارت مع الايام هي الصديق والروح الملهم » [٢] .

١) كتابها – ادب المازني ١٩٥٤ ص ٤٠ .
٢) كتابها – ادب المازني ١٩٥٤ ص ٤٦ .

ولما اتمّ دروسه الابتدائية والثانوية تابع دروسه العالية في مدرسة المعلمين فنال شهادتها سنة ١٩٠٩ وانخرط في سلك التعلم . على انه لم يكن ميالاً الى مهنة التعليم كما يظهر مما يقصّه علينا في حديثه « فاتحة عهد » (١) . حيث يقول : « ادركتني حرفة التعليم كما ادركتني حرفة الادب ، فبلائي عظيم ومصيبتي كبيرة » . وفي نفس الحديث يقول ايضاً : « وصرت معلماً وتسلمت من الوزارة الشهادة لي بذلك ، ولكنني لم افرح بها لأن ذلك كان بكرهي » . وكان بعد انهائه الدروس الثانوية قد جرّب ان يتعلم الطب فلم يرق له ، واراد تعلم الهندسة فلم يجد لديه المال اللازم لذلك . وظل يعمل في حقل التعليم حتى سنة ١٩١٩ وهي سنة الثورة المصرية ، ومنذ ذلك الحين احترف الصحافة والكتابة .

على ان ثقافته لم تنحصر في ما حصّله من معاهد العلم . فقد كان طموحاً الى ابعد واعمق من ذلك . فعكف على درس نوابغ الادب العربي في عصوره المتقدمة، ثم اقبل على الادب الانكليزي فاستوفى منه نصيباً كبيراً، وبواسطته اطلع على غيره من آداب الغرب. هذا عدا مطالعاته الفلسفية والاجتماعية مما جعله ذا ثقافة ادبية عالية .

قال زميله عباس العقاد : « كان من مطالعاته الاوروبية : دواوين بيرون ، وشلي ، وشعراء البحيرة (The Lake poets) عدا شاكسبير . وكان يقرأ مع الشعر نقد الشعر وتاريخ الادب في كتب النقّاد الممتازين والمؤرخين المأثورين ، واحبّهم اليه هازليت ، وارنولد ، وماكولي ، وسانتسبري ، وطائفة من كتاب المقالة الادبية والعجالة النقدية الاجتماعية امثال لاي هنت Leigh Hunt ، وتشارلز لامب ، وسويفت ، وادبسون ، واخوان هذا الطراز . واحب الروائيين اليه نخبة من فحول الرواية مثل والترسكوت

١) خيوط العنكبوت (ط ٤) ص ٣٩٣ .

(Scott) وديكنز Dickens ، وثاكري ، وكنجزلي (Kingsley) »[1] .

هكذا نشأ المازني وهكذا تثقف . على ان الثقافة لم تكن الشيء الوحيد الذي كوّن شخصيته الادبية . فقد وُلد (كما يظهر لنا من وصفه لأيام حداثته) وفيه نزعة الى الدعابة ، فلما كبر واصطدم بتجارب الزمن ، تحوّلت هذه الدعابة فيه الى نوع من السخرية او الاستخفاف بالحياة . وهي تظهر في كتاباته بألوان شتى ، فتارة تتخذ لون « الهزل او المفاكهة » كقوله مقابلاً بين نفسه وبطل الرواية – ابرهيم الكاتب – : « ولست احتاج الى ان اقول اني لست بابرهيم الذي تصفه الرواية ، وان هذا المخلوق ما كان قطّ ولا فتح عينيه على الحياة إلا في روايتي . ثمّ اني لست أرضى ان اكونه . فما تعجبني سيرته ولا مزاجه ولا التفاتات ذهنه . وقد ندمت على خلقه بعد ان سوّيته . فلو كان دُمية لحطّمتها وطحنتها ، ولو كان صديقاً لجفوته ونبَوت به . وذلك انه يتناول الحياة باحتفال ، وانا اتلقاها بغير احتفال » . الى قوله : « فليس بيننا كما ترى سوى ان كلينا قصير قميء . وانا ازيد عليه اني اصبت بالعرج ، فليته كان هو المصاب وانا الناجي المعافى »[2] .

ومن هذا القبيل ما قاله في كاتب نشر نقداً في شعر حافظ ابرهيم اكثره مسروق من نقد قديم للمازني . وقد سأل المازنيّ صديق له : آأنت الكاتب ؟ فقال كلا . فقال الصديق: اذنْ فهي سرقة يحسن التنبيه اليها ، وألحّ في ذلك. فأجاب قائلاً لصديقه : « اسمع ، زعموا ان لصاً تسلل الى بيت فألفاه افرغ من فؤاد ام موسى . وعزّ عليه ان ينقلب صفر اليدين او كما يقول العرب (رحمهم الله او ما شاء فليصنع بهم) خالي الوفاض بادي الانقاض . فواصل البحث وهو مغيظٌ محنق ، فما راعه إلا رجل في بعض الغرف مختبىء في ركن ووجهه الى الى الحائط . فلما ثابت اليه نفسه بعد الدهشة ، قال لعله لصٌ مثلي وضحك .

١) مجلة مجمع اللغة العربية (مصر) ج ٧ ص ٤٠٠ .
٢) مقدمة روايته «ابرهيم الكاتب» .

ودنا منه فلم يتحرّك . فوضع يده على كتفه برفق وسأله : من انت يا هذا وما تصنع هنا ؟ فاستدار الرجل وقال ووجهه الى الارض : « انا صاحب البيت ، وقد شعرت بدخولك وأدركت غرضك فتواريت منك خجلاً » .

ثم التفت المازني الى صديقه وقال : « وانا كصاحب هذا البيت العـــاري استحيي ان انبه الى سطو صاحبنا المتلصص على نقدي مخافة ان ينبه الناس الى ما ارجو ان يكونوا قد نسوا من اني انا كاتب ذلك الهراء القديم »[1] .

واحيانـاً تظهر سخريته بمظهر « التبرم بالعيش او التشاؤم » ، ومنشأ ذلك عادةً شدّة حساسية الانسان بما يطرأ عليه ويسوءه من احوال مالية او صحية او عائلية او عمومية مما يثير سخطه على الناس والحياة . وقد كان في حياة المازني الشخصية والاجتماعية كثير من هذه الاسباب. والغريب انه كان يجمع في شخصيته الحساسة بين متنـاقضين : فمن جهة تراه عصبي المزاج خجولاً نفوراً من الحفلات العامة والمجتمعات الحاشدة، ومن جهة اخرى تراه يبالغ في الاعتداد بنفسه فيثور على من يمس كرامته ويأبى ان يقف موقف المتزلفين الى ذوي القوة والجاه . على ان اعتداده لم يكن عن عجرفة مقيتة فقد كان وديع الخلق لطيف العشرة سخي اليد ، بل عن قوةٍ في نفسه جعلته يجابه الحياة باستخفاف وعدم مبالاة .

وقد مكّن هذا الامر فيه تأثره منذ نشأته بما طالعه في الادب الغربي وما قرأه من اسفار التوراة القديمة . ويقول العقاد وهو اعرف الناس به: «واحسب ان القصة الروسية من اقوى المؤثرات في نزعته التي جنح اليها بقوته كلها في مـا نسميه بفلسفة الحياة » . ويعزو هذا التأثير إلى كتابين على الاخص احدهما قصة « سانين » لمؤلفها ارتزيباشيف ، والآخر قصة « الآباء والبنون » لتورجينيف . وكلتاهمـا كما يقول « تخلق الاستخفاف على الاقل حين قراءتهـــا لمن لا عهد له بالاستخفاف »[2] .

١) حصاد الهشيم (ط٤) ص٢٨٤
٢) مجلة مجمع اللغة العربية ص ٤٠١

امـــا التوراة فمن اسفارها التي نلمس اثرها في كتابته سفر ايوب ، وسفر الجامعة ، والامثال وسواها . هذه الاسفار التي برغم ما نجده فيها من الحكمة والاختبار الروحي العميق تغشاها احياناً غيوم التشاؤم الشديد ، فتنهمر علينا بمثل قول أيوب وهو في شدة كربه : « لان الشجرة رجاء . ان قطعت تخلف ايضاً ولو قدُم في الارض اصلها ومات في التراب جذعها. فمن رائحة الماء تفرخ وتنبت فروعاً. اما الرجل فيموت ويبلى. الانسان يُسلم الروح فأين هو؟»[1].
او مثل قول «الجامعة» الاصحاح الاول : « باطل الاباطيل قال الجامعة ، باطل الاباطيل ، الكل باطل . مـــا الفائدة للانسان من كل تعبه الذي يتعبه تحت الشمس . دور يمضي ودور يجيء والارض قائمة الى الابد ... مـا كان فهو ما يكون ، والذي صُنع فهو الذي يصنع فليس تحت الشمس جديد ... انا الجامعة رأيت كل الاعمـال التي عملت تحت الشمس فـــاذا الكل باطل وقبض الريح . الاعوج لا يمكن ان يقوّم والنقص لا يمكن ان يجبر » . وقوله في الاصحاح الثاني : « وايضاً رأيت تحت الشمس موضع الحق هناك الظلم وموضع العدل هنـــاك الجور ... من يعلم روح بني البشر هل هي تصعد الى فوق . وروح البهيمة هل هي تنزل الى اسفل- الى الارض. فرأيت ان لا شيء خير من ان يفرح الانسان بأعماله لان ذلك نصيبه . لانه من يأتي به ليرى ما سيكون بعده ? ». وفي الاصحاح الثامن : « يوجد باطل يجري على الارض — ان يوجد صديقون يصيبهم مثل عمل الاشرار . ويوجد اشرار يصيبهم مثل عمل الصديقين. فقلت ان هذا ايضاً باطل . فمدحت الفرح لانه ليس للانسان خير تحت الشمس الا ان يأكل ويشرب ويفرح». وفي التاسع: «فعدت ورأيت تحت الشمس ان السعي ليس للخفيف ، ولا الحرب للاقوياء ، ولا الخبز للحكماء ، ولا الغنى للفهماء ، ولا النعمة لذوي المعرفة ، لان الوقت والعَرَض يلاقيانهم كافة . كالاسماك التي تؤخذ بشبكة مهلكة ، وكالعصافير التي تؤخذ بالشرك ، كذلك تقتنص بنو البشر في وقت شر اذ يقع عليهم بغتة » .

١) سفر ايوب الاصحاح ١٤

وممـا لا نشك فيه ان كثيرين قرأوا هذه الاقوال فلم تدفعهم الى هوة التشاؤم او الاستخفاف بالحياة وبني الحياة . فاذا كان المازني قد تأثر منها فما ذلك الا لانه نشأ وفيه نزعة الى ذلك ، فكان ما طالعه في الادب الغربي او في الكتاب المقدس اشبه بمحرك للنزعة الكامنة فيه .

على ان الذي يطالع مقالاته وقصصه ، لا يرى في المازني ذلك الساخط المتبرم الذي تتجهم له الحياة فتظلم في وجهه الدنيا حتى لا يرى فيها شيئاً جميلاً. فقد كان حساساً بالجمال ينشده مباهجه . وهو كثيراً ما يضحك ويحاول ان يضحك الآخرين بنكته وملاحظاته النقدية . والأولى ان يقال فيه انه مع عشرائه فكه ، يميل الى النكتة ، ولكنه في نظره الى الحياة وتأمله تصرفات اهلها ، تتملكه السخرية ويسوده الاستخفاف .

المازني الكاتب :

ترك المازني للأجيال العربية كثيراً من النثر والشعر . ولما كان غرضنا الرئيسي في هذا البحث ان ندرس فنه النثري ونتعرف به ككاتب من اعلام كتابنا ، فاننا سنحصر كلامنا الآن في الوجهه النثرية من ادبه . وهي تشمل المقالة والقصة والنقد .

المقالة — لم يعرف ادبنا القديم فن المقالة كما عرفها ادبنا الحديث . ومهما حاول البعض ان يثبتوا وجودها في ادب القدماء ، فمما لا شك فيه ان كتاب نهضتنا الحديثة لم يجروا فيها على طريقة اسلافهم القدماء وانما تابعوا فيها كتّاب الغرب[1] . وكان مسرحها الاول صفحات الجرائد السياسية والادبية . فهنا نمت وترعرعت وتطورت حتى اصبحت فناً قائماً بذاته . ومنذ اواخر القرن الماضي اخذت تتأصل في الادب العربي ويتسع نفوذها . وقد اشترك في تنميتها وترقيتها نخبة من الادباء في مصر وسائر الاقطار العربية من ابرزهم كاتبنا المازني .

١) راجع ما مر معنا في فصل المقالة قديماً وحديثاً .

ومعلوم كما قدّمنا آنفاً ان قوام المقالة شخصية الكاتب ، واهم مزاياها انها انعكاس وجداني فهي لا تتسع للتقصي والاستقراء كالمباحث العلمية والفلسفية . ويشترط فيها ان تتجنب طريق الوعظ والارشاد والتعليم فلا يتكلف صاحبها الجد والوقار شأن الحكماء والمربين ، بل يعالج الموضوع مهما كان نوعه ، في جوٍّ من الاختبار الكلي ، وفي اسلوب حرّ من اغلال الصناعة المتكلفة . فانما غرض الكاتب فيها ان يعرض لنا ما يجول في نفسه من خواطر مبعثها تجاربه الشخصية .

المقالة ليست درساً علمياً او معالجة عقلية لبعض النظريات والآراء تستند على الاثباتات والوثائق بل هي صورة عن الحياة كما يراها الكاتب .

ولو تحرّينا مقالات المازني لوجدنا هذه الصفات منطبقة على معظمها . ولا نقصد بمقالاته ما كان يكتبه بشكل دراسات او مباحث ، كفصوله التي تناول فيها بالبحث بعض المشاكل الاجتماعية او حلل فيها حياة بعض الادباء وآثارهم مما سنذكره بعدُ تحت باب النقد . وانما نقصد ما كان ينشره مصوراً فيه بايجاز ما يستوحيه من جو بيئته وحياته كالمقالات المعنونة بما يلي : الصحراء – صفحة سوداء من مذكراتي – النجاح – الادب ينهض في عصر الشدة – رأي في مستقبل الادب – الكتب والخلود – القوة الدافعة ومقاومة الجماهير – الجمال في نظر المرأة – الحدود الطبيعية – متاعب الطريق – مجالسة الكتب – بين البحر والصحراء – وامثالها مما تضمّه مجموعات مقالاته .

ففي جميع هذه المقالات تلوح لك شخصيته بين السطور ، فتراه امامك بصراحته الدالة على الثقة بالنفس ، وسخريته المستخفة بأعراض الحياة ، وثورته على القديم البالي من التقاليد والعادات. وهاك بعض امثلة توضح اسلوبه في هذا الباب.

حدّثنا في مقاله (الحدود الطبيعية) قال : « زارني ذات يوم شاب ازهري النشأة لا تنسجم البذلة الافرنجية مع جسمه ولا يعتدل الطربوش على رأسه . وكان يحمل تحت إبطه كرّاسة مما يستعمل التلاميذ في المدارس محشوّة بكلام

كثير من الشعر ... وما هو الا ان جلس حتى استأذن في قراءة ما كتبه في كرّاسته . ولم يكد يفعل حتى قلت لنفسي : انه لم يغيّر شيئاً حين غيّر ثيابه، ولم يزد على ان ردّد بعبارة تعتورها الركاكة ما كتبه ابن رشيق واضرابه بلغة جزلة » الخ [1] . ويتخذ من ذلك فرصة مناسبة للتحدث عن الفن وطرق التعبير عنه ، وان هنالك حدوداً طبيعية لا سبيل الى اغفالها ولا خير في تخطّيها واهمالها . كل ذلك بكلام رشيق لا يملّه القارىء .

وتهديه الادبية المعروفة « مي » كتاباً فيطالعه وتقع عينه على هذه العبارة فيه : « من الكتّاب مَن هو ملخّص جلسات ومدّون وقائع ، ومنهم « كولمب » جاء لاقتحام البحار وركوب الاخطار واكتشاف عوالم مجهولة ». فيكتب مقاله : « الكتب والخلود » ومن قوله فيه معلّقاً على العبارة الآنفة الذكر: « هذا صحيح . والزمن يؤخر الملخّصين والمدوّنين ويُخملهم ، ولا يقدّم ويضع تاج الخلود الا على مفارق من يكونون في عالم الادب ما كان كولمب في عالم الارتياد » . وهنا يقف قليلاً ليتأمل بنفسه وبانتاجه الادبي فيدركه تشاؤم «الجامعة» القديم فيقول : « وانا ايضاً اكتب واقرض الشعر . فما مصير كل هذا الذي سوّدت به الورق ، وشغلت به المطابع ، وصدعت القرّاء ؟ انه كله سيفنى ويُطوى بلا مراء . فقد قضى الحظ ان يكون عصرنا عصر تمهيد وان يشتغل ابناؤه بقطع هذه الجبال التي تسد الطريق وبتسوية الارض لمن يأتون من بعدهم . ومن الذي يذكر العمال الذين سوّوا الارض ومهدوها ورصفوها » ؟ ثم يقول : « وبعد ان تمهد الارض وينتظم الطريق يأتي نفر من بعدنا ويسيرون الى آخره، ويقيمون على جانبيه القصور شامخة باذخة فيذكرون بقصورهم ونُنسى نحن الذين شغلوا بالتمهيد عن التشييد . فلندع الخلود اذاً ولنسأل كم شبراً مهدنا من الطريق ؟ » [2] .

---

١) حصاد الهشيم (ط٤) ص ١٠٠ .
٢) حصاد الهشيم ص ١٧٨ .

ولكم اطلّ « من نافذته » ، فرأى النـاس على اختلاف احوالهم واشكالهم يمرون امـامه فتنثال اليه الافكار والخواطر ، ويقص علينا مـا اثارته في نفسه تلك المناظر : «وتحت نافذتي اليوم معرض ازياء واذواق ـ فانه الاحد والساعة العاشرة ، والنساء كثيرات على الرصيف في حلل شتى ، ومـع بعضهن حقـائب صغيرة أو سلال فيها على الارجح طعـام وشراب . ومع بعضهن ازواجهن او اخوتهن او اصدقائهن . وفيهن العجوز والصغيرة والنَّصَف . ولكنهن جميعاً في حفل من الزينة . وليس بينهن مصرية الا انـ تكون عابرة سبيل . ومن اين تجيء المصرية وهي لا تخرج الا لقضاء حـاجة او زيارة او سينما او نحو ذلك . ولا تحسن انـ تقضي ساعـات الراحة او يومهـا او ايامهـا الا في بيتهـا او في مباذلها [1] . وهنا استدرك كلامه واعترف ان من المصريات من لسن كذلـك الا انه قال : « ولكن هؤلاء نادرات والنادر لا حكم له ولا قياس عليه » .

ومعلوم ان الحـال قد تغيرت مما كانت عليه يوم اطل من نافذة داره . على ان تلك النافذة قد تركت لنا مجموعة طريفة من اقواله .

ويكثر في احاديث صاحبنا الحوار بينه وبين من يحدثنا عنهم ولعل ذلك في قصصه اظهر . وحواره كما تقول نعمات احمد فؤاد : « كسائر كتـابته تتمثل فيه البساطة التي لم يعدُ عليهـا الفن، فلا يتكلف ولا يتمحّل ولا يفتعل الكلام افتعالاً » [2] .

وسواء ارسل المقالة او قص القصة او دخل في بحث وتحليل فـانه يـأخذك بدقة الوصف وتحليل العواطف . اسمعه يقول وقـــد جلس على شاطيء البحر فجاشت في نفسـه ذكريات مـاضيه : « وغـابت الشمس وانتشرت على الارض غيـابات الطـّفل فعدت الى مقعدي انظر الى الموج المشرئب . وجـاش صدري مثله ، وجعلت طيوف الماضي تبرز من ظلامه وتخطر امامي ، ثم تغيب ويلفّها

١) من النافذة (١٩٤٩) ص ٦٠ .
٢) ادب المازني ص ٢٠٩ .

ما هو اظلم . ولكن طيفاً واحداً ظل ماثلاً لعيني حيثما ادرتها ، ومالئاً شعاب نفسي بالاحساس به ، ومناجياً لي من زفيف الرياح وتهزّم الامواج. وفيه وفيّ تمثل الحب المفقود والامل الضائع. وخامرني هذا الخاطر ، وألح عليّ حتى خلتني جثة غريق ردّهـا الموج الطـاغي الى رمال الشاطىء . ولجّ بي هذا الوهم حتى ملت عن الصخرة الى الرمال ورقدت عليها . واومأت الى الامواج ان اركدي فقد ذهب كل شيء – انتسخ الامل وغاض مَعين الحب وجفّت الحياة» [1] .

حتى في هزله يطالعك بما يدل على جودة رسمه وتحليله . فها هو مثلاً يتحدث عن الغريزة الفنية في الانسان فيقول : « وانك لتجد الرجل الامي الكثيف العقل ، السميك الوجه ، يضفر شعر حمـاره ويفرقه ويرسله على صفحتيْ عنقه ، ويفضض له لجامه ويذهّب سرجه ويركبه مترفقـاً ، ويمشي به مختالاً ، وينزل عنه ويسايره ، ويمسح له وجهـه ، وقد تفيض نفسه سروراً بمنظره فيقبّله . ولو انه كان لا يتخذه الا مركباً يريحه من عناء السير وجهده ، لما كلّف نفسه ان يحليه ، ولما عُني بتجميل ادواته من سرج ولجـام وغير ذلك ... فهي عـاطفة فنيّة ملكت عليه قلبه واستولت على لبّه ، وكان مظهرهـا العناية بتجميل أثاثه . ولكن الحمير – والحمد لله – ليست كل ما يمكن ان يكون مظهراً لهذه العاطفة الفنية . وما يستطاع في عـالم الحمير واشباهها من ابناء ابينا الشيخ آدم – رحمة الله عليـه وغفرانـــه – يستطــاع مثله في عوالم الكتـابة والشعر والموسيقى والتصوير » .

وهكذا ينتقل بنا من التشبيه الهزلي الى النظر الجدي فيقرر ان الكتابة ليست ألفاظاً غايتها مجرد التعبير عن الخواطر ، بل هي ايضاً شيء وراء ذلك – هي التجويد وابراز المعاني في احسن حلاها واشدها تأثيراً في النفس . ولا يقوم عنده على كد النفس بالتصنع والتكلف لانواع البديع بحيث يجيء الكلام مثقلاً بالحلى والزخـــارف ، بل على ان يفرغ في قوالب تشعرك بالقوة والجلال ،

1) قبض الريح ص ١٧ .

وتريك المعاني متلألئة وراء الالفاظ بانوار الجمال . «والاحسان في كل ذلك والمقدرة عليه ملكة لا تحصّل بالمعاناة ، ولا تتهيأ بالدرس والتحصيل وان كان هذا مما يقويها وينميها » .

والحق يقال ان هذا التجويد الانشائي هو مزية كتابته على العموم ، الا انه لا يسلم أحياناً من بعض ما يُعاب على الكتاب كالاستطراد والمغالاة وحشو الكلام بعبارات معترضة يأتي بها اما للايضاح او في معرض النكتة . ويصدق ذلك على قصصه كما يصدق على مقالاته .

قصص المازني :

وهي كمقالاته معظمها مستوحى من اختباره الشخصي او من وقائع الحياة التي عرفها . واذا شئت فقل انها مرآة للمجتمع المصري كما تراءى له بحسناته وسيئاته ، بتطوره وجموده . ولا نبعد عن الصواب إذا قلنا انها سيرته يكتبها فصولاً شتى ، فتراه يحدثنا عن طفولته وحداثته وحياته المدرسية والعائلية وعلاقاته الاجتماعية والعاطفية ، كما يحدثنا عن عادات قومه ومختلف احوالهم واساليب تفكيرهم – كل ذلك بأسلوبه الخاص المشرق بلطف ديباجته ، الممتع بسخريته وفكاهته .

وقد طرق بابَيْ الرواية والأقصوصة ، فترك لنا من رواياته (اي قصصه الطويلة) : «ابرهيم الكاتب» ، «ابرهيم الثاني» ، «ثلاثة رجال وامرأة» ، « عود على بدء » ، « ميدو وشركاه » .

ومن القصيرة او الاقصوصة المجموعات التالية :

«عَ الماشي» وتضم ١٤ قصة .

«خيوط العنكبوت» وتضم حوالي ٤٥ قصة .

«في الطريق» وتضم ٣٤ قصة .
«صندوق الدنيا» ، وبعض أقاصيص اخرى .

وإذا قابلت أقاصيصه بمــا للمشاهير العالميين في هذا الباب تجدها بسيطة من الناحية الفنية ، فهو قلما يعنى بأن يبنيها على حبكة مرتبطة الحوادث تدور على عقدة واحدة يشوّق نفس القارىء الى حلهـــا . ولكنها بالاكثر حكايات او أحاديث عن نفسه او عن بعض من عرفهم وخالطهم ، يختلط فيها الواقع بالخيال . وعلى كل حال فهي ليست مجرد خبر يسرد ولكنها مشاهد يعرض فيها اصناف الناس في تيار الزمن وزحمة الحياة .

وللمرأة في هذه الحكايات المنزلة الكبرى ــ المرأة كفتاة او زوجـة او صديقة او حبيبة ــ المرأة المتطورة والمرأة المحافظة . وللتمثيل احيل القارىء الى القصص التالية :

« تنهيدة » راجع مجموعته في الطريق ص ٧٣
« الجارة » » » » » ص ٧٥
« القديم والجديد » خيوط العنكبوت ص ١٩٨
« سياسة الزوجة » » » ص ٢١٥
« زوجها الواحد » » » ص ٢٨٣

وليست هذه الحكايات افضل ما عنده ، فقد نجد في انتاجه القصصي الضخم ما نفضّله عليها . ولكنها نماذج توضح لك نَفَسه القصصي . والواقع اننـــا لا ننصفه اذا وقفنـــا عند هذا الحدّ من درس اقاصيصه بل يجب مطالعتها جميعاً ليكون لنا فكرة يمكن اعتمادها في الحكم عليه . ولعلنا نستطيع ايضاح اسلوبه في سرد القصة من حديث له ضمن قصته «فاتحة عهد»[1] . ففي اثناء هذا الحديث يقصّ لنا بعض مـا جرى له في اوائل عهده بالتعليم وكان لا يزال (لا لحية له ولا شارب) فيقول : « اتفق مرة اني تأخرت عن ميعـاد دخول التلامذة الى

١) خيوط العنكبوت ، ص ٣٩٣

المدرسة (وكانت العادة ان تقفل أبوابها بعد الساعة الثامنة صباحاً حتى تضبط اسماء المتأخرين منهم) فلما بلغت اول باب قلت للبواب افتح يا عم محمد . وكان البواب نوبياً ، فنظر اليّ وقال : من الباب الثاني .

قلت : هل من سبب ؟ قال : أيوه . قلت : ماذا ؟ قال : الاوامر !

قلت : ألا تتفضل بشيء من الايضـــاح ؟ قال وهو ينظر اليّ ممتعضاً : تأخرت !. ففهمت وقلت : تريد ان تقول ان التلاميذ الذين يتأخرون يكون دخولهم من الباب الثاني ؟

قال : أيوه . قلت : ولكني لست تلميذاً . فلم يُخفِ ضجره وهو يقول : روه . روه (أي رُح) . فرحتُ وبلغت البـاب الثـــاني فألفيت البـواب جالساً وبين يديه كتاب عرفت بعد ذلك انه «دلائل الخيرات» وكان يهزّ رأسه هزاً عنيفاً وهو يقرأ .

فقلت بلهجة الجدّ : افتح ! فلم يقطع التلاوة واكتفى بأن يشير بسبّابته اشارة الرفض (وبعد اخذ ورد بينهما غضب البواب) وقال : اسمك ايه ؟

فقلت : يا فرج الله! وذكرت اسمي وفي ظني انه لا يكاد يسمعه حتى يسرع الى الباب فيفتحه على مصراعيه وينثني على يدي يقبلها ويعتذر ويسألني الصفح . ولكنه لم يفتح ، ولم يتناول راحتي ، ولم يطلب عفوي . وانما قال وهو يخرج من جيبه قلمـاً ويبل منه بلسانه : اسمك ايه ؟ قلت ايه ! قـال : اسمك ايه ؟ قلت لعله لم يسمع وأعدته عليه . فكتبه على ورقـة وقـال متوعداً : استنّى . ومضى عني الى حيث لا اعلم .

وفي هذه اللحظة لمحت الاستاذ الهراوي وكان موظفـاً معنـا في المدرسة فصحت : يا هراوي افندي ! يا هراوي افندي !. فالتفت على صوتي . فصحت مرة اخرى : ادركني يا اخي هذا البواب الاحمق لا يريد ان يفتح لي الباب ! واخبرته الخبر . فانطلق يضحك ويقهقه . فقلت : هلا فتحت لي اولاً ! فجـاء بالبواب – وكان (اي البواب) قد ذهب يشكوني الى الضابط (ناظر التلامذة).

فلما دخلت قلت للضابط الاول : يا صاحبي ان لي عندك رجاء" ان تجمع الخدم والبوابين جميعاً وتعرفني بهم وتعرفهم بي فنتصافح ولا يحدث بعد ذلك مثل هذا الخطأ . فلست اضمن ان اجد الاستاذ المراوي كل يوم بحيث يسمعني اذا دعوته الى النجدة » .

والقصة تمتد الى اكثر بما اقتبسناه وهي كما ترى هزلية يقصد بها تسليتنا ببعض اختباراته المضحكة . وكنت اود ان اثبت للتمثيل غيرها ولكني اكتفي بالاشارة الى قصة اخرى موضوعها : « ليلة ولا كالليالي »[1] . فهي من افضل ما يسليك ويضحكك اذا قرأتها . وما اكثر امثالها في ما يرويه لنا عن نفسه وما جرى له او شاهده في حياته .

ومما يجب ان نقرره ان اقاصيصه ليست كلها هزلاً — لا هدف لها الا التسلية . فكما انه يهزل ويسخر في بعضها ، يجدّ ويقف معتبراً في البعض الآخر . وفي جميعها تنعكس لنا شخصيته وشخصية مجتمعه . وفي جميعها ايضاً يحافظ على سلاسة المتحدث اللبق ، وبيان الكاتب المطبوع ، وتصوير الرسام المتبصر .

وما يصدق على اقاصيصه يصدق على قصصه الطويلة او رواياته . فهي ايضاً رغم امتزاج الخيال فيها بالواقع ، تعكس لنا سيرته واحوال مجتمعه . ويجوز لنا ان نقول ان رواياته هي حكايات طويلة عن نفسه وعن بعض عشرائه من سيدات ورجال . ولعل ابرز مزاياها انها تصف الناس ونزعاتهم في اطار حياتهم العادية .

ففي روايته «ابرهيم الكاتب» مثلاً تبرز لنا شخصيات شوشو ، وليلى ، وماري ، وشعوره نحوهن. ولكلٍّ منهن عقدة خاصة قد يحلّها لنا او يتركها دون حلّ . يقول المازني في مقدمتها : « في هذه الرواية صفحات قليلة من حياتي ، واناس حقيقيون لقيتهم واتصلت بهم وكان لي معهم شأن ، وان كان

١) خيوط العنكبوت ص ٣٨٤

لا يمكن ان يقال ان القصة ، كما هي مروية ، واقعة حقيقية » .

وكذلك روايته الاخرى «ابرهيم الثاني» . فهي عرضٌ لبضعٍ من السيدات والفتيات، وكأنما هو يحاول فيها ان يبين ان القلب البشري يستطيع ان يخلص الحبّ لأكثر من واحدة ، ومع ذلك يبقى وفيـاً لمن احتلته اولاً كزوجة كريمة – نراه ينجذب الى ميمي وعايدة ولكنه يظل محافظاً على وفائه لزوجته كما تقتضيه مطالب المروءة والواجب .

وفي رواياته نلاحظ ميله الى تحليل عواطف المرأة ووصف حالها وبيئتها . على انه لا يهمل ان يرسم لنـا شخصيات الرجال واحوالهم . ويذهب نقاده المطلعون على حياته ان الكثيرين من اشخاص قصصه وهميون لا واقعيون، ومع ذلك فهم يمثلون مجتمعه ادق تمثيل . وعلى كل حالٍ فـان البطل الاول في كل احاديثه وقصصه انما هو نفسه – هو في مختلف اطواره ونزعاته – هو في دعابته وسخريته ونظراته النافذة وتحليله الدقيق . وفيها كما في كل كتاباته ، يرسم لك كثيراً من الصور الاخاذة التي تشع عن ألوان من المعاني ترتاح اليهـا النفس ، كقوله مثلاً يصف خادماً قديماً في منزل : « والخادم شيء عتيق جداً كالجبال ، ووجهه من كثرة الغضون كالمدينة تراها في الليل من فوق مئذنة عالية » [1] .

ومثل ذلك يصور هلعـه مرّةً وقد سار في الليـل منفرداً فالتقى بمجنون مخيف ، قال : « فليتصور القارىء رجلاً عريضاً كالحائط ، ضخماً كالفيل ، قد لف وجهه في لحيةٍ كثفة طويلة لم يشذّبها مِقص منذ سنوات. وقد انفرج جيب القميص الازرق الذي يلبسه على لحمه عن صدرٍ عليه غـابة من الشعر . وساقاه كالعمودين ولا يغطيها القميص الذي يقصر عنها . وقـد اعترضك في طريق موحش وليس الى جانبك او على مقربة منك احد . الحقّ اقول اني خفت ان يأكلني » . الى قـوله : « فاستولى عليّ الرعب ودارت عيني في كل ناحيـة . وانطلقت اجري في زقاق ضيق يفضي الى ارضٍ غاصة بالمقابر.... وذهبت اعدو

١) خيوط العنكبوت ص ٢٠١

في الظلام الحالك واصطدم بحجارة القبور وأتعثر بينها حتى سكنت نفسي قليلاً، وارتد اليّ بعض ما طار من عقلي » [1] . الخ الخ ...

نقد المازني :

لا ينكر أن للمازني فطنة ادبية ممتازة . ومن كان كذلك فانه عادة يُحسن النقد والتحليل . والذي يراجع نقده يجده على نوعين : نوع «اجتماعي» يوجهه الى بيئته وما يراه فيها من تقاليد بالية وعادات سخيفة، وتهافت على قشور الحياة دون لبابها . ولا بدع فقد نشأ في عهد كان المجتمع المصري فيه يتنازعه تياران قويان: تيار التقاليد القديمة ، وتيار الحضارة الجديدة . وقد نشأ عن تلاطم هذين التيارين تلك الحملات الاصلاحية التي عرف بها ادبنا في النصف الاول من هذا القرن [2] .

اما النوع الثاني من نقده فهو الادبي ، ويظهر في كتابته بمظهرين ، اولهما دراساته لبعض رجال الادب القديم . والثاني نقده لبعض الادباء المعاصرين .

اما دراساته للقدماء فهي في الغالب مسبوكة بروح نزيهة متعالية عن التعصب والهوى . فاذا نظرت مثلاً في ما كتبه عن بشار ، وابن الرومي ، والمتنبي ، وعمر الخيام وسواهم رأيته يرسم لك كلاً منهم في صورة تحليلية تلذ العقل ، ويقدم لك آراءه مشفوعة بالامثلة والشواهد المقنعة . ولا يخلو كلامه من غلوّ احياناً ولكنه على العموم كلام مبني على درس وافٍ ونظر صحيح [3] .

ولم يجر على هذه الخطة في نقده للمعاصرين . فان اكثر نقده لهم من باب التهجم والهجاء لا من باب الدرس والتحليل النزيه . اسمع قوله مثلاً في الشاعر عبد الرحمن شكري تحت موضوع « صنم الالاعيب » يقابله بموج البحر :

١) الخيوط ص ١١٨
٢) من اراد التوسع في ذلك فليراجع كتابنا الاتجاهات الادبية في العالم العربي الحديث .
٣) راجع هذه الدراسات في كتابه حصاد الهشيم .

« شكري صنمٌ ولا كالاصنام . ألقت به يد القدر العابثة في ركن خرب على ساحل اليمّ » . إلى قوله : « هنالك اذاً على ساحل البحر شاءت الفكاهة الالهية ان ترمي بهذا الصنم . وكأنها ارادت ان تبعث على تدبر القدرتين – هنا ثَبَجٌ مزبد وابدٌ لا يحدّ وموج لا يكاد يقبل حتى يرتدّ ، وحياة متجددة . واواذيُّ متولدة – وههنا نفس خامدة ، وقوة راكدة ، وجبلة باردة جامدة » [1] .

وعلى هذا النسق يرسل نقده في نحو ١٢ صفحة لا يحصل القارىء منها الا على رغبة في الحطّ من شأن هذا الشاعر .

وأشدّ من ذلك ، تهجمه على أحاديث الاربعاء لطه حسين : فيخصص لنقده هذه الاحاديث نحو اربعين صفحة من كتابه «قبض الريح» . لا يرى القارىء فيها الا تهكماً او تهجماً لا طائل تحته . ولقد اصاب اذ قال ان الذي املى عليه هذه الصفحات هو عفريت النقد . وهو على حد قوله « شيطان من اخبث الشياطين » . وماذا يقول هذا الشيطان الخبيث في طه حسين واسلوبه الادبي ؟ الأولى ان نحيل القارىء الى هذه الصفحات الاربعين ليرى كيف هبط المازني من طلاوة اسلوبه التحليلي في دراسة الاقدمين ، الى تطاول عفريته الساخر في وصفه اديباً من اكبر ادباء هذا العصر . ونشير عليه بنوع خاص ان يقرأ قوله في « طه ومجنون ليلى » ليرى كيف يتحول النقد الى . فسطة فارغة .

وبعد فنحن لسنا الآن في صدد الدفاع عن احاديث الاربعاء وعن صاحبها . ولكننا نقف من نقد المازني موقف الجرجاني من خصوم المتنبي الذين كانوا يتهجمون عليه ولا يرون الا سيئاته . اذ خاطبهم قائلًا : « وإنا نقول لهذا الخصم خبرني عمن تعظمه من اوائل الشعراء ومن تفتتح به طبقات المحدثين – هل خلص لك شعر احدهم من شائبة ؟ فان قلت ليس كل معانيهم مرضية ولا جميع

١) الديوان (ط ٢) ص ٤٨

مقاصدهم مستقيمة ، قلنا فأبو الطيب واحد من الجملة . فكيف خص بالظلم من بينهم ؟ فان قلت كثر زللـُه وقل احسانه ، قلنا هذا ديوانه ، هلم نتصفحه ، ثم لك بكل سيئة عشر حسنات »[1] .

وما يقال في نقده لطه حسين يقال كذلك في نقده لحافظ والمنفلوطي . وقد اشتدت حملته بل تحامله على حافظ ، وشعر هو بعدئذ بهذا التحامل فندم على ما فرط منه وقال ١٩٥٤ في مقال له معتذراً : « نقدنا شعر حافظ سنة ١٩١٣ ، ثم جمعنا متفرقه وطبعناه سنة ١٩١٤ – ١٩١٥ ولم يكن بيننا وبين حافظ اية صلة . وقد اثبتنا هذا المقال هنا لدلالته على حال الادب يومئذ . اما النقد فقد اسقطناه من جملة ما كتبنا غير آسفين على اسقاطه فقد كان مما اغرت به حماقة الشباب »[2] .

اجل ان حماقة الشباب قد دفعته الى التسرع بنقد خجل منه بعد ان اكتهل واصبح ينظر الى الامور بعين الروية . وقد اصابت نعمات فؤاد بقولها واصفة نقد المازني : « وهو في نقده كشأنه في سائر كتاباته يتدفق ، وقد يندفع او يتحامل ولكن الفكرة التي يبني عليها والاسباب التي يسوقها سليمة . فهو مع ادراكه للمعايير الادبية كان تأثرياً في نقده . فاذا تحدث عن ابن الرومي جاوز الحدّ في التقدير . واذا نقد حافظاً جرده من الحسنات . واذا اراد المجاملة سكت بالاستطراد الى موضوع آخر . ومن ثمّ فالمازني ادنى الى الفنان في نقده لا لممارسته الادب فحسب ، ولكن لأن مزاجه الفني كان يدفعه الى الاقبال آناً ، والنفور حيناً ، والى المبالغة في الأحكام »[3] .

ويعزو محمد مندور هذا العنف في الخصومة عند المازني الى ما يسميه «مرض

---

١) الوساطة ص ٤٩
٢) حصاد الهشيم (ط ٤) ص ١٥٥
٣) ادب المازني ص ١٧٧

العصر» . وهو حالة تنتاب الشاب من تصادم آمالهم بالواقع، فيتولد فيهم السخط والتمرد والشكوى والانين . على ان المازني على حد قول مندور «قد اثبت ان هناك وسيلة اخرى لتخليص النفس من هذا العذاب المستحكم . وهذه الوسيلة هي الفلسفة الساخرة المستخفة» [1] .

هذه الفلسفة هي الصبغة العامة التي اصطبغت بها آراؤه في الحياة ، وكثيراً ما تتحول عنده الى احاديث فكاهية ممتعة .

١) محاضرات مندور ص ٣٤

عمر فاخوري

١٨٩٥ – ١٩٤٦

نشاته وحياته العامة :

كان القرن التاسع عشر يوشك ان يلملم بقية انواره ويتهيأ للمغيب يوم ولد في بيروت طفل اسمه عمر . في هذا القرن قضى سني طفولته الخمس . ثم فارقه الى القرن العشرين ليقضي ستاً واربعين سنة اخرى شهد خلالها من الاحداث ما كان له اثر عميق في مجرى حياته .

نشأ كاتبنا من عائلة كريمة متوسطة الحال . ولما بلغ سن التحصيل المدرسي أدخل «كتّاب» مسجد في بيروت . وانتقل بعد انتهائه من دراسته «الكتّابيّة» الى مدرسة كانت تعرف اولاً بالكلية العثمانية ثم بالكلية الاسلامية حيث أتمّ دروسه الثانوية وهو في نحو الثامنة عشرة من عمره . وفي هذه المدرسة تفتحت مواهبه الادبية كما تفتحت عاطفته القومية العربية .

وجاءت الحرب العالمية الاولى (١٩١٤ – ١٩١٨) فاذا نحن نراه يتنقل خلالها بين معاهد شتى لم يقض في احدها الا قليلا من الوقت ، بعضها اجنبي وبعضها عثماني ، حتى اذا انقضت الحرب كان قد اتقن من اللغات الاجنبية اللغة

الفرنسية واصبح ذا إلمام بالانكليزية والتركية .

قلنا ان عاطفته القومية تفتحت منذ عهده بالكلية الاسلامية ، وفي الحرب زاد تفتحها . فلما قامت الدولة العربية في الشام بزعامة فيصل بن الحسين هلل لها مع سائر الشباب القومي وقصد الشام للمساهمة فيها حاسباً ان الحلم الذهبي الذي كانوا يحلمون به من بعث المجد القديم قد تحقق او كاد . وما كان اشدّ خيبته ومرارة نفسه اذ انهار عرش فيصل واصبحت البلاد الشامية تحت حكم الانتداب.

كان ذلك عام ١٩٢٠ وبه ينتهي الطور الاول من حياته ويبدأ طور جديد .

هوذا عمر الآن يستعد للسفر الى باريس ليدرس الحقوق في السوربون ، وها هو في عاصمة فرنسا منتسباً الى معهد الحقوق . ولكن صاحبنا كان اديباً لا حقوقياً ، فقضى هناك اكثر من اربع سنوات لم يصل فيها الى اجازة في الحقوق ولكنه استفاد من الجو الادبي . والحقيقة انه قضى معظم تلك السنوات في عيشة بوهيمية مستسلماً لشهوات جسده ، عائشاً كما يعيش كثير من الادباء في مدينة اللهو والجمال . وفوق ذلك لم يتأخر عن الانخراط في بعض الجمعيات السياسية العربية هناك .

وهكذا عاد الى بيروت صفر اليدين . ثم قصد الشام منصرفاً الى الكتابة الصحافية . وبقي على هذه الحال حتى سنة ١٩٢٦ . ورأى ان يعود الى باريس ويجرب حظه ثانية في الحقوق . فقصدها وتمكن هذه المرة من الحصول على الاجازة بعد ان نجح في فحص السنة النهائية .

ولما تمّ له ذلك عاد الى بيروت ليزاول المحاماة فيها . فزاولها ثلاث سنوات مثبتاً في عمله قول المتنبي :

واسرع مفعولٍ فعلت تغيّراً تكلّف شيءٍ في طباعك ضدّه

ذلك ان عمر كان يتكلف المحاماة تكلفاً فلم يلبث ان تركها ليعيش على

هوى نفسه حياة الادب والكتابة . ولكن حياة الادب تحتاج الى شيء يسندها فلما عرضت عليه امانة السجلّ العقاري في بيروت قبلها وظل فيها الى نهاية عمره.

ولو ألقينا نظرة عامة على اطوار حياته لوجدناها سلسلة من معاكسات الزمان ولدت فيه تشاؤماً كثيراً ما يظهر في ادبه . فقد احب في عهده الفرنسي غانية في باريس ورغب في ان يتخذها زوجة ، ولكن رغبته لم تتحقق لانها تركته وفضلت عليه احد معارفه الاغنياء . وقد ترك ذلك اثراً أليماً في نفسه بقي مدة طويلة .

ولما استقر في بيروت تزوج فتاة كريمة من انسبائه وصار يرجو أن يؤسس معها حياة عائلية هنيئة . ولكن الموت اختطفها منه اثر ولادة طفلها الاول واختطف الطفل ايضاً . ولا تسل عن هذه الصدمة العنيفة التي تركته مدة طويلة من الزمن في شقاء ملازم حتى انتهت به الى ان يغرق نفسه في حياة اللهو وادمان الخمرة ، مجدداً عهد البوهيمية الباريسي. وبقي كذلك نحو ست سنوات تعرف خلالها براقصة بلغارية لم يلبث ان تزوجها . ولكن زواجه لها لم يكن موفقاً او هنيئاً . ومع كل ذلك بقيا معاً بين خلاف ووفاق حتى قضى اجله .

ومن أسباب خيبته انه لما نال لبنان استقلاله سنة ١٩٤٣ حاول دخول المجلس النيابي فلم يوفّق . والواقع ان الحظ لم يرافقه إلا في انضمامه اثناء الحرب الى عصبة مكافحة النازية ومناصرته للحركة الشيوعية ، فقد رأى انهيار النازية والفاشيستية وانتصار السوفيات وحركة العمال العالمية ، وكان يأمل ان يعيّن سفيراً لبلاده في موسكو ولكن امله في السفارة ذهب ادراج الرياح تاركاً في نفسه غصة ومرارة .

ومع كل ما اصابه من خيبة آمال ، وما اساء به الى نفسه من اسراف في مطالب الجسد ، فقد كان ذا شخصية محبّبة جداً الى عشرائه واصدقائه ، لأنه كان خفيف الظلّ بارع النكتة ، ذا وفاء واخلاص للجميع .

ومن ابرز صفاته تلك النزعة الانسانية التي كانت تنزّهه عن كل نعرة وعصبية

ضيقة . ولعلها هي التي توهم انه يجدها في المبادىء الشيوعية فمال اليها واصبح من دعاتها كما سيجيء .

وبرغم كل ما أنفقه من وقته في سبيل الملاهي الجسدية كان كثير المطالعة . يقول: «وقد أوتيت بسطة من العيش وكثيراً من الفراغ يسّرا لي الانصراف الى كتبي ودفاتري ، اقرأ وأقيّد ما يعنّ لبالي ، وقلّما اغفل شاردة او واردة لاعتقادي أنها تفيد يوماً من الايام»[1] .

وسنرى بما يلي كيف تنعكس لنا شخصيته في كتابته .

خصائصه الكتابية :

ترك لنا الفاخوري بضعة مؤلفات ، وهي :

الباب المرصود ١٩٣٨ – وقد رصده على النظر في الشعر والشعراء وله فيه آراء ونقود قيّمة .

الفصول الاربعة ١٩٤١ – دراسات في اصول الانشاء وأساليب الادب والشعر.

لا هوادة ١٩٤٢ – مجموعة مقالات معظمها سياسية ناشئة عن الحرب العالمية الثانية .

اديب في السوق ١٩٤٤ – وهو فصول شتى يرينا فيها الاديب بين البرج العاجي والمجتمع ويصوّر لنا الاديب بينهما تصويراً دقيقاً .

الحقيقة اللبنانية ١٩٤٤ – ابحاث في لبنان بعد الحرب وكيف يجب أن يلتقي جميع اللبنانيين على صعيد الوطنية .

الاتحاد السوفياتي (حجر الزاوية)

---

١) الباب المرصود ص ١٤٣

وقد نقل لنا عن الادب الفرنسي ثلاثة كتب هي :

آراء غربية في مسائل شرقية

مهاتما غاندي

آراء اناتول فرانس – حكم ونظرات شتى للأديب الفرنسي المشهور.

واكثر هذه المؤلفات فصول او مقالات تتناول بعض نواحي الادب او بعض المسائل السياسية والاجتماعية. والذي يطالعها يشعر بشخصية الكاتب بارزة في كل فصل منها بل في كل عبارة . فكأنه يصبّ نفسه فتسيل من شق قلمه على القرطاس ، لا يتعمّل الكلام ولا يتكلّف التصوير بل يحدثنا بلغة طبيعية رشيقة ، لها طابعها الخاص. وقد اصاب رضوان الشهال اذ قال: « كانت الكلمة عند عمر فاخوري كائناً حياً ابدعته عبقرية الشعب الخلاقة . وكانت على الرغم مما يصيبها من موت في مقابر القواميس ، ومن مرض وهزال وغيبوبة على مُرُر ادباء الحبر والورق ، كانت على اتم استعداد لتبعث حية وتنهض ملء بردتيها النضارة والعافية » [1].

وسنحاول فيما يلي ان نتبيّن أهمّ الخصائص التي يمتاز بها هذا الطابع الخاص وهي :

١ – **واقعيته** : – لم يكن كاتبنا من الذين يهيمون في مسارح الرومانتيكية مع انه نشأ في عصر كان لا يزال للرومانتيكية مقام عال في نثرنا الادبي . اقول يهيمون واقصد انه لم يطلق لنفسه العنان في متابعة الذين يعيشون في ابراج عاجية بعيدين عن الحياة مسترسلين في الفرار من الواقع الى جنات يشيدونها من احلامهم . وانما كسب من الرومانتيكية انطلاقها الشخصي والتحرر من قيود التصنع بما جرى عليه الاقدمون. فاستعمل هذا الانطلاق وسهولة التعبير فيها لا لتمجيد الالم والهرب الى الطبيعة من جبال وانهار وغابات ورياض ، بل

١) مجلة الثقافة الوطنية (ايار ١٩٥٥) ص ١٠

ليخدم بها الشعب الذي يعيش في وسطه يتألم مع المتألمين والمحرومين ، ولبدك ما بناه الاستبداد ونظام الطبقات من حواجز تفصل بين النـــاس بحيث ينعم فريق ويشقى فريق . كان ادبه مستمداً من السوق ولكن ليس سوقياً بل هو ادب حي يعكس بأسلوبه جمال اللغة وبمعانيه معنى الحيـــاة . والذي يستهوي القارىء في واقعيته ويرّغبه في متابعة الحديث معه ، صفاء في الذهن ، وخفّة في الروح ، واسلوب خـــاص في التعبير عن الفكـر . فهو لا يستعير العواطف والخواطر بل يكتب بقلم مغموس بالاختبـار الشخصي . ولشغفه بالادب المنبثق من صميم الحياة الواقعية ، حياة الشعب وما تعج به من اشواق وامـاني ، حمل على الادباء الذين يخشون النزول الى معترك الحياة العام لئلا يضطروا ان يسايروا التطور الاجتماعي ويخسروا شيئاً من اللهو والراحة التي يجدونهـــا في انعزالهم فيقول لهم : «ان المجتمع حياة زاخرة لا تعد حيـاة اي فرد مهما يكن عظيماً، بازائهـا شيئـاً مذكـوراً . فكيف اذا كان هذا الفرد ولاهمّ له الا ان يعيش متقلصاً منكمشاً في نفسه ؟ وللجماهير التي تتعذب وتكـدح مطامـح وآمال ، ولها امثلة عليا تتوق اليها وتتطلّع نحوها وتُيمم شطرها . قد يكون كل ذلك غامضـاً في سرائرهـا ، موزعاً في ضمائرهـــا ، يتلجلج في الافئدة او تتمتم به الالسن فهو ينتظر من يبين عنه ويبرزه في صورته المثلى » [1] .

ولصاحبنـا كثير من مثل هذه الاقوال التي تشف عن شعور عميق في نفسه تثيره حالة الكادحين من الشعب ، ووقائع الحيـاة العامة فيدعو الى ادب يعبّر عنها ، ويهيب بأصحاب الخيال من الادباء السابحين في بحار احلامهم او المعتصمين ببروج اوهامهم ان يعيشوا بين الناس ليروا مـا يجري في الحياة بعد ان زلزلت الارض زلزالها من جراء حربين قلبتا الاوضاع القديمة ووطـّدتا حقوق الانسان. وهدمتا صروح الاقطاعية والاستعباد .

وقد ذكرنا ان هـذا الشعور الشعبي فيه هو الذي حمله إبان الحرب الاخيرة

١) ادب في السوق ص ٦٠ .

على مناصرة الديموقراطية ضد النازية او الفاشستية – بل ذهب به تدريجيّاً الى ابعد من ذلك ، فأخذ بالمثل السوفياتية واصبح من الدعاة لها في بلاده اعتقاداً منه انها تجاري نظام التطور وتقضي على الرجعية وتوطّد للشعب حرّيته وتقدّمه. منها ستطلع بعد الظلمات انسانية الغد المشرقة – وعلى ذلك تسمعه يقول في عيد العمال : لقد انقذ العمّال الحرّية في العالم فليس بدعاً ان ينتظر منهم ان يحفظوا الحرّية في لبنان » [1] .

ومن هذا الشعور ايضاً انبثق شغفه بالادب الشعبي حتى العامي منه ، وخصوصاً تلك الاناشيد التي عرف بها صديقه وزميله عمر الزعنّي ، وذلك لان هذه الاناشيد لم تنظم على هامش الحياة بل لانها كما يقول هي : « شهادات على العصر وعلى اهله تكشف عن عوراتها ومساوئها حتى ليمكن القول ان صاحبها اعظم الهجائيين بين شعرائنا لانه استحدث نوعاً من الشعر هو الهجاء الاجتماعي» [2] . ويعني بالهجاء الاجتماعي ما يرسم لنا صوراً صادقة عن حقيقتنا– عن اخلاقنا الاجتماعية – عن آلامنا وآمالنا . ولقد يُظن انه يقف هنا موقفاً من الادب ينقصه الانسجام . ألسنا نراه من جهة يماشي قدامة بن جعفر في ان اساس الفن هو التجويد ، سواء كان الموضوع قبيحاً او جميلاً ، فيجعل مقياس الجمال الفني جودة التعبير [3] ؟ وها هو ينحي باللائمة على الادباء الذين لا يوجهون ادبهم في سبيل المجتمع ، بل يطلقون لانفسهم العنان في عالم الاحلام. واذا التمسنا له عذراً فانما هو عذر الذي لا يرى الفن للفن ذاته ، بل لخدمة المجتمع والشعب. فالادب عنده لا يخرج عن كونه حديثاً عن الناس وعن الوجود ، والاديب لا كما عرفته عصور الصناعة . بأنه راوية للأشعار ، حافظة للامثال ، محيط بالاخبار قال: «وليكن في احاطته بالاخبار كالاوقيانوس ، وفي رواية الشعر كألف ديوان ،

١) الحقيقة اللبنانية ص ٨٤ .
٢) الباب المرصود (١٩٣٨) ص ٣٩ .
٣) الفصول الاربعة ص ٢٩ .

وفي حفظه الامثال كمجموعة الميداني، وفي اخذه بأطراف الفنون كشبكة الصياد، — فهو وشأنه ــ لكن هذا كله لا يساوي عندي قليلاً من الخبرة المباشرة الشخصية بالحياة والناس ، وشيئاً من الاتصال الحقيقي الحي بالطبيعة والوجود»[1]. وبكلمة اخرى ، اذا كانت غاية الادب الجمال ليس الا ، فليكن هذا الجمال في ما نستخلصه ونستوحيه من معالم الحقيقة معبراً عن اشواق الانسانية واختباراتها ، ليكن في ما يمسّ الحياة ويرفع الانسان . ان في قول قدامة صواباً لا ينكر . ولكن اديبنا يرى ان التجويد يمكن ان يكون في المواضيع الطبيعية وكما يكون في الزهد او في المجون ، ولكن الجمال المنشود هو ما عكسه الفن عن اشواق الانسانية واختباراتها لا ما كان مجرد تصوير لما هو خارج عن روحها وشعورها .

٢) طلاوة تهكّمه : من المتهكمين من يكون تهكّمه سلبّياً ، فتراه ناقماً ما يرى او يتوهم من عيوب ونقائص ، مكتفياً بأن يهز كتفيه قائلاً : ماذا يعنيني ؟ أما كاتبنا فلم يكن كذلك بل كان تهكّمه ايجابياً — فهو يناضل في معركة الحق ، ويتحمس للمبدأ الذي يؤمن به ، ويقف على ملأ من الناس هاتفاً له داعياً اليه . واذا سخر من الذين هم في نظره اعداء الحق فليس ليعبث او يهزل ، بل ليثبت حقيقة يؤمن بها او ليصور شخصية يجب كشف امرها .

وسخريته مع ذلك لطيفة طلية تهزك طرباً . خذ مثلاً على ذلك وصفه لاديب يجاور اديباً آخر ، وذلك في اليوم الاول من الحرب العالمية الثانية . قال وهو يقصد نفسه : « وكان ذلك اول عهده بالدنيا بعد ان خرج من برجه العاجي حيث قضى في عزلته الطّلسمية عمراً وهو منهمك في تلفيق المعاني وترويق المباني ، وقد فاجأته الكارثة اذ كان يعدو خلف قافية شرود . فزلّت قدمه ،

---

[1]) المصدر نفسه ص ٢٠ .

والله وحده يعلم كم ابث على الدرج متدحرجاً من شاهق البرج العاجي ، حتى وجد نفسه بين بني آدم المعذبين » [1] .

واسمع قصته وهو تلميذ وقد وقف امام معلمه ووراءه خارطة الجغرافيا مشدودة الى عصا ، فسأله المعلم : اجبني كيف تجمع تفاحة وليمونتين وثلاث اجاصات واربعة أكواز من الرمان . وخطر على باله ان يجيب مداعباً المعلم : كل هذه الطيبات تجده مجموعة في دكان جارنا الفاكهاني . قال : « وفي لحظة ندمت على ذلك الجواب الفكاهي ، وشعرت بضربة عصا ثقيلة على ظهري .. وهكذا حطّم الحساب منذ اربعين عاماً عصا الجغرافيا على ظهري . وانا ما فتئت اتحين الفرص كي أثأر لأضلاعي بل للجغرافيا الكسيرة من الحساب الجبار » . وتمر الايام ويجيئه احدهم سائلاً : ألم تزل بعد عامي الحرب هذين موقناً بانكسار المانيا في النتيجة ؟ فأجابه بغير تكلف : انا اليوم اشد ايماناً . فقال صاحبه : اذن فإليك مسألة حسابية صغيرة : كيف تجمع انتصاراً وخامساً وعاشراً فيكون الحاصل عندك انكسار ؟ فالتفت الى صاحبه وقد انبعثت في نفسه ذكريات التلمذة وكسر عصا الجغرافيا على رأسه ، وقال : « ألا تزال مولعاً بالاحاجي الحسابية ؟ اما انا فقد زهدت بها منذ عُهد اليّ بأن اجمع تفاحة وليمونتين وثلاث اجاصات واربعة اكواز رمان .. ولكن تعال اطرح عليك بدوري مسألة جغرافية – علمٌ بعلم ولا يفل الحديد الا الحديد – قل لي هل يعقل ان تحارب المانيا ، وهي من اوروبا على بركان ، الاتحاد السوفياتي والامبراطورية البريطانية والولايات المتحدة ، ثم يصح عندك في الحساب ان تنتصر في النتيجة؟ لست ادري ما كان من اثر هذا الحديث في ذهن صاحبنا ، ولكن ما اعلمه علم اليقين هو اني يوم ذاك حطّمت امّ رأس الحساب بعصا الجغرافيا » [2] .

---

1) اديب في السوق ص ١٩ – ٢٠ .
2) لاهوادة ص ٩٠ – ٩٢ .

وقد يوجه سخريته إلى الادباء الذين يتبجحون بأن لهم رسالة في الحياة وهم بعيدون عن الحياة ، فيقول : « لقد كان الانبيـــاء فيما غبر من القرون ذوي رسالة ، فاذا كل من عليها اليوم وله رسالة – الطبيب والمعلم والصحافي والمحامي ويتبعهم الاديب – حلـّة مبهرجة لستر الفـــاقة ، حبذا لو ان هؤلاء الرسل يقلـّون من التبجـّح برسالاتهم اقل كثيراً ، ويكثرون من اداء وظائفهم اكثر قليلاً » [1] .

ولا يقتصر في تهكمه على الساسة والادباء ، بل كثيراً ما يأخذ بيدنا ويرينا صوراً طريفة من المجتمع . ها هو قد استيقظ في الصباح على موسيقى تضج في اذنه وتكاد لقربها تنفجر منها جوارحه « موسيقى نحاسية لسوء الطـالع كاملة الآلات والاصوات . خيـّل اليّ وأنا في وهل النوم انه ليس سوى حلم مرعب ينتهي معي الآن في برزخ الوعي واللاوعي – ومـا الخبر ؟ لقد استيقظ الحي بأمره ، وهو يتثاءب متسائلاً : مـا الخبر ؟ وطفق هذا السؤال يطـّاير حول منازل الجيران بين طبقة وطبقـة ، وطنف وطنف ، ونافذة ونافذة ، يمينـاً ويساراً ، صعداً وانحداراً . . وازدحم الزقاق الضيـّق ببنـــات وصبيان وهم يتطلعون الى جنينة ابي مصطفى كي يروا الموسيقى ويسمعوا الخبر . وما الخبر ؟ ابن الجيران أخذ الشهادة !» .

وهذه صورة اخرى ولكنها لا لتضحكنا بل لتحرّك نفوسنا وتقلب مقاييس الحياة عندنا ، وهي تتلخص بقوله : « كان السادة في العصور الهمجية يسوقون الارقاء الى العمل بالسياط ، ثم ترقـّى المجتمع الانساني ولم يبق للسوط موضع فاخترعت الفضائل الانسانية وكأنها سياط من نوع جديد ، ولكن للغـاية نفسها »[2] . وفي هذا الكلام مرارة المتشائم ولكنها مرارة يشفع فيهـا اخلاصه في الدفاع عن الكادحين المظلومين ، ومقته للرياء الاجتماعي الذي يستخدمه بعض الاسياد في تصرفهم مع الآخرين .

١) اديب في السوق ص ٥٦
٢) المصدر نفسه ص ٧٦

وتظهر لك طلاوة تهكّمه بما يكتبه عن بعض قراء ادبه . فها هو بالسوق وفي زحمة الشارع يستوقفه رفيق قديم له : « فبعد ان حيّاني احسن تحية اخذ بذراعي كأنه يريد مؤاساتي في مصيبة نزلت او ستنزل بي . وكنت أتساءل وجِلًا ماذا يريد بي هـذا الآدمي – أخيراً أم شراً ؟ فاذا به يلتفت نحوي والابتسامة العريضة على ثغره كالوردة التي ازدانت بها عروته قائلًا : « الجريدة الفلانية » وذكر احدى صحف البـلد .. أجبت وقد مرّي عني : نعم نعم . قال رأيت صورتك، حقاً انها جميلة. فشكرته وحمدت الله. وودعني وانصرف. وهذا قارىء لم يقرأ إلا صورتي» [1].

وهذا الرفيق على كل حـال ألطف من المراسل الذي ارسل اليه يقول : « فصلك الاول لم افهمه ، وفصلك الثاني فهمته ولكن لا طائل تحته. أما فصلك الثالث فمـا كدت استبشر بعنوانه خيراً ثم انتهي منه ، حتى قذفت به من النافذة، واتبعته نظري فاذا به يسقط على رأس احد المارة الحامرين فلا يؤذيه، لضؤولة ما فيه . وكان الخطر من عنوانه الضخم « الادب بين جيلين » .

ومثل هذه الطلاوة تلمسها في ما قصه علينـا من حكاية الشاعر الذي كان اذا نظم القصيدة او بيتين منها لا يقرّ له قرار حتى يجيء كاتبنا ولو في ساعة متأخرة من الليل فيوقظه بحجة ان « عليه بيضة » كما يقول العـامة ويجب ان يبيضها . وهي قصة طريفة يتهكّم فيهـا من بعض المبرمين الذين ينظمون او ينثرون ويحسبون ان ما نظموه او نثروه من الدرر الغوالي التي يجب ان يسمعها الناس في اي وقت كان ولو كان في ذلك ازعاج لهم [2] .

٣ ـ ابداع التصوير ودقة التمثيل : لعمر الفاخوري في كثير من عباراته الوصفية براعة في التشبيه تصل به الى درجة الابتكار . فاذا اراد ان يصف كاتباً

١) اديب في السوق ص ١١
٢) راجعها في الباب المرصود ص ١٢٢

من هؤلاء الذين لا مادة ادبية عندهم غير الحبر والورق قال : « هم ذلك الرجل المسخ الذي لو قطّعت شرايينه لما اخرجت إلا حبراً ، ولو مزّقت لحمه لما اخذت إلا ورقاً » [1] . واذا وصف ما كان عليه السواد الاعظم من اهل بلاده في حياتهم الوطنية قال : « ان السواد الاعظم من ابناء البلاد كانوا الى زمن غير بعيد كالألوان الغُفل التي ليست تراد لذاتها بل يراد بها ابراز صورة الرسام »[2] وفيه ميل الى تناول المشبّه به من الأشياء العادية او الحقيرة ولكن ذلك لا يضير الصور التي يرسمها بل يزيدها وضوحاً . فانظر كيف يرسم لنا كلمة يلفظ بها فمه وفم صديقه بشيء من التردد اذ يقول : « ثم سقطت ما بيننا هذه الكلمة مترددة وجِلة كورقة من اوراق الخريف . ويصف نفسه في حال القلق وصفاً ينتزعه من احقر الأشياء ، ولكنك لا تلبث ان تستهويك دقة الرسم فيه فهو يقول : « واخذني القلق وساورتني الوساوس فنفسي كالخرقة التي تعلق بحذائك الوحِلة ، فتجرها جرّاً ثم تضرب بقدمك الارض عسى ان تفارقك»[3]. وينظر إلى ما قد يبهرك من نور تقدّمنا الحديث فلا يراه إلا نوراً زائفاً . ولكي نراه على حقيقته يأتينا بصورة كثيراً ما نشاهدها في الباحات التي يكتظ بها العامة فيقول : « ان مشعل تقدمنا هو كالنور في حلق المشعوذ »[4] . فكأنه يزعم ان نورنا ليس إلا شعوذة لا حقيقة له . وسواء صدق ام لم يصدق فالمهم انه يدلّ على مقدرته في ابتكار الصور واعتماده في ذلك ما يشاهده بين الناس في احوالهم العادية .

ومثل آخر من دقة تمثيله ، ما يصف به أحد الشعراء الذين يستسلمون للأحلام ولا يرون في العالم غير الشقاء والأوهام ، يقول: « لست ألومه ولكني

---

١) الفصول الاربعة ص ١٦
٢) اديب في السوق ص ١٠٧
٣) المصدر نفسه ص ٢٦
٤) الحقيقة اللبنانية ص ٦٣

ارثي له فان احلامه مأهولة بأفاعٍ تنفث سمّها في قلبه»[1]. وفي الشاعر الذي لا ذاتية له : « ليس شعره الا كالأمواج التي لا تفور حتى تعود زبداً وتذهب جفاءً »[2] . ويقول في الشعراء الذين لا قيمة في ما ينظمون : « ما اكثر الذين يسمّون بالشعراء وهم في الحقيقة طواحين هواء » [3] .

ويصف تقليدهم للقدماء بقوله : « يتزاحمون بالمناكب في الطريق الموطأة الرّود التي يعيش فيها العميان بلا أدلّة ولا عكاكيز»[4] .

هذه التشابيه رسوم فنّان مبدع – ولو اردت الاستشهاد بجميع ما ورد له في هذا الباب لملأت صفحات كثيرة منها .

هذا من حيث العبارة . ولكن ابداعه في الرسم لا يقف عند هذا الحدّ بل يتناول الهيئات العامة والاشخاص او الاوطان في لوحة عامة ينسجها نسجاً طريفاً كما يفعل الرسام اليدوي في اخراج صور فنية جميلة . وكأني اراه خارجاً من نزهة وقد بدأت تباشير الربيع ، وهو يقول لنفسه : هلمي بنا في هذا اليوم المشرق . لنطرح الكتاب جانباً ولنمض الى الضاحية . وهنا تظهر اللوحة الفنية: « فتبعتني نفسي كالمرغمة كنت اتلفت ورائي حيناً بعد حين لأنظر اين هي . ومشيت على مهل وانا امرح الطرف معجباً كأني افتح على الكون عينين جديدتين لم يسبق ان استعملها احد ، كمثل نافذتين في دار مهجورة اقفلتا زمناً طويلاً فلما آب الى الدار اهلها وفتحت النافذتان اخذتا تنظران وكأن الارض بدلت ، والسماء غير السماء » [5] .

صورة رائعة صورة تينك العينين تنفتحان على الكون ايام الربيع بعد

١) الباب المرصود ص ٦١
٢) المصدر نفسه ص ٦٧
٣) الباب المرصود (١٩٣٨) ص ٩٤
٤) « « ص ٧٢
٥) اديب في السوق ص ٣١

الانزواء في برجيها كما تتفتح النافذة في دار هجرها اهلهـــا ثم عادوا اليهـا بعد غياب طويل

ومثلها في روعة البيان ، وصفه للبنان في عهد الانتداب الفرنسي الذي طـال نحو ربع قرن . قـــال : « نحن لا نزعم ان لبنان لم يكن طوال هذه المدة المديدة منطوياً على اية رغبة ملحة او فاترة في ان يستبدل بتجربته تلك غيرها.. ولكن الواقع انه لم تبدو منه اية حركة رفيقة او عنيفة ، صائبة او طـائشة ، تستهدف التغيير والتبديل . حتى لقد كان يخيل الى الناظر أن لبنان جـــامد – بينما الارض تدور – او هو على الاقل واقف ، بينما الاقطار المجاورة تحرك ارجلها تحفزاً للسير ، بل اخذت تسير » . وبعد ان يتحدث عن نهضة لبنـان وانه في طليعة الاقطار العربية بما قدمه لهذه النهضة من رجال ، « وان الاشعاع اللبناني » لا يصح أن يذهب باطلاً ، يتابع تصويره للبنان مصرحاً : « ونحن اذ نقول هذا لا تبجحاً او تزّيداً ، انما نقوله كي نتأول لأنفسنا كيف ان للبنان وفيه تلك المؤهلات الاصيلة القيمة ، ومنه ذلك الاشعـاع المتّصل المتعدد ، ظل في سنيه العشرين الاخيرة – بينما كانت الدنيا تدور والاقطار المجاورة تسير – ظل واقفاً على سياسته وقوف شاعر على الاطلال »[1] .

فتـأمل تصويره لواقع لبنـان السياسي ابان الانتداب ، وخصوصاً وقوفه وقوف الشاعر على الاطلال .

نظراته النقدية :

الواقع ان النقد هو الاطار العام لكل ما كتب . على اننا سنقف معه قليلاً في هذا البـاب لنوضح هذه المزية فيه . ولنقرر اولاً انه ناقد ادبي فضلاً عن انه ناقد اجتماعي . ففي فصل له عنوانه « اساليب في درس الادب » ينقد الاحكام التي يجريها بعض النقاد على أديب مـا ، اذ يبنون احكامهم لا على ادبه ومزاياه

١) الحقيقة اللبنانية ص ١٠٧ – ١٠٩

الفنية ، بل على مـا يستنتجون من دراسة تاريخه . وكثيراً مـا يُغرقون بحث الادب الصرف في اوقيانوس من التاريخ السياسي ، الى التـاريخ الاجتماعي فالتاريخ الديني حتى التاريخ الاقتصادي ـ طوافان من التاريخ على قول كاتبنا: « فاذا مـا يجب ان نبالغ في الاهتمام به عند اي شاعر او ناثر ـ اعني شعره او نثره ـ يُفسح المجـال لمـا يصح ان نهتم له بالدرجة الاخيرة ـ اعني اخباراً مشكوكاً في صحتها وحالاتٍ مضطربة وأقيسة ملتوية يريدون ان تتألف منها سيرة من السير هي اقرب الى القصص الموضوع منها الى الوقائع الراهنة »[1] .

ويقدم مثالاً على ذلك المتنبي ، وعمر بن ابي ربيعة ، فيتساءل مـا الذي يجدينا من الناحية الفنية اذا علمنـا انهما كانا صادقين او كاذبين في شعرهما . ان الشاعر العبقري عبقري رغم انف الصدق والكذب . وانما هو يخلد بشعره لا بشروح شارحيه او اخبار مؤرخيه . ويقترب نقده من التهكم الفكِـه اذ يخبرنا انه رغب مرة ان يتخذ الطريقة العلمية في درس الادب ، فاختار كتاب «ألف ليلة وليلة» وهو الكتاب المشهود له في الشرق والغرب ، وحـاول ان يطبق عليه علم الحساب . ولندعه الآن يحدثنا بلغته قـال : « فاذن اخذت الف ليلة وليلة بيد والارتماطيقي باليد الثـانية وقلت احصي عدد الاشخـاص الذين يغمى عليهم بين دفتي الكتاب ، لفراق او تلاق ، لحزن او لفرح ، لمرض في القلب او عسر في الهضم . ثم انوّعهم انواعاً على نحو ما يصنع العلماء في علمي النبات والحيوان، ولا حاجة الى القول انه منذ القصص الاولى اجتمعت لديّ اوفر مـادة ممكنة عن الاغمـاء في مختلف احواله واشكاله واسبابه ونتائجه . أتحسبون ان جنيـاً او عفريتاً افسد عليّ عملي ؟ لا . بل فتى من العاشقين عبقري الاغماء استطاع ان يغيب عن صوابه في خمسة اسطر عشر مرات يزيد اغماءً كلـما زادوه انعـاشاً فاعجزني وايأسني صاحب هذا الرقم القياسي ـ عافاه الله »[2] .

---

١) الفصول الاربعة ص ٥٤

٢) المصدر نفسه ص ٥٨

ويخرج من ذلك الى القول : « ويمكنني ان اقول اني قرأت كل مـا كتبه عن المتنبي الكاتبون ، وبحثه الباحثون، وأرخه المؤرخون، وشرحه الشارحون، فلم اخرج من ذلك جميعاً وانا اكثر اعجابـاً بالمتنبي او اشدّ متعة بشعره .. الى قوله: «كلما خلوت الى ديوان للمتنبي ساذج لم يزين بالمقدمات والذيول والحواشي، فأجدني بضرب من السحر ، في حـــال من الوجد الشعري يعييني ولا يعنيني وصفها، مغموراً بجو من الغبطة لم اعرف لها شبهاً في عالمي الانس والجان» [1].

وله كثير من مثل هذه النظريات العامة في دراسة الادب . ولا ازعم انهـا مما يقبل على علاته ولكنها تريك على العموم سلامة ذوقه وحسن نظره . ولقد يتضح لك ذلك اكثر اذا خرجنا من النظريات العامة الى النقود الخاصة . فها هو مثلاً ينظر في بيت للمتنبي ويقف فيه على هذا الشطر ـ تناهى سكون الحسن في حركاتها ـ فيتصدى لما قاله المفسرون قديماً وحديثاً مفنداً اقوالهم مبيناً شططهم او على الاقل عدم بلوغهم الغـاية في تفسيرهم . ثم يسير بنـا مع الناقد الفرنسي « ألان » في كتابه « الفنون الجميلة » ويشرح لنـا نظريته في جمال السكون . وبعد ان يملأ نحو ثلاثين صفحة من كتابه « الفصول الاربعة » شارحاً ومفنداً ومناقشاً يتوصل الى تفسير مبني على نظرية النـاقد الفرنسي المذكور وهو ان الوجه الحسن ينبيء عن طمأنينة او سكون الاشياء جميعها حتى في حالة الاختلال او الحركة العارضة . فيكون معنى قول المتنبي اننـــا في حركاتها نشعر بذلك السكون المتناهي الذي هو صفة الجمال الرائع [2] .

ونضيف الى ما ذُكر ان عمر كان شجاعاً جداً وصريحاً في مـا يراه يحتاج الى نقد. ومن امثلة ذلك نقده لرباعيات الزهاوي ، وهو يجمع بين النقد والتهكم اللطيف . فبعد ان تحدث لنا عن هذا الشاعر وموهبته في اختراع اشراك الداما مثلاً ، ذكر لنا بعض كبار الشعراء العالميين الذين لم ينظموا الا بدافع من القوة

١) المصدر السابق ص ٥٩
٢) راجع اديب في السوق ص ٨٢ – ١١٢

الباطنية . كأنه يريد ان هناك كشاعرنا مثلاً ، من ينظم لينظم فقط . قال : ولذلك حق لنا العجب من ان عدد الرباعيات التي اتحفنا الزهاوي بها ألف رباعي دون زيادة ولا نقصان . وحق لنا ان نتساءل لِمَ لم تكن (٩٩٩) او (١٠٠١) بل كانت كاصناف البضاعة التي تخرجها المصانع حسب الطلب من الاحذية الى الامشاط ؟ البضاعة والرباعيات الجاهزة ؟ » [١] . ثم يتقدم بنا قليلاً فيقابلها برباعيات الخيام ويقول ان نوع الرباعي في الشعر انما هو كجوامع الكلم في النثر يجمع زبدة تفكير الشاعر وشعوره . فاذا صح ذلك فأي تفكير عال او شعور عميق في رباعيات صاحبنا ؟ ويأتي بأمثلة منها كقوله في القطار :

مشى بنا فوق خطين ينهب الارض نهبا

وفي الكهرباء اساس الحضارة :

– به التراسل فيه الشفاء منه الضياء .

وفي نسب الشمس :

– فانها أم دنيانا وابنة اللاتناهي .

وقوله – مضمناً – ان المدارس ما امتلأت بملئها تخلو السجون . – افعل بغيرك ما تريد ليفعلوا لك مثله .

الى غير ذلك من التعاريف العلمية المفيدة والتضمينات .

ويخرج من ذلك الى القول : – « اني ما سمعت ولا تلوت يوماً قصيدة جديدة من نظم الزهاوي الا احسست احساساً غامضاً كأنما سبق لي سماعها او تلاوتها اكثر من مرة قبل هذه المرة » [٢] .

ومن امثلة صراحته في اظهار الحقيقة، نقده للشاعر اللبناني الياس فياض في ما نسبه الى نفسه من قصائد مترجمة . فيأخذ له مثلاً قصيدة « النجوم » فيقابلها بقصيدة المجرة لسولي برودوم ويظهر كيف ان الشاعر الفياض اقتبس معانيها

١) الباب المرصود ص ١٣٨
٢) المصدر نفسه ص ١٤٢

من الشاعر الفرنسي [1] . كما انه ينتقد صديقه الريحـاني لنقل ترجمة فياض الى الانكليزية حاسباً انها عربية اصيلة . فحسب الريحاني فضلاً عنده ، انه أعاد هذه القصيدة الى اهلها الافرنج « سالمة غانمة » ولكن متغيرة بعض الشي بفعل المناخ عافاها الله » .

وهو يدعو الى الصدق في الادب ـ اي الى التعبير عن الاختبارات الشخصية ويرى في القصة افضل سبيل لذلك . فتراه يهيب بناشئة الادب ان يمارسوها لانها اقرب فنون الادب الى الحياة بل هي الحيـاة نفسها . ومن قوله : « وتكون القصة بليغة قيمة بقدر مـا يودع فيها الكاتب من اختبار وتجربة . وبقدر ما تكون اختباراته وتجاربه صحيحة يكون موفقاً فيما يكتب ويحدث الناس عنه . وليس هيناً .. ونحن نرزح بأعباء من التقاليد والاوهام تقام بتراكم بعضها فوق بعض ان نصدق انفسنا ونصدق الناس ، ففي الحياة اليومية التي يطلع عليها كلّ منا حوادث وشؤون لم يألفها ادبنـا ، لان التقاليد تحرم علينا تناولها بالوصف والتحليل . فـاذا فعل اتهمته بالسوء . وهذي الشؤون هي رذائلنا ونقائصنا التي يريدون ان يخفوهـا وراء حجب كثيفة من الكذب والرياء ـ من الكذب الفردي والرياء الاجتماعي » .

وهكذا تراه ينتقد الادب العربي في عصره زاعمـاً انه ادب لفظي لا يزال غريباً عن الحياة .

والغريب انه مع شغفه بالادب القصصي لم يضع لنـا منه شيئاً يذكر ، وانما اكتفى بما ترجمه عن الفرنسية . ولعله اراد بذلك ان ينقل الى العربية امثلة من الفن الذي يحسبه هو فناً حقيقياً .

ولا شك انه لو عاش عمر الى الآن لأتحفنا بكثير من قصصه الفنية ، او على الاقل لرأى ان فن القصة عندنا قد سار خطوات الى الامام في السبيل الذي اقترحه على ادباء عصره .

١) المصدر نفسه ص ١٤٣ وما بعده

أعلام الخطابة

عبدالله نديم - أديب إسحق - نقولا فياض
مصطفى كامل - أمين الريحاني - مي زيادة

الخطابة في الأدب الحديث

٢ ـــ فن الخطابة في الادب العربي

إذا اعتبرنا في الخطابة اسلوبها الانشائي فقط فليس من حدود واضحة بينها وبين الترسل . فكلاهما قد مر في نفس الاطوار منذ ايام الجاهلية الى عهد الانبعاث الادبي في القرن الماضي . على ان للخطابة خصائص من حيث موضوعها واهدافها ووسائلها ، وذلك ما يحدونا ان نفرد لها مكاناً خاصاً في درسنا لفنون الكتابة الحديثة .

ولو رجعنا الى اقدم عهودنا الادبية ، وهو عهد الجاهلية ، لما وجدنا مما رواه الرواة الا خطباً قليلة معظمها لا يعتمد على صحته . ومعظم هذه الخطب اقوال وجيزة تلقى ارتجالاً في شتى المناسبات .

يقول الجاحظ : « وكل شيء للعرب فانما هو بديهة وارتجال » ... وانما هو ان يصرف (الخطيب) همه الى الكلام والى رجز يوم الخصام ، حين يمتح على رأس بئر ، او يحدو ببعير ، او عند المقارعة والمنافلة ، او عند صراع او في حرب . فما هو الا ان يصرف همه الى جملة المذاهب والى العمود الذي يليه بقصد فتأتيه المعاني ارسالاً . وتنثال عليه انثيالاً . ثم لا يقيده على نفسه ولا يدرسه احداً من ولده. وكانوا اميين لا يكتبون ، ومطبوعين لا يتكلفون ، وكان الكلام الجيد عندهم اظهر واكثر ... وخطباؤهم اوجز ، والكلام عليهم

اسهل ، الى ان يقول : « ان جميع خطب العرب من المدر والوبر ، والبدو والحضر على حزبين، منها الطوال ومنها القصار ولكل ذلك مكان يليق به [١] .

فالمفهوم من رواة الادب القديم ما يلي : ١) ان الخطابة في الجاهلية كانت ارتجالية. ٢) وانها اقوال كانت تقال في ما تقتضيه حياتهم البسيطة . ٣) انه لم يصلنا منها الا الشيء اليسير ومعظمه قطع قصيرة من قبيل الوعظ والحكم الاخلاقية كالتي يروونها لقس بن ساعدة ويقولون ان النبي سمعه يلقيها في سوق عكاظ واولها . « ايها الناس اسمعوا وعوا واذا سمعتم شيئاً فانتفعوا . انه من عاش مات ، ومن مات فات ، وكل ما هو آت آت » . والذي يلاحظ ان ما وصلنا من هذا القبيل معظمه مسجوع ، وسنرى ان اسلوب السجع كان عاماً في الخطب الدينية او الاخلاقية منذ اقدم الازمنة .

فلما ظهر الاسلام وتوطدت اركانه وامتد سلطانه قوي شأن الخطابة لاعتماد الامراء والقواد اياها في الحض على الجهاد ، وقمع الفتن ، ونشر الدعوة في الملأ . وقد عرف من خطباء صدر الاسلام عدد ليس بقليل يكفي للتمثيل ان نذكر منهم الامام علي بن ابي طالب ، وزياد بن ابي سفيان ، وقتيبة بن مسلم ، وعمرو بن سعيد ، والحجاج بن يوسف وقطري بن الفجاءة وسواهم ، وقد روي لنا كثير من اقوالهم . وكان طابع كلامهم خطابة وكتابة الايجاز والجزالة وارسال القول على السجية لا يتكلفون سجعاً ، ولا يعنون بالصناعة البديعية . ومن امثلة ذلك خطبة لعلي بن ابي طالب يبين فيها شدة حرصه على مال المسلمين العام جاء فيها : « والله لقد رأيت عقيلاً [٢] وقد أملق حتى استماحني من بُركم [٣] صاعاً ، ورأيت صبيانه شعث الشعور غبر الالوان من فقرهم . وعاودني مؤكداً وكرر عليّ القول مردداً . فأصغيت اليه سمعي . فظن اني أبيعه ديني

١) البيان والتبيين

٢) هو اخو الامام علي .

٣) البر القمح .

وأتبع قيـاده مفارقاً طريقي . فأحميت له حديدة ثم أدنيتها من جسمه ليعتبر بها فضج ضجيج ذي دنف من ألمهـا . وكاد ان يحترق من ميسمها . فقلت له : ثكلتك الثواكل يا عقيل اتئن من حديدة احماهـا انسانهـا للعبه وتجرني الى نار سجرها جبارها لغضبه . اتئن من الاذى ولا تئن من لظى » [1] .

وعلى غرارها خطبة زياد المعروفة بالبتراء ألقاهـا على اهل البصرة وقد فشا بينهم الفساد والشر وكادت تتقد فيهم الفتن . ومنهـا قوله : « اني رأيت آخر هذا الامر لا يصلح الا بما صلح اوله – لين في غير ضعف، وشدة في غير عنف. واني اقسم بالله لآخذن الولي بالمولى ، والمقيم بالظـاعن ، والمقبل بالمدبر ، والمطيع بالعاصي ، والصحيح منكم بالسقيم ، حتى يلقى الرجل منكم اخاه فيقول انج سُعد فقد هلك سعيد ، او تستقيم قناتكم [2] .

ذلك هو الطابع الذي عرفت به خطـابة ذلك العهد . ولا اظن احداً لم يسمع بخطب الحجاج في العراق وكلهـا من هـذا النسج المتين الحبك المتدفق العواطف دون تعمل او اطالة . وشهرتها تغنينا عن التمثيل في هذا المقام .

وعقب هـذا العهد تحول تدريجي في الاسلوب الخطـابي فلم يكد ينصرم القرن الثالث الهجري حتى لبست الخطابة ثوب السجع وانحصرت في المساجد تلقى ايام الجمع والمواسم عظات على الناس تحثهم على التقوى او تدعوهم الى الجهـاد . كما نرى في خطب ابن نباتة الذي كان يلازم سيف الدولة علي بن حمدان إبان حروبه الرومية. وخطبه ومواعظه مشهورة وهي مجموعة في كتاب خاص ننقل منها للمثل العظة التالية، وهي من خطبة يدعو فيها لنصرة جيش سيف الدولة على ملك الروم : « سدّد اللهم نصر جيوش المسلمين حيثما سلكوا من اقطـار البـلاد . وامددهم بجيوش العون وكتائب الاسعاد ، وقوّ نيـاتهم على القيـام بمفترض الجهاد ، وامكنهم من نواصي الكفرة اهل الكفر والعناد ، واستنقذ المأسورين

١) راجع نصها الكامل في نهج البلاغة .
٢) راجع نصها في العقد .

والمأسورات من ضيق السجون ووثاق الاصفاد . وطهّر ثغرنا هذا وثغور المسلمين من دنس الفساد ، اللهم اهلك طاغية الكفر وناصريه ، واعوانه ومؤازريه ، الذين يبغون اخمال ملّتك وادحاض حجتك ، وسلوك غير محجتك. اللهم زلزل اقدامهم، ونكّس اعلامهم، وانحس ايامهم، وعجّل ارغامهم، وأحرقهم بصواعق انتقامك ، ومزّقهم ببوائق أحكامك . وادمغهم بقوارع ايامك . حتى لا يرى لهم عدد . ولا يبقى على وجه الارض منهم احد » .

وواضح انه يشير في هذا الدعاء الى ما كان سيف الدولة يعانيه من اعدائه الروم . وفي خطبة اخرى جهادية يذكر قائد الروم الدمستق ومقتله في وطنه فيقول بعد مقدمة طويلة حاضّاً قومه على الاتحاد والاخلاص الضمائر والاعتبار بمصير عدوّهم مشيراً الى ذلك القائد بقوله : « حين دوّخ الاقطار ، وفتح الامصار ، واخرب الديار ، وجاوز في بغيه وعتوه المقدار ، حتى اذا ارتعدت منه فرائص الاسلام ، وخامت عنه جيوش الاقدام ، وطاشت لفرقه عقول الانام، وتقاعست عن الفتك به صروف الليالي والايام، ووقع اليأس من دفعه، لطف الله الكريم لكم بلطف صنعه واتاه من مأمنه ، وقتله بأنصاره في وطنه ، منّة من الله لم تستوجبها افعالنا ، ونعمة لم تخل في طريقها آمالنا . فالآن عباد الله فاستديموها باصلاح السرائر ، وقابلوها بالاقلاع عن الصغائر والكبائر . وخذوا على ايدي سفهائكم وكبرائكم ، والزموا طاعة ولاتكم وامرائكم ، وعودوا بالفضل من اموالكم على فقرائكم ، وسدوا ثغركم باتفاق اخلاقكم وآرائكم ، يعزّزكم الله وينصركم على اعدائكم » الخ ..

ولم تخرج الخطابة العربية في الاجيال المتتالية عن طريقة ابن نباتة . على انها اخذت مع الزمن تتدهور، فاذا هي في اواخر القرن الثامن عشر واوائل التاسع عشر ، اصداء لأقوال السابقين ، تجري مجراها في توخّي السجع وتكلّف البديع ، وتقصّر عن مداها في القوة وحسن الاداء .

وكما دبّت منذ منتصف القرن الماضي (التاسع عشر) حياة جديدة في الترسّل

فـأخذ ينهض من عثرته ، ويعود تدريجيـاً الى سابق رونقه ، كذلك دبّت حيـاة جديدة في الخطابـة فانتعشت اذ لم تعد محصورة في المساجد ، بل اتصلت بكل نواحي المجتمع . فتناولت شتى الشؤون العمرانية والفكرية . وهكذا فُتحت امامها آفاق جديدة لم تعرفها سابقاً فظهر من رجال المنابر في هذا العصر عدد كبير ممن تركوا آثاراً بيّنة في الادب الحديث .

وتمتاز الخطابة الحديثة بسعتها وتنوع موضوعاتهـا وحرية اسلوبها . فبعد ان كانت قبل النهضة ضيقة النطاق تغلب عليها الصناعة ويسودها الاسفاف والتكلف المستهجن ، اصبحت واسعة المجال تجري في طريق التعبير المرسل الحرّ .

والخطابة نوع من الترسّل . وقديماً كان الباحثون في البلاغة قلمـا يميزون بينهما . وعليه يقول ابو هلال العسكري : « الرسائل والخطب متشاكلان في انهما كلام لا يلحقه وزن ولا تقفية . وقد يتشاكلان ايضاً من جهة الالفـاظ والفواصل ، والفرق بينهما ان الخطبة يشافه بهـا بخلاف الرسالة . والرسالة تجعل خطبة ، والخطبة تجعل رسالة في ايسر كلفـة »[1] . وبرغم مـا يذهب اليـه العسكري من تشاكل الرسالة والخطبة ، فان للخطابة خصائص تعرف بها . من ذلك انها ترمي الى ما يثير الشعور ويحمل على الاقناع . ولذا تكثر فيها علامات المخاطبة والتعجب والاستفهام ، وضرب الامثـال والشواهد والتلاعب بالمعاني ، والميل الى الايقاع في تركيب العبارات ، ومـا الى ذلك مما يستفز المشاعر ويستهوي القلوب . على ان اعلاها قدراً ما التزم جادة البيان السليم ، وجودة المنطق ، وكان قائماً على نصاعة التفكير وجمال التصوير .

ولقد أعان على تقدم الخطابة العربية في هذا العصر ما نشأ فيه من مختلف الجمعيات والنوادي الخطابية ، ومـا قام فيه من حكومات دستورية في شتى الممالك العربية ، مما نشّط الاهتمام بالحياة العمومية ، والشؤون الشعبية . أضف

١) الصناعتين ص ١٠٢ (الباب الثالث)

الى ذلك انتشار محطات الاذاعة ، ومـــا تقوم به من احاديث ادبية واجتماعية توجّه إلى المستمعين ويتوخى فيها حسن الانشاء وجودة الالقاء .

من كل ذلك نرى ان الخطابة في ادبنا الحديث قد تقدمت تقدماً يذكر فأصبحت ذات ألوان مختلفة نلخصها بما يلي :

الخطب الاجتماعية – وتتناول المواضيع الوطنية والعمرانية ومـا الى ذلك من الشؤون العمومية .

الخطب الادبية – وتشمل الادب والتاريخ والثقافة وما يتعلق بها .

الخطب السياسية – ويدخل فيهـا الدعوات الحزبيّة والحربيّة والعلاقـات السياسية الخارجية والداخلية :

الخطب العلمية – وهي مـــا نسميه اليوم بالمحاضرات وتختلف عن سواهـا بالتزامها جانب الدرس والبحث وتنظيم المعلومات والحقائق .

الخطب الروحية – وهي التي تلقى من منـابر الوعظ والارشاد حثـاً على الفضائل الدينية .

ولكل من هذه الانواع مجالات واسعة واشخاص وهبوا المقدرة على الجولان فيها .

واذا قلنا ان الخطابة في هذا العصر قد تقدمت فاننا لا ننسى ان التقدم لم يحدث فجأة بل جاء تدريجياً . فكان بين ابتداء النهضة في القرن الماضي وعصرنا الاخير فترة انتقال نشأ فيها بعض من على أيديهم امكن هذا الانتقال . نذكر منهم اثنين كان لهما الفضل الاكبر في ذلك وهما عبد الله النديم ، وأديب اسحق . وانما نقف عليهما هنـا دون سواهما لانهما اشتهرا في وقفاتهما الخطابية حتى اصبحا علمين في هـذا الفن من الكلام . وفي اسلوبهما يظهر اثر التطور من القديم الى الحديث جلياً للعيان .

عبد الله النديم

١٨٤٣ — ١٨٩٦

حياته وجهاده :

وُلد في الاسكندرية لاب هاجر اليها من قرية في اقليم الشرقية ليرتزق بالطباعة، وفي مسجدها درس مبادىء العلوم الدينية . ثم توقف عن التحصيل المدرسي وتعلّم صناعة الاشارات التلغرافية فأعانه ذلك على ان يجد عملاً في مكتب القصر العالي بالقاهرة حيث كانت تقيم والدة الخديوي . وعمله في القصر العالي أفاده من جهتين : فمن جهة أتاح له ان يطلع على حياة الترف التي كان يحياها الامراء والكبراء في مصر ، ومن جهة اخرى أتاح له ان يتردد على الازهر متابعاً تحصيله العلمي، وان يحتك بأهل الفكر والادب في مجالس خاصة كمجلس جمال الدين الافغاني ومحمود سامي البارودي الشاعر المشهور . على ان هذه الفرصة السانحة لم تطل اذ حدث ما دعا الى فصله عن عمله في القصر العالي ، فأخذ يطوف في البلاد وافداً على اصحاب الوجاهة والمال . وقاده التطواف الى مدينة المنصورة حيث اتصل بأحد اعيان تجارها فعطف عليه وفتح له دكاناً للتجارة . لكنه لم يخلق لذلك فتركها وعاد الى طوافه حتى جاء طنطا . وهناك

تمّ له الاتصال بأحد الباشوات المقصودين ، وكان له مجلس اشبه بناد ادبي يجتمع فيه اهل الادب والعلم. وفي هذا المجلس برزت مواهب النديم . ولكنه لم يستقر طويلاً في طنطا فعاد الى التنقل من مكان الى آخر وما زال حتى رأى ان يرجع إلى مسقط رأسه الاسكندرية ، وكان قد بلغ الخامسة والثلاثين من عمره .

هذي هي المرحلة الاولى من حياته – مرحلة السعي في طلب الرزق .

وبعد رجوعه الى الاسكندرية بدأت مرحلة جديدة في حياته وهي مرحلة الجهاد السياسي . ففي اثنائها انضم الى جمعية فتاة مصر، واتصل بعدد من رجال الادب والسياسة ، ومنهم اديب اسحق ، وسليم نقاش ، وكانا يصدران جريدتي «مصر» ، و «التجارة» فعيناه محرراً مساعداً فيهما .

وكان الجو السياسي يومئذ قاتماً ، والنفوس قلقة لاسراف الخديوي اسماعيل وتحميله البلاد حملاً ثقيلاً من الديون الاجنبية . وهاله ما رأى في وطنه من تأخر وجهل بالنسبة الى الغرب ، فأنشأ مع رئيس «فتاة مصر» وكاتم أسرارها «الجمعية الخيرية الاسلامية لتربية النشء وبث روح المعارف حتى ينشأ جيل « سلاحه العلم يقضي على الخزعبلات وينهض بالبلاد نهضة واسعة» . وكان يلهج بذلك في شتى مواقفه الخطابية . كقوله من خطبة ألقاها في الجمعية المذكورة سنة ١٨٧٩ ، مشيراً الى تخلّف الشرق ونهضة الغرب :

« فبأيّ سبب ظهر الفرق بين الشرق والغرب ؟ أبطيب الهواء واتقان المطعم والدواء ، أم بوضع النفس في سجن الهوان ، وصرف العمر في خدمة انسان ، ووضع النقد في الخبايا ، وترك الكتب في الزوايا ؟ أما والعدل ما تقدم الغرب الا بهمة اعيان ، وسهر جفون ونشر كتب واحسان ، ووضع رسوم وابحاث فكر لمبتدع ، ومخاطرة في تجربة مخترع ، وتربية اطفال ، وتعاون أفراد كثيرة ، على مهمة خطيرة ».

والخطبة كلها على هذا النسق من النثر المسجّع غير المستوي[1].

١) راجع نص الخطبة في كتاب «عبدالله النديم» لصقر وشاهين ص ١٧٦

وأنشأت الجمعية مدرسة كان صاحبنا مديراً لها ومدرّساً للأدب والانشاء . وذلك مما افسح لموهبته الخطابية مجال الظهور . فكان يقيم الحفلات وينتهز كل فرصة ليقف في الناس خطيباً . واهتم بتمرين تلامذته على الخطابة ونبغ فيها منهم كثيرون . وكان فضلاً عن ذلك ينشر المقالات في الجرائد ، ويؤلف الروايات المسرحية الوطنية حتى اصبح اسمه على كل لسان . والظاهر ان الغيرة دبّت في قلوب بعض اعضاء الجمعية فتآمروا عليه واخرجوه من الجمعية والمدرسة لكن ذلك لم يقعده عن الجهاد فأنشأ مجلة اسبوعية سمّاها «التبكيت والتنكيت» مزج فيها الجدّ بالهزل . ولما اتصل بالعرابيين «اي جماعة عرابي باشا» غيّر اسمها الى «الطائف» ، فأصبحت سياسية تعبّر عن لسان الحزب الوطني [1] . ونالت شهرة واسعة . وظلّت كذلك حتى حدثت ثورة عرابي (١٨٨٢) ، واحتل الانكليز مصر فأقفلت . وفي الطائف مقالات شتى في وصف سوء سياسة اسماعيل ومظالمه .

كان النديم في هذه المرحلة يقوم بدور الخطيب والصحفي الثائر، معبّراً عن شعور الشعب ونقمته على من يحاولون اخماد لهيب الوطنية المتأجج في الصدور .

واليك شيئاً من قوله في زعيم الثورة عرابي ورجاله :

« اننا بلسان الوطن واهله نثني على رجال الجهادية الأسود الضواري الذين يقطعون الليل سهراً موصولاً بالنهار على اقدامهم ، يطوفون الشوارع ويتخللون الازقة حفظاً للأمن وخفراً للأرواح والاموال والاعراض . ونضاعف الثناء ضعفاً بعد ضعف لحامي حومة الوطنية ، وقائد العصبة المصرية ، ومؤيد الشريعة

١) أسس هذا الحزب برعاية الامير سعيد باشا (حاكم مصر) وكان عرابي من مناصريه ، راجع خلف الله (قسم المذكرات ص ١٩ – ٣٩) ، ومباديء الحزب في الثائر العظيم لنجيب توفيق ص ١١٣ ، والثورة العرابية للرافعي ص ١٤٥ .

المطهّرة المحمدية ، جوهرة العقد العربي الهمام البطل المقدام احمد عرابي باشا ايده الله » .

الى قوله مشيراً الى حوادث الاضطراب : « انهـا لحوادث كلها عجائب وغرائب ، ومسرحيات قد أعدّت من قبل لكي تمثّل على مسرح مصر بعد ان أُلّفت في بريطانيا ، وكتب بعض فصولها في باريس ، والبعض الآخر في الاستانة »[1] .

فلمّا أخمدت الثورة دخل النديم مرحلة ثالثة من مراحل حياته ، وهي مرحلة التشرّد والتنكّر . فقد اضطر الى الفرار والاختفاء نحو تسع سنوات ، لا يستقر على حال ، مقاسياً آلام الغربة والخوف الدائم . واخيراً قبضت عليه السلطة وحكم عليه بالنفي الى اي بلد شاء غير مصر ، فاختار يافا حيث استقبل من علمائها وأعيانها بالتكريم والترحاب .

ولما توفي الخديوي توفيق وقام بالامر بعده عباس الثاني ، عفا عنه واباح له العودة الى مصر . فاستوطن القاهرة وفيها انشأ مجلة الاستاذ محولاً قلمه الى الاصلاح الاجتماعي .

وشام من الخديوي عباس ميلاً الى معاكسة الاحتلال البريطاني فاخذ يشدّ أزره بكتابته ويدعو الى الوقوف بجانبه . ولكن الانكليز تهددوا الخديوي . فلم يسعه الا الامتثال لرغائبهم واصبح غير قادر على حماية النديم ، فأقفل مجلته وأبعد الى يافا بعد ان دفعت له الحكومة اربعمائة جنيه ورتبت له مبلغ ٢٥ جنيهاً في الشهر على ان لا يكتب عن مصر شيئاً .

وبعد اربعة اشهر عاد الى الاسكندرية حيث اتصل بمندوب السلطان العثماني وشكا اليه امره . فأرسله مع توصية الى الاستانة . وفي الاستانة عين مفتشاً

---

١) صقر وشاهين ص ١٢٦
وقد ظل النديم على ولائه لعرابي حتى وعرابي منفي في (سيلان) وله في ذلك « رسائل كتبها الى عرابي تجدها في كتاب عبدالله النديم ومذكراته السياسية لمحمد أحمد خلف الله.

للمطبوعات بالباب العالي . وهنا احتكّ بأبي الهدى احتكاك الخصم بالخصم فألف في ذمه «المسامير» .

وفي سنة ١٨٩٦ توفيّ النديم في الاستانة فاحتفل بمشهده احتفالاً كبيراً سار فيه علية القوم وعلى رأسهم نزيل الاستانة يومئذ جمال الدين الافغاني الشهير .

هذه خلاصة سيرته كما تستخلص من اقوال الذين درسوا حيـــاته واحوال عصره .

عرف النديم عهود اربعة من حكام مصر : سعيد واسماعيل وتوفيق وعباس. فكان له موقف خاص في كل عهد. ويبدو ان سعيداً كان ذا رغبة في الاستقلال بملك مصر فأسس الحزب الوطني لهذا الغرض [١] .

جاء في مذكرات النديم السياسية التي نشرها محمد احمد خلف الله ما نصه : « المؤسس لهذا الحزب هو المرحوم محمد سعيد باشا لا يختلف عليه اثنان » . وبعد ان يذكر ما قام به من اصلاح في مصر . قـــال : « ثم دار في صدره الرحيب امر الوراثة الغريب شأن كل من تولى مصر من هذه العائلة »... فرأى ان ولده طوسون باشا الوحيد، لا ينال الولاية مع وجود العدد العديد، وكره ان يجدّ في سيره ، ليمهد الامر لغيره . ولم يجنح لمخابرة السلطان عبد المجيد ، لما بينهما من النفور الشديد » . الى قوله: «وبعد الاقدام والاحجام وطول التروي في هذا المقام ، سنح له ان يؤلف حزباً من ابنـاء البلاد ، يتوصل به الى بلوغ المراد » .

ومهما كانت غايته الشخصية فـان مسعاه في جعل مصر مستقلة وافقت هوى في افئدة الوطنيين وقد ناصر النديم هذا المسعى وتحمس له .

ولمـا مات سعيد وتولى الحكم اسماعيل وجرى منه مـــا جرى من استبداد واسراف بأموال الدولة ، نقم ذلك الاحرار منه (او الحزب الوطني) ووقف

١) وهو غير الحزب الوطني الذي اسسه بعدئذ مصطفى كامل .

النديم قلمه ولسانه لتقبيح اعماله والتشهير به. حتى اذا عزل وتولى الخديوي توفيق الحكم حاول اولاً ان يسير سيرة سعيد فيناصره الوطنيون ولكنه لم يلبث ان خضع لضغط اوروبا فضغط على الامة واستبد بالحكم ، فحدثت في عهده الثورة العرابية وكان ما كان من نتائجها كما ذكرنا آنفاً .

ثم ولي الحكم عباس الثاني وكان ذا شخصية قوية فحاول التخلص من الاحتلال الانكليزي ومالأ العناصر الوطنية الاستقلالية ، ولكن تهديد بريطانيا منعه من متابعة مساعيه الاستقلالية فخضع مرغماً لمطالبهم .

مواقفه الخطابية :

مما لا شك فيه ان عبد الله النديم هو احد رواد الخطابة الوطنية الحديثة وقد وهب في هذا الفن موهبة خاصة فكان يجمع بين طلاقة اللسان وحرارة الايمان وجرأة الجنان جمعاً يؤثر في نفوس السامعين . وأهم مواقفه ما يتصل بحالة وطنه العامة فقد صرف همه الى ايقاظ الامة اجتماعياً وسياسياً وتربوياً ، فأخذت فيها حركة كانت من العوامل الممهدة لنهضتها في القرن العشرين .

ومن الامثلة على مواقفه السياسية قوله من خطبة [1] القاها في حفل مشهود وقد وجهها الى عرابي وجنده : « وقد كفاكم الفخر انكم ملكتم زمام الحرية مع حفظ الارواح والاعراض ، بعد ان علمتم ان فرنسا اهلكت في حرب الباستيل عشرات الالوف من الارواح ، وضاعت مئات الالوف من الاموال . والتاريخ يشهد ان كثيراً من الجند تظاهر على مليكه . فمنهم من خُلع ومنهم من قتل . وانتم وقفتم بين يدي مليكنا وقفة المتأدب الطامع في كرم مولاه فلم تريعوا قلباً ، ولا خرجتم عن حدّ الادب ، لما تعلمونه من حب مليكنا للحرية، وسعيه في تقدم الامة وحفظ بلاده. وقد منحكم الطلب وهو عنكم راض. فأنعم باميرنا المعظم ، وانعم بجيشنا المؤدب المهذب . وبمثل هذه الآداب تحفظ

١) راجعها في خلف الله ص – ١٠٢ – ١٠٧

البلاد وتعمر » . ومن مواقفه الاجتماعية قوله من مقالة [1] . (ومقالاته تسودها النزعة الخطابية التي عرف بها) :

« يا بني الشرق ، أين احلامكم العظيمة وذكاؤكم البديع ؟ كفاكم من العار فقد الثقة فيكم وعدم الركون اليكم في اعمال وطنكم - كفاكم ما رميتم به على السنة الجرائد الافرنجية وبعض الوطنية من بعدكم عن مدارك العلوم والصناعة والادارة ... كفاكم ان اشغالكم وأمتعتكم واثاثكم يقدمها اليكم الغربي ويستنزف بها ثروة بلادكم وانتم لا تشعرون . كفاكم انكم لا تتوصلون الى العلوم الصناعية والرياضية الا بتعاليم الاجنبي وانتم غافلون . كفاكم انكم اتبعتم الخرافات حتي فسدت اخلاقكم وتكدرت افكاركم وصرتم لا تصلحون لادارة اموركم... كفاكم انكم صرتم في البيوت المتهدمة والحارات القذرة ولا يسكن القصور ويتمتع بنزهة البساتين إلا من عظم بما لديكم وانتم نائمون ... تتألمون من الفقر وانتم له جالبون . ارى فـَعـَلة باريس فتحوا صندوق اقتصاد فنما واثرى حتى صار اعظم بنك يوثق به . ونحن نقتصد في المعاش ، ونتوسع في الخمور والحشيش والقمار حتى فتحنا بنوكاً ولكن لغيرنا » .

والذي يبدو لنا من مراجعة خطبه ومقالاته ورسائله ان اسلوبه الانشائي كان في اول عهده تقليدياً يسوده التصنع سجعاً وزخرفة بديعية ، كقوله من رسالة بعث بها الى استاذه محمد العشري : « وكيف لا يكون لساني قوس البديع ، وكلامي السهم السريع ، وانت باريه وراميه - ام كيف لا يكون مقامي الحصن المنيع ، وقدري العزيز الرفيع ، وانت معليه وبانيه . فوجه جمال العلم انت غرّته ، وانسان عين الحلم انت قرّته وحاليه وجاليه ، وجنين العقل انت طرفه ، وكتاب الفضل انت صوته وطاليه وتاليه » [2] .

وعلى هذا النسق كل الرسالة . ومثلها في التصنع البديعي معظم رسائله

١) راجعها في الثائر العظيم ص ١٤٦
٢) خلف الله ص٣

الخاصة والاخوانية .

على انه لما احترف الصحافة واخذ يكتب المقالات للجمهور تحولت كتابته فيهـا الى الاسلوب الصحفي المرسل ، كما تحولت خطبه العمومية ، فأصبح له اسلوبان : واحد تقليدي متصنع يشيع في ترسله الفني وخطبه الدينية ، وآخر متجدد يشيع في كتابته وخطابته العمومية .

ومن امثلة ترسله الفني رسائله المسماة بـ «رياض الرسائل وحياض الوسائل». قال في مقدمتها : « فصار مجلسنا ألطف من جوّ مرّ به نسيم ، واطرف من ثغر بسيم ، وارق من خفَر بكر ، وادق من معنى فكر ، تترامى علينا الافراح ترامي الفراش على النور ، ويلازمنا الانس ملازمة السير للبدور » .

وكل هذه الرسائل على هذا الطراز ومثلها او قريب منهـا خطبه الدينية . وهاك للتمثيل قطعة مسجعة وقد بنى فواصلها البعيدة على قـافية واحدة قـال : « يا ايهـا الذين آمنوا اتقوا الله وذروا ما بقي من الربا ان كنتم مؤمنين فان لم تفعلوا فاذنوا بحرب من الله ورسوله» فيا له من وعيد يصم الصماخ. الذين يأكلون الربا لا يقومون الا كما يقوم الذي يتخبطه الشيطـان من المس يوم يخرجون من الاجداث ويذكرون ما فعلوا بالامس ويأكلون النار كما اكلوا الربا في البيوت والاكواخ . الربا وان كثر فهو الى قلّ كما قـال صاحب المعراج فلا تغرنكم ثروة المرابي فانهـا ابتلاء واستدراج وانما يشترك فيه الآخذ والمعطي والشاهد والواسطة والنساخ .

وعلى نسق خطبه الدينية بواكير خطبه العمومية كقوله يدعو الى الاتحـاد وحب الوطن والولاء للخديوي : « فاستميتوا رحمكم الله في حفظ البلاد، ودعوا التنافر والزموا الاتحاد واجعلوا خديويكم علماً يهتدى بنوره وقطركم حصناً يُحتمى بسوره . ولا تغمضوا عن كيد الاعادي عيناً ، ولا تهابوا في حفظ الاوطان حينـاً ، والزموا السكينة في حركاتكم ، ولا تسعوا في تنغيص حياتكم . ولا تجلبوا على الامة بالتهور شراً ، ولا تحدثوا في البلاد كراً وفراً . واحفظوا

للنزلاء حقوق تجارتهم ، واسمعوا في المجالس حسن عبارتهم . ولا تأكلوا لتـاجر مالاً ولا تسيئوا لاجنبي حالاً » .

على ان خطابته في عهوده المتأخرة قد غلب عليها التحرر من قيود السجع والبديـع . وها هو في كلمة له موضوعها « لو كنتم مثلنا لفعلتم فعلنا » يقول :

« فالله الله ايها المصريون في انفسكم واميركم واعراضكم واموالكم وبلادكم . جـاهدوا انفسكم في توحيد كلمتكم . وارجعوا بمحافلكم عن ابواب اوروبا وفتنتها واخدموا بلادكم بظهوركم امة واحدة واقفة على قدم الخدمة لاميرها ، والمحافظة على حقوقها . ولا تظنوا انكم عاجزون عن ارجاع مجدكم القديم . فانما انتم بشر مثل رجال اوروبا . ولكنهم تجمعوا وافترقنا ، وعرفوا حقوقهم وجهلناها » .

وقد وصف نجيب توفيق في كتابه « الثـائر العظيم » موهبة النديم الخطابية فقال : « كان النديم اول خطيب ظهر في مصر (اي في عهد النهضة الحديثة) . وكانت له مواهب خارقة في الخطابة من قوة التعبير وانطلاق النفس ... تتدفق الالفاظ من فمه كتدفق النهر ، وتسري بين ثنايا معانيه قوية كالنار » ... الى قوله « وقد خطب النديم في كل مكان – في المدرسة وفي المنتدى ، وفي القرية وفي المدينة ، بين الاقطاب ورجال الامة وبين العـــامة – خطب في افراحهم وبيوتهم وبين جموعهم . كان محبوباً بين الجماهير مؤثراً فيهم . وقد اشتهر في عهد الثورة العرابية فكان بوقاً للعرابيين ولساناً لهم بل كان بمثابة وزير الدعاية في عهد الثورة العرابية » [١] .

وتحقيقاً لقول هذا الكاتب فيه راجعنا معظم خطبه ومقالاته فشعرنا بما يزكي هذه الشهادة فيه . فالنديم بحق قد لقب بخطيب الثورة العرابية. على ان ثورته لم تكن سياسية فحسب فقد كان ايضاً ثائراً على الاوضاع الاجتماعية والاخلاقية التي رأى وطنه يتخبط بهـــا فحارب فساد الاخلاق والانكباب على الملاهي ،

١) الثائر العظيم ص ١٦٨–١٦٩

وخرافات الدجالين وفشو الجهل ، وطالب بتعليم المرأة وتهذيبها ، والانصراف الى ما يرقي الامة ويجعلها اهلاً لان تسير في موكب الامم المتمدنة .

ومهما قيل فيه، فان نزعته الى الحرية والكرامة الوطنية بارزة في خطبه ومقالاته – كان يطالب بحياة شعبية قائمة على النظام الدستوري . وما تحمسه للثورة العرابية الا لانها كانت تطالب بالحكم النيابي والكرامة الوطنية . ولا ننس ان الذي أثار العرابيين في اول الامر كان شعورهم بأن الوطنيين من المصريين في الحكومة والجيش كانوا ممتهنين بالنسبة الى الوطنيين من اتراك وجركس وسواهم .

هذا الشعور كان محركاً لذوي النفوس الابية ودافعاً لهم الى الثورة . والثورة وان أخمدت ، لم يذهب تأثيرها من النفوس . وسنرى كيف عادت فظهرت على يد خطيب آخر هو زعيم الحزب الوطني الجديد مصطفى كامل .

اديب اسحق

١٨٥٦ — ١٨٨٥

وُلد هذا الكاتب الخطيب في دمشق وتوفي في «الحدث» قرب بيروت وهو لم يكد يبلغ الثلاثين من العمر . وليس لنا من اخباره وآثاره غير ما جمعه اخوه عوني اسحق في كتابه «الدرر» . وهذا الكتاب يشمل : ١) ترجمة حياته وما قيل فيه. ٢) مقالاته وخطبه . ٣) منظوماته . ٤) روايتين ترجمها عن الفرنسية هما : اندروماك وشارلمان .

اما مؤلفاته الاخرى فقد لعبت بها يد الاقدار فلم يصلنا منها شيء يذكر وهي :

رواية الباريسية الحسناء وقد ترجمها عن الافرنسية .
كتاب نزهة الاحداق في مصارع العشاق .
تراجم مصر في هذا العصر .
رواية غرائب الاتفاق وبعض روايات اخرى تمثيلية .
هذا فضلاً عن الجرائد التي اصدرها وحرّرها في مصر وسيأتي ذكرها .

والناظر في ترسّل اديب اسحق لا بد له من الوقوف تجاه ثلاثة امور :

ثقافته ، وعقيدته ، وادبه .

وها نحن نتناول كلاً من هذه الثلاثة معتمدين في ذلك ما وصلنا من اخباره وآثاره .

ثقافته وعمله الادبي : لم ينل كاتبنا من الثقافة المدرسية غير ما درسه من العربية والفرنسية في معهد للآباء العازريين بدمشق . فقد اضطر ان يترك المدرسة وهو حدث للعمل في مدينة دمشق . وفي نحو الخامسة عشرة من عمره انتقل الى بيروت ليساعد والده في عمله بالبريد هناك . على انّ ما فاته من التحصيل المدرسي اعتاض عنه بما حصّله هو نفسه من مطالعاته واختباراته . وهكذا نراه في السابعة عشرة يتولى تحرير جريدة التقدم ، ويلفت اليه الانظار لحسن بيانه واناقته في الانشاء .

ولم يطل به الزمن حتى قصد مصر . وهناك قدّر له ان يدخل حلقة جمال الدين الافغاني . فلازمه واستفاد كثيراً من دروسه وتوجيهاته (١) .

وفي سنة ١٨٧٧ (وكان في الحادية والعشرين) أنشأ في القاهرة جريدة اسبوعية سمّاها « مصر » . ثم انتقل بها الى الاسكندرية ، واصدر هناك ايضاً جريدة يومية اسمها «التجارة» . وكان يشاركه في تحرير الجريدتين اديب آخر هو سليم النقاش . ولما كان منهج الجريدتين اصلاحياً وكثيراً ما يتناول الحكومة بالنقد ، فقد امرت السلطة بتعطيلها . فترك « اديب » مصر سنة ١٨٨٠ الى باريس حيث اقام تسعة اشهر اعاد في خلالها اصدار جريدة مصر باسم « القاهرة » .

وفي باريس احتك بكثير من رجال فرنسا ، وحضر بعض جلسات مجلسها النيابي ، فسمع خطباءها ينتقدون الحكومة ، ورأى كيف يحملون على ما يرونه من اخطائها ، وكيف يحاولون توجيه سياستها . فأثر ذلك فيه وزاده

١) الدروس ٢٢٢ .

اندفاعاً في كتابة المقالات الاصلاحية ، وفي نقد ما كان يراه من خلل في المجلس النيابي المصري ، وتقصير في واجباته الوطنية .

يقول نجيب توفيق في كتابه الثائر المظيم (مصر ١٩٥٧) ص ١١ عن بعض من حملوا ونشروا مبادىء الثورة الفرنسية في مصر :

« اما اديب اسحق فكان شاباً سورياً نهل من الثقافتين العربية والفرنسية ما اعدّه لان يكون صحفياً ناجحاً واديباً من الطراز الاول . اتى الى مصر وعاش فيها حيث نشر اكثر صحفه ثم نفي منها الى باريس حيث نشر جريدة مصر القاهرة ، وفيها تحدّث الى المصريين عن الثورة الفرنسية ووفّق في افهام المصريين بعض معاني الثورة بأسلوبه الرائع البديع الذي يفيض بالقوّة والحياة».

ومما يؤسف له انه عاش في باريس مستسلماً لهوى الشباب دون مبالاة بصحته . فلم يلبث ان اصيب بمرض السل واضطر ان يعود الى بيروت للاستشفاء . ولكنه عوضاً عن ان يعمد الى الراحة التامة كما نصحه الاطباء ، عاد الى العمل في جريدة التقدم وبقي يحررها سنة من الزمان .

وفي سنة ١٨٨٢ دعاه وزير مصر شريف باشا فلبّى دعوته . وكان اديبنا يعرف التركية فضلاً عن العربية والفرنسية ، فعيّنه شريف باشا ناظراً لقلم الانشاء والترجمة ، ثم عيّن ايضاً كاتباً لمجلس النوّاب ، ومنحه الخديوي لقب البكوية . وفي اثناء ذلك اعاد اصدار جريدة « مصر » ، وظل يحرّرها مدة ثم تركها لأخيه ليتفرغ هو لمهام وظيفته .

في هذه السنة (١٨٨٢) نشبت الثورة العرابية . فكتب اديبنا ينتقد القائمين بها، واضطرته الاحوال يومئذ ان يعود الى بيروت. وهنا ازدادت صحته سوءاً. فأشير عليه ان يقصد مصر للاستشفاء ففعل ، ولكنه لم يمكث فيها الا اياماً عاد بعدها الى بيروت ، واقام خارجها (في الحدث) طلباً للراحة والصحة . وهناك عاجله الاجل وهو في ربيع حياته .

خلقه وعقيدته : يؤخذ من شهادات الذين عرفوه، وممّا نحصّله من كتاباته ان كاتبنا كان عصبي المزاج سريع الانفعال مع توقد في الخاطر ونزعة شديدة الى الحرية والكرامة الذاتية . وبحكم عمله الصحافي كان له اهتمام بالشؤون العامة والاحوال السياسية . ويمكن تحليل عقيدته الى عناصر ثلاثة :

١ – **دعوته للحرية والاصلاح** – قضى اديب اسحق كما رأينا معظم حياته الادبية في مصر موجّهاً قلمه الى محاربة الفساد في الادارة الحكومية ، منتقداً موقف المجلس النيابي وتقصيره في القيام بواجباته ، وخنوعه لاستبداد السلطة . وكان الوزير رياض باشا من اكثر الناس تعرّضاً لسهام نقده . ولم يزل يرميه بتلك السهام المؤلمة حتى امر بتعطيل جريدتيه «مصر» و «التجارة». وقد مرّ معنا ذكر رحيله الى باريس ومواصلته هناك الحملة على من كان يعتبرهم اعداء الحرّية والاصلاح . وهاك مثلاً من حملاته على رياض باشا بعد ان اصدر جريدته « القاهرة » في باريس قال : « هذه صحيفة « مصر » طواها الاستبداد فماتت شهيدة (اي في مصر) . ثم احيتها الحرية فعاشت سعيدة (اي في باريس) ... حاول احدهم (رياض باشا) اطفاء نوري ، وابى الله الاّ ان يتم نوره وان كره الظالمون . اماتني بدعوى الحرص على الخواطر ان اثيرها الى الفتنة ، بل خاف ان اكشف الحجاب عن حقيقة احواله ، فزعم اني ناصبته الشر نفرةً منه وتشيعاً لسواه . وما انا في شيء من ذلك . فاني اعزّ نفساً وانبل قصداً من ان تستميلني الاشخاص . وانما اميل مع المقاصد . فما كان منها ملائماً للشرب الذي احسبه حقاً . « فذلك من دون المشارب مشربي » ، وما كان مغايراً للمبدأ الذي اراه عدلاً ، « رميت به من حالقٍ رميَ حانقٍ » [١] .

وكان كاتبنا من الذين تأثروا بالحركات الشعبية في اوروبا ، وخصوصاً بما احدثته الثورة الفرنسية من تقويض لنظم الاستبداد والاقطاع ، فأصبح من

١) الدرر ص ١٤٣ و ١٤٤ .

دعاة الحرّية يندّد بكل ما يقف في سبيلها ، ويحارب بقلمه كل عدوّ لها . وقد ذكرنا آنفاً شيئاً عن اقامته في باريس ، ومـا شعر به هناك من تمتع الفرنسيين بحرية التعبير عن افكارهم . فلا عجب اذا رأينـــاه يحمل على نظم الحيـــاة في الشرق ، كما يتجلى لنا في خطبة له يذكر ما وصل اليه الشرقيون من سوء الحال فيقول :

« قد رأيتهم (أي الشرقيين) شهداء طاعة عمياء ، ينحرهم خبثاء النفوس على مذابح الجور تزلّفاً لطواغيت الفجور . فوقفت بربع العدل منادیـــاً بـأهل الانسانية يا لثارات الضعفاء ! » . وكـأنـه يسمع شهداء الحرّية يخاطبونه من اغوار القبور ويقولون له ان الحرّية لا تنمو الا على دماء الابطال من انصارها، فيلتفت الى اولاد الشهداء الاحياء. وهنا فلأنقل ما يرويه لنا بقلمه: «فعدت الى بقـايا الضحايا احرّك في عروقهم دم الغيرة ، وأبث في صدورهم روح العزم ، وانشر من همتهم ما طوته الايام في قبور الاوهام ، بما اذكر من اخبار الامم، وما أظهر من اثار ذوي الهمم. لعلهم يستنجزون موعد الحق بمراغمة اعدائه الذين تمرّدوا وسعوا في الارض مفسدين ولعلهم يفلحون » .

يقول ذلك وهو ينظر الى الثورة الفرنسية ومـا قام به رجالها : « وكيف تسنى لهؤلاء القوم ان يخرجوا من مضـائق الظلم ، ومآزق العبودية » . الى قوله : « فانتقلوا من الضعف الى القوة ، ومن الذل الى العزّ ، ومن الرقّ الى الحرّية » [1] .

وفي مكان آخر يذكر هذه الثورة ــ كيف ظهرت وكيف حملت لواء الحق للشعوب . ويصفها بأنهـا شعلة اصلاح مرت في اوروبا من جـانب الغرب الاقصى وكنت في ما وراء المانش اياماً واعواماً « حتى اعدت لها طريق البروز فظهر ضرامها بعد الخفـــاء .... وصدمت قوة الاستبداد فزلزلتها ، ودفعت سطوة التقليد وضعضعتها ، فتصدى لها اعوان الرق وانصار العبودية ، وما آلوا

١) الدرر مقتبسة ص ١٦٣ و ١٦٤ و ١٦٥ .

في قتالها جهداً . فلقيتهم وهي ترى الموت في الحرية حياة ، والحياة في الرق موتاً الخ [1] .

هذه التأثرات التي كانت تطغى عليه وهو في باريس كانت تقض مضجعه كلما فكر في حالة وطنه الثاني مصر فيئن قائلاً : « وانا تحت سماء الانصاف على ارض الراحة بين اهل الحرية ، اذكر انين قومي في مجالس الظلمة وتحت سياط الجلادين فأنوح نوح الثاكلات، وارى علائم النعمة في معاهد المساواة فاذكر شقاء مصريي في ربوع الظلمة فاذرف الدمع ممتزجاً بسواد القلب » [2] .

٢ ـ **ولاؤه للجامعة العثمانية** ـ كانت السلطنة العثمانية في عهد أديب اسحق على شفا الخراب . فليس في ادارتها او اقتصادياتها مـا يبشر بتحسن اسامي يعيد لها سالف مجدها . وقد شهد كاتبنا حكم السلطان عبد العزيز والسلطان مراد . وكان في العشرين من عمره يوم تبوأ عرش السلطنة عبد الحميد الثاني وعـاش ٩ سنوات كأحد رعاياه .

ومـا لا شك فيه انه شهد عبثه بالدستور ونظام الشورى الذي اعلنه ايام مدحت باشا واقسم على المحافظة عليه . وشعر بشوائب الادارة وبالاخطار التي كانت تهدد الدولة . ومع كل ذلك لم يتنكر للولاء لها ، ولم يفقد ايمانه برعويتها الجامعة لمختلف العناصر والطوائف، وبأنها هي القوة الوحيدة يومئذ التي تستطيع ان تجعل من شتى العناصر والطوائف وحدة قادرة ان تصمد في وجه الاستعمار الاجنبي .

ولقد نستغرب ذلك من شاب مثله كان نزاعاً الى الحرية كارهاً للاستبداد ، ولم يكن في نظـام الدولة او سياستهـا يومئذ مـا يحبب الاحرار بهـا ويدعوهم الى الولاء لها . ناهيك بالدعايات التي كان يقوم بها اعداؤها في الخارج

١) الدرر ص ١٠٣
٢) الدرر ص ١٥٥

وفي الداخل . ولكنها حقيقة نقررها فقد ادركنا اواخر العهد الحميدي وعرفنا كثيرين من المتعصبين له والمتعصبين عليه . وكنا نسمع من بعض أولي الرأي فينا قولهم ان الرابطة العثمانية هي الضمانة الوحيدة لحماية البلدان العربية من الاستعمار . يقولون ذلك مع اعترافهم بفساد أحكامها وتأخر احوالها .

فلا غرابة ان يكون اديب اسحق ممن كانوا يرون ذلك ويؤمنون به . وقد شرح عقيدته السياسية بقوله :

« فمقصدنا السياسي تأييد الوحدة العثمانية من طريق التأليف بين قلوب العثمانيين، والمدافعة عن مصالحهم من غير مبالاة باختلاف احوالهم وما يعتقدن . ولنا على وجوب ذلك حجة بالغة ، وعلى منفعته دليل صريح. فالوحدة العثمانية واجبة ..... وليس للامة الداخلة تحت النسبة العثمانية من جامعة ممكنة غير تلك الوحدة المذكورة .... وهذه الوحدة نافعة لما يلزم عنها من بقاء الاستقلال . والاستقلال حياة الامم » الخ [1] .

ويقرن الولاء للجامعة العثمانية بالغيرة على الكرامة الشرقية . فقد كان اديب اسحق شديد الغيرة على شرقيته ، يؤلمه استبداد الغربيين ، وما لهم من امتيازات في السلطنة العثمانية ليست لابنائها انفسهم . وهو في كثير من اقواله يهيب بأبناء الشرق وبمواطنيه خاصة الى احترام انفسهم ، وتحطيم قيود الذل التي تغلهم عن التقدم . ومن نفثاته الحرّى في هذا المعنى مقال موضوعه : «أوربا والشرق» جاء فيه :

«قضى على الشرق جهل عامته، واستبداد خاصته ، وخيانة زعمائه ، وتعصب رؤسائه ، ان يهبط بعد الارتفاع ، ويذل بعد الامتناع ، ويكون هدفاً لسهام المطامع والمطالب ، تعبث به ايدي الاجانب . فمنهم من يُغير عليه بحجة الغيرة على الانسانية ، ومنهم من يتطرق اليه بدعوى اقامة امر المدنية . ولم نرَ منهم

١) الدرر ص ٣٧١

من صدق في دعواه ، بل كلهم تابع في ذلك قصده وهواه » [1] . ويستمر في مقاله على هذا النسق مهيباً بالشرقيين ان ينتبهوا من غفلتهم وينبذوا عنهم مـــا يحول دون تقدمهم واتحادهم ، والا اصبحوا عبيداً اذلاء للاجانب ، لا فرق في ذلك بين كبير وصغير او غني وفقير .

وله مقالة كتبها سنة ١٨٧٨ يصف فيها ما للافرنج من امتيازات في مصر ، ويحرض الامة والحكومة على نزع هذه الامتيازات من ايديهم ، بل يطلب الى الاوروبيين انفسهم ان ينكفئوا عن الطمع في الأثرة ، ويعدلوا عن الحرص على الامتياز، فقد بطل حقهم بعد ان تقدمت الامة في ميدان العلم وتنظمت احوالها الادارية والقضائية [2] .

قد يقـال ان اديب اسحق في حملته على الفرنجة وساستهم ، والمطالبة بنزع امتيازاتهم التي يتمتعون بهـــا في البلاد العثمانية (وخصوصاً مصر) يناقض نفسه بنفسه . ففي كل كتاباته دليل على انه من دعاة الحضارة الغربية ، وطالما اهاب بقومه ان يتشبهوا بالغربيين، ويقتبسوا أنوار علومهم، ويسيروا في هدى نظمهم. قلنـا لا تناقض في ذلك . فهو لا يقصد بالدعوة للغربيين الا مجاراتهم في سبيل الحضارة والنظام ، لا تبوبئهم في الشرق سدة الأحكام . ان غاية دعوته ان ينفض الشرقيون اي مواطنوه عنهم مـا نسجته عليهم الايام من تقاليد بالية ، وان يصبحوا امة موحدة الكلمة ، مستنيرة بنور العلم ، فيصلح حالهم ويكون لهم شأن بين الامم .

ولعل ذلك مـــا دعـاه الى التنديد بثورة عرابي التي قامت دون استعداد ففتحت السبيل لدخول الاجـــانب واحتلال وادي النيل حتى قال من قصيدة طويلة يصف فيها حوادث تلك الثورة ويشير الى من قاموا بها [3] :

---

١) الدرر ص ١٤٤
٢) الدرر ص ١٢٠
٣) راجعها في الدرر ص ٥٠٥ - ٥٠٩

فهمُ اللصوص وان هم قد اوهموا ان ليس ما ارتكبوه غير جهاد
وبلادهم قد نالهـــا من عـارهم مـــا لم يحقْ في عهدنـا ببلاد

ونترك لمؤرخي الثورة ان يحكموا هل كان «اديب» مصيباً ام مخطئاً في تنديده بالثورة ورجالهـا . ولكننا نقرر انه على كل حـال كان غيوراً على امته الشرقية، لا يخشى لومة لائم في مقاومة ما يراه وبالاً عليها وتنقصاً من كرامتها. ومن رام ان يعرف حقـاً روح كاتبنا فليطالع دفـــاعه عن الحزب الوطني (او الاستقلاليين) في مقاله ص ١٦٨ من كتاب الدرر .

٣ ـ **غيرته العربية** : في عهد اديب اسحق كان النـاس في الشرق العربي قلما يميزون بين العثمانية والشرقية أو العربية ، بل قلما كانوا يفكرون بالفرق بين الولاء للعرش العثماني والولاء للقومية العربية . ولم يكن كاتبنا مختلفـاً عنهم في ذلك .

كان يؤمن بالجامعة العثمانية ويدعو لأن تكون جامعة راقية قائمة على اسسٍ ثابتة من النظـــام والعلم والمساواة بين العناصر . ولكن ذلك لم يُنسِهِ قوميته الخاصة ، ولم يُغمض عينيه عن ماضيها وحاضرها . فهو اذ ينظر الى العرب في التاريخ يتجلى له مـا كان لهم من امجادٍ ومآثر فيقول مفاخراً : « شعلةٌ سرت من الحجاز فأنارت الشام والعراقين، ومصر والمغرب والهند ، واتصلت بأطراف الفرنجة فملأتها نوراً وناراً . فهي بنورهـا تستضيء ومن نارهـــا تقتبس »[1] .
ويستمر في مثل هذا الوصف فيذكر فتوح العرب وقهرهم لدولتي الفرس والرومان واستيلاءهم على شتى الاقطـار والبلدان . ثم يدعو العرب الى توحيد صفوفهم لاصلاح حالهم وتعزيز شأنهم . وهكذا يتحمس لقوميته العربية ويرجو ان تسير في طريق التقدم والفلاح حتى يعود للعرب ما كان لهم من امجاد عرفها التاريخ واضاعوها الآن بالجهل والتخاذل والتمسك بما بلي من التقاليد والعادات.

١) الدرر ص ٢٠٠

وقد وقف قلمه على تنبيههم الى ما فيه صلاحهم ، وتوجيههم الى مـــا يؤول الى عزهم وقوتهم بين الامم ، بحيث يقفون ازاء الاجانب وقفة الكرامة ورفعة الشأن . اسمعه يذكـّرهم بالسلف الصالح ثم يهيب بهم الى جمع الكلمة فيقول : « ألستم في الارض التي أقلتهم ، وتحت السماء التي اظلتهم ؟... والآن فما للحجاز محجوز الانوار، وما للشام مشؤوم الاحوال، وما لمصر مقرونة الطالع بالعُسر، وما للعراق مؤذن العز بالفراق ؟ » الخ الخ ... الى قوله : « ألم يكن في كل هذه الاقطار نفر من اولي العزم تبعثهم الغيرة والحمية ، على جمع الكلمة العربية، فيتلافون احوالهـــا قبل التلاف ، متظاهرين متوازرين كالبناء المرصوص ، او كصخور تلاحمت فصار ركامها جبلاً حصيناً لا تؤثر فيه العواصف ولا تضعضعه الزلازل » ... ثم يلتفت اليهم مشجعاً فيقول :

« أيحسبون ذلك الصوت لا يكون له صدى ، ام يخافون ان يذهب ذلك الاجتهاد سدى ؟ ام لا يعلمون ان مثل هذا الاجتماع منزّهاً عن المقاصد الدينية (اي الاغراض المذهبية) منحصراً في العصبة الجنسية والوطنيــة (أي الغيرة القومية) مؤلفــاً من اكثر النِحل العربية ، يزلزل الارض اضطراباً ويستميل الدول جذبـــاً وارهاباً . فتموه للعرب الضالة التي ينشدون ، والحقوق التي يطلبون »[1] .

اجل كان اديب اسحق صادق الغيرة على الجامعة العثمانية والكرامة الشرقية، وكذلك كان ايضاً وفيّـــاً لقوميته العربية . ومن العسير جداً ان نفصل بين هذه النزعات الثلاث في نفسه .

اسلوبه الانشائي :

نشأ اديب اسحق في عهدٍ كان لا يزال تحت سيطرة الاسلوب التوسلي القديم . وكان رواد نهضتنا قد جروا شوطـاً بعيداً في احيـــاء الادب واللغة

١) الدرر ص ٢٠٠

وتحريرها من شوائب الركاكة التي لحقتهـا في عهد الانحطاط الذي امتد حتى اوائل القرن التاسع عشر. على انهم سلكوا في ذلك سبيل الصنـاعة البديعية. فحافظوا على السجع والمحسنات اللفظية ، وقلدوا في انشائهم ادباء القرن الرابع والخامس (للهجرة) ومـا بعدهما كابن العميد ، وبديع الزمان ، والحريري ، والقاضي الفاضل ومن جرى مجراهم في الترسل او انشاء المقامات .

فلما نبغ كاتبنا في النصف الثـاني من القرن المـاضي كانت تباشير التجديد قد اخذت تظهر بواسطة الصحافة ، اذ كان همّ اصحابها ايصال مـــا يكتبونه الى الجمهور عن اقرب الطرق الى أفهـامهم . وهكذا اخذ الانشاء العربي يتحول تدريجياً من البديعي المتكلف الى السهل الذي لا كلفة فيه . على ان هذا التحول لم يكن الجميع موفقين فيه .

وهنـا يظهر فضل اديب اسحق الذي استطاع ان يجمع في انشائه بين الأناقة والسهولة ، جمعاً طبعه بطابع خاص عُرف به ، وشُهد له بقوته . وقد وصفه هو فقال : « رأيت من الواجب عليّ ان اصرف العنـاية والاجتهاد الى تهذيب العبارة وتقريب الاشارة ، لتقرير المعنى في الأفهـــام من اقرب واعذب وجوه الكلام ، وانتقاء اللفظ الرشيق للمعنى الرقيق ، متجنباً ما كان من الكلام غريباً وحشياً او مبتذلاً سوقياً . فـان التهافت على الغريب عجز ، وفساد التركيب بالخروج عن دائرة الانشاء داءٌ اذا سرى في القراء والمطـالعين ادى الى فساد عام ، واغلق على الطلبة معاني كتب العلم . والتنازل الى ألفاظ العامة يقضي بأماتة اللغة واضاعة محاسنها »[1] .

قلنـــا ان له طابعاً انشائياً يعرف به . ولهذا الطابع خصائص يكاد يلمسها الذي يطالع كتاباته ، ابرزها ما يلي :

---

١) الدرر ص ١٠٨

١ ـ نزعته الخطابية : فقد كان شاباً سريع الخاطر ، فصيح اللسان ، مالكاً لازمّة الكلام . وكان فوق ذلك ذا طبع حماميّ ، واحساس مرهف. فليس عجيباً ان يكتب كما يخطب فيخرج الكلام من قلمه ذا ايقاع مؤثراً يكثر فيه السجع دون تكلف او تصنّع كقوله من فصل موضوعه التردّد [١] :

«ووال الزمان اذا والاك ، وخذ منه ما اعطاك . فهو ملول يألف الضدّ، وبخيل لا يأنف الردّ . وانتهز فرص الحوادث فالعمر وان طال ، اقصر من ان يسع المطـــال . واعتبر بالذين يقتلون الايام بين الاحجام والإقدام ، ويؤجلون للغد ما امكن بالامس ، الى ان يمتنع الإمكان ، بما يحول دونه من مصاعب الزمان ، كيف تلاشت احوالهم وساء مآلهم ، فصاروا الى الضعف بعد القوّة ، والهرم بعد الفتوّة » .

ومن هذا الطراز مـا جاء له في مقال كتبه في فرنسا تحت عنوان « نفثة مصدور » ، قال :

« وانا تحت سماء الانصاف بين اهل الحرّية ، اسمع ألحاناً في مجلس العدل ، فأذكر ابني قومي في مجالس الظلمة وسياط الجلاّدين ، فأنوح نوح الثاكلات » . وهكذا يصيح كأنه على ذؤابة منبر وهم جلوس امامه : « يا قوم ظلمتم غير معذورين ، وصبرتم غير مأجورين ، وسعيتم غير مشكورين . فهلكتم غير مأسوف عليكم . تصبرون على الظلم حتى يحسبه النـاظر عدلاً ، وتبتسمون للقيد حتى يظنه الناقد حلياً ، وتخفضون للظالم جناح الذل حتى يقول من يراكم مـا هؤلاء بشر — إنْ همُ الا آلة سخرت للناس يفلحون بها الارض ويزرعون » الخ الخ [٢] .

ويتحدث لقومه عن ضرر التشبّه (اي تقليد الفقير للغني وتظاهر (الانسان بما ليس فيه) فيقول من فصل : « لقد مرت هذه العلّة في ديارنا بين الاكابر

١) الدرر ص ١٨٢ .
٢) الدرر ص ١٥٥ .

والاصاغر والاواسط . فضاعت بها الاموال ، وساءت الاحوال ، وفسدت الاخلاق ، وضاقت الارزاق . وصار اكثرنا كالقبور المكلسة بيضاء الظاهر وليس في باطنها غير الدود»[1] . ومن اراد زيادة في التمثيل على نزعته الخطابية فليراجع دولة العرب (ص ٢٠٠) المسألة الكتابية (١٨٠) عيشة الخلاء (٣٣٨) خطرات ألباب (٤٦٢) تأبين البستاني (٤٢٢) ضيف قليل الحياء (٣٢٨) والحزب الوطني (١٦٨). وغير ذلك من الرسائل والخطب. والواقع ان رسائله لا تختلف عن خطبه فكأن صفحات الجرائد عنده منابر يخاطب منها جماهير القراء . ولذا يشيع فيها ما يشيع في الخطب بما يراد به اثارة العواطف والتلطف في ضروب الاقناع . ويظهر ذلك بالاكثر في الثانية من خصائصه الانشائية وهي :

٢ ـ نزعته البيانية . وقد ذكرنا انه نشأ في عهد كان لا يزال فيه للفن البياني سيطرة واسعة . على ان كاتبنا كان ذا ذوق انشائي لطيف . ففنه البياني لا يشعرك بالتكلف الثقيل الذي هبط بالانشاء في عهد الانحطاط ، بل هو نوع من الاناقة المستحبة . ولا ينكر انه قد يهوي احياناً الى ما يستثقل من الصناعة الانشائية ، ولكن ذلك قليل عنده . ففي لطف طبعه ما يقيه كثرة الزلل والتردي . ومن امثلة بيانه قوله واصفاً الظلم واثره :

« هو الظلم حتى تقطر السماء بلاء ، فتنبت الارض عناء . فلا تجد على سطحها الا جسوماً ضاوية في ديار خاوية ، وقلوباً تحترق ، في بلاد تحت رق » [2] .

ويقول من فصل في وصف جبال لبنان : « ومن فوق ذلك جبال لبنان ، تستهزىء بعاديات الزمان . لزم رؤوسها الشيب فازدادت جمالاً ، فنادى لسان حالها رب زدني كمالاً . فكان في هامها الشتاء ، وفي عنقها الربيع ، وفي قلبها

---

١) الدرر ص ٤٢٤ .
٢) الدرر ص ١٩٤ .

الخريف ، وتحت اقدامها الصيف ، والبحر من وراء ذلك يحدجها بعينه الزرقاء، فتردهُ صخورها الصمّاء ، فيعود راغياً وجداً ، مزبداً حقداً. يدفع سابق موجه اللاحق انكسارا ، كما انهزم الجيش فارتدت طلائعه فراراً» [1] .

ومن وصفه لدولة العرب وفتوحهم الاولى : « فسارت اسود رجالهـــا على طيور خيولهـــا تطوي الصحارى وتقطع الفدافد ، حتى نطحت بروقي عزمها شُرفات الايوان ، ونسرت من الشرق نسر الرومـــان ، ونشرت على مصر اعلامها ، وضربت في الاندلس خيامها » [2] .

ونختم هذه الامثلة البيانية بوصفه لمصر اذ قال : «ومصر لا احاول لها وصفاً شجرة الآمال ودوحة الاماني لدى كل من اقلّته تربتها العسجدية ، واظلّته سماؤهـا النقيّـة هي همزة الوصل بين الغرب والشرق ، بين المجد القديم والجدّ الحديث ، بين العظمة الراقدة تحت ظلال الكفاف ، والهمّة الثائرة تحت لواء الطمع (الطموح) » [3] .

واننا نحيل الراغب المستزيد من مثل هذه الطرائف البيانية الى ما يجده من دقة وصفه وتحليـــله في وصف زلزلة سافز (ص ٣٩٢) والحيـــاة السياسية (٤٤٥-٤٥٦) والدرهم المزيّف (٣٢٧) وأوروبا والشرق (١٤٤) والجاسوسية (٢٤٠) وقتيل هواه (٣٥٤) ووداع ولقاء (٣٧٩) وعيشة الخلاء (٣٣٨) الى آخر مـــا هنالك مما اطلق فيه للخيال العنـان ، فجال على مداه في ميدان البيان .

هذا على سلاسة في ألفاظه ، ومتانة في عباراته . فليس فيها وحشيّ غريب، ولا سفساف تبذل . واذا وجد شيء من ذلك فهو من النـادر النـادر الذي لا يقاس عليه .

---

١) الدرر ص ٣٣٩ .
٢) الدرر ص ٢٠٠ .
٣) الدرر ص ٤٧٣ .

بقي ان نقول ان نزعته الخطابية والبيانية تظهران بالاكثر في اقواله العاطفية التي يرسلها او يلقيها عن تأثر بموضوع من المواضيع التي تحرّك النفس . اما في المواضيع التي تتطلب البحث او التي تجري مجرى التاريخ فأسلوبه فيها هو الاسلوب المرسل الحرّ الذي يجري على السجيّة. وله في ذلك كثير من المباحث والفصول فليراجعها من شاء .

والخلاصة ان اديب اسحق جمع في كتابته بين جزالة الترسل القديم واناقته، وعذوبة الانشاء الحديث وسهولته . كما انه جعل من الخطابة فناً لا هو بالقديم تماماً ولا هو بالحديث تماماً ، ولكنه وسط بين الاثنين . فهو أميل إلى القديم بايقاع قوافيه ، والى الجديد بتنوع مواضيعه ومعانيه . ولا شك انه قد افاض على الانشاء من طبيعته الحيّة ما جعله في مدى حياته القصيرة من ائمته في نهضتنا الحديثة .

نقولا فياض

١٨٧٣ — ١٩٥٨

ينحدر الدكتور نقولا فياض من اسرة بيروتيّة قديمة . وقد نشأ في بيروت وكان مبدأ تحصيله العلم في مدرسة «الثلاثة الاقمار» ومن الذين تخرّج على أيديهم المرحوم نعمة شديد يافث وهو المهاجر اللبناني الذي امّ البرازيل واصبح احد كبار الاغنياء واصحاب المعامل في مدينة سان باولو .

وبعد تحصيله مبادىء العلوم عكف على دراسة الطب في كلية بيروت الافرنسية فنال شهادتها ، ولكن الطب لم يكن صنعته الحقيقية فكان يمارسه وفي نفسه ميل شديد الى الادب . وفي ذلك يقول عن نفسه في مقدمة خطاب له : « من غرائب المعاكسات التي ترافق الانسان في ادوار حياته كأنما صوت خفي ينذره انه ابداً مسيّر لا مخيّر ، هو اضطراره في كثير من الاحيان ان يلبس غير اللباس الذي يشتهيه — هكذا الواقف امامكم هذا المساء فقد خلقت محباً للعزلة والانفراد فقضي عليّ ان أتعاطى الطب ، وهو كما تعلمون مهنة لا تعرف العزلة والانفراد » . الى ان يقول : « فطرقت باب الخطابة فاذا أنا

محمول على اجنحتهـــا في كل آن وفي كل مـكان ، تارة في مصر وطوراً في لبنان » [1].

ومـا زال هذا الميل يشتد فيه ويطغى عليه حتى انصرف اخيراً الى الادب فأجاد الشعر والنثر وعرفته المنـابر في لبنان وسوريا ومصر خطيبـاً ممتازاً يسحر السامعين بحسن القائه واشراق بيانه وطلاوة معانيه وخواطره .

زاول صنعة الطب في بيروت اولاً ثم رحل الى الاسكندرية يمارسها ، وبعد ان قضى هناك عدّة سنين عـــاد الى بيروت وبقي فيها الى يوم وفاته . وفي بيروت طلّق الطب وانصرف بكليته الى الادب. ورأت الحكومة اللبنانية ان تنتفع بخدماته فعينته مديراً للبرق والبريد فبقي في هذا المنصب مدة يخدم وطنه ثم استقال .

فحياته تقسم الى عهدين – عهد الطبيب ذي الهواية الادبية ، وهو يمتد منذ خروجـــه من المعهد الطبي حتى آخر عهده في الاسكندرية ١٩٣٠ ، وعهـد الاديب ذي المعرفـة الطبية . وذلك يشغل السنين الثاني والعشرين الاخيرة من حياته .

ولسنا لنقف الآن عليه كطبيب ، لأن الطب لم يكن ما وقف حياته عليه او ما اشتهر به. وانما هوالأديبالذي احرز مكانة مرموقة بين ادباء زمانه فأصبح من الذين يُشار اليهم بالبنان . وأدبه يجمع بين الشعر والخطابة . أما الشعر فقد نشر منه ديوانين : «رفيف الاقحوان» و «بعد الاصيل» . وفي هذين الديوانين يتعرف الانسان بالفيّاض الشاعر الذي كان يرسل الشعر من قيثارة ذات ايقاع يحلو للنفس كقوله مثلاً من قصيدة في حفلة ذكرى الشهداء :

ايهِ قومي على الحياة سلامٌ ... ان أضلّت سبيلها العقلاءُ
حقٌ هذا العهد الجديد علينا ... ما تشاء العلى ويهوى الاباء

---

١) على المنبر ص ١٦٣

وتراثٌ من الضحايا مجيدٌ　　ما عليه سواكمُ اولياءُ
فاحفظوا العهد والتراث وإلا　　نحن والله لا همُ الشهداءُ

وقوله من قصيدة ترجم بها قصيدة «البحيرة» للامارتين . وقد تصدّى لنقل هذه القصيدة الشهيرة عدد من شعرائنا فجاءت ترجمة الفياض أسلس نظماً من جميع الترجمات :

أهكذا تنقضي دوماً أمانينا　　نطوي الحياة وليل الموت يطوينا

ومنها يخاطب البحيرة ذاكراً عهود حبه على ضفافها :

فيا بحيرة ايام الصبا ابداً　　تبقين بالدهر والايام تزرينا
تذكار عهد التصابي فاحفظيه لنا　　ففيك عهد التصابي بات مدفونا
وكلما صافحتك الريح في سحرٍ　　وحركت قصباتٌ عِطفها لينا
أو فاح في الروض عطرفليكن لك ذا　　صوتاً يردد عنا ما جرى فينا
أحبّها وأحبّته وما سلما　　من الردى رحم الله المحبينا

وهو في نظمه يميل إلى التجديد في الاوزان ، فتراه كثيراً ما يخرج عن اسلوب القصيدة المعروف ويجري في اسلوب جديد . ولسنا نقصد الآن درس شعره ، وانما نحن نذكره هنا لأن الفياض كان يحلّي خطبه بالمنظوم من ادبه حتى لقد يمتزج الفنان فيما يلقيه على السامعين وهو على منبر الخطابة .

وأما الخطابة فقد برع الدكتور فياض فيها حتى اصبح في مقدمة الخطباء . والذي يطالع خطبه يجده فيها كالنهر الجاري من الجبل ـ ينحدر فوق الصخور، فيهدر كالشلال ويفيض في السهل فينبسط بيسر ولين، ويسير بين الرياض فيحمل منها شذا الورود والرياحين . وقد برزت في خطبه الناحية الادبية الفنية أكثر من سواها . على انه كان انسانياً يلذّ له التحدث عن الانسان في المجتمع .

وتمتاز خطابته بأمور أهمها :

١ – **حسن التمثيل والتصوير** : كقوله من خطبة ألقاهـا في حفلة معهد البنات يحذر المنتهيات من مخاطر الحيـاة : « رجل في البحر يحمل شبكة بيديه وهو يحاول ان يسبر غور المياه ، حتى اذا لاحت له اشباح السمك اسرع بالقاء شبكته عليها – يذكّرني هذا المشهد بالاخطار التي تنتظر الفتاة بعد المدرسة ، فما اعظم الشبه بينهـا وبين السمكة . كلتاهما عرضة لشباك الصيـاد ، ولا فرق سوى ان السمكة تهرب من الشباك والفتاة تركض وراءهـا بحكم العلائق الاجتماعية . فان الاخطار تقعد لها كل مرصد : في البيت ، والطريق ، وأندية الرقص، وملاعب التمثيل، ودور السينما ، وفي الكتب التي تقرأها ، في ابتسامة الشاب الذي يتودد اليها ، كل مـا هو جميل جذاب يحمل اليها تجربة ابليس ويحاول ان يصطادها ويشدّ عليها كما يصطاد العنكبوت فريسته »(١) .

وفي تأبينه لرئيس الجمهورية اللبنانية شارل دباس ، يقول مخاطباً اياه : «انظر الى هذا الجمع المحتشد حول نعشك . اليوم لا شكوى ولا عتاب ، ولا شيَع ولا احزاب . ان السياسة لا قلب لها ولا دين ، ولكن صوتها اليوم يخرس امام صمتك الابدي ، وبركانها يهدأ لدى حفرتك الباردة . لقد محا جوّ القبور جراحات الصدور ، فلم يبق إلا حافظ لودك ، ذاكرٌ لعهدك ، آسف لبعدك ، معجب بتلك الشمائل تكلل بالمجد هامات الرجال » (١) .

وفي خطبته « من المهد الى اللحد » يتحدث عن عمر الانسان ورأس ماله الحيوي من فقر او غنى ، ثم يقول : « وبين هاتين الطبقتين الثروة والفقر ، درجات متعددة يتمتع فيها الانسان من الحياة على قدر مـا ملكت بنيته من هذا الرأسمال » . فأغنياء الصحة يعيشون طويلًا متسربلين بالعافية وقلما تضعفهم الآلام او تثقلهم العلل بل تقف حيـاتهم عند انتهـاء سيرها الطبيعي كما تقف الرصاصة التي تطلقها في الفضاء منتهية الى الارض عند نفـاد سرعتها الاولى بعد ان تكون رسمت قوسها المعلوم وقطعت مسافتها المحدودة » .

١) على المنبر ص ١٨٧

ويقول في خطبته « المرأة والشعر » مقابلاً بين العلم والشعر : « فالعلم ارض مجهولة تفتح كنوزها شيئاً فشيئاً للرحالة المنقب فيها . واما الشعر فكالمحيط موجة تذهب وموجة تجيء، او كالريح يتغير صوتها ولا يتغير جوهرها. بل العلم سلّم يصعد فيه العالِم فوق العالَم، والشعر حفيف اجنحة في اكناف الفضاء الواسع».

وفي خطبته « القلب البشري » يقول من مقابلة بين المرأة والزهرة : « الآن انك ايتها المرأة اسعد من الزهرة لانك عندما يأتي المساء (اي مساء العمر) وترين اوراق جمالك تتناثر عن جبينك الوالدي واحدة بعد واحدة تجدينها على جبين اولادك – سلسلة حب طويلة في يد الله طرفاها » .

ويصور الشباب – تلك القوة التي يتحلى بها النشوء الجديد ، والتي كثيراً ما يظلمها انقص الناس وينسبون اليها الكسل وحب الذات والتقليد والدعوى الفارغة والقحة والعناد فيقول : « الشباب في نظري مطلّ النفس على الوادي الخصيب ، حيث تنبت اطماح المجد واحلام البطولة ، بل القمة التي تنتشر من فوقها اجنحة الفكر للتحليق في سماء العبقرية والابداع بل الصخرة التي تتفجر منها ينابيع الشهامة والتضحية والشجاعة والحب »[1] .

والتصوير عنده هو بالأكثر من قبيل التمثيل لشرح غامض او اثبات فكرة او ازالة وهم، كقوله مثبتاً ان الشرعة الادبية لا تتغير بتغيّر الزمان والمكان: « خذ حجراً ايان كنت في مصر او لبنان او اميركا ، ودعه يفلت من يدك فانه يهوي الى الارض بحكم الجاذبية . وانظر الى المطر حيث انهمر ، تجده منحدراً من المكان العالي لا صاعداً نحوه . فالسرقة (مثلاً) شيء محرّم ، والكذب امر مكروه لا لأن هناك وصايا دينية او أحكاماً مدنية تعاقب السارق والكاذب ، بل لأن السرقة والكذب من الاعمال التي تفكك عرى الحياة وتزعزع اركان المجتمع »[2] .

١) على المنبر ص ١٨٦
٢) على المنبر ص ١٦٠

٢ – **الافتتان في عرض المعاني**: وتظهر هذه المزية كأنها مخالفة لما يتطلب من الخطيب ، وقد اشار هو في كتابه الخطابة (ص ٤٢) الى انه « يطلب في الخطابة ان لا تكثر فيها الادلة المنطقية والاغراق في الشرح والتفصيل والبيان والتعليل ، بل تأتي الجمل واضحة صريحة مختصرة تفعل بالجزم والتأكيد اكثر مما تفعل بالبرهان والمنطق » .

وهو على صواب في قوله ان آفة الخطابة التطويل. وقد يبدو لنا انه لم يراع ذلك في اكثر او اهمّ خطبه ، فبعض هذه الخطب طويل يقتضي القاؤه اكثر من ساعة اذ يتجــاوز العشرين او الثلاثين صفحة . وقد يجوز ذلك في المحاضرات العلمية والادبية التي يراد بها البحث والتحقيق ، ولكنه لا يستحسن في المواضيع الادبية والاجتماعية التي يراد بهــا نقل ما في القلب من احساسات او خواطر الى قلوب الجمهور السامع .

على انه لا بد لنا من استدراك هنا . فخطب فياض الطويلة ليست من قبيل الشروح والادلة المنطقية الجافة ، بل هي عبارة عن مشاهد جميلة يحملك فيها على انغام جميلة من الكلام العاطفي فلا تشعر بطولها لما تحس به من نشوة في المعاني واشراق في الديباجة .

وقد سمعت مراراً وسمع كثيرون غيري بعض خطبــه الطويلة كالقلب البشري ، والمرأة والشعر ، ومن المهد الى اللحد ، وبين العجز والمقدرة ، وانا وانتم ، وغيرها. ولا اعتقد ان احداً كان يملّ مهما طال سماعه. كان يأتي بالأمثلة الكثيرة ويبين الاسباب ، ويتغلغل الى اعماق الموضوع . ولكنه كان دائماً يعرف كيف يخلع على ألفاظه ومعانيه حلة نور حتى يتسنى للسامعين ان يشاركوه في الرؤى الجميلة التي تتجلى في ذهنه وفي المشاهد التي يعرضها عليهم . وفي هذه تتجلى مقدرته الخطابية . انه فنــان ولكنه فنان مدقق لا يمر عرضاً على المعاني ، ولا يكتفي بشيء أو ناحية من الموضوع بل يفتنّ فيه ويأتي بما يملأ القلوب بهجة في افتنانه . يبدأ مثلاً خطبته (القلب البشري) بأبيات رقيقة ، منها قوله معتذراً :

مـــا عسى ينظم فيكم شاعر شـــاعر بالعجز لا بالتعب
قلبه اصل بلاه فـــاعذروا ان شكا من قلبه المطرب
رام أن تُجلى لكم اسراره فغدا يرقص لا من طرب
وغداً خلف حجاب الصدر لا يتمنى غير شق الحجب

وبعد هذه المقدمـة الشعرية التي اثارت عواطف السامعين اخذ يحدثهم عن القلب . هذا العضو في صدر الانسان وما قيل فيه ثم قال : « لا ارغب ان اصف لكم امراض هذا القلب الكثيرة ، ولا احب ان امثل لكم صوره المجزّأة فاريكم جوفه الصغير مقطعاً تقطيعاً ، يقطر دماءه حمراً ثم يبلعها تجيعاً ، انمـا نحن في ليلة انس لا ليلة درس ، والذي انا محدثكم بـــه ، قلب آخر معنوي تبطنه هذا القلب المادي — قلب آخر لا دخل للهيولى فيه ، ولا تسلط للمادة عليه. فلا تسألوا الاطباء والمشرحين الذين لا ينظرون الا بعين الرأس ، ولا يؤمنون الا باللمس . سلوا الشعراء والمحبين ينبئوكم الخبر اليقين . انه عُود لا كأعواد الطرب اوتاره رقيقة حساسة ، يحركها شيء ارق من الماء ، واخف من الهواء — اوتارٌ لا تحتاج الى غير دمعة او تذكار لتخرج انغاماً شجية وآيات عبقرية » .

ويتقدم من هنـــا الى التحدث عن العواطف البشرية ويتخلص الى عاطفة الحب : « هذه الكلمة التي ترددهـــا اجرام السماء في افلاكها ولآلىء البحر في اسلاكها — ناموس عام تجري عليه حركة هذا الكون الفسيح عالم المـادة وعالم الروح — كل ما في الارض وكل ما في السماء خاضع لهذه الشريعة » . ويأخذ في شرح انواع الحب ودرجاته ، ومـا قاله الناس فيه ، واخيراً يقف عند خلق الله المرأة ، فاذا بالجو قد امتلأ نوراً ، ونغمةٌ جديدة رنت في الفضاء ، وهي صدى القبلة الاولى التي اوحاهـــا الحب للانسان الاول فيقول : « نعم وجد الانسان ووجدت معه المرأة صورة الحب ـ المرأة ذلك المخلوق اللطيف ، القوي الضعيف ، فوق الرجل ودونه كالسماء التي تحيط به ... تارة تتحكم فيه كملك ،

وطوراً يقودها كما تقاد العبيد ... وقد حيره حبها فلم يدر بما يلقبها . فكان مرة يراها كالغصن ، ومرة كحمامة الغصن .. ونظم فيهـا الاشعار وألف عنها الحكايات ، وحلى بهـا الصور . وعلى هذا الوجه كانت ولم تزل مرآة امانيه وصورة آماله » . ويجري في هذا السبيل واصفاً اياها ، شارحاً تأثيرها في حياة الانسان ، ذاكراً ما للحب من اثر عظيم في ايقاد شعلة الوحي للشعراء والفنانين، ولكن مهما تقلّبت عليك الاحوال ، ومهما اظلم جوّك وعصفت فيك الزوابع، ففي احدى زواياك شعاع دائم الاشراق . وبه رسمت هذه الكلمات – الحب هو الحقيقة، والحقيقة هي الجمال ، والجمال هو الله». وكما بدأ خطبته بالشعر انهاها بالشعر ايضاً . وترك السامعين في نشوة طويلة بعد اصغائهم اكثر من ساعة الى طلاوة كلامه وروعة القائه .

٣ ـ **الدعوة للمبادىء العليا** : وكأنها غاية الغايات في كلامه . فاذا تحدث عن الشعر مثلاً التفت الى الشاعر قائلاً : «لك ان تضحي بمالك ودمك الذي هو اغلى من المال ، وحبك الذي هو اغلى من الدم ، ولكن ليس لك ان تضحي بالحقيقة والصدق ، وتجعل شعرك جعبة الغش والمداهنة . خُلقت لتهذب النفوس وتنير الاذهان وتفتح ابواب الحقائق الابدية . فعار عليك ان تحوّل الشعر الى مهنة لا تجلب غير الهوان »[1] .

واذا تحدّث عن الدين ورؤسائه قال مشيراً الى الغـاية من الدين وواجبات الرؤساء : « متى عرف الكاهن ذلك ، متى وُجـد رؤساء عقلاء ينشأون وينشأ من تحت ايديهم امثال لهم رعاة متنوّرون مستقلون فكراً ، احرارٌ ارادةً ، نزهاء عن الغايات لا يهمهم الضغط على الافكار ، مكتفين ببث مبادىء الحب الذي تـأمر به الاديان كافـة ، معترفين بالفضل ايان كان – في سواهم كما في ذويهم – متى تم كل ذلك فقد سقط سور عظيم من اسوار التقهقر ، وطلع فجر

١) على المنبر ص ٨٣ .

جديد للحرّية في ضمير البشر »[1] .

وهو من المتفائلين المؤمنين بقدرة العقل البشري . فالعجز الذي ينسبه البعض الى الانسان ، العجز الفردي والاجتماعي والفكري – عجزه او وقوفه اعزل امام قوى الوجود وهو يشعر ان حياته ليست الا وميض برق بين لانهايتين– هذا العجز لم يجعله يقف مكتوف اليدين، يقول: «فهؤلاء هم المخترعون والمصلحون والابطال لم تذهب حياتهم سدى ، ومعاهد التربية والاحسان وجمعيات التهذيب والاصلاح جهود محمودة في سبيل العمران » . اجل انه يؤمن بصلاح البشرية ، وينظر الى المستقبل نظرة رجاء ويقين مخالفاً بذلك رأي ابي العلاء اذ يقول :

والقبُ حاول أن يذّب اهله فاذا البريّة مــا لها تهذيب
من رام إنقاء الغراب لكي يرى وضــع الجنـاح اصابه تعذيب

انــه غير اعمى عن وجود الفساد ، وعن النزاع المستحرّ بين الجماعــات والافراد . على ان هذا لا يمنع العقل عنده «ان يزيد اشراقه ، والعلم ان يتسع نطاقه » . وخلاصة ما يراه في هذا المعنى « ان الانسان على رغم ما ألمّ به من المصائب لم يعدم سبيلاً الى البقاء والارتقاء – كان فقيراً فاغتنى ، وجاهلاً فتعلم، وضعيفاً فقوي واشتد . ومن ظلمة ماضيه البعيد وصل الى قمة رقيّه الحاضر فاتحاً أمامه ابواب المستقبل النيّر » (١٦١) .

عرضه الحقائق في حلل فنيّة : لم يكن فياض كما أسلفنا من الذين يجففون خطبهم ويذهبون برواتها بكثرة شروحهم واعتمادهم البحث المنطقي كما يفعل بعض اهل العلم، كما انه لم يكن ايضاً من الذين يعمدون الى اثارة السامعين بذكر ما يستهويهم ويحرك عواطفهم من الالفاظ المثيرة كما يفعل بعض زعماء الاحزاب ورجال السياسة ، بل كان يجمع في خطبه بين طرافة المعلومات وطرافة سبكها

١) المصدر نفسه ١٥٤ .

في قالب يلذ السامع ويهز اوتار نفسه . ويستعين على ذلك بما وهبه الله من حسن في الالقاء وجاذبية في التحدث وخفة في الروح . فخطبه كانت تستمد من معالم الافكار والحقائق وتصاغ في مـا يطرب من العبارات الموسيقية . شأنه في ذلك شأن الشاعر البليـغ الذي يقتنص الجمال مما حوله بقوة تصوره وعمق نظره وسحر بيانه . اسمعه مثلاً يقول في لبنان :

« ما اعذب المعاني التي تتضمنها هذه الكلمة ، وما اكبر المشاهد والصور التي تتعاقب على الذهن عند التلفظ بهـا – في الجـانب الواحد تاريخ مجيد ملؤه عظات وعبر ، تمتزج فيه دموع اليأس ببسمات الظفر ، حروب الفاتحين وغارات الغاصبين ، ومذابح الاضطهاد باسم الدين – وفي الجـانب الآخر جمال الطبيعة وجلالها : قنن عالية ، واودية بعيدة الغور ، وجرود وغـابات حول اكواخه وقصوره ، وعيون كالزلال تتفجر من بين صخوره ، وأشجار الصنوبر والبلوط والتوت ، وكروم العنب والتين والزيتون على معاطفه وخصوره » [1] . في هذين المشهدين جمع التاريخ اللبناني والطبيعة اللبنانية في لوحة لا يرسمها غير فنان قدير في مزج الاصباغ والالوان .

وفي خطبته عن تأثير المرأة في الشعراء يقول : « والغزل المنسجم في الشعر العربي لا تجده في اللغات الاخرى ، ولا تجد للمرأة في سائر الالسن وصفاً يبلغ من الرقـة واللطف وبلاغة المعنى وحسن التشبيه ما بلغ وصف شعراء العرب لها» . (وهنا يأتي بأمثلة) ثم يقول: «ومن قرأ عينية ابن زريق ، ونونيّة ابن زيدون ، ودالية النابغة لا يسعه الا الاعجاب والاعتراف ان المرأة وحدها تقدر ان تخلع جمالهـا على الشعر ... ويقول : « وعلى هذا الوجه اندفع سيل القرائح العربية من الجـاهلية الى المولدين ، وكثير من شعراء الاندلس في المـاضي ، وشعراء العراق ومصر والشام لعصرنا الحـاضر لم ينبغوا الا بتأثير هذا العـامل . وإنا لا نعلم من هي الحسناء التي توحي الى هذا وذاك ، ولكن العالم الادبي مدين لها

١) على المنبر ص ١٦٤ .

وهو يجدها وان جهل اسمها »[1] .

وفي دعوته الى التجديد في الشعر يقرر : « ان الشعر اول رسول روحاني بعث لتهذيب البشرية . منه انبثقت الفلسفة ، وعليه قامت الاديان ، واليه انتهى الجمال . وقد بقي مرفوع اللواء حتى العصور الاخيرة . فجاء العلم بحقائقه ومخترعاته وطما سيله عليه فلم يترك له سوى زوايا القصور والخدور واندية اللهو والطرب . وانفرجت المسافة بينهما فأصبح تغني الشاعر بالحياة والانسانية ناقصاً عقيماً ، لأن أشياء كثيرة من الانسانية والحياة غابت عنه . لقد مضى الزمن الذي كانت تكفي الشاعر وقفة على الطلل البالي ، او نظرة الى القمر الساري ، او جرعة من الغدير الجاري ، للتغزّل والنجوى وبث الشكوى . وصارت هذه الموضوعات وما اليها من احاديث الفخر والمديح مبتذلة لا تجد صدى بعيداً في النفوس بعد ان دخلتها اشعة العلم ، وخلقت فيها ظمأ جديداً يصعب ارواؤه بغير الجديد »[2] .

وهكذا تراه وهو واقف على المنبر يجيل فكره في انحاء الحياة فيبسط الحقائق او يأتي بالشواهد ، ولكنه لا يقف في ذلك وقفة الاستاذ الشارح ، والمؤرخ المحقق ، والعالم الممحّص . بل يقدمها للسامعين في قالب يخدر فيهم حاسة النقد ويجعلهم في شبه نشوة من موسيقى العبارات .

فياض المؤلف :

لفياض المؤلف عدة مؤلفات منها ما هو ادبي، ومنها ما هو من باب البحث او العلم . على انه سواء كتب في الادب او العلم ، لا يخرج عن دائرة الفن التي وضعه الله فيها . ومن مؤلفاته كتابه « على المنبر » وهو مجموعة خطبه ، فليراجعها من شاء ان يطلع على بيانه الخطابي .

---

١) على المنبر ص ٧٨ .

٢) على المنبر ص ١٩٣ .

كتاب الخطابة : وهو يقع في ثلاثة اقسام (١) في البلاغة علماً وعملاً (٢) الخطيب والجمهور (٣) امثلة من خطب العرب والافرنج .

وهو يذهب في القسم الاول الى ان الكتابة لها انشاء خاص ، والخطابة انشاء آخر . وقد يجتمعان في شخص واحد ، كما انه قد لا يجيد الواحد الا نوعاً منهما فحسب .

وبعد ان يذكر اركان البلاغة الانشائية يتحدث عن الانشاء الخطابي . يردد ما قاله القدماء من ان البلاغة لا تقتصر على إفهام السامع كلام القائل ، وانما هي الإفهام على سنة البلغاء « بأن يُجعل لكل طبقة كلام ، ولكل حال مقام » . ويعلق على ذلك بقوله : « ان الغاية الاولى من الخطابة هي ان تنقل ما في قلبك من الاحساسات والعواطف الى قلوب سامعيك (٤٠) وان تجعل السامعين يشاركونك في الرؤى الجميلة التي تتجلى لك » .

ولذلك كانت البساطة عنده المرتفعة عن الابتذال اجمل حلة يلبسها الانشاء الخطابي . والخطابة تحتاج علاوة على العاطفة الى خيال — تصوّر شعري لما فيهما من حلو التنقل الذي يسوق اليه التلاعب بالمعاني فيجدد الانتباه عند السامع ويدفع عنه الملل فضلاً مما يكتسبه الخطاب من جميل الالوان وبديع الصور . ومما يطلب في الخطابة الابتعاد عن الادلة المنطقية والشروح التفصيلية مما هو اولى بالمباحث العلمية . والعبرة فيها ان تكون العبارات وجيزة موسيقية تهزّ العقول وتخدر فيها حاسة النقد .

ثم يتناول الخطيب وهو على المنبر ، فيحدثنا عن وقفته واشاراته وصوته وملامح وجهه ، ويقابل بين الخطيب والممثل فيقول : « ان جهد الممثل ان يصوّر ما يريد المؤلف . واما الخطيب فلا ينفك عن التوليد . مجال الممثل عالم الصور والخطوط ومجال الخطيب عالم الافكار والمعاني » .

وهو يرى ان الخطيب والشاعر صنوان ، فكل ما يمتاز به الواحد موجود عند الآخر ، ومن الصعب التفريق بين الاثنين . ويستشهد على ذلك بعدد من شعراء

العـالم المعروفين مبيّناً ان الشاعر قد يكون في شعره خطيباً ، كما ان الخطيب قد يكون بخطابته شاعراً .

على ان الخطيب كما نرى يحتاج من قوة الاقناع والحجة مـــا لا يحتاج اليه الشاعر . فهما قـد يكونان صنوين في سرعة البداهـة وقوة التصور وجيشان الخاطر ، ولكن لكل منهما مزايا ومطالب خاصة ليست للآخر .

ويتلو حديثه عن الخطيب فصول تهيئة الخطاب وفي الارتجال والرّتَج ، ثم استعراض تاريخي للخطابة من ايام اثينا في القرن الخامس قبل الميلاد الى الوقت الحاضر . ويقف وقفة خاصة على الخطابة عند العرب وتطورهـــا منذ الجاهلية وكيف ازدهت في عصر الفتوح ، ثم كيف اخذت تضيق رويـداً رويـداً الى ان قصرت على الخطب الدينية في المساجد . ومـــا زالت حتى دخلت طور الانحطاط فصارت تقليدية فارغة ، حتى اذا ترعرعت النهضة الحديثة عـادت الى نشاطها وقوتها على ايدي خطباء ملكوا أعنة البيان .

كيف تغلب الانسان على الالم : في هذا الكتاب يصف الجهـــاد العظيم الطويل الذي قام به الانسان ضد الالم الجسدي ، ومـا اظهره الفكر البشري من الجرأة في تحطيم سلاسل التقليد والتفـــاني في تخفيف ويـلات الامراض ، ويشيد بالانتصـار الذي احرزه العلم على الطبيعة القـاسية . وقد استقى اكثر معلوماته من كتاب ضخم لمؤلفه «رنه فول ملر» : «فاقتبس منه ما رآه مفيداً للقراء ، ضارباً صفحاً عن التفاصيل المملة والشروح الطويلة ، حاذفاً منه الكثير مما لا يؤثر حذفه في جوهر الموضوع ، مضيفـاً اليه القليل بمـا عرفه بنفسه » . هكذا يقدم لنا فيّاض المعلومات الواسعة التي اثبتها في هذا الكتاب ، فيرجع بنا الى أقدم العصور ، وينحدر عبر التاريخ فيرينا كيف تطور الفكر البشري حتى تمّ له ان يخترع احدث الوسائل المزيلة للألم . وفي عرضه التـاريخي ننتقل معـه من عصور الشعوذة والسحر يوم كان الانـسان يعـزو الالم الى الارواح او الشياطين فيحاربهم بحيل اخترعها جهله وتهـاويل تخيف الارواح الخبيثة ، الى

طور الايمان بالآلهة اذ كان يعتقد ان الالم مسبب من غضبها، مما دعاه ان يتقرب منها بالنذور والصلوات والضحايا ، فراجت بين الناس الخرافات والمتاجرة بالآثار المقدسة ، ثم تقدم فتفتح عقله وهداه اختبـــاره الى بعض الاعشاب والعقـاقير المخففة للالم ، وصار يخطو الى الامام في هذا الميدان وما زال حتى اوصله العلم الى ما نراه اليوم من المخترعات والمكتشفات الحديثة .

وفي الكتاب معلومـات طريفة عن التنويم المغناطيسي واول من استعمله ، وعن الاثير وكيف اهتدي اليه ، وعن المورفين وسائر المخدرات الى ان بلـغ تخفيف الالم غايته في الجراحة الطبية اليوم . ويقرن ذلك بطرائف الاحـاديث عن كثير من الذين ساهموا في هذه الحركة المباركة .

خواطر في الصحة والادب : وهي مجموعة مقالات ممـــا كان ينشره في الجرائد والمجلات وتقسم قسمين : مقالات صحية ومقالات ادبية. فيشمل القسم الاول مباحث شتى من مثل الاعتناء بالطعام ، والاسنان ، والنظافة ، والمعدة ، والاجهاد ، ضرر التقبيل ، والتدخين ، وميـاه الشرب ، والمرض والمناعة ، والموت وتجديد الشباب ، ومـا الى ذلك من المواضيـع التي هي من اختصاص الاطباء .

اما القسم الثاني فهو كلام اديب لا طبيب . تجد فيه مباحث في ترقية اللغة العربية ، وفي بلاغة العرب والافرنج ، وفلسفة النشوء وغير ذلك ممـــا يهتم الاديب او الباحث العلمي . وفي كل هذه المقـالات الصحية والادبية يجري في كلامه على الاسلوب السهل الممتنع، فيعطيك الحقائق ويولجك باب البحث ولكنه لا يجعلك تسأم لما تشعر به من طلاوة ورواء في التعبير .

من نافذة العقل : يشمل هذا الكتاب فصولاً شتى يراد بها اظهار فضل العلم في فتحه باباً جديداً لدرس تصرف الانسان على ضوء الحقائق الطبية . فالتاريخ والحياة وجميع تصرفات الانسان الخلقية وآثاره الادبية ترجع الى تطورات في

دماغه . ويدرس هذه التطورات ، يمكن ان تفسر تفسيراً علمياً شتى الشؤون البشرية والعوامل المؤثرة فيها . « وهكذا ينفتح امام النقاد باب جديد لفحص الادب بطريقة علمية تكفل التماس الحقيقة من مظانها » . فاذا ما تدخل الطبيب في نقد الادب ، فلكي يفحص الاذهان كما يفحص الابدان . فلا تنحصر دراسة العمل الفني او مطالعة كتاب ما بالشعور باللذة او الملل، بل تتعداه الى تشخيص حالة الكاتب والفنان الدماغية، واظهار قيمة بدعته وما فيها من نفع او ضرر .

ويزعم فياض ان النقد العلمي قليل في ادبنا ، فليست قواعد قدامة وابن رشيق والآمدي وغيرهم الا قواعد خاصة غلبت فيها على مذاهبهم الافكار الحزبية والمباحث الضيقة من نقد للمفردات ومرقة للمعاني . وقد نجد على حدّ قوله ، طلائع للنقد الصحيح عند بعض القدماء كالجرجاني مثلاً ، « اما الذين ألموا به على الطريقة الاوروبية المستحدثة ولا يذكر منهم سوى الشدياق واليازجي. وهناك طائفة من المحدثين اخذت تستشرف هذا النقد المبني على المبادىء الجديدة ولكنها لا تزال في خطوتها الاولى » .

وفي كلامه بعض الصحة على ان اشارته الى النقاد القدماء لا تدل على أنه قرأ اقوالهم جيداً ، فجاء حكمه عليهم سطحياً احياناً وخاطئاً احياناً . والواقع ان كثيراً من النقد القديم قائم على مبادىء حقيقية . نعم ان القدماء اغفلوا بعض النواحي التي يُنادى بها اليوم . فكان جل اهتمامهم بالادب نفسه دون دراسة نفسية الاديب وتأثير العوامل البيئة فيها ولكن المهم في نقد الادب على كل حال ، ان نتذوقه ، وندرك غوره ، ونتحرى مبلغ تأثيره في النفس . وبكلمة اخرى ان نلمّ بعناصر البلاغة فيه .

ومن هنا يصل بنا فياض الى موضوع الطب والشعر ، ويتساءل لماذا لا يمكن للطبيب ان يكون شاعراً كما يظن البعض . وهو يحاول ان يبرهن تاريخياً على وجود صلة بين الطب والشعر ، وهي قوة التصور والخيال التي تساعد العالم والطبيب كما تساعد الشاعر على الابتداع والاختراع . ولعله بذلك يدافع عن

نفسه اذ كان هو طبيباً وشاعراً ايضاً .

ومن الكتاب فصول عن الحب وانواعه وعن المناعة الجسدية والنفسية وتأثير التعب والارق وكيف نعالجها ونتخلص منها . وغير ذلك مما تفيد مراجعته .

وفي الكتب التي تذكر له كتاب « مملكة الظلام » ويدور على حياة الأرَضة . وقد نقله فياض عن « مترلنك » بتصرف ، فجاء نقله بلغة جميلة واسلوب شائق وهو جدير بان يطالع لما فيه من المعلومات الطريفة والمواقف الفكرية التي اضفى عليها المعرّب حلّة مشرقة من البيـــان الطليّ الذي يغري القارىء بمتابعة مطالعته الى النهاية .

ومن مؤلفاته كتاب « على المنبر » وهو مجموع خطبه . فليراجعه من شاء المزيد من الاطلاع على اسلوبه الخطابي .

مصطفى كامل

١٨٧٤ – ١٩٠٨

ولد هذا الزعيمُ المصري قبل الاحتلال الانكليزي لمصر بثماني سنوات ، سلك في ثقافته العلمية مسلك الراغبين في الازدياد من المعرفة . فتدرج من المدرسة الابتدائية الى الثانوية في مصر ، ثم رحل الى فرنسا لدراسة الحقوق فنال شهادتها سنة ١٨٩٤ وهو لم يتجاوز العشرين من عمره . وكان منذ حداثته تظهر عليه امارات الكرامة الذاتية والغيرة الوطنية . فلما رجع الى مصر بدأ حياته العمومية بتأليف رواية تمثيلية موضوعها فتح الاندلس ، غايتُها التذكيرُ بمجد الامة العربية والتنبيهُ الى دسائس الدخلاء الذين على حد قوله « يتردّون بردائها ويتخاطبون بلغتها ويخالطونها فيكونون كالسمّ في الدسم »[١] . وفي سنة ١٨٩٥ بدأ نشاطه السياسي اذ اخذ ينشر في الاهرام مقالاتٍ شديدة ضد الاحتلال مناوئاً للجرائد المناصرة له .

وفي تلك السنة حزم أمره على السفر الى باريس ليحتك بالاوساط السياسية الاوروبية ويطلع اكثر على دخائلها خدمةً للقضية المصرية . وهناك رفع عريضة

١) حياة مصطفى كامل ج ٢ – ٢٥٧

الى مجلس النواب الفرنسي مستنجداً بفرنسا وطالبـــاً مؤازرتها في هذه القضية وارسل نسخاً منها الى اهمّ الجرائد الاوروبية والاميركية . فكان لها صدى عظيمٌ في العالم السياسي الاوروبي .

ولم يكتف بذلك بل اخذ يقدم الخطب يَبسطُ فيها قضيةَ مصر لقومه والرأي العام . ومن ذلك خطبةٌ ألقاها على المصريين في باريس احتفاءً بعيد السلطان عبد الحميد الثاني ، قال فيها : « حقاً ان سياسة التقرب من الدولة العلية لأحكم السياسات وأرشدها ، فضلاً عن الاسباب العظيمة الداعية لهذا التقرب . فانّ العدوّ واحد. ولا يليق بنا أن نكون في فشل وشقاق في وقت يعمل فيه اعداؤنا على تجزئة دولتنـــا ويغرون الارمن وبعض العناصر الاخرى بالثورة والهيجان — الامر الذي اسخط العثمانيين الصادقين جميعاً . ولا غرو ان كنا نتألم لآلام الدولة العلية . فما نحن الا ابناؤها المستظلون بظلها الوريف المجتمعون حول رايتها » [1] .

وهذا التعلق بالدولة العثمانية ظاهر في كثير من اقواله . ولا بدع فهي مقرّ الخلافة الاسلامية يومئذ ، ثم انها كانت تُعتبر صاحبة السيادة الشرعية في مصر . فكان العملُ عنده على تقرير تلك السيادة بمثـــابة سلاح يحارب به الاحتلال الانكليزي [2] .

ولم يأل جهداً في الاتصال برجال السياسة في المانيا والنمسا والمجر ويحدثهم بأماني مصر وحقوقها ويستنجدهم على انكلترا . وكان يسعى الى غـــايته جهاراً وبجرأة وثقة نادرة حتى أنـه كتب الى الوزير الانكليزي غلادستون يذكره بوعود دولته وبحقوق مصرَ في هذه القضية الخطيرة . ومن قوله له :

« لقد كنتم منذ احتلال انجلترا لوطننـا من اشد انصـار الجلاء وجاهرتم مراراً عديدة بأعلى صوتكم انه لا يليق ببريطانيا العظمى ان تحتل مصر الى اجل

١) المصدر نفسه ٣ — ٢٠٣
٢) المصدر نفسه ٥ — ٢٣١

غير محدود ، لان عملاً كهذا يمس شرفها اشد المساس. اننا سجلنا كل تصريحاتكم وحفظنا اقوالكم . ولو انكم لم تستطيعوا الوفاء بوعودكم عندما كانت السلطة في يدكم لأسباب نجهلها تماماً ، فاننا لا نزال نظن انكم على اعتقادكم الاول - اي انه ليس لمسألة مصر إلا حلٌ واحد وهو الجلاء » [1] .

وعاد الى مصر يواصل جهاده الوطني . وها نحن نراه سنة ١٨٩٦ اي وهو في الثانية والعشرين من عمره ، يخطب الخطب النارية ويكتب المقالات المثيرة . وكان لما يقوله دوي واسع في جميع البلدان . وقلما يفرق الانسان بين خطبه وكتاباته . فهي جميعاً مثيرة للشعور تتحلى بمزيتي الايمان والاقناع ، كقوله من مقال في جريدة « المؤيد » يوم عيد الاستقلال الاميركي (٤ يوليو) مخاطباً بني وطنه : « اناديكم في هذا اليوم العظيم الذي تحتفل فيه امة عظيمة بسعادتها واستقلالها ان تعملوا كما عملت هذه الامة ... انزلوا يا قوم الى اعماق نفوسكم وناجوا سرائركم واسألوا ضمائركم ! هل انتم في ضير ام في خير ؟ وهل انتم على شقاء ام هناء ؟ ولئن احسنتم الاصغاء سمعتم سرائركم تجيبكم انكم اذل الامم اليوم ، أما في مصر رجال يشعرون بأن من العار الكبير أن يعيش المصري في سعة من العيش مرتاح البال وامّه الشفوقة الحنونة تُهان اعظم اهانة وتلوّث كرامتها كل يوم فيقومون ويطالبون بحقوقها ويسمعون اوروبا صوت شكايتها » .

وعلى غرار خطبه وكتاباته احاديثه المرتجلة اذا كانت تتعلق بالقضية التي وقف نفسه وقلمه وكل قواه على خدمتها .

وتعددت زياراته لفرنسا واوروبا ومقابلاتُه للصُحفيين ورجال السياسة هناك وخطبُه في المحافل الحافلة . وقد زار الاستانة وقابل السلطان فحظي عنده بكل عطف . ولما قال له السلطان : « انك اذن محام » ؟ اجاب : « نعم يا مولاي اني محامٍ عن قضيتين مهمتين قضية مصر خصوصاً وقضية المسلمين

١) مصطفى كامل لاحمد رشاد (١٩٥٨) ص ٨١

عموماً . اما قضية مصر فالعالم الاوروبي مستعد ان يساعدنا في حلها وانصراف الاحتلال عنها. ولكنها مسألة يعرف كل المصريين ان جلالتكم صاحبها وسيدها. واملنا عظيم في ان خليفتنا المحبوب يبدأ بما يحقق امانينا » [1] .

شخصيته في ادبه :

ألف وكتب وخطب . ومن مؤلفاته كتاب « مصر والاحتلال» و «المسألة الشرقية» وكان لكليهما صدى واسع . وقد أنشأ جريدة «اللواء» فكانت لسان حال الحزب الوطني الذي اسسه . وله فيها كثير من المقالات السياسية الهامة .

امـا خطبه فمنها مـا كان يلقيه في اوروبا او في مصر على الاوروبيين باللغة الفرنسية ، ومنها مـا كان يلقيه على الوطنيين باللغة العربية . وتتجلى في خطبه جميعاً شخصية المحامي القدير الذي يؤمن بحق قضية ويبذل كل قواه لاظهار هذا الحق وتوطيده ولو اردنا ان نحلل شخصية خطيبنا في دفاعه عن قضية بلاده لقلنا انها تمتاز بأربع خصائص هي : ايمانه بقداسة ما يدافع عنه ، جرأته وتفانيه في هذا الدفاع ، ومقدرته على اظهـــار الحق ، وحرصه على الكرامة الذاتية والقومية .

أما ايمانه فهو الذي حمله على ان يكرس حياته لخدمة وطنه وقضيته الرئيسية. وقد لقي مقاوماتٍ عنيفةً من خصومه في الخارج وفي الداخل . ولكن لم يزده الا ايماناً واندفاعاً. وقد كان يرجو ان يقنع اوروبا بحق وطنه وبوجوب الضغط على انكلترا لانهاء مدة الاحتلال . ويظهر لك عقيدته القوية في قوله :

« سأبقى حتى الممات حـاملاً لواء الاستقلال اذ أجد حياتي في هذه العقيدة وبغير هذه الشعلة الوطنية لا استطيع الحياة .... ولو انتقل فؤادي من الشمال الى اليمين ، او تحولت الاهرام من مكانها المكين ، لما تغير لي مبدأ ولا تحوّل

١) المصدر السابق ه – ١٥٣

لي اعتقاد ، بل تبقى الوطنية رائدي ونبراسي ، ويبقى الوطن كعبتي ، ومجده غاية آمالي » [1] .

وكان اكبر امله معلقاً على فرنسا وساستها الذين كانوا ينشطونه في جهاده ، وظلوا كذلك حتى تمّ الاتفاق بينهم وبين الانكليز على المسألة المصرية . فظن الكثيرون انه لم يعد للوطنيين من امل في القضاء على الاحتلال وان الامر انتهى عند هذا الحدّ .

اما مصطفى كامل فقد تلقى نبأ الاتفاق بقلبٍ لا يعرف اليأس ففي خطبته الشهيرة التي ألقاها في الاسكندرية في ٢٢ اكتوبر ١٩٠٧ شارحاً فيها رغائب الحزب الوطني قال :

« ولكنهم اخطأوا خطأً كبيراً . نعم اخطأ اولئك الساسة الذين يظنهم العالم كلُّه امهر الناس في تدبير الشؤون واعدادِ الحوادث ومعرفةِ المستقبل . اخطأوا لان العزلة التي اشرنا اليها بعثت فينا روحاً جديدة وارشدتنا الى الحقيقة التي لا قِوام لشعب بدونها ، ولا حياة لامة بغيرها — وهي كالفرد لا يكون آمناً على نفسه الا اذا كان قوياً بنفسه مستجمعاً لكل عُدَدِ الدفاع وآلات الذبّ عن الشرف والمال والحياة » . ثم يقول رداً على الذين يحاولون تثبيط همم الوطنيين المجاهدين : « ان العامل الواثق من النجاح يرى النجاح أمامه كأنه امرٌ واقع . ونحن نرى من الآن هذا الاستقلال ونبتهج به وندعو له كأنه حقيقة ثابتة وسيكون كذلك لا محالة . فمهما تعدّدت الليالي وتعاقبت الايام ، واتى بعد الشروق شروق ، واعقب الغروب غروب ، فاننا لا نمل ولا نقف في الطريق ولا نقول ابداً : « لقد طال الانتظار » .

★

ايمان شديد رافقه كل مدة حياته وجهاده — ايمان لم يعرف الخوف ولا

[1] مصطفى كامل لاحمد رشاد (١٩٥٨) ص ٢

التقيّة . فقد كان صاحبه صريحاً كل الصراحة ، جريئاً الى غاية الجراءة ، يقابل الخصوم وجهاً لوجه ويجابهم بما يدحض آراءهم ، ويبين خطلهم ودسائسهم . وفي الخطبة المشار اليها آنفاً يقول : «ان خطة الحزب الوطني ، الذي يعمل من سنوات طوال لانقاذ هذه البلاد والنهوض بهـا ، صريحة لا يصعب فهمها على انسان . فاننا جعلنا اساس سياستنا الصراحة ، ولم نلجأ في وقت من الاوقات الى الحيل والدهاء والتستر وكتمان ما نعمل عن الانظار» .

وقد اظهر هذه الصراحة في انتقاده لفرنسا التي كان يعتمد على مناصرتها حين تراخت ووهنت امام بريطانيا في مسألة فاشودة [1] .

ويضارع ايمانه وجرأته ، شعوره العميق بكرامة النفس والوطن . فقد نشأ خطيباً في زمن كان الشرقيّ فيه مبتلىً بمركب النقص او الشعور بالصغار الذاتي ازاء أبناء الغرب — يرى كل شيء غربي افضل من كل شيء شرقي . ولا غرو فقد فتح الشرقيون اعينهم في القرن الماضي ، فاذا الغرب قد تقدمهم شوطاً بعيداً في مضمار الرقي الاجتماعي والعلمي ، واذا دوله تملك القوات الحربية العظيمة ، ويتمتع رعاياها في الشرق بامتيازات خاصة مما صغّر نفوس الشرقيين وجعلهم عموماً ينظرون الى الاجانب نظر الضعيف الى القوي او الجاهل الى العالم ، بل نظر المسود المغلوب الى السيد الغالب . ولم تأخذ هذه الحال بالتغيّر إلا بعد ان نشأ بين الشرقيين طبقة من الذين توفروا على دراسة العلوم العالية ، واخذوا بنصيب وافر من الثقافة الحرة ، فعرفوا ما لهم وما عليهم . وهكذا كبرت نفوسهم فشعروا بكرامتها — لا شعور المتعصب الاعمى بل شعور البصير الواسع النظر — فهبّوا يدعون مواطنيهم الى ما يرفعهم ويعلي شأن بلادهم . وفي مقدمة هؤلاء مصطفى كامل الذي قال كلمته المشهورة معتزّاً بشرقيته ووطنه : «اني لو لم اولد مصرياً لوددت أن اكون مصرياً» . وقال : «قد يرى السفهاء والطائشون ان الانتساب لشعب مستعبد كالشعب المصري مما لا

---

1) احمد رشاد ص ١٥٠ .

يليق بانسان . ولكن ايُّ شرف يطمع الحر فيه اكبر من العمل لاحياء الامة التي سبقت الامم كافة في العلم والمدنية والادب - أيُّ رفعةٍ يسمى الشريف اليها اسمى من انهاض شعبٍ كان استاذ الشعوب البشرية ومربّي العالَم كله » . (راجع خطبته اغراض الحزب الوطني) . وقد ادرك هذا الزعيم ان العلم هو من اكبر الدعائم لانشاء جيل وطني حر . فأنشأ مدرسة عهد بادارتها الى اخيه علي فهمي وظل هو منصرفاً الى جهاده الوطني .

والذي يراجع سيرته ويتابع اطوار جهاده يرى ان الكرامة الذاتية صفة نشأت فيه منذ الحداثة ولازمتـه حتى الموت . على ان الايمـان والجرأة وطلب الكرامة ليست وحدها كافية للدفاع عن الحقوق الوطنية، فهي تحتاج الى مقدرة على اظهار الحق واقناع الناس به . وذلك مـــا نحسّ به في اقوال هذا الزعيم الوطني وعليه تقوم شهرته الخطابية . واليك تحليلاً موجزاً لأسلوبه الخطابي :

أسلوبه الخطابي :

قلنا انه قد نبـغ في أواخر القرن الماضي ثلاثة خطباء احدثهم مصطفى كامل. واول هؤلاء الثـلاثة اديب اسحق الذي توفي اذ كان مصطفى في الحـادية عشرة من عمره . والثاني عبدالله نديم وكان خطيبنا في الثـانية والعشرين يوم وفاته . ويمتاز الاول ببلاغته الانشائية وجمال ديباجته الخطابية . ويمتـــاز الثاني بقوة عارضته وجريان لسانه وقلمه بين التقليد والتجديد . وكان كلٌ منهما – مع ما يتّقد فيه من غيرة شرقية – اكثر نزوعاً الى الاصلاح الاجتماعيْ . اما مصطفى كامل فلا ترى في اقواله ما يدل على انه بلغ مبلغهما في الميدان اللغوي او اهتمّ اهتمامهما في المسائل الاجتماعية العـــامة . ولكنه فاقهما في اثارة الروح القومية وتكوين رأي شعبيّ عام يدافـع عن الكرامة الوطنية . ذلك لأن الرسالة التي حملها كانت اوضح ، وكان هو في تأديتها اقوى ايماناً وأشد مراساً ، وأقدر على الاقناع ، وأجرأ على الخصم في المصاولة .

ولقد اتفق الثلاثة في السعي لتحسين حال الأمة ورفع شأنها . على ان اديب اسحق والنديم لم يبلغا شأو مصطفى في النظر الى هدف معيّن، والسعي المتواصل نحوه ، ووقف الحياة عليه . وبينما كان الاولان يعتمدان الاناقة البيانية في اثارة الشعور العام ، كان خطيبنا يعتمد ايمانه الحي وحجته الراهنة وشعوره الفياض ، فيجيء كلامه قوياً بقوة ايمانه فيّاضاً من فيض شعوره . وهو ما تشعر به حين تسمعه في خطبه (رغائب الحزب الوطني) يقول لمن يتهمه وحزبه بالتطرّف : «نلقّب بالمتطرفين، ولماذا ؟ لأننا نطالب بحقوق مصر واستقلالها ، لأننا نذكّر انكلترا بشرفها وعهودها ووعودها ، لأننا نقول لهـــا بصوت الحقّ والاعتقاد القويّ ان المستقبل يكفل ذلك الاستقلال ... متطرفون لأننـــا نعلن ثقتنا الكاملة في مستقبل بلادنا ، ونقول لهذه الامة في الصباح والمساء : اليوم عُسر وغداً يسر ، اليوم امر وغداً فخر ، اليوم احتلال وغداً استقلال ، اليوم عناء وشقاء وغداً رخاء وهناء ! متطرفون لأننا نردّ تهم العدوّ ، ونثبت للعـالم كله اننـا متمدنون ، وانه ليس للتعصب بيننـا وجود ، وان الاسلام عامـل قوي لترقية الامة ونشر انوار المدنية فيها ! متطرفون لأننـا نمثل مصر للامم حيّـة ناهضة ، شريفة المقاصد ، ابيّة لا ترضى المذلة ولا تعرف الكذب والخداع . فان كنـــا نعتبر متطرفين لاننـا نعلن ذلك كله ، ولان هذه خطتنا فأكرم بالتطرّف ويا فخارنا ان نلقّب بالمتطرفين » .

وانظر الى قوة حجته وهو يخاطب المستسلمين لليـأس المتشائمين في نظرهم الى مستقبل امتهم اذ يقول : « كيف نيأس من المستقبل وقد ارانا التـاريخ أمماً حكمها الاجانب قروناً طويلة ثم قامت بعد الذل والاسترقاق مطالبة بحقوقها. واخرجت الاعداء من ديارها واستردّت حريتها وحقوقها . هي النفوس الصغيرة التي يخلق عندها الامل بكلمة او بتلغراف ، ثم يستولي عليهـا اليـأس بكلمة او تلغراف. اما النفوس العالية الكبيرة فيدوم فيها الامل ما دام الدم في العروق وما دامت الحياة »[1] .

---

١) من خطبة موضوعها مصر والدولة الملية .

ويكثر في كلامه استعمال ضمير المخاطب مقروناً باستعمال صيغة الطلب كقوله من الخطبة المار ذكرها : « فيا ايها المصريون المخلصون لمصر انشروا الحقيقة في امتكم وفي الامم الاخرى ، قولوا للمصري انه انسان من بني الانسان له حقوق الانسان تروه رجلاً كرجال الامم الحرة يحمل لواء الوطن بكل قوة واقدام . قولوا للفلاح المصري انـه خلق انسانـاً ككل انسان وان الله اعطاه في الحياة حقوق اكبر الافراد ، وان له صوتـاً لو رفعه لسمع في الملأ الاعلى ، وانه مـا خلق لأن يعمل لغيره بل ليعمل لوطنه ونفسه » .

وعلى هـذا النمط يستمر في كلامه مستثيراً النخوة والاريحية ، وموجهـاً القلوب نحو القضية الوطنية . وكما يكثر في كلامه الخطـاب والطلب ، يكثر تكرير العبـارات والالفاظ الهامة مما يثير الشعور او يوجه الافكار ، او يساعد على دعم الحجة ، او يجلو مـا غشيه شك وابهام ، حتى انـك لترى ذلك في احاديثه الشخصية كجوابه لمكاتب جريدة ايطـالية اذ قـال له : يقولون انك مهيّج ، فأجاب : « ليقولوا ما شاؤوا فانهم اعداء ظاهرون ونحن امة في ديارها مهاجَمون مسلوبون . نعم أنا مهيّج لأني اذكر الوطن ، بل مجرم لأني اقول بلادي ، بل سفّاك لأني أشهّر بالغاصبين ، بل افـّاك لأني اخاطب الحق ! أُهيّج انا لأني احاسب الانكليز على تصرفاتهم السيئة ... أُهيّجُ لأني مصريّ أحبّ مصر وعن يميني وشمالي بيوت خربهـا الظـلم ! أُهيّج أنا لأني اعتقد ان الدولة العلية روح مصر .. أُهيّج لأني ابكي نور العلم الذي كـاد يرحل من ديارنا ! أُهيّج ؟ اللهمّ ان كان المهيّج في نظركم من كان كذلك فاني اول المهيجين»[1].

خطبَ مصطفى كامل كثيراً ، وكتب كثيراً ، وأنشأ الصحف ، وقـابل وكاتب عدداً كبيراً من ساسة اوروبا وصحفييها ، وجاهد جهاد الابطال في سبيل وطنه – كل ذلك وهو لم يعش اكثر من ٣٤ سنة .

---

١) من الخطبة المار ذكرها .

ومما لا مراء فيه ان موهبته الخطـابية كانت اكبر عون له على نشر دعوته وحمل الجمهور على نصرته وتبنّي قضيته. وإذا جعلناه في مقدمة الخطباء السياسيين في نهضتنا الحديثة فلأن اقواله تجمع بين بساطة الاداء وقوة التـــأثير وجودة الاقناع جمعاً قلما تراه لسواه . يستوي في ذلك خطبه الطويلة وخطبه القصيرة . وما على محبّ الاطلاع الا ان يرجع الى هذه الخطب ليدرك ما بلغته، على بساطة لغتها وسهولة عبارتها ، من القوة على تحريك النفوس والاستيلاء على المشاعر.. ان خطبه ايمـــان وثقة ووطنية مجسمة بكلام يجري مع الطبيعة فيقبله ويتأثر به الخاص والعام . فلا عجب ان يستولي على امته شعور عميق بالأسى يوم وفاته . وقد عبر عن ذلك شاعر مصر حافظ ابرهيم اذ قال في احدى مراثيه :

أيا قبر هذا الضيف آمـال امّة ... فكبر وهلل والق ضيفك جاثياً

ومنها يشير الى المحتلين :

هنيئاً لهم فليأمنوا كلّ صائحٍ ... فقد أُسكت الصوت الذي كان عاليا
ومـات الذي احيا الشعور وساقه ... الى المجد فاستحيا النفوس البواليا

مات مصطفى كامل بعد ان ألهب قلوب مواطنيه بعاطفة الاستقلال . وكان يرجو ان تتحقق امانيه بمساعدة فرنسا وبالدعوة لتركيا ، ولكن امله في الاولى خاب بعد ان ابرمت مع بريطانيا معاهدة ١٩٠٤ ، كما خـاب في الدعوة لتركيا لأن هذه لم تستطع ان تساعده بشيء ، حتى ولا بالمحافظة على حقوقها الاسمية في وادي النيل .

ومع كل ذلك ظل يجـــاهد الى النهاية . وهدفه التخلص من النير الاجنبي ورفع امته الى مستوى الامم الحرة . ومهما كان سبيله الى ذلك فان جهاده كان المؤلد الاكبر للروح الوطنية الطامحة الى الحرية والاستقلال .

وقد شهد له معاصروه فقال فيه كاتب منهم كبير :

« أما مصطفى فكان يغزو قلوب الشبان . وكان اذا أعلن عن خطبة يلقيها تجمّع الالوف لسماعه »[1].

---

١) كتاب تربية سلامة موسى (مصر ١٩٤٧) ص ٤٩

امين الريحاني

(١٨٧٦ – ١٩٤٠)

في ترسّله الخطابي

ولد الريحاني في قرية الفريكة بلبنان ، وهي قرية صغيرة ولكنها اصبحت به ذات شهرة واسعة ، وفيها تلقى دروسه الابتدائية . ولما بلغ الثانية عشرة هاجر مع بعض ذويه الى نيويورك طلباً للرزق ، واستقر معهم في بعض احيائها الحقيرة . ومنذ ذلك الحين حتى توفاه الله وهو في الرابعة والستين ، تقلبت عليه اطوار شتى أصبح في نهايتها علماً من اعلام الادب في الشرق والغرب. وها نحن الآن نستعرض هذه الاطوار وما تركه لنا فيها من آثار ، وخصوصاً ما يتعلق بمواقفه الخطابية ودعوته الى الثورة الفكرية .

الطور الاول : وهو طور الاستعداد والاختبار ، ويشتمل السنوات العشر الاولى من حياته في دار غربته . في هذا الطور كان الريحاني يمشي في طريق شائكة من الاختبارات المرّة .

فمن جهة كان عليه رغم حداثته ، ان يساعد ذويه في تحصيل الرزق ، وان يشاركهم في تحمل الحاجة الشديدة وضنك العيش . ومن جهة اخرى كان عليه

ان يتعلم اللغة الانكليزية . وفي خلال ذلك نشأ فيه ميل الى مطـالعة الادب الافرنجي . فلما تقدم في اللغة شرع يدرس مؤلفات بعض من كبار الادباء العالميين كشاكسبير ، وبيرون ، وفولتير ، وروسو وسواهم . وهكذا اخذ ينمو في الحياة الادبية ومازال حتى أتقن الانكليزية والم بكثير من ادبها .

وتشاء الاقدار ان يقع في حلقة من عشراء السوء ، فجاراهم في ارتيـاد اماكن اللهو والمسكرات مما احنق والده عليه فاضطر ان يترك بيت والده ويلتحق بفرقة للتمثيل ، وبقي يلازمها ثلاثة اشهر قضاهـا في اللهو والعبث والمجون ، ثم ثاب الى رشده وعاد تائباً الى بيت والده ، مصمماً ان يغير مجرى حياته ويعيش كما يليق بأصحاب الجدّ والعمل المنتج .

هو الآن في الثانية والعشرين ، وقد خطر له ان يدرس الحقوق فأخذ يتهيأ في مدرسة ليلية لامتحان الدخول الى معهد الحقوق ونجح فعلاً في دخول السنة الاولى. ولكن سرعان ما وجد ان دروس الحقوق اجفُّ من ان تروي ظمأه، فتركها مسوقـاً بفطرته الى المطالعات الادبية . وصار يعاشر ادباء المهجر ويبادلهم العواطف والخواطر ، وفي الوقت نفسه يقبل بشغف على دراسة كبار الكتّاب والعلماء امثال رينان، وتان (Taine) ، وكارليل ، وداروين ، وهيوم وسواهم . ويمكن القول ان اشدهم تـأثيراً في نفسه كان شاكسبير وكارليل وفولتير .

وساءت صحته فعاد الى لبنان سنة ١٨٩٨ فقير الحـال خائب الآمال . وفي لبنان استعاد نشاطه وآماله . وهناك اخذ يقابل في نفسه بين ما كان يشاهده في البلاد الشرقية من تأخر فكري ، وجمود اجتماعي ، وتعصب ديني ، وما اختبره في بلاد الغرب من تقدم وحرية وتساهل .

فاضطرمت نفسه نقمة من سوء الحـال ، ورغبة في الدعوة الى الاصلاح . ولكن انّى له ذلك وهولا يملك زمام العربية. وكان شعوره بالحاجة اليها دافعاً له الى درسها جيداً . فقضى نحو سنتين يسعى الى هدفه المنشود. وفي تلك الاثناء

شغف بـأبي العلاء المعري ، ورأى ان ينقل بعض شعره الى الانـكليزية ، وفعلاً شرع في هذا العمل الادبي .

وهنا ينتهي الطور الاول من حياته الادبية . ويلخص بأنه طور العنـــاء المـادي والفكري والاختبارات القاسية . وفي نهـايته يعود الى اميركا لا يحمل من وطنه اللبناني غير رغبة ملحة في الادب والاصلاح ، وروحٍ طامحة الى التقدم والفلاح .

الطور الثاني : وهو طور الاشراق والازدهـار ويمتد نحواً من ٢٢ سنة . على انه لم يقضِ هذي السنين مستقراً في مكان واحد . فقد عـاد من لبنان الى العـــالم الجديد حيث نشر سنة ١٩٠٣ ترجمته لرباعيات ابي العلاء ، فقوبلت باستحسان عظيم في الاوساط الادبية الاميركية ، وكانت سبباً لتـألق نجمه في سماء الادب .

ولم تطل اقامته في اميركا هذه المرة غير بضع سنوات كان في خلالها يرسل المقالات الى الجرائد الاميركية والعربية ، ويلقي الخطب في نوادي المهاجرين . واول خطاب له هناك ألقـاه سنة ١٩٠٠ في حفلة عامة لجمعية الشبان المارونيين ، وكان له صدى بعيد . وهو طويل موضوعه «التساهل» حمل فيه على التعصب ، ونادى بوجوب التساهل بين الطوائف كقوله : « فلتجمعنا الوطنية اذا فرقنا الدين . التساهل هو اساس التمدن الحديث ، وحجر زاوية الجـامعة المدنية — التساهل أوجد الترقي والتقدم في كل فروع العلم والدين والفلسفة — التساهل ايّد سلطة الضمير ومحق السلطة التي لم يُنزل الله بها من سلطان » .

بمثل هذه الاقوال خاطب شباب المهجر وارسل صوته عالياً في كل مكان . وكان حيثما حل وفي كل سانحة ، ينادي بهذه الرسالة الانسانية. واخذت الجرائد في المهجر وفي الوطن تشير اليه والى رسالته واقواله . ولا عجب فان القلوب في اوائل هذا القرن كانت متعطشة الى مثل هذه الرسالة . فالتعصب الديني كان مسيطراً على النفوس ، وكان الجميع يشعرون بأضراره البـالغة ويودون لو يعمّ

الوئام بين شتى الطوائف في الشرق .

فلما عاد الريحاني الى لبنان ثانية – وذلك قبيل اعلان الدستور العثماني سنة ١٩٠٨ – كان له اسم معروف فصار يدعى الى الحفلات العمومية للخطابة . وفي العهد الدستوري الذي بقي نحو خمس سنوات (١٩٠٨ – ١٩١٣) عرفته المنابر الشرقية خطيباً وطنياً يجلو للجماهير بطريقة جذابة معنى الرقي الحقيقي والحياة الدستورية الصحيحة . وله في هذا العهد خطب مشهورة سنشير بعد الى بعضها .

ومما ظهر له في هذه الاثناء الجزآن الاول والثاني من الريحانيّات . وفي سنة ١٩١١ الفّ بالانكليزية كتابه «خالد» فقصد نيويورك حيث سلمه لشركة نشر . وعاد بعد ذلك الى لبنان فبقي فيه الى ما قبيل الحرب العالمية الاولى . ثم سافر الى اميركا واقام فيها مدة الحرب . وهناك أخذ بفكرة تحرير الاقطار العربية فصار يكتب في الصحف الاميركية حاملاً على المانيا وتركيا . فلما كانت سنة ١٩١٥ نشر كتاباً باللغة الانكليزية تحت عنوان « زنبقة الغور » ، وهو قصة اجتماعية جرت وقائعها في فلسطين . وفي تلك السنة تجمعه الصدفة بفتاة اميركية احبّها واصبحت بعد حين زوجته .

واشتد اوار الحرب الاوروبية فأوفدته مجلتا « البوكمن » و« الفوروم » الى الجبهة الغربية ليكون على كثب من الجبهة وليطلعها على الوضع الحربي. فذهب مع زوجته وزار باريس حيث التقى ببعض ادباء الشرق كشكري غانم ، وخير الله خير الله . ولما اشتد الخطر على فرنسا رحل الى اسبانيا وطاف فيها مطلعاً على آثار العرب المجيدة . واذ دخلت اميركا الحرب سنة ١٩١٧ خشي ان تنقطع طرق المواصلات بين اوروبا واميركا فعاد مع زوجته الى نيويورك .

وفي نيويورك عهد اليه سفير فرنسا ان يذهب الى المكسيك ليعمل في سبيل الحلفاء بين المغتربين السوريين واللبنانيين هناك . فذهب الا ان اقامته في المكسيك لم تطل اذا اضطرته حكومتها ان يرحل عنها . فعاد الى نيويورك يستأنف نشاطه الخطابي والكتابي لخدمة القضية العربية ، ويحضّ المغتربين على

التطوع دفاعاً عن الاوطان واكتساباً لحريتها واستقلالها .

وفي هذه الاثناء أتمّ كتاباً (بالانكليزية) عنوانه « خارج الحريم » نشرته له شركة اميركية . ورأى عقب انتصار البلاشفة وانقلاب الحكم في روسيا ان يكتب بالانكليزية تاريخاً لهذه الحركة وقد نشره سنة ١٩٢٠ تحت اسم « تحدر البلشفية » وتبعه سنة ١٩٢١ كتابان هما «مسلك الرؤيا» و «انشودة المتصوفين». والاول مجموعة من المقالات عالج المشاكل الاجتماعية والروحية في الغرب والشرق . أما الثاني فمجموعة قصائد تعبر عن اشواق في نفسه .

الطور الثالث : طور السعي العملي في سبيل العروبة . وهو يقع بين ١٩٢٢ وسنة وفاته ١٩٤٠

كان الريحاني قد حظي في اواخر الطور الثاني الذي سبق ذكره بشهرة واسعة واصبحت كبريات الجرائد الاميركية والانكليزية والشرقية تتسابق الى نشر كتاباته . وراودته سنة ١٩٢٢ فكرة القيام برحلة الى البلدان العربية . فبدأ بها ماراً اولاً بمصر حيث احتفى به رجال الأدب والصحافة في عدة حفلات اشترك فيها كبارالشعراء والكتبة. ومن مصر رحل الى الحجاز، فاليمن، فعسير ، فعدن وسائر المحميات . ثم قصد بمباي في الهند ومنها تقدم الى العراق حيث قضى شهراً من الزمان . ثم اقلع الى البحرين ومنها الى نجد حيث اقام ستة اسابيع في ضيافة ابن سعود . وبعد ذلك زار الكويت وعاد الى البحرين ثم الى عدن ثم الى العراق عن طريق بومباي . رحلة دامت نحو سنة حل فيها ضيفاً على ملوك العرب وامرائهم ، وكان يُقابل اينما حل بحفاوة واكرام . والذي يؤخذ مما كتبه ومما قيل عنه ، ان غرضه من هذه الرحلة كان اولاً وضع كتاب عن مشاهداته في البلدان العربية. وثانياً السعي لجمع كلمة العرب وتوطيد اسس التعاون والتفاهم بين زعمائهم . ولا نعلم ان احداً تمّ له في هذا السبيل ما تمّ لهذا الكاتب الذي جمع في نفسه بين روح الشرق وثقافة الغرب فجاء ادبه مزيجاً ممتازاً من كليهما .

كان من نتائج رحلاته العربية اصداره كتابه المشهور « ملوك العرب » سنة ١٩٢٤ ثم غيره من الكتب والخطب والمقالات بالعربية، ومنها تاريخ نجد ١٩٢٧ وكان ينظر الى ابن السعود كالسلطان الامثل للعرب . وقد الف بالانكليزية حول هذه الرحلات عدداً من الكتب. وفي ١٩٢٧ قصد انكلترا واميركا لنشر هذه الكتب وقضى ثلاث سنوات هناك ثم عاد الى وطنه في الشرق. وفي وطنه اصطدم بالانتداب الفرنسي لحملاته في خطبتـــه « بين عهدين » على الاستبداد ومريديه فابعدته السلطة سنة ١٩٣٣ من لبنان وبقي مبعداً ثلاثة اشهر قضاها في العراق ضيفاً على ملكها غازي بن فيصل الاول .

وفي اواخر سنة ١٩٣٦ قصد اميركا مرة اخرى وقدم فيهـا عدة محاضرات خدمةً للقضية العربية . ثم عاد الى لبنان حيث استقر الى ان وافـــاه الاجل المحتوم سنة ١٩٤٠ .

كان الريحاني كما رأينا ، كثير التنقل بين الشرق والغرب ، لكن قلبه لم يبارح بلاده العربية التي احبها وجـاهد في سبيلها . وقد قدر له الجميع اخلاصه في مساعيه وكتاباته لتوحيد كلمة العرب وتقوية اواصر الإخاء والتعاون بين امرائهم . ولم يكن في ذلك مجاملاً او مداجياً ، فالذي يقرأ ما كتبه لا يسعه الا ان يعجب بصراحته وانتقاداته وطريقة معـالجته لادواء الشرق الاجتماعية والسياسية . فلما توفي شعر العالم العربي انه خسر رجلاً من رجاله الذين قلما يجود بمثلهم الزمان .

رسالته في ادبه :

ترك الريحاني كثيراً من الآثار الادبيّة من كتب وخطب ورسائل . ولما كان غرضنا هنا النظر في أدبه كخطيب اجتماعي فسنحصر نظرنا في خطبه ولا سيما ما دوّن منها في كتابه «الريحانيات» . واذا قلنا خطبه فنحن نعني ما ألقاه القاه من على المنابر ، او مـــا ارسله بروح خطابية على صفحات الجرائد . فان

خطابته عند التحقيق نوعان منبرية وصحفية .

وقد مرّ معنا ان اول خطبة عربية له هي التي ألقاهـــا في نيويورك سنة ١٩٠٠ . امـــا سائر خطبه العربية فكان معظمه مما ألقي في الشرق العربي وخصوصاً في بيروت خلال العهد الدستوري . ففي بيروت وما يجاورهـا نجد له في الريحانيات (بين ١٩٠٨ و ١٩١٣) ما لا يقل عن ١٥ خطبة نذكر منها هنـــا : الحرية والتهذيب – الثورة الادبية – حول المساواة – هنـــا وهناك وهنالك – المدينة العظمى – قيمة الحياة – الشعب والسياسيون – الاخلاق – روح الثورة . واكثر خطبه طويل يتطلب اكثر من ساعة القـاء . وقد حضرنا بعضها ورأينا السامعين يصغون اليها مستلذين مـــا يسمعون لا يشعرون بملل او تعب .

ولو راجعت هذه الخطب لوجدتها على اختلاف موضوعاتها ومناسباتها تنضح بروح واحدة وترمي الى هدف واحد هو الاصلاح الاجتماعي القـائم على محاربة التعصب والخرافـات والجهـل والاستبداد والجمود – والاخذ بأسباب التهذيب الروحي والخلقي لادراك الحياة المثلى .

نشأ الريحاني في بيئة دينيّة ضيّقة جداً ، ورأى ما كان لرؤساء الدين في تلك البيئة من سيطرة على العقول والنفوس ، ومـــا كان بين شتى المذاهب من تعصب ديني شديد . فلما حملته الهجرة الى العالم الجديد واخذ يحتك بحياة الناس هناك شعر بجوّ جديد ، اذ وجد نفسه في مجتمع ليس فيه اثر لسيطرة يتمتع بها الرؤساء ، او تعصب تتعـادى به الطوائف ، فالنـــاس على اختلاف عناصرهم ومذاهبهم تربطهم معاً رابطة الوطن والمصالح القومية . فكان لذلك تأثير في نفسه الحساسة ، وشعر بدافع يدفعـه الى رفع صوته داعيـاً ابنـــاء وطنه الى التساهل الديني والاخاء الوطني . وقد رأينا اثر ذلك في خطبته الاولى التي القاها في نيويورك على الجـالية المارونية ، والتي لفتت الانظـار اليه وهو لا يزال في الرابعة والعشرين من عمره وفي بدء حياته الادبية . والواقع ان هذه الدعوة

لازمته كل ادوار حياته. وهي تنعكس الينا من مقالاته كما تنعكس من خطبه: « أليس في وسع المرء ان يعيش في هذا العالم دون ان تطبع روحه بطابع الملّة، وتصبغ بصبغة الطائفة ؟ الا يقدر أن يكتسب ثقة اخوانه دون ان يعلن تشيعه ويفاخر بتعصّبه ويكابر بغيرته الدينية .... ألا يستطيع ان يصلي دون ان يسب ويلعن ويتمنى لمن لا يصلي مثله الاصطلاء بنار ابدية (من مقاله مناهج الحياة) . تلك اسئلة كان يوجهها الى المهاجرين في اميركا ، وكان يوجّه مثلها الى مواطنيه وهو في سوريا ولبنان . وكثيراً ما كان يبالغ في القسوة على الرؤساء، ويتمادى في الحملة عليهم زاعماً انهم اصل بلائنا الروحي والاجتماعي كقوله من خطبة ألقاها في بيروت [1] : « واما الكهان فهم اول من عاثوا في الارض فساداً — هم اول من قيّدوا النفوس البشرية واستعبدوها — هم اول من تاجروا بالخداع والتغرير . والكهّان اليوم او رؤساء الاديان كلّها هم اعداء الحرية الروحية الادبية » .

ولا شك انه مبالغ في تعميمه هذا ، ولكنه إنما اندفع اليه بغيرة وطنية ملتهبة حجبت عنه الوجه النيّر من الخدمات التي كان يقوم بها كثيرون من افاضل الرؤساء في المجتمع .

وكان خطيبنا الريحاني ناقماً سوء الحالة الروحية في وطنه ، ثائراً على ما يحسبه ضاراً من عوائد وتقاليد وخرافات . ولا يعني ذلك إنه كان ثائرا على المبادىء الروحية التي تبشر بها الاديان بل بالعكس كان متحمساً لها. فكما كان يهاجم الدين الاجوف القائم على الجهل والخرافة والتعصب الاعمى ، كان يهاجم المادية العمياء في المدنية الحديثة . وانما قيمة الحياة عنده في الانسجام بين القوى العقلية والروحية والمادية في الانسان [2] . ان الحياة الحقة هي التي تجمع بين

١) الريحانيات ٢ — ٥٢ .
٢) راجع مقال قيمة الحياة ٢ — ٦٧ .

محاسن فلسفة الروحيين وفلسفة الماديين . هي التي تعظم فيها قوة عمل الجسد وقوة العقل وقوة الروح (١) .

واذا التفتنا الى الحياة الدستورية في الامة نراه يهلل لها ولكنه يحاول توجيه الشعب الى ان النظم والدساتير ليست شيئاً اذا لم تكن مدعومة برأي عام مهذّب يدرك معناها .

وعلى ذلك نسمعه يخاطب الحكومة العثمانية التي تمّ على يديها اعلان الدستور فيقول: «على حكومتنا الدستورية اذن ان تنتبه إلى هذا الامر الخطير ان كانت ترجو ان ترتقي الامة وتحيا . على حكومتنا ان تباشر تأسيس المدارس الوطنية العمومية الاجبارية المجانية المجردة عن كل صبغة دينية . وان كانت لا تباشر قريباً فلا ترج يا اخا الحماسة كبير خير من هذا الانقلاب ومن هذا الدستور ومن هذا المجلس النيابي » (٢) .

وفي خطبة اخرى يصف الزعماء المغرورين الذين لا همّ لهم الا مآربهم . ثم يصف الشعب الضعيف الجاهل الذي لا يعرف الا الوقوف مع الواقف والتزلف الى القويّ فيقول : « فاذا قال السياسيون ان صوت الله في صوت الشعب ، فانهم يقولون ذلك يوم يكون الشعب خادماً مآربهم السياسية ، فيوم ينقلب الشعب تنقلب ولا شك الآية . يوم تصرخ الجماعات فلتسقط الصحافة الحرة ، تقول الحكومة المسلولة ان هذا صوت الله. ولا تكاد تنتهي من تهليلها حتى تصرخ الجماعات فلتسقط الحكومة فيقول اذ ذاك الحكام انه لصوت ابليس . والحقيقة ان ابليس بريء من هذا الشعب وان الله بعيد عنه . الحق يقال ان صوت الشعب هو صوت ابي براقش لا صوت ابليس ولا صوت الله ، الحق يقال ان ابا براقش هو معبود الشعب . ومعبود السياسيين » (٣) .

١) الريحانيات ٢ — ٨٠ .
٢) من مقال الحرية وحدها لا توحدنا (الريحانيات ٢ — ١٦٦) .
٣) الشعب والسياسيون الريحانيات ٢ — ٩٨ .

واذ يتحدث عن الثورة الادبية يناشد الشبيبة باسم الحرّية التي بعثت من غور ماضينا حياة جديدة ان يطردوا الخوف والتقيّة والذلّة والجبن من قلوبهم، داعياً اياهم ان يرفعوا اعلام الآداب في البلاد ، ويشيدوا صروح التهذيب والفنون ، « فان الآداب والتهذيب والفنون هي القوى الادبية الروحية التي يتآلف فيها العلم والدين ، وتمتزج فيها روح الحقيقة وروح الجمال – اجل هي القوى التي يتوقف عليها تحرير الانسان وتحرير الشعوب والامم » [1] .

تلك كانت رسالته في جميع خطبه الدستورية ، وتتلخص بقوله ان الحرّية الجوهرية الكاملة لا تسود ولا تنتشر في الامم الا بواسطة العلم الصحيح والتهذيب الصحيح .

وهو يرى ان اساس الاصلاح قائم على تحرير العقول من الاضاليل التي تفسد الاخلاق وتضعفها ولا يكون ذلك الا بالعلم « فالعقائد الفاسدة لا يزيلها غير العقائد السليمة . والقانون لا يجرؤ على اقتلاع شجرة الخرافة من اصولها لان ذوي المصلحة الذين يتاجرون بسمها وثمارها كثيرون. العلم الصحيح وحده ينبّه من خدّرته التقاليد والخرافات ، وينعش منه النفس والجسد . اما القوانين والاحكام فتعجز عن اصلاح ما افسدته من الاخلاق . ان عصرنا لهو عصر البحث والنقد والتمحيص . واذا كانت لا تسود هذه الروح – روح الزمان الراقية في آدابنا واديانا وسياساتنا واجتماعياتنا فلا تصطلح اخلاقنا ابداً ، ولا تفك فينا قيود العقل والروح » [2] .

والريحاني ، خطيباً وكاتباً ، صريح لا يحابي بل يحمل رسالته التهذيبية الروحية بجرأة في كل مكان – ترى ذلك في اقواله وهو يخاطب المغتربين والاميركان ، كما نراها وهو في الشرق يخاطب ابناء قومه المقيمين. روح واحدة تلمسها في اميركا اذ يحمل على شوائب المدنية التي ترهق العامل والفقير ، والتي

١) الثورة الادبية الريحانيات ٢ – ٥١ .
٢) مقاله (الاخلاق) – الريحانيات ٢–٢٢١ .

تسمح للآلة ان تتحكّم بالانسان ، وللقلّة أن تستبد بالكثرة ، وللمادة ان ان تسيطر على النفس والروح .

وهي هي التي تظهر في العهد الدستوري بالدعوة الى العلم والفضائل الخلقية والثورة على الجمود والتقاليد والسير مع مواكب الامم الراقية .

وتتميّز ابّان جهاده في سبيل القضية العربية بالحض على الإخاء العربي ، ونبذ الضغائن والترّهات التي تضعف القومية ، والتعاون المخلص لتوطيد الاستقلال ، والتحرر من قيود الانانية والتخاذل والجهل التي هي عنده آفة العرب في هذا العصر .

أسلوبه الخطابي :

ان الريحاني كأكثر الذين هاجروا قبل اتقان لغتهم الوطنية ، وانصرفوا الى دراسة الآداب الاجنبية ، كان في اول امره ضعيف العبارة العربية . على انه لم يلبث بالدرس والممارسة ان تغلّب على هذا الضعف واصبح من الكتاب الذين يشار اليهم بالبنان .

والذي يراجع ما ألّفه باللغة العربية من كتب ومقالات وخطب يشعر ، برغم ما قد يؤخذ على امثاله من خروج عن الاصول ، بلطف جذاب في اسلوبه ، وسعة في مدى اطلاعه ، وبراعة في تصويره وتحليله . فمذهبه في اللغة كمذهب اكثر الذين نبغوا من كتّاب المهجر هو استعمال اللفظ الدمث المعبّر لا عن المعنى فقط بل عن شعور الكاتب ايضاً . ومن اقواله في ذلك[1] : «ان رقيّ اللغة لفي الخروج على السجع العقيم من مألوفها مع المحافظة على روحها . لست في المفردات الشدياق ، ولست في الاوضاع اليازجي ، ولا انا من الطامعين بمثل هذا الغنى . ولكنني اعلم ان مزية الالفاظ هي فيها قائمة بنفسها ... ان للألفاظ

١) راجع مقاله « روح اللغة » الهلال ٣٠-٣-٤

ما سوى الرنّة والوزن بل الموسيقى والشكل ألواناً ايضاً ، وروائع في ما دق وشف ، وتماوج وفاح من معانيها – اجل ان في الالفاظ ما تعد في الاحياء لها مرونة البان ، وصلابة السنديان ، وسلاسة الماء الجاري ، وشذا الرياحين ، وزمزمة الرعود ، وصفير البلابل ، وهمس النسيم ، وايحاء الالوان ، مما يجعلها لدى الكاتب كنزاً في الانشاء والابداع » . وعلى هذا الاساس اخذ يبني صرح كتابته حتى بلغ مقاماً مرموقاً في التعبير البياني الذي نراه في كتابه « ملوك العرب » .

أما اسلوبه الخطابي فلا يختلف عمّا نعهده في الخطابة الجيدة من قوة في الاقناع والتأثير قائمة على جودة التمثيل والتفكير. ويكثر فيه استخدام الاستفهام الانكاري او التعجّبي وتكرير العبارات المثيرة والموجهة . وقد اصاب احد كتاب سيرته اذ وصف اسلوبه الخطابي بقوله[1]: « والخطابة لدى الامين وسيلة تعبيرية كغيرها يتخذها لاداء رسالته الاجتماعية الانسانية – تثور نبرته او تتزن حسبما تقتضي المواقف ، ولكنها تنمّ دائماً عن اقتناعه الاكيد بما يقول ، يؤيد ذلك جيَشان حيويته ساعة الكلام فكأن كل لفظة وكل ايماء يتمخّض عن شعوره الواعي – يورد الامثلة الواقعية والاستعارات الموحية ، ويتعمد السجع المحكّم الايقاع ، ويجسّم الحقائق بشكل بارز بليغ ليتسلل تدريجياً الى وجدان (السامعين) فيوحي اليهم ما يشاء ».

ومن امثلة طريقته الاقناعية قوله من خطبته «الثورة الادبية» ، وذلك بعد ان وصف كلاً من مدنية الغرب ومدنية الشرق وابرز خصائصها لسامعيه: «نحن اليوم بين هاتين المدنيتين – مدنية غازية منتصرة ، واخرى مُدْبِرة. فعلينا اذن ان لا نخضع على الاطلاق لهذا الفاتح ، وان نتمسك بما في مدنيتنا من الخير الروحي . ولا ينجينا من استبداد هذه المدنية الفاتحة القاهرة ، ويحفظ لنا حسنات تلك المدبرة سوى الآداب . لا اريد بالآداب الكتب فقط بل اريد

---

١) جميل جبر في كتابه « امين الريحاني » ،طبعة فاضل وجميل ص ٤٠

آداب النفس اولاً والاخلاق . ان الدين ابا مدنية الشرق يرفض بتاتاً مدنية الغرب ، وان العلم المادي وهو إله مدنية الغرب يرفض بتاتاً مدنية الشرق ، فالدين والعلم في هذا الموقف متغرضان كلٌّ لقومه ، ولا ينفعنا الواحد منهما دون الآخر ... احبّ ان ارى في بلاد الشام وبلاد العرب ثمار الانبياء وثمار العلماء على شجرة واحدة – شجرة لا غربية ولا شرقية » .

وفي محاولته تحريك الشعور يعمد الى الاسئلة المثيرة كقوله (1) : « جبالنا المقدسة ! أيهجر بنوك حقول السكينة فيك ليتلوثوا بأوساخ السياسة وأوحالها ! أيهملون أرضك فتصير بوراً، وغاباتك فتصير صخوراً ، حباً بمنصب في الحكومة يذلّ النفس ويفسد الحياة ! الى الحقول اخواني الى الحقول ! ليرعَ كل منا خويصّة نفسه ، ليشتغل كلٌّ منا عن اصلاح الناس باصلاح شؤونه. ليتعهد ارضه بالحراثة والتربية ، فيصطلح عندئذٍ لبنان ، ويصطلح شعب لبنان ، وتصطلح حكومة لبنان » .

وقد يعمد الى تكرير اللفظة او العبارة مع شيء من التهكّم وخصوصاً في تعريفه لبعض الكلمات الهامة ، كقوله (2) في الحرية :

« الحرية جمال يزدهي في أعمدة الصحافة واندية الأمة – الحرية مجد انسى التجار اشغالهم والاتقياء فروضهم وانفالهم – الحرية إلهة هجرت الامة معابدها لتعبدها » .

ويكثر ذلك في اقواله المسبوكة بقالب الشعر المنثور ، وهو قالب شُغف به وكان من رواده في ادبنا الحديث(3). وهاك قطعة للتمثيل من مرثاته للملك فيصل الاول :

1) الريحانيات ٢
2) الريحانيات ٢–٣٥
3) راجع له في الريحانيات ما يلي : هجروها ٤ - ٣٤ ، وانا الشرق ٤ - ٤٠ ، ومصر ٤ - ٤٩ ، ورب العراق ٤ - ٥٤ ، ورفيقتي ٤ - ٥٩ ، ونفحة من لؤلؤة ٤ - ٧٧

حلّق النسر في الفضاء بعيدا
رجع النسر في الفضـــاء شهيدا
شهـيداً يكفّنه السحاب
شهيـداً تشيّعـه النجـوم
شهيـداً نعتـه شمس الضحى
شهيـداً حملته أكفّ السما
فكان عليّـــاً وكان حميدا

والذي نذكر ان أهم خطبه المتـأخرة جاءت من الشعر المنثور ، ولعلّه اولع به متأثراً بالشاعر الاميركي والت وتمان .

ومما يبرز في اسلوبه الخطابي « الطباق والمقابلة » ، وكثيراً ما يجيء بهما في عبارات مسجّعة او متوازنة مثل قوله في الريحانيات : « اطلبوا الحرية الروحية التي تحصّنها الآداب ، قبل الحرية المدنية التي تتاجر بها الاحزاب » (٢–٤٨) . «فبدون الناموس (القانون) يستبدّ الحاكم ويوغل في الطغيان ، وبدون التهذيب يستبد الشعب ويمعن في العصيان » (٢–٣٩). « ان المرء يحتاج الى من يذكّره بأنه من ابناء اليوم لا بقايا الامس، يحتاج دائماً الى من يهمس في اذنه او يصرخ في وجهه انك انسان حرّ لا آلة في يد هذا او ذاك » . الى قوله : « أن مثل هذه النهضات الروحية ، مثل هذه الثورات الادبية ، وان كانت عاقبتهـا اليوم غير مرضية فهي غداً للنفس منعشة مُحيية (٤–٥٣) . « ضحكت مصر في ليالي الغمّ ، وبكت في فجر الابتهاج » (٤–٥٣) . « هي اول من حمل ميزان القسط ، واول من استرقّ العباد . لهـا الصولجان المرصّع ماساً ، ولها السـوط الملطّخ دماً » (٤–٥٠) . « هي الحرية ابتسمت في الحجـاز ابتسامة المريض ، وبكت في تهامة بكاء اليائس ، وضحكت ثم تأوّهت في اليمن ، وجلست تستريح في العراق » . وقس على هذه العبارات كثيراً من امثالها .

ولو استعرضنا آثار الريحاني الادبية – الكتابة والخطابة لوجدناها ترفل بأثواب قشيبة من طرافة الوصف ودقة الملاحظة وجمال التصوير ، مع لطف في النكتة وقوة في التهكم وجرأة في النقد . والذي يقرأ ما كتبه بالعربية بعد رحلته في الجزيرة ومقابلة ملوكها وامرائها – يتضح له ذلك بأجلى بيان .

وافضل مثل على جرأته كتابه « النكبات الذي حمل فيه على النظر الى الماضي والتغني بمآثر الاسلاف . وهو يرى ان البلاد السورية وتشمل لبنان لم تكن في الماضي الا موطئاً لاقدام الفاتحين من اشوريين الى فرس ويونان ورومان وصليبين واتراك ، ثم جاء الانتداب فكان خاتمة هذه المأساة . ولما كان سبب كل النكبات عنده هو عدم التجانس الاجتماعي والتعصب الطائفي الذميم فقد اندفع يدعو قومه الى ما يوثق عرى الالفة والتعاون بينهم . فهو يقول لهم : « اقرأوا التاريخ لتدركوا اللب فيه ، فتنسوا اذ ذاك قريضه وقوافيه . اقرأوا التاريخ متفهمين روحه وروح ابطاله فتتعودوا اذ ذاك ان تنسوا الماضي . انسوا الماضي – انسوه غير آسفين ، وتعالوا نكتب صفحة جديدة في تاريخ هذه البلاد » . وقد ثار كثيرون عليه لاجل ذلك ولكنه لم يبال بثورتهم .

هكذا كان الريحاني ينظر دائماً الى الامام، مناضلاً يحارب الجهل والاستبداد والضعف . وقد توفي مخلّفاً للأجيال بعده آثاراً ادبية ممتازة ، وروحاً وطنية صادقة ، واسماً خالداً مهما تقادم عليه الزمان .

ميّ زيادة

١٨٨٦ — ١٩٤١

اسمها الاصلي « ماري » وسنرى بعد كيف تحوّل الى ميّ . وهي ابنة اب لبناني وامّ فلسطينية . ولدت في الناصرة حيث كان والدها الياس زيادة يتعاطى مهنة التعليم . وفي مدرسة الناصرة تعلـّمت حتى بلغت الثالثة عشرة من العمر . ثم رأى والداها ان يرسلاها لاتمام دروسها في لبنان. فاختارا لها مدرسة للراهبات في عينطوره حيث بقيت حتى سنة ١٩٠٤ . ثم عادت الى الناصرة .

وفي سنة ١٩٠٨ انتقلت مع والديها الى مصر . ولما كان مورد والدها ضئيلاً رأت ميّ ان تعمل لتساعده في القيام بنفقات العائلة . وعرض عليها احد سراة المصريين [١] ان تكون معلمة لاولاده فقبلت . وكان لشخصيتها اثر في تمكين المودّة بين اسرته واسرتها ، مما فتح لأبيها باب عمل جديد . وذلك انه اصبح بواسطة ذلك السري صاحب جريدة ومطبعة هي جريدة «المحروسة» ومطبعتها ، فتحسنت حاله وعلت مكانته [٢] . وفي سنة ١٩١١ ظهرت لميّ باكورتها الادبية

---

١) هو ادريس بك راغب . راجع كتاب « مي في حياتها » لجميل جبر ص ٣٠ .
٢) كان ادريس راغب يملك مطبعة المحروسة فنزل لأبي مي عن حق ادارتها واصدار صحيفة المحروسة منها دون قيد . الهلال ١٩٦٢ (مارس) ص ٨٥ .

الاولى . وهي مجموعة اشعار بالفرنسية تحت عنوان Fleurs de Rêve (اي ازاهير حلم) موقعة باسم Isis Copia (أيزس كوبيا) . ولا عجب فقد كانت ثقافتها فرنسية . ولكنها لم تلبث وهي في مصر ان اتقنت العربية فصارت لغتها الكتابية المفضلة وسنرى بعد كيف تمّ لها ذلك حتى احرزت مكانة مرموقة بين ادباء العربية .

ولما استقرت في القاهرة ووطدت نفسها على السير في طريق الادب ، فتحت «صالوناً» ادبياً كان يقصده كل يوم ثلاثاء كبار رجال الادب والفكر والفن ، فتجري بينهم الاحاديث الادبية الممتعة . وقد كان من حظ كاتب هذه الاسطر ان حضره مرة فشهد ذلك الجو الفكري العالي ، وما كانت تضفيه عليه ميّ من انسها وعذوبة حديثها . ويكفي هنا ان انقل وصف الدكتور طه حسين له اذ قال [1] : « كان صالون ميّ ديموقراطياً .... وانا اذكر اني انما اتصلت بصالون ميّ بعد ان نوقشت رسالتي في أبي العلاء ، وشهدت ميّ هذه المناقشة وشهدت فيما يظهر بعض الحفلات التي اقامها لي الزملاء حينئذ . وطلبت الى استاذها واستاذي لطفي السيد ان يظهرني في صالونها . وكذلك عرفتها في ذلك الصالون ، وترددت عليها في ايام الثلاثاء الى ان سافرت الى اوروبا ... وكان الذين يختلفون الى هذا الصالون متفاوتين تفاوتاً شديداً . فكان منهم المصريون والسوريون والاوروبيون على اختلاف شعوبهم . وكان منهم الرجال والنساء ، وكانوا يتحدثون في كل شيء ، ويتحدثون بلغات مختلفة — وبالعربية والفرنسية والانكليزية خاصة . وربما استمعوا لقصيدة تنشد ، او مقالة تقرأ ، او قطعة موسيقية تعزف ، او اغنية تنفذ الى القلوب » .

ومن اسماء الاشخاص الذين كانوا يختلفون الى صالون مي تعرف مكانته في اوساط الادب والفكر . واليك بعضهم : يعقوب صرّوف ، شبلي شميّل ، لطفي السيد ، احمد شوقي ، اسماعيل صبري ، ولي الدين يكن ، خليل مطران ،

١) المقتطف مج ١٠٠ ص ٢٥ – ٢٧ .

انطون الجميل » ، طه حسين ، مصطفى عبد الرازق ، عباس العقاد ، مصطفى الرافعي ، منصور فهمي ، داود بركات . وامثالهم من كبار اهل القلم وقادة الفكر في مصر وسائر العالم العربي . وقال العقاد :

« انه لو جمعت الاحاديث التي دارت في ندوة مي لتألفت منها مكتبة مصرية تقابل مكتبة «العقد الفريد» ومكتبة «الاغاني» في الثقافتين الاندلسية والعباسية »[1] .

وفي اثناء الحرب العالمية الاولى رأت ميّ ان تلتحق بالجامعة المصرية . فكانت تحضر شتى المحاضرات . وهناك اتيح لها التعرّف بشخصيات كان لهم اثر في حياتها العلمية والاجتماعية كما ستعرف بعد .

ولعلّ اهمّ ما لفت اليها الانظار في ذلك الحين تلك الفصول التي نشرتها في المقتطف تحت عنوان « باحثة البادية » . وباحثة البادية هي ملَك حفني ناصف قائدة الحركة النسائية في مصر . وكانت قد توثقت عرى المودة بينها وبين ميّ . فلما توفيت سنة ١٩١٨ بادرت ميّ الى تخليد اعمالها وآثارها فنشرت عنها تلك الفصول المذكورة . وقد أعجب بها شيخ الكتّاب الدكتور يعقوب صروف ونوّه بأدب صاحبتها . فكان ذلك منشطاً لها وداعياً الى رفع شأنها في الاوساط الادبية .

وازداد نشاطها الادبي بعد الحرب وطار صيتها ولم تلبث ان اصبحت زعيمة الاديبات في العالم العربي . فكانت حيثما حلت تقابل بالحفاوة والتكريم وخصوصاً في لبنان الذي كانت تحبه وتقصده احياناً لترويح النفس . ففي سنة ١٩٢٢ مثلاً زارته وحالما وطئت قدماها شواطئه اخذ نصراء العلم والادب يحتفلون بها . وكانت اينما توجهت تقام لها حفلات التكريم فيتسابق الخطباء والشعراء الى القاء درر اقوالهم فيها . فتجيبهم ميّ بما يوافق المقام[2] .

١) الهلال سنة ١٩٦٢ (ع مارس) ص ٨٣

٢) المورد الصافي ٨ ص ٨٥

عرفت ميّ في صالونها الادبي وخارجه كثيرين من رجال القلم ، وبادلتهم الآراء والافكار ، وكانت مصدر وحي لما نثر بعضهم من نثر وما نظموا من اشعار . على ان الذي يبدو لنا ان رجلين من بينهم جميعاً قد تركا في نفسها ابلغ الاثر . الاول يعقوب صروف الذي كانت تعتبره استاذها وصاحب الفضل الاكبر في تعريف الناس بها . فقد فتح لها صدر المقتطف وهو مجلة كبار الكتاب والعلماء ، واشاد بمواهبها الكتابية وبمكانتها بين الادباء . وبذلك يشهد منصور فهمي اذ يقول [1] : « وجدت بين ميّ والمرحوم يعقوب صروف صلة كانت تبدو عند الاولى فيما تحفظ من مظاهر الاجلال والاعتراف باستاذية ذلك الشيخ العالم الجليل ، وتبدو عند الثاني فيما احاطها من رعاية وعطف يفيض بها قلب رائد علمي واستاذ صادق » .

والى ذلك يشير امين الريحاني بقوله : «كانت (ميّ) الولية الصافية الدكتور العالم يعقوب صروف . وهي المكبرة لعلمه ، المحترمة لأدبه ، المعجبة كل الاعجاب بسمو اخلاقه » [2] .

أما الرجل الثاني فهو جبران جبران الذي ما كادت تطّلع على بعض نفثات قلمه حتى شعرت بجاذبيته الادبية، فكاتبته وكاتبها . وما زالا يتبادلان عواطف الولاء والتقدير حتى رسخت بينهما مودة كان لها أعمق الاثر في نفسيهما . ولم يشأ القدر ان يلتقيا مع شوق كلٍّ منهما الى اللقاء . فظلا رغم ما بينهما من البعد الشاسع متحابين مخلصين . على ان هذا التحاب قد ولد من حرارة الوجد بينهما رسائل متبادلة تعد اليوم من ثروتنا الادبية . وهاك للتمثيل قطعة صغيرة من رسالة كتبتها ميّ الى جبران وكانت تراقب كوكب الزهرة في المساء ، قالت[3]:

« اتراها يسكنها كأرضنا بشر يحبون ويتشوقون . ربما وجد فيها من هو

١) مقدمة محاضراته عن مي
٢) مجلة المكشوف مج ٤ ع ١٤٨ ص ٢
٣) مي في حياتها لجميل جبر ١١٨ و ١٢١

مثلي له واحدٌ حلوٌ بعيد تكتب اليه الآن والشفق يملأ الفضاء . هي تعلم ان الظلام يخلف الشفق ، وان النور يتبع الظلام ، وان الليل سيخلف النهار ، والنهار سيتبع الليل مرات كثيرة قبل ان ترى الذي تحبه ، فتتسرب اليها كل وحشة الشفق، وكل وحشة الليل . فتلقي القلم جانباً لتحتمي من الوحشة في اسم واحد : جبران ! » . وهذه قطعة من رسالة لجبران [1] :

« انا ضباب يا ميّ — انا ضباب يغمر الاشياء ولكن لا يتحد واياها . انا ضباب وفي الضباب وحدتي ، وفيه انفرادي ووحشتي وجوعي وعطشي ... أخبريني يا ميُّ أفي ربوعكم من يقدر ان يقول لي : انا ضباب آخر ايها الضباب ، فتعال نخيّم على الجبال وفي الاودية — تعال نغمر الصخور المتعالية ! قولي يا ميّ ايوجد في ربوعكم من يريد ويقدر ان يقول لي ولو كلمة من هذه الكلمات !

ولما وجدت ميّ ان التقاءها بجبران لم يكن بالمستطاع تملكها شعورٌ بالكآبة فحاولت ان تتخلص من هذا الشعور بالانصراف الى كتب الفلسفة ، فأخذت تطالع ما كتبه الفلاسفة قديماً وحديثاً وتغمر نفسها في بحار تأملاتهم . لكن ذلك لم يروِ نفسها الظمأى ولم يبلّغها الغاية المنشودة . وكأن القدر أبى الا ان يزيدها كآبة وأسى . ففي سنة ١٩٢٧ توفي استاذها يعقوب صروف ، وما هي الا مدّة قصيرة حتى توفي والدها، وبعد حين توفيت والدتها ، فأظلمت الدنيا لديها وغشيها من الحزن ما غشيها وشعرت بوحدة ممضة وفراغ موحش . وكان ثالثة الاثافيّ وفاة جبران سنة ١٩٣١ — جبران قبلة امانيها ، ورفيق روحها . فاعتزلت لنفسها ، معرضة عن اصدقائها ومعارفها . ولكن العزلة لم تجدِ تلك النفس الحساسة الا ألماً وشقاء وظنت انها قد تجد لها سلوى في السفر الى اوروبا، فسافرت واخذت تتنقل فيها من بلد الى بلد . وما ينفع السفر لبائس في الحياة! ان مرض ميّ في صميم الفؤاد . وهكذا عادت الى القاهرة تعاني مضضاً روحياً عجز عقلها عن احتماله ، فوهنت قواه ، واختل . يقول سلامة موسى في كتاب

---

١) المصدر السابق.

سيرته (تربية سلامة موسى) ص ٢١٨ وهو من الذين اتصلوا بها : « على اني اظن ان السبب للتزعزع النفسي الذي اصاب ميّ كان انتقالها الفسيولوجي من الشباب الى الكهولة . وهذا الانتقال كثيراً ما يخل بالاتزان الفسيولوجي عند بعض النسوة » . ويقرب من ذلك اعتقاد عباس العقاد اذ يقول : « يخيل اليّ انه مزيج من الصدمة العاطفية وشعور التبتل العميق في سليقتها الدينية » [١] . ولم يلبث الذين كانوا يلازمونها ان شعروا بتغير حالها فأشاروا على ذويها بنقلها الى لبنان علها تسترجع صحتها . فأخذوها . وعوضاً عن ان يعاملوها بما تتطلبه حالتها من رفق وطول اناة استصدروا حكماً بالحجر عليها، ثم ادخلوها مستشفى الامراض العقلية المعروف بالعصفورية حيث بقيت تسعة اشهر . وفي أثنائها قامت الصحافة اللبنانية بحملة عنيفة احتجاجاً على تصرف ذويها . وبمساعدة بعض من مريديها واصدقائها نقلت من العصفورية إلى مستشفى خاص في بيروت . وكانت متوترة الاعصاب شاذة التصرف ، ولكن عطف الاصدقاء تمكن بعد حين من تهدئة اعصابها وارجاعها الى نفسها . وخصوصاً بعد ان حملوا اولي الامر على فك الحجر عنها . ثم خرجت من المستشفى الى غرفة استؤجرت لها في رأس بيروت ، وصار يتردد عليها بعض الاصدقاء فتقابلهم بايناس وكأنما عادت اليها الحياة السوية ، فأقبلت على المطالعة ومزاولة الكتابة . فتمكنت في ٢٢ آذار سنة ١٩٣٧ من القاء محاضرة عمومية في الجامعة الاميركية في بيروت موضوعها « رسالة الاديب الى الحياة العربية » . وكنا من جملة المستمعين اليها ورأيناها على المنبر امام حشد كبير من اهل العلم والادب وهي على ما يظهر في تمام نشاطها العقلي والادبي .

واشار عليها صديقها الوفي امين الريحاني ان تقضي مدة في الجبل ودعاها الى منزله بالفريكة لتريح نفسها من عناء الحياة في المدينة فلبت دعوته ، وقضت هناك ثلاثة اشهر في المطالعة والكتابة ومجالسة الاصدقاء . ثم عادت الى بيروت

١) الهلال ١٩٦٢ (مارس) ص ٨٩

وبعد مدة انتقلت الى القاهرة . وظنّنا انها في القاهرة ستعود الى سالف عهدها ولكن الامر لم يكن كذلك . فقد عاشت هناك في عزلة لا تتصل الا بالقليل القليل من الاوفياء . وكان بعض الاطباء في بيروت قد قال لنا ان مرضاً كمرضها قد يتوقف حيناً ولكنه في الأغلب سيعود . وهكذا كان . ففي عزلتها اخذت حيويتها تنضب من جسمها وعقلها ، ولم تعد تأكل الا نزراً ، وما زالت في انحطاط مطرد حتى كان اليوم التاسع عشر من تشرين الاول (اكتوبر) سنة ١٩٤١ . واذا بتلك الشعلة الادبية التي تألقت حيناً من الدهر تنطفىء ، فرقدت ميّ رقدتها الابدية وليس حولها الا نفر قليل من الناس . اجل ماتت ميّ وحيدة" ولم يسر وراء نعشها الاحفنة من اصدقائها القدماء . ماتت ولكنها لم تزل حيّة بآثارها الفكرية ، وبشهرة لم تبلغها ادبية شرقية في العصر الحاضر .

ميّ ونزعتها الشرقية :

تثقفت ميّ ثقافة غربية في مدرسة فرنسية . والغالب في من ينشأ نشأتها ويتقن اللغات الاجنبية قبل لغة قومه ، وخصوصاً الفرنسية، ان يتنكر لشرقيته وللغته الوطنية . ولكن اديبتنا سرعان ما احتكت بالاوساط الادبية في مصر حتى شعرت بدافع يدفعها الى اتقان لغتها العربية. وكان الفضل في ذلك لتوجيه والدنها والمساعدة العظيمة التي لقيتها من استاذ الادباء لطفي السيد . وقد قصّت علينا قصة تعليمها العربية فقالت : « لما اصدرت كتابي الفرنسي « ازاهير حلم » قامت والدتي تحتج وتقول « ما في احلى من اللغة العربية » . وهي التي اختارت لي اسم ميّ (وهو منحوت من الحرفين الاولين من اسمها الاصلي) . اما العربية فقد تعلمتُها في القرآن على لطفي السيد بك . كان كلما زارنا انزويت واياه والدكتور شبلي شميل في ركن من بهو الاستقبال ، وراح يقرأ عليّ القرآن ويفسر ويشرح العويص من كلامه . ثم اهداني اول كتب عربية طالعتها وهي

« النسائيات » لباحثة البادية » و « مجموعة اشعار » البارودي» و «تحرير المرأة» لقاسم امين . [1] .

اجل كانت ميّ برغم ثقافتها الاجنبية شرقية الروح . وقد قوى هذه الروح فيها وجودها في مصر بين طبقة راقية من علمائها وادبائها . فلم تندفع في التيار الذي يندفع فيه الذين اذا ألمّوا بلغة اجنبية ، او درسوا في مدارس اجنبية تنصلوا من كل ما هو شرقي وتعلقوا بكل ما هو غربي . وقد شهد لها بذلك كل من عرفها . ويكفي ان نثبت هنا شهادة سيدة من ارقى سيدات مصر هي عائشة التيمورية — قالت [2] .

«لقد وجدت في ميّ من الاعتصام بالشرقية والحفاظ على الشرقية ما يجعلني اذكر مع الفخر انها كانت المثل الاعلى للفتاة الشرقية الراقية المثقفة . لقد نهلت ميّ حقاً من موارد الغرب ، ووردت حياضه ، واخذت كثيراً من طرائقه واتجاهاته . ولكن ذلك لم يُنسها حق اهلها وفرض وطنها . وقد كان الشرق كله لها وطناً . فما اضاعت عادات اهلها ، ولا احتقرت تقاليد قومها ، ولا فنيت في الغرب كما يفنى فيه المستضعفون . لقد كانت ميّ معتزّة بقوميتها ، مفتخرة بنسبتها ، متمكنة من لغتها العربية . وكانت محافظة كل الحفاظ على شخصيتها الشرقية » .

وتزكيةً لهذه الشهادة فلنسمعها تخاطب الشرق بلسان المحب المشفق فتقول : « ليس فيك فيض الثروة ومعجزات الحضارة . وربوعك خالية مما لدى الاقوياء من صروح ومعاهد ومصارف ومعامل . انك جاهل فقير متفكك الاوصال . ورغم ذلك فأملي بك عظيم كالحياة والحرية . اي قوة هذه تشدّ وثاقي اليك ! لماذا اهوى من لغتك الشدو الشجي النواح ، والنبرة السريعة الحادة ، والهتاف الأبي الحار ! .. طويتك الواسعة الخفيفة تستهويني ايها الشرق ، وتأسرني انا

١) المكشوف الشقة ٤ — ع ١٤٨ ص ١٢
٢) عن المقتطف مج ١٠٠ ص ٢٠

الذرّة الصغيرة بين ملايين الملايين من ذراتك ، وتمزجُ فيَّ كل كيانك بصحاراه ورياضه ، بشواهقه وشواجنه ، ببداهته وعجزه ، بفضائله ونقائصه ، وبالقلوب المضطربة فيه ، والنوايا الخالصة بين ابنائه »[1] .

كانت ميّ تجمع في حبهـــا للشرق بين حماستها لمـاضيه ، وتبشيرها بامجاده القديمة ، وبين اسفها الشديد لما تراه من تأخره في مضمار العلم والحضارة . انها لم تكن عمياء عن عيوبه ونقائصه . فقد رأته مغلولاً بتقاليده القديمة ، وشاهدت فيه تفاوت الطبقات ، وحزّ في نفسها ما كان يسوده من اختلال في الاحكام ، واستبداد الاقوياء بالضعفاء . ولكنها لم تيأس ، ولم يتلاشَ ايمانها بمـا في الشرق من قوى روحية كامنة ، فكرست قواهـا لاثارة هذه القوى ، واطلقت لسانها وقلمها منشدة له اناشيد العلى . ولم ترَ بأساً في مستقبل النهضة المرتجاة من ان يقتبس اساليب العمران الحديثة ، وان ينتفع بما توصل اليه الغرب من تطور في الحياة العلمية والاجتماعية .

ميّ والنهضة النسائية :

كان الاتحاد النسائي في مصر قد نظّم سلسلة محاضرات في الجامعة المصرية . وفي احدى هذه المحاضرات تعرّفت بزعيمة الحركة النسائية هدى شعراوي ، بعد ان سمعتها تخطب في حقوق المرأة وتدافع عنهـا بحماسةٍ حرّكت فيهـا الرغبة للانضواء تحت لواء المجاهدات في هذا السبيل . ثم اتصلت بمَلَك ناصف المعروفة بباحثة البادية ، وكانت قد قرأت لهـــا «النسائيات» ، كما قرأت لقاسم امين «تحرير المرأة» فازدادت غيرة في الدفاع عن المرأة والعمل في سبيل تحريرهـا . ولنترك لعائشة التيمورية وهي من هي ، ان تصف لنا جهاد ميّ في هذا السبيل قالت[2]: ولقد انضمت ميّ الينا عاملة مجاهدة تسبق الصفوف ، وفي يدها قلمها ،

---

١) بين المد والجزر (١٩٢٤) ص ٦

٢) المقتطف مج ١٠٠ ص ٢٠

وبين حناياها قلبها ، وفي القمّة منها رأسها وتفكيرها . ولكن افقنا المحدود ضاق امام عينيها البعيدتين في مراميها وفي مداها . وعالمَنا المحدود عجز عن ان يتّسع لاصلاحها وآمالهـــا وأدبها وشاعريتها ، فاتجهت الى ميــادين الادب والاجتماع يدفعها نبوغ خاص وعبقرية نادرة ... فاهتزت لهـــا المنابر خطيبةً ومحاضرةً لبقة » .

هكذا اندفعت ميّ تجاهد لأجل بنات جنسها ووطنها ، وبالتالي لرفع شأن المجتمع الشرقي . على ان اندفاعهـا لم يكن مجرد عاطفة جامحة او غيرة عميـاء ، اذ لم يفتها ما لكل من الرجل والمرأة من خصائص لا يجوز لأحدهما ان ينتحلها. ولكن وجود هذه الخصائص الجنسية المختلفة لا يمنع عندها من تساويهما في الحقوق والواجبات . وقد اصاب الدكتور منصور فهمي حين قال [١] : « ومهما يكن لميّ من رأي في مطالب النساء لتحقيق المساواة في الاعمال بينهنّ وبين الرجال، فان هذه الأديبة لم تكن قط على حقيقتها (اي عند التحقق) بالمرأة المشتطّة ولا المغالية (في ذلك) . فهي لم تهمل قطّ العناية بصفات الانثوية وما يلائمها ، وهي لم تكن توّاقة لإخراج النساء من ميادين الطبيعة ، ودفعهنّ في مـــا لا يساير الفطرة . ولم تستدرجها مآرب الحياة السياسية الضيقة لدفع نفسهـا او استدراج المرأة الى حلقات هذه المآرب ، برغم مـــا كان يدفعها حبها لبلادها ، واتقاد وطنيتها الى الاشتراك بقلبها وقلمها ولسانها في حماسة لتأييد كل مظهر من مظاهر التقدم النسوي» .

وقوله هذا يفسّر ما نقلنـاه آنفـاً من شهادة عائشة التيمورية فيها التي يفهم منها ان ميّ لم تكن تحصر مراميها في «عالمنا المحدود» ، تقصد عالم السياسة وما اليها ، بل انصرفت في جهادها في سبيل المرأة الى الكتابة والخطابة ، وغايتها تمزيق الحجب عن حياتها وانعاش نفسها بالعلم والحرية لتبلغ انثويتها مدى جمالها الحقيقي . ان الفتاة عندهـا قد خلقت لتكون « ربّة بيت وام عائلة سعيدة ،

١) بتصرف من محاضراته عن مي ص ١٧٨-١٧٩

وسيدة مجلس زائرةً ومزورة. لا لتنزوي في حياة الزهد والرهبانية ، فيجب ان تنشأ على ما هُيئت له من ابهاج المنازل، وتزيين المجتمعات، وبث اللطف والأنس في كل ما تحلّ فيه » . وعلى هذا الايمان بما خلقت له المرأة ترى ميّ ان من واجباتها بل من طبيعة وجودها ، ان تهتمّ بمنظرها وان تكون انيقة كيّسة . ومن البديهي ان التحجب والانزواء والبعد عن كل زينة تحلّيها ، لا تنسجم مع ما أعدّت له في الحياة . فلتكن انيقةً كيّسةً بشرط ان لا يكون في ذلك شطط وتطرّف، يبعدها عن جمال الحشمة ويقعدها عن القيام بواجباتها كربة منزل وأم عائلة .

وخلاصة القول ان ميّ تؤمن بالحرية للمرأة وتطالب بالتساوي بينها وبين الرجل . ولكنها تؤمن ايضاً ان الحرية والمساواة ينبغي ان لا تخرج المرأة عن خصائصها الطبيعية ، وان لا تحولها عن تلك « الانثوية » السامية التي هي زينة الحياة الاجتماعية .

مي وموهبتها الادبية :

لميّ جولات ممتازة في كل من ميداني الكتابة والخطابة ، فمقالاتها ومباحثها وخطبها معروفة في عالم الادب والفكر – ساعدها على ذلك اتقانها العربية وتضلعها من عدة لغات اجنبية . فقد نقلت عدداً من روائع الغرب ومنها الكتب التالية :

ابتسامات ودموع – وهو منقول عن الالمانية، لفردريك مكس مولر .
رجوع الموجة – نقلته عن الفرنسية ، للكاتب برادا .
الحب في العذاب – عن الانكليزية ، للروائي كوناندويل .

وكثيراً ما كانت تنشر المقالات بلغات اجنبية ، على ان العربية احب اللغات اليها وبها ألفت اهم ما اثر عنها من فنون الادب . وفي كتاباتها ومباحثها

يتجلى بعد الخيال ، وعمق النظر ، وحسن التسلسل الفكري . ولعل اصدق وصف لاسلوبها ان يقال انه من النمط العالي الذي اشار اليه عبد القاهر الجرجاني في كتابيه « دلائل الاعجاز » ، « اسرار البلاغة » فجعل عناصره ثلاثة : الايماء الى المعاني البعيدة ، والتآلف بين المعاني المتباعدة ، وابتداع الصور الخاصة . وفي هذه الأخيرة تظهر قوة الابتكار . والى هذه القوّة المبتكرة عند ميّ يشير الدكتور يعقوب صرّوف في مقدمته لكتابها «باحثة البادية» فانه بعد ان قدّم الكلام على اسلوبها . قال : « فاثباتها الصمت للحكم ، والعمق لليل ، والنبضان للحياة ، والانين للشكوى ، والرنين للظفر ، والولولة للألفاظ ، والتموّج للنفس ، وقولها ان من حملة الاقلام من له مؤلفات عديدة وهو ليس بالكاتب الكبير ولا الصغير ، وانه قد يكون بين سطور الكتاب لهيب خفيّ ينشر بينها أشباح النور والظلام ، وان البعض يستطيعون ان يرسموا بالحروف الوجوه ونوع استدارتها ، والشفاه وحدود ثناياها ، والآفاق واتساعها اللانهائي ، وانه لا يصلح للكاتب الواحد الا اسلوب واحد يتفق مع ذاتيته. ثم قولها ان من يحاول الوصول الى هذا الاسلوب محاولةً يهوي في دركات التصنّع والتكلّف ، وتتعثّر قدماه وقلمه بذيول الزوائد والحواشي، او يداهمه مرض الاختصار الجاف فيشعر قارئه الشقي بأنه حُكم عليه بسف التبن ــ كل ذلك من المعاني التي تكاد تكون مبتكرة في العربية » .

وتقترن قوة الابتكار عندها بخاصتين هما بحسب الظاهر متناقضتان ــ احداهما الحماسة العاطفية ، والاخرى الميل الى التحقيق . فالاولى ناشئة عن ايمانها بما تقول . واكثر ظهورها في خطبها ومقالاتها الترسلية كما سنرى بعد . والثانية ناشئة عن اتزان في تفكيرها يحميها من الانحراف مع تيار الهوى الاعمى او الوصف الفارغ ، والطنطنة التي لا طائل تحتها . خذ مثلاً وصفها لانتشار العربية قديماً ، تقول [1] : « سبق القول ان اشترك مع العربية لغتان اخريان في

١) بين المد والجزر (١٩٢٤) ص ٣٥ .

حكونها قوميتين نشرتا عقيدة دينية ومذهباً سياسياً بين شعوب مختلفة — اي اليونانية واللاتينية . فقد كانت اللاتينية مستعملةً من كمبانيا في ايطاليا الجنوبية الى الجزر البريطانية ، ومن نهر الرين الى جبال الاطلس . واستعملت اليونانية من اقـــاصي صقلية الى شاطىء دجلة والفرات ، ومن البحر الاسود الى تخوم الحبشة . لكنَّ مـا اضيقه انتشاراً اذا ما قوبل بانتشار العربية التي امتدت الى اسبانيا وافريقيا حتى خط الاستواء ، وجنوب آسيا وشمالها الى مـــا وراء بلاد التتر » . وقولها في الفن العربي [1] :

« لم يعنَ الفن العربي بالصور والتماثيل ، والنحت العربي كالرسم مقتصر على تنميق الحروف الكتابية . انما العرب اجـادوا في نوع من هندسة البناء بدأوا باقتباسه عن الفرس ثم مزجوه بخصائص بيزنطية . وقد راج ذلك الفن رواجـاً عظيماً في اسبانيا فبنيت طبق أصولهـا « الحمراء » في غرناطة ، وجامع اشبيلية ومئذنته الباذخة .

ويمتاز البناء العربي بأقواسه الانيقة ، واعمدتـه الهيفـاء ، وتخريمه الدقيق ، وبزخرف كلـه رونق وبهـــاء . ومن اجمل آثاره مساجد الاستانـة وقرطبـة ومصر » .

ومن قولهـا رداً على من يطلب استبـدال اللغـة الفصحى باللغة العـــامية : « الاصلاح ليس هدماً دواماً ، بل هو في الغالب تبديل وصقل وتكييف . اذ ليس في صالح الامة انكار الماضي الزاخر بالمجد الادبي والحكمة . وكما ان الفرد من النـاس لا يأتي العالم مستقلاً عن أمسه وغده ، بل يأتي متصلاً على رغم منه بما سبقه وبما سيلحقه . فكذلك اللغة التي هي وحدة حيّة ورثناها وورثنا معهـا الحق في ان يكون لنفسيتنا مجموعاً وافراداً ، اثر فيها . اما نبذها والاستعاضة عنها باللغة العامية فاعتراف بالعجز والخذلان » [2] .

---

1) بين المد والجزر ص٢٨

2) المصدر نفسه ص ٥٢ .

واذا ناقشت ميّ احداً ، أو دخلت في مناظرة ادبية، فانها لا تعتمد الاقناع الخطابي بالتأثير على العاطفة ، بل تقابل الحجة بالحجة ، والشاهد بالشاهد . ولا شك ان قوة حجتها هي من مظاهر اتزانها الفكري . وكذلك هي في نقدها الادبي ، فانها قلما تتسرع في الحكم على امر فلا تبدي رأياً الا بعد ان يقتنع عقلها بأن ما تبديه منسجم مع الصدق واصول الذوق السليم . كقولها في شعر اسماعيل صبري [١] : «كان صبري باشا كوكباً ، وكان شمساً ، وكان حديقة، وكان بحراً – هذا ما قيل في ادبه وخلقه وعلمه التشريعي وفضله . واي ميت لا يقال عنه ذلك في مختلف الاقطار الناطقة العربية . ولكن ايذنب القائل ان صبري في شعره ينبوع صغير بلوري المياه عذبها – ينبوع يرشح مرة البيت والبيتين والثلاثة الابيات ، وينتظم مرة اخرى تسلسله المكرر اللماع الملوّن . على انه غير فياض لا يدهش بروعته ولا يرهب بجلاله . انما يجذب بحسنه المأنوس ، ويرضي ببساطته وجلائه ، ويدخل الطرب على النفس الطروبة برقة عواطفه ، وسلامة ألفاظه ، واتقان نظمه » .

والذي قرأ شعر صبري يعرف ما في كلام ميّ من صدق وبعد نظر .

اما في مواقفها الخطابية ، فان لميّ ما يشهد بما وهبته من قدرة على التصوير والاقناع ، وسعة في الاطلاع ، وجاذبية في الالقاء ، وحسن ذوق في اختيار العبارات والمواضيع .

ولقد اتيح لكاتب هذه الاسطر ان يحدثها مراراً ، وان يسمع بعضاً من خطبها ومحاضراتها . وهو يشهد انه لم يسمع امرأة على منبر تتكلم بمثل فصاحتها وبيانها ، وتمتلك القلوب بحسن تفكيرها وقوّة ايمانها . ولا نحسب الا القليل من الرجال من يفوقها في هذا المجال .

ومن الخطب التي سمعناها خطبة ألقتها سنة ١٩٢٢ في قاعة الجامعة الاميركية

---

١) الصحائف (١٩٢٤) ص ١٢٠ .

في بيروت ، ننقل منها للتمثيل على اسلوبها الخطابي ، القطعة التالية [1] :

« نشر كولومبس شراعه على البحار ، بيد انه ما خطا الخطوة الاولى وراء عمود النور الا وتكشفت له الاخطار والمصاعب .... الامواه الكثيبة تحدق به من كل جانب ، والوحشة الفيحاء توسع الآفاق حواليه ، وبحارة السفن يشكون ويتمردون ، ونفاد الزاد يهدّد بالموت جوعاً ويشير بالعودة . ولكن عزيمة الصنديد لم تتزعزع ، وظلت بصيرته ترى ما كلّت دونه الابصار . وفي وسط الغم واليأس بسمت يوماً ارض الميعاد ، وتراءى العالم الجديد للعالم القديم الآيس المترقّب » . الى قولها : « ان تاريخ البشر وقف بغتة ينتظر وقوع ذلك الحادث العظيم الذي ربط بين شاسع الامصار بأسباب المواصلات السريعة . فتوثقت العلاقات بين الشعوب ، وحصحصت صور مستحدثة للفكر والتفاهم والامل ، وجدّت النفوس للتحرر من الاستئثار الدهري ، فانتصب الانسان حيال الخالق والخليقة نبيلاً يود ان يدرك ، يود ان يحب ، يود أن يتفانى لينتعش ويحيا » .

وهاك قطعة اخرى من خطبة في النادي الادبي البيروتي [2] :

« اليوم نرى النفس العامة كنفوس الافراد قلقة مضطربة لا تستقر ولا تتجلد . بل تشرح اوجاعها ، وتضم عللها فتصرخ تارة وتتهدد اخرى طالبة الشفاء والتأسي . اليوم يخرج بنو الانسان عن قرارات الاحقاب ممزقين ما رثّ من النظم ، سابكين نُظماً اخرى في قوالب عصرية ، موجدين نظماً جديدة تتفق مع الحاجات والمطالب » .

ومن خطبة لها سنة ١٩٢٥ وموضوعها « دروس من الصحراء » ، تحدثت فيها عن التهذيب ومعناه واثره في حياة الشعوب . وانه هو الذي يربي في النفوس الحرية وينشيء ابطالها ، قالت تصف احرار الوطن: «ان اعراض الحياة

١) مجلة المورد الصافي مج ٨ ص ٢٩ – ٣٢ .
٢) المورد الصافي ٨ – ٢١٨ .

ابعد من مطامع الحاكمين ، وحقوق الامم ابقى من افتئات المعتدين . جاءنا الشعاع عن طريق الغرب وكان لدينا شعاع آخر بحتجب ، ولكن لا يغيب في اشخاص افرادنا الممتازين من اولئك الشرقيين الذين عرفوا امراضنا فحاولوا ان يعالجوها ويحطّموا منا الاغلال ... من اي المدن هم ؟ وما اسمهم ؟ - وما حاجتهم الى النعوت والالقاب . كلمة واحدة تطبع على ذكرهم علامة لا تمحى . اسمهم الاحرار - احرار العرب ، احرار الشرق ، احرار الانسانية . الغرب حمل الينا الشعاع ، وهؤلاء حملوا امامنا المشاعل . الغرب علمنا النظرية وهم جعلوها بمثلهم عملية تطبيقية فأرسلوا في دمائنا قطرة متوهجة فوارة هي قطرة الحرية »[1] .

خطبت مي وحاضرت كثيراً ، وتناولت خطبها ومحاضراتها شتى المواضيع الادبية والعلمية والعمرانية . وكلها من النفس العالي الذي تقترن فيه نصاعة اللغة مع براعة الوصف وجمال الفكر .

ولا شك ان لمطالعاتها الواسعة في مختلف اللغات اثراً بيناً في توسيع آفاق الحياة الادبية امامها . وقد شهد لها بسعة المطالعات امين الريحاني فقال رداً على سؤال وجّهه اليه منصور فهمي :

« اما شغفها بالمطالعة فقد كان كثيراً لا حد له . ولعل هذا هو السر في اتساع آفاق تفكيرها وانفساح المدى امامها . كانت شهوة المطالعة عندها لا تقف عند حد ولا تنتهي الى غاية . ولهذا درست كثيراً من اللغات الاجنبية وتمكنت منها . وكانت تلتهم الكتب كما يلتهم النهم لقمة الزاد . وكان لها مكتبة خاصة تعتمد عليها وترجع اليها اكثر من رجوعها الى المكتبات العامة »[2] .

---

١) المصدر السابق ١٠ - ٣٣٨ .

٢) حياة مي لمنصور فهمي ص ٧٦ .

وقد يتجلى للقارىء مما قدمناه عن مي شيء من مواهبها الكتابية والخطابية، على انه اذا اراد ان يعرفها حقاً فليطالع بنفسه ما تركته لنا من مقالات ومحاضرات جعلتها بحق علماً بين الكاتبات .

مراجع الأعلام

في فني المقالة والخطابة

اعلام المترسلين (بحسب تاريخ ميلادهم)

يعقوب صروف ١٨٥٢ (منشىء المقتطف)

المقتطف – المجلدات ٦٨ – ٦٩ ، ٧٠ – ٧٢ ، ٧٤ – ٨٠ ، ٨٨
كتاب المقتطف الذهبي – القاهرة ١٩٢٦
يعقوب صروف العالم والانسان – بقلم فؤاد صروف (بيروت ١٨٦٠)

آثاره العلمية والادبية – سر النجاح (ترجمة) ، رجال المال والاعمال ، اعلام المقتطف ، الرواد ، بسائط علم الفلك ، فتاة مصر ، فتاة الفيوم ، أمير لبنـــان ، رواية قلب الاسد (ترجمة وتلخيص) ، فصول في التاريخ الطبيعي .

شكيب ارسلان (١٨٦٩)

ذكرى شكيب ارسلان – لمحمد علي الطاهر (مصر ١٩٣٧)
الامير شكيب ارسلان – لسامي الدهان (١٩٥٨)

آثاره الادبية النثرية – السيد رشيد رضا ، شوقي او صداقة اربعين سنة ، تاريخ العرب في الاندلس ، الارتسامات اللطاف ، الحلل السندسية ، غزوات العرب في فرنسا وايطاليا الخ . لماذا تأخر المسلمون، تعليقات على ابن خلدون، اناتول فرانس في مباذله (ترجمة) ، آخر ملوك بني سراج (ترجمة) ، تحقيق الدرة اليتيمة لابن المقفع ، ورسائل الجاحظ .

فرح انطون : (١٨٧٤)

عدد خاص من مجلة السيدات والرجال (مصر ١٩٢٣)
فرح انطون – لاحمد ابو الخضر منسى (ق ١٩٢٣)
فرح انطون – مكتبة صادر (بيروت ١٩٥٠)

آثاره الادبية – مجلة الجامعة ، فلسفة ابن رشد ، تاريخ المسيح لرينان ، المرأة في القرن العشرين ، زاروستوا لنيتشه ، السماء لفلامريون .

وله نحو ١٣ رواية و ١٤ مسرحية . نذكر منها هنا : اورشليم الجديدة ، المدن الثلاث، الوحش الوحش الوحش، مريم قبل التوبة، الحب حتى الموت، السلطان صلاح الدين .

مصطفى لطفي المنفلوطي (١٨٧٦)

المنفلوطي – لمحمد زكي الدين (القاهرة ١٩٢٤)
الكتّاب الثلاثة – لمحمد زكي الدين (المكتبة المصرية)

آثاره الادبية – النظرات ، العبرات ، الشاعر أو سيرانو دوبرجراك (ترجمة وتلخيص)، بول وفرجيني (ترجمة)، فيسبيل التاج (ترجمة).

مصطفى صادق الرافعي (١٨٨٠)

حياة الرافعي – لسعيد العريان (مصر ١٩٣٩)
ادب الرافعي – لنعمات احمد فؤاد (مصر ١٩٥٣)
المختار من ادب الرافعي – مع مقدمة لصدر الدين شرف الدين
مصطفى الرافعي وادبه – اطروحة (مخطوطة) لكمال يوسف الحاج (١٩٤٦) في مكتبة الجامعة الاميركية ـ بيروت.
آثاره الادبية – وحي القلم ، تحت راية القرآن ، تاريخ آداب ، السحاب الاحمر ، حديث القمر ، اوراق الورد، اعجاز القرآن ، رسائل الأحزان ، المساكين ، حضارة العرب .

جبران خليل جبران (١٨٨٣)

جبران حيّاً وميتاً – لحبيب مسعود (سان باولو ١٩٣٢)
جبران – لميخائيل نعيمة (بيروت ١٩٥١)
هذا الرجل من لبنان – لبربارة يونغ ترجمة سعيد عفيف بابا (سانبولو ١٩٥٣)
جبران – لخليفة محمد التليسي (طرابلس الغرب ١٩٥٧)
جبران – لجميل جبر (بيروت ١٩٥٨)
جبران والقومية العربية – الرابطة الثقافية بيروت ١٩٦١

آثاره الادبية – (بالعربية) : الاجنحة المتكسرة، عرائس المروج، الارواح المتمردة ، دمعة وابتسامة ، البدائع والطرائف ، المواكب (قصيدة) ، العواصف .
(بالانكليزية) : النبي ، يسوع ابن الانسان ، رمل وزبد، آلهة الارض، حديقة النبي، المجنون.

محمد حسين هيكل (١٨٨٩)

سيرته ومجموع ما قيل فيه – صدرت في القاهرة سنة ١٩٥٨ باشراف احمد لطفي السيد .

آثاره الادبية – زينب ، في اوقات الفراغ ، عشرة ايام في السودان ، تراجم مصرية وغربية ، ولدي ، ثورة في الادب، حياة محمد ، في منزل الوحي، الصدّيق ابو بكر ، الفاروق عمر ، مذكرات السياسة المصرية ، هكذا خلقت .

ابرهيم المازني (١٨٨٩)

ادب المازني – لنعمات أحمد فؤاد (مصر ١٩٥٤)

ابرهيم المازني – لمحمد مندور (مصر ١٩٥٤)

بعض آراء الكتاب فيه – مجلة مجمع اللغة العربية ج ٧ – المقتطف ١٩٤٤ – الرسالة – الاعداد ١٣٢ – ١٣٤ ، ٢١٠ – ٢٣٠ – ٣٠٣

آثاره الادبية – حصاد الهشيم ، قبض الريح ، من النافذة ، صندوق الدنيا ، رحلة الحجاز .

روايات وقصص: ابرهيم الكاتب ، ميدو وشركاه ، عود على بدء ، ابرهيم الثاني ، ثلاثة رجال وامرأة ، عَ الماشي ، في الطريق ، خيوط العنكبوت .

عمر الفاخوري (١٨٩٥)

سيرته – مخطوطة عند اخيه في بيروت

مجلة الثقافة الوطنية (بيروت) ايار ١٩٥٥

مجلة الجمهور (بيروت) العدد ١٠٤

آثاره الادبية ــ الباب المرصود ، الفصول الاربعة ، لا هوادة ، اديب في السوق، الحقيقة اللبنانية ، الاتجاه السوفياتي حجر الزاوية وسواها.

اعلام الخطباء (بحسب تاريخ ميلادهم)

عبد الله نديم (١٨٤٣)

عبد الله نديم ــ لصقر وشاهين (محمد صقر وفوزي شاهين) (القاهرة ؟)
عبد الله النديم ومذكراته السياسية ــ لمحمد احمد خلف الله (القاهرة ١٩٥٦)
الثائر المعظم ــ لنجيب توفيق (دار الفكر العربي ١٩٥٧)
سلافة النديم ــ لاحمد سمير

آثاره الادبية ــ كتاب المسامير ، كتاب كان ويكون ، خطبه ومقالاته في الصحف التي انشأها . وهي مجلة الاستاذ ، التنكيت والتبكيت ، الطائف .

اديب اسحق (١٨٥٦) منشىء جريدتي مصر والتجارة .

كتاب الدرر ــ سيرته ومجموعة آثاره الادبية نشرها اخوه عوني سنة ١٩٠٩

وليس لدينا من آثاره غير هذه المجموعة . على ان له ايضاً آثاراً ضائعة منها رواية الباريسية الحسناء ، كتاب نزهة الاحداق ، تراجم مصر في هذا العصر ، رواية غرائب الاتفاق ، وبعض مسرحيات .

مصطفى كامل (١٨٧٤) مؤسس الحزب الوطني في مصر

مصطفى كامل سيرته واعماله ــ صدر في القاهرة في اجزاء بين ١٩٠٨ ــ ١٩١٠

ذكرى مصطفى كامل الثالثة عشرة (القاهرة ١٩٢١)
مصطفى كامل باعث الحركة الوطنية – لعبد الرحمن الرافعي (مصر ١٩٣٩)
زعيم النهضة مصطفى كامل – لمحمد ثابت بنداري (القاهرة) مطبعة الجامعة المصرية (لا تاريخ)
مصطفى كامل ، حياته وكفاحه – لأحمد رشاد (القاهرة ١٩٥٨)
آثاره الادبية – رسائل مصرية فرنسية ، المسألة الشرقية ، مصر والاحتلال ، خطبه ومقالاته في «اللواء» ، الشمس المشرقة.

نقولا فياض (١٨٧٣)

آثاره الادبية النثرية – على المنبر ، كتاب الخطابة ، من نافذة العقل ، دنيا وأديان (بيروت ١٩٥١) ، مملكة الظلام ، (ترجمة) ، خواطر في الصحة والادب ، كيف تغلب الانسان على الالم ، وشتى خطبه ومقالاته في الصحف .

امين الريحاني (١٨٧٦)

امين الريحاني – لتوفيق الرافعي (القاهرة ١٩٢٢)
ذكرى الريحاني – اللجنة المركزية (بيروت ١٩٤٠)
امين الريحاني – لألبرت الريحاني (بيروت ١٩٤٤)
امين الريحاني – لمحمد علي موسى (١٩٦١)
الريحاني على ضوء انتاجه – لوديع ديب (اطروحة ١٩٤١)
امين الريحاني الرجل والاديب – لجميل جبر (بيروت ١٩٤٧)
امين الريحاني – لمارون عبود (بيروت ١٩٥٣)
امين الريحاني – لحارث طه (١٩٥٨)

آثاره الادبية — (بالعربية) : الريحانيات ، ملوك العرب ، تاريخ نجد الحديث ، فيصل الاول ، قلب العراق، قلب لبنان ، المغرب الاقصى، انتم الشعراء ، وجوه شرقية غربية ، النكبات، وسواها.
(بالانكليزية) : خالد ، زنبقة الغور ، خارج الحريم ، ملك الرؤيا ، انشودة المتصوفين ، تحدر البلشفية ، وسواها .

ميّ زيادة (١٨٨٦)

حياة ميّ — محمد عبد الغني حسن القاهرة (١٩٤٢)
تربية سلامة موسى — سلامة موسى القاهرة ١٩٤٧ ص ٢١٧ وما بعدها
ميّ في حياتها المضطربة — جميل جبر (بيروت ١٩٥٣)
ميّ في حياتها وادبها — جميل جبر (بيروت ١٩٦٠)
ميّ وجبران — جميل جبر
محاضرات عن مي — منصور فهمي (القاهرة ١٩٥٥)
المقتطف مج ١٠٠ ج ١ آراء الادباء فيها
المكشوف السنة ٤ مج ١٤٨
الهلال السنة ١٩٦٢ عدد مارس (آذار)

آثارها الادبية — ازاهير واحلام (بالفرنسية) ، ظلمات واشعة ، باحثة البادية ، بين الجزر والمد ، كلمات واشارات، سوانح فتاة ، المساواة، الصحائف ، عائشة تيمور، رسائل وخطب شتى .

القصة في الأدب الحديث

الفن القصصي

ذكرنا في فصل سابق انه لم يكد يبلغ القرن الماضي نهايته حتى كان الانشاء العربي قد اخذ يخلع عنه ثوبه القديم متأثراً بما نقل الى العربية من ادب الغرب والحضارة الغربية .

ولعل القصة كانت اهم مـــا شغلت اقلام الناقلين . ولا تزال الى الآن باباً واسعاً في ادبنا الحديث . على ان النتاج القصصي لم يظل معتمداً كل الاعتماد على النقل . فلما تنفس الناس الصعداء بعد الحرب العالمية الاولى ظهر في العالم العربي جيل من الكتاب الذين عالجوا التأليف بانفسهم وجروا فيه شوطـــاً بعيداً . وسنرى كيف ظهر هذا الفن على ايديهم وكيف اتخذ في كل قطر شكلاً يعكس لنـــا حياة سكانه وتطور المجتمع فيه . وهنـا فلنقف هنيهةً لنقابل بين القصة في ادبنا القديم والقصة كما نراها اليوم .

القصة القديمة :

لا ينكر انه قد ظهر في تاريخنا الادبي عدد لا يحصى من النوادر والحكايات التي حملت في طيهـا من المتعة او العبرة مـا لا يزال حتى الآن منهلاً عذباً يرده كثيرون من اهل زماننا . ويكفي ان نشير الى بعض مـا اشتهر في ذلك ،

ككتاب كليلة ودمنة لابن المقفع ، وقصص الانبياء للكسائي ، وفاكهة الخلفاء لابن عربشاه ، والمستطرف في كل فن مستظرف للابشيهي ، والفرج بعد الشدة للتنوخي ، ومصارع العشاق لابن السراج . أضف الى هذه المؤلفات سيرة عنترة ابن شداد ، وحكايات الف ليلة وليلة وامثالها . وما ورد في كتب الادب امثال الاغاني لأبي الفرج الاصفهاني ، والعقد لابن عبد ربه ، ونهاية الارب للنويري ومـا يجري مجراها ، ممـــا يدل دلالة بينة على ان ادبنا القديم حافل بالقصص والحكايات . على ان المتأمل في القصة العربية قديمـاً وحديثاً لا يسعه الا ان يلاحظ شيئاً من الفرق بينها . ففي القصة القديمة يقوم عنصر الإمتاع عموماً على انهـــا خبر طريف فيه تسلية او عِبرة وعظة . ومن هذا البـاب الاخير قصص كليلة ودمنة. يقرأها الانسان فيرى ما ترمي اليه من حكمة يُنتفع بها في الحياة، بل هي امثلة تضرب لتبيان تلك الحكمة . فاذا قرأت مثلاً قصة الحمامة ومالك الحزين ادركت ان الغـاية منها اطلاعنا على مصير من لا يعرف ان يعلم نفسه . وجميع قصص الكتاب على هذا النسق ـ حكايات توضح حقيقة اخلاقية واجتماعية لا غنى للمرء عن معرفتها والسلوك بموجبها ليعيش بين الناس راضياً . وقس عليها معظم ما تركه لنا الادب القديم من قصص يراد بها التعليم وتربية الخلق القويم .

امـا باب التسلية فرحب جداً في القصة القديمة . وفي كتاب الاغاني وحده من اخبار الادباء والظرفاء والمغنين مـــا يضيق بشرحه هذا المقـام . فما قولك بعشرات الكتب المخصصة للنوادر والمُلح والحكايات والمفاكهات . وعلى سبيل التمثيل احيل القارىء الى بعض هذه الحكايات المسلية ، ومنها قصة ابن جامع في كتاب الاغاني ، والمقامة المضيرية لبديع الزمـان ، ورحلات السندباد في الف ليلة وليلة . فهذه القصص وامثالها مرآة لهذا النوع من قِصص القدماء .

وهنـا فنتساءل : أليست التسلية والتفكهة والعبرة عنـاصر اساسية في القصة قديمة كانت ام حديثة . فبماذا تختلف هذه عن تلك ؟ سؤال يحدونا الى الحديث عن مقوّمات القصة كما يراها نقاد الادب اليوم .

القصة الحديثة :

لعل اهم مـــا تمتـاز به القصة اليوم هو امران (١) عنصرهـا الفني و (٢) استجابتها لواقع الحياة :

فمن حيث الفن نرى المحدثين من كتاب القصة يعنون بأن تكون اكثر إحكاماً واكثر حرصاً على الانسجام الفكري والارتباط العاطفي ، والتحليل الباطني بحيث يجد القارىء فيها شيئاً غير مجرد الخبر أو التسلية الممتعة العـابرة . ان القصة اليوم قصيرة كانت ام طويلة ، يتوخى فيهـا ان تكون ذات حبكة قوية ، وديبـاجة مشرقة ، وذات تحليل دقيق للحوادث والاشخاص غير ممل ، وسرد ممتع يحمل نفس القارىء على اجنحة التشوق الدائم . ولا ينكر ان القصة القديمة في ادبنـا لم تكن خلواً من السرد المشوق على اننا لا نستطيع ان نقول انها بلغت ما بلغته الحديثة من سائر المزايا الفنية .

اما من حيث استجابتها لواقع الحيـاة فيمكننا القول ان القصة بهذا المعنى حديثة العهد في جميع الآداب العالمية . فمؤرّخو الادب لا يرجعون تاريخها الى ابعد من القرن الثامن عشر ، اذ كانت قبل ذلك تدور على غرائب من الحوادث التي لا تمت الى واقع الحيـــاة بصلة ، او على اشخاص خياليين تنسب اليهم من وقائع البطولة او المغامرات ما لا يساوق العقل والمنطق .

فلمـا كان القرن الثامن عشر اخذ الانسان يستيقظ الى مـا له من حقوق . ودفعته هذه اليقظة الى النظر في حاله ومـا يسوده من أنظمة سياسية واجتماعية ، فأنكر ذلك واراد ان يطالب باصلاح الحال وتحسين الانظمة القائمة . فالتفت الى الشعر والدراما فاذا هما لا يزالان منصرفين الى تمجيد العظماء والتغني بوقائعهم . واذ لم ير فيها ما يعتمد عليه في التنفيس عن كربه اعتمد على القصة — القصة التي تصف حياة الافراد العاديين وخوالج نفوسهم واحوال مجتمعهم . وهكذا نشأت القصة الحديثة على اساس من المثل الروحية والاخلاقية ، واخذت تتطور بتطور الحياة والمجتمع . وبتقدم العلوم والمخترعات الحديثة في القرن التاسع عشر وجد

الانسان العامل نفسه امام عاملين جديدين : اولهما الآلة التي اخذت تحل محله وتشعره بضعفه وسوء مصيره ، والثاني العلم الطبيعي الجديد الذي كاد يهدم تقاليده الروحية القديمة . وامام هذين العاملين كان الادب يشعر بقلق متزايد ويعبر عن ذلك القلق بأقلام المفكرين من كتاب القصة في ذلك العهد . على ان الادب القصصي يومئذ، مع تحمسه لنقد المفاسد ومحاربة المادية والعمل على تحسين الوضع العام، لم يدعُ الى تغيير ذلك الوضع تغييراً جذرياً وانما ترك ذلك لنخبة من كتاب القرن العشرين .

فمنذ اواخر القرن الماضي الى وقتنا الحاضر نرى القصة تعكس لنا تغيرات عقلية ونظريات متضاربة . ولكن وراء كل ذلك دعوة الى خلق عالم جديد .

والواقع ان هذه الدعوة لم تشتد الا عقب الحرب العالمية الاولى – تلك الحرب التي زعزعت القيم الانسانية القديمة – فلم يعد الانسان ينظر الى هذه القيم الا نظر المشكك المتسائل : هل تصلح بعد لأن تكون اساساً لحياة الاجيال الطالعة ؟

وعلى هذا السؤال تدور القصة الحديثة وتحاول ان تعطي الجواب الشافي !

★

ولا نعدو الحقيقة اذا قلنا ان القصة العربية اليوم هي نتيجة التطور الفكري العالمي ، على انها انما نشأت وترعرعت بتأثير الفن القصصي في الغرب . فقد انطوى معظم القرن التاسع عشر واكثر ما انتجه قصاصونا تقليدي يجري مجرى المقامات والحكايات القديمة . فلما اتسع نطاق اتصالنا بآداب الامم الاوروبية واخصها الفرنسية والانكليزية اشتدت حركة النقل عن هذه الآداب حتى احصي ما نقلناه من باب القصص بما يبلغ الالوف [1] . فلا عجب ان يقول المستشرق الروسي كراتشفويفسكي ان القصة العربية الحديثة نشأت بتأثير الادب الاوروبي

١) راجع مراجع القصة ليوسف داغر حيث اثبت ان ما ترجم من هذا الباب لا يقل عن عشرة آلاف قصة .

المباشر [1] .

على انه يمكننا القول ان ادبنـــا القصصي قد تجاوز طور الترجمة والنقل فلم يبق بعد عالة" على الادب الاوروبي . ذلك انه منذ نهـاية الحرب العالمية الاولى بدأت تظهر عليه امارات الاستقلال . وها نحن اليوم ، ولدينا ما لا يحصى من القصص والمسرحيات القصيرة والطويلة التي وضعهـــا كتابنا في هذا العصر ، معتمدين مـا يستوحونه من حياة شعوبهم وتاريخهم او اختباراتهم الخاصة . وفي كثير منها مـــا يدل على تقدم واسع في هذا المضمار كما سنرى بعد . والفن القصصي ثلاثة اوجه هي : القصـة ، والرواية ، والمسرحية ، فلنقف قليلاً على كلٍّ منها :

القصة :

ويفضل بعضهم ان يسميها الأقصوصة ، والحكاية ، او القصة الصغيرة. ولعل تسميتها بالقصة فحسب ادلّ على المراد منها [2] . فالأقصوصة يُشعر معناها بشدة الايجاز بحيث لا تتجاوز بضع صفحات . والحكاية كذلك . وكلتاهما اقرب الى الخبر المسلي او المفكه منها الى التصميم الفني . اما القصة فعمل قائم على الفن وقد يطول حتى يملأ صفحات عديدة .

وللقصة في كل بلد عربي صبغتها الاقليمية التي تكتسبها مما ينعكس عليها من احوال ذلك البلد وحياة سكانه . واليك عرضاً عاماً لما يظهر لنا من ذلك :

القصة في مصر : كانت مصر انشط البلدان العربية الى التـــأليف القصصي الجديد. وفي قصصها على العموم ما يعكس لنا احوال المجتمع المصري من ناحيتين

١) راجع مجلة الرسالة مصر السنة الرابعة ص ١٦٦٩

٢) وقد اصاب شاكر مصطفى اذ قال في حاشية كتابه القصة في سوريا ص ٢٥٢ – « يكاد يكون من المصطلح عليه ان نسمي القصة الكبيرة رواية، وان يطلق اسم القصة على القصص الصغيرة.

رئيسيتين : ناحية الحياة الريفية وما تتسم به من بساطة وقناعة وتأخر وبؤس ، وناحية الحياة المدنية وخصوصاً ما يتعلق بظواهرها الزائفة ونقائصها الاجتماعية والاقتصادية . وهي وان تخللها بعض صفحات نيرة من المرح المتفائل، يصح ان يقال فيها انها نقد يراد به اصلاح الفرد والمجتمع .

وممن عالجوها وكان لهم في كتابتها شأن يذكر : طه حسين ، محمد تيمور ، محمود طاهر لاشين ، مصطفى المنفلوطي ، ابرهيم المازني ، توفيق الحكيم ، محمود تيمور ، ابرهيم المصري ، نجيب محفوظ ، يوسف السباعي، سعيد العريان، عبد الحميد السحار ، يحيى حقي . وكثير سواهم .

ولو سئلنا ان نعين منهم انموذجاً لكتاب القصة القصيرة في مصر، لأشرنا الى « محمود تيمور » الذي تجرد لهذا الفن فنقله او كان في طليعة من نقلوه من طور الترجمة والتقليد الى طور الاستقلال والابتكار . ولقصصه شهرة في مختلف الاقطار العربية وقد نقل بعضها الى لغات اجنبية . ولا شك انه كأكثر كتاب القصة العربية الحديثة قد تأثر بمن سبقه من الكتاب في الشرق والغرب . وهو يعترف في مقدمة مجموعته « فرعون الصغير » المطبوعة سنة ١٩٣٩ انه في اوائل عهده كان يطالع بشغف كتابات المنفلوطي في مصر ، وجبران جبران وزملائه في المهجر ، وان ذلك قد ربّى فيه نزعة الى القصص الرمزية والرومانتيكية . ويظهر انه تحول عن ذلك بعد حين بتوجيه اخيه محمد الذي مهد له السبيل الى القصة المتعلقة بحياة مصر الواقعية ، كما وجهه ايضاً الى مطالعة الادب الاوروبي فقرأ قصص موباسان وسواه من كتاب القصة الفرنسية ، ثم عكف على القصص الروسي فقرأ ما كتبه تشيخوف وتورجنيف وسواهما . الا ان ذلك كما قال بعضهم لم يكن الا كالشحنة الكهربائية التي تثير المحرك فيندفع بقوته الى الامام هكذا انطلق خيال كاتبنا فقدم لهذا الجيل وللأجيال المقبلة تراثاً من الفن القصصي سيبقى ذا أثر بيّن في تاريخنا الادبي .

وليس غرضنا هنا ان ندرس فن تيمور درساً تفصيلياً بحيث نتناول جميع

ما انتجه فنحلل اسلوبه ومزاياه ونسهب في ما له ومـا عليه ، فذلك يخرجنا عن غرضنا الرئيسي وهو ان نتابـع في القصة العربية مجرى تطورها العـام ، منوهين بمن على ايديهم حدث هذا التطور ، ومن بأقلامهم نشأ في ادبنـا الحديث فن قصصي يمكننا ان نقابله بما ينتجه الغرب في هذا الباب .

على ان ذلك لا يمنعنا من ان نقف قليلًا لنلقي نظرة على اسلوب تيمور ونتبين بعض خصائصه فنقول : اخرج تيمور عدة مجموعات من القصص القصيرة نذكر منها: الشيخ جمعه ، الشيخ عفـــا الله ، الحاج شبلي ، ابو علي عامل ارتيست ، أبو الشوارب ، فرعون الصغير ، بنت الشيطان ، قال الراوي ، كل عام وانتم بخير ، مكتوب على الجبين ، احسان لله ، انا القاتل .

وهذه المجموعات وسواهـــا تحوي عشرات من القصص . هذا فضلًا عما الفه من روايات ، أمثال «الاطلال» التي عاد فجددهـــا تحت اسم شباب وغانيات ، وشمروخ ، وإلى اللقاء ايها الحبيب، والمصابيح الزرق ، او مسرحيات امثـــال المخبأ رقم ١٣ ، ابن جلا ، عروس النيل ، صقر قريش ، اليوم خمر ، عوالي ، سهاد ، قنابل ، كذب في كذب ، حواء الخالدة وسواها .

والذي يتحرى ما انتجه يظهر له انه كان اميل الى القصة القصيرة والمسرحية منه الى الرواية. وانتاجه عند التحقيق يعد فتحاً في عالم القصة العربية بما يعكس لنا من احوال البيئات المصرية ، وما يكشف من اغوار النفس البشرية .

واكثر عنايته بالطبقات الشعبية العـــامة . فأشخاص قصصه اناس عاديون يعرضهم لنا ، وصفاً أو تحليلًا ، عرضاً لا تكلف فيه ، وبأسلوب سهل يشف عن حقيقة مايرويه . وما اصدق ما وصفه به عميد الادب طه حسين اذ قال : « بارع في تدبيج اللفظ وتنميقه والتأنق فيه ، براعته في الوصول الى القلوب من ايسر الطرق واقربها وابعدها عن التكلف والالتواء » [1] .

---

١) مقدمة مجموعة تيمور « قال الراوي »

والى هذه الميزة يشير محمد فريد ابو حـــديد بقوله يصف اسلوب تيمور القصصي : « انه يرمم اشخاص قصته حتى انك لتحسّ انفاسهم ، وتلمح الحياة في سهولة حركاتهم ، في لغة سلسة لاتحجب شيئاً من معانيه . وان فنه يشيع فيه روح وديع من الانسانية لا تحسّ معه مرارة في وصف حتى ليكاد يحبّب اليك الضعف الانساني » [1] . فكلا الـكاتبين متفقـــان على وصف اسلوبه بالسهولة واليسر . والذي يطالع قصصه يثبت له صحة هذا الوصف . ومن امثلته قوله في قصة « ليلة الهناء » من احد اعيان الفلاحين : « الشيخ مبروك من اعيان مديرية البحيرة رجل متيّسر يعيش مع عائلته ومواشيه في عزبته الصغيرة عيشة لا غبار عليهـــا ، يبلغ من العمر الخامسة والخمسين ، ممتلىء الجسم بقامة قصيرة ووجه مفرطح. اذا سار تدحرج ككرة القدم لاتـكاد تتبّين رأسه من رجليه».

وقوله يصف مجلساً في احد المقاهي البلدية : «وجلستُ على مقعدي باسترخاء ودرت بعيني في المـكان المظلم فلم ارَ احـــداً في بادىء الامر . ولكن حينما تعّودت عيناي الظلمة ظهر لي انسان جالس في احد الاركان يظنه الرائي شبحاً من الاشباح . ولم يكن احـــد غيرنا في القهوة . فأوقفت اهتمامي على مراقبته فاذا به رجل او شبه رجل ضئيل الجسم ساكناً لا يتحرك . له عينان تشعان ناراً وتخالها جذوتين معلقتين في الفضاء » [2].

وقوله يصف نفسه وما كان ينتابه من علل : «منذ الصغر والعلل تتردد علي حتى الفتها ، واصبحتْ غير غريبة عني . منذ سنين طويلة وانا في رقابة الطب في مأكلي ومشربي ، وفي نومي وفي يقظتي » . (الى قوله) : « ومـــع ضعف صحتي ومـــا نالني من مرض اجد نفسي قد تخطيت الاربعين وما زلت حياً ارزق فأعجب لذلك واقول : «لسّه لك عمر» [3].

---

١) راجع مجلة مجمع اللغة العربية ج ٧ ص ٧٥
٢) من قصة انا الشريد
٣) من مقدمته لفرعون الصغير

والذي يلاحظ ان هذه السهولة الطبيعية اخذت مع الزمن تلبس في كتاباته حللاً من الاناقة واصبح قلمه يميل الى السير في النمط العالي من التعابير كأنما هو يكتب للمتأدبين لا لجمهرة القراء ، كما ترى في قصته «زهرة المرقص» اذ يقول[1]:

وواصلت القافلة سيرها وسُراها ، تسيل بها الوهاد ، وتعلو بها النجاد . فمن شمس تسلّط شواظهـا وتلهب مواطىء الاقدام ، ومن زوابع تبسط استار الرمل فتعشي العيون . ومن جفاف قاحل لا زرع فيه ولا ضرع ، ومن ليلٍ موحشٍ تسري به زمزمة الضواري وتتحايل اشباح العاديات .

وفي قصـة «نداء الروح» [2] : « وتوخى مسهراً من تلك المساهر العتيدة ، حيث الاضواء تتـألف ، والغواني تتنضر ، والخمر تشعشع في الكؤوس ، والموسيقى تهذي بأنغامها المجنونة » .

ومن قصة «انا الشريد» [3] : « وكنت كلما امعنت في المطالعة ، واستغرقت في التأمل ، ازدادت امامي معضلات الحيـاة من تعقيد ، وساورني الشك في الحقائق من كل جـانب . واذا انا كالتائه في بيداء ملتبسة الانحاء ، يستبد بي القلق ، وتنوشني الحيرة . القي على نفسي امشاج الاسئلة ولا اجد لهـا من جواب يشفي الغليل » .

وفي مجموعة « كل عام وانتم بخير » [4] يصف طبيبـاً كما كانت تراه احدى السيدات : « قامة باسقة ، وعين فوارة ، وشباب يانع . فلا عجب ان تؤثره بالمكنون من قوة العاطفة ، وجوهر الشعور» .

وفي مجموعة «كذب في كذب»[5] ، ترد احداهنّ على من يزعم من الرجال

١) من مجموعة احسان الله .
٢) من مجموعة تمرحنا عجب (١٩٥٨)
٣) المجموعة نفسها
٤) ط ١٩٥٠ ص ١٢٠
٥) ط ١٩٥٣ ص ١٥

ان الزوجة هي سيدة البيت ، فتقول : « كل الرجال يقولون هذا بادىء بدء ، حتى اذا سارت السفينة تغيّرت الحال . ومـا اشبه الزوجين برئيسين يتنـازعان قيادة السفينة ، فإما غرقت ، وإما اضطرب سيرها » .

فالمتأمل في مثل هذه الاقوال ، وهي شائعة في قصصه الصادرة بعد الحرب العالمية الثانية ، لا يسعه إلا ان يشعر بما ذكرناه من تحولّ في كتابته الى النمط العالي من التعبير، حيث يكثر التوازن في العبارات، والتأنق في اختيار الالفاظ، والحرص على الصور البيانية . وقد يدفعه ذلك احياناً الى استعمال مـا لا يألفه جمهور القراء ، كقوله مثلاً :

امشاج من الأسئلة – أي اخلاط من الاسئلة (في قصة أنا الشريد)
قصد الى حجرته وأضاء الساهرة – بدل وأضاء المصباح (في قصة نداء الروح)
نضوت عني الغطاء – بدل نزعت الغطاء (قصة حامل الاثقال)
ذرّفت على الستين – بدل زدت او نيّفت (مجموعة احسان الله ص ١٢٠)
وطفقت الريح تزفّ – بدل وطفقت تهبّ (قصة فلنبدأ الحياة)
وكثير أمثالها مما يلفت النظر في عدد من قصصه المتأخرة .

وهناك نوع آخر من التطور او التحوّل نلحظه في قصص تيمور. فقد كانت قصصه الاولى اقليمية المادة ، مستمدة ممـا يشاهده في بعض البيئـات من المجتمع المصري . وفي هذه القصص واقعية يبرز فيهـــا وصف الاشخاص والاحوال والعادات . ولكنها مع الزمن لم تبق منحصرة في نطاقها الاقليمي. بل خرجت الى آفاق انسانية اوسع حتى كادت تكون كما يقول نزيه الحكيم «تاريخاً للصراع الابدي بين الانسان وبين قيود روحية لا يمنعها كونها موهومة من ان تحزّ على يديه وتشعره بالجراح في عنقه[1] . وفي ذلك يقول تيمور نفسه :

« ورأيت على ضوء مطالعاتي الجديدة وفهمي لنظريات الادب العالي ان

١) «محمود تيمور رائد القصة العربية (ط ١٩٤٤) ص ٥٨

اللون المحلي ليس كل شيء . وما الادب الكبير إلا ان يولي الانسان وجهه شطر النفس البشرية. فحوّلت اتجاهي نحو هذه الوجهة محاولاً التقدم فيها ما استطعت الى ذلك سبيلا » [1] .

على أن هذه النزعة الانسانية لم تخرج بتيمور عن اطار القومية العربية . فهو ابن جيل متأثر بما نشأ في البلدان العربية من وعي قومي عام . وما تحوّله عن الاقليمية إلا استجابة لما يتطلبه هذا الوعي من المتأثرين به . وهكذا نراه بعد الحرب الثانية يولي اهتمامه تاريخ العرب وحضارتهم فيعيش في جو عربي ويؤلف في هذا الجوّ مسرحياته « عوالي » ، و « سهاد » ، و «اليوم خمر» ، و « صقر قريش » وسواها . وفي مقدمة صقر قريش يقول زكي طليمات: «ان امراً واحداً لا يرقى اليه التأويل او الشك ، وهو ان تيمور قد وفق التوفيق كله في الاستجابة الى ما يجري في أقطار الشرق العربي » .

وسواءٌ أوقفنا مع تيمور في معترك الحياة المصرية ، أو رجعنا معه الى تاريخ العرب وحضارتهم ، ففي كتابته تتجلى لنا ثلاثة امور :

١) تطورها اللغوي ، فقد بدأ قصصه بالتحدث الى الجمهور بلغة الجمهور ، لغة اليسر والبساطة ، ثم اخذ يتدرج نحو لغة الخاصة ذات النمط العالي.

٢) تحررها من قيود الاقليمية وامتدادها الى آفاق فكرية واجتماعية اوسع.

٣) استجابتها للوعي القومي الذي نشأ في البلدان العربية عموماً واشتد في في مصر بعد الحرب الثانية .

وفي كل هذه الامور يبرز العنصر الانساني الخيّر الذي عرف به محمود تيمور [2] .

---

١) «مجموعة فرعون الصغير » ص ٥٣

٢) لزيادة الاطلاع على فن تيمور راجع « فجر القصة المصرية » ليحيى حقي ، وسيرة محمود تيمور لنزيه الحكيم ، ودراسات تيمور نفسه في القصة والمسرح .

القصة في لبنان وسوريا :

لو رجعنا الى القرن الماضي وتتبعنا سير القصة اللبنانية السورية ، لوجدنا ان ناموس التطور لم يكن دون عمل فيها . ونحن اذا كنا نتحدث هنا عن سوريا ولبنان كإقليم واحد ، فما ذلك إلا لأن وضعهما الادبي كان واحدا حتى نهاية الحرب العالمية الاولى . واذا كانت بيروت اليوم عاصمة الجمهورية اللبنانية ، فقد كانت قبل الحرب المذكورة مسرح النشاط الفكري والحضاري لجميع الاقاليم التي تفرّعت عن سوريا الجغرافية وتميزت منذ نهاية تلك الحرب بكيانات سياسية مستقلة .

ولا ينكر ان ظروفاً خاصة قد ساعدت لبنان فكان أسبق هذه الاقاليم الى اجتناء ثمار الحضارة والعلم ، على انه لم يكن حتى اواخر القرن التاسع عشر قد تحرر من ربقة الماضي وتقاليده الكتابية . فلا غرابة ان تجري قصصه في عهودها الاولى على اساليب القدماء ، فتظهر بشكل مقامات كمقامات اليازجي وطبقته من الادباء ، او بشكل روايات وحكايات يسودها التكلف البديعي ، والحرص على الوعظ والتعليم . ولقد كان لتقدم الصحافة شأن يذكر في تجديد الانشاء وجعله اقرب الى روح العصر وحاجاته ، فلم تطلّ على العالم شمس القرن العشرين حتى كانت عبارة القصة قد اخذت تلبس من السهولة ثوباً مناسباً للحياة الجديدة . والواقع ان اكثر القصص كانت تنشر في المجلات والصحف : كالجنان والضياء وفتاة الشرق وسواها [1] .

وكما تطوّرت عبارة القصة فأصبحت اقرب الى اذواق الجمهور ، هكذا تطورت موضوعاتها واهدافها. فالعالم العربي لم يبق كما كان في بدء النهضة يحاول السير الى الامام وعيناه الى الوراء ، بل اندفع يغرف من مناهل الحضارة الغربية . فتأثر بها فكرياً واجتماعياً ، واستوحى منها ما لم يجده في ما نُقل اليه

١) لمحمد يوسف نجم في كتابه القصة في الادب العربي ص ٢٣٩ – ٢٥٢ فصل قيم في كتاب القصة يحسن مراجعته .

من تراث قديم . ومنذ استقر الوضع بعد الحرب بدأنا نرى بيننا جيلاً جديداً من ارباب الاقلام يقبل على الآداب الغربية فيترجم الكثير من روائعها . وما هي إلا حقبة قصيرة حتى أخذ بعضهم يحاولون التأليف القصصي مستمدين مادتهم من واقعهم ومطالب عصرهم .

وهكذا قام بين الحربين (١٩١٨–١٩٣٩) نخبة من كتاب القصة اللبنانيين ، نبغ منهم في المهاجر الاميركية الشمالية اعضاء الرابطة القلمية وفي طليعتهم جبران جبران ، ومخايل نعيمة ، كما نبغ نخبة في مهاجر أميركا الجنوبية .

ولجبران في قصصه ميزة خاصة بما يسودها من جدة في الفكر وبعد الخيال ، وعنف في العاطفة ، وثورة على الاوضاع القديمة . وقد كان له تأثير على الجيل الطالع في شتى الاقطار العربية . ويمتاز زميله مخايل نعيمة بسلاسة جذابة مقرونة بدقة في التحليل ، وجمال في التصوير ، وعمق في النظر الى الحياة .

أما في الوطن اللبناني ، فقد انصرف الى هذا النوع من الادب جماعة من ارباب الاقلام ، يتقدمهم كرم ملحم كرم ، وتوفيق يوسف عواد ، ومارون عبود ، وخليل تقي الدين . ولكلٍ من هؤلاء اسلوبه الخاص . فكرم ملحم كرم ضليع في هذا الفن ، ولكنه أميل الى التأنق في الصناعة منه الى التحليل الفني . ومارون عبود نقّاد ووصّاف فكه ولكن قصصه تحتاج الى تصميم وحسن حبك ، فكأنما غايته منها الوصف والتفكيه فحسب .

ويمتاز توفيق عواد بروعة في سرد احاديثه ودقة تصويره ، ولعله بلغ في الفن القصصي مدى لم يتجاوزه سواه . وقد لا يقل عنه خليل تقي الدين ، فهو محلل نفسي بارع ويمتاز بوصفه للعادات والتقاليد المحلية ، والنفاذ الى اعماق الحياة اللبنانية . ومثله أخوه سعيد وهو ينفرد بأسلوب خاص في التعبير عن خواطره ووصف اختباراته .

كل هؤلاء ابتداء من جبران الى آخر كاتب من كتاب ما بين الحربين قد كان لهم فضل يذكر في ترقية القصة اللبنانية وتطويرها .

وقد قام بعد هؤلاء جيل فني من كتاب القصة في لبنان من رجال ونساء ، يمثلهم سهيل ادريس (صاحب «الحي اللاتيني» و «الخندق الغميق» و « اشواق » و « نيران وثلوج » وسواهـا) وكلهم مرهف القلم ، على ان عملهم لم يتم بعد فنكتفي بالاشارة اليهم في هذا العرض لتطور الفن القصصي .

واذا التفتنا الى ما ظهر في سوريا نفسها من الادب القصصي وقابلناه بما ظهر في لبنان ، وجدنا عمل التطور واحداً في الاثنين . الا ان ما حدث من تطور في القصة اللبنـــانية كان بالدرجة الاولى نتيجة لتأثير الادب الغربي . اما القصة السورية فقد تأثرت اولاً بما كان يكتبه رواد الادب الجديد في مصر ولبنان . والى ذلك يشير شاكر مصطفى في كتابه « القصة في سوريا » اذ يقول [1] :

« في لبنان التمع حوالي ١٩٣٠ كرم ملحم كرم وروواياته في (الف ليلة وليلة) . وبالرغم مما في تلك الروايات من النقص الفني فانها مجموعة قصص كانت لعدّة سنوات نموذجاً وغذاء للجوّ القصصي في سوريا . وخرجت سنة ١٩٣٦ رواية « الصبي الاعرج » ، ثم مجموعة قصص « قميص الصوف » ثم « الرغيف » فلفتت الانظار الى صاحبها توفيق يوسف عواد ، وكان حدثاً في تاريخ القصة اللبنانية ان يظهر ذلك الرجل . ونستطيع أن نعرف أثره في سوريا من كثرة المقالات التي كتبت حول قصصه . ثم ظهر خليل تقي الدين سنة ١٩٣٧ بمجموعة « عشر قصص » واتبعها بمجموعة « الاعدام » فسجّل نفسه رأساً بين الرواد الاوائل للقصة العربية الحديثة . وكانت قصصه وقصص الروّاد نمـــاذج ودلائل على القفزة الفنية الواسعة التي حققها القصص العربي » .

وبعد ان يتحدث عن نهضة الادب القصصي في مصر وعن اساطينها امثال حسين هيكل ومحمود تيمور وطه حسين وابرهيم المازني ، ينتقل الى ادباء المهجر فيتحدث عن قصص جبران وميخايل نعيمه وسواهما . ثم يختم حديثه بقوله :«ليس من شكّ بعد في ان القراء في سورية قد قرأوا كل هذا الانتاج في لبنـــان

١) القصة السورية (ط . ١٩٥٨) ٢٤٤ — ٢٤٧

ومصر والمهجر وتمثلوه . وليس من شكٍّ في انه كان يحوم في الاذهان حين بدأت تظهر على الاقلام في سورية « قصة سورية » .

وطبيعيّ أن يقبل السوريون على الادب الغربي كاقبال اللبنانيين والمصريين قبلهم . وقد كان للغة الفرنسية التأثير الاكبر فيهم . فقد ظل « موباسان » كما يقول شاكر مصطفى « نموذج الاحتذاء سنوات طويـــلة» ، و «البؤساء » و « غادة الكاميليـــا » اوحت لكثيرين عدداً من القصص . ولم تظهر بسرعة أساليب الروس الواقعية . وندر ان تأثر كاتب بـ « برناردشو » ، او « غوته » او «ويلز» ، او«بيرانديلو». بينما عرفنا من حولنا تلاميذ كثيرين لـ«اندره جيد» و « بروست » و « موریاك » و « دهـــامل » ، وعن طريق الفرنسية عرف الشباب السوري بين الحربين الادب الروسي الثوري » [1] .

والمتأمل في القصة السورية الحديثة يراهـــا تتخذ مجريين رئيسيين . احدهما تاريخي دفعهـــا اليه يقظة قومية منذ اواخر القرن المـــاضي حتى اواخر عهد الانتداب فحركت في قلب السوري حنينـــاً الى عهود المجد العربي القديم ، فاندفع الى كتابة القصص التي تذكّره بذلك المجد وتحيي فيه الكرامة القومية ويمثل هذه اليقظة كتابات علي الطنطاوي وصلاح الدين المنجد وامثالهما. ولكلٍّ قصص منتزعة من صميم التاريخ العربي .

والثاني مجرى اجتماعي . دفع القصة فيه ما حدث في نفوس الجيل الجديد من شعور بالثورة على الاوضاع الاجتماعية القديمة والتقاليد البالية . وهناك عدد غير قليل ممّن اجروا اقلامهم هذا المجرى يمثلهم ثلاثة هم : علي خلقي : وقد وصفه شاكر مصطفى بقوله : « اديب يكتب للادب وليس يكتب لغيره من سفسف الحياة ... امّا قصصه فقد كانت في ايامه صفعة للمواضعات الاخلاقية الكاذبة وللرياء الاجتماعي » [2] .

١) القصة في سوريا ص ٢٤٨
٢) المصدر نفسه ص ٢٨٠

ومحمد النجار . وأكثر قصصه تدور على فضائح العلاقات الجنسيّة في المجتمع الشرقي ، وميشال عفلق . « وقصصه ترتكز على الحياة الانسانية ... القضايا الاجتماعية والسياسية والخلقية لاتهمّه الا بمقدار علاقتها بما هو اهم – حياة الانسان فالموقف الانساني هو ما يجب ان تعبر عنه القصة » [1] .

والذي يطالع ما كتبه هؤلاء الثلاثة يرى في الصور التي رسمها لهم مؤلف والقصة في سورية » شيئاً كثيراً من الصحة وبراعة التحليل ، وهناك سواهم ممن لم يكتمل بعد عملهم الروائي لنبدي حكماً صحيحاً فيه [2] .

ومما يذكر هنا ان المرأة في سوريا قد اخذت تجاري الرجل في مضمار القصة الحديثة فظهر في العهد المتأخر نخبة من الكاتبات اللواتي احرزن مكانة في هذا النوع من الادب . نذكر منهن وداد سكاكيني ، سلمى الكزبري ، غـــادة السمان ، ألفة ادلبي ، كوليت خوري ، سميرة عزام .

ويظهر ان دوافع التطور الاجتماعي في سوريا خلال الخمس وعشرين سنة الماضية قد حرّكت في المرأة السورية من رغبة الحرية وطلب الانطلاق ، ما اطلق لسانها وقلمهـا ، فهبت تعبر عن امانيها بأسلوب يقترن فيه حسن التفكير بجودة التعبير . وما اشبه هبتها هذه بهبة المرأة اللبنانية في النصف الاول من هذا القرن ، وهو العهد الذي نشط فيه الادب النسائي في لبنـان واخرج عدداً من نوابـغ الكاتبات ، تمثلهن : مي زيادة ، سلمى صايـغ ، جوليا دمشقية ، وكثيرات سواهن .

ومما لا شك فيه ان تطور الحوادث السياسية في سوريا في السنتين الاخيرتين سيؤثر على النتاج الادبي ، ومـا علينا الا ان ننتظر مدة من الزمن قبل ان نستجلي نتيجة هذا التطور .

---

١) المصدر نفسه ٣٢٣

٢) بين الشباب السوري عدد من كتاب القصة الحديثة وفي اتجاهم القصصي مـــا يشير الى مستقبل في وضاء . وقد حرصت مجلة المعرفة على التنويه بنتاجاتهم الادبية فلتراجع .

القصة في العراق :

تأخر ظهور القصة في العراق الى ما بعد الحرب العالمية الاولى . وكالقصة السورية تأثرت اولاً بالادب القصصي في مصر ولبنان ، ثم بما دخل العراق من ادب الغرب اما عن طريق الترجمة او طريق الاطلاع المباشر .

وكانت القصص العراقية في اول عهدها تنشر في صحف لبنان . ولكن ما عتم ان انشأ العراق صحفه الخاصة امثال «البلاد» و «الاعتدال» و «الهاتف» وسواها. فأصبحت هذه الصحف مسرحاً للقصة . الا ان اكثرها لم يعش طويلاً، فكان المجال امام الادب القصصي حتى الحرب العالمية الثانية ضيقاً لا يساعد على النمو والتوسع .

وكما بدأت القصة العربية في شتى الاقطار رومانتيكية النزعة تتأثر طريقة جبران والمنفلوطي ومن جرى مجراهما ، كذلك بدأت في العراق . على ان هذه النزعة كانت قصيرة العهد في العراق . ولعل ذلك ناشىء عما كانت عليه حالة البلاد بعد الحرب وشدة تأثر ادبها المتيقظ بأوضاعها الاقتصادية والاجتماعية .

ففي اوائل هذا القرن كانت الطبقات الكادحة في العراق -العمال والفلاحون- في حالة يرثى لها من التأخر والجهل والفقر . ثم جاءت الحرب العالمية الاولى فحررت البلاد من حكم تركيا ، واخذ العراقيون يطمحون الى بناء دولة لهم على اسس حضارية جديدة قائمة على حسن التنظيم والاستنارة بنور العلوم . ومن الطبيعي ان ينشأ عن ذلك جيلٌ من الشباب تملأ نفوسهم المرارة مما يرونه من فرق بين وضع البلاد وهي ترزح تحت نير الاقطاعية والتأخر من الداخل ونير الانتداب من الخارج ، وبين ما كانوا يطمحون اليه ويبتغونه من حرية وتقدم . فكان دأبهم فيما يكتبون الشكوى من سوء الحال الاجتماعية ، والدعوة الى التخلص من الاغلال السياسية والاقتصادية . وفي مثل هذا الجو لم تستطع الرومانتيكية الصمود أمام نزعة واقعية غلبت على القصص العراقي الجديد .

وقد اتخذت هذه النزعة وجهتين رئيسيتين : وجهة قومية هدفها تحرير البلاد من السيطرة الاجنبية ، ووجهة شعبية هدفها الدفاع عن الجماعات المحرومة بمحاربة الفقر والجهل والمرض ، والعمل على ازالة الفوارق بين الطبقات ، والتحرر من التقاليد البالية التي لم تعد تصلح لعصر العلوم والاختراعات .

والواقع ان هاتين النزعتين - القومية والشعبية - كانتا عند نفر من كتاب القصة في العراق تسيران جنباً الى جنب . فتراهم يرسمون لنا صوراً صارخة يعرضون بها الحياة السياسية والحياة الاجتماعية ، فيهاجمون مفاسدهما ، ويدعون الى ما فيه صلاح الامة وترقيتها وما يؤول الى عزتها وكرامتها . ومن رواد القصة محمود السيد احمد كما نرى مجموعته « الطلائع » التي يقول في اهدائها : « الى فتية البلاد المستعدة للجهاد في سبيل الحق والحرية » ، وفي سواها من قصصه وكتاباته . وكذلك ذو النون ايوب الذي يعد في مقدمة كتاب القصة العراقية . وفي قصصه تطالعك تلك الروح الناقمة على الاوضاع العامة - الدائبة بغيرة متقدة على إيقاظ بني قومه ولفت نظرهم الى سوء حالهم . ومن امثلة ذلك مجموعة «عظمة فارغة» ورواية « اليد والارض والماء » . وقد اخرج هذا الكاتب عدة مجموعات قصصية . ونستطيع ان نستدل على نزعته بما ورد في مقدمته لكتابه « المؤلفات الكاملة » . قال يصف حاله بعد ان انهى دراسته العالية وخرج الى العالم : « واصطدمت بالواقع في حياتي العملية اصطداماً هزني هزة عنيفة . فقد اكتشفت ان المثل العليا التي كنت اقدسها .... وكل مفاهيم الحرية التي درجت على احترامها والتي اقتبستها من مطالعاتي - وجدت كل ذلك حبراً على ورق . مبادىء تقف في الهواء دون قاعدة او مستند . فارتعت أولاً ، ثم غضبت . وقررت ان اعبر عن هذا الغضب بصرخات احتجاج . وما كان غريباً ان اصبحت اكتب الواقع الصادق بأسلوب قصصي ادبي » . ويصدق هذا الكلام على معظم كتاب القصة في العراق .

على ان النزعة الغالبة في قصص ما بين الحربين كانت الى مكافحة الآفات

الاجتماعية سواء أكان ذلك في نظام العائلة او في نظام المجتمع العام وما يقاسيه الشعب من بؤس وآلام . وممن اجروا اقلامهم في ذلك عبد المجيد لطفي ، وسليم بطّي ، وانور شاؤول ، وشاكر خصباك ، وجعفر الخليلي ، وعبد الملك نوري ، وشالوم درويش ، وعبد الحق فاضل وسواهم . وللتمثيل على ما كانوا يكتبون نذكر القصص التالية :

اولاد الخليلي — لجعفر الخليلي
احرار وعبيد — لشالوم درويش
فيما مضى — لعبد المجيد لطفي
الحمال الصغير — لأنور شاؤول
ليلة سوداء — لشاكر خصباك
حسرة ام مخايل — لعبد الحق فاضل

وقد تصدى لكتابة القصة عدد كبير من كتاب العراق . والذي يطالع ما كتبوه قبل ثورة تموز ١٩٥٨ يستطيع ان يرى فيه على اختلاف اذواقهم وميولهم ومواهبهم روحاً تجمع بينهم هي روح النقمة على الاوضاع السياسية والاجتماعية . وكثيراً ما تتحول قصصهم الى عظات وتعاليم يشحب معها وجه الفن .

يقول رضا الشبيبي في محاضرة له عن النهضة الادبية في العراق [1] : وقد مالت طبقة تضم بعض حملة الشهادات الجامعية العالية وغيرهم من الادباء الى فن من فنون الادب الحديث وهو فن القصة ، فراحوا يخرجون القصص ترجمة وتأليفاً ولا يزال هذا الفن في دور النشوء.

وللادب العراقي الحديث في مرحلته هذه مميزات من اظهرها جنوحه الى التشاؤم والشكوى، ووصف مظاهر البؤس والحرمان، في كثير من الاحيان، ومن مميزاته نزوع ظاهر الى العنف في مقاضاة الطبقة الحاكمة والدفاع عن

١) راجعها في مجلة مجمع اللغة العربية (مصر) مج ٧ ص ٣٢٦

حقوق الطبقة المحكومة .

وجاءت الثورة فقلبت الاوضاع واخذت توجه الحياة الشعبية في سبيل آخر. فهل تغيرت الروح الكتابية الآن ؟

لا شك ان شعاعاً من الامل والتفاؤل قد تسرب الى القصة العراقية منذ العهد الجديد في البلاد. ولكن الوقت الذي مر على هذا العهد قصير فلم يتسنّ له ان يحدث بعد تغيراً جذرياً في النفوس . فلا غرابة ان يلمح المتأمل وراء هذا التفاؤل آثار الروح التي كانت تسود الادب في العهد السابق .

ذلك ان الادب الفكري (ولا سيا القصة) لا ينتظر ان يتبدل بين ليلة وضحاها ، ومن الطبيعي ان ينتابه في مثل هذه الحال شيء من الركود والجمود. على ان الزمن كفيل بأن يعيد اليه نشاطه ، حين يشعر الاديب بأن العوامل التي كانت قبلاً تدفعه الى الحقد والنقمة من الاوضاع السيئة قد زالت وان امامه آفاقاً جديدة ينظر منها الى اهداف جديدة .

ويذهب داود سلوم في كتابه « الادب المعاصر في العراق » الى انه لم يظهر حتى نهاية سنة ١٩٦٠ في قصص ما بعد الثورة ما يعد بحق من نتاج الانقلاب الجديد . على انه يستثني من ذلك «قصة هارب من الظلم» لادمون صبري [1] .

وجدير بالذكر ان للفتاة العراقية مشاركة في الانتاج القصصي ، ومن فتيات العراق اللواتي لهن سهم في ذلك سافرة جميل حافظ في « دمى واطفال » ، ومليحة اسحق في « ليالي ملاح » .

ولكن انتاج الفتاة العراقية في باب القصة لم يبلغ بعد المستوى الذي بلغته في باب الشعر حيث بلغ بعضهن ما يقابل بالجيد الجيد من شعر الرجال .

ولقد حدث في العراق اوائل سنة ١٩٦٣ انقلاب جديد . وليس من الممكن الآن التكهن بما سيكون له من اثر في حياة العراق الادبية . على اننا لا نشك في ان ناموس التطور سيعمل عمله فيها .

---

١) راجع ص ١١٦ و ١١٧ من الكتاب المذكور ط . ١٩٦٢

الرواية

ان هذا النوع من الفن القصصي لم يعرفه كتابنا القدماء ، وانما دخل ادبنا في جملة ما دخله بتأثير الحضارة الجديدة . وقد سلكت الرواية في تطورها نفس السبيل الذي سلكته القصة (القصيرة) . فظهرت اول امرها في ترجمات شتى من الادب الاوروبي . وظلت الترجمة مصدرها الاكبر حتى الى ما بعد الحرب العالمية الثانية . على انه منذ اوائل قرننا الحالي اخذت بعض الاقلام تتجه نحو التأليف . وازدادت حركة التأليف نشاطاً بعد الحرب العالمية الاولى وما زالت حتى بلغت الآن شوطاً بعيداً في ميدان التقدم. وللرواية ثلاثة اوجه : التاريخي والاجتماعي ، والفلسفي . وها نحن نلقي نظرة عامة على كل منها :

الرواية التاريخية :

يظهر ان اكثر الذين كتبوا في هذا الباب (وهم ينتسبون الى معظم الاقطار العربية) استمدوا موادهم ومواضيعهم من تاريخ العرب والاسلام . ويمثلهم بل يمشي في طليعتهم اثنان هما جرجي زيدان ومعروف الارناؤط. فلنلق نظرة على عملها الروائي :

روايات زيدان : توفي هذا الكاتب سنة ١٩١٤ بعد ان ترك للأجيال في

باب القصة فقط احدى وعشرين رواية ، خصص منها ست عشرة لتاريخ العرب والاسلام ، واربعـــاً لتاريخ مصر الحديث ، وواحدة للانقـــلاب العثماني سنة ١٩٠٨ .

ولا نعرف سلسلة من القصص التاريخية حظيت من اقبال الخاصة والعامة بما حظيت به هذه السلسلة . فقد مرّ على وفاة صاحبها ما يقارب نصف قرن وهي حية يقرأها الجيل بعد الجيل ، وتجاوزت شهرتها العالم العربي فترجم بعضهـا الى عدة لغات شرقية وغربية . ومع ان القصد منهـا تاريخي في الدرجة الاولى ، فقد وفق زيدان جداً في وضعها بهذا القالب القصصي الممتع اذ خلق لكل منهـا مشكلةً او سراً يتشوق القارىء الى معرفته ، وربطه بحادثة غرامية ينتصر فيها الخير والنبل على الشر والفساد .

ويمتاز زيدان بأمانته التاريخية حتى انه يثبت فيهـــا مصادره كأنه يكتب تاريخاً لا رواية . اما اسلوبه فسهل يأنس به الجمهور ولا تنكره الخاصة . وقد اخذ عليه بعض النقاد « ضآلة العنصر الفني في رواياته » . يعنون بذلك « ضعف تحليله للشخصيات وخلوها من التصوير الحي للبيئة التي تتحرك فيها الحوادث» [١]. كما يأخذون عليه « اخفاقه في مزج الحادثة التاريخية بالحادثة العاطفية ، فيبدو التفكك والتهافت في الرواية احياناً حتى يفقدها الوحدة » ، وكذلك تماثل الحوادث العاطفية في جميع رواياته. فكل من هذه الحوادث عبارة عن «حبيبين تفرق بينهما ظروف خارجة عن ارادتهما او موقف والديهما . والقصة بعد ذلك سرد لجميع تصرفاتهما في انتصار حبهما وبلوغ الغاية »[٢] .

وفي هذه المآخذ شيء كثير من الصحة . فزيدان مؤرخ اكثر منه صاحب فن ، الا ان ذلك لم يقلل من جاذبية رواياته وفائدتها وتأثيرهـــا . وقد برهن الزمـان الذي مرّ عليها عن حيويتها . ومهما قيل فيها فانهـا عمل روائي تاريخي

١) راجع القصة في الادب العربي الحديث لمحمد نجم ص ١٩١ و ١٩٥ (١٩٥٢)
٢) راجع القصة في لبنان (١٩٥٧) لسهيل ادريس ص١٧–١٨

ممتاز . ويحق لزيدان ان يلقب بإمام هذا الفن في ادبنا الحديث . وقد اصاب الدكتور سهيل ادريس اذ قال فيه انه دون منازع خالق الرواية التاريخية عندنا ، وألمع وجه بين وجوه الروائيين التاريخيين [1] . ولا شك ان روايات زيدان التي تدور على تاريخ العرب والاسلام قد احدثت في نفوس النشء، جيلاً بعد جيل، وعياً قومياً وحركت فيهم الميل الى دراسة التاريخ العربي، وربّت ذوقهم القصصي . فأصبحت من الأدب الكلاسيكي الذي سيبقى في ذاكرة الامة اجيالاً عديدة .

هذا من حيث القصة ، اما من حيث مؤلفات زيدان التاريخية والادبية فانه يحتل الصدارة بين كتاب العصر . وهو ركن كبير من اركان النهضة الاخيرة.

روايات الارناؤوط : وهو اديب سوري معاصر اتحف المكتبة العربية بعدد من الروايات التاريخية ، نذكر منها الآن : سيد قريش، عمر بن الخطاب، طارق بن زياد ، فاطمة البتول وسواها . وكلها حسن السبك، ورغم ان هذه الروايات تاريخية ، تسودها نزعة عاطفية اشبه بما تراه في الروايات الرومانتيكية . فغايته على ما يظهر ليست عرضاً للتاريخ العربي في قالب قصصي كما فعل زيدان. ولكنها انتزاع بطولات من هذا التاريخ يصورها للجيل الحاضر تصويراً مشرقاً تذكيراً لهم بماضيهم واستنهاضاً لهممهم ، واستجابة لعاطفة تجيش في صدره وصدور امثاله لدى تحكم الغريب في اوطانهم .

والذي يطالع ما كان يكتبه ادباء سوريا في الفترة الفاصلة بين الحربين العالميتين ، يلمس في كتاباتهم القصصية وغير القصصية ، هذا الرجوع الى الماضي ، والاشادة بأمجاده ، مستمدين منه الثقة بالنفس ، والعزم على تحطيم القيود ، والنشاط في النضال القومي . ومن امثلة ذلك ما وضعه الارناؤوط على لسان الامام عمر ، مخاطباً بادية العرب بقوله [2] :

---

١) المصدر السابق ١٩

٢) رواية عمر بن الخطاب ١ — ٢٤٨

«سأسمعك ايتهـا الارض قصة العبودية في الشام والعراق ، فتثور حماستك ويخرج من جبالك العصية البعيدة جيل من الناس الى دمشق والحيرة ليردد على الضفاف الكاسية العاشبة اناشيد الحرية . وسنجتمع ايتها الارض في وادي العَرَبَة لنكتب قصة الحرية من جديد» . وبديهي ان هذا الكلام لم يخرج من فم عمر، ولكنه صوت الشبـاب العربي في عهد الانتداب ، يتحدى الامم المتحكمة بالاوطان العربية . وقد اصاب شاكر مصطفى اذ قال [1] :

« لقد كان (القصص التاريخي في سوريا) عملية حيوية واكاد اقول عضوية متصلة احمق الاتصـال بالفترة التاريخية التي مرت بهـا سورية تلك الايام . كانت تعكس عن وعي لونـاً من ألوان اليقظة والنضال الوطني والمُثُل المنشودة... ان المشاعر القومية التي زادتهـا الحرب العالمية الاولى وقدا ، ثم سحقتها بالخيبة مطامع الاستعمار ، رثت نفسها في الادب الرومانتيكي ثم ما لبثت ان اتجهت الى ذاتها تفحص امكانياتها ومن هي . وفي الوقت الذي ظهرت فيه القصة التي تعكس الواقع الاجتماعي ومفارقاته ، ظهرت القصة التاريخية التي تعكس التاريخ العربي الرائع والبطولات الضخمة فيه » .

وقد ظهر عدد من الروايات التاريخية في مختلف الاقطار العربية ، الا انها لا تقاس بروايات زيدان في تشويق الجمهور الى مطالعة التاريخ العربي بعد الاسلام، والاستمتاع بما حدث في شتى عهوده من وقائع خالدة الاثر على صفحات الزمان، كما انها لا تبلغ الحيوية التي تتجلى في روايات الارناؤوط اذ يصف لنـــا الامجاد القديمة في حياة أبطـال الامة العربية الذين رفعوا شأنها ، محـاولاً ان يثير في النفوس الرغبة في تعزيزها والعمل على توطيد كرامتها .

على انه وان قصّرت الرواية الحديثة عموماً في مجـال التاريخ القومي ، فقد تقدمت المسرحية في هذا المجال . والذي يراجع مـــا وضع منها يلاحظ نزعة محسوسة في المسرحيين من شعراء وكتاب ، الى احيـــاء الذكريات القومية ،

١) القصة في سورية (١٩٥٧) ص ٤٠٠

وابراز مـــا كان للسلف من امجاد . وسنبسط ذلك في الفصل المخصص للفن المسرحي .

وقد تبلغ هذه الذكريات عند بعضهم درجة العصبية القومية المتقدة كما نرى في رواية «سلمى التغلبية» لشعبان رجب الشهاب، اذ يضع على لسان احد رجـال الفتح قوله مخاطباً فارساً تغلبياً كان يناصر الروم : « عجيب امرك ايهـا البطل العربي المخدوع بمظاهر علوج الروم ، تغلبي يحارب اخوانه في سبيل المحافظة على كابوس الذل والاستعباد ! لم يكن عهدي بالعربي ان يمتشق حسامه فيحـارب ضيوفه ، فكيف جردتم سيوفكم لمحاربتنا مع اننـا لم نأتكم ضيوفاً جياعاً بل منقذين من الذل والاستعباد ! »[1] .

الرواية الاجتماعية :

وهي اوسع انواع القصص الحديثة انتشاراً . واكثر ما يعالجه كتاب العصر . وممـــا يلاحظ ان الثلاثين سنة الاخيرة قد شاهدت تحولاً ظـــاهراً في القصة الاجتماعية . فمنذ القرن الماضي حتى نهاية الحرب العالمية الاولى في قرننا الحالي كانت النزعة الرومانتيكية هي السائدة فيها – فكان القصاصون اميل الى الموضوعات العاطفية او الخيـالية المثيرة ، فيترجمون او يكتبون قصص المغامرات والفواجع والعلاقات الغرامية وما يتصل بالفضائل او المصائب الانسانية . ولكن اوضاع الحياة الاقتصادية والاجتماعية التي سببتها الحربان الاولى والثـانية صرفت الاقلام الى معالجة هذه الاوضاع . فأصبحت القصة تستمد او تستلهم من واقع المجتمع . ولها وجهات ثلاث : اقليمية ، وعمومية ، وشخصية . وسنتحدث بايجـاز الآن عن كل من هذه الوجهات .

ويراد بـ «الاقليمية» في الرواية الاجتماعية ما يستمده الكاتب من واقع اقليم او بلد خـاص . وتتجلى في كثير من الروايات المصرية والعراقية والسورية

١) سلمى التغلبية (بغداد ١٩٤٩) ص ١٧٨

واللبنانية وسواها. ولنمثل عليها بثلاث روايات هي «زينب» لمحمد حسين هيكل، و «زقاق المدق» لنجيب محفوظ ، و «الرغيف» لتوفيق يوسف عواد .

ويعتبر هيكل من رواد الروايــة المصرية . فقد وضع روايتين الاولى « زينب » التي كتبها في باريس بين ١٩١٠ و ١٩١١ ولكنها لم تنشر حتى سنة ١٩١٤ ، والثانية «هكذا خلقت» وقد ظهرت سنة ١٩٥٤ .

وتعد زينب اول رواية اجتماعية مستمدة من الحيـاة المصرية . فهي تصف الريف المصري واهله وعاداتهم وطرق معيشتهم وصفاً يشفّ عن اختبار ودقة ملاحظة . وتدور القصة على حب فتى متعلم لفتاة فلاحة . وليس غرضنا الآن ان نحلل مواقفها الغرامية أو ان نسرد ما حدث للحبيبين ولمن له علاقة بها، بل غايتنا ان نلفت النظر الى ما فيها من وصف ممتع للريف والمشاهد الطبيعية فيه وما نطالعه من أحوال اهل الريف ومشاعرهم ، كل ذلك بأسلوب لطيف يحبب اليك حياة الطبيعة الحرة وخصوصاً بعد ان تقابلها بحياة المدن الصاخبة ومشاكلها المرهقة كما اختبرها الكاتب وهو في العاصمة الفرنسية .

اما الروائي الذي يعد صاحب الراية بين الروائيين في مصر وفي سواها من البلدان العربية فهو :

نجيب محفوظ : فقد وضع عدة روايات تصف الحياة المصرية . نذكر منها للتمثيل : خان الخليلي (١٩٤٦) ، القـــاهرة الجديدة (١٩٤٥) ، زقاق المدق (١٩٤٧) ، بداية ونهاية (١٩٤٩) ، وثلاثيته المعروفة بين(١٩٥٦ و ١٩٥٧) . هذا فضلاً عن كثير من القصص من طويلة وقصيرة . ولعل اشهر مـــا وضعه « زقاق المدق » و «الثلاثية» . فـ « زقاق المدق » اسم حارة او حي صغير من احياء القاهرة القديمة . يصور الكاتب هذا الحي تصويراً دقيقاً ، ويصف لنا بنظر ثاقب وروح فكهة ، سكانه ومـا لكل منهم من طبيعة واسلوب في المعيشة ، ويجيد في تحليل شخصياتهم ووصف تصرفـــاتهم واحوالهم . ويجعل من مرد حوادثهم قصة ممتعة وعرضـــاً واقعياً للحياة الاجتماعية في هذه البيئة من مدينة القاهرة .

اما «ثلاثية» نجيب محفوظ . فمجموعة من ثلاث روايات ، هي في الحقيقة ثلاثة اجزاء لرواية واحدة تمتد وقائعها من سنة ١٩١٧ حتى سنة ١٩٤٤ . وفيها يتجلى لنا ما حدث من تطور في الحياة الاجتماعية والسياسية في مصر .

والاولى من هذه الروايات الثلاث هي «بين القصرين» ، وهو اسم يطلق على شارع في بعض مناطق القاهرة القديمة. نرى هناك بيتاً تقطنه عائلة من تلك الاسر التجارية المتوسطة مؤلفة من والد هو احمد عبد الجواد ، ووالدة ، وخمسة أولاد – ثلاثة صبيان وابنتان – ويعيش الجميع في جو تقليدي قديم – والد اناني صارم له القول الفصل في كل شيء ، ولا يعنى بغير ما يروقه ويشبع شهواته . وام مسكينة خاضعة لجبروت زوجها طيبة القلب ولكنها كثيرة التعلق بالخرافات والاوهام . واولاد مختلفو النزعات ولكنهم مسيرون بارادة والدهم المستبد، وتجيء الثورة المصرية سنة ١٩١٩ فتدفع احدهم برغم ارادة والده، الى الالتحاق بها والاستشهاد في حومتها .

والرواية الثانية «قصر الشوق» وهو اسم الشارع الذي يقع فيه بيت ياسين اكبر اولاد احمد عبد الجواد . وتجري حوادثها بين سنة ١٩٢٤ وسنة ١٩٢٧ . في هذه الرواية نرى الوالد قد خفّت وطأة استبداده ، واخذت العائلة تتنفس الصعداء في شبه جو من الحرية . وتبرز فيها شخصية كمال الابن الاصغر الذي نال شهادة الباكالوريا واصبح ذا وعي سياسي وفكري . وهو يمثل اليقظة الجديدة التي حركت نفوس الجيل المتعلم وقد تسربت اليها من الافكار ما لم تعهده من قبل . وهكذا خرج عن نطاق تقاليده واندفع في سبل قومية وروحية جديدة .

ثم تأتي «السكّرية» وهي حارة كانت تقيم فيها خديجة ابنة احمد عبد الجواد مع زوجها واولادها . وهذه الرواية تمثل المرحلة الاخيرة من مراحل التطور الاجتماعي والفكري الذي حدث في الطبقات المتوسطة من المجتمع المصري . فالمخترعات الحديثة قد اخذت تعم كل مكان . ولم يعد النشء يرضى الحياة التي

كان آباؤه او اجداده يعيشونها اذ قد ترقى علمياً فحصل على الشهادات الجامعية . واستنار بنور الحضارة العصرية . سواءٌ في ذلك الشبان منهم والشابات . وكان من ذلك ان اتجهوا في تفكيرهم اتجاهات مختلفة وسلكوا في معتقداتهم سُبلاً متباينة .

ولعلّ أفضل ما كتب في هذه الثلاثية بحث للاب جاك جوميه Jacques Jomier ١٩٥٨ نقله الى العربية الدكتور نظمي لوقا نشرته دار مصر للطباعة .

ولننقل هنا ما كتبه الاب المذكور في اسلوب نجيب محفوظ كما يظهر في هذه الرواية. وهو كما اختبرناه من مطالعتنا لكتابات هذا الروائي الكبير يصدق على اسلوبه العام في جميع رواياته . قال : « بالغة ما بلغت موهبة الرواية لدى نجيب محفوظ ، وبالغاً ما بلغ فنه الموفق في تشويق القراء لمتابعة حوادث روايته ، فان الاهمية الاولى للثلاثية قائمة في مجالها السيكولوجي ، فالثلاثية تموج بالانماط الانسانية . ونعتقد ان الدراسات الفلسفية التي بدأ بها شبابه اتاحت له صدق الحسّ في التحليل النفسي ، فأدرك الصلات العميقة بين مواقف قد يراها غيره اشتاتاً متفرقة لا يجمعها رباط »[١] .

ويضيف الدكتور نظمي لوقا الى قول جوميه ما يلي : « هذا هو نجيب في رواياته . مصور الحياة الصادق ، وباعثها المبدع الامين . فهل هذا هو نجيب الذي كتب المستشرق الفاضل هذا البحث عن ثلاثيته ؟ انه هو ، وليس هو . انه من حيث نظر اليه المستشرق الفاضل قمة تتراءى لعيني رجل نشأ في مواطن القمم الشوامخ ، وألِف الاعلام من كتاب الرواية في شتى امم الغرب ... اما نجيب من حيث ننظر اليه ، اي من حيث هو ظاهرة ادبية مصرية عربية ، فقمة شامخة في سهل من الارض منبسط او شبه منبسط » . الى قوله : « ان نجيب

---

١) ثلاثية نجيب محفوظ ص ٢٥

محفوظ كاتب خالق .. يخلق الحياة في النماذج التي يتناولها من مستودع الواقع ، فيحولها من امشاج فانية الى انماط باقية »[1] .

★

وقد يحسن في هذا المقام ان نشير الى رواية «عودة الروح» لتوفيق الحكيم فهي قصة اجتماعية مصرية معروفة في الشرق والغرب . وترمز الى نهضة مصر وعودة الروح القديمة اليها ، روح المجد والاستقلال . على اننا سنرجىء الكلام على هذا الفنان المشهور الى فصل آخر .

وكما نرى الواقعية الاقليمية اذ تعطينا في روايات نجيب محفوظ صوراً حيةً للمجتمع المصري، هكذا نراها في روايات توفيق يوسف عواد المستمدة من واقع الحياة اللبنانية . ومن امثلتها رواية «الرغيف» ، وهي قصة طريفة تبدأ في قرية لبنانية خلال الحرب العالمية الاولى . حيث يعرّفنا الكاتب بالفتى سامي وحبيبته زينة . ثم يسوق الحديث الى ما كان من امرهما مع السلطة التركية يومئذ ، والى جهادهما في سبيل وطنهما العربي . وفي سياق الحديث يصف لنا بأسلوب شائق ، وتحليل دقيق ، وتماسك فنّي ممتاز ، بعض الاوضاع المحلية كالاقطاعية ، وشره الحكام ، وعبث الاغنياء المترفين ، واضرار الطائفية .

وهذه الصبغة اللبنانية تعمّ جميع قصص الكاتب الطويلة والقصيرة . وقد صدق حين وصفها في مقدمة « الصبي الاعرج » فقال : « هل انا في حاجة الى الكلام على قصص هذا الكتاب . هل انا في حاجة الى القول انها مستمدة من المحيط الذي اعيش فيه . قد يكون اشخاصها حقيقيين ولا يكونون ، وقد تكون حوادثها واقعة ولا تكون . لكن اولئك وهذه في الحالين نماذج وصور لحياتنا المملوءة على بساطتها بالأسرار » . ان توفيق عواد قد حاول ان يفسّر لنا الحياة كما رآها في المجتمع اللبناني ، وقد نجح وأجاد في سبك تفاسيره بألوان مشرقة من الفن القصصي .

---

١) المصدر نفسه ص ١٢١ و ١٢٢

وليس ما ذكرناه عن الواقعية الاقليمية وقفاً على مصر ولبنان ، ففي سائر الاقطار العربية شيء كثير من ذلك . وليس مـا ذكرناه لبعض اعلامها إلا من قبيل التمثيل على نشاط هذا الفن في أدبنا الحديث .

واذا التفتنا الى الوجهة العمومية من القصص الاجتماعي استطعنـا ان نرى عدداً غير قليل ممن لم يقصر نظره على اقلـيم خاص . كما فعـل منشيء المقتطف الشهير يعقوب صروف ، فقد وضع عدداً من الروايات الاجتماعية . ومن ذلك روايتاه «فتاة مصر» و «فتاة الفيوم» . ففي الاولى مثـلاً يعرض لبعض القضايا الاجتماعية والاقتصادية الدولية وتقع حوادثها في بريطانيا ومصر. ومن مشوّقاتها انه جعل هذه الحوادث ضمن اطار عاطفي . فحدثنـا عن شاب انكليزي واخته سافرا من لندن الى مصر ، وفي مصر تعرّف بفتاة مصرية احبّها ثم تزوجها بعد ان سافر الى اليابان وعاد منهـا الى مصر . وفي سياق الحديث القصصي يطلعنـا على احوال الدول الاوروبية ومؤامراتها السياسية والمالية ، ويصف لنا احوال مصر في مستهل هـذا القرن ، وقـد مرّ ذكرها في الفصل المخصص لسيرته . وروايته هذه وان كان يؤخذ عليهـا بعض المآخذ الفنية ، قد كتبت ببلاغة الكاتب القدير وخبرة العالم الخبير . وعلى هـذا النسق سائر رواياته . على ان صروف لم ينصرف الى الرواية كما انصرف الى المبـاحث العلمية والادبية ، وقد بسطنا مزاياه في باب المقالة وتحدثنا عن منزلته في ادبنا الحديث .

ولعل نقولا حداد (١٨٧٢ — ١٩٥٤) اكثر الروائيين الاجتماعيين انتاجاً . فقد ألّف من الروايات مـا يعد بالعشرات ، وكلها ترمي إلى أهداف تربوية اخلاقية واجتماعية . ومن مواضيعه : الرجل والمرأة ، والخير والشر ، والانظمة والشرائع ، والعادات والتقاليد ، والطبائع والاخلاق ، وما الى ذلك .

وكثيراً ما تراه يقدّم للرواية ما يشفّ عن مغزاها والعبرة فيهـا ، وقد تبرز هذه النزعة في بعض رواياته حتى تكاد تفقدها القيمة الفنية .

والواقع ان نقولا حداد يجمع في نفسه مزيجاً من الادب والعـلم والتفكير

النظري . وتغلب على شتى مؤلفاته ومقالاته الاجتماعية معالجة القضايا التي تتعلق بالحياة والمجتمع الانساني [1] . ومن رام الاطلاع على اسلوبه القصصي فليراجع من رواياته ما يلي :

حواء الجديدة – وهي نقد للناموس الاجتماعي الجائر الذي يتجاوز عن خيانة الرجل او خلاعته ، ويحاسب المرأة على وقوعها بين يديه حساباً ثقيلاً. وقد كتبها بعد ان شهد تمثيل رواية كان من جملة حوادثها ان سيد المنزل أغوى فتاة كانت وصيفة لزوجته ، ولما فضحت الطبيعة امرها نبذها الى العالم ملطخة بالعار . وبقي هو سيداً في بيته عزيزاً في قومه .

العين بالعين – في هذه الرواية يحاول ان يجلو لنا الطبع البشري في تطرفه بين الخير والشرّ . يقول : « فبينا ترى شخصاً يضحّي عدداً من الناس على مذبح شهواته، اذ ترى غيره يضحي نفسه لأجل الآخرين» . فهذا التناقض في الطبع البشري هو الفكرة العامة التي نسجت حولها قصة العين بالعين.

بنيّة لبنان – وهي تدور على حبّ شاب وفتاة عاشا في عهد لبنان الاقطاعي اواسط القرن الماضي ، يوم كانت النعرات الطائفية على أشدها. وفيها يظهر ما كان تقوم به الدولة العثمانية والدول الاوروبية الطامعة في الاستيلاء على لبنان وسوريا من دسائس وفتن ادت الى الحوادث الدامية المعروفة بحوادث السنة الستين .

والذي يطالع روايات الحداد يلمس فيها على العموم رومانتيكية عنيفة ولكنها بعيدة عن الواقع ، تسودها غيرة على المصلحة الوطنية والخير الانساني ، وهي مسبوكة بلغة سهلة ، على ان صاحبها يميل الى الاكثار من تكلّف المجاز

١) وقد حلل محمد يوسف نجم اسلوب نقولا حداد في كتابه القصة في الادب العربي الحديث تحليلاً جديراً بمراجعة الباحثين .

وخصوصاً المرسل منه . وفي جميعها يحاول ان يصنع الحوادث والاشخاص في جوّ اخلاقي كأنما غايته الوحيدة هي توجيه القراء الى المثل العليا في الحياة ورفعهم عن النزعات المادية كما يظهر لك في مقدمة روايته « ثورة عواطف » ، قال :

الحسب والنسب لا يصنعان شخصيات نبيلة ، النبل وراثة اجتماعية اكثر مما هو وراثة بيولوجية . والتربية اولاً والسلالة ثانياً منبت الشخصية .

الحب الاثيري يجرد النفس من العالم المادي، وبسقوط الامجاد تسقط الامجاد العالمية ويبقى الجمال الروحاني . بهذا الحب يرتفع الوضعاء الى ما فوق الامراء ، وبالحب الحيواني يسقط الامراء الى ما دون الوضعاء .

ذلك هو محور هذه الرواية الحبي . أما محورها الاجتماعي فهو ان الام من ربّت لا من ولدت .

وقس على هذه المقدمة سائر ما يقدمه لشتى رواياته .

ولننتقل الآن الى الوجهة الثالثة من القصص الاجتماعي اي تلك التي تنبثق من اختبار شخصي . وهي قد تصطبغ احياناً بصبغة عاطفية تضعها في صف الروايات الرومانتيكية ، ولنمثل عليها بروايتين احداهما لجبران جبران وهي «الاجنحة المتكسّرة» ، والاخرى لشكيب جابري وهي «قدر يلهو» .

فالأجنحة المتكسرة تدور على ما عاناه الكاتب من خيبة آمال في حبه الاول ، وعلى ما اختبره آنئذ من احوال المجتمع الذي كان يعيش فيه . فقد احب جبران في مطلع شبابه فتاة من بيروت وبادلته الحب الشديد. ولكن آل الفتاة قسروها على الزواج من رجل غني مُسن عاشت معه حيناً بشقاء ثم لم تلبث ان ماتت. فنقم جبران على الحياة في مجتمعه وظلمها، والتقاليد القديمة واستبدادها، وراح في هذه الرواية يحدثنا عن حبه وحب فتاته . وفي خلال ذلك يهاجم الشرائع الظالمة والتقاليد البالية ، والعادات الاجتماعية المتبعة، مصوراً لنا ما فيها من فساد ، حاملاً على الرؤساء وذوي النفوذ الذين يستغلون الضعفاء لمآربهم ، ويفجعون القلوب لاجل مصالحهم .

ظهرت هذه الرواية سنة ١٩١٢ فاحدثت تأثيراً شديداً في نفوس قرائها يومئذ ولا سيا الشباب منهم . وذلك لما فيها من جرأة على مهاجمة الاوضاع والرؤساء ، ولما يسودها من « رومانتيكية » تثير العواطف . وقد كانت هذه الجرأة وهذه الرومانتيكية العذبة ، الباب الاول لولوج جبران عالم الشهرة الادبية .

★

اما في « قدر يلهو » فاننا نواجه اختباراً شخصياً آخر . هنا شكيب الجابري (باسم بطله علاء) يحدثنا عن اختباراته وغرّات شبابه وهو يقيم في المانيا . وما كان لذلك بعدئذ من تأثير في نفسه فاذا هو يملّ ما عرفه من مدنية الغرب ويحن الى وطنه الشرقي ، فيعود اليه. ولكنه يعود ليرى الحياة فيه غير متّسقة مع اماني نفسه ، فيشعر انه ضائع بين الغرب والشرق – بين مدنية برغم تقدمها المادي لا تروي ظمأه النفسي ، ومدنية متأخرة ليس فيها ما يشبع طموحه القومي . على انه لم يفقد رجاءه بالمستقبل . فهو سيعمل في وطنه على خلق مدنية جديدة تجمع بين مادية الغرب وروحانية الشرق .

واذ يحدثنا عن اختباراته وتجاربه يعترف آسفاً بأنه لم يكن فيا مضى غير عضو اشلّ في المجتمع لاهمّ له الا اتباع غرائزه البهيمية . وهو لذلك يحاول الآن ان ينهض بعزم ليكون عضواً حياً وعاملاً فعالاً في بناء مجتمع افضل . ومهما يكن فان هذا الاصطدام الذي حدث في نفسه بين ماضيه المبتذل في الغرب ، وواقعه المؤلم في الشرق ، قد اخرج لنا راوية اجتماعية مرسومة بألوان فنية ممتازة .

وقد أتبع هذه الرواية برواية اخرى سماها «قوس قزح» ان هي في الحقيقة الا تتمة للاولى وان يكن قد كتبها بعدها بزمن طويل. و«قوس قزح» اسم فتاة المانية كان قد عرفها في المانيا وعاشرها زمناً طويلاً ثم تركها وعاد الى وطنه . وبعد عدة سنوات يلتقي بها صدفةً في بعض ملاهي بيروت حيث كانت تمتهن

الرقص ، ومنها يعرف انها ولدت منه في المانيا غلاماً لم يعش غير بضع سنوات ولكنه نشأ ومات يعرف الكثير عن ابطال العروبة الاولين . وبعد حديث عاطفي جرى بينهما يقول على لسان «علاء» بطل الرواية (وهو الكاتب نفسه) : « كنت فيما مضى (اي ايام الحداثة) احبهم واعجب بهم (اي بابطال العروبة) واحب ان اتخذ منهم قدوة ومثالاً . فكانت الحياة تبدو لي هيّنة لينة ، اما اليوم فقد طال عهد الانقطاع بيني وبين الرفاق القدماء « محمد – ابو بكر – عمر – علي » . يا لها اسماء جميلة كم نعمت بها في طفولتي ولكم نعم بها طفلي قبل ان يموت ! عدت اليهم رويداً رويداً – عدت كما يعود الشريد الى احبابه فاذا في سيرتهم قوة وروعة وبعث عظيم . وسرت في ركابهم مرة اخرى فاذا برجولتي تتجدد والامل المستعبد ينطلق من عقاله»[1] .

وليس الذي ذكرناه من انواع الرواية الاجتماعية الا امثلة على المجاري التي اتخذتها في ادبنا العربي الحديث . ولو اردنا التمثيل على كل ما كتب في هذا الباب لضاقت به الفصول الطويلة . ويحسن بنا ان نقول ان في الادب القصصي العراقي شيئاً كثيراً من هذا القبيل كقصة « باهرة » لمحمد بن علي ، و « افول وشروق » لخالد الدرة ، و « عهد مضى » لداود سلوم ، و « الخالة عطية » لادمون صبري وغيرها .

واذا خرجنا عن مصر وسوريا ولبنان والعراق الى سواها من الاقطار العربية نجد ان الفنون الادبية النثرية فيها جاءت متأخرة . ولعل ما قاله الاستاذ عبد الله كنون في ادب المغرب يصدق على سائر هذه الأقطار .

واليك قطعة له من مقال نشره في مجلة المجمع العلمي العربي بدمشق[2] . قال : « ومن الحق القول بأن تطور مفهوم الادب عندنا انما حصل بتأثير النهضة

---

١) قوس قزح ص ١٩٩ ، وأحدث رواياته «وداعاً يا فاميا» ، ومن رام بحثاً مستوفى عن قصص الجابري فليرجع الى القصة في سوريا لشاكر مصطفى حيث يخصص ٥ صفحة لذلك.
٢) عدد كانون الثاني سنة ١٩٦٣ ص ٣٣

الادبية التي قامت في الشرق العربي في بداية هذا القرن . اذ انه قبل ان يتصل ابناء المغرب بالثقـــافة الغربية كانت الطليعة الاولى من ادباء المغرب تتصل عن طريق الصحافة العربية والمطبوعات الصادرة في البلاد العربية ، وخصوصاً مصر ، بالانتاج الادبي الجديد لاعلام النهضة في العالم العربي ، وتتأثر به وتحاول النسج على منواله » . وليس فيها مـــا يخرج عن النماذج التي عرضناها تمثيلًا على تطور الادب القصصي .

الرواية الفلسفية

كثيراً ما تجمع الرواية بين القضايا الفكرية والقضايا الاجتماعية فتكون مزيجاً من النوعين . على ان للرواية الفلسفية ميزة خاصة بها . ولقد حاولها بعضهم قديماً كما فعل ابن طفيل في قصته الرمزية « حي بن يقظان » . وهي تدور على شخص وُلد ثم ترك وهو طفل رضيـع في جزيرة لا يسكنها احد من البشر . فحنَّت عليه ظبية وارضعته حتى نما وصار قادراً على الاعتناء بنفسه. ولكنه نما لا يعرف انساناً ولا علمـاً . ومع ذلك استطاع بالموهبة العقلية التي اودعهـا الله فيه ان يرتقي الى معرفـة الله . وذلك عن طريق المشاهدة والتفكير والاستدلال بالمحسوس على المعقول . وغاية الكاتب من هذه القصة هي ان يبيّن ان العقل البشري يمكنه الوصول الى الكمال بمجرد التفكير الذاتي دون نقل او تعليم .

ومن هذه القصص الرمزية «قصة الانسان والحيوان» في رسائل اخوان الصفا. وقد وضعت لتبين ظلم الانسان للحيوان .

وقد عد بعضهم «رسالة الغفران» للمعري من باب القصص الفلسفية . ويجوز ان نعدها من هذا الباب توسعاً . فمـــا هي في الحقيقة قصة ولا هي ترمي الى غرض فكري معين . وانمـا هي رسالة في جزأين – الاول وصف خيالي لرحلة قام بها اديب اسمه ابن القارح الى الآخرة وما شاهده هناك من المناظر ، ومن التقى بهم من العلماء والادباء . كل ذلك بـأسلوب يجمع بين الغموض اللفظي ،

والاطلاع اللغوي من جهة، والتفكهة والسخرية وحسن التصوير من جهة اخرى.

والجزء الثاني رد على رسالة ابن القارح المذكور ، وفيه يدلي المعري ببعض آرائه في عدد من اهل الادب والفكر وخصوصاً الزنادقة. وهنا يمس موضوعات او آراء قد تعد من باب الفلسفة .

أما عصرنا الحاضر فقد حدثت فيه عدة محاولات لوضع روايات ومسرحيات تجمع بين الأسلوب القصصي المشوق والمبادىء التي يحاول الكاتب تقريرها ، وعرضها . ويمكن اعتبار فرنسيس مراش اول رائد للرواية الاجتماعية الفلسفية. فهو من رجال القرن الماضي وله رواية «غابة الحق» ١٨٦٥ وهي تدور على الصراع بين الحق والطغيان ـ بين التسامح والعبودية وبين السلم والحرب ـ يقول اديب حلب سامي الكيالي انها تأملات انسان يريد ان تعيش البشرية في هناءة ازلية ، لا ظلم ولا طغيان ولا عبودية [1] .

على ان فرح أنطون صاحب مجلة الجامعة هو العَلَم في هذا النوع من القصص. ففي رواياته « المدن الثلاث » (أي الدين والعلم والمال) و « الوحش الوحش الوحش » و « أورشليم الجديدة » يتناول شتى المسائل الاجتماعية والفلسفية والدينية ويبحث فيها بحث المحلل، ولكي لا تكون القصة مجرّد مباحث يجعل لها هيكلاً حبيّاً رومانتيكياً فيلطف جوها ويشوق القارىء الى معرفة نهايتها . وللتمثيل على أسلوبه نقف قليلاً على روايته «أورشليم الجديدة» :

أورشليم الجديدة : قال في مقدمتها يوم نشرها في مجلته «الجامعة» : « على ان هناك نوعاً آخر من الروايات أفضل من الانواع الثلاثة (أي الاجتماعية والتاريخية والسيكولوجية والغرامية) وهو الذي يجمع بينها في سياق واحد فيكون تاريخاً لمحبي التاريخ، فلسفياً لمحبي الفلسفة والأجتماع ، ادبياً لمحبي الأدب والعواطف الحية ... ومن هذا النوع أشهر الروايات الخطيرة التي كان ظهورها

١) من مقال له في مجلة المعرفة اذار ١٩٦٣ ص ٨٨

عبارة عن حادثة وطنية كبرى لانها رفعت مبادىء وخفضت مبادىء ... ولقد سلكت «الجامعة» هذا المسلك في روايتها الجديدة « أورشليم الجديدة » فجمعت فيها بين الفلسفة والاجتماع والتاريخ والحب والأدب ، وفوق ذلك ضمت اليها الدين لأن العصر الذي تبحث هنا في شؤونه عصر ديني محض سواء كان ذلك عند المسيحيين أو عند المسلمين » .

في هذه الرواية يحملنا الكاتب الى أورشليم يوم عيد الميلاد ، وكان العرب قد انتهوا من فتح الشام وأخذوا يحاصرون بيت المقدس . فيصف لنا حال السكان فيها وما كانوا يقاسونه من شدة السلطة الروحية ، وكيف كان الرهبان يعيشون في أديرتهم ، واختلاف الآراء الدينية بينهم . ويبرز من بينهم اثنان هما الراهب ايليا واستاذه الراهب ميخايل . ويسمع هذا يلقي خطبة طويلة عن الحق ويتأثر ايليا من هذه الخطبة ويأبى عليه ضميره ان يخضع للتعصب الديني السائد ، فيندفع الى تخليص فتاة يهودية كاد الشعب يقضي عليها ولا يلبث ان يغرم بها ، وفي ساعة انفعال شديد يصرح لها قائلًا : « انني أحبك أحبك، قد كنت مللت هذه الحياة الباردة الجافة وسئمت كل ما فيها صغير دميم ، خشن دنيء . أما الآن بعد ان عرفتك فقد صرت أراها جميلة مثلك . فيا جميلتي ان الله أرسلك الي كما أرسلني اليك ، انني أحترم مذهبك وكل مذهب يجد فيه صاحبه راحة وسلاماً وحقاً وفضيلة ، لنضع كل أديان البشر جانباً في مكان مقدس محترم ولنجتمع على دين جديد يقبل كل الأديان الفاضلة هو دين العدالة والحق والمحبة والصفح للجميع ».

وتشتبك قصة الحب بين الراهب والفتاة بقصة حصار أورشليم ثم مخابرات الصلح وقدوم الامام عمر وتسلم المدينة بعد أعطائه البطريرك والسكان عهداً خاصاً منه .

ويتخلل كل ذلك أقوال فلسفية دينية وضعها الكاتب على لسان بعضهم . وتنتهي بموت الفتاة والراهب أيليا وأستاذه الراهب ميخايل ويجعل لهما الكاتب

خاتمة يخاطب فيها هؤلاء الشهداء الثلاثة جاء فيهـا :

« سلام عليكم وهنيئاً لكم لانكم رقدتم براحة وسلام قبل زمن الاضطرابات التالية . هنيئـــاً لأنكم خلصتم من مشاهدة الحياة الباردة ، واهتماماتها الباطلة ، وشهواتها الفارغة ، واعتداءاتها الوحشية . انكم خلصتم من مشهد الصغير النفس يجر ذيل الكبر منتصراً ، والدميم خَلقاً وخُلقاً ، يتيه دلالاً ويعيش اختيالاً ، والسالب يتمتع بما سلب مكرماً محترماً بين قومه .

هنيئاً لكم لأنكم قضيتم قبل العصر الذي تزحف فيه الامم والقارات بعضها الى بعض ليفني بعضها بعضاً ... وبما انكم قد خرجتم عن دائرة النزاع والعراك في الحياة وأصبحت نفوسكم نفوس ملائكة فأوحي الى الشرقيين يا أيتها النفوس الكريمة المبادىء الجميلة الشريفة التي ترمم أباطيل نزاعهم » .

ومن رجال هذا الفن مخايل نعيمة واحدث رواياته الفلسفية «اليوم الاخير». وهي رواية حريّة بالدرس ، على انها ليست رواية بالمعنى المعتاد ولكنها تأملات في الكون والحياة والموت والخلود ، وكأنما الفكرة الرئيسية فيهـا ان الانسان لن يبلغ السعادة الحقيقية إلا متى تجرّد عن الشهوات والمطامع الدنيوية واصبح مسيطراً على قلبه وفكره . يقول بطل الرواية : «فما دام في الكون ما يزعجني دمت بعيداً عن الانسجام مع الكون ، ومـــا لم انسجم مع الكون انسجام قطرة الماء مع البحر سأبقى في صراع مع الكون ».

هو هذا الاتحاد الصوفي بالقوة الكونية العليا التي تعتق الانسان من شهوة المادة ومن قيود الزمان والمكان .

ولتوفيق الحكيم نظرات فلسفية عميقة ، وسنرى شيئاً منهـا في الكلام على مسرحياته .

المسرحية

يرجع تاريخ الفن المسرحي الى منتصف القرن الماضي. ورائده الاول شاب ولد سنة ١٨١٧ في اسرة من مدينة صيدا واسمه مارون النقاش. ولما بلغ الثامنة من عمره انتقل والده وكان من ذوي المتاجر الى بيروت واتخذها مسكناً له . وفيها نشأ مارون وتعلم . ثم دخل خدمة الحكومة ولكنه لم يلبث طويلاً حتى انصرف الى التجارة وظل يعمل فيها طوال حياته. ولم تكن حياته طويلة – ٣٨ سنة فقط – على انها كانت حياة جد ونشاط دائمين . وقد اقتضته مهامه التجارية الى ان يقوم برحلات كثيرة زار في بعضها ايطاليا . وهناك شهد تمثيل بعض المسرحيات فشغف بهذا الفن ، ولما عاد الى بيروت شعر بدافع قوي يدفعه اليه فاتخذه هواية ادبية والّف فرقة من بعض الشبان . وفي سنة ١٨٤٧ مثّل معهم في بيته اول مسرحية له « البخيل » دعا اليها وجوه المدينة وقدّم لها بخطبة قال فيها بلغة ذلك العهد :

«وها انا متقدم دونكم الى قدّام ، محتملاً فداء عنكم امكان الملام ، مقدّماً لهؤلاء الاسياد المعتبرين ، اصحاب الادراك الموفرين ، ذوي المعرفة الفائقة ، والاذهان الفريدة الرائقة ، الذين هم عين المتميزين بهذا العصر ، وتاج الالبّا

والنجبا بهذا القطر ، ومبرزاً لهم مرسحاً ادبيّاً ، وذهباً افرنجياً مسبوكاً غريباً » . الى قوله متحدثاً عن رسالة المسرح او المرسح كما كانوا يومئذ يسمونه : ولأنه بهذه المراسح تنكشف عيوب البشر فيعتبر النبيه ويكون منها على حذر . وعدا اكتساب الناس منها التأديب ، ورشفهم رضاب النصائح والتمدن والتهذيب ، فانه بالوقت ذاته يتعلمون ألفاظاً فصيحة، ويغتنمون معاني رجيحة » .

وفي السنة التالية قدم رواية اخرى هي « ابو الحسن المغفّل وهارون الرشيد » . ودعا اليها الوالي ورجال الحكومة والقناصل والاعيان . ويظهر من شهادة رحّالة انكليزي حضرها انها نالت استحسان الجمهور حتى رشقوا المرسح بوابل من الورود . وفيها يقول : « كان في التمثيل بعض الارتباك كما كان الغناء رديئاً ، ولكن اخراج المسرحية من الناحية الفنية كان موفقاً . وقد دلّت على مواهب كامنة عند المؤلف . كما برهنت على ان النفس العربية يمكن ايقاظها وتحريكها بسهولة » (١) .

وفي سنة ١٨٥٣ قدم آخر مسرحياته. وكان مارون يؤلف الرواية ويلحنها. والذي دفعه الى هذا الفن كما يقول ابن اخيه ، غيرته الوطنية وما رآه فيه من فائدة لبلاده السورية . فتحمل مشقة التأليف فيه ولم يكن من يعرفه غيره من مواطنيه (٢) .

وحمل المشعل بعده ابن اخيه المذكور سليم النقاش الذي الف فرقة في بيروت ثم انتقل بها سنة ١٨٧٦ الى الاسكندرية ، فكانت اول فرقة دخلت وادي النيل .

وكان قد نبغ في مصر قبل مجيئه اليها ممثل موهوب يلقّب بأبي نظارة واسمه يعقوب صنوع وهو من الذين عرفوا التمثيل في الغرب وقد اتقن اللغتين الفرنسية والايطالية ومثل في بعض الفرق الاوروبية التي كانت تعمل في مصر . ثم عنّ

١ و٢) المسرحية في الادب العربي لمحمد يوسف نجم ص ٣٧ و ٣٨ .

له ان يؤسس مسرحاً للتمثيل العربي ، وفي سنة ١٨٧٠ قدم فيه اولى مسرحياته فلقي استحساناً كبيراً من الجمهور اذ كان خفيف الروح ويخاطب الشعب بلغتهم ، واستطاع في خلال سنتين ان يؤلف ويقتبس عن الفرنسية كثيراً من الروايات اكثرها يدور على نقد الحياة الاجتماعية والاخلاقية . ولكنه في آخر تمثيلية له وعنوانها «الوطن والحرية» عرّض بالحكومة وتدهور الاخلاق فيها، فكان ذلك سبباً في اغلاق مسرحه وتوقفه عن متابعة عمله . ولم يحدث نشاط تمثيلي بعده في مصر حتى جاءتها فرقة سليم نقاش المذكورة .

قدِم سليم النقاش الى الاسكندرية ، وهناك اشترك مع الكاتب والخطيب المعروف اديب اسحق في العمل المسرحي . ولكن عملها لم يطل امره غير سنة واحدة اذ انسحبا منه وتركا فرقتهما لاحد اعضائها يوسف خياط الذي لم يلبث ان انتقل بها الى القاهرة . وظلت هذه الفرقة تعمل بين نشاط وضعف حتى سنة ١٩١٥ .

وفي اثناء ذلك نشأت فرق شتى في وادي النيل . احداها برئاسة سليمان القرداحي (١٨٨٢ – ١٩٠٩) واخرى برئاسة ممثل كان قد قدم من دمشق اسمه ابو خليل القباني (١٨٨٤ – ١٩٠٠) ، وثالثة برئاسة سوري آخر اسمه اسكندر فرح كان يعمل في فرقة القباني ثم انفصل عنها سنة ١٨٩١ وألف فرقة خاصة . ولكنه لم يستمر في العمل غير بضع سنوات ، ثم توقف واجّر مسرحه للشيخ سلامة الحجازي المغني المشهور ، ثم للجوق العربي الجديد الذي ألفه عبدالله عكاشة وكان يديره الشاعر البيروتي الياس فياض .

وليس غرضنا في هذا المقام ان نكتب تاريخاً للاجواق التمثيلية فقد تفرّغ لذلك عدد من الباحثين [١] . على انه يجدر بنا ان نذكر أن التمثيل العربي مرّ في طورين : الاول رائده مارون النقاش وينتهي سنة ١٩١٢ . ويتلوه الثاني

١) افضل ما كتب في هذا الباب كتاب للدكتور محمد يوسف نجم عنوانه « المسرحية في الادب العربي » ، وكتابان للدكتور محمد مندور هما « المسرح » و « مسرح توفيق الحكيم » .

ورائده شاب لبناني اسمه جورج ابيض . والفرق بين الطورين ان الممثلين في الاول لم يدرسوا هذا الفن درساً اصولياً وكان جلّ معتمدهم فيه على الغناء والتلحين . فلما ظهر جورج ابيض دخل التمثيل في طور جديد . وقد ولد هذا الفنان في بيروت سنة ١٨٨٠ . ولما بلغ الثامنة عشرة من عمره رحل الى الاسكندرية للارتزاق . وهناك زاول التمثيل كهواية مع بعض الفرق الاجنبية . ثم اتيح له بمساعدة الحكومة السفر الى باريس سنة ١٩٠٤ للتخصص في هذا الفن ودرسه على اصوله . فبقي في باريس نحو سبع سنوات ثم عاد الى مصر . وفي سنة ١٩١٢ ألف فرقة عربية واخذ يمثل الروايات على الطريقة العصرية . فلقي نجاحاً يذكر ، واصبح بحق رائد التمثيل العربي الحديث . وقد ظلت فرقته سنوات عديدة تمارس هذا الفن .

وفي اثناء ذلك نشأت فرق محترفة اخرى في مصر وسواها من البلدان العربية – هذا عدا ما نشأ من نوادي وجمعيات مدرسية وغير مدرسية خصوصاً في مصر ولبنان وسوريا كان يقدم فيها مسرحيات على ايدي فرق من الهواة او من الطلبة . الا ان مصر كانت قد سبقت سواها في هذا السبيل وكان لحكومتها اهتمام بترقية التمثيل . فلا عجب ان تصبح مصر موئل هذا الفن ومركزه الام . وقد برز من رجاله غير جورج ابيض جماعة معروفة منهم زكي طليمات ، عزيز عيد ، يوسف وهبي ، نجيب الريحاني وامثالهم .

وكانت المسرحيات في اول الامر تنقل بالترجمة عن الفرنسية او الانكليزية. ويختلف المترجمون في اساليبهم . فمنهم من كان يتصرف كثيراً في الترجمة فيضيف او يحذف ما يراه ملائماً لذوق النظّارة ، كما نشاهد في ترجمات خليل مطران ، ونجيب الحداد ، وطانيوس عبده ، ومن جرى مجراهم . ومنهم من كان يحرص بقدر الامكان على متابعة الاصل ، كمحمد عفت ، وسامي الجريديني ، ويوسف السباعي ، ومحمد حمدي وسواهم . وعلى كل حال فان هؤلاء المترجمين قد أدوا المسرح العربي خدمات جلّى بما نقلوه من روائع الادب الافرنجي .

يكفي ان نشير من ذلك الى مـــا نقلوه عن موليير (Molière) وكورني (Corneille) ، وراسين (Racine) ، وفولتير (Voltaire) ، وشكسبير (Shakespear) ، وبرناردشو (Shaw) وغير هؤلاء من أعلام الادب العالميين .

ولقد نقل الى الادب العربي مئات من المسرحيات الاوروبية وظلت الترجمة معتمد المسارح الاكبر حتى عهد قريب حين نشأت نخبة من المؤلفين الذين أمدوا الادب التمثيلي بنتاج اقلامهم .

والواقع ان التأليف قد رافق المسرح العربي منذ ظهوره في القرن الماضي . وكان بعض المسرحيات تؤخذ مادتها من التاريخ العربي ، ومن أمثلتها ما يلي :

«المروءة والوفاء» (١٨٧٦) للشيخ خليل اليازجي وهي من باب المسرح الشعري.
«عنترة» و «وضّاح» – مسرحيتان لأبي خليل القباني ويرجع تاريخها الى اواخر القرن الماضي .
«علي بيك او فيما هي دولة المماليك» (١٨٩٣) ، مسرحية نثرية لأحمد شوقي .
«المعتمد بن عباد» (١٨٩٢) لابرهيم رمزي ، وهو من اعلام الكتاب المسرحيين.
«فتح الاندلس» (١٨٩٣) لمصطفى كامل مؤسس الحزب الوطني في مصر .
«السموأل» (١٩٠٩) لأنطون الجميل ، وهو اديب وصحافي معروف.
«الرشيد والبرامكة» (١٩١٠) للأب رباط اليسوعي .
«صلاح الدين» (١٩١٤) لفرح انطون ، وهو أحد اركان هذا الفن .

ومن المسرحيات ما يستمد من واقع الحياة الاجتماعية او الاخلاقية ، نذكر منها للتمثيل :

«السليط الحسود» (١٨٥١) لمارون نقاش رائد المسرح العربي، وله بضع غيرها.
«الشاب الجاهل السكّير» (١٨٦٣) لطنوس الحرّ
«الهوى والوفاء» (١٨٩٣) لزينب فؤاد

«صدق الاخاء» (١٨٩٤) لاسماعيل عاصم

«مظالم الآباء» (١٨٩٧) لخليل كامل

«ضرر الضرتين» لنخله قلفاط

«مصر الجديدة» (١٩١٣) لفرح انطون

• قد تستمد المسرحية من الكتب المقدسة ، او من مصادر دينية ، أمثال :

مقتل هيرودس (١٨٨٩) للاستاذ عبدالله البستاني صاحب «البستان».

يوسف الحسن بن يعقوب (١٨٦٩) للخوري اسطفان الشمالي

آدم وحواء (١٩٠٣) للخوري فيلمون الكاتب

وإنما هذه امثلة قليلة على ما كان يضعه كتاب المسرحية في الطور الاول من تاريخها ، اي منذ أول عهدها حتى الحرب العالمية الاولى ويدخل فيه المأساة (Tragedy) والملهاة (Comedy) والهزلية (Farce) ، بعضها باللغة العامية وبعضها باللغة الفصيحة . ومما لا شك فيه ان المسرحية في طورها الثاني ، اي منذ الحرب العالمية الاولى حتى الوقت الحاضر ، قد خطت خطوة واسعة في سبيل التقدم سواء أكان ذلك من الناحية الفنية او الناحية المعنوية. على ان لغتها لا تزال مشكلة لم تحلّ بعد على شكل نهائي. فالذي يشاهدها اليوم على المسارح، أو على شاشة السينما والتليفيزيون ، أو يصغي اليها على امواج الراديو ، يستطيع ان يلاحظ ان كثيراً منها يقدّم بلغة الشعب الدارجة على ألسنتهم . على ان كبار الكتاب لا يزالون محافظين على صحة اللغة في ما يقدمونه للمسرح . ولقد شهدنا وأصغينا الى عدد غير قليل من النوعين فاذا فيها الغثّ والسمين، والمسفّ والرفيع . وانما يتوقف الجيّد ، عامياً كان او فصيحاً ، على ما عند المؤلفين من ذوق فني ، وحسٍّ دقيق بنفسية الجمهور ، وعذوبةٍ في التعبير عن الفكر .

ولا مشاحة ان شيوع المستنبطات الاذاعية كالراديو والسينما والتليفيزيون ، قد احدث في جميع الاقطار العربية نشاطاً كبيراً في الفن المسرحي تأليفاً

وتمثيلاً . على ان مصر لا تزال في المقدمة .

وقد مرّ التأليف المسرحي في نفس الاطوار التي مرّ بها الفن القصصي عموماً، فخرج من جوّه الرومانتيكي القديم الى جو واقعي يعنى بحيـــاة الناس كما يراهم ويشعر بما لهم وما عليهم .

ولعلّ الذي فتح هذا الباب هو محمد تيمور (١٨٩٢ - ١٩٢١) وقد شهد له النقاد في ذلك ، كالدكتور اسماعيل ادهم في كتابه «توفيق الحكيم» ، فقد ذكر انه قبيل الحرب العـــالمية الاولى قام في مصر مدرستان ادبيتان ، احداهما «رومانسية مفرطة» يمثلها مصطفى لطفي المنفلوطي . والأخرى «تحليلية واقعية» يحمل لواءهـا تلامذة أحمد لطفي السيد . وبازاء هـذه قامت مدرسة ثالثة هي ايضاً واقعية ولكنها انصرفت الى النهوض بالأدب القصصي . ثم قال عن هذه الاخيرة : « وكان روحها وعنوانهـا المرحوم محمد تيمور »[١]. وقريب من هذا القول مـــا ذهب اليه توفيق الحكيم في فصل قصير موضوعـه « الواقعية ادب الازمات» . فبعد أن تحدث عن العناصر التي تقوم عليها الازمات ، أشار الى محمود تيمور اخي محمد بقوله : « لقد قلنا إن تيمور نشأ في خلال الازمة التي ولدت الثورة وانه قرأ القصة في الكتب التي اتى بها اخوه (محمد) من اوروبة ، وتعلّم على يديه كيف يكتبهـا »[٢] . ويعترف بذلك محمود فيقول في مقدمة مجموعته «فرعون الصغير» : « في ذلك الوقت كنت أستنير في مطـالعاتي بهداية شقيقي » . وبعد ان يتحـدث عن التطور الذي حدث في النفوس بعد الحرب العالمية الاولى يقول : « اما الادب فقد اصطبـغ باللون المحلي الصـارخ ، حتى اغانينا الشعبية غلبت عليها هذه الصبغة ، ورأينا انفسنا نتجه نحو الواقع ، فأصبحنا عمليين بعد ان كنا شعراء خياليين ... في هذا الجو كتب محمد تيمور اقاصيصه «ما تراه العيون» وقد نحا فيها نحو المذهب الواقعي ، وصوّر فيها مناظر مختلفة

١) كتابه «توفيق الحكيم» (ط ١٩٤٥) ص ٣٤ – ٣٨

٢) كتابه «رائد القصة العربية» (ط ١٩٤٤) ص ٤٢ و ٤٣

من بيئتنا المصرية واشخاصها ، صاغها اقاصيص جمعت بين فن مبتكر واسلوب رشيق سهل فأعجبت بها اعجاباً دعاني الى ان أؤلف على غرارها » .

ولقد ترك لنا محمد تيمور اربع مسرحيات (كتبها باللغة العامية) ، عدا مجموعة من القصص والمقالات والاشعار . ومع انه توفي في التاسعة والعشرين من عمره ، اي قبل ان ينضج فنه الادبي ، فقد كان له يد في توجيه الادب المسرحي . ويكفي ان يكون ممن تأثروا به اخوه محمود احد اربعة من ابرز اعلام هذا الفن وهم : فرح انطون ، توفيق الحكيم ، محمود تيمور ، علي احمد باكثير ، الذين يقول فيهم الخبير المسرحي الكبير زكي طليمات ، او في الثلاثة الاخيرين منهم : «والمسرحيات العربية التي يكتبها توفيق الحكيم ، ومحمود تيمور ، وعلي احمد باكثير تقف اليوم بجدارة الى جانب المسرحيات العالمية ، حتى ان بعض المسارح العالمية قدّمتها لنفاستها واصالتها وكشفها عن ابعاد نفسية جديدة »[1] .

ونترك الدراسة التفصيلية في كل من هؤلاء الاعلام لمن تفرغوا لها ، ونكتفي هنا بأن نقف قليلاً على توفيق الحكيم لنتبين الشوط الذي بلغه في هذا المضمار .

مسرحيات توفيق الحكيم : هذا العلَم في التأليف المسرحي اديب متعدد النواحي مجيدٌ في جميعها . ففضلاً عمّا له من مقالات وقصص ومسرحيات طويلة من النوع الذهني والرمزي ، وضع اكثر من عشرين مسرحية بين قصيرة ومتوسطة معظمها من باب الكوميديا ، وقد عالج فيها بعض المشاكل الاجتماعية والاخلاقية : كمشكلة المرأة ، وفساد الحكم ، والشذوذ الفردي والاجتماعي ، وطغيان المادية ، وتدهور الاخلاق وما الى ذلك .

ولقد قرأنا معظم هذه المسرحيات امثال « سرّ المنتحرة » ، و « رصاصة في القلب » ، و « جنسنا اللطيف » ، و « الخروج من الجنّة » ، و « امام شباك التذاكر » ، و « الزمّار » ، و « حياة تحطّمت » وسواها . فوجدنا متعة في

١) من مقال له في مجلة الرائد العربي (الكويت) العدد ٢٨ من السنة الثالثة ، ص ٥٧

قراءتها ، وهي كما قال محمد مندور في كتابه « فنون الادب العربي » : «تعرض لوحات منتزعة من واقع حيـــاة الجمهور أليفة" اليه ، كما ان الحركة المسرحية متوفرة فيهـا في الغالب بخلاف مسرحياته الرمزية الذهنية التي ربمـا كانت اكثر صلاحية للقراءة منها للتمثيل »[1] .

وكثير من هذه المسرحيات مكتوب باللهجة المصرية العامية . ولهذا نتخطاها الآن الى مسرحياته الفلسفية المعروفة أمثال: « اهل الكهف » ، و «شهرزاد» ، و «الملك اوديب» ، و «ايزيس» ، و «محمد» ، و «سليمان الحكيم» . ففي هذه المسرحيات بلغ الحكيم قمة الشهرة الادبية ، واسلوبه فيهـا اسلوب فصيح اللغة ناصع البيان .

واليك مثلا مسرحية شهرزاد ، وهي مستمدة من حكايات الف ليلة وليلة . ولا بأس من ان نثبت هنا خلاصتها وان كانت معروفة من جمهور الادباء . وذلك ان ملكاً اسمه شهريار ، اكتشف خيـــانة زوجته مع عبد من عبيده فقتلهما . ولشدة نقمته على النساء امر ان تحمل اليه كل ليلة عذراء فيبيت معها ثم يقتلها عند الفجر . مر على ذلك ايام وكان لوزيره ابنة تدعى شهرزاد بارعة الحسن ذات حكمة ومعرفة ، فتطوعت ان تقدم نفسها للملك ، علها تستطيـع ان تحول الملك عن هذه العادة . فلما بات معها اخذت تحدثه وتقص عليه قصة ممتعة حتى اذا انتهى الليل كفت عن الحديث على ان تكمله بعد ، فيتركها لليلة التالية وهو مشتاق لسماع حديثها . وهكذا استمرت تطرفه بأحاديثهـــا المشوقة ليلة بعد ليلة ، حتى مرت سنة عليهما واذا هي حامل منه فعفـــا عنها وتزوجها وابطل تلك العادة .

على هذه الاسطورة بنى توفيق الحكيم مسرحيته . ولكن لا ليعرض امامنا مجرد حـــادثة معروفة ، بل ليجعل تلك الاسطورة رمزاً لفكرة فلسفية . فشهرزاد عنده ترمز الى الحياة، والملك شهريار الى النفس التي لا ترى اول امرها

---

١) راجع الكتاب المذكور – دار المعارف بمصر ص ١٠٥

في الحياة غير المتعة الجسدية . ثم يتدرج في الاختبار والمعرفة ، ويرتفع بالتأمل الفكري حتى يبلغ الحقيقة العليـــا . هي هذا التطور الروحي الذي يحدث للانسان وقد غمرته المادة زمناً ، ثم افاق وجدانه وسمت نفسه فعلاً عن المـادة وصار ينشد الحكمة والمعرفة .

وعلى غرارها مسرحية «اهل الكهف» وهي تسبق شهرزاد في الزمن ولعلها اكثر تجريداً منها . وقد بناها على ما ورد في سورة الكهف من حديث الفتية المسيحيين الذين هربوا الى الكهف تخلصـــاً من اضطهاد الرومان . والقى الله عليهم سباتاً طويلاً استمر اكثر من قرنـين . ثم بعثهم الله احياء الى الارض ، فوجدوا انفسهم غرباء بين الناس بعد مرور هذا الزمن الطويل فملأ اليأس قلوبهم حتى آثروا العودة الى الكهف وماتوا فيه . والفكرة التي تقوم عليها ، ان الحياة المجردة عن كل ماض ، وعن كل صلة ، وعن كل سبب ، هي العـدم نفسه ، يقول محمد مندور : « فـــالزمن عند الحكيم ليس شيئاً مجرداً بل هو محتوياته ، والحيـــاة ليست جوهراً في ذاته بل هي مجتمع الروابط التي تربط الانسان بهذه الحياة . فاذا تقطعت تلك الروابط ذبلت الحياة فينـــا واصبحت عدماً » . ويعلق على هذه الفكرة بقوله : « ولكن موضع الضعف في هذه الفلسفة هو ان الحكيم لا يؤمن بقدرة الانسان على خلق هذه الروابط من جديد اذا تقطعت ، فالحكيم ليس من دعـاة الارادة البشرية التي لا تنهزم . وهذا هو سبب اتهام فلسفته بالسلبية او الانهزامية » [1] .

وقد تظهر هذه السلبية او الانهزامية في مسرحيته « سليمان الحكيم » التي بناها على اسطورة قديمة : صياد يطلق جنياً من قمقم فاذا بالجني يصبح ذا سيطرة عليه حتى كاد يهلكه . ويرمز بذلك إلى العقل البشري الذي انطلق في هذا الزمن من عقاله بمـــا توصل اليه من مكتشفات وخصوصاً في عالم الذرة ، في حين ان الانسان لم يتقدم في سبيل التحكم على غرائزه فصـار يُخشى من هذا الجني المنطلق

١) مسرح توفيق الحكيم لمندور (١٩٦٠) ص ٤٨ .

(اي العقل الذي لا رادع له) ان يقضي على الانسان .

ولكن الفنان لا يحاسب على ما يعتقده او يذهب اليه ، وانما يحاسب على طريقته في التعبير عما يدور في خلده من خواطر وافكار . والحكيم قد اتخذ الحوار لذلك وقد نجح فيه الى حد بعيد . واذا كان القارىء يجد بعض صعوبة في فهم مسرحياته الفلسفية ، فما ذلك الا لانها تحتاج الى تأمل لرؤية مراميها . وقد أصاب احمد عبد الرحيم مصطفى اذ قال : « فالانسان عنده ليس مجرد جسم يتحرك في محيط بيئته المادية مما درج بعض القصاصين عندنا على تسميته بالحياة الواقعية ، ولكن الانسان أيضاً فوق ذلك واكثر من ذلك ، عقل يتحرك في عوالم فكرية ، وهو روح يسبح في معانٍ شعرية ، وهو مبادىء فلسفية ودينية واجتماعية تصطرع وتتطور . فالعناية بحياة هذا الجزء الاعلى من الانسان هي التي تجعل من القصة ادباً رفيعاً يقرأ في كل زمان ومكان دون التفات الى قومية او شعوبية » (١) .

والواقع ان اسلوبه اللغوي على العموم سهل لا تمحّل فيه ولا زخرفة او اطناب . وقد يصل الى درجة البساطة في قصصه ومسرحياته الاجتماعية. ولكن ميله الى التركيز والايجاز والى الاستغناء بالتلميح دون التصريح ، يحمّل قارىء اقواله الفلسفية بعض العناء في متابعته وادراك مقاصده . واليك بعض امثلة منها (٢) :

لكل انسان بين جنبيه بئر عميق ، ولقد رأيت من الناس من يلقي في بئره دلواً من ذهب فلا يجد الدلو في القرار غير نضوب وجفاف . ورأيت منهم من يلقي في بئره دلواً من ذكاء فلا يجد الدلو في القرار غير حصى مرصع وحجارة مرصوفة .

من الناس من يعيشون حاضرهم في الحقائق فاذا جاء الغد صاروا حقائق ،

١) انظر كتابه «توفيق الحكيم» (مصر ١٩٥٢) ص ١٠٤
٢) نقلها عن المصدر السابق الذي جمع مئات من اقوال الحكيم

ومن الناس من يعيشون حاضرهم في الحقائق فاذا جاء الغد صاروا اشباحاً . ان كثيراً من الكلمات الجوفاء تندس احياناً كالغوغاء في مواكب المعاني .

ولا بد لنا ختاماً من القول إن تقدم المسرح في البلدان العربية لم يبلغ بعدُ ما بلغه في الغرب، بل لا يزال المسرح العربي يعتمد كثيراً على ترجمة الروائع الغربية . نعم ان بعض البلدان العربية قد تقدمت أكثر من بعض ، فمصر كما قلنا سائرة في الطليعة ويكاد الفن المسرحي ينضج فيها ، على ان هذا الحكم لا ينطبق حتى الآن الا على قليل سواها .

السّيرة في الأدب الحديث وأعلامها

فن السيرة

وهو نوع من الادب يجمع بين التحري التاريخي والامتاع القصصي . ويراد به درس حياة فرد من الافراد ورسم صورة دقيقة لشخصية .

وليس فن السيرة من مبتكرات عصرنا الحاضر ، بل هو عريق في القِدم ، عرفه العرب منذ صدر الاسلام واقبلوا عليه ايما اقبال . فكان لنا منه على توالي الاجيال عدد وافر من المؤلفات يملأ بعضها مجلدات كبيرة . ومنها «العامّ» اي الذي يتناول أشخاصاً كثيرين ككتاب الطبقات لابن سعد (٢٢٠ هـ) وكتاب الاغـــاني لأبي فرج الاصفهاني (٢٥٦) ، ومعجم الادباء ليـاقوت (٦٢٦) ، ووفيات الاعيان لابن خلكان (٦٨١) وامثالها .

ومنهـا الخـاص ، كالسيرة النبوية لابن هشام نقلًا عن ابن اسحق (١٥٢) ، والانصاف والتحري لابن العديم (٦٦٠) (تجده ضمن اعلام النبلاء للطباخ ج ٤ ص٧٨ وما بعدها)، والصبح المنبي للبديعي (١٠٧٣) وما جرى مجراها مما يدور على شخص واحد . وللايضـاح سنطلق على الاول (اي العامّ) لفظة كتب التراجم ، وعلى الثاني (اي الخاص) كتب السيرة . وها نحن نلقي نظرة على كل منها :

كتب التراجم العامة : مما لا مراء فيه ان الاسلاف عُنوا جداً بهذا النوع من الادب وجروا فيه شوطاً بعيداً ، بدليل ما نراه في ادبنا القديم من وفرة الكتب المصنفة في شتى اوجه الترجمة من تاريخية وادبية ودينية وسواها . ففي التراجم التاريخية نرى للمصنفين اهتماماً بيناً بجمع المعلومات والاخبار المتعلقة بالمترجم لهم . وتتراوح الترجمات في الكتاب الواحد بين عرض مقتضب لا يتجاوز الصفحتين او الثلاث ، وبحث مسهب قد يملأ عشرات الصفحات . ومن الانصاف ان نقول انه برغم ما يشوبها احياناً من اختلاط الغث بالسمين ، نجد فيها معلومات قيمة لا يستغني عنها باحث مستفيد . ولو لم يكن بين ايدينا امثال طبقات ابن سعد ، واغاني الاصفهاني ، ويتيمة الثعالبي ، ومعجم ياقوت ، ووفيات ابن خلكان ، والدرر الكامنة لابن حجر ، والضوء اللامع للسخاوي ، والكواكب السائرة للغزي ، وكثير سواها ، لفاتنا ما لا يعوض عنه من المعلومات التاريخية والادبية .

على انه لا بد لنا من القول ان التراجم الادبية القديمة كثيراً ما تفقد قيمتها لحرص اصحابها على الباسها حللاً من صناعة البديع ، فاذا هي اوصاف منمقة ، وعبارات مسجعة تشوه او تحجب ما يتوخاه القارىء من الحقائق . خذ مثلاً يتيمة الدهر للثعالبي الذي حاول ان يرسم لنا فيها صوراً لابناء عصره من شعراء وأدباء . انها ولا شك محاولة تذكر له وليس من ينكر فوائدها . ولكن كيف يمكن للقارىء ان يحصل منها على شيء معقول ، حيث تتشابه نعوت الذين يترجم لهم حتى لا يعرف الفاضل منهم من المفضول ؟ ولنقدم منها بعض امثلة ايضاحاً لما نقول . قال يصف ابا فراس الحمداني :

« كان فرد دهره ، وشمس عصره ، ادباً وفضلاً ، وكرماً ونبلاً ، ومجداً وبلاغة ، وفروسية وشجاعة. وشعره مشهور سائر بين الحُسن والجودة ، والسهولة والعذوبة ، والفخامة والحلاوة والمتانة . ومعه رواء الطبع ، وسمة الظرف ، وعزة الملك . ولم تجتمع هذه الخلال قبله الا في شعر عبد الله

ابن المعتز – وابو فراس يعد اشعر منه عند اهل الصنعة ونقدة الكلام». وكل ما يفهم من هذه الاوصاف ان أبا فراس شاعر مشهور، وان شعره يجمع بين الرقة والمتانة . وكذلك كان ابن المعتز وكثير غيره من الشعراء . وهو لا يبخل على احد منهم بمثل هذه الاوصاف . فما هي المزايا الخاصة لأبي فراس ؟

وها اديبان متعاصران وكانا يتنافسان على مكان الصدارة في الادب . وهما الخوارزمي وبديع الزمان . فما رأي الثعالبي فيهما ؟ اليك ما يقوله في الاول منهما :

« باقعة الدهر ، وبحر الادب ، وعَلَم النثر والنظم ، وعالِم الفضل والظرف . وكان يجمع بين الفصاحة العجيبة ، والبلاغة المفيدة . وكان يحاضر باخبار العرب ويتكلم بكل نادرة ، ويأتي بكل فقرة ودرة . ويبلغ في محاسن الادب كل مبلغ ، ويغلب على كلّ محسن بحسن مشاهدته ، وملاحة عبارته ، ونعمة نعمته ، وبراعة جدّه ، وحلاوة هزله » . قابل ذلك بما يقوله في بديع الزمان الهمداني الذي كان يناظر الخوارزمي ويتحداه في مجالس الادب :

« نادرة الفلك ، وبكر عطارد ، وفرد الدهر ، وغرّة العصر ، ومن لم يلق مثله نظيره في ذكاء القريحة ، وسرعة الخاطر ، وشرف الطبع ، وصفاء الذهن ، وقوة النفس ، ومن لم يدرك قرينه في ظرف النثر ومُلحه ، وغرر النظم ونكته ، ولم يُرَ ولم يرو ان احداً بلغ من لب الادب وسرّه ، وجاء بمثل اعجازه وسرّه » .

فاذا أردت ان توازن بين الخوارزمي وبديع الزمان ورجعت الى يتيمة الدهر ، فهل تحصل من كلام الثعالبي على ما ميّز احدهما من الآخر – كلاهما باقعة الدهر ونادرة الفلك وبحر الادب وفرد العصر .

وهذا كتاب الخريدة للعماد الاصفهاني ، وهو اشد تأنقاً من الثعالبي ولا يختلف عنه في اغداق النعوت المتشابهة على الادباء. قال في شاعر يقال له الاديب الغزّي :

« وراج شعره وماج بحر فكره، واتى بكل معنى مخترع ، ونظم مبتدع، وحكمة محكمة النسج ، وفقرة واضحة النهج ، وكلام ألطف من منطق الحسناء ، واعلى من منطقة الجوزاء . فكم له من قصائد كالفرائد ، وقلائد كعقود الخرائد» . ويمثل هذا الكلام ينعت الشاعر المعروف بالمشتهى الدمشقي فيقول : ذو النظم المشتهى ، والفضل الذي له في فنه المنتهى ، واللفظ الرائع ، والخاطر المطاوع . نظمه معتدل المنهاج ، صحيح المزاج ، احبر من الديباج ، وازهر من السراج الوهّاج » .

واي فرق بين ما قاله في الثاني غير تغيير الالفاظ !

وقس على هذه الامثلة ما لا يحصى من هذه الاوصاف التي تعج بها كتب التراجم الادبية القديمة . ونكرر القول اننا لا ننكر مـا في هذه الكتب من فوائد. ولكن طريقتها لا تصلح في عصرنا هذا ، عصر الدرس القائم على البحث والتحليل .

فاذا راجعت بعض كتب التراجم العصرية من تاريخية وادبية امثال : تراجم مشاهير الشرق لجرجي زيدان ، اعلام المقتطف ليعقوب صرّوف ، اشهر مشاهير الاسلام لرفيق العظم ، تراجم مصرية وغربية لمحمد حسين هيكل ، قادة الفكر لطه حسين ، شعراء مصر للعقاد ، الشخصيات البارزة التاريخية لأحمد فريد الرفاعي ، اعلام الثقافة لمحمد عطية الابراشي ، ملوك وصعاليك لصالح جودت ، الراحلون لسامي الكيالي ، الاعلام الشرقية لمحمد زكي مجاهد ، امراء الشعر العربي للمقدسي، ادبنا وادباؤنا في المهجر لجورج صيدح، وسلسلة اعلام الحرية لقدري قلعجي وجدتها تنهج نهجاً جديداً في جمع المعلومات ومراجعة الاصول ودرس النصوص ، ثم في استنتاج الحقائق وكيفية عرضها . ولا شك ان هذا النهج الجديد مكتسب من الاحتكاك بالادب الغربي الذي تقدم فيه فن التراجم والسيَر تقدماً عظيماً . وقد اصاب محمد عبد الغني حسن اذ قال [1] : « ولقد

١) كتابة التراجم والسير (القاهرة ١٩٥٥) ص ١٤ .

اخذت التراجم والسيَر العربية في القرن العشرين تنزع عنها اثواب القدم ، وتخرج عن ذلك المنهج الرتيب الذي سارت عليه خلال عصور التاريخ الاسلامي ، وتجد في أساليب الفرنجة منهجاً تسير نحوه وتتابع خطاه . ولم تعد الترجمة نقلاً لنصوص قديمة ، وجمعاً لطائفة من المعارف في غير تبويب ولا تحليل ولا تركيب » .

وسنرى ذلك بصورة اوضح في كلامنا على السيَر الشخصية او الخاصة .

السيَر الخاصة :

السيرة الخاصة نوعان : سيرة ذاتية تدور على حياة كاتبها وتعرف في اللغات الغربية « بالاوتوبياغرفي » (Auto Biography) ، وسيرة موضوعية او غيرية وتدور حول شخص آخر . ومهما كان نوعها فانها لا تكتسب صفة السيرة بمعناها الحقيقي الا اذا كانت تفسيراً للحياة الشخصية في جوها التاريخي . او كما يقول ناقد عصري «ان يكون فيها ملتقى الحق الفني بالحق التاريخي» [1]. فهي ليست مجرد أخبار تاريخية ولا هي مجرد تحليلات نفسيّة او اجتماعية ، بل هي كل ذلك مسبوكاً في قالب فني ذي طلاوة ورواء – بكلمة واحدة قصة صادقة ذات اثر. فلنقف قليلاً على كلٍّ من هذين النوعين . وسنبدأ بالموضوعية او الغيرية اذ هي الاقدم في تاريخ الادب العربي .

السيرة الموضوعية :

المعروف ان اول ما ظهر في أدبنا من هذا الباب هو السيرة النبوية ، وقد تلاها على مرّ العصور كتب كثيرة تناولت حياة بعض الاعلام من أولي الامر او من اهل الادب . ويظهر ان سيَر اولي الامر من ملوك وامراء وحكام وامثالهم ، كانت في الغالب تجري مجرى الاخبار التاريخية فتبسط لنا الحوادث

١) « على هامش الادب والنقد » لعلي أدهم (دار الفكر العربي) ص ٢٩ .

المتعلقة ببطل السيرة أو بعصره ، وقلّما تمس من حياته الخاصة إلا ما يشهد له بمكارم الأخلاق . هكذا كتبت مثلاً سيرة احمد بن طولون ، ومحمود بن سبكتكين ، وصلاح الدين ، والظاهر بيبرس وغيرهم . ولكتّابها اساليب مختلفة فمنهم من يعتمد السهولة والبساطة في كتابته كأبي محمد عبد الله البلويّ في سيرة احمد ابن طولون . فأنت اذا قرأتها شعرت بأنه يحدثك دون تكلف اذ يروي حديثاً على لسان ابي سعد الفرغاني فيقول : « ركب احمد ابن طولون الى الجيزة . وكان رسمه (انه) اذا قرب الجسر أخلي له . فلما بلغ اليه أمر الناس بأن يسرعوا في المجيء عليه . وأعجلوا فلم يبق عليه الا شيخ ضعيف على حمار هزيل ومعه صبّي ، وقد اقبل من بعض نواحي الجيزة . فلمّا اعجل الناس وهب ليعجل معهم لم يكن له نهضة ولا لحماره فسقط عن الحمار . فأقبل احمد بن طولون ينظر اليه والى الصبي معه (وقد) سقطا جميعاً . فقال لي امنعهم من ازعاج الشيخ وقف عليه وارفق به حتى يركب حماره والحقني »[1] . وهكذا الى آخر الحديث وهو نموذج لأسلوب الكتاب العام .

ومثله اسلوب ابن شداد في سيرة صلاح الدين المعروفة بالنوادر السلطانية والمحاسن اليوسفية كقوله ص ٢٦ : « وكان لا يرى الاساءة الى من صحبه وان افرط في الخيانة . ولقد أبدل من خزائنه كيسان من الذهب المصري بكيسين من الفلوس ، فما عمل بالنواب شيئاً سوى انه صرفهم من عملهم لاغير » وقوله ص ٢٨ : « هذه نبذة من محاسن اخلاقه ومكارم شيمه اقتصرت عليها خوف الاطالة والسآمة . وما سطرت إلا ما شاهدته او اخبرني به الثقة وحققته » . وكان ابن شداد معاصراً لصلاح الدين مطلعاً على احواله ونوادره ، خبيراً بوقائعه واعماله . فاذا قصّ نادرة عقّب عليها بقوله السابق « وما سطرت الا ما شاهدته » ، أو والله لقد سمعت هذا القول وشاهدت الفعل كما قال السلطان[2].

---

١) سيرة ابن طولون (دمشق ١٣٥٨ هـ) ١٨٩

٢) سيرة صلاح الدين لابن شداد (مطبعة محمد صبيح واولاده بمصر) ١٣٤٤ هـ .

ومنهم من يتخذ سبيل الصناعة البيانية كما ترى في قسم كبير من سيرة السلطان جلال الدين منكبرتي لمحمد احمد النَسَوي . وهاك مثالاً منه . قال واصفاً الفقيه شهاب الدين بن عمران : « وجمع الى الفقه اللغة والطبّ وسائر العلوم . . . فالمشتري مشتري سعادته ، وعطارد تلميذ افادته ، وثاقب النجم عبد دهائه ، وصائب الفكر خادم آرائه . ونال عند السلطان من الرتبة ما ليس وراءها امد ، فما فوق السماء للسموّ مصعد »[1] . وقال في احد الامراء : « وكانت الاهواء اليه مائلة ، والآراء في منابذته فائلة . فاجتمعت عليه طوائف من العراقية والخوارزمية فاشتدت بهم مناكبه ، واحتدّت عليه انيابه ومخالبه »[2] .

ومن اكثر السير تعلقاً بالصناعة كتاب اليميني الذي وضعه العُتبي في السلطان محمود بن سبكتكين . وها نحن نثبت منه مثلاً واحداً وهو قوله في عدو مغتصب : « وقد باض الشيطان برأسه وفرّخ ، وشوى السوداء في دماغه وطبخ . فهو يظن الظنون ، ويعدّ في حساب الحسبان ما لن يكون » . الى قوله : « ولما سمع الامير (اي ابن السلطان) بتورده وتغلّبه استعدّ لمناهضته ، وجمع اوليائه على محاصرته ... ووافقه في رجالٍ كقطع الليل ، او دُفع السيل ، ومعه السلطان كالليث الخادر ، والعقاب الكاسر ، والموت الكاشر ، لا يؤمّ صعباً الا ذلّله ، ولا يروم عقداً الا حلّه »[3] . وما هذه الامثلة الا قُلّ من كثر او وشلٌ من بحر .

والذي يبدو لنا ان الذين كتبوا سِيَر الادباء والعلماء كانوا اقرب الى ما يسمى دراسة نقدية من الذين كتبوا سير الملوك والامراء . ففي كتاب « انصاف التحري » لكمال الدين ابن العديم يحاول المؤلف ان يدافع عن

(١) السيرة المذكورة (مصر ١٩٥٣) ٢٣
(٢) المصدر نفسه ١٤٥
(٣) ص ٧٥ من هامش شرح المتنبي

المعري وان يرد تهم خصومه . فيكتب لنا سيرة تتضمن كثيراً من المعلومات المفيدة والآراء السديدة . يبدأ بذكر نسب المعري ومآثر اسلافه . ثم يتناول نشأته وتحصيله واشتغاله بالعلم فيذكر شيوخه الذين اخذ عنهم ، وتلامذته الذين اخذوا عنه ، والكتاب الذين كانوا يكتبون ما ينشئه من نثر وشعر . ويحدثنا عن رحلته الى بغداد وكيف عاد الى المعرة واعتزل فيها ، وما كان له من حرمة ومقام عند الملوك والامراء والحكام . ثم يصف ألمعيته وتوقد خاطره وانفته وكرم نفسه . وينقدم بعدها الى اقوال الناس في عقيدته فيدافع عنه دفاع الخبير مستشهداً بالكثير من اقواله .

نعم ان ابن العديم يتخذ موقف الدفاع ، ولكنه لايدافع دفاعاً اعمى بل يحاول ان يبني احكامه على بيّنات وشواهد قد لا يراها غيره كما يراها هو. ولكنه على كل حال لا يعتمد التقريظ الفارغ ولا التخيلات الكلامية التي لا أساس لها.

وكذلك فعل البديعي في الصبح المنبي عن حيثية المتنبي ، فانه ايضاً يحاول ان يقف موقف الباحث المعنى بتحري الحقيقة . وهو وان لم يدرس لنا حياة المتنبي دراسة تحليلية ، ولم يتعمق الى اغوار شخصيته واحوال بيئته ، فقد زودنا بكثير من اخباره ، وآراء العلماء في شعره ، ووقف على فنه الشعري وقابله بسواه ذاكراً ما له وما عليه . ويؤخذ على البديعي ما له في الكتاب من استطرادات طويلة لاعلاقة لها بالموضوع . على ان في كتابه من الفوائد ما لا يستغني عنه باحث يرغب في دراسة المتنبي دراسة وافية .

على ان كتّاب السيرة في نهضتنا الحديثة قد خطوا خطوات الى الامام في درس الاشخاص دراسة قائمة على البحث التاريخي الصحيح وتفهم العوامل الفعالة في حياتهم ، محاولين عرضها في اطار ادبي ممتع . وهذا مايعنيه احسان عباس بالسيرة الادبية اذ جعلها العناية بالفرد وانسانيته على اساس من الجو التاريخي وقد شرح ذلك شرحاً وافياً في كتابه فن السيرة وهو حري بالمراجعة [1] .

(١) فن السيرة (١٩٥٦) ص ٦٠ وما بعدها

وقد راجت كتابة السيرة الموضوعية في ادبنا الحديث فظهر منها عدد كبير، نذكر منه على سبيل التمثيل ما يلي بحسب الترتيب الابجدي :

ابن المقفع — لعبد اللطيف حمزه
ابو نواس — لعمر فروخ
الاصمعي — لعبد الجبار جومرد
الحسن البصري — لاحسان عباس
امين الريحاني — لمحمد علي موسى
باحثة البادية — لميّ زيادة
بطلة كربلاء — لبنت الشاطىء
الجاحظ — لشفيق جبري
ابرهيم الحوارني — لكمال اليازجي
خليل مطران — لعلي ادهم
رابعة العدوية — لوداد سكاكيني
شكيب ارسلان — لسامي الدهان
صاحب الاغاني — لمحمد احمد خلف الله
العبقريات — لعباس العقاد
عمر بن ابي ربيعه — لجبرائيل جبور
فارس الشدياق — لمارون عبود
قاسم امين — لأحمد خاكي
مالك بن انس — لامين الخولي
محمد عبده — لعثمان امين
جمال الدين الافغاني — ابو ريّه
محمد علي — لشفيق غربال
محمد (النبي) — لحسين هيكل
عبد القادر المغربي — لمحمد طلس

ولعل أكثر السيريين انتاجاً هو عباس محمود العقاد وسنعرض له بعد احدى سيَره .

السيَر الذاتية :

وحاول بعض القدماء ان يكتبوا سيرة انفسهم فجاء بعضها اشبه بالتاريخ كما ترى في كتاب الاعتبار لأسامة بن منقذ . وهو عند التحقيق مرجع من المراجع التاريخية فيما يختص بالعالم الاسلامي في خلال القرن السادس الهجري . في هذا الكتاب يقص علينا اسامة من اخباره الخاصة وما شهده من حوادث ووقائع إبان العهد الصليبي ، ما هو جدير بالمطالعة لطرافته وخصوصاً لما يلقي من اضواء على

الحالة العامة في القطرين الشامي والمصري وعلى مـا كان يجري فيها في ذلك العهد .

واسامة امير وفارس واديب ، ورغم انه عـاش عيشة الفرسان وخاض ميادين القتال وجاهد مجاهدة الابطال ، وتقلبت عليه الاحوال السياسية ، وذاق الحلو والمرّ من اختباراته في شتى اطوار حيـاته ، رغم كل ذلك قد عاش حتى بلغ التسعين . يقول[1] : « فلا يظن ظانّ ان الموت يقدمه ركوب الخطر ، ولا يؤخره شدة الحذر ، ففي بقائي اوضح معتبر . فكم لقيت من الاهوال ، وتقحمت المخاوف والاخطـار ، ولاقيت الفرسان ، وقتلت الاسود وضربت بالسيوف ، وطعنت بالرماح، وانا من الاجل في حصن حصين الى ان بلغت تمام التسعين، فرأيت الصحة والبقاء كما قال صلّى الله عليه وسلم وكفى بالصحة داء». ولا غرو ، وقد بلغ هذا العمر ، ان يشعر برغبة في الراحة من عنـاء الجهاد وبالزهد بما كان يألفه من حياة القصور ، فأخلد الى الوحدة والسكون واستسلم الى داعي المنون تاركاً وراءه ذكرى حياة مثالية للفروسية العربية .

ومثله كتاب التعريف عن ابن خلدون ، وهو سيرة ذاتية ذيّل بهـا ابن خلدون تاريخه المشهور فحدثنا عن نسبه ونشأتـه ومشيخته ، والذين خدمهم من ملوك زمـانه ، وعن رحلاته من تونس الى الاندلس ، ثم رجوعه الى افريقيـا وسفره بحراً الى الاسكندرية، ثم اقامته في القاهرة . وهنا فقط يطلعنا على شيء من مريرة نفسه واحوال عصره اذ عُين في القاهرة قاضياً لعموم البلاد ، فيقول: « فجلست بمجلس الحكم لا تأخذني في الله لومـة ، ولا يرغبني عنه جـاه ولا سطوة ، مسوّياً بين الخصمين ، آخذاً لحق الضعيف في الحكمين ، معرضاً عن الشفاعات والوسائل من الجانبين ، جانحاً الى التثبت في سماع البيّنات ، وعدالة المنتصبين لتحمل الشهادات . فقد كان البَرّ منهم مختلطـاً بالفـاجر ، والطيب

(١) اسامة بن منقذ – محمد احمد حسين (القاهرة ١٩٤٦) ص ٩٠

ملتبساً بالخبيث ، والحكام ممسكون عن انتقادهم ، متجاوزون عما يظهر عليهم من هناتهم لما يوهّمون من الاعتصام بأهل الشوكة ، الخ .

ولما سار في طريق العدالة وضرب على ايدي الافاكين والمنافقين من مدّعي الفقه والفتيا ، تألبوا عليه ودسّوا لأولياء السلطان وعظماء الدولة يقبحون لهم اهمال جاههم ورد شفاعاتهم وينفقون هذا الباطل بعظائم ينسبونها اليه ، كثر الشغب عليه من كل جانب واظلم الجو بينه وبين اهل الدولة فاعتزل القضاء ثم سافر الى مكة لقضاء فريضة الحج وما بعدها الى القاهرة .

ويختم حديثه بذكر الدافع الذي دفعه الى كتابة سيرته فيقول : « وانما كتبت هذه الاخبار وان كانت خارجة عن غرض هذا الكتاب (اي التاريخ الذي ألّفه) لأن فيه تحقيقاً لهذه الواقعات وهي مذكورة في اماكنها فربما يحتاج الناظر الى تحقيقها من هذا الموضع » .

فكأن الغاية الرئيسية مما كتبه عن نفسه ، ان يثبت الوقائع التي ذكرها في تاريخه . ولهذا لم يخرج تعريفه بنفسه عن نطاق التاريخ الا في مواقف قليلة جداً كالتي اشرنا اليها سابقاً من ذكره القضاء يومئذ وفساده بشفاعات اهل الشوكة والسلطان ، وكذكره خروجه في الكتابة عن الطريقة المتبعة يومئذ ، وهي طريقة السجع والبديع الى طريقة جديدة قال : « وكان اكثرها يصدر عني بالكلام المرسل دون ان يشاركني احد ممن ينتحل الكتابة .. فانفردت به يومئذ وكان مستغرباً عند من هم من أهل هذه الصناعة (٤٠٥) .

اجل لقد جعل ابن خلدون التعريف بنفسه ذيلاً لتاريخه ومن قبيل الاخبار التاريخية . وقد قام قبله الغزالي بنحو قرن من الزمان فكتب سيرته بطريقة اخرى . ففي كتابه المنقذ من الضلال يشرح ما عاناه في نفسه حتى استخلص الحق من بين اضطراب الفرق « وارتفع عن حضيض التقليد الى بقاع الاستبصار » . فسيرته عبارة عن وصف لصراع داخلي بين التقليد والاختبار الذاتي . وفي هذا الوصف يدّون لنا حياته الفكرية والاطوار التي مرّ بها

فيقول : «ولم ازل في عنفوان شبابي منذ راهقت قبل بلوغ العشرين الى الآن ، وقد اناف السن على الخمسين ، اقتحم لجّة هذا البحر العميق ، واخوض غمرته خوض الجسور لا خوض الجبان الحذور ، واتوغل في كل مظلمة ، واتهجم على كل مشكلة ... لأميّز بين محق ومبطل ، ومتسنن ومبتدع ، وقد كان التعطش الى درك حقائق الامور دأبي وديدني من اول امري وريعان عمري — غريزةً وفطرةً وضعتا في جبلتي لا باختياري وحيلتي — حتى انحلّت عني رابطة التقليد ، وانكسرت عليّ العقائد الموروثة ، على قرب عهد بسن الصبا » .

ثم يذكر لنا كيف اخذ يجد في طلب حقيقة العلم ، وكيف التمس ذلك اولاً عن طريق العلم اليقيني فلم ينقع غليل نفسه . والتفت حوله فلم يرَ إلا فرقاً اربع : وهي : «الكلام ، والباطنية ، والفلاسفة ، والصوفية » وان الحق لا يعدو عن هذه الاصناف » ... فابتدر لسلوك هذه الطرق واستقصاء ما عند هذي الفرق » .

وبعد ان يجرّب الثلاثة الأولى من هذه المذاهب ويخوض عبابها غير هيّاب من العواقب ، يقول : « خبرناها فنفضنا اليد عنها » . ولما فرغ منها اقبل على طريقة الصوفية فوجد فيها ضالته المنشودة ، وكان اذ ذاك يدرّس في بغداد وقد احرز مقاماً عالياً وجاهاً عريضاً ودفعه اختباره الجديد الى التصميم على نبذ الجاه والمال ، والهرب من الشواغل الدنيوية ، وفي ذلك يقول :

« ثم لاحظت احوالي فاذا انا منغمس في العلائق ، وقد احدقت بي من كل الجوانب . ولاحظت اعمالي فاذا انا مقبل على علوم غير مهمة ولا نافعة في طريق الآخرة . ثم تفكرت في نيتي في التدريس فاذا هي غير خالصة لوجه الله تعالى ، بل باعثها ومحركها طلب الجاه وانتشار الصيت ، فتيقنت اني على شفا جرف هار ، واني قد اشفيت على النار ، ان لم اشتغل بتلافي الاحوال » .

وهكذا يثور في نفسه صراع مستحرّ بين شهوة الدنيا والاعراض عنها بدوام

نحو ستة اشهر ، حتى اذا كان شهر رجب من سنة ٤٨٨هـ ، جاوز الامر عنده حد الاختيار الى الاضطرار ، واصبح غير قادر على متابعة دروسه والقيام بواجباته ، وصاحب ذلك ضعف نهكه حتى قطع الاطباء الامل من معالجته . والتجأ إلى الله في ما يساوره من همّ وضعف ، فسهّل عليه الاعراض عن الجاه والمال . قال : « فتلطفت بلطائف الحيل في الخروج من بغداد على عزم ان لا اعاودها أبداً ، واستهدفت لائمة اهل العراق كافة اذ لم يكن فيهم من يجوّز الاعراض عما كنت فيه سبباً دينياً ، اذ ظنوا ان ذلك هو المنصب الاعلى من الدين . وكان ذلك مبلغهم من العلم » . ففارق بغداد بعد ان فرّق ماله ولم يدّخر منه الا الكفاف ، ودخل الشام فاعتزل فيها قرابة سنتين في الرياضة والمجاهدة . ثم انتقل الى بيت المقدس فأقام فيها مدة يخلو بنفسه في مسجد الصخرة . ومنها قصد مكة والمدينة مجاوراً .

واضطر ان يرجع الى وطنه للقيام بمهات العيال وضرورات المعاش ، وكان ذلك يشوّش صفوة الخلوة عليه فلا تصفو له الحال الا في اوقات متفرّقة ، ومع ذلك لم ينقطع عما وجّه قلبه اليه ، قال :

« ودمت على ذلك مقدار عشر سنين ، وانكشف لي في اثناء هذه الخلوات أمور لا يمكن احصاؤها واستقصاؤها ، والقدر الذي اذكره لينتفع به ، اني علمت يقيناً ان الصوفية هم السالكون لطريق الله تعالى خاصة ، وان سيرتهم احسن السيَر واخلاقهم ازكى الاخلاق ... وان جميع حركاتهم وسكناتهم في ظاهرهم وفي باطنهم ، مقتبسة النور من مشكاة النبوّة . وليس وراء نور النبوّة نور يستضاء به » .

وليست العبرة فيا توصّل اليه الغزالي ، ولكن العبرة في هذه الطريقة التي دوّن بها سيرة نفسه ، فشرح لنا مشاعره وخواطره ومعتقداته . وهي طريقة جليلة وان تكن منحصرة في احوال نفسه .

وفي اوائل نهضتنا الادبية الحديثة ظهر من السير الذاتية كتاب « الساق على

الساق » لاحمد فارس الشدياق ، وقد مرّ ذكره في القسم المخصص للرواد . في هذا الكتاب يحدثنا الشدياق عن نشأته وما اختبره في حياته . ولا ندري هل يصح ان نسميه سيرة ذاتية بالمعنى الحقيقي لها . فهو مجموعة من الحوادث التي جرت له يتخللها استطرادات من النوادر والمجون ، وذكر محامد النساء ومذامهن ، والسخرية برؤساء الدين ، وغرائب من المترادفات اللغوية التي قد تبلغ احياناً المئات ونقد بعض التقاليد والعادات . وقد جمع فيه الغث والسمين ، والمستملح والتافه . ولا ننكر فيه قوة تعبيره عن نفسه ، وطول باعه في التصرف بالكلام . على اننا لا نستطيع ان نضعه في صنف السير الفنية .

وممن كتبوا سيرتهم بين المحدثين ، الشيخ رشيد رضا . وهو يحصر الكلام في نفسه ونسبه ، وما له من اثار علمية وادبية . وكيف نشأ نشأة روحية ، فكان يعظ العوام وتجري على يديه كرامات. ولا بأس من ان يتحدث الانسان عن نفسه ، فالسيرة الذاتية قائمة على مثل ذلك ، ولكن بشرط ان يتحدث عن نفسه ضمن بيئته فلا يحجب كلامه الزمان والمكان اللذين نشأ فيهما بحيث لا نفهم من سيرته شيئاً عنهما .

ومن السير الذاتية الحديثة التي تعد من باب الفن « الايام » لطه حسين وسنتحدث عنها بعد ، وسيرة سلامة موسى المسمّاة «تربية سلامة موسى» . وهي مرآة صادقة لشخصه وللعصر الذي نشأ فيه ، والعوامل التي كوّنت شخصيته . ويروي الحوادث التي اختبرها وكان لها تأثير في حياته وحياة وطنه . كل ذلك بلغة سلسلة لا تعمل فيها ولا تكلّف .

ومثلها كتاب « حياتي » لأحمد امين . وهذا الكتاب قائم على مذكرات كان يكتبها من حين الى آخر . فلما بلغ آخر مراحل حياته صنّفها فجاءت سيرةً رائعة الاسلوب طريفة الوصف صادقة اللهجة ، يطالعها المطالع فيرى كيف كان المؤلف في حداثته ، وكيف نشأ وتطور وبلغ ما بلغه من التقدم في عالم الادب . وسيرته شبيهة نوعاً ما بسيرة طه حسين ، فكلاهما نشأ في بيئة

لم تشرق عليها انوار الحضارة الجديدة ، وكلاهما تلقى علومه اولاً في الازهر ، فلبس الجبة والعمامة ثم خلعها ودخل الحياة العصرية وانتقل من الطور الازهري الى الطور الجامعي الحديث واصبح من الذين خدموا امتهم والعربية خدمة جلى .

واحدث السير كتاب « السبعون » لميخائيل نعيمة . وهو يقع في مجلدين كبيرين صدر الاول ١٩٥٩ ، والثاني ١٩٦٠ . وقد قسم حكاية عمره إلى ثلاث مراحل : ١) من الطفولة حتى نهاية دراسته في روسيا . ٢) من بدء هجرته الى الولايات المتحدة حتى عودته الى لبنان. ٣) منذ عودته حتى بلغ السبعين .

وتمتاز هذه السيرة بأمور منها انها مسبوكة بأسلوب فريد كل ما يستطاع ان يقال فيه الآن انه اسلوب « نعيمة » : لطف اشارة ، وروعة تصوير ، وصدق بليغ في التعبير .

إن كتاب نعيمة لا يلخص بأسطر أو بصفحات . هو اختبارات نفس دقيقة الحس ، سامية التخيل ، عميقة التفكير . وجماله في هذا الاسلوب الذي يجب ان يقرأ كما هو . لأنه ليس بتاريخ بل هي حياته تمر وسط التاريخ والعبر فتبدو لنا بصور جذابة .

وقد راج في ادبنا حديثاً شيء قريب من السير الذاتيه ، وهو المذكرات . وهو نوع من الادب مستملح ومفيد . ومن امثلته مذكرات احمد شفيق في نصف قرن ، ومذكرات محمد كرد علي ، ومذكرات عبد الله بن الحسين ، ومذكرات المجالي ، وسواها . وكل كتاب منها حريّ بالمطالعة لما فيه من جزيل الفوائد التاريخية والاجتماعية والسياسية .

نماذج من السير الحديثة

الأيام لطه حسين   جبران لميخائيل نعيمة   عبقرية الصديق للعقاد

الأيـــام

هي اشهر سيرة ذاتية في ادبنا الحديث ، كتبها طه حسين يصف فيها نشأته في بيئة ريفية بصعيد مصر ، وما اختبره في عهد حـداثته ، وكيف تدرج في تحصيله العلمي متنقلاً مع الايام من تلميذ في كتّاب قروي الى طالب جامعي في القاهرة . وفي قصته يتحدث عن نفسه كمن يتحدث عن غلام عرفه ورافق تطوره في الحياة . ويتناول حديثه عن هـذا الغلام مرحلتين أولاهما حياته الريفية منذ طفولته حتى بلغ الثالثة عشرة ، والثانية حياته المدنية وذلك بعد ان ترك الريف والتحق بالازهر في القاهرة .

وفي المرحلة الاولى يعرض لنـــا صوراً صادقة من حياة الريف المصري ، ويقص علينا نوادر ممتعة من ذكرياته ايام الحداثـة سواء اكان ذلك في بيت والده وبين اسرته ، او مع معلميه من شيوخ الكتاتيب والمساجد وحلقـــات الذكر وامثالهم ، ويطلعنا على حالة بيئته القديمة ويدخلنا الى اعماق نفسه فيشعرنا بما كان يختلج فيها من خوالج تحلو او تمر تبعاً لاختباراته وتقلبات الزمان عليه ، فنصغي اليه مأخوذين برشاقة حديثه ودقة تصويره وعذوبة الفاظه ، كقوله مثلاً يصف حاله بعد ان خرج من طور الكتّاب واخذ يلتمس ألوانـــاً اخرى من علوم اللغة والدين ، وقد اصابه من مصائب الحياة ما هزّ نفسه فقال :

« وهكذا اتصلت ايام الصبي بين البيت والكتاب ، والمسجد ، وحلقات الذكر ، لاهي بالحلوة ولا هي بالمرة ، ولكنها تحلو حيناً وتمر حيناً آخر » .

ومن مرارتها ما يذكر من فقد بصره يوم كان طفلاً لجهل اهله، ثم ما اختبره من حزن بموت اخته الصغرى بسبب الجهل ايضاً فيقول :

« اقبلت بوادر العيد وأصبحت الطفلة ذات يوم في شيء من الفتور والهمود لم يكد يلتفت اليه احد . والاطفال في القرى ومدن الاقاليم معرّضون لهذا النوع من الاهمال ، ولا سيما اذا كانت الاسرة كثيرة العدد ، وربة البيت كثيرة العمل . ولنساء القرى فلسفة آثمة وعلم ليس اقل منها اثماً . يشكو الطفل وقلّما تعتني به امه . واي طفل لايشكو ، إنما هو يومٌ وليلة ثم يفيق ويُبلّ ! فان عُنيت به امه فهي تزدري الطبيب وتجهله ، وهي تعتمد على هذا العلم الآثم ، علم النساء او اشباه النساء . وعلى هذا النحو فقدَ صبيّنا عينيه ، اصابه الرمد فأهمل اياماً ، ثم دعي الحلاق فعالجه علاجاً ذهب بعينيه . وعلى هذا النحو فقدت هذه الطفلة الحياة . ظلت فاترة هامدة ، محمومة يوماً ويوماً ويوماً ، وهي ملقاة على فراشها في ناحية من نواحي الدار ، تعتني بها امها او اختها من حين الى حين ـ تدفع اليها شيئاً من الغذاء الله يعلم أكان جيداً ام رديئاً (١) .

وهكذا يأخذ بأسلوبه المؤثر في وصف تلك الطفلة المسكينة وهي تتقلب على فراش الموت حتى انقطع نفسها وفارقت الحياة . وما كان من جزع والديها واخوتها بخطف الموت اياها . ثم جاء الهواء الاصفر فمات اخ له في الثانية عشرة من عمره . وكان هذا الوباء قد هبط مصر وفتك بأهلها فتكاً ذريعاً . ومنذ ذلك الحين يقول :

« تغيرت نفسية صبيّنا تغيراً تاماً ـ عرف الله حقاً وحرص على ان يتقرب اليه بكل الوان التقرب : بالصدقة حيناً ، والصلاة حيناً آخر ، وبتلاوة القرآن

١) الايام (مطبعة المعارف ١٩٤٢) ص ١٠٩

مرة ثالثة . ومنذ ذلك الوقت عرف الصبي ارق الليل والاحلام المروّعة » .

ويختم الجزء الاول من الكتـاب او المرحلة الاولى من سيرته بكلمة ابوية يوجهها الى ابنته الصغيرة ننقل منها ما يلي : « انك يا ابنتي الساذجة سليمة القلب طيبة النفس ، انت في التاسعة من عمرك ، في هذه السنة التي يعجب فيها الاطفال بآبائهم وامهاتهم ويتخذونهم مُثلًا عليا في الحياة... أليس الامر كما اقول ؟ ألست ترين ان اباك خير الرجال واكرمهم ؟ ألست ترين انه قد كان كذلك خير الاطفال وانبلهم ... ألست تحبين ان تعيشي الآن كما كان يعيش ابوك حين كان في الثامنة من عمره ؟ ومع ذلك فان اباك يبذل من الجهد ما يملك ، ويتكلف من المشقة ما يطيق وما لا يطيق ، ليجنبك حياته حين كان صبياً . لقد عرفته يا ابنتي في هذا الطور من اطوار حياته (اي الطور الحالي) ، ولو اني حدثتك بمـا كان عليه حينئذ (أي في طور الطفولة) لكذبت كثيراً من ظنك ، ولخيبت كثيراً من املك ... واني لأخشى لو حدثتك بما عرفت من امر ابيك حينئذ ، ان يملكك الاشفاق وتأخذك الرأفة فتجهشي بالبكاء» . على انه لا يرى بأساً في وصف حاله لها وهو غلام في الثالثة عشرة ، وكيف كان يعيش في الازهر : ولقد كان ابوك ينفق الاسبوع والشهر والاشهر ، لا يغمس هذا الخبز إلا في العسل الاسود. وانت لا تعرفين العسل الاسود ، وخير لك الا تعرفيه، كذلك كان يعيش ابوك جادّاً مبتسماً للحياة والدرس ، محروماً لا يكاد يشعر بالحرمان . حتى اذا انقضت السنة وعاد الى ابويه ، واقبلا عليه يسألانه كيف يأكل وكيف يعيش (اي في الازهر) اخـذ ينظم لهما الاكاذيب كما تعوّد ان ينظم لك القصص . فيحدثهما بحياة يحياها كلها رغد ونعيم . وما كان يدفعه الى هذا الكذب حب الكذب ، انما كان يرفق بهذين الشخصين ويكره ان ينبئهما بما هو فيه من حرمـان . وان سألتني كيف انتهى الى حيث هو الآن ، وكيف استطاع ان يهيىء لك ولأخيك ما انتما فيه من حياة راضية.. ان سألت كيف انتقل من تلك الحال الى هذه الحال ، فلست استطيـع ان اجيبك ، وانما هناك

شخص آخر هو الذي يستطيع هذا الجواب» . وهنا يحول نظرها الى امها ذلك الملك الحنون الذي مهد له سبيل السعادة: «لقد حنا يا ابنتي هذا الملك على ابيك فبدّله من البؤس نعيماً ومن الفقر غنى، ومن اليأس أملًا ، ومن الشقاء سعادةً وصفواً . وليس دين ابيك لهذا الملك بأقل من دينك . فلتتعاونا (اي انت واخوك) يا ابنتي على اداء هذا الدين، ومـا انتما ببالغين من ذلك بعض مـا تريدان » . وبهذه الكلمة تنتهي المرحلة الاولى .

أما المرحلة الثانية فتشمل حياته واختباراته كطالب ازهري . ويا لها من حياة واختبارات تبرز لنا في صور حيّة يرسمها لنا قلمه الخلاّب . في تلك الصور نرى ذلك الغلام يقيم مع اخ له اكبر منه ، وهو ايضاً من طلاب الازهر — يقيمان في غرفة تقع في حيّ بلدي حقير. يقول المؤلف : «كانت هذه الغرفة من غرفات الاوقاف . ومعنى ذلك انها كانت قديمة قد طال عليها العهد ، وبعد بها الامد ، وكثرت في جدرانها الشقوق ، وعمرت هذه الشقوق طوائف من الحشرات وغيرها من صغار الحيوان . وكانت هذه الحشرات وهذه الصغار من الحيوان كأنما وكلت بالصبي اذا اقبل الليل عليه وهو قابع وحده في ذلك الركن من اركان الغرفة . فهي تبعث من الاصوات الضئيلة ، وتأتي من الحركات الخفيفة السريعة حيناً والبطيئة حيناً آخر ، مـا يملأ قلب الصبي هلعاً ورعباً »[1] .

وكان يسلك كل يوم الى الازهر ، برفقة صاحب له ، طريقاً مظلمة كثيرة الالتواء فيدخل من شارع ضيق الى آخر « تكاد تبلغ جانبيه اذا مددت يديك عن يمين وشمال » ، حتى اذا بلغ صحن الازهر شعر بانفراج بعد ما يعانيه من ضيق الازقة ومـا على جانبيها من مقاهي بلدية حقيرة وحوانيت صغيرة . هوذا الازهر قبلة آماله . ألم يترك اهله وبلدته الريفية ليروي ظمأه الى العلم من هذا المورد العظيم! بلى. كان مشغوفاً عهدئذٍ بالجلوس في حلقات الطلبة يصغي الى احد

١) الايام ج ٢ ص ٤٥

الشيوخ يقرأ لهم ويفسر بعض المسائل الفقهية او اللغوية، ثم ينتقل الى مجلس شيخ آخر فيصغي الى شروحه ودروسه . وفي تردده على الازهر عرف الكثير من احوال طلبته وطرق معيشتهم ، كما عرف الكثير من احوال شيوخه وعاداتهم وطرقهم في التدريس . وهذا الذي عرفه منهم واختبره من احوالهم ، دوّنه لنا في سيرته بأسلوب يجمع بين دقة الملاحظة ، وروعة الوصف ، ولطف النكتة كما سنرى بعد .

والظاهر انه بعد مرور زمن عليه وهو يطلب العلم في الازهر ، اخذ شغفه بالعلم هناك يخف ويتضاءل ، وذلك الرجاء الذي كان يملأ قلبه تحول الى يأس .

« واخيراً اشتد ضيقه بالازهر واهله ، وبحياته في القاهرة غارقاً فيما لا يحب، مقصى عما تشتهيه نفسه ويتحرك اليه قلبه » . وتفتحت نفسه على نوع جديد من الثقافة فاذا هو وجماعة غيره من الشباب ، يقبلون على ما يؤلفه او يترجمه عن اللغات الغربية نخبة من الكتاب ومحرري الصحف من مقالات ادبية ومباحث علمية وقصص عصرية ، فيتهافتون على قراءة هذه المؤلفات الجديدة ويجدون فيها ما يغذي العقل والقلب ما لم يكن يجدونه في حلقات العلم الازهرية . ثم فتحت الجامعة المصرية فانتسب صاحبنا اليها وما زال يتابع دروسه فيها حتى خرج منها بشهادة الدكتوراه في الادب .

وهكذا انتهى الطور القديم من حياته وبدأ طور جديد بزغت فيه شمسه وطارت شهرته حتى اصبح يلقب بعميد الادب في هذا العصر .

وكما ختم المرحلة الاولى بكلمة وجهها الى ابنته الطفلة ، ختم هذه المرحلة من سيرته بكلمة وجهها الى ابنه الشاب يقول فيها : « وها انت ذا يا بنيّ تهجر وطنك ومدينتك ، وتفارق اهلك واصدقاءك ، وتعبر البحر في سنك هذه الصغيرة لتطلب العلم وحيداً في باريس . فدعني اهدي اليك هذا الحديث لعلك ترتاح اليه بين حين وحين ، اذا اجهدك درسك ، ووجدت في اللاتينية واليونانية مشقة او عناء . هنالك ترى لوناً لم تعرفه من ألوان الحياة في مصر ، وتذكر

شخصاً طالما ارتاح الى قربك منه ، وطالما وجد في جدك وهزلك لذة لا تعدلها لذة ، ومتاعاً لا يعدله متاع » .

ولنلقِ الآن نظرة على ما في « الايام » من روعة فنية . واهمّ خصائصها ما يلي :

١ – **عذوبة الحديث** : فالالفاظ والعبارات على نصاعتها تمتاز بنعومة ذات رواء . وتلك موهبة ٌ خاصة تعرف في الذين اذا سمعت حديثهم قلت هذا هو السحر الحلال . ومن الصعب ان نحلل هذا السحر لنتبين عناصره الاساسية . ولقد حاول نقاد الادب ذلك منذ اقدم العهود فوصفوه بحسن البيان ، واشراق الديباجة ، وكثرة الماء وغير ذلك من الصفات . وها نحن اليوم نكرر ما قالهُ العسكري منذ نحو ألف سنة ، فنقول : « وانما هو في جودة اللفظ وصفائه ، وحسنه وبهائه ، وكثرة طلاوته ومائه » . ونقف عند هذا الحد .

٢ – **روعة التصوير** : ولا نعني بها هنا ما يعنيه البيانيون من الاجادة في تشبيه او استعارة او مجاز ، بل نعني تصوير الوقائع والاحوال والخوالج والتأثرات . فكتاب الايام مرآة جلية لحياة كاتبه ، ولوسائل التعليم في زمنه ، ولعادات قومه ومعتقداتهم ، بل « هو مرآة للايام في مرورها على الناس وما تولده فيهم او تحمل لهم من اسباب الحياة والاندثار » .

والتصوير الادبي قد يكون حسيّاً او معنوياً وقد اجاد القدماء في كليهما ولكنهم لم يبلغوا فيه ما بلغه المحدثون في باب السيرة . واليك امثلة من كتاب الايام – قال المؤلف يصف مجلساً لبعض الطرق الدينية: « فاذا صُلّيتْ المغرب مُدّت الموائد واكل الناس ، ثم تصلى العشاء ، ثم ينصب المجلس . ونصب المجلس عبارة عن اجتماع الناس في حلقة الذكر – يذكرون الله قاعدين ساكنين ، ثم تتحرك رؤوسهم وترتفع اصواتهم قليلاً ، ثم تتحرك أنصافهم وترتفع اصواتهم قليلاً ، ثم تنبثّ في اجسامهم رعدة فاذا هم جميعاً وقوف قد

دفعوا في الهواء كأنما حركهم لولب . وقد انبثّ في الحلقة شيوخ ينشدون شعر ابن الفارض وما يشبهه من الشعر » .

واسمعه يصف حالته يوم أرسل الى الازهر وهو فتى في الثالثة عشرة من عمره :

« كان (الفتى اي شخصه) نحيفاً ، شاحب اللون ، مهمل الزيّ ، اقرب الى الفقر منه الى الغنى ، تقتحمه العين اقتحاماً في عباءته القذرة وطاقيته التي استحال بياضها الى سواد قاتم ... تقتحمه العين في هذا كله ولكنها تبتسم له حين تراه على ما هو عليه من حال رثةٍ وبصرٍ مكفوف – واضحَ الجبين، مبتسمَ الثغر، مسرعاً مع قائده الى الازهر ، لا تختلف خطـاه ولا يتردد في مشيته ، ولا تظهر على وجهه هذه الظلمة التي تغشى عادة وجوه المكفوفين ».

ووصف شخصية احد الطلاب في الازهر ، وكان قد قضى فيه عشرين سنة ولم يظفر بدرجة علمية فقال : « كان حبه للعلم معتدلاً ، وكانت رغبته في العلم متواضعة . وكان اقباله على الدرس ضئيلاً جداً ، وكان ذكاؤه اضأل من اقباله على الدرس ، واستمداده لفهم العلم اقلّ من اقبـاله عليه . وكان مع ذلك يرى نفسه ذكياً ويرى نفسه مظلوماً » .

هذه بعض امثلة من طريقته في التصوير ، ولو اردنا الاستمرار في التمثيل لنقلنا معظم الكتاب . فلنختم هذه الامثلة بكلمة يصور فيها خوالج نفسه اول دخوله الازهر . قال بعد ان ذكر قُبلات والدته وما كانت تشيعه في نفسه من امل وامن وحنـان : « وكان ذلك النسيم الذي كان يتلقاه في صحن الازهر يشيع في نفسه هذا كله ويرده الى الراحة بعد التعب . ومع ذلك فلم يكن يعلم من امر الازهر شيئاً ، ولم يكن يعرف مما يحتويه الازهر شيئاً . وانمـا يكفيه ان تمس قدميه الحافيتين ارضُ هذا الصحن .... واذا هو يشعر انه في وطنه وبين اهله ، لا يحس غربةً ولا يجد ألماً . وانمـا هي نفسه تتفتح من جميع نواحيها ، وقلبه يتشوق من جميع اقطاره ليتلقى .. ليتلقى ماذا ؟ ليتلقى شيئاً

لم يكن يعرفه ولكنه كان يحبه ويُدفع اليه دفعاً ، طالما سمع اسمه واراد ان يعرف ما وراء هذا الاسم – وهو العلم » .

ولنتقدم الى مزية اخرى في كتاب « الايام » وهي شائعة فيه وتحلو لمطالعيه ، اعني :

٣ – طلاوة التهكم : والتهكم في اللغة الاستهزاء والتحقير ، على انه في الفن الادبي يعني النقد الفكه ، او الهجاءَ المبطنَ بالدُّعابة . كقوله يصف شيخاً : «ومنهم هذا الشيخ الذي كان في اول امره حمّاراً ينقل للناس بضائعهم وامتعتهم ، ثم صار تاجراً واقتصرت حُمره على نقل تجارته ، والذي كان الناس مجمعين على انه اكل اموال اليتامى ، واثرى على حساب الضعفاء ، والذي كان يكثر من ترديد هذه الآية. « ان الذين يأكلون اموال اليتامى ظلماً انما يأكلون في بطونهم ناراً وسيصلون سعيراً » .

ومن هذه التهكمات الفكهة ان المؤلف كان في التاسعة من عمره وقد اعلن شيخ «الكتّاب» في القرية لوالده انه ختم القرآن. فسر الوالد وخلا بالولد يمتحنه ببعض السُور فلم يُفتح عليه بشيء . فأرسل الوالد الى الشيخ يلومه على تقصيره في تعليم ولده . وعندما ذهب الولد في الغد الى الكتاب دعاه الشيخ في جفوة وقال له : « ماذا حصل بالامس . وكيف عجزت أن تقرأ سورة الشعراء . وهل نسيتها حقاً ؟ اتلها علي » . فأخذ يردد (طسم) وكانت له مع الشيخ قصة كقصته مع ابيه . فقال الشيخ : « عوضني الله خيراً فيما انفقتُ معك من وقت وما بذلتُ في تعليمك من جهد ، فقد نسيت القرآن ويجب ان تعيده . ولكن الذنب ليس عليك ولا عليّ وانما هو على ابيك . فلو انه أعطاني اجري يوم ختمت القرآن لبارك الله في حِفظك ، ولكنه منعني حقي فمحا الله القرآن من صدرك » .

ولقد عاب بعضهم على اسلوب الكتاب كثرة ما فيه من عطف وتكرير كقوله : « ثم ادار المفتاح فانقطع جريان الماء ، ثم ردّ على الابريق غطاءه ،

ثم هزه هزاً رفيعاً ليبلغ ما فيه من الماء الساخن اجزاءه كلها ، ثم قام فألقى ما في الابريق فما ينبغي ان يجدَ الشاي بردَ الخزف لان ذلك يفسده ، ثم انتظر بهذا الشاي ثواني ، ثم صبّ عليه الماء في رفق دون ان يملأ الابريق الى غايته ، الخ . وقد تجد مثل هذا التكرير والترديد في كثير من عبارات الكتاب وهو كما يقال خروج عن اسس البلاغة. والواقع انك لا تجد خروجاً عن سنن البلاغة قد اصبح بنفسه بلاغة تحتذى كهذا الاسلوب . فما هو إلا حديث ممتع لما يحتويه من طلاوة وروعة في التعبير والتصوير . فلا غرابة ان يستحسنه الناس ويقبلوا على قراءته بشغف وشهية .

سيرة

جبران خليل جبران

لمخايل نعيمة [1]

خلاصة السيرة :

وهي سيرة نابغة أدبي امتزجت حياته بحياة الكاتب فاستطاع ان يجلو لنا بقلم الفنان النافذ البصر ، أسرار تلك الحياة وأثرها في المجتمع البشري .

وهو يبدأها بمشهد احتضاره في أحد مستشفيات نيويورك ، حيث نسمع غرغرة الموت تتردد في حلق صديقه المسجى أمامه ، ونرى وجه ذاك الذي كان بالأمس تشع الحكمة من عينيه ، وتبتسم الحياة من شفتيه ، ويسطع النور على جبهته ، وقد علاه أصفرار الموت ولم يبق فيه من آثار الحيـاة الا تلك الغرغرة الرهيبة .

وينقلنا الكاتب بعد ذلك الى قرية في لبنان والى بيت قروي هناك، فنسمع صوت طفل قد أطل على عـالم الوجود ونرى بهجة الأهل والأصحاب بميلاده ،

١) وهو في الطليعة بين ادباء العصر . ادب رفيع يجمع فيه بين عمق التفكير وروعة التعبير والتصوير . وقد شمل ادبه المقالة والقصة والشعر والنقد ، فأغنى المكتبة العربية بنتاج قلمه .

ويصور لنا نشأة الطفل في تلك القرية ومدرستها البسيطة ، وما كان يبدو فيه من نزعات وميول حتى اذا بلغ الثانية عشرة اذا هو مع أمه وأخيه الأكبر وأخته في طريقهم الى العالم الجديد . تستقر العائلة في حي من أحقر أحياء «بوسطن» وينصرف الأخ الاكبر الى العمل ، ويتردد الصبي جبران الى مدرسة يتعلم فيها الانكليزية والدروس الابتدائية . وتلاحظ معلمة التصوير ميله الى الرسم فتذكر ذلك لمصور زار المدرسة ، فيعطف عليه ويدعوه لمشاهدة الصور في محترفه. هو الآن قد تجاوز الرابعة عشرة ، فرأى أهله ان يرجعوه الى لبنان ليدرس لغته العربية في احدى مدارس بيروت . بقي في بيروت اربع سنوات عاد بعدها الى بوسطن بعد ان ذاق مرارة الخيبة في حبه الاول وامتلأ قلبه غيظاً من الذين كانوا سبب خيبته . وتتوالى عليه المصائب هناك اذ يموت اخوه بالسل ويتبعه بالمرض نفسه امه واخته الكبرى ، فيبقى وحيداً مع اخته الصغرى وهما في حالة يرثى لها من الحاجة والفقر . وتمتهن الاخت الخياطة لتقوم بأودهما ، ويأخذ هو بممارسة الرسم والكتابة . وبعد مدة رأى ان يعرض رسومه للناس. وفي معرضه الصغير تعرّف بسيدة اميركية اسمها ماري هاسكل كانت مديرة مدرسة للبنات فاعجبت بجبران ورسومه ودعته الى زيارة مدرستها. وتشتد اواصر الصداقة بينهما فتعرض عليه ان يذهب الى باريس على نفقتها ليتقن فن الرسم على ايدي كبار الفنانين. وفي باريس قضى نحو ثلاث سنوات زار في خلالها بعض المراكز الاوروبية الاخرى ، وقد اتسعت لديه آفاق الحياة الفنية والكتابية ثم يعود الى اميركا. ولكن هنا المشكلة الآن، ايظل عيالاً على ابرة اخته ؟ انه سيمارس فنه لا شك ، ولكن المال من فنه لا يأتيه عاجلاً فلا بد له من محترف ، ولا بد له من وقت طويل حتى يُعرف كفنّان . فماذا يعمل ؟ يتوجه الى صديقته العطوف ماري هاسكل ويعرض عليها الزواج . ولكن ماري تتردد في قبوله كزوج ، فيستاء ويترك بوسطن الى نيويورك .

وفي نيويورك يتخذ محترفاً للرسم ، وكان قد وقع تحت تأثير الكاتب

الالماني نيتشه اذ شغف بكتابه «هكذا تكلم زرادشت» فأخذ يتحول من شاب مهيض الجناح، مكسور القلب ، مغلوب من الحياة ، الى رجل ذي عزم ونقمة ومراس ، لا يلذ له سوى التهكم على النـــاس والعبث بأوضـاعهم ، والتشفي بأوجاعهم ، وحفراً لقبورهم. ولا يعرف له رباً غير نفسه. وهكذا نشر روايته « الاجنحة المتكسرة » فنالت شهرة اسكرته ، وازداد اندفاعـــاً في سبيل زرادشت حتى اصبح يستعظم نفسه ويحب ان يعظمه الناس .

وفي تلك الاثناء قدم الكاتب (اي نعيمة) الى نيويورك وشاءت الظروف ان يتصل بجبران ويصبح صديقاً حميماً ملازماً له .

وكان جبران قد اتقن الانكليزية فأخذ يزاول الكتابة فيها، ووفق الى نشر بعض كتاباته فعرف اسمه في الاوساط الأدبية الأميركية . وهنا يجلل لنا الكاتب موقفه تحليل البصير الخبير فيقول : « ان جبران أصبح في ذلك الحين شخصين : شخصاً في المحترف ناقماً على العالم ثائراً متهكماً ، وشخصاً خارج المحترف راغباً في العالم طلاباً للمجد . غير انه كان لا يزال يسير في ظلام ، وفي ذلك الظلام كان يشع عليه احياناً نور من قلب ماري العطوف المحب ، وذلك عندما تزوره في نيويورك أو يذهب لزيارتها الى بوسطن » .

وتدخل الولايات المتحدة الحرب العالمية الاولى فيذهب نعيمة الى الحرب . ويبقى سنة وشهرين يعود بعدها الى نيويورك فيرى جبران قد نشر قصيدته العربية «المواكب» وكتابه الانكليزي «المجنون» . ويحدثنا عن نشوء الرابطة القلمية برئاسة جبران ، وغايتها ان تخرج بالأدب العربي من دور الجمود والتقليد الى دور الابتكار والتجديد . وقد اتخذت مجلة « السائح » لساناً ناطقاً بأعمالها . كما يحدثنا عن اجتماعاته الخاصة بجبران وكيف كانا يتجاذبان الأحاديث الأدبية ، وما كان يقدمه لصديقه من ملاحظات على بعض منتجاته الكتابية كالعواصف والسابق . ويصور لنا جبران في تلك الاثنـــاء وقد بدأ تأثير نيتشه يخف فيه وتخف العواصف التي أثارها في نفسه . بل تلك الـ «أنا» التي كانت تشغل حيـاته

وتقلق وجوده وتلقي على من حوله غشاء اسود ، قد تحولت الى انسانية عامة ، وعظت نفسه انه ليس إلا فرداً من جماعة هو شريك لهم ومساو اياهم ، وما الحياة الحقيقية إلا حياة البساطة والحب والجمال الطبيعي، حياة الروح المتعالية عن اطماع المدنية الغربية. وعن هذا التحوّل نشأ «النبي» الذي نشره ١٩٢٣ ، فكان له وقع عظيم في الاندية الاميركية . ومما يذكر ان جبران قبل طبعه كان قد أصيب بحمى المضاربة بالاملاك التي اجتاحت اميركا فأصيب بخسارة ما كان قد جمعه من مال ، فصار يجد بريشته . ولكن لم تمض عليه سنتان او ثلاث حتى انتعش مالياً وعاد الى قلمه فأصدر «رمل وزبد» ١٩٢٦ ، ثم ابتاع اربعين حصة من البناية التي يسكنها فعوضت عليه اضعاف خسارته الاولى .

وبعد ظهور النبي أصدر « يسوع ابن الانسان » وكانت صحته قد اخذت تسوء . وبظهور هذين الكتابين كثر عدد المعجبين به واتسعت موارد رزقه وعظمت شهرته . ولكن جبران اصبح يشعر بوحدة قاسية ، وكان الداء قد تسلل الى ذلك القلب .

وهذا فصل جميل يصور فيه الكاتب بطله وقد عادت الى نفسه ذكريات قديمة – ذكريات فتاة أساء اليها ووعدها بالزواج ولم يفِ ، وها هو الآن يتوسل اليها ان تغفر له وان يقطعا طريق الحياة معاً ، فتستعيد ايمانها بالحياة وجمالها ولا تدين الله بهفوة انسان ، وان يكن ذلك الانسان إلا جبران. ولم يكن يدري أن الطريق قد قاربت النهاية ، فما هي الا بضعة اشهر حتى اسلم الروح .

هكذا تنتهي قصة جبران – في فصولها المختلفة – الخيبة في الحب ، والشقاء في العمل، فالنقمة من العالم، فاشراق نجمه، فخفة نقمته، فحبه للمجد، فتواضعه فحكمته ، فخبوت انانيته .

سلّم تبدأ بالحب الفردي وتنتهي بالحب الانساني ، وبين هاتين الدرجتين تنصهر الروح بآلام الحياة ومطامعها. فلا غرابة ان يقف الكاتب في نهايتها امام

جثمان صديقه ويقول مع المرنم القديم : « قلباً نقياً اختلق فيّ يا الله ، وروحاً مستقيماً جدد في داخلي » .

أسلوب كاتب السيرة :

اول مـا يلفت النظر في هذه السيرة انها مزيج من حياة البطل وحياة الكاتب . فهي حديث صديق عن صديق لازمه واشترك معه في كثير من امور الحياة . على ان ذلك لم يمنع الكاتب من تدوين كل مـا عرفه عن صديقه دون مواربة او مداهنة . فهو لم يكتب ليقرظ ، بل ليصور لنـا الحقيقة كما اختبرها وادرك اسرارها . فلا غرابة ان يحدثنا عن تجربته الاولى وهو في نحو الخامسة عشرة ص (٥٢) . وعن عدم وفائه لميشيلين بعد ان وعدها بالزواج ص (١٢٢). وعن غروره الذي ملكه في أوائل عهده بالشهرة حتى صار يدعي بمـا ليس له ويتهافت على المجد العالمي والعظمة الفارغة ص (١٦٦) و (١٧٦) . ففي الكشف عن هذه الزوايا الخفية من حياة صديقه مـا يجعلنا ندرك التطور الذي طرأ على شخصيته مع الزمن، وتلك العوامل التي أثرت في كيانه وكتابته. وقد لامه البعض على هذا الكشف . ولكنه لم يشأ أن يخون نفسه والقارىء بكتمان مـا ليس مكتوباً في سجل الحياة الكبرى فيصور صورة لا وزن بين ظلالها وأنوارها ليرضي بعض من لا ذوق لهم من الفن ولا رأي لهم في الحياة ، وحسناً فعل وان انتقده كثيرون . والمتأمل في هذه السيرة الفنية البديعة لا بد له ان يلحظ ان الكاتب ذو خيال بعيد . فهـا هو مثلاً يوقفنا مع جبران في باريس يناجي نفسه بما يبتاعه من الهدايا لأخته الصغرى مريانا . وبعد ان يعيد في نفسه ذكريات كثيرة عن احبـائه الذين تركهم في اميركا يقول الكاتب : « وأخرج جبران محفظة صغيرة من جيبه وعدّ ما فيهـا من الدراهم ، ثم نهض ومشى وهو لا يعرف اين يقصد ومـاذا يبتاع . وبجانبه مشى الموت حاملاً على ذراعيه روح أخته سلطانة التي كانت قد تقبلها في تلك الساعة وراء المحيط هدية من يد الحياة » .

ومثل آخر من هذا القبيل . وهو وصفه لمدينة نيويورك يوم دخلها جبران في الفصل المعنون « تمخضت الفأرة فولدت جبلاً » (١٤٣) .

ففي هذا الفصل يحملنا بالخيال الى السنة ١٦٢٦ واذا نحن أمام عرش يجلس عليه ملك اسمه الفلس .. وهو يخاطب أعوانه بمثل قوله : « منذ سلمني الناس مقاليدهم وأنا أدأب النهار والليل في سبيل اسعادهم ، واجترح العجيبة لأنقذهم من بؤسهم وشقائهم » . وهكذا يأخذ بتعديد العجائب التي عملها في سبيل الناس « وعجيبة العجائب اني قد مزجت الناس في بوتقة واحدة فجعلتهم جنساً واحداً وكانوا أجناساً ، وأمة واحدة وكانوا أمماً ، بل قد جعلتهم لحماً واحداً وعظماً واحداً ودماً واحداً . لأني جعلت طعامهم واحداً وشرابهم واحداً وكذلك كساءهم ومأواهم » الى ان يقول : « لقد بنيت لهم في سالف الأحقاب مدناً كثيرة ، أما الآن فبخاطري ان أبني لهم مدينة تفوق كل ما بنيت ... وسيكون فيها لكل شهوة مأوى ، ولكل فكر مجال ، ولكل خيال مسرح فيمشي فيها إله الناس وشيطانهم جنباً الى جنب وتنبت اغراس فردوسهم في محاجر جحيمهم .. وسأحقن سكان المدينة بمصل جديد هو مصل الحركة الدائمة فيصلون النهار بالليل .. ولا يهدأون ، وسيكونون لي أطوع من بناني وألصق بي من ظلي . يكفرون بأربابهم أما بي فلا يكفرون .. وقد أخترت للمدينة العتيدة جزيرة في العالم الجديد ، واقعة بين مصب نهرين واسمها مانهاتن وهي اليوم ملك عشيرة من العشائر الحمر ، فبادروا اليها في الحال وباشروا العمل » . وبعد حديث خيالي طويل يشترك فيه هو وأعوانه ينطلق الأعوان الى الجزيرة المذكورة فيبتاعونها بأربعة وعشرين دولاراً ثم يشرعون في بناء مدينة نيويورك وما زالوا حتى الساعة يحفرون ويؤسسون، يهدمون ويشيدون، وبين انقاض ما يشيدون ، ملايين من الناس يأتون ويروحون وهم عن السعادة يفتشون .

في خريف سنة ١٩١٢ لميلاد القائل : « ملكوت الله في قلوبكم ، انزجّ بين تلك الملايين جبران خليل جبران » . ونعيمة لا يترك فرصة للتأمل في الحياة

والموت ، في الوجود وما وراء الوجود، دون ان يفتنها. اسمعه يقول اذ دخل على صديقه وهو في ساعة أحتضاره (ص ١٨) : « صوت غريب يفاجىء اذني حالما أفتح الباب وأغلقه بهدوء ورهبة ، فأشعر عندما أجتاز عتبته كأني قد أجتزت من عالم لا مر فيه الى عالم كله أمرار ، وأنسى ان هذا العالم في ذاك ، وذاك في هذا ، وان لا أبواب بين الاثنين ولا عتبات سوى الأبواب والعتبات التي يقيمها جهلي وتبصرها عيني الكليلة من خلال أغشية الحواس المحدودة » .

الى ان يقول (ص ٢٣) : «لا أكاد افلت بخيالي من عالم الحس حتى تجذبني حشرجة الموت اليه ، فتتدفق عليّ من النافذة أمواج حيـاة المدينة ، اصواتها المبلبلة ، شهواتها الملتهبة ، مطامعها المنسابة كالأفاعي ، افراحها الظاعنة وأوجاعها العقيمة ، وتنسكب كلها في مقطعين « غر — غر » (الى آخر الصفحة) .

وبوقفنا قليلا أمـام المركب المقل جبران من أوروبا الى أميركا ليتـأمل في الحياة ويقول (١٢٦) : « حياة الانسان على الارض سكرة دائمة، وليس يصحو منها قبل الموت الا القليل من ذوي الخيـال والالهـام . وصحوة هؤلاء يندر أن تدوم سنوات متوالية . وأكثرها لا يتعدى فترات قصيرة من الزمن يفلت فيهـا الخيال من أشراك البدايات والنهـايات ، والحدود والفواصل ، والأسباب والنتائج ، والخير والشر ، وكل أصناف المتناقضات ويسبح في جو لا خصـام فيـه بين «انا» وغير «انا» اذ ليس فيه الا «انا» واحدة شاملة لا متناهية ». وله كثير من مثل هذه التأملات التي يأتي بها استطراداً أو في مناسبة خاصة ليوضح لنا غامضاً من حياة صديقه ، أو ليعرض شيئاً من نتاج أفكاره . ومن ظواهر الأسلوب النعيمي في كتابه « جبران خليل جبران » الميل الى النقد والتحليل ولنكتف في التمثيل على ذلك بكلامه على كتابي جبران النبي ويسوع:

« فقد جعل جبران للنبي بطلاً اسمه المصطفى ، وجعله يقيم مدة من الزمن كغريب في مدينة اسمها أورفليس . ثم يحين الزمن لتركه هذه المدينة وعودته الى وطنه . وكان أهل المدينة قد أحبوه جداً فشق عليهم فراقـه وسألوه قبل

انصرافه عنهم ان يحدثهم عن أنفسهم وعن الحيـاة . وكانت أحاديثه أجوبة عن أسئلة وجهت اليه وتناولت نحو ٢٥ منحى من مناحي الحياة الانسانية . يقول كاتب السيرة ان قالب الكتاب مستعار من نيتشه وزرادشته. فجبران من حيث الأسلوب ، مدين للكاتب الالماني على انه لم يكن ناقلاً بل ما قاله « قاله بأسلوب يكاد يكون جديداً بنضارته وانسجامه ، وجمال ألوانه واتساقها، ووفرة انغامه وائتلافها . حتى انك لو شئت ان تجد فيه عيباً لما استطعت . وقد تعيب عليه وفرة المجاز والاستعارة والكناية ، وحينئذ ليس أسلوب النبي عندك غير طلاسم في طلاسم لأن جبران في هذا الكتاب ـ أكثر منه في أي كتاب آخر ـ يبلغ أقصى مقدرته الفنية في انتقـاء التشابيه المبتكرة وابتداع الاستعارات والمجازات الناتئة كتماثيل محفورة في صخر . لكنها تماثيل مبهمة لمن لا ميل فيه الى مثل هذا النوع من الفن ، او لمن حرم التمتع بهـا في حلتها الانكليزية . (٢٤٥) ثم يحلل لنا ما قاله جبران بلسان نبيه . وهنـا يقف قليلاً ليظهر لنـا استنكاره من تصوير جبران نفسه نبياً تحت نقاب من التمويه الفني » . (٢٥٠) .

أمـــا يسوع ابن الانسان « فقد حاول فيه ان يصور يسوع فيما وضعه على ألسنة معاصريه من أحاديث ـ كل حسب منازعه ومداركه . يقول نعيمة بعد ان وصف لنـا « يسوع جبران » : « قابل بين يسوع الذي انطبع في خيالك من مطالعة سطور الانجيل القليلة ويسوع الذي علق بذهنك من ألسنة معاصريه كما أنطقها جبران ترى ان بين الاثنين فرقاً ليس طفيفاً » . (٢٧٢) .

وهنا يقابل بين الاثنين مظهراً شتى الاختلافات . ومع ان الفنان قد يعذر أحيانـاً لخروجه عن الحقيقة التاريخية الا ان جبران ـ يقول الكاتب : « كان في غنى عن التصدّي لما جاء في الانجيل وتحريفه او التصرف به » . (٢٧٣) .

وفي هذا الكتاب ، شأنه في كل كتبه ، يقول نعيمة: « ينثر بسخاء جواهر من التشابيه المبتكرة وينقش رسوماً من الفن تقف عندها جذلاً مهللاً ، ويقدم لنا امثلة من هذه الجواهر . وجبران اذا ما قرع او أنب وتبرم ، اتاك بأقصى

مقدرته البيانية . كذلك تهكمه على الاغنياء وعلى أوليـــاء الأمر والمحافظين على كل سلطة وتقليد . فهو يسود وجوههم بمـــا يطبعه من الكلام في أفواههم » . (٢٧٦) .

وفي رسوم الكتاب يقول : « ليس ما ينقشه جبران أقل فعلاً في النفس مما يسطره بقلمه . وهو كعادته في كتبه السابقة قد زين كتابه الجديد بطائفة من الرسوم تقف امامها مستجلياً رموزها مأخوذاً بتناسق خطوطها » (٢٧٦) .

بقي ان نقول ان كاتب هذه السيرة قد أجاد جداً بعرض مـــا كان يقوله جبران ، مرتبطاً بحوادث حياته واختلاف حالاته ، يريك اياه في وحدته او بين الناس تحت تأثير خارجي او داخلي، فاذا بذلك التأثير ينسكب من قلمه أفكاراً متحلية بحلل خلابة من الفن . وقد اجـاد في ابتكاره هذه الطريقة الفنية ليقص علينا ما عرفه من حياة صديقه ـ هذه الطريقة التي جمع فيها بين لطف العبارة ، ومتعة القصة ، وصدق الرواية ، ودقة التحليل .

عبقرية الصديق

لعباس محمود العقاد

لسنا الآن نتوخى ان نقوم بدراسة لأدب العقاد ، فهو أدب واسع النواحي متشعب الأطراف يشمل جميع أبواب الأدب من نثر وشعر . ولقد أخرجت له المطبعة من الكتب والدواوين والرسائل ما يؤلف مكتبة خاصة . على انه لا يسعنا ونحن نتناول كتابة السيرة الحديثة الا ان نقف ولو قليلاً ، على بعض ما وضعه في هذا الباب ، فهو من المجلين في هذا المضار، الجاهدين في توسيع آفاقه ليل نهار .

ومن أوضاعه سلسلة «عبقرياته» ، ونعني بها تلك المؤلفات التي خصصها لسير عباقرة عرفوا في تاريخ الاسلام [1] . وقد رأينـــا ان نختار منها للتمثيل على طريقته في هذا الفن ، بل على الطريقة الحديثة التي يتبعها عموماً كتّاب السيَر في بعض الأقطار العربية، «عبقرية الصدّيق». وهي تتناول حياة عظيم من عظماء الاسلام وتشرح لنا سر عظمته وما كان لمآتيه من أثر في جيله وفي ما تلاه من الأجيال .

١) ومنهم ، الصديق ، عمر ، علي ، خالد . فضلاً عن المسيح ، والنبي محمد ، وله عدد من سير الادباء والاعلام .

والناظر في سيرة الصديق كما يعرضها العقاد يؤخذ بما فيها من حسن وصف لشتى الأحداث والأشخاص، على ان نظره يتجه اتجاهاً خاصاً الى أمرين رئيسيين فيها هما: العناصر التي تتألف منها شخصية ابي بكر، وطريقة الكاتب في العرض والتحليل . فلننظر في كل منهما :

شخصية الصديق : ان ابا بكر عند الكاتب ، مستجمع في نفسه كل المزايا التي يتحلى بها من أوجدتهم العناية لقيادة حركة قومية ، وتوطيد رسالة علوية . وهكذا نراه مندفعاً في الكشف عن عناصر أهليته وكفاءته – يشرح لنا مثلاً ما روي عن موقفه التاريخي يوم توفي النبي وكاد النزاع يستشري بين المهاجرين والأنصار على الخلافة . ويرينا كيف استطاع بحكمته وحسن تدبيره وشجاعته من أقناع الانصار بأولوية قريش . فلما تم له ذلك لم يدفع نفسه الى الامام ، او يفرضها على الناس بما له من جاه، بل قدم لهم صاحبيه عمر بن الخطاب وأبا عبيدة ابن الجراح ، وقال لهم : « هذا عمر وهذا أبو عبيدة . فأيهما شئتم فبايعوا » . ولكن هذين الصاحبين أبيا إلا ان يكون هو المقدم ، فبادرا الى مبايعته وتبعهما سائر الناس . والكاتب لا يرى في هذه الحادثة شيئاً من الدهاء السياسي ، بل يؤكد ان مبايعة الصديق كانت نتيجة منطقية لمقدمات هيأتها الاحوال العامة والمزايا الشخصية ، فلم يكن هناك سابق اتفاق أو تدبير مؤامرة لهذا الامر ، ولم يكن من حاجة لمثل ذلك « لأن حق ابي بكر ظاهر ما فيه خلاف ، ولا موجب لتخطيه الى غيره على وجه من الوجوه » [1] .

وبعد حديث الخلافة يتقدم العقاد الى التحليل النفسي لشخصية بطل السيرة . فيبدأ بتبيان علاقته الروحية بالنبي ، وانها ترتكز على « أعجابه بالبطولة » والاعجاب بالبطولة لا يحتاج الى بحث علمي وتمحيص منطقي وتشريع فلسفي بل الى بديهة صادقة تحس بالعظمة وتتأثر بالروعة . « وقد كانت البطولة التي أعجب بها ابو بكر هي البطولة التي ليس أشرف منها بطولة تعرفها النفس

---

١) عبقرية الصديق ص ٣٤

الانسانية : هي بطولة الحق وبطولة الخير وبطولة الاستقامة . وهي بعد هذا وفوق هذا ، بطولة الفداء ، يقبل عليها من أقبل وهو عالم بما سيلقاه من عنت الأقوياء والجهلاء »[1] .

ويرى كاتبنا ان هذا الاعجاب بالبطولة – بطولة النبي – هو الذي نفي من قلبه كل شك ، فجعله يصدق بكل ما يرويه بطله ، مقتنعاً بأنه الحق الذي لا مراء فيه ، ومطمئناً في قرارة نفسه الى قوله ، ساعياً جهده الى ما يرضيه .

وهنا يقف هنيهة ليوازن بين عمر وابي بكر من حيث العلاقة الروحية بالنبي ، فيذهب الى ان عمر اقتنع أولاً بالنبوة فهداه اقتناعه الى حب النبي . واما أبو بكر فقد بدأ من حيث انتهى عمر ، فانه شغف أولاً بشخصية النبي فقاده الشغف الى الايمان ، « عمر آمن فأحب وأبو بكر أحب فآمن »[2] .

ويلتفت الى شخصية ابي بكر في ضوء علاقاته بالناس. فيحللها مبيناً عناصرها الغالبة ، وهي التواضع ، والمروءة ، ولين الجانب ، وطيب الطوية . على انه يعترف بأنه كان أيضاً عصبي المزاج « فهو رغم لينه ومحافظته على رزانته ووقاره قد تأخذه حدة الطبع او تغلب عليه الشدة والغضب » ، ويبرر ذلك فيه بأن حدة طبعه لا تظهر إلا فيما يمس الايمان والدعوة الى الحق . ويمثّل عليها بحروب الردة اذ أثاره أرتداد المرتدين لعبثهم بالشريعة ، واستخفافهم بخليفة النبي . وهذه الردة عند الكاتب لا تستغرب من أصحاب المطامع في بيئة بدوية لم يتمكن في نفوس أهلها الايمان . على انها كانت أمتحاناً شديداً للاسلام خرج بعده قوياً ظافراً ، فكان للشدة والبأس اللذين قابل بهما أبو بكر العصاة اليد الطولى في هذا النصر المبين . « والغريب ان عمر المعروف بشدته وصرامته كان أميل الى الرفق بأهل الردة من ابي بكر المعروف بلينه وسماحته . وقد تملّك الغضب أبا بكر فصاح بصاحبه : « يا ابن الخطاب رجوت نصرتك وجئتني

---

١) المصدر نفسه ص ٦٩

٢) عبقرية الصديق ص ٨٥ – ٨٦

بخذلانك . أجبّار في الجاهلية وخوّار في الاسلام ! انه قد انقطع الوحي وتم الدين . أو ينقص وانا حي؟ » [1].

وهنا يحاول الكاتب ان يفسر هذا الاختلاف بين الصاحبين ، على اتفاقهما في الغاية ، تفسيراً نفسانياً ينتهي به الى القول : « ان الشدة في ابي بكر موجودة تظهر في مناسباتها ، وان اللين في عمر موجود يظهر في مناسباته » [2] . أما مَن المصيب في موقفه تجاه هذه الازمة العصيبة ، فجواب الكاتب هو ابو بكر «وقد اعتُرف له بذلك »[3] .

ثم ان الشدة عند ابي بكر هي ثمرة اليقين الثابت . وعلى اساس هذا اليقين يبني العقاد مجازفته في تسييره البعوث الى تخوم فارس والروم متكلاً على ما وعد به المسلمون من نصر على الاعداء . فكأنما الشدة نوع من الايمان لا تزعزعه الحوادث او المخاطر . كان ابو بكر مجبولاً على الصدق فلا عجب ان يثور على الكذب والخداع . وقد بلغت ثورته مرة درجة التطرف اذ أمر باحراق الفجاءة السُّلمي (اياس بن عبد يا ليل) وكان قد طلب من أبي بكر سلاحاً لقتال المرتدين ، ولكنه عوضاً عن ان يستعمله في هذا السبيل استعمله لقطع الطرق وقتل الناس لا فرق عنده بين مسلم ومرتد . ويرى الكاتب ان في ندم ابي بكر بعد ذلك وقوله : « وددت لو لم أكن حرقت الفجاءة السلمي » دليلاً على ان عمله هـذا لم يكن الا فورة غضب فارت في نفسه المجبولة على الصدق والتي لا تستطيع احتمال الكذب والنفاق . ويعقّب على ذلك بقوله : « ومهما يكن من مثل هذه الفورات احياناً ، فهو على العموم لم يكن يتصرف الا بما تقتضيه المروءة والرفق والنزاهة ، وقد اخذت عليه بعض مآخذ ولكنها لم تكن إلا عن اجتهاد فيما يراه حقاً او من مصلحة الجماعة » (١٧٩) . ويحدثنا عن ثقافة

---

١) المصدر نفسه ص ١٥٢
٢) المصدر نفسه ص ١٥٢
٣) المصدر نفسه ص ١٥٥

ابي بكر ، ولا يراد بها ما بلغه من التحصيل في معاهد العلم ، اذ لم يكن عند العرب معاهد من هذا النوع . وانما يراد بها ثقافته المعنوية القائمة على ما بلغه بنفسه من تأديب وتهذيب . ولهذه الثقافة المعنوية مقومات يذكر الكاتب منها ما يلي :

١ – حسن تقديره لكلامه وكلام الناس. فقد كان أحرص الناس على كلام يبدر من لسانه ، وكان أعلم النـــاس بموضع كلام الرجل من مروءته وشرفه. (ص ١٩٦) . ومن ظواهر حرصه على كلامـه انه لم يرو عن النبي – وهو ألزم الناس به – إلا احاديث قليلة اثبت الصحيحان منها سبعها فقط .

٢ – لباقته الخطابية وما في كلامه من حسن الاتزان والدلالة (ص ١٩٧) ومن المناسب هنـا ان نشير على سبيل التمثيل الى خطبته يوم استقرت له الخلافة والتي يقول فيهـــا : « أيها الناس قد وليت عليكم ولست بخيركم فان أحسنت فاعينوني ، وان أسأت فقوموني . الصدق أمانة ، والكذب خيانة ، والقوي فيكم ضعيف عندي حتى آخذ منه الحق ، والضعيف فيكم قوي عندي حتى آخذ له الحق ان شاء الله تعالى » .

٣ – أستيعابه للقرآن وفقه الدين وحسن تفسيره .

٤ – معرفته بالأنساب والأخبار .

ويصف الكاتب أخيراً حياته العائلية وما طبـع عليه من بر بالوالدين وعطف على الأولاد وحسن تأديب لهم . وقد أتفقت الروايات على قصـــده في معيشته وأجتنابه للسرف. قال عمر فيه: «رحمه الله لقد أتعب من بعده»، اي انه ألزمهم قدوة تتعب ولا تريح (ص ٢٠٧) .

طريقة الكاتب في هذه السيرة : ان الذي ينعم النظر في ما كتبه العقاد من سيرة الصديق يرى جلياً انه انما قصد إلى تصوير البطولة فيه لا الى كتابة تاريخه. فهو لا يعني الا بمزايا هذه البطولة وعرضها بألوان جميلة تستهوي القلوب . وقد

استدرك ذلك في تقديمه للكتاب فصرح ان تلك خطته . وان ما يتوخاه في الكتابة عن العظماء الذين حسنت نياتهم في خدمة الانسان ان نوفيهم حقهم من التوقير ، وان نرفع صورهم الى مكان التجلة . وقد اجاد فيما توخاه . فكأنه كان ينظر الى القمر فلا يرى غير وجهه المنير . وتلك خطة مثلى اذا كان الغرض الاشادة بالعظماء ، ورفعهم مثلاً عليا للأجيال ليروا فيهم معاني العظمة ومجالي المجد . ولكنها لا تكفي اذا كانت الغاية الدرس الشامل ، والاستقصاء العلمي ، وتصوير الواقع من كل نواحيه . على ان للعقاد في كتابة السيرة مزايا لا بد من النظر فيها ، وأولها بل أبرزها نزعته الى التحليل والتعليل . فاذا تناول حديث الخلافة مثلاً وانحصارها في قريش أثبت لنا أولوية ابي بكر باستعراض كبار القرشيين واحداً واحداً كعمر ، وعثمان ، وعلي ، ومعاوية، وتحليل مواقفهم منها بالنسبة الى ابي بكر ، فلا يسعنا إلا ان نرى ما يرى ، وان نذهب الى ما يذهب من ان انتخابه لم يكن الا نتيجة طبيعية للوضع الراهن في قريش ولمؤهلاته الشخصية.

ولبيان الحقيقة في صفات بطله يرجع بنا الى أيام الجاهلية، فيرينا بتحليله ما كان عليه أبو بكر من أخلاق عرفها الناس فيه . وان هذه الاخلاق لزمته في الاسلام . وازدادت رسوخاً وقوة بايمانه الصادق وصحبته الدائمة للنبي، ثم بتحمله مسؤولية الخلافة . ولا يكتفي بالوجهة التاريخية ، بل يحاول رد ذلك الى مزاج عصبي ناشىء في وراثة كريمة . فأصحاب هذا المزاج الناشئين في بيت وجاهة ، اذا لم يكونوا من أصحاب البطش ، يعتصمون عادة بالوقار ودواعيه ، ويتزينون من خلائق الصدق والمروءة ، ولا يستهدفون لجرائر الحدة في غير عمل حميد (ص ٥٣) .

ومن قبيل هذه النزعة فيه الى التحليل النفساني تفسيره للحديث الشريف المروي عن النبي وهو قوله : « ما دعوت أحداً الى الاسلام الا كانت منه عنده كبوة ونظر وتردد إلا ما كان من أبي بكر ما عكف عنه حين ذكرته له وما تردد فيه » . ولماذا ؟ هنا يجرى الكاتب على سننه فيحلل لنا الاسباب التي كانت

تمنع القرشي يومئذ من قبول الدعوة . ومنها : « الغطرسة » او السيادة المهدّدة، او المصلحة ، او انغلاق الذهن ، او التعصب للعقيدة ، وجبن ينهاه ان يخرج عن المألوف ، او ايغال في الشيخوخة يصد عن التجديد ، او حداثة لا رأي لها » . وبعد ان يشرح هذه الموانع يخلص الى القول ان أبا بكر كان براء منها جميعاً . فلم تكن بينه وبين الاسلام عقبات تصده عن وروده ، فضلاً عما طبع عليه من الحماسة لمـــا يعتقد فيه الخير والصلاح وما عرف به من يقظة الضمير واستقامته (ص ١٠٥) .

ومثل آخر على هذه النزعة عند الكاتب تحليله وتعليله لحركة الردة ، ونقده الذين حاولوا صبغها بغير صبغتها الحقيقية اذ قالوا ان العرب أسلموا مكرهين (ص ١٤١) فهو يجتهد ان يبين انها لم تكن غير أمر طبيعي ينتظر حدوثه ازاء كل تطور جديد. وإلا «فما هو ذاك الذي كان يتخيله أولئك النقاد المغرضون؟» يسأل هذا السؤال ويردفه بأسئلة أخرى على الطريقة الخطابية فيقول : « أكانوا يتخيلون دينـــاً جديداً يملك الناس جميعاً في الجزيرة العربية ، فيسري الى كل نفس ، ثم يسري من كل نفس الى جميع خفاياها فلا يبقى منها بقية للنكسة او الارتداد ؟... أكانوا يتخيلون ذلك الدين مقتلعاً في مدى تلك السنوات القليلة كل أثر لاطماع الخليقة الآدمية ، وكل حنين في قلوب الزعماء الى الجاه القديم ، وكل فضلة من فضلات الجـاهلية ، وكل باب من أبواب الدسائس التي تنفذ الى جزيرة العرب من طريق الدول الاجنبية والعصب الداخلية ». وبعد هذه السلسة من الاستفهامات الخطابية يعود الى طريقته في التحليل . فيعرض لنا الموقف أيام النبي وبعده . ويلخص بأن النبي كان نياط الاستقرار في الجزيرة العربية . فلما توفاه الله ذهب الاستقرار وحدث تقلقل عـام — تقلقل بين الانصار والمهاجرين بسبب الخلافة ، وتقلقل بين القبائل يناسب نصيبها من القرب والبعد ، والمودة والجفاء. فالردّة التي حدثت لم تكن إلا الأثر المنظور المعقول لمطامع الطامعين، وخلائق الاعراب ، وذوي الجهالة في كل جيل. على هذه الحقيقة ينبغي ان تفهم فتنة الردة .

ومثل نزعته في التحليل اجادته في الموازنة : خذ مثلاً موازنته بين البديهة الملهمة والتمحيص العلمي (ص ١٦٥-١٦٩) او الالهام الذي يضيء في نفس الرجل العظيم ازاء التشريح عند ارباب العلم. ذاك عنده شيء وهذا شيء آخر. فاعجاب ابي بكر بالبطولة ، وادراكه البديهي للشمائل النفسية ، ومقدرته على ان يحس بعظمة النفس الانسانية لا تحتاج إلى براهين منطقية والى تشريح علمي. والبطولة التي اعجب بها هي بطولة الحق ، وبطولة الخير ، وبطولة الاستقامة ، وهي بعد هذا وفوق هذا بطولة الفداء. تلك هي بطولة محمد، وذلك هو اعجاب الصدّيق. ومن موازناته الجيدة ، وصفه لكل من النموذجين عمر وابي بكر (٨٤) ، يقول : « وربما دخل في وجوه التقابل بين هذين الرجلين العظيمين اكثر مما اجملناه من الفوارق التي تختلف بها نماذج الناس » . وهنا يقف بنا لنقابل بينهما من حيث اعجابهما بالنبي ، فيقول : « أبو بكر كان معجباً بمحمد النبي ، وعمر كان معجباً بالنبي محمد » . اي « ان حب ابي بكر لشخص محمد هو الذي هداه الى الايمان بنبوته وتصديق دعوته ، وان اقتناع عمر بنبوة محمد هو الذي هداه الى حبه والولاء له والحرص على سنته وعلى رضاه . ولهذا كان ابو بكر صاحباً آمن بصاحبه الذي يطمئن اليه ويحمد خصاله ، وكان عمر عدواً رده الاقتناع الى مودة الرجل الذي كان ينكره ويعاديه . ولهذا كان ابو بكر يطيع محمد فيفهم القرآن ، وكان عمر يأخذ بالقرآن أو بما يفهم من مشيئة الله فيناقش محمداً حتى يثوب (اي عمر) الى الفهم الصحيح». ويستمر في المقابلة بينهما من وجوه عديدة حتى يخلص الى القول: «وعلى هذا النحو كان الفرق بين الصديق والفاروق — بين اول المقتدين وثاني المجتهدين» فهو فرق بين قوة من نوع ، وقوة من نوع آخر. ولا محل للضعف في الموازنة بين هاتين القوتين » .

ومثل آخر على ميل المؤلف الى التحليل بواسطة الموازنة، موقفه من التصديق والتكذيب ازاء ما نقرأه او نسمعه عن بعض العظماء. يقول (ص ٥٦): « وانه لمن واجبنا في عصرنا هـذا ان نقضي على آفة العصر التي اوشكت ان تغلب فيه

على كل آفة ، وهي الظن الشائع بين المتفقهين والمتهجنين ان البراعة كل البراعة في التكذيب ، وان الجهالة كل الجهالة في التصديق . فكثيراً ما تكون الغفلة في التكذيب اعظم من الغفلة في التصديق ، وكثيراً ما يكون بخس الشيء الثمين أدل على العناد وأضيع للمنفعة من اغلاء الشيء البخس في تسويم التجارة او تسويم الضمائر والعقول » . واذ يقرر هذا المبدأ يحاول ان يطبقه على ما ذكروه من حسنات ابي بكر مبيناً ان التكذيب في هذه الحالة ابعد عن الواقع المعهود من التصديق .

وقس على هذه الأمثلة كثيراً غيرها في هذا الكتاب ، وهي ان مسحت احياناً بمسحة الحماسة العاطفية ، تنمّ على دقة في النظر ، وتقدير للمواقف ، وجودة في المقارنة .

لغة الكاتب :

أما لغة الكاتب فهي اميل الى الاسلوب الفلسفي منها الى الاسلوب التصويري الفني . ومع نضوجها بعاطفة الدفاع عن بطله ، لا تراها عادة تجري مجرى الاقناع الخطابي ، بل تتخذ سبيل البحث والنظر في الاسباب والنتائج . على انها لا تسير ملتوية في منعطفات الفلسفة الغامضة ، بل تتبع سبيل السهولة والوضوح .

فالعقاد مترسل بارع ، يحدثك بعقله ، ولكن حديثه لا يخلو من حرارة القلب . وقد تشتد هذه الحرارة فيه احياناً فتطغو على قوة المنطق فيه ، وهكذا تستحيل الى دفاع عن عقيدة في نفسه . خذ قوله مثلاً في تصديق ابي بكر لما سمع من اعاجيب في ايام الدعوة المحمدية (ص ٦٤) : « هبه قد ثاب الى معمل التحليل فقال له المعمل انه لم يسمع بأمثال هذه الاعاجيب . وهبه ثاب الى قضايا المنطق فقالت له انها لا تعرف هذه الأقيسة ولا هذه البراهين . وهبه قعد في مكانه بعد هذا وذاك . أفكاسب هو اذن ؟ أفعاقل هو اذن ؟ أفحق ما انتهت اليه الجزيرة العربية من جراء سكونه واحجامه ؟ ان الجزيرة لا تربح

شيئاً بذلك التمحيص المزعوم . وان العالم الانساني لا يزيد عقلا ، ولا علماً ، ولا تحليلاً ، ولا قضايا منطق بذلك الاحجام الذي استقر عليه . وان أبا بكر لن يكون خيراً من أبي بكر ، والدنيا لن تكون خيراً من الدنيا ، والتفكير لن يكون خيراً من التفكير ، بل كل من اولئك فاقد وخاسر ومنقوص ».

ويذهب في الدفاع عن الحس الباطني ضد التحليل العقلي الى اقصى حد . وكلامه في هذا الباب خطابي يحمل معه ما يحمله الاقناع الخطابي من تأثير ، ولكنه لا يخرج عن كونه دفاعاً عن فكرة لا برهاناً على صحتها .

ولا شك ان للكاتب قلماً قديراً في التعبير عن أدق الخواطر ، وله فوق ذلك مقدرة على سبر الاغوار النفسية وتصوير ما تحويه من عواطف لا يستطيع تصويرها غير ذوي المواهب الفكرية والادبية .

النقد في الأدب الحديث

النقد الادبي

النقد في تاريخ الادب العربي قديم ترجع تباشيره الى صدر الاسلام . على انه لم يصبح ذا مقاييس مقررة او متعارفة إلا إبّان القرن الثالث الهجري الذي برز فيه الجاحظ في كتابه البيان والتبيين، وابن قتيبة في كتابيه «الشعر والشعراء» و «ادب الكاتب» . وتلاهما في آجال مختلفة نخبة ممن عنوا بهذا الفرع من الادب نذكر منهم الاعلام التالية اسماؤهم ، وهم حسب تاريخ وفاتهم :

قدامة بن جعفر (٣٣٧ هـ) في «نقد الشعر»، أبو بشر الآمدي(٣٧٠ ﻫ) في «الموازنة بين ابي تمام والبحتري»، ابو الحسن الجرجاني (٣٦٦ ﻫ) في «الوساطة»، ابو هلال العسكري (٣٩٥ ﻫ) في «الصناعتين»، ابو بكر الباقلاني (٤٠٢ ﻫ) في «اعجاز القرآن» ، عبد القاهر الجرجاني (٤٧١ ﻫ) في كتابيه «دلائل الاعجاز» و «اسرار البلاغة» ، ضياء الدين بن الاثير (٦٣٧ ﻫ) في المثل السائر .

على ايدي هؤلاء الاعلام ومن في طبقتهم وضعت المقاييس العامة لبلاغة الكلام في وجهتيه اللفظية والمعنوية . ولا يظهر ان الذين قاموا من الاجيال التالية قد اتوا بشيء جديد في هذا الباب ، اذ كان جلّ عملهم من قبيل الشرح أو التعليق على ما قرره السابقون . والواقع انه لم يمض زمن طويل حتى دخل الادب العربي في طور التأخر والانحطاط ودخل معه النقد ايضاً . ومع الايام

طويت اعلامه وكادت تعفو آثاره. وظل على هذه الحال حتى بدأ يعود الى الحياة منذ اواخر القرن التاسع عشر ، على ايدي نخبة من رجال العلم واللغة . . وبما يذكر من آثار رواده المحدثين :

الجاسوس على القاموس – لأحمد فارس الشدياق ، و هو نقد لمحيط الفيروزابادي وسواه من المعاجم .

لغة الجرائد واغلاط المولدين – لابرهيم اليازجي ، وهما مآخذ على ما كان يكتبه المحدثون في عهده .

فلسفة البلاغة – لجبر ضومط ، وهو محاولة لدرس البلاغة ووضعها على اصول فلسفية .

منهل الوراد – لقسطاكي الحمصي. وهو يستعرض تاريخ النقد ويقرر له احكاماً متابعاً ما طالعه من ذلك في الادب الفرنسي .

هذه المحاولات الاولى وامثالها مما ظهر قبل الحرب العالمية الاولى قد افادت كثيراً في حينها . على انها في الواقع لم تكن غير تمهيد لنشاط جديد ظهر بعد الحرب المذكورة . ففي سنة ١٩٢٧ صدر مؤلف نقدي احدث في العالم العربي هزة شديدة لما حواه من جرأة في نقد اساليب القدماء ، وصراحة في ابداء الرأي ، ورفض لكل ما لا يثبت امام العقل ، هو كتاب «في الادب الجاهلي» لطه حسين . واليك خلاصته :

يقع هذا الكتاب في سبعة ابواب (او كتب كما يسميها المؤلف) خصص الاول منها لنقد المقاييس المستعملة في عهده لدراسة الادب. فيبدأ بالمقياس السياسي الذي يقسم التاريخ الادبي طبقاً للعصور السياسية من جاهلي ومخضرم فأموي فعباسي، وهكذا الى الوقت الحاضر . وفساد هذا التقسيم عنده ان التطورات الادبية لا تنطبق دائماً على التطورات السياسية بل قد تختلف عنها احياناً. يقول المؤلف[1]:

---

١) راجع الطبعة الثانية من الكتاب ص ٤٩

« وليس معنى هذا اننا ننكر الصلة بين الادب والسياسة وانما نريد ان لا نسرف في امر هذه الصلة حتى تصبح السياسة مقياساً للادب . ونريد ان لا نأخذ السياسة على علاتها كما نأخذ الادب على علاته . وانما الاحتياط محتوم في هذا . فقد يكون الرقي السياسي مصدر الرقي الادبي ، وقد يكون الانحطاط السياسي مصدر الرقي الادبي ايضاً . والقرن الرابع الهجري دليل واضح على ان الصلة بين الادب والسياسة قد تكون صلة عكسية في كثير من الاحيان فيرقى الادب على حساب السياسة المنحطة » .

ثم يأخذ المقياس العلمي الذي حاول نقاد فرنسا كسانت بوف (Saint Beuve) وتاين (Taine) وبرونتيار ونظرائهم ان يطبقوه على الادب الفرنسي - وقد جرى بجرامم بعض النقاد عندنا في دراسة الادب العربي. ويرى المؤلف ان هذا المقياس انما يصلح في تحقيق النصوص والتاريخ . واما فهم النصوص ونقدها فلا بدّ فيها من الذوق الفني ، فمذهب سانت بوف هو درس الادب بدرس نفسيّة الاديب واثرها في ادبه . ومذهب تاين درس البيئة وتحقيق المؤثرات التي احدثت الكاتب أو الشاعر . واما الثالث فينظر في الادب من حيث انه نتيجة التطور الذي يخضع له الادب كما يخضع له الاحياء . وهنا يتساءل المؤلف : « أوفّقوا فيما حاولوا ؟.. وجوابه كلا - لم يوفقوا ولا يمكن ان يوفقوا ، لا لشيء الا لما قدمناه من أن تاريخ الادب لا يستطيع بوجه من الوجوه ان يكون موضوعيّاً صرفاً وانما هو متأثر اشد التأثر بالذوق ، وبالذوق الشخصي قبل الذوق العام » [1] .

وهناك المقياس الادبي : وهو يقول باتخاذه سبيلاً الى البحث عن ادب اللغة وتاريخه ويشترط فيه على الناقد « تجنب الاغراق في العلم كما يشترط تجنب الاغراق في الفن». ويراد بالاغراق في العلم الانصراف التام الى الناحية الموضوعية من الادب بحيث يصبح الادب « عبارة عن احكام تقريرية جافة مجدبة » .

---

١) المصدر نفسه ٥٨

ويراد بالاغراق في الفن ان يعتمد الكاتب كل الاعتماد على ذوقه الشخصي ، فيصبح تاريخ الادب عبارة عن صور معكوسة عن ميول الكاتب لا محاولة فيه للبحث والاستقصاء ، ولا تجرد فيه عن الهوى. والسبيل القويم وسط بينهما .

فان مؤرخ الادب يجب ان يجمع في نفسه بين امرين – اولهما الاطلاع الوافي على علوم اللغة وتاريخها لكي يكون قادراً على تحقيق النصوص وضبطها وفهمها واستخلاص ما فيها من خصائص لغوية او نحوية او بيانية. وثانيهما الذوق الفني ليكون قادراً على ادراك الجمال الفني وعلى النقد الادبي الصحيح .

ولن يكون تاريخ حقيقي للادب الا اذا وجد من يتم فيه هذان الشرطان الاساسيان ، على ان يتمتع بالحرية التامة فيدرس الادب لنفسه لا كوسيلة لغاية علمية او لغوية او دينية او سياسية .

وبعد هذه المقدمة يصل بنا الى صلب الموضوع فيعالجه بتفصيل تام . وفي معالجته يعتمد نظرية ديكارت وهي « الشك حتى يتبين الحق » . وقد قاده ذلك الى الشك في ما رواه القدماء عن الجاهليين واشعارهم . وما زال يبحث ويفكر حتى توصل الى هذا الحكم : ان الكثرة المطلقة من الادب الجاهلي ليست من الجاهلية في شيء وانما هي منتحلة بعد ظهور الاسلام . وعنده ان مرآة الحياة الجاهلية يجب ان تلتمس في القرآن لا في الادب الجاهلي . ويدعم نظريته هذه بما يلي :

١ – ان الشعر الجاهلي لا يمثل حياة الجاهلية الدينية او الاجتماعية والعقلية كما يمثلها القرآن .

٢ – ان الشعر الجاهلي لا يمثل اللغة الجاهلية اذ هو يجعل اللغة القحطانية واللغة العدنانية واحدة مع انها مختلفتان. وهذا دليل على ان ما روي من الشعر لعرب الجنوب منتحل في الاسلام .

٣ – ان الشعر الجاهلي لا يمثل اللهجات العدنانية مع ان هذه اللهجات كانت

ظاهرة في القراءات المختلفة للقرآن قبل أن يوحدها الخليفة عثمان في مصحفه الامام .

وليس الانتحال مقصوراً على العرب فقد حُمل على اليونان والرومان اشعار كثيرة . لكن العلماء في اوروبا قد استفادوا من منهج الشك فغيروا نظرهم الى تاريخ اليونان ، واما العرب فظلوا غير متأثرين بهذا المنهج وهكذا لم يخلصوا تاريخهم من الاوهام والاساطير . اما اسباب الانتحال في تاريخهم فيعرضها كما يلي :

١ - العصبية والمنافسات السياسية : ومن امثلتها تلك العداوة التي كانت بين مكة والمدينة (او قريش والانصار) وما حدث بينها من وقائع وما قيل من اشعار ، ثم التنافس على الخلافة وقيام الاحزاب المختلفة. كل ذلك دفع المتنافسين الى انتحال اشعار اضيفت الى الجاهلية تعظيماً لقوم دون قوم او لفئة دون فئة . فكل شعر يؤيد عصبية يجب الشك فيه .

٢ - العصبية الدينية : ومن أمثلتها ما وضع على ألسنة الأنس والجن في الجاهلية من اقوال في صحة النبوءة وفي تعظيم شأن النبي واسرته ، ثم ما سبّبه الجدل بين المسلمين وغير المسلمين من وضع اشعار كثيرة كالتي تثبت اوليّة الاسلام في الجاهلية ، او التي تضاف الى القبائل اليهودية والمسيحية .

٣ - القصص : وهو وثيق الاتصال بالدين ، وقد ازدهر قبل عصر التدوين ايام بني امية وصدراً من العهد العباسي . وكان القصّاص يتحدثون الى الناس في المساجد فيذكرون لهم اخبار العرب والعجم وما يتصل منها بالنبوّات ، ويفسرون القرآن والحديث ويمضون في اخبار الفتوح والمغازي الى حيث يستطيع الخيال . وكانوا يزينون قصصهم بالشعر ويلفّقون منه الشيء الكثير . وقد فطن الخلفاء والأمراء لقيمة القصص من الوجهة السياسية والدينية فأصبح اداة للدعاية كالشعر .

فالكثرة المطلقة من هـذه الاخبـار والاشعار عن العرب والعجم قبل الاسلام موضوعة لا شكّ .

٤ — الشعوبيّة: والخصومة بين الشعوبية والعرب معروفة. فكانت الشعوبية تنتحل من الشعر القديم مـا فيه عيب للعرب وغضٌ منهم ، وينتحل خصومها مـا فيه ذود عن العرب ورفع قدرهم . ويمثل الفريق الاول ابو عبيدة والفريق الثاني الجاحظ .

٥ — رواة الادب واللغة : وأشهرهم حمّاد زعيم اهل الكوفة، وخلَف زعيم أهل البصرة ، وكلاهمـا كانـ مسرفاً في وضـع الاشعار على ألسن الجاهليين . وكان كثيرون يتخذون الرواية وسيلة للارتزاق فينتحلون ويلفقون في اقوال القدماء مـا يشاؤون . وقد فطن العلماء الى ذلك ولكن اكثر ما روي ظل مقبولاً ونقل من جيل الى جيل على انه صحيح .

وبعد ان انتهى المؤلف من عرض اسباب الانتحال التفت الى قضية اخرى وسلّط عليهـا مبضع الشك والتجريح ، وهي قضية تنقّل الشعر في القبائل . قال : « يزعم الرواة ان الشعر بدأ في اليمن فانتقـل الى ربيعـة ثم الى مضر . فهل نقبل هذا القول على علاته ؟ وهل كانـ لليمن وغيرهم شعراء كما يزعمون ؟ ذلك مــا يسأله ثم يخصص للجواب عنه بابين من الكتاب (الرابع والخامس) خلاصتهما :

الشعر في اليمن : كان القدماء يعتقدون بمـا يرويه الرواة عن شعراء نبغوا في الجنوب ، ولكن المؤلف ينكر ذلك ويرفضه. ومن أمثلة هذا الشعر المنكر القصيدة المنسوبة الى مضاض بن عمرو من اصهار اسماعيل ، ومن ابياتها :

كأن لم يكن بين الحجون الى الصفا أنيس ولم يسمر بمكة سامر

وكذلك ما يروى للحِميريين كحَسّان بن تبّع وسواه ، فلو صحّ كل ذلك

لكانت العربية ايام اسماعيل مثل لغتنا اليوم . الواقع انه ليس لليمن في الجاهلية شعراء ، كما ان حظها من الشعر في الاسلام ضئيل . واذا قيل ان امرأ القيس من قبيلة يمنية فهل ننكره ؟ كان الجواب اننا لا ننكر انه كان شخصاً حقيقياً ولكن ما نعرفه عنه لا يتجاوز حد الاساطير ، ونرجح ان اكثر ما كتب في سيرته منحول .

الشعر في ربيعة : ولئن يكن حظ ربيعة من الشعر الجاهلي أكبر من حظ اليمن، فما لا يشك فيه المؤلف ان أكثر الشعر المنسوب إلى ربيعة مصنوع في الاسلام . فلو راجعنا اخبار شعرائهم كالمهلهل وعمرو بن كلثوم والحارث والاعشى وطرفة والمتلمس ، لوجدنا ان اكثرها اساطير لا حقائق تاريخية .

الشعر في مضر : لما كان اكثر شعراء مضر ممن ادركوا الاسلام فان المؤلف يقف منهم موقفاً غير موقفه من شعراء اليمن وربيعة . فهو يرى انه قد كان لمضر شعر جاهلي، ولكن لم يبق منه غير القليل . وقد حُمل عليهم شيء كثير فكيف يمكننا التمييز بين الصحيح والمحمول ؟ « يقول لا نستطيع التمييز بينهما بالاعتماد على غرابة اللفظ او بداوة المعنى . فليست الغرابة اللفظية دليلاً على جاهلية ولا بداوة المعنى ، اذ لم يكن كل الجاهليين من سكان البادية . وانما يعتمد على القاعدتين التاليتين :

١) على ملاءمة الشعر للحياة البدوية آخر العصر الجاهلي . وهذه الحياة نستطيع ان نتصورها بفضل القرآن والحديث .

٢) على الخصائص الفنية اذا جاءت سلسلة في طائفة من الشعراء كالتي نراها في زهير ومن جرى مجراه . ويطلق عليها اسم المدرسة الزهيرية وهي تمتاز بالتصوير الحسّي والتفنن البديعي ويمثلها اوس وزهير وكعب ابنه والحطيئة والنابغة .

فعلى هذا القياس المزدوج المركّب من ملاءمة الحياة البدوية كما يصورها

القرآن ، ومن غلبة التصوير الحسي والتفنن البديعي ، يمكننا ان نحكم على ما كان لمضر من شعر صحيح في الجاهلية .

★

وينتهي الكتاب ببابين قصيرين نسبياً احدهما في الشعر وفنونه وبحوره ، والثاني في النثر الجاهلي .

وخلاصة الاول ان الشعر العربي لم يكن قط قصصياً او تمثيلياً بل كان غنائياً لا غير ، وان الغزل لم يصبح فناً تاماً إلا في الاسلام ايام بني امية. ولا يتسع المقام لعرض هذا الكتاب وما فيه من نظرات نقدية . يكفي ان نقول انه بحقٍّ يعدُّ رائد النقد التاريخي الحديث . ورأينا فيه ان قوته قائمة على ثلاثة امور هي :

١ – جرأة المؤلف في اعتماده الشك توصلًا الى الحقيقة .

٢ – مقدرته في حمل القارىء على رؤية ما يراه هو .

٣ – تجرده عن كل ما يحول دون البحث العلمي .

وقد اخذ عليه اسرافه في الشك واعتمادُه الظن احياناً او الترجيح في ارسال الحكم العام .

كان كتاب « في الشعر الجاهلي » فاتحة عهد جديد في النقد الادبي . فمنذ ظهوره شرع الكتّاب والباحثون يعالجون هذا الموضوع من شتى نواحيه. وبين يدي المؤلف وهو يكتب هذا الكلام نحو خمسين مؤلفاً نقدياً نشرت في خلال الثلاثين سنةً الاخيرة ، ولا نبالغ اذا قلنا ان مجموع ما نشر حتى الآن قد بلغ المئة او اكثر .

وقد اصدر طه حسين بعد كتابه « في الشعر الجاهلي » عدداً من الكتب والمقالات التي لفتت اليها الانظار امثال « حديث الاربعاء » و « مع المتنبي » و « من حديث النثر والشعر » و « فصول في الادب والنقد » وسواهـا .

هذا فضلاً عن كتاب « ذكرى ابي العلاء » .

وعلى أثر ما نشره عن الادب الجاهلي تصدى له عدد من النقاد في كتب ومباحث ومقالات مثل محمد فريد وجدي ، ومحمد احمد الغمراوي ، ومحمد لطفي جمعه في «الشهاب الراصد» ، ومصطفي الرافعي في «تحت راية القرآن» ، ومحمد الخضر حسين ، ومحمد الخضري ، ومحمد حسين . وسواهم وانتصر له عدد فحدثت بينهم مشادة شغلت الصحف والمطابع حيناً من الزمن ، ثم هدأت .

على ان حركة النقد الادبي نفسها ظلت مستمرة . فأقبل كثيرون على درس ما كتبه نقاد الغرب في هذا الموضوع . وهكذا ظهرت ترجمات في قواعد النقد الادبي واصوله ومذاهبه ودراسات شتى في الادب وخصائصه ، والجمال وعناصره ، والنقد وأسسه ، وما الى ذلك من هذه المباحث الفنية. ورافق ذلك دراسات خاصة لنتاج بعض الادباء والشعراء ، ومحاولات لوضع مقاييس جديدة تعتمد في الحكم على الشعر او النثر والموازنة بين اثر واثر .

ولننظر مثلاً في مشاكل الشعر وموقف النقد الحديث منها ، واهمها خمس هي [1] :

١ – الوضوح والغموض في المعنى – اي قرب المعاني وبعدها وأيها معوّل النظم في الادب الحديث .
٢ – الموضوع الشعري – اي الغرض الذي يرمي اليه الشاعر او الرسالة التي يحملها الشعر .
٣ – التصميم الفكري – أي تنظيم العواطف والصور الشعرية وربطها بخطة موحدة .
٤ – الاخراج الفني – ويتناول الايقاع الشعري واساليب النظم المختلفة .
٥ – التحسين البياني – اي النظر في المحسنات البديعية والى ايّ مدى يحسن استعمالها .

١) نعتمد في عرضها فصلاً من كتابنا «مقدمة في دراسة النقد الادبي» .

الوضوح والغموض :

عرف نقاد العربية القدماء مشكلة الوضوح والغموض ولم يفتهم ما المستحسن والمستهجن في كلٍّ منهما. وكما اتفقوا على ذم التعقيد الناشيء عن تنطس وحوشيّة في اللفظ او سوء تركيب في العبارة او تصنع في عرض المعاني، اتفقوا ايضاً على ذمّ الابتذال والإسفاف واللين المتناهي ، وامتدحوا المعاني البعيدة التي انما يُتوصل اليها بإعمال الفكر والغوص الى الاعماق . فهناك اذن وضوح جيد وغموض جيد . وهما مذهبان معروفان عند البلغاء ، وكان يمثّل المذهب الاول ابو العتاهية والبحتري وطبقتهما من المولدّين ، ويمثل المذهب الثاني ابو تمام والمتنبي ونظراؤهما . وعلى ذلك جرى الشعر العربي مع الاجيال . فكان منه العذب البيّن المقاصد ، والجزل البعيد مطارح الفكر . وما زال حتى طغت عليه في آخر عهود انحطاطه موجة التقليد فذهبت جدّته وخمدت جذوته ، وغلبت عليه النزعة الى تكلف الحوشي والتغارب البديعي والإسفاف المعنوي . ثم جاءت النهضة فاتحةً للمتأدبين آفاقاً جديدة من المعرفة والاختبار . فكان ذلك ايذاناً بظهور حركة جديدة في الاوساط الشعرية اطلق عليها اسم « **الرومانتيكية** » . وقد نتج عن هذه الحركة ميل عامٌ الى التحرُّر من قيود التقليد والانطلاق في التعبير عن عواطف النفس والسبح في عالم الخيال . ومن مزاياها تجنُّب التغارب اللفظي والزخرفة البديعية والتعقيد المعنوي ، وهي مزايا الاسلوب المعروف نثراً وشعراً بالاسلوب السهل الممتنع. على ان السهولة الممتنعة ليست بالامر الهين. واذا كان بعض الشعراء قد ملكوا زمامها فكثيرون قد افلت هذا الزمام من ايديهم فأصبحت السهولة الشعرية على ايديهم إما ابتذالاً وضعفاً ، او كأنها نثرٌ عاديٌّ ليس فيه ما يحرك النفس او يسمو بالفكر والخيال . ولم ينج من هذا العيب احياناً بعض شعراء عصرنا البارزين .

وكردِّ فعلٍ لذلك ظهرت قُبيل الحرب العالمية الثانية حركة جديدة اخرى هدفها تجديد الشعر بتحريره من الابتذال اللفظي والتميّع العاطفي . واصحابها

فئتان : وهما تتفقان في توخي الروعة الفنية ، وتختلفان في سلوك السبيل اليها . فالاولى – ولنطلق عليها اسم « الرومانتيكية الجديدة » تراها في البيان المعنوي والتسامي الخيالي . والثانية – وهي الرمزية تراهـا في الايقاع اللفظي والايماض الفكري . الاولى تعتمد التصوير المشرق والثانية تعتمد الايحاء الغامض .

تجاه هاتين الطريقتين او النزعتين يقف النقد اليوم في شيء من التردّد ، الا انه من الانصاف العلمي ان نقول ان الذوق العربي العام ، وان يكن قد اصبح يأنف الوضوح المبتذل والسهولة المائعة ، لا يزال اكثر ايثاراً للاشراق المعنوي منه الى الوميض الخاطف الذي يبدو خلال غيوم كثيفة من الغموض .

الموضوع الشعري :

ذهب قدامة الى ان البلاغة لا تتوقف على مادة الكلام او موضوعه بل على مـا فيه من حسن صناعة . ويجعل الشاعر كالنجار فيزعم ان المهم ليس الخشب بل ما يصنعه النجار من الخشب . وليس قدامة وحيداً في هذا الرأي فهناك من يشاركه فيه من القدماء والمحدثين . على ان في هذا الرأي شيئاً من الصحة لا كلها . فالفن الحقيقي ليس مجرد صناعة لا غير – حتى في مصنع النجـار تختلف قيمة المصنوعات (مهما تساوت في الاتقان) بالنسبة الى مـادتها وفائدتها . ولا نريد القول ان القيمة الذاتية لقطعة ادبية راجعة الى مـا فيها من فائدة مادية او معنوية . ولكننا نقول ان وراء الصنعة شيئاً آخر حرياً بالاعتبار . ففي الادب إشباع لحاجات النفس وعواطفها . على ان حاجات النفس كثيرة ومتنوعة ، منها القريب البسيط ، ومنها البعيد المركب ، وبالنسبة الى هذه الحاجات وما يتبعها تتفاوت درجات الادب .

ولو رجعنا الى دواوين شعرائنا في كل جيل لوجدنا في شتىّ ابوابها من لطائف النظم ما يحق لنا ان ننعته بالجودة والجمال . ولكن هل كل هذه اللطائف شعر عظيم ؟ هل كلها من الرفيع الذي يسمو بالفكر ويفتح للنفس آفاقاً ما كانت لتراها من قبل ؟.. ان الشعر من حيث التعبير قد يكون بليغـاً مطرباً ، حتى

ولو كان من باب المديح التزلّفي او الاقذاع المجاني او المزل المجوني او السفه الجنسي ، وغير ذلك من توافه الاغراض . ولكننا مع ذلك لا نعدّه رفيعاً او عظيماً ، لأن الرفعة او العظمة تقرن الى بلاغة التعبير سموّ الاختبار فلا تقف عند حد المهارة البيانية لعرض موضوع تافه او بسيط ، بل تحاول ان تدرك حقائق الامور فتربط ظواهر الحياة بقيمها الروحية . وعلى هذه العلاقة المعنوية تتوقف عظمة الشعر بل عظمة كل فن .

وقديماً قال ارسطو في كتابه الشعر (Poetica) [١] ان الشعر هو اوفى الفنون تعبيراً عن العنصر الكوني (Universal Element) الموجود في الحياة والانسان . ففيه تتجلّى الحياة البشرية مصفّاة من العرضي (Accidental) محررة من ربقة البيئة المادية . واذا كان الشعر والفلسفة كلاهما يحاولان التعبير عن هذا العنصر الكوني (او الحق المطلق) فهما يختلفان في ان الشعر يعبّر عنه بواسطة التصوير الحسّي — الفلسفة تحاول ادراك الحق بالفكر المجرّد ، أما الشعر فيلبسه ثوباً من الجمال المحسوس .

ان قول البعض « الفنُ للفن ذاته » يعني ان اساس الحكم في الشعر يجب ان يقتصر على كيفية التعبير عمّا يحسّ به الشاعر . ولو وقفنا عند هذا الحد لضاق افق النقد الادبي وانحصر في دائرة الصناعة فاستوى الشعر العظيم مع غير العظيم . والواقع ان الشعر فن ورسالة . وجودته درجات لن يبلغ اسماها إلا الخيال المحلّق في جو الفكر العالي . ومن الخطأ السيكولوجي أن نتوهم كما قد يظن البعض وجود خصومة بين العاطفة الشعرية الصافية وتسامي الصور الفكرية . ولو ألقينا نظرة على عظماء الشعراء الذين سموا في عالم الابداع ، لما رأيناهم قد انفصلوا عن الحياة ليعيشوا في فراغ لا معنى له .

فالفن ذو وجهين : ذاتي ويتعلق بالفنّان وأسلوبه ، وموضوعي ويتعلق بالانسانية التي هو جزء منها . وليس الشاعر من يطرب النفس فقط بحسن قوله،

---

١) الترجمة الانكليزية بقلم Butcher — الصفحات — 192 , 191 , 163

بل من ينير الناس سبل الحياة فيريهم حقيقتها ويطلعهم على ما يواجهون فيها [1].

وقد أصاب احد كتاب العصر اذ قال مدافعاً عن الفكر في الفن : « والفن اذا لم يرفده الفكر كان مجرّد احلام ساذجة وأخيلة تافهة شاردة لا تتصل بالنفس ولا بالحياة.. الفكر هو طاقة الفن الكبرى وهو مصدر إلهامه الاعظم، والفكر لا يكون كذلك إلا حين يصبح جزءاً من الفنان وعنصراً من وجوده الفني ، وحينذاك يصبح توجيه الفكر للفن صادراً من ذات الفنّان لا من عالم خارج عن ذاته. فأي خطر على الفن من هذا اذن ؟ [2]. ويقول في موضع آخر [3]: «بمقدار مايغتني العقل بالخبرة والمعرفة، يغتني الوجدان وتغتني العاطفة بالانفعالات الرفيعة . وكلما اكتسب العقل جديداً من الافكار والمفاهيم والقيم الكونية والانسانية ، اكتسب الوجدان والعاطفة رصيداً من الاحاسيس ارقى واعمق وانبل . وبهذا تكون الاحاسيس الساذجة عند ذوي العقول الساذجة، وتكون الانفعالات السطحية والالهامات العادية عند ذوي المدارك البسيطة او ذوي الجهل والغباء » .

ونزيد على ذلك ان بعض الباحثين في اصول الفن لا يفرقون بين الغاية والفكرة ، فهم في حملهم على من يدعو ان يكون للفن غاية مادية او روحية او اجتماعية — يخلطون بين الفِكَر العالية والغايات التي تقيّد الفن ضمن حدود ضيقة وتستعبده لاغراض خاصة . والنقد الحقيقي لا يدعو الى مثل هذه الغايات لانه يجب ان يكون الفن حراً طليقاً ، ولكنه يرى ان عظمته لا تشرق الا في اجواء الفكر العالية . ان الشاعر الحقيقي لا يفكر ثم ينظم ما توصل اليه بالتفكير، ولكنه بطبيعته مفكر مدرك الحقائق، وما شعره الا تصوير لادراكه الطبيعي واحساسه الخفي. هو لا يفكر بوعي في الحياة والطبيعة ، ولكنه يعي

---

١) راجع قول طاغور في كتاب على هامش الادب والفن ص ١٥٤

٢) مع القافلة ١٩٥٢ لحسين مروة ص ٨٩ .

٣) جريدة الحياة بيروت العدد ٣٤٤٥ .

دون تفكير ما تخفي من معانيها ويجسّم ذلك الوعي في كلامه الموسيقي .

واذا قيل ان للشاعر غاية واحدة هي والابهاج، فذلك لا ينافي ان يكون له رسالة عليا ، كما انه لا يعني أن المرح واللذة هما غايته المباشرة . فالمآسي مثلاً لا تهدف الى ذلك، ولكنها رغم الفاجعة تثير فينا اسمى العواطف والاحاسيس. وذلك مـــا نشعر به في المراثي الرائعة وسائر المواقف المؤثرة . ونحن لا نقرأ الشعر النفيس لنسرّ به ، بل لندرك جماله وبأدراكنـا الجمال نحصل على السرور الداخلي . ومن الطبيعي ان يتسامى سرورنا كلما تسامت درجة الجمال فشتان بين سرور يحصل من نكتة بيانية في كلام صقيل ، وسرور يحصل من فكرة رائعة مجلوّة في تعبير جميل .

ان الفن قائم على تأثر النفس بمـــا في الوجود من جمال يجذبنا اليه او قبح ينفّرنا منه . وليس الانجذاب الى الجمال أو النفور من القبيح الا تشوقاً روحياً الى اسمى ما يتصوره الانسان المفكر في الحياة . وهذا يوافق قول القائلين اليوم ان غـاية الفن هي ان يبهج لا ان يعلّم او يوجّه [1] . على ان الابهاج السامي لا يمكن ان يتأتى عن مقاييس سافلة او فهم ضيّق محدود . والى مثل ذلك يذهب شاعر الهند طاغور اذ يقول « ان الغاية من الفنون والادب هي اظهـار الحقيقة الأزلية وجعلها واضحة ملموسة » (المقتطف ٧٠-٢٦)) ويقول في مكان آخر ان الفن العالي ذو مرام عالية وفيه تجد النفس ما تتوق اليه من معاني الحياة [2] .

ولقائل ومـا ضرورة المرامي العـالية في الشعر . أليس الشعر مجرّد تعبير موسيقي عن العواطف ، وفي هذا التعبير ما تصبو اليه النفس من جمال ؟ أجل! انه لكذلك . ولكن الجمال كما ذكرنا ليس نوعاً واحداً . فمنه المحدود ومنه المطلق ، ومنه القريب ومنه البعيد، ومنه الذي يعطينا شيئاً من البهجة المؤقتة ،

١) وقديماً قال ابن رشيق وانما الشعر مـــا اطرب وهز النفوس وحرك الطباع . فهذا هو باب الشعر الذي وضع له وبني عليه لا ما سواه (العمدة ١ — ٢)

٢) راجع ما نقله علي ادهم من آراء طاغور في كتابه على هامش الأدب والنقد ص ١٥٤

ومنه ما يرفعنا الى ذروات الوجود . فالقول ان الفن هو التعبير عن اختبارات النفس لا يمنعنا من القول ان اسماهُ مـــا عبّر عن اسمى الاختبارات أو مـــا انعكست فيه الانسانية بأشواقها واحلامها وهواجسها وآلامها . كل قصيدة هي تجلٍّ رائع لبعض معاني الحيـاة – هي اشراق من عـالم تسوده القيم الروحية . ويعبّر عن ذلك احد شعرائنا المصريين بقوله: « الجمال تعبير عن الحياة ولكن ليس تعبيراً عن اية حياة – هناك اشكال من الحيـاة قلقة مشوهة تشويهاً عنيفاً لا تستطيع ان تكون خليقة بأكثر من قرفنا او احتقارنا او شفقتنا ، ومن النفوس ما هي مبتلاة بحياة شاذة مضطربة حياة الاثم والشهوات – التعبير عن حياة غنية منسّقة وحده يوقظ حنيننا واعجابنا وحماستنا » [1] . والحيـاة الفنية (اي التجلي الفكري الرائع) قلما تنفصل عن التعبير الرائع. وانك لتدرك ذلك بمقابلة الشعر العالي بالشعر الهاوي المبتذل . خذ مثلاً قول بعضهم في فوائد السفر (عن مجاني الادب ٣ – ٢٤٢) :

باتت تصدّ عن النوى　　وتقول كم تتغرب
ان الحياة مع القناعة　　َالمقـام الاطيـبُ
فأجبتهـا يا هـذه　　غَيري بقولك خلب
ان الكريم مفارق　　اوطـانه اذ تجـدب

فهذا كما ترى كلام لا روعة فيه ولا ماء . وانما هو افكار ساذجة في تعابير ساذجة فلا تحرك نفوسنا او توسع دائرة اختبارنا لترفعنا عن العادي في حياتنا . ولكي تدرك مبلغ سذاجتها قابلها بقول ابي تمام في المعنى نفسه :

ولكنني لم احوِ وفراً مجمّعاً　　ففزت بـه الا بشمل مبـدّد
ولم تعطني الايام نوماً مسكّناً　　الذّ بـــه الا بنوم مشرّد
وطول مقام المرء في الحي مخلق　　لديبـــاجتيه فـاغترب تتجـدد
فأني رأيت الشمس زيدت محبة　　الى الناس ان ليست عليهم بسرمد

١) صلاح لبكي في كتابه لبنان الشاعر ص ٣٢ .

ففي هذه الابيات نور يشرق عليك من وراء الالفاظ والعبارات فيريك من مجالي الجمال مـا ينعش نفسك ويسمو بشعورك . ولو اردت ان تحلل هذا النور لبدا لك فيه: ١) عذوبة موسيقية تهتز لها اوتار القلب ٢) شعور بالعظمة المجاهدة المنتصرة على الشدائد . ٣) انطلاق روحي يشعر بـه القـارىء او السامع لأن الشاعر قد عـبّر له عن عواطف مكبوتة في كيانه الداخلي يودّ هو التعبير عنها ولا يستطيع . ٤) تصوير جميل يلبس المعاني حللاً من الالفاظ والخيالات تحببها الى النفس وتؤثر في الوجدان .

هذا هو التعبير الجميل عن الحياة الجميلة – الائتلاف الاخاذ بين الفكر العالي والخيال البعيد والايقاع اللفظي .

وانك لتجد ذلك في كل ابواب الشعر لا فرق بين وجداني وموضوعي، بل وفي كل انواع النثر الفني الذي يجلو لنا مشاهد الحياة ويفسر معانيها – كقول جبران مثلاً من مقال له في « العواصف » موضوعه «نحن وانتم» يقابل فيه بين ارباب الفن وذوي الملاهي والترف :

«نحن ابناء الكآبة – نحن الانبياء والشعراء والموسيقيون . نحن نحوك من خيوط قلوبنا ملابس الآلهة ونملأ بحبّات صدورنا جفنات الملائكة. وانتم – انتم ابنـاء غفلات المسرات ويقظات الملاهي – انتم تضعون قلوبكم بين ايدي الحلوّ لان اصابع الحلو لينة الملامس ، وترتاحون بقرب الجهالة لان بيت الجهالة خـال من مرآة ترون فيهـا وجوهكم . نحن نتنهد ومع تنهداتنا يتصاعد همس الزهور وحفيف الغصون وخرير السواقي . امـا انتم فتضحكون وقهقهة ضحككم تمتزج بسحيق الجماجم وحرتقة القيود وعويل الهـاوية . انتم بنيتم الاهرام من جمـاجم العبيد ، والاهرام جالسة الآن على الرمال تحدث الاجيال عن خلودنا وفنائكم . ونحن هدمنا الباستيل بسواعد الاحرار ، والباستيل لفظة ترددها الامم فتباركنا وتلعنكم » .

وكما تجد هذا الفرق في الروعـة بين قطعة ادبيـة واخرى تجده بين مصنّف

ومصنف في موضوع واحد كالروايات وسواها من كتب الادب . ومرجعه ما اشرنا اليه من تفاوت في التسامي الفكري .

التصميم الفكري .

ممّا يكاد يتفق عليه الباحثون في تاريخ الادب العربي ان النظم قديماً كان قائماً على وحدة البيت واستقلاله . فكانت القصيدة الواحدة في الغالب تجمع بين اغراض شتى كالغزل والوصف والحكم والمديح . وكثيراً ما تجيء هذه الاغراض مستقلاً بعضها عن بعض حتى كأن لا علاقة للواحد بالآخر. وقد لحظ نقادنا القدماء ذلك فأنكروه وامتدحوا حسن التخلص ولطف الخروج من غرض الى غرض ليتم الاتساق بين اقسام الكلام [١] . على ان تقدم على ما يظهر لم يغير مجرى النظم العام . فظل الشعراء في كل العهود – يتبعون الطريقة التقليدية التي وضعها ابن قتيبة في مقدمة كتابه « الشعر والشعراء » مع بعض تعديل يقتضيه الزمان والمكان . والواقع ان الشعر القديم لا يخلو من قصائد موحدة الاغراض او العواطف ولا سيما ما كان من باب الغزل او الرثاء او الزهد . ولكن هذه القصائد لا تخرج عن كونها مجموعة من ابيات مستقلة ضمن اطار من التأثر النفسي . وقد ظل النقاد حتى عهد متأخر يرون ان يكون البيت في القصيدة قائماً بنفسه لا يحتاج الى ما قبله ولا الى ما بعده الا في سرد الحكايات [٢] . وتلك عند التحقيق طبيعة الشعر الغنائي وهو الشعر الذي عرفه العرب قديماً وقلما مارسوا سواه. وليس هذا النوع من الشعر بأقل جودة وبلاغة من سواه . ويمكن القول ان العرب اتوا منه ببدائع تذكر لهم مدى الاجيال، وستظل ابداً منهلاً من مناهل الفن والجمال . على ان الشعر الغنائي بطبيعته لا يتطلب توجيهاً نحو هدف معين او تصميماً منسجم الخطوط مركزاً على فكرة رئيسية . فما هو الا عواطف تجيش في الصدر ثم لا تلبث ان تظهر بالكلام

١) راجع كلام ابن الاثير في الاقتضاب والتخلص – المثل السائر ص ٢٦٨ .
٢) العمدة ١ – ١٧٥ ومقدمة ابن خلدون (بيروت) ٥٦٩ .

الموزون دون قصد ترتيب او تصميم . وانما يكون التصميم في الشعر الذي يوحيه النظر الى موضوع خـاص تبنى القصيدة عليـه كما تبنى الصروح الجميلة . كما ترى الملاحم البطوليّة والتأملات الفكرية والنظرات الانسانية والعبر الاجتماعية ، وما الى ذلك مما يخرجه الفن قصائد او موشحات او ملاحم او قصصاً وروايات .

والذي يلاحظ ان شعرنا الحديث قد اخذ يتجه هذا الاتجاه . وان النقد الحديث ينشّطه على سلوك هذا السبيل لما يراه فيه من مجال اوسع للتحليق في جو الخيال والفكر . ذلك ان العصر الحاضر قد ملّ الاغراض التقليدية السائدة في دواوين القدماء فأصبح يتطلب التطور والتجديد [1] .

الايقاع الشعري ..

للشعر العربي ستة عشر بحراً رتبها او وضعها الخليل ابن احمد في القرن الثاني للهجرة . ولسنـا نعرف بالضبط كيف نشأت هذه الابحر والى اي عهد يرجع تاريخها . ولكننا نستطيع القول ان الشعر العربي عرف معظم اوزانها قبل عهد الخليل بل قبل الاسلام . وكان النظم يجري على طريقـة واحدة هي طريقـة القصيدة المستقلة الابيـات المتماثلة الروي ، وظل كذلك حتى عهد التوشيح والزجل في الاندلس . والقصيدة والموشحة تتفقان في المحافظة على قواعد العروض والإعراب ، وتختلفان في ان الثانية مؤلفة من ادوار (بدل الابيات) وانها لا تتقيّد تقيّد القصيدة ببحر واحد وروي واحد . وامـا الزجـل فهو نوع من التوشيح باللغة العامية .

ومنذ ان ظهر التوشيح الاندلسي استحسنه النـاس في جميع الاقطار ولم يلبث ان شاع في الشرق والغرب . على انه لم يستطع ان يحتل محل القصيدة ، بل بالعكس اخذ مع الزمن يتراجع امامها حتى تضاءل امره فظلّت هي محافظة على سيادتها كأوسع طريق للنظم .

١) راجع الامثلة في « مقدمة في دراسة النقد الادبي » ص ٦٦ - ٧١ .

ولما اشتد احتكاكنا مؤخراً بالآداب الغربية عاد التوشيح الى نشاطه الذي عرف به في العهود الاندلسية ، حتى اصبح عند الكثيرين منافساً قوياً للقصيدة. ولعل التوشيح الجديد الشائع في هذا العهد اوسع مدى واكثر حرية من التوشيح القديم . فقديماً كانت الموشحات محدودة الاغراض قلما تستعمل لغير المديح او الغزل والوصف . وكانت الموشحة عادة تقيّد بلازمة تنتهي بها الادوار. اما اليوم فهي تستعمل في شتى الاغراض دون التقيد بلازمة او قرار. وكثيراً ما نرى الوشاحين يفتنّون في نظمهم بين تقطيع وتفريع وتسميط وتشجير . بل قد يسترسلون في ذلك الى درجة يصعب معها التمييز بين الشعر المنظوم والشعر المنثور . والذي يراجع ما لشعرائنا في هذا الباب يستطيع ان يرى فيه اثر الادب الغربي .

والسؤال الذي امامنا : ما هو موقف النقد من طريقة النظم ؟ والجواب عن ذلك ان العنصر الموسيقي هو من اهم اركان الشعر فقد اجمع نقّاد العصور المختلفة على عده عنصراً حيوياً ، وشجبوا كل ما يضعفه او يخل بأحكامه . ولذا لم تنجح محاولة بعضهم في وضع ابحر جديدة لضعف العنصر الموسيقي فيها [1] . ويذهب جميل الزهاوي في مقال له ، موضوعه « تولد الغناء والشعر » الى ان لكل شاعر اليوم ان ينظم على اوزان يخترعها غير مقيدة بأوزان الخليل بشرط ان تكون خفيفة على السمع [2] . وكذلك لم ينجح من رام نظم قصائد مطلقة القوافي . اما الدعاة الى الشعر المنثور فقد احرزوا بعض النجاح كأمين الريحاني ومدرسته [3] . حتى ظهر منه بعض دواوين ، منها « نسمات وزوابع » لمنير الحسامي ، «بين احضان الابدية» لداهش ، «الحب الاحمر» لمصطفى هيكل ،

---

١) من ذلك محاولة مطران نظم قطعة على وزن فاعلاتن اربع مرات (مجلة الزهور مج ١ ج ٢). وبشر فارس قطعة على وزن فاعلاتن مفاعلتن وسماه المنطلق (الرسالة ٨ – ٨٩).

٢) راجع المقال في اخر ديوان زينب لابو شادي .

٣) راجع الاتجاهات الادبية للمؤلف ٢ ص ١٩٨ – ٢٠٠

ورباعيات الخيام لتوفيق مفرج ، وسواها . وانما كان نجاحها لتوخيها موسيقى الكلام ، على انها لا تزال بعيدة عن ان تنافس النظم الصحيح .

وفي عصرنا نزعة ظاهرة الى تعظيم الموسيقى في الشعر ، ولقد تطرّف البعض فحصروا العنصر الشعري بموسيقى الابيـــات حتى انهم لا يحسبون للافكار او للعواطف حساباً (١) . ومنهم بعض الرمزيين الذين يرون في الايقاع الصوتي الحاصل من تلاؤم الحروف والالفاظ نشوة هي عند التحقيق غاية ما يرام من الشعر ، ولعلهم دفعوا الى ذلك لما رأوه من خمود الموسيقى في كثير من النظم الحديث الذي بدوره تطرّف اذ جعل العنصر الفكري اساسه الاعظم وغايته المثلى .

والذي لا شك فيه ان النقد الحديث يشجب الجمود أو الخمود العاطفي في الشعر، فهو يدعو الى الايقاع الموسيقي. ولعل في التوشيح العصري مجالاً اوسع لذلك . ففي هذا العصر ميل ظاهر اليه ذلك لأن الذوق العـــام لم يعد يحفل بالجري على وتيرة واحدة كما هي الحال في نظم القصائد التقليدية ، اذ هو يفضل التنوع المؤتلف لانه يعبر بسهولة أكثر عن الاختبارات العــاطفية والحركات الفكرية . على ان هذا الايقاع لا ينحصر في الجانب اللفظي من النظم — فكم من منظومات جيدة السبك ولكنها لا تحرك النفس ولا تحدث بها تلك النشوة العاطفية العالية . ذلك لأن الموسيقى الشعرية الحقيقية إنما هي موسيقى الافكار والعواطف — تلك النشوة المعنوية التي اذا وجدت في النفس احدثت موسيقى الالفاظ ونفثت في الكلام روحاً حية محيية .

وللموسيقى الشعرية اساسان اولهما ما تشعر به نفس الشاعر من اهتزازات تنفعل من مؤثر ما . وثانيهما انها تتطلب التعبير عن ذلك الانفعال بالكلام . وكلما كان الكلام (لفظاً وتركيباً) ملائماً لحالة النفس من شدة ولين وسرعة وبطء وعلو وانخفاض ، كانت موسيقاه اروع واشد تأثيراً . وقد تنبّه الى ذلك النقاد

١) لبنان الشاعر لصلاح لبكي ٣٦ .

قديماً ، فقالوا مثلاً بمناسبة الرقيق من الالفـــاظ للمعاني الرقيقة كالحب والحزن والعتاب ووصف الرياض ومجالس الانس ، ومناسبة الجزل او الفخم للمعاني التي تقتضي الفخـامة والجلال كوصف المعارك وقوارع التهديد وخوض الاهوال ومخاطبة الرؤساء والاقيال . ولذلك عـاب نقادنا الحديثون ترجمة حافظ ابراهيم لرواية البؤساء اذ استعمل لها من اساليب الكلام البليغ ما لا يناسب موضوعهـا وروحها . وما يصدق على الالفاظ يصدق على الابحر الشعرية ، فلكل موقف او حال مــــا يناسبه من هذه الابحر . والشاعر المطبوع تهديه حاسته الفنية الى البحر الذي يصلح للتعبير عمـا في نفسه فيجيء كلامه عذبـــاً يحس قـارئه بمتعة الموسيقى فيه .

جاء في كتاب « فنون الادب » ما نصه [1] : « ولا شك ان صوت اللفظ جزء من معناه لو اردت المعنى كاملاً » . فلفظة جميلة الوقع في المسامع تخلع على مسمّاها لوناً من الجمال المجرد حسن وقعها وجمال رنينها . ولا نظن ان احداً يقرأ هذين البيتين دون ان يلمس اثر رنين الالفاظ في تكوين المعنى :

اذ مــــا غضبنـا غضبـة مضريّـة هتكنا حجاب الشمس او قطرت دما

. . .

فامطرت لؤلؤاً من نرجس وسقت وردا وعضت على العنـاب بالبرد

«اذن فمن ادوات الشاعر في التعبير ان يستخدم جرس اللفظ فيحاول ان يحاكي صوت الفعل الذي يصوره في صوت الالفـاظ التي ينظمها . فقد يكثر مثلاً من حروف الضـاد والطـاء ليدل على الطعن والضرب ، وقد يكثر من حروف السين والصاد ليدل على صليل السيوف ، او من حرف الراء ليدل على الخرير وهكذا . ثم هو يحاول ان يحاكي صوت الفعل الذي يصوره بنوع البحر الذي يختاره. فبحرٌ يصلح للحركة السريعة لسرعة تفعيلاته ، وآخر للحركة البطيئة

(١) هذا الكتاب في الاصل للكاتب الانكليزي H. B. Charlton عربه زكي نجيب محمود وطبق كثيراً من مبادئه على امثلة عربية (راجع منه ص ٥٩ — ٦٠).

لكثرة حروف المـد في تفعيلاته ... ولا ينشأ الاثر من كل لفظة على حدة بوجود تناسب بين صوتها ومعناها بل من تتابع الاصوات في سلسلة من الالفاظ وذلك ما نسميه بالوزن . والوزن اعظم ما يميز النظم من النثر » . وكلامه على العموم صحيح ، الا ان الشاعر اذا كان مطبوعاً لا يحاول ان يأتي بالالفاظ او الابحر المناسبة للمعاني بل هو عادة يساق اليها بحكم طبيعته . وهذا مما يميزهُ عن سواه من الذين يتعاطون النظم . ولا شك ان الانسجام بين الاختبارات النفسية والقوالب اللفظية من اهم ما يتطلب في الشعر بل وفي النثر ايضاً . وحرصاً عليه كان النقاد منذ القدم يشددون على مراعاة الاصول العروضية ومواقع القوافي وائتلاف الالفاظ والمعاني ، منددين بما يوجب القلق في العبارة – كالمعاظلة وعدم التآخي بين الالفاظ واستعمال الضرورات وهلهلة التركيب بالحشو والابتذال واضطراب العلاقات بين القيود والمقيّدات، وما الى ذلك مما اهتم له علماء المعاني والبيان . وكل ذلك عند التحقيق راجع الى المحافظة على موسيقى الكلام . على ان الموسيقى اللفظية ليست الا صدى لانفعال داخلي في النفس – لاختبار صادق يهز اوتارها فتترنم بما يولد في نفس السامع او القارىء نفس ذلك الاختبار ، وهكذا يشاركها في التمتع بالموسيقى العاطفية المنبعثة من اوتارها اللفظية .

ولايضاح ذلك نعرض بعض الامثلة للمقابلة بين الجيد وغير الجيد . فمن باب الغزل قول الاصفهاني [1] :

انت يا ذا الخال في الوجنة مما بيَ خالي
لا تبالي بي ولا تخطرني منك ببال
لا ولا تفكر في حالي وقد تعرف حالي
انا في الناس إمامي ْ وفي حبك غالي

قابل هذا الكلام بقول ابن الدمينة [2] :

---

١) راجع كتاب « صاحب الاغاني » ابو الفرج لمحمد احمد خلف الله ص ١٩٨ .
٢) الاغاني (بولاق) ١٥ – ١٥٦ .

وقد زعموا ان المحبّ اذا دنا يملّ وان النأي يشفي من الوجد
بكلٍ تداوينا فلم يشف ما بنا على ان قرب الدار خير من البعد
على ان قرب الدار ليس بنافع اذا كان من تهواه ليس بذي ود

فتشعر حالاً بفرق بينهما – ذلك لان الاول ليس فيه شيء من حرارة العاطفة والانفعال النفسي او تلك الموسيقى الروحية التي تجدها في الثاني ، فجاء فاتراً غير قادر ان يحرك اوتار نفوسنا . اما الثاني فقد حركها وحملنا معه الى جو من الحب الصادق الذي برغم ألمه يلذ النفوس ويطربها .

وفي شكوى الزمان . خذ قول نقولا الترك من روّاد القرن الماضي يصف عاماً توالت نحوسه (ديوانه ٢٤٧) :

شاخ الزمان وصار كهلًا عاجزاً هرماً وقد عدم القوى ثم البصر
وعمى فصادف عامنا هذا له سنداً وعكازاً متيناً يعتبر

وتأمل هذا النظم الضعيف والتصنع المبتذل ثم قابله بقول المتنبي :

اظمتنيَ الدنيا فلما جئتها مستسقياً مطرت عليّ مصائبا

او قوله :

رماني الدهر بالارزاء حتى فؤادي في غشاء من نبال
فصرت اذ اصابتني سهام تكسرت النصال على النصال

وفي الحياة القومية خذ وصف الزهاوي لهبوط العرب بعد رقيهم :

بعد ما ارتقى الادبُ قد ترقت العرب
انه لنهضتها وحده هو السبب
ثم بعد ان نهضوا برهة قد انقلبوا

وانظر كيف تتجلى لك ركاكة هذا النظم وابتذاله اذ تقابله بقول الزهاوي نفسه من قصيدة اخرى ، ومنها :

قد سافر الجهل إلا عن منازلنا — واغبر العلم إلا في بوادينا
ما جاءنا الشر إلا من تهاوننا — ما عمّنا الظلم إلا من تغاضينا
لا بد من فك ما قد شدّ من عقد — كفّ الاسار بأيدينا بأيدينا

ومثل ذلك يقال اذا قرأت قصيدة الرصافي «العادات قاهرات» والتي يقول فيها :

عادات كل امرىء تأبى عليه بأن — تكون حاجاته إلا كثيرات
لو لم تكن هذه العادات قاهرة — لما اسيغت بمجال بنت حانات
ولا رأيت سكارات يدخنها — قوم بوقت انفراد واجتماعات

فهي على ما ترى من سوء النظم اذا قابلتها بقول الشاعر نفسه في قصيدته « تجاه الريحاني » التي مطلعها :

ان العراق بعرضه وبطوله — وبرافديه وباسقات نخيله

او قصيدته في سقوط عبد الحميد « وقفة عند يلدز » ومطلعها :

لمن القصر لا يجيب سؤالي — آهلات ربوعه ام خوالي

اتضح لك ما يريده النقّاد بقولهم : ليست روعة الموسيقى اللفظية الا صدى لروعة الاختبار النفسي اي لموسيقى المعاني والعواطف .

وكما في الشعر كذلك في النثر تتفاوت موسيقى الكلام بالنسبة الى حرارة العاطفة وسمو المعاني . وهذه الموسيقى الداخلية التي بلغت اوجها في النثر القرآني هي التي حملت النقاد قديماً على القول بالاعجاز، وكانوا كلما حاولوا شرح خصائصه اما على اساس القواعد البلاغية، او بالموازنة بينه وبين اقوال البلغاء يعودون الى القول انه شيء انما يدرك بالذوق المثقف الذي ارهفته مطالعة الروائع الشعرية والنثرية وفهم دقائقها الخفية .

ولهذه الموسيقى شأن بيّن في الحكم على اساليب الكتّاب والموازنة بينها. على انه يجب ان تفهم على وجهها الصحيح لئلا تلتبس بالصناعة الكتابية التي شاعت

منذ القرن الرابع الهجري حتى عهد متأخر ، وكانت تقوم على السجع والطباق والجناس وفنون المجاز وسواها من انواع البيان والبديع . فهذه كانت تقصد الى القوالب اللفظية والتفنن في الصناعة البيانية . واما الموسيقى الحقيقيّة في الكلام فهي في الدرجة الاولى انسجام فكري واتزان معنوي ، وقد يكونان في النثر المرسل الحر كما يكونان في الكلام المتوازن او المسجع ، بل لعل مجالهما في النثر المرسل اوسع منه في سواه .

وهنا نقف قليلاً لننظر في المشكلة الاخيرة ، وهي موقف النقد الحديث من المحسنات البيانية .

النقد والمحسّنات البيانية :

لم يهتم الادب العربي بالوجهة الصناعية من الكلام الفني الا منذ مطلع القرن الرابع الهجري او قبل ذلك بقليل . ومنذ ذلك العهد اخذت موجة الصناعة تغشى الشعر والنثر ، وما زالت حتى اشتد طغيانها في القرنين الخامس والسادس وما تلاهما. ولما سقطت الخلافة العباسية في بغداد كانت الحياة العربية سياسياً قد قضي عليها . ومع ان ادبها ظل حياً الا انه كان آخذاً بالتدهور . وظل كذلك حتى اوائل القرن التاسع عشر . وفي اوائل هذا القرن كان طابعه العام كما رأينا قبلاً التقليد والابتذال — وهكذا نراه قبل النهضة الحديثة يجمع بين التصنع البديعي الذي ورثه عن أهل الصناعة السابقين ، والركاكة التي اصيب بها مع توالي السنين. واستطاعت النهضة منذ منتصف القرن الماضي ان ترفع الانشاء العربي عن درك الابتذال والركاكة . ولكنها تركته حتى فجر القرن العشرين مقيداً بقيود التقليد الصناعي . وعقب ذلك حركة التحرر من قيود التقليد فمال الانشاء الى البساطة واصبح النثر المرسل عماد الكتّاب واتسعت آفاق المعرفة لديهم فتطورت موضوعاتهم وتنوعت اساليبهم وانفسح مجال الفكر والخيال امامهم . وما حدث في النثر حدث في الشعر ايضاً . واذ كانت المحسّنات البيانية من خصائص العبارة التقليدية سرى في نفوس المتأدبين اعتقاد بأن هذه المحسّنات

بليّة على اللغة والادب وان افضل الشعر والنثر مـا خلا منها او ما لم يعتمد فيها الا القليل النـــادر . وهكذا اصبحت البساطة في التعبير مقياس النقد — وهو مقياس صحيح ما في ذلك شك . ولكن هل البساطة العاطلة من كل تحسين مرغوب فيها ؟ وهل هي ممكنة على الاطلاق ؟ واذا لم تكن ممكنة فالى اي حد يجوزها النقد الحديث ؟ . والجواب عن ذلك ان اللغة ولا سيا اللغة الشعرية لا تستغني عن التصوير البياني. كانت كذلك في عهد البداوة الجاهلية واستمرت في كل عهد حتى وقتنا الحاضر . وليس التصوير البياني من خصائص اللغة العربية بل عام تشترك فيه جميع اللغات ، لأنه قائم على اسس عقلية راهنة . واذا كان العلم لا يتطلب في اللفظة او العبارة غير معناها المحدود فان الادب يتطلب شيئاً وراء ذلك . ان اللفظة او العبارة الادبية تحوي فضلًا عن معناها اللغوي معاني اخرى هي ما نلمحه فيها من ألوان المشاعر والعواطف وما تجلوه لنا من شتى الصور او مـــا تومي اليه من بعيد المغازي والمرامي . وللوصول الى هذه المعـاني لا غنى للاديب عن استعمال التصوير البيانى من تشبيه وتمثيل واستعـارة وكناية ومجاز مرسل وغير ذلك . ففي هذا التصوير من تقوية المعـاني وتمكينها وجلاء محاسنها وانطلاق الفكر في غايتها ما لا نجده في العبارة الخالية منه . وذلك مـا يعنونه بقولهم مباني المعاني . والى هذه الخاصة البلاغية يقصد الجرجاني اذ يجعل احدى مزايا النمط العـــالي من الكلام الايماء الى المعاني البعيدة . خذ مثلًا قول ابي العتاهية في المهدي :

اتته الخلافـــة منقـــادة   اليـــه تجرّر اذيالهـــا
ولو رامهـــا احـد غـيره   لزلزلت الارض زلزالهـــا

وتأمّل في انقياد الخلافة كأنها عروس تزفّ اليه ، وانظر ما وراء ذلك من بهجة الناس بهذا الزفاف الميمون وما كانوا يشعرون به من محبةٍ لأميرهم. وانك لتشعر في قوله لزلزلت الارض زلزالهـــا من غيرتهم عليه وطاعتهم له واعترافهم بسيادته ما لا يستطيع الكلام المجرّد تصويره . فلا عجب ان يقول بشار عند سماعه هذه القصيدة : انظروا الى امير المؤمنين هل طار عن اعواده !

وخذ قول شوقي مخاطباً توتنخ آمون وقد تخيله داخلاً عصبة الامم بعد الحرب العالمية الاولى وكانت موصدة في وجه مصر :

أتعلمُ انهم صلفوا وتاهوا — وسدّوا الباب عنا موصدينا
ولو كنا نجرّ هناك سيفاً — وجدنا عندهم عطفاً ولينا

ففي هذين البيتين من الاشارات الى علاقة مصر السياسية يومئذ ببريطانيا وبحليفاتها. ثم بموقف الدول الضعيفة إزاء الدول القوية ما يمكن شرحه في مقال طويل . ولو تأملت قوله نجرّ هناك سيفاً لرأيت في هذه الكتابة من القوة ما لا يوجد في قولنا بدلها « ولو كنا أقوياء » . او لو كان لدينا سلاح .

وقابل قول بشارة الخوري في مرثاته لفيصل اذ يعبر عن حزن لبنان في الحفلة التأبينية التي أقيمت له في بغداد :

وسفحنا في دجلةٍ قلب لبنان — واجفانه الدوامي الهوائم

بقولنا دون الاستعانة بالمجاز : وبكى لبنان حزناً عليه وشعوراً مع العراق .

ولو أردنا المضي في التمثيل على ما للتصوير البياني من مقام في الأدب لنقلنا جميع ما كتبه البيانيون والنقاد في ذلك وهو شيء كثير جداً . على انه لا بد من القول ان هناك فرقاً بين التصوير الرائع الذي يندفع اليه الشاعر او الكاتب اندفاعاً طبيعياً ، وبين التصنع البياني الذي طُبع به عصر الانحطاط والتقليد . فالتصنع شيء والتصوير المعنوي الرائع القائم على بعد الخيال وسموّ المعنى شيء آخر .

وما يصدق على التصوير البياني يصدق على البديع اللفظي كالجناس ورد العجز على الصدر وتكرير اللفظ والموازنة وما الى ذلك من ضروب المحسّنات اللفظية فهي اذا جاءت طبيعية ووقعت في محلّها اللائق حسّنت الكلام وألبسته روعة . وقد اصاب ابرهيم انيس اذ قال في البديع اللفظي : « فهو ليس في الحقيقة إلا تفنّناً في طرق ترديد الاصوات في الكلام حتى يكون له نغم وموسيقى وحتى يسترعي الآذان بألفاظه كما يسترعي القلوب والعقول بمعانيه . ومهما اختلفت

اصنافه وتعدّدت طرقه يجمعهـــا أمر واحد وهو العنـاية بحسن الجرس ووقع الالفاظ في الاسماع . ويجيء هذا النوع في الشعر يزيد من موسيقاه وذلك لأن الاصوات التي تتكرر في حشو البيت مضافة الى ما يتكرر في القافية تجعل البيت أشبه بفاصلة موسيقية متعددة النغم مختلفة الالوان يستمتع بهـا من له دراية بهذا الفن[1] .

أما النثر فقد اتجه النقد فيه اولاً الى اصلاح ما جرى على الألسنة والاقلام من خطأ في الألفاظ والتراكيب. ومن روّاد هذه الحركة الشيخ ابرهيم اليازجي في ما ذكرنا له آنفاً من نقده للغة الجرائد (١٨٨٩) واغلاط المولدين(١٨٩٦). وقد جرى مجراه عدد ممن نشأوا بعده في شتى الامصار . ويؤخذ عليهم جميعـاً ما اخذه الخفاجي قديماً على « درّة الغوّاص » للحريري من التقيد الحرفي بظاهر النصوص ، والتسرّع الى رفض القيـاس والمجـــاز ، وعدم مراعاتهم لاختلاف المذاهب ، ولحاجة اللغة الى التوليد والتوسّع فجاء نقدهم في كثير من الاحيان مفرطـاً في التحرّج او بعيداً عن محجة المنطق اللغوي ، ممـا أدى الى نزاع بين النصوصيين المتحرجين وطلاب التوسّع والتوليد . وقد اعتمد هؤلاء (اي طلاب التوسع) على المبادىء التالية :

١) ان اللغة كائن حيّ يرتقي ويتطوّر مع الزمان فلا مهرب لنا من مجاراة ناموس التطور .

٢) ان المعاجم اللغوية ناقصة لا تستوعب كلّ الكلام الفصيح فهي لا تصلح ان تكون المقياس النهائي لما لم يذكر فيها او لما يُختلف في روايته.

٣) ان ابواب القياس والاشتقاق والنحت والمجاز كانت ولا تزال مفتوحة امام الكتّاب . وهي ممـــا لا يستغنى عنه في ترقية اساليب التفكير والتعبير .

---

١) راجع كتابه موسيقى الشعر ١٩٥٢ ص ٤٣ . والكتاب جميعه حري بمراجعة الباحث في هذا الموضوع .

٤) ان للألفاظ (المترادفات وسواها) دلائل معنوية لا يحصرها نصّ أو رواية وإنما يستعملها أهل الفطنة والذوق مع قرائنها المناسبة .

٥) ان تبنّي اللغة ما تراه لازماً لها من الاوضاع الدخيلة لا ينافي الفصاحة اذا كان جارياً حسب طبيعة اللغة .

على هذه المبادىء وامثالها اعتمد المجدّدون في دفاعهم عن انفسهم وعن محاولتهم السير باللغة الى الامام . وهم فئتان : فئة الادباء المتأثرين بالآداب الغربية . وطريقتهم عادة خطابية او ترسلية ، كمقال لأمين الريحاني موضوعه «روح اللغة»[1]. ومقال لأحمد زكي بين العامية والفصحى[2] . وقد يتسم دفاعهم بالتهكم اللاذع ، كقول جبران جبران من فصل له موضوعه « لكم لغتكم ولي لغتي»[3] : « لكم منها القواميس والمعجمات والمطوّلات ، ولي منها ما غربلته الاذن وحفظته الذاكرة من كلام مألوف مأنوس تتداوله ألسنة الناس في افراحهم واحزانهم . لكم من لغتكم البديع والبيان والمنطق ، ولي من لغتي نظرة في عين المغلوب ، ودمعة في جفن المشتاق ، وابتسامة على ثغر المؤمن ، واشارة في يد السموح الحكيم . لكم منها الفصيح دون الركيك ، والبليغ دون المبتذل ، ولي منها ما يتمتمه المستوحش وكلّه فصيح ، وما يغصّ به المتوجّع وكلّه بليغ ، وما يلثغ به المأخوذ وكلّه فصيح وبليغ . لكم منها القلائد الفضية ، ولي منها قطر الندى ، ورجع الصدى وتلاعب النسيم بأوراق الحور والصّفصاف . لكم منها الترصيع والتنميق وكل ما وراء هذه البهلوانيات من التلفيق ، ولي منها كلام اذا قيل رفع السامع الى ما وراء الكلام ، واذا كُتب بسط امام القارىء فسحات في الاثير لا يحدّها البيان».

وعلى هذا النسق مقال نقيق الضفادع لميخائيل نعيمة وغيره من فصول كتابه

١) راجعه في الهلال مج ٣٠ – ٤٣
٢) راجعه في الهلال مج ٥٢ – ٦١٥
٣) بلاغة القرن العشرين ص ٥١

الغربال . وكل هؤلاء الكتاب وطبقتهم هم من الادباء المجارين لناموس التطور العصري الداعين الى التقدم في ميدان الحضارة الحديثة .

ومثلهم في الدعوة الى التجديد فئة من رجال العلم واللغة . نجتزىء منهم بذكر خمسة من غير الاحياء ، وهم :

أحمد فارس الشدياق ـ أديب القرن التاسع عشر ، ومنشىء الجوائب

يعقوب صروف ـ منشىء المقتطف ، وشيخ الكتّاب العلميين في نهضتنا الحديثة .

جورجي زيدان ـ منشىء الهلال ، وصاحب المؤلفات التاريخية والادبية المشهورة .

جبر ضومط ـ المؤلف اللغوي ، أستاذ اللغة الاسبق في جامعة بيروت الاميركية .

عبد القادر المغربي ـ الاديب البحاثة ، وكان رئيس المجمع العلمي العربي في في الشام وعضو مجمع اللغة بمصر .

فالشدياق انصرف إلى نقد المعاجم العربية ولا سيا قاموس الفيروزابادي . وأهمّ ما له في ذلك كتابه «الجاسوس على القاموس». ففي هذا الكتاب يعرض لنا ما في كتب اللغة من مآخذ وأهمها :

١ ـ ما فيها عموماً من تشويش في ترتيب الألفاظ ومشتقاتها .
٢ ـ ما ينقصها من التمييز بين معنى الكلمة المستعمل ومعناها الاصلي .
٣ ـ تعريفهـا لفظة بلفظة من غير نظر الى حرف الجرّ الذي تتعدى به الواحدة دون الاخرى .
٤ ـ اهمالها كثيراً من صيغ الفعل وسواها من الالفاظ .
٥ ـ ذكرها لكثير من الافعال مع عدم ذكرها لأدوات تعدّيها .
٦ ـ خبطها في ايراد الاسماء المعرّبة .

٧ - تفسيرها احياناً اللفظ بمرادفه ثم تفسير المرادف به .

ويتناول بالنقد ما حشوا به معاجمهم من الفضول . ثم يلتفت لفتة خاصة الى الفيروزابادي فيمد اوهامه واخطاءه في ٢٤ نقداً يشرحها باسهاب في نحو ٤٢٩ صفحة كبيرة . ويذيلها بخاتمة هي استقراء مسهب لاستعمال صيغة افتعل متعدية ولازمة . والغرض منه ان يظهر اوهام اللغويين فيما زعموا من ان افتعل انما يأتي غالباً للمطاوعة - حتى ان الفيروزابادي جزم بأنه لا يأتي الا لازماً . وقد قاده هذا الاستقراء الى دحض ما زعموه . وعليه يرى مثلاً ان اهمالهم لذكر اقتطف بمعنى قطف ، واكتشف بمعنى كشف قصور وخطأ . وكذلك اهمال بعض المعاجم احتج بالشيء - ارتصد - اكتمل - امتلك - ارتبط - اقتنع بالشيء وغيرها . وهو يذهب الى جواز الاستشهاد بفصحاء المولدين ، والى اعتماد البحث الاستقرائي قبل ارسال الحكم العام .

وصروف يدعو الى الاقتصاد الذهني - اي الى جعل اللغة اقرب الى الافهام وادلّ على المعنى . وقد كان في كتابته يعمد الى اسهل الالفاظ على ان تكون تلك الالفاظ في عبارات متينة التركيب حسنة الوقع يفهمها جمهور القراء ، وتروق الاختصاصيين من العلماء والادباء . ولما كان اكثر كتاباته مما يدخل في باب العلوم الطبيعيّة والعمرانيّة فقد خدم اللغة العربية خدمة تذكر في ما نقله اليها من معلومات وما ادخله فيها من تعبيرات جديدة اقتضاها البحث العلمي . وكان لرصانة اسلوبه العلمي وبلاغته اثر بيّن في ترقية اللغة شهد له به كبار العلماء والادباء .

وكان **جورجي زيدان** قبل كل شيء مؤرخاً كبيراً . على انه كان ايضاً ذا نظرات حرّة في اللغة والادب . واكثر ما يظهر ذلك في كتابه « **تاريخ اللغة العربية** » حيث يتناول مفردات اللغة وتراكيبها وما طرأ عليها خلال العصور المختلفة من تطور موضحاً بحثه بكثير من الامثلة . وفي ختامه يقول: « يتبين للقارىء ان اللغة سارت سير الكائنات الحية بالدثور والتجدد المعبّر عنه

بالنمو الحيوي . فتولد في العصر الاسلامي ألفاظ وتراكيب لم تكن في العصر الجاهلي ، وتولد في العصور التالية مـا لم يكن من قبل ... واخيراً تولد في نهضتنا الاخيرة ما لم يكن معهوداً قبلها. فالوقوف في سبيل النمو مخالف لناموس الارتقاء ، فضلاً عن انه لا يجدي نفعاً .... فلا ينبغي احتقار كل لفظ لم ينطق به اهل البادية منذ بضعة عشر قرناً .... ولا بأس من استعمال الالفاظ المولدة التي لا يقوم مقامها لفظ جاهلي .... واذا عرض لنـا تعبير اجنبي لم تستعمل العرب ما يقوم مقامه فلا بأس من اقتباسه . »

وعلى هذا الوتر يضرب جبر ضومط . ومحور آرائه اللغوية اعتماد القيـاس والاشتقاق وتفصيح الاستعمال العام . ومن قوله [1] : « ان التقيّد بالالفاظ والتراكيب القديمة مخالف احياناً للبلاغة ولناموس الترقي . وليس الخروج عنه بمفسد للغة. بل ان بقاءنا على تحدي البلاغة الجاهلية وتوخّيها في كتاباتنا لا يجوز لنا ولا يكون بلاغة الا اذ كانت عقولنا ومدركاتنا ـ وبالتالي عاداتنا ومألوفاتنا الاجتماعية والحسيّة والادبية شبيهة تمام الشبه بمـا كانت عليه عقول الجاهلية ومدركاتها » . واللغة العربية عنده لا تمتاز بمفردات ورثناهـا من القدماء بل بامرين جوهريين هما الاشتقاق والقياس فهما عماد اللغة وعليهما يتوقف ارتقاؤهـا وانحطاطها . وبعد ان يسهب في شرحهما والتدليل على صحتهما يلتفت الى الذين يحاولون اقفال بابها في وجوه الكتّاب فيقول : « ومثل هؤلاء يتبجحون اذا قالوا مثلاً : ومـا زال يفتل في الذروة والغارب حتى اداره الى مـا يريد . ويصرخون بالويل والثبور إذا رأوا من يقول : وما زال يأخذه ويجيء به حتى اداره . ولماذا ذلك ؟ لأن جملة «يفتل في الذروة والغارب» وردت عن العرب ولم ترد جملة «يأخذه ويجيء به» مع انها من باب الكناية التي لا اوضح منها» .

اما عبد القادر المغربي فمما يذكر له اقتراحـاته على المجمع العلمي العربي بشأن الكلمات غير القاموسية واثارته هذه المسألة بصراحة وبطريقة مجدية. قال:

---

١) راجع المقتطف ٤٢ مقاله في اللغة العربية ما اعطت وما اخذت (ج ٢ و ٣) .

« لا يخفى ان الكلمات التي سميناها غير قاموسية تبقى وذيلة سيئة السمعة ما دامت لا تذكر في معاجمنا العربية ، وما دام كتّابنا المجيدون يأنفون من استعمالها . وكل ما اريده من افاضلنا ان لا ينظروا الى هذه الكلمات نظرة ازدراء، ولا يحرّموا استعمالها على السواء . بل اقترح ان يصنّفوها ثم يميزوا بين اصنافها » .

وهكذا يتقدّم الى تصنيف غير القاموسي من الكلام فيجعله سبعة اصناف وهي :

١ – كلمات عربيّة قحّة لم تذكرها المعاجم ووردت في كلام فصحاء العرب الذين يحتج بكلامهم – مثل : تبدّى بمعنى ظهر .

٢ – كلمات عربيّة قحّة وردت في كلام الفصحاء ممن لا يحتج بفصاحتهم – مثل : أقصّ بمعنى قصّ .

٣ – كلمات عربيّة ولدها المتأخرون ولم يعرفها الاولون – مثل : خابر ، تفرّج ، تنزّه .

٤ – مصطلحات فنيّة او ادارية عربيّة المادة ولم يعرفها قدماء العرب مثل: هيأة المحكمة ، تعرفة الرسوم .

٥ – كلمات اعجمية . وهي امـا ثقيلة مثل برسوناليته Personalité (اي الشخصية) او خفيفة مثل فِلم Film وبالون Ballon .

٦ – تراكيب تسربت الى لغتنا مترجمة عن اللغات الاجنبية مثل: ذرّ الرماد في العيون ، وضع المسألة على بساط البحث، لا جديد تحت الشمس .

٧ – العامي – مثل : تحركش وأمثالها مما هو من كلام العامة .

وهو يرى تجويز جميع هذه الاصناف مـا عدا العامي والثقيل من الكلمات الاعجمية .

ولا شك ان هذه خطوة واسعة في سبيل التجديد. والواقع ان ادباء العربية اليوم يمارسون ذلك عمليّـاً في منظومهم وفي منثورهم . وقد اصبحت مئـات

الكلمات المولدة ضمن معاجم الفصحاء وان لم تدخل المعجم العربي قانونياً . ومن أمثلتها مـا يلي :

احترام ، اعدام ، بارجة ، ترعّم ، تولّع به ، حذور ، التحوير ، المخابرات ، درّاجة ، سيـارة ، دعاية ، مصادرة ، صحـافة ، فنّان ، صوت في المجلس ، تقنين ، قنابل ، حكم عرفي ، محاضرة ، نصاب الجلسة ، الاكتشافات العلمية ، دوى الصوت ، إرعاب (تخويف) ، ساهم في الامر [1] .

وقس عليها كثيراً من الاوضاع التي شاعت واصبحت جزءاً من حيـــاتنـا الفكرية [2] .

---

١) ان صيغة « سام » للمشاركة اخذت مؤخراً تتراجع امـام صيغة أسهم ذلك لان سام قاموسياً تفسر بمعنى قارع مع ان القاموس نفسه كما ترى في البستان لعبدالله البستـاني مثلاً يستعمل المصدر مساهمة بمعنى المشاركة ويهمل سام . والمنطق اللغوي يميـــل الى استعمال سام للمشاركة لا اسهم . وقد اثبتها قاموس «الوسيط» على انها محدثة .

٢) ومن العلماء الاحياء الذين يعدون في طليعة النقـــاد اللغويين الدكتور مصطفى جواد في العراق فهو ذو نظرات قيمة وهو يميل الى البحث المنطقي والى التوسع المعقول (راجع محاضراته ١٩٥٤) .

اصول الترجمة والتعريب

يراد بالترجمة نقل الافكار من لغة الى لغة او هي تفسير الكلام بما يقابله في لسان آخر . ويراد بالتعريب أن يتفوّه العرب باللفظ الاعجمي على مناهجهم كقولك «بوتقة» و «مغناطيس» و «مهرجـان» و «يوبيل» و «طاولة» . ولا يكون ذلك عادة الا في المفردات .

ويقع بحثنا في منطقتين: منطقة الادب، ومنطقة العلوم. فالاولى تضم الشعر والخطبة والمقـالة والرسالة والمحاضرة الادبية ، او كل كلام نفيس يصلح ان تحفظه الاجيال لجماله او لتأثيره . .

ولما كان المنهاج الادبي النفيس يتناول جمال المؤثرات وتدوين اثرها او بكلمة اخرى تجسيم ذلك الجمال بالالفاظ ، وكان لكل لغة طريقتها الخاصة في ذلك ، فمن الطبيعي ان تكون الاولوية في منطقة الادب للترجمة . ويشترط فيها ان لا يتنطس المترجم الى درجة تذهب بروح الكلام الذي يحـاول نقله . كما يشترط فيها التنكب عن الابتذال او ما يشتم منه رطانة العجمة .

اما منطقة العلم وتشمل مـا يرام تحقيقه او تنظيمه من معلومات طبيعية او رياضية او فلكية او اجتماعية وسواهـا . وغاية البحث فيهـا التوصل الى الحقيقة ولذلك يتوخى في النقل الدقة والخلو من التعقيد والالباس . ويتنـاول احد

أمرين : المجرد (Abstract) والمحسوس (Concrete) . فان كان الاول ، كان لا مندوحة في الاغلب عن الترجمة لان المجرّدات او اسماء المعاني المقتبسة بألفاظها من لغة غريبة تأتي عادة نابية وغير مستساغة . فلا يستحسن تعريبها الا حيث يتعذر بالترجمة حفظ المعنى الاصلي ، او يتعذر استعمالها .

أما اذا كان المنقول من باب المحسوسات أو اسماء الذوات فان له احكاماً ومبادىء تلخص بما يلي :

١ – مـا له مرادف في العربية (اصيلاً كان ذلك المرادف او دخيلاً) فاستعمال مرادفه اولى من تعريبه – ككثير من الاوضاع النباتية والحيوانية والطبية والفلكية التي وضعها من سبقنا من علماء العرب .

٢ – كل ما يستطيع نقله الى اللغة ويسهل عليها هضمه وتمثيله بحيث يدل تماماً على ما يراد به فترجمته اولى، مثل: طائرة (Aeroplane) ، معهد موسيقي (Conservatoire) ، دبابات (Tanks) ، مجلس الشيوخ (Senate) ، سفير (Ambassador) ، مدمرة (Destroyer) ، الجهاز الافرازي (Excretory System)، وفد (Delegation) ، كتلة (Mass) ، ناطحات السحاب (Sky - Scrapers) ، وكثير سواها .

٣ – كل ما ألفت ترجمته من قديم وحديث وجرى في مجاري اللغة فيجب المحافظة عليه ما امكن لانه قد اصبح من مـادة اللغة ، ومن الخطأ استبداله بترجمة جديدة الا اذا كانت اوضح دلالة واسهل استعمالاً نحو : نواة (Nucleus) ، القواضم (Rodents) ، رشاش (Machine - gun) ، برمائي (Amphibian) ، ميزانية (Budget) الخ الخ .

٤ – كل ما ليس له صورة او مثال في العربية وكان في ترجمته تكلف ومشقة تضيع بها الحقيقة (وخصوصاً اذا كان من السهل ادخاله نصاب اللغة) فتعريبه اولى نحو : اكسوجين (Oxygen) ، راديو (Radio) ،

فيتامين (Vitamin) ، مناورة (Manoeuvre) ، بالون (Ballon) ، بورصة (Bourse) .

ويدخل في منطقة العلوم المعاملات التجارية والصناعية والزراعية وما الى ذلك من ضروب العلاقات بين الناس . وهذه يتوخى فيها السهولة والوضوح والبعد عن التأنق ، ولذلك يتسع فيها باب التعريب ما لم يكن نابياً عن منهاج اللغة .

وقد اجاز مجمع اللغة العربية التعريب عند الضرورة على طريقة العرب في تعريبهم . ويراد بقرار المجمع انه يجوز تعريب الالفاظ الفنية والعلمية التي يعجز عن ايجاد مقابل لها. لا الادبية ولا الالفاظ ذات المعاني العادية[1]. ويعلّق على هذا القرار الأستاذ مصطفى نظيف بقوله [2] :

«والتعريب قد اقرّه المجمع ولكنه اشترط فيه شرط الضرورة. وهو نظري شرط معطل لا منجز . فمن أيسر اليسير التشكيك في قيامه. اذ يكفي العثور على لفظ عربي يمس المعنى المقصود عن قرب او عن بعد ، بالواسطة او بالمباشرة، بتكلّف او من غير تكلّف ، بالحقيقة او بالمجاز — يكفي هذا للتدليل به على انتقاد الشرط وعدم جواز التعريب . لذلك ارى ان نكون عمليين فنستبدل بشرط الضرورة شرط الحداثة ، اي ان يكون المعنى الذي يجوز فيه تعريب اللفظ الاجنبي او ادخاله في اللغة من مستحدثات العلوم الحديثة ، او ان يكون المدلول من مكشوفاتها . وهو امر في مقدور المشتغلين بالعلوم ان يقطعوا فيه بحكم . ومن السهل ان يتحقق المجمع صدق الحكم فيه اذا تمّ استقراء المعاني الفلسفية والعلمية التي يتناولها الاسلاميون في كتبهم ومؤلفاتهم » .

ويفهم من ذلك ان يترك التعريب في منطقة العلوم للاختصاصيين فهم ادرى بما يعرّب وما يترجم . على انه لا بد من اسس عامة يبني عليها الاختصاصيون

١) مجلة المجمع مج ١ ص ٢٠٢ .
٢) مجلة مجمع اللغة العربية مج ٧ ص ٢٥٢ .

احكامهم . وهي التي لخصناها آنفاً ، وتوافق طريقة الدكتور يعقوب صروف الذي يعتبر امام المعرّبين العلميين [1] .

كلمة ختامية في النقد :

تناولنا في الفصلين السابقين النقد من وجهتيه الفنية واللغوية . على ان النقد الحديث لم يقف عند هذا الحد ، بل اتخذ ايضاً سبيلين آخرين . احدهما بحث الفنون النثرية – كالمقالة ، والخطبة ، والقصة ، والمسرحية ، والسيرة ، والنظر في اصولها واحكامها . وقد ظهر من ذلك في قرننا الحاضر عشرات من الكتب ومئات الفصول والمقالات .

والذي يبدو لنا ان معظم ما وضع من اصول واحكام مأخوذ او مستوحى مما كتبه نقاد الغرب . واننا نحيل الباحث الى قائمة المراجع ليشاهد بنفسه صحة ما نزعمه من هذا القبيل .

والسبيل الثاني هو دراسة تحليلية لمزايا الكتبة ولنتاج اقلامهم وهو الذي يطلق عليه عموماً اسم «النقد» . والذين خاضوا عبابه كثيرون ، ومنهم من قد يتطرف في كلامه الى جهة حتى لتعد من باب التقريظ ، ومنهم من يتطرف الى جهة اخرى فيتحول الى قدح وتهجين ، وكلاهما مستهجن . فالناقد الحقيقي هو الذي يقدّر الاشياء حق قدرها وينظر بعين الرؤية والانصاف الى حسناتها او سيئاتها ، فلا يرسل حكمه بغير دليل يقبله العقل السليم ، او شواهد لا يطالها الجدل العقيم .

ولنمثل على هذا النقد بأمثلة قليلة لبعض اعلامنا المعروفين – وهنا لا يسعنا الا ان نعود الى عميد الادب « طه حسين » فانه قد جرى شوطاً بعيداً في هذا

١) المقتطف ٧٤ – ٨ .

المضمار . ومن آثاره فيه : ذكرى أبي العلاء (١٩١٥) ، مع المتنبي (١٩٣٦) ، حديث الاربعاء، فصول في النقد والادب (١٩٤٥)، من حديث الشعر والنثر . مع ابي العلاء في سجنه (١٩٤٤) ، حافظ وشوقي ، خصام ونقد ، وسواها .

ومن اعلام النقد : — محمد مندور . ومما يذكر له : في الميزان الجديد (١٩٤٤) ، في الادب والنقد (١٩٥٩) ، المسرح النثري (١٩٦٠) النقد المنهجي عند العرب (١٩٤٨) ، مسرح توفيق الحكيم (١٩٦٠) ، ابرهيم المازني (١٩٥٤) ، مسرحيات عزيز اباظة (١٩٥٨) ، خليل مطران (١٩٥٤) ، مسرحيات شوقي (١٩٥٥) ، ولي الدين يكن (١٩٥٦) ، اسماعيل صبرى (١٩٥٩) .

ومنهم **اسماعيل ادهم** . وقد عرف بتحليله لشعر خليل مطران ، وادب توفيق الحكيم وغير ذلك .

ومنهم **مارون عبود** . وقد ترك لنا : على المحك (١٩٤٦) ، مجددون ومجترون (١٩٤٨) ، جدد وقدماء (١٩٥٤) ، نقدات عابر (١٩٥٩) ، في المختبر (١٩٥٢) ، صقر لبنان (١٩٥٠) ، امين الريحاني (١٩٥٣) عدا كثير من المقالات .

ومن المجلّين في هذا الفن — **عباس محمود العقاد** في كثير من فصوله ودراساته ، فضلاً عن مؤلفاته العديدة في باب السيرة . ومنها ما يختص بالتحليل الادبي كسيرة «ابن الرومي» و «ابي نواس» و «بشار» .

و**ميخائيل نعيمة** وهو ناقد ادبي واجتماعي ممتاز تشهد له مؤلفاته العديدة ومنها الغربال .

ويجري مجرى هؤلاء الاعلام عدد من الاساتذة الجامعيين وأهل البحث في شتى الاقطار العربية .

وفي الجيل الطالع نشء ادبي ذو نظرات قيّمة في النقد وسيتقدم هذا الفن بأقلامهم شوطاً بعيداً الى الامام .

ولو اردنا ان نتناول بالبحث جميع من له يد تذكر في هذا الفن ، لاحتجنا الى اكثر من مجلد كبير . وانما اكتفينا بمن تقدم ذكرهم لأن في ما كتبوه مرآة لحركة النقد في عصرنا الاخير .

وها نحن نختم هذا الكتاب تاركين المجال لمن يرغبون في التوسع والتفصيل، اذ ليس غرضنا الا ان نتابع مجرى التطور في نثرنا الحديث ، وان نشير الى بعض الاعلام ، الذين رافقوا هذا التطور وتركوا من آثارهم ما يذكرون به مدى الايام .

دراسات في القصة والمسرحية والسيرة

(على الترتيب الابجدي)

ابو نظارة – لابرهيم عبده ، القاهرة ١٩٥٣ .

الادب المعاصر في العراق – لداود سلوم ، بغداد ١٩٦٢ .

التراجم والسير – محمد عبد الغني حسن ، القاهرة ١٩٥٥ .

توفيق الحكيم – لاسماعيل ادهم وابرهيم ناجي ، القاهرة ١٩٤٥ .

« « لعبد الرحيم مصطفى .

التيارات الابية الحديثة في العراق – لجميل سعيد ، ١٩٥٨ .

ثلاثية محفوظ – للأب جاك جوميه ترجمة نظمي لوقا ١٩٥٨ .

حياتنا التمثيلية – لمحمد تيمور ، القاهرة ١٩٢٢ .

فن التمثيل في خلال قرن – ليوسف داغر بيروت ١٩٤٨ او المشرق مج٢٢و٤٣

فن السيرة – احسان عباس ، بيروت ١٩٥٦ .

الفن القصصي في الادب المصري الحديث – لمحمود حامد شوكت، مصر ١٩٥٦.

القصة في ادب العرب – لمحمود تيمور ، القاهرة ١٩٥٨ .

القصة في الادب العربي الحديث – لجعفر الخليلي ، بغداد ١٩٥٦ .

القصة في الادب العربي الحديث – لمحمد يوسف نجم ، مصر ١٩٥٦ .
القصة في سورية – لشاكر مصطفى ، ١٩٥٨
القصة في لبنان – لسهيل ادريس ، ١٩٥٧ .
القصة المصرية – ليحيى حقي .
مجلة المجمع العلمي العربي ، دمشق ع ك ٢ ، ١٩٦٣ .
محمود تيمور – لنزيه الحكيم ، مصر ١٩٤٤ .
المسرح – لمحمد مندور ، القاهرة ١٩٥٩ .
المسرح النثري – لمحمد مندور ، القاهرة ١٩٦٠ .
مسرح توفيق الحكيم – لمحمد مندور ، « « .
المسرحية في الادب العربي – لمحمد يوسف نجم ، مصر ١٩٥٦ .
من تاريخ القصة والمسرحية في الادب المغربي ، للحسن السائح .

دراسات في النقد الادبي

الادب وفنونه – عز الدين اسماعيل ، القاهرة ١٩٥٥
الاساليب الشعرية – ابرهيم العريض ، بيروت ١٩٥٠ .
الاسس الجمالية في النقد العربي – عز الدين اسماعيل ، القاهرة ١٩٥٥ .
الاسس الفنية للنقد الادبي – عبد الحميد يونس ، القاهرة ١٩٥٨ .
اسس النقد الادبي عند العرب – احمد احمد بدوي ، القاهرة ١٩٥٨ .
الشعر المعاصر على ضوء النقد الحديث – مصطفى السحرتي ، القاهرة ١٩٤٨ .
اصول النقد الادبي – احمد الشايب ، القاهرة ١٩٤٢ .
تاريخ القصة والنقد في الادب العربي – السباعي بيومي ، القاهرة ١٩٥٦ .
تاريخ النقد الادبي عند العرب – طه احمد ابرهيم ، القاهرة ١٩٣٧ .
تحت المبضع – محمد روحي فيصل (حمص) ١٩٤٩ .
تحت المجهر – ابرهيم عبده الخوري ، بيروت ١٩٣٩ .
جدد وقدماء – مارون عبود ، بيروت ١٩٥٤ .
حديث الاربعاء – طه حسين ، القاهرة ١٩٤٣ .
دفاع عن الادب – لجورج ديهاميل ، ترجمة محمد مندور ، القاهرة ١٩٤٢ .
على المحك – مارون عبود ، بيروت ١٩٤٦ .
على هامش الادب والنقد – علي ادهم (دار الفكر العربي) .
الغربال – ميخائيل نعيمة ، القاهرة ١٩٥٧ .

الفصول الاربعة ـ عمر فاخوري ، بيروت ١٩٤١ .
فصول في الادب والنقد ـ طه حسين ، القاهرة ١٩٤٥ .
فصول في النقد ـ محمد عبد المنعم خفاجي ، القاهرة ١٩٥٣ .
فصول في النقد عند العقاد ـ محمد خليفة التونسي .
في الادب والنقد ـ محمد مندور ، القاهرة ١٩٤٤ .
قواعد النقد الادبي ـ (اسل ابر كرمبي) ترجمة محمد عوض محمد، القاهرة ١٩٤٤ .
مجدّدون ومجترون ـ مارون عبود ، بيروت ١٩٤٦ .
محاضرات في النقد الادبي ـ سهير القلماوي ، القاهرة ١٩٥٥ .
محاولات في درس جبران ـ امين خالد ، بيروت ١٩٣٣ .
مع المتنبي ـ طه حسين ، القاهرة ١٩٣٦ .
مع القافلة ١٩٥٢ ـ حسين مرّوه .
مقدمة في دراسة النقد الادبي ـ انيس المقدسي ، بيروت ١٩٥٨ .
من حديث النثر والشعر ـ طه حسين ، القاهرة (دار المعارف) .
من الوجهة النفسية في دراسة الادب ـ محمد خلف الله ، القاهرة ١٩٤٧ .
الموازنة بين الشعراء ـ زكي مبارك ، القاهرة ١٩٣٦ .
الميزان الجديد ـ محمد مندور ، القاهرة ١٩٤٤ .
النقد الادبي ـ احمد امين ، القاهرة ١٩٥٧ .
النقد الادبي ، اصوله ومذاهبه ، سيد قطب ، القاهرة ١٩٥٤ .
النقد الادبي ـ وليم فان او كونور، ترجمة صلاح احمد ابرهيم، بيروت ١٩٦٠ .
النقد الاستاطيقي ـ روز غريّب ، بيروت ١٩٤٥ .
النقد التحليلي لكتاب «في الادب الجاهلي» ، محمد الغمراوي ، القاهرة ١٩٢٩ .
النقد الجمالي ـ روز غريّب ، بيروت ١٩٥٢ .
نقدات عابر ـ مارون عبود ، بيروت ١٩٥٩ .
النقد ومدارسه الحديثة ترجمة احسان عباس ومحمد يوسف نجم، بيروت ١٩٥٨ .
النقد المنهجي عند العرب ـ محمد مندور ، القاهرة ١٩٤٨ .

فهرس الاعلام

١ – الأشخاص والأماكن[١]

أ

---

١) ترك من هذا الفهرس عدد من الأسماء التي وردت عرضاً في الكتاب وليست من صلب الموضوع او مما يكون في ذكرها فائدة خاصة .

ح - خ

د - ذ

ط ـ ظ

ع ـ غ

ف

ن . ه . و

ي

٢ ـ الكتب (ك) والصحف (ص) والمطابع (ط) والمعاهد العلمية (مع) الوارد ذكرها في متن الكتاب [1]

١) يستثنى منها قوائم الدراسات والمراجع

ج

ح ـ خ

د ـ ر ـ ز

س - ش - ص

ع - غ